صفحات من تاريخ مصر ١/٤٨

الكافى

فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الأول

عن الفترة من
٤٠٥٠ ق. م إلى سنة ٦٤٠م
٥٦٢٦ ق. هـ إلى سنة ١٩ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة



هذه السلسلة تضم :

١ – فتح العرب لمصر
٢ – تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ – الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ – تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ – تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ – تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ – ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ – فتوح مصر وأخبارها
١١ – تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ – قوانين الدواوين
١٣ – تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ – الحكم المصري في الشام
١٥ – تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ – آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ – مذكراتي
١٨ – الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ – وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ – الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ – الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ – السلطان قلاوون (تاريخه – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)
٢٣ – صفوة العصر
٢٤ – المماليك في مصر
٢٥ – تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ – سلاطين بني عثمان
٢٧ – محمود فهمي النقراشي
٢٨ – دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ – مذكرات اللورد كيللرن
٣٠ – عادات المصريين
٣١ – خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ – خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ – تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ – تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ – دور القبائل العربية في صعيد مصر
٣٦ – علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
٣٧ – عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
٣٨ – مصر في العصر العثماني في القرن ١٦
٣٩ – خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ – صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ – صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ – سلار الأمير التتري المسلم
٤٣ – مالية مصر
٤٤ – الموسيقى الشرقية
٤٥ – الدليل في موارد أعالي النيل
٤٦ – الموسيقى الشرقي
٤٧ـ النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٠٠
٤٨ـ الكافي في تاريخ مصر– ٤ أجزاء

مكتبة مدبولى

MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

الكافى

فى تاريخ مصر القديم

من سنة 4050 ق. م. إلى سنة 640م

5626 ق. هـ إلى سنة 19 هـ

الكتاب: الكافي
الكاتب: ميخائيل شاروبيم بك
الناشر: مكتبة مدبولي
ت: ٥٧٥٦٤٢١
الطبعة:
الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ
الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ
رقم الإيداع:
مراجعة لغوية: عبد النبي محمد

(١/٤٨) صفحات من تاريخ مصر

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الأول

عن الفترة من
٤٠٥٠ ق. م إلى سنة ٦٤٠م
٥٦٢٦ ق. هـ إلى سنة ١٩ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة

المحتويات

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بحمدك اللهم تستفتح المطالب، وتستمنح الرغائب، وبشكرك تستزاد النعم، وتستذاد النقم، تفرّدت سبحانك بالعزة والجبروت، وتوحدت بالملك والملكوت، وتنزهت فى التدبير عن الشريك والمعين، وتقدّست فى التقدير عن الحدس والتخمين، فصرّفت خلقك بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وإبرام ونقض، وإماتة وإحياء، وإيجاد وإفناء، وهداية وإضلال، وإعزاز وإذلال، أنزلت الكتب السماوية مخبرة بأخبار الأخيار، مسفرة عن محاسن أخيار الأخبار، فكانت لقوم تذكره، ولآخرين تبصره، يدرك بها المتأخرون ما للأوائل، ويكونون معهم على حدّ قول القائل:

من فاته نظر الديار بعينه — فعليه أن يصغى إلى الأخبار
ليشاهد الآثار ممن قد مضى — والمرء ليس له سوى الآثار

ونسألك اللهم أن تصلى وتسلم على أنبيائك الذين ضربوا لنا الأمثال، بوقائع الأمم والأجيال، وسردوا أخبار الأولين، تبصرة وذكرى للمتأخرين، وعلى آلهم وأصحابهم، الذين نسجوا على منوالهم، فجاءوا بأصدق الروايات، وأمروا باجتناب الأنباء الكاذبة ونبذ الخرافات، ونهوا عن الأخذ بما تولع به الإخباريون والقُصّاص من الأباطيل والترهات.

(وبعد) فيقول الفقير إلى مولاه الكريم ، ميخائيل بن شارويبم بن ميخائيل بن شارويبم، لما كان بين تاريخى مصر القديم والحديث نسب مجهول، وسبب فى الظاهر مقطوع غير موصول، حيث مضت على أولهما أجيال وأحقاب، وأعين الكتاب تنظر إليه من وراء حجاب، كانت الحاجة داعية لأن ينتظما فى عقد نضيد، ويجتمعا بعد شتات الشمل فى بيت القصيد، ولا يكون ذلك إلا بالإسهاب

والتطويل، ولا يستغنى فيه قط بالإجمال عن التفصيل، إذ كم تولّى مصر من دولة، وكم حكمهـا من سلطان ذى بأس وصولة، وكم من ممالك هى كـذلك أخضعتـها، وأمم ساستها، وعهود أبرمتها، ومدائن أحدثتها، وهياكل ومساجد شادتها وكل ذلك كما لا يخـفى يستلزم بياناً ويستـتبع النص عليه عصـراً فعصراً وزمانـاً فزماناً، على توالى الأيام، وتتـابع الفراعنة والبطالسـة والقيـاصرة والملوك والسـلاطين والحكام، وبالنظر إلى ما وقع لـكل منهم من يوم أنشئت مصـر، إلى عهدها الأخـير من هذا العصر، ففكرت كـثيراً فى الحصول على هذا الغرض المهـم، والوصول إلى المقصود فى هذا الطريق المدلهم.

لعـلي أن أنال بـهـــا مــــرادي	وأحظـى بالمنى بـين البـــريـة
فـانـظر من خـلال سطـور قـوم	مـآثرهم فـأكـتـسب القـضـيـة
ويحكـم لي بأني مـــســتـحق	حـقــوقــاً لي دلائلهــا قــوية

غير إنى كنت أرى أن السابقين إلى طلبها كانوا أطول باعا، بل أوفر علماً وأكثر بحثاً واطلاعاً، وأولى بصناعة الكتابة، وأحق بسمة البراعة والنجابة، وهم لم يفوزوا بالمنال، مع ما سهروه فى تحصيل ذلك من الليالى الطوال

وكل يـدّعى وصـــــلا بـليـلي	وليـلى لا تقـــرّ لـهم بذاكــــاً

وكان من أتى منهـم بشيء جديد، بعد عناء وجـهد جهـيد، فـإنما أتى برسائل مجـملة، أو فصـول غير مـفصلة، لا تشـفى لمحبى التاريخ غليـلاً، ولا تغنى عن الرجوع إلى الكثير من المعلقـات التاريخية فتيلاً، ومنهم من تعرض لتـاريخها جملة واكتفى بالإجـمال، وأعرض عن التفصيل فـى مقام البيان الذى هو مقـتضى الحال، فلما سـار بى الفكر يتردّد فى فيافى الأمـل، ويستطلع ماعسـاه أن يكون من وسائل العمل، كـدت أن أنبذ هذا الأمر ظهـريا، وأطرحه عنى قصـياً، وأجعله منى نسـياً منسيـاً، فلا أكون مـتعسـفاً جهالات، ولا خـابط عشوات سـيما وقـد كان لى من المناصب الديوانيـة فى خـدمة وطنى شـاغل يحـدو بى حدو الـزاجر المقـيم ويذرى سـويعات نهـارى إذراء الريح الهشـيم، مع مـا يضاف إلى ذلك من قلة البـضاعـة ووجوب الوقوف عند حدّ عدم الاستطاعة، فقيض الله لى من جعل يقول، ياهذا لا يقعدك الخمول، ولا يبعدك عن بلوغ هذه الأمنية ونيل الأمل، ما أراك فيه من التردد والوجل، بل سر فمن سار على الدرب وصل، ومن يعرف المطلوب يستزر ما بذل،

ولله در من قال :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ... ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل

ومن لم يذلّ النفس في طلب العلا ... قليلاً يعش دهراً طويلاً أخا ذلّ

وقال :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

واعلم أنه لا يترك منار فى مغار، ولا تدرك أوطار إلا بركوب الأخطار، ومالك لا تجدّ حتى تعتصر مأربك، وتنتصر فى هذه الآونة الصالحة مطلبك، والله تعالى يحل عقدة من لسانك، ويجرى فى ميدان البراعة يراع بنانك، فقلت يارعاك الله إنى أسير وساوس كثير ظنون وهواجس، وهذا لا يخفاك من عوائق النجاح، وموانع الفوز والفلاح والعاقل من لا يأتى أمراً حتى يخبر مشروعه، ولا يقدم على عمل حتى يدرك بمرآة التبصر موضوعه، وهذا الذى تشير علىّ بطلابه، وتستفزنى إلى الإقدام على طرق بابه، لهو غاية مرامى، ولكنه وايم الله من أبعد المرامى، لأن من يعدّ نفسه فى عداد المؤرخين ويدّعى أنه من الرواة والمحدثين، يجب عليه أن يطابق بين الواقع وواقع الأمر، ولا يحول عن الحقائق ولو تقلب على الجمر، ومن لى بالعصمة عن الغواية، وإصابة الحقيقة فى الرواية والتاريخ كما تعلم صحيفة الزمان، وصورة من الماضى تمثلها أقلام الكتاب بأتم حجة وأقوى برهان، وفى المثل من ألف فقد استهدف.

وهذا هو الداعي لتأخير بغيتي ... ومنع يراعي من قراع الكتائب

فأنت ترى لي العذر ياخير ناصح ... لئلا أرى في الناس مضغة عائب

وحفظي عرضي واجب ومحتم ... وتنزيهه عن ترّهات المثالب

فقال : بلى ولكن لا يجمل بخاطب المعالى، أن يتهيب سهر الليالى، ولله در القائل :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ... ولا تكون له في الأرض آثار

وما زال بى حتى سرّى عن سرّى، واشتدّ بالعزم أزرى، وتحققت أن الكدّ أحسن معين على تحصيل الأمل، والجدّ أيمن قرين لتيسير العمل، فنشطت من عقال، وقلت على الله سبحانه الاتكال، وأجريت القلم فى حلبة البراعة، وأخرجت

نفسى من أرض الخمول إلى روضة اليراعة، وأطلقتها من عقال الفهاهة واللكنة، إلى أعمال الفكرة والفطنة، ولكن بين تقديم وتأخير، وصفاء وتكدير، حتى تصرم أجل تلك الخدمة وقدّر الله بانفصام عروة تلك الحزمة، فاعتزلت منصبى راضياً عما كان، شاكراً تصاريف الزمان، لما سكنت بعزلتى نفثات بعض الصدور، وتم نفوذ ذلك القدر المقدور، رحلت عن الكنانة إلى مسقط رأس الوالدين، وقد كنت لم أره منذ نشأتى إلى ذلك الحين وأنخت به مطية الرضا والتسليم، وسجدت لله شكراً على ما أولاه من فضله العميم، ثم ما لبثت أن اتخذت القرطاس سميرى، والجدّ معينى على الكدّ ونصيرى، ومضيت فى الذى نهجه لى الأمل، قمت ناشطاً بماعصبه بى العمل، فسهل الله ما كنت ألاقيه قبل من المتاعب، وزال عنى بمنه وكرمه ما كان ملازماً لعملى من المصاعب.

وما زلت حتى ظفرت بالذى كنت أتمناه، وأتيت بمايحبه محب التاريخ ويرضاه، فجاء كتابى بحمد الله خير كتّاب، وعمدة ما صنف فى هذا الباب، حقيقا بما قال فيه القائل

كتاب إن نظرت إليه تلقى	يتيم الدرّ في لبات حور
ترى الروض الندىّ به نضيراً	وباسم زهره بين السطور
ترى الخود الحسان مخدّرات	تبدّى حسنها خلف الستور

وها هو بين أيديكم اليوم يتلو عليكم عبراً من آثار الماضين، وسيرا من أخبار آبائكم الأولين، فاحفظوا منها حكماً ظواهر، واتخذوا لكم من أحاديث أيامهم مواعظ وزواجر فقد طالما كانت البلاد غرضاً لكل نابل، وأكلة لكل آكل، وفريسة لكل صائل، حتى اختلط فيها الحابل بالنابل، وهذا كله من عبث الغرباء وإفسادهم، وتطاول أطماعهم إلى معالى الحكم وعنادهم، وما برحت هذه السطوة الأجنبية تزرع الروع فى القلوب، وتثير القطوب والخطوب والكروب، حتى لم تبق من آثار المجد الأثيل إلا بقايا جدران، ولم تترك من معالم الفخر الذى لم يكن له مثيل إلا رسوم مدنية وعمران، وقد ذلت هاتيك السلطة وذهبت تلك الهيبة، وتفرّق شمل الهيئة باستفحال داء هاته العلة، وانصرف هذا العنصر الطيب بتوالى الأيام، وكرور الشهور والأعوام، عن وجهته بعض الانصراف وأصبح منكباً عن منهاجه فاقداً كثيراً من مزاياه بحكم ذلك الجور والاعتساف، غير أنه لم تزل فيه بقايا هى السائدة على

أهليه، الحافظة لما بقى من رفيع شرفه ومجد ذويه، ينبيك عنها ما تراه من الهدوء وثبات الجنان، والدعة واللطف والحنان، وخفض الجناح للقريب، وتوطين النزيل والغريب، فكأن الذى قضى على بقايا تلك الآثار القديمة بالبقاء، لتكون مرشداً وهادياً لسائر الأمم فى تمدنهم الحديث إلى سلم الارتقاء، هو الذى حفظ فيهم هذه الباقيات الصالحات لتكون عنواناً على هاتيك الشمائل، وبرهاناً على تفردهم بأحاسن هذه المحاسن والفضائل.

وقد بدأته بنوح أبى البشر الثانى عليه السلام، ثم حام ومن جاء من ولد حام، ثم من قام بعدهم من الفراعنة والبطالسة والقياصرة والسلاطين والحكام، ثم ذكرت قسماً كبيراً من تاريخ جاهلية العرب، وتدرّجت إلى ذكر تاريخ صاحب الشريعة الإسلامية (صلعم) وكيف ساد وغلب، وقد تتبعت سنى الخلافة سنة بعد سنة، على أسلوب مفيد وخطة مستحسنة، إلى انقراض الخلافة العباسية، سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية، ثم أتيت على ذكر من قام بالأمر بعدها من ملوك آل عثمان، وهو السلطان سليم ابن السلطان الغازى بايزيدخان، ولكنى استطردت فأتيت على سائر من سبق من السلاطين توفية للمقام وبياناً لمن شاء الاستقراء من الباحثين، وذكرت فى سنى ملكهم أخبار من تولى من الولاة والعمال، وسيرة من أحسن منهم ومن أساء فى الأعمال، وأضفت إلى أخبار من ملك من القياصرة والخلفاء والملوك والسلاطين، عدد من تولى البطريكية من المتأصلين والملكيين، وذكرت طرفا من الانشقاقات الدينية، والمناظرات الحزبية، والكوارث التى ترتب عليها تفرّق كلمة الدين، والفتن التى قامت بين الأحزاب فانجزم بها حبل اليقين .

ثم إنى اعتمدت فى تأليفى هذا على بعض الكتب الشهيرة الأجنبية، وكثير من كتب التاريخ القديمة والحديثة العربية، وأفرغته فى قالب لا يشوبه خلل، ولا يعترى القارئ منه إن شاء الله أدنى ملل، وجزأته إلى أربعة أجزاء الأوّل منها ينتهى إلى سنة تسع عشرة هجرية، أعنى قبل أن تحتل البلاد الجيوش الإسلامية، وبعد تقلص ظل ملك الدولة الرومانية، وابتدأت الجزء الثانى منه بتاريخ العرب الجاهلية، وانتهيت منه إلى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هلالية، وهى السنة التى دخل فيها السلطان سليم البلاد بجيوشه التركية، والجزء الثالث يبتدأ بتاريخ ملوك آل عثمان، وينتهى إلى سنة عشرين ومائتين وألف وهى سنة الامتنان، التى علا فيها شرف نجم الأمير الشهير،

الحاج محمد على باشا الكبير، والجزء الرابع منه ابتداؤه تاريخه رحمه الله وانتهاؤه إلى سنة ثمان وثلاثمائة وألف على التحقيق، وهى السنة التى انتقل فيها إلى رحمة مولاه الخديوى محمد باشا توفيق وقد ارتقت بعده الأريكة المصرية بجناب شبله الأعظم، ذى المجد الأثيل الداورئ الأفخم، مالك أزمة المعالى، وطود مجدها الشامخ العالى، مولانا الخديوى الأكرم (عباس حلمى باشا الثانى) بلغه الله من كل ما يحبه غاية الأمانى، وإنما وقفت عند هذا الحد ليكون عصره مبدأ تاريخ جديد، وأول زمن طالعه سعيد، وسأفرد لعصره الزاهر كتاباً زاهراً، وأخصص له فيما بعد تاريخاً باهراً، ليكون مفرداً بمقال، كما تفرّد صاحبه حرسه الله بمحاسن الخلال.

وقد سميت كتابى هذا [الكافى] فى تاريخ مصر القديم والحديث وإنى أحمد الله على ما وفق له عبده، فبلغ بمنه وجوده منيته وقصده، وأسأله سبحانه بنعمته حفظاً من الخطل وبمعونته إخلاصاً فى العمل، وبقدرته بعداً عن الزلل، فهو خير مسئول، وأكرم مرجوّ ومأمول.

□□□

(تنبيه)

سئل أحد العلماء عن التاريخ فقال: هو المعاد المعنوى لأنه يعيد الإعصار التى سلفت ويبعث أهلها من القبور، كأنهم فى عالم الظهور، بعد أن يكونوا قد تلاشت أخبارهم وعفت آثارهم، قال والتاريخ حافظ للأنساب، ضابط للأحساب، لولاه لخفيت أخبار الأول، وعفت آثار الممالك والدول، ولم تعرف حقوق ولا حفظت عهود، ولا برز ما فى عالم الغيب إلى عالم الشهود . اهـ.

قلت: والتاريخ خطيب قائم يقرر الحوادث الماضية على تعدّد أنواعها، ويتلو عجائب الوقائع الغابرة على تباين أوضاعها، فإن كان ما دوّنه على أسلوب بسيط مفيد، خال من الحشو والتعقيد إنساق السامعون إلى حفظ عباراته، وفهم إشاراته، وإن كانت عباراته وحشية المبانى معقدة، لم ينل سامعها منها المأمول، ويعسر عليه فى سلوك طريقها إلى مقصود الوصول، وليس من تمام الفائدة فى شىء أن يكتب صاحب التاريخ ما يعتنى بجمعه من الحوادث والأخبار مقفى منسقاً منسوجاً على

منوال مقامات البديع أو رسائل الصابى، أو يجعله كله رموزاً لا يتسنى لكل إنسان أن يفكها فإن هذا كله ممتنع فى مذهب أهل التاريخ وشرعة أصحاب الانتقاد، هذا تاريخ العلامة عماد الدين أبى عبد الله محمد بن محمد الأصفهانى المسمى بالفتح القسى فى الفتح القدسى قد حوى من ضروب البلاغة وكمال المحافظة على النفائس اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها مع تزيين الكلام وتحسينه بالتنميق والسجع والتنسيق والترصيع والتورية والجناس وغير ذلك ما لا يقدر عليه إلا القليل من الكتاب وأهل الإنشاء، ولكنه ليس من السهل المتيسر لسائر مطالعى التاريخ إدراك ما فى عباراته من تلك المعانى العالية والاستعارات البعيدة فيلزم على كل من شاء قصداً من قصوده أن لا يقرأه إلا وبين يديه معجم اللغة يقلب صفحاته عند كل سجعة فينصدع لذلك فكره، لعمر الله أن فى ذلك لمنتهى الجور وغاية التثقيل على محبى التاريخ بل ربما كان داعياً إلى إذهاب ولوعهم به، ومثل ذلك تاريخ الإمام محمد بن عبد الجبار المدعو بأبى النصر العتبى المؤلف فى وقائع السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين فإنه مع صغر حجمه ووقوف تدوينه عند انتهاء سنى ملك ابن سبكتكين المذكور قد تضمن من حسن التنسيق وإشباع الكلام من رقائق لغة العرب ما قام بشرحه الإمام أحمد بن على بن عمر المنينى فى مجلدين ضخمين لا ينقصان عن نيف وثمانمائة صحيفة وكلها شواهد على ما فيه من حُسن صناعة الإنشاء وعلى أن صاحبه من أكابر البلغاء متمكنة فيه ملكة تلك الصناعة التى قد استلزمت ذلك الشرح الطويل الذى لولاه لاستعصى على الكثير فهم مقاصده ومناحيه.

وكأن طالب التاريخ لا ينال منه شيئاً إلا إذا كان متمكناً من فنون اللغة العربية كما أشرنا إلى ذلك وهذا على ما أظن ضرب من العسف، نعم لا يسوغ التوسع فى القول حتى يقال إنه ينبغى أن يكون التأليف باللغة العامية لا سيما تدوين الأخبار التاريخية بدلاً عن اللغة الصحيحة الفصحى وذلك لأن لغة هذا المصر العامية مفعمة بالحشو الأعجمى الذى لا يمكن معه التحرير ولا يصح معه التأليف مع أن الألسنة قد انطبعت عليها أعنى على هاته اللغة الجافية واستوى فى التخاطب بها العالم والجاهل حتى فى مجامع الإفادة والاستفادة والتعليم والتعلم وعمّ ضررها بحيث إذا سمعك عالم أيا كان عمله تنطق ببعض كليمات فى التخاطب صحيحة غير عامية امتعض ورماك بالتكلف ووسمك بالتعسف وربما خاطبك بهدر الكلام بأن يقول لك ياسبحان الله كأنك وسيبويه رأسان فى قلنسوة فإن حاججته تأفف ولم ينصفك وبالغ

فى مناقضة قولك ونازعك حقك الذى بيدك آمنا غير خائف لعلمه أن الناس طراً تقوم لنصرته ويمثّل ذلك أنى كنت أخاطب رجلاً يوماً فى أمر يعنيه وفى الذى صح فى يدى منه فطال بيننا الأخذ والرد حتى غلبت حجتى حجته وكدت أزهق ما يدعيه فقال إنى أقول لك الحق إنى رجل لا أحب التشدق بعبارات النحاة واستعارات أهل البيان فقلت وما الذى أنكرته من ذلك فقال إنك تنطق بألفاظ ضخمة معظمة وهذه خطة مذمومة فى عرف التخاطب العام وماذا عليك لو نطقت بها كما ينطق بها كتابنا وأصحاب الذوق السليم منا وكأنى بك لم تسمع قول القائل:

وللناس عادات وهم يألفونها لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يوافقهم على العرف بينهم فذاك ثقيل عندهم وبغيض

فقلت : يا هذا ليس فى الشرّ أسوة ولا فى اتباع الخطأ قدوة فإن كان هذا كله مبلغ إنكارك ومنتهى انتقادك فيالخيبة الرجاء وأين ما كنت تدعيه الآن من الإحاطة بكل شىء ثم كيف تدعونى إلى غير الهدى الذى أنت مقيم عليه ولغتك التى عمت فأطفأت نور اللغة الصحيحة بما أدخلته عليها من الفساد والتحريف قد كانت ولن تزال علة انحطاط الأمة وحرمان السواد الأعظم وأعنى بهم العامة من فوائد العلوم والآداب والاشتراك فى جنى ثمار الحضارة والمدنية فأمسوا وهم لا يحسبون فى عداد الهيئة الاجتماعية والجامعة القومية إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ لا حركة عندهم مرتبة ولا قصد صحيح ولا تفريق بين ما يضرهم وما ينفعهم، ولعمر الحق إنك ياهذا قد أخطأت من حيث أخطأت وتهافت على غير مساغ للقول فإنك إن أنكرت أنت فالناس طراً لا ينكرون أن اللغة كاملة غنية فى ذاتها عن حشو ودخيل وكما أن فيها من التدوينات العالية العربية المجملة بالمحسنات البديعية ورقائق الألفاظ ما لايكاد يدخل تحت الحصر فكذلك فيها الاصطلاحات السهلة البسيطة الجامعة بين صحيح اللغة وصحيح عرف التخاطب العامّ وعندى أن النوع الثانى أهم وفائدته أكمل وأعمّ إذ يستوى فى فهمه العلماء ومن دونهم من سائر طبقات الناس ولذلك نسقت كتابى هذا الكافى على هذا النسق ليعم إن شاء الله تعالى نفعه وتجزل فائدته غير ناظر إلى ما يقوله العائبون العاتبون ولا حافل بما سيرمونني به إذ ليس فى أيديهم من الحجة ما ليس فى يدى، هذه مقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون المغربى قد حوت من العربية الخالصة فضلاً عن صحة الانتقاد وقوة الحجة وفصاحة التعبير ما عم بشهرته مشرق الأرض ومغربها حتى روى عنه الرواة ونقل الكتاب وترجم المترجمون واحتجوا بحجته وأخذوا بقوله ومع كل ذلك فقد عاب بعض ما فيها

بعض أهل الانتقاد من المتقدمين والمتأخرين وسفهوا رأى صاحبها ونازعوه حقه الذى بيده.

ومن ذلك ما سمعته من بعض الناس قال لى يوما: إنى غير كاتم عنك ما أنا معتقده ولا وجل من أن أقوله لك إنى أرى تاريخ ابن خلدون خلواً من البلاغة والفصاحة التى جمعتها فصول مقدمته ولا أظننى مخطئاً إذا قلت إن كانت هذه المقدمة لذلك المغربى كان ما فى الكتاب لغيره وإن كان ما فى الكتاب من عندياته كانت فصاحة المقدمة وطلاوة عباراتها من عنديات غيره فقلت يا رعاك الله أما المقدمة فإنى أرى أنها وضعت لقوم، وأما الكتاب فلآخرين وذلك أن هذا الفاضل رحمه الله قد التزم فى تنسيق مقدمة كتابه التى هى عنوان فضله ودليل عالميته واحاطته بكل فنّ ما يجمل بكل باحث فى فضل عالم التاريخ وفى حقيقة النبوة والكهانة وفى اختلاط الأنساب كيف يقع وفى أخلاق البشر وتأثير العناصر وغير ذلك من ضروب الفلسفة التى قصد من تنسيقها على هذا النحو من البلاغة وحسن الترصيف عرضها على ذوى المكانة العالية إظهاراً لفضله ومبلغ قدرته على التأليف والاستنباط الذى لم يسبقه إليه أحد من المشارقة والمغاربة ولذلك نراه قد كتب بقدر علمه والذى صح فى يده منه وما قامت به الحجة عنده آمناً مطمئناً غير مقصر ولا كاتم لما فى نفسه فجاءت عبارته غاية فى الطلاوة وحسن السبك حتى عدّت من المصنفات الفريدة فى بابها، وأما الكتاب فقد استعمل فيه السهولة فى التعبير ليطلع عليه العلماء ومن دونهم ابتغاء التعميم والمشاركة فى فوائده العملية وهذه أصلح الله حالك خطة محمودة لا يهتدى إليها إلا من كشف العلم عن بصيرته وبصره وهداه إلى سواء السبيل.

ويالله كأن سرعة الانتقاد عند المتقدمين والمتأخرين واحدة والأمر بينهما فيها مشاع غير مقسوم إلا أنها عند المتقدمين خير منها عند المتأخرين لأنك إذا ناظرتهم ناظروك طلباً للحق وأسقطوا بينك وبينهم اللجاج والمراء والمكابرة وأوسعوك تلطفاً بأن تقوم بحجتك غير مؤاخذيك فى شىء ولا متعنتين عليك فى شىء والانتقاد إذا كان القصد به الإفادة والاستفادة وتحقيق الحق والإتيان على ما صح من أصول الشىء المنتقد وفروعه كانت نتيجته حسنه، وفائدته عامة مستحسنه، وحمد الناس أمر صاحبه ومدحوه، أما إذا كان القصد به المهاترة والمكابرة على غير حق كان مثل صاحبه كمثل الفراشة التى إذا رأت نور السراج فرحت به ورقصت حوله ثم لا تلبث أن تحترق وتموت.

وأما التعييب: فخطة مذمومة ولطخة فى وجه الأدب لاسيما إذا كان المراد منه التشنيع والتقريع فإنه بدون المناظرة الحقة التى هى مجال للاستفادة ومحط للإفادة ممتنع وكان صاحبه مدفوعاً إليه بعامل الغيرة ودافع الحسد وكان إذا تلطفت معه فى القول وحاججته حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة بشىء من المكابرة وهذر الكلام فتحتاج أن تقبض لسانك ولا تبسطه له ببيان حجتك لأنك لا تقدر على تقويم الظل مع اعوجاج العود، وكانّ التعييب ملكة إذا رسخت واستحكمت فى النفس لا يجيد صاحبها المناظرة الصحيحة.

قال أصحاب الكلام: لأن الملكات صفات للنفس فلا تتزاحم دفعة ولا تلتقى فى واد واحد إلا فى القليل النادر من الأحوال، والعائب إذا شب على هذا الخلق غلب على طبعه التنطع فى القول والتشدق والمماحكة وهى من أعراض هذا الخلق فلا يبقى من ورائها إلا ذهاب المروءة والنقص فى النظر القلبى والإدراك؛ فيرى حينئذ السليم معيباً والصحيح سقيماً والمستقيم معوجاً، وهكذا تنقلب الأشكال فى عينيه إلى أضدادها والصور إلى عكس ما هى عليه، والعائبون فضلاً عن أنهم يقتحمون مواطن التعييب من غير أبوابها لا يأتونها إلا إرضاء لشيطان الحسد ثم هم يحقدون على من يعارضهم أو يخالف رأيهم وربما أدخلوا على أنفسهم الهموم والأحزان من قيام أهل النصفة فى وجوههم واستمروا فى عناء عظيم من أجل إيجاب الحق لأنفسهم فيحصل لهم المقت من الناس لما فى الطباع البشرية من حب الترفع عن الصغار والهوان إذ قل أن تسلم نفس لنفس بالكمال والترفع عليها إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة أو بعصمة من الله وهداية منه، وهذا أوان الشروع فى المقصود بعون الملك المعبود.

□□□

المقدمة

(وفيها فصلان)

(الفصل الأول)

(فى دخـول نوح ـ عليه السلام ـ السفينة وفيمن نزل مصر من ذريته)

هبط آدم وحوّاء ـ عليهما السلام ـ من جنات النعيم، كماجاءت به الكتب المنزلة وكثرت ذريتهما فسعوا فى الأرض فساداً، فبعث الله سبحانه وتعالى إليهم نوحاً عليه السلام فنهى وأنذر فلم يرعووا ولم تأخذهم آخذة من الخوف فشاء الله تعالى أن يبيدهم بطوفان فأوحى إلى نوح أن يصنع لنفسه ولذريته فلكاً وأن يدخله هو وبنوه وامرأته ففعل فلما صار نوح ومن معه فى الفلك أمر الله تعالى فانفتحت أبواب السماء وانفجرت ينابيع الغمر وعلت المياه على وجه الأرض فمات كل ذى روح على وجه الأرض وكان فلك نوح عليه السلام طافياً على وجه الماء فلم يبق سوى نوح وبنيه ومن معهم وكان ذلك بعد الخليقة بألف وستمائة وست وخمسين سنة على ما أخبر به المؤرخون.

ولما غيض الماء استوى الفلك على الجودىّ ففرح نوح وعائلته وتفرقت الحيوانات التى كانت فى الفلك فى أنحاء الأرض فلم تمض عليها الأحقبة من الدهر حتى تناسلت وملأت الأرض وانطلق بنو نوح مع عيالهم إلى أرض شنعار الواقعة جنوبى الجبل المذكور على مقربة من دجلة والفرات فاستوطنوا هناك وتوالدوا وأخذوا فى النماء حتى صاروا فى خلال جيل بعد الطوفان شعباً عظيماً، وكان أكثر حديثهم فى ذاك الحين عن الطوفان وما ترتب عليه من انقراض العالم فأوجسوا خيفة من أن يعود مرة أخرى ورأوا أن يبنوا صرحاً عظيماً يلجؤن إليه عند الحاجة ويتخلصون من غائلة الطوفان فأقاموه على شاطىء الفرات إلى جهة الشرق وبالغوا جداً فى إعلائه حتى قيل إنهم كانوا يريدون أن يصلوا به إلى عنان السماء فراراً من الموت.

وبينما هـم على هذا الحال من الاجتـهاد إذ ابتـلاهم الله تعالى بأمر منـه فبلبل ألسنتهم فتفرقت كلمتهم ووقع بينهم الخلاف وصاروا لا يعرفون كلام بعضهم فكفوا عن العمل وخاب منهم الرجاء والأمل وهاموا على وجوههـم شرقاً وغرباً فاستوطن كل فريق منهم قسـماً من الأرض كما جاءت به الكتب، وسـمى ذلك الصرح ببرج بابل، وكان أولاد نوح الذين عمـرت بهم الأرض بعد الطوفان كمـا تقدم ثلاثة سام وحام ويافث، وكان ليافث سبعة أولاد أولهم دجومر وهو الذى هاجر إلى الشاطىء الشمالى من البـحر الأسود وتفرق نسله غـرباً وسكنوا فى الجنوب الغربى من أوروبا وفى جزائر بـريطانيا وأكثـر الأوربيين من نسله علـى المشهور من قـول جمـاعة من المؤرخين، وكان لدجومـر ثلاثة أولاد الأول اشكينار وقد نزل بالشاطىء الجنوبى من البحـر الأسود، والثانى ريفـات وقد نزل شرقى اشـكينار، والثالث تجرمـة وقد نزل بالجانب الشرقى من ريفات، الثـانى مأجوج ومقره ببلاد التتـر أى الشاطىء الشمالى من بحر الخزر وأكـثر سكان أواسط آسية من نـسله كالمغول وغيرهـم، الثالث مادى وموطنه شمالى بلاد العجم، الرابع ياوان وقد سكن بلاد اليونان وباسمه سمى دانيال النبىّ أهالى هذه البـلاد وكان ليـاوان هذا أربعـة أولاد الأول منهم الشتـة استـوطن هيلاس وهى الولاية الجنوبية الغـربية من بلاد اليونان، الثانى ترشيش ومـقرّه كليكيا فى آسية الصـغرى وباسمه سـميت مدينة ترسيس وذهب بعضـهم إلى أن طائفة من نسله سكنت أيضاً بلاد أسبانيا، الثـالث كنيم ومكانه عند شواطىء بحر إيطاليا وبلاد اليونان، الرابع رودانيم ومكانه ألبانيا التى هى بلاد الأرناؤد على جنوبى مدينة تريستة ويظن أيضـاً أنه سكن فى نواحى مرسـيليا جنوبى بلاد الفـرنسيس، الخـامس نويال ومحله بجوار مأجـوج وما بين البحر الأسود وبحر الخـزر، السادس ماشك ومسكنه فى جـوار نويال ومأجـوج وقد سكـن بعض نسله فى شواطىء بـحر البلتـيك ومنه تسلسل بعض المسكوبيين، السابع نيراس ولم يعلم المؤرخون أين سكن قالوا والمظنون أن نصف أهل الأرض من نسل يافث.

وأما حـام: فكان له أربعة أبناء أوّلهم كوش وكـان له ستة ذكور ومـحله غربى بلاد العـرب وقد سكن أكـثر نسـله إفريقـية قـيل ومنهم من سكن عند الشـواطىء الشمـالية من خليج العجم وامـتدّ شمـالاً إلى ما بين النهرين ويظنّ أن أكـثر أهالى إفريقية من نسله لأنهم كانوا ينسبون إليه وإن بنيـه جميعاً سكنوا بلاد العرب وإفريقية ماعـدا نمرود فإنه سـكن على سواحل الفـرات وهو الذى أسس مدينة بابل، الثـانى (مصرايم) وقـدنزل بمصر فسمـيت بهذا الاسم نسبة إليـه وقد تفرع منه سبـع قبائل الأولى لوديم ومحلها غربى مصر الثانية غـايم وهى من القبائل الرّحالة الثالثة لهاييم

سكنت جنوبى لوديم الرابعة نفتوحيم ومحلها على الشاطىء البحرى أى على شاطىء البحر فى الجهة الغربية من مصر، قالوا ويظن أن اسم نبتون إله البحر عند الأقدمين مأخوذ منها، الخامسة فتروسيم ومحلها مصر العليا السادسة كلوحيم ومحلها بين مصر وأرض كنعان على شاطىء البحر ومنها الفلسطينيون السابعة كفتوريم ومحلها جزيرة قبرص، وأما الثالث من أولاد حام واسمه فوط فقد سكن شمالى إفريقية ونسله مذكور مع كوش ولود والرابع كنعان ومحله الأرض المنسوبة إليه وكان لكنعان هذا ابنان الأول صيدون وهو الذى بنى المدينة المعروفة الآن باسمه وهى صيدا ويقال إنها أقدم مدن العالم والثانى حث وقد عقب غير هذين تسع قبائل سكنت أرض كنعان فى أيام يوشع بن نون، وأما سام فكان له خمسة بنين الأول عليوم ومحله جنوبى بلاد العجم الثانى آشور ومنه الآشوريون الذين استعبدهم النمرود وكوش الثالث ارفكشاد وقد توطن بين النهرين ومن نسله إبراهيم الخليل عليه السلام وكان لارفكشاد هذا ولدان هما فالخ ويفطان وكان ليفطان ثلاثة عشر ولداً منهم قبائل بلاد العرب وقد سكن الإسماعيليون بينهم الرابع لود ومن نسله اللوديون ومقامه الأناطولى الخامس أرام ومقامة بين النهرين ولذلك سميت هذه الأرض سهل أرام وكان لأرام أربعة بنين الأول عوص ومقامه عند رأس خليج العجم الثانى حول ومقامه منبع نهر الأردن حيث يدعى باسمه الثالث لم يذكر له المؤرخون اسماً ولا محلاً الرابع ماش وقد سكن الأناطولى أيضاً، فمما تقدم يتضح أن أكثر سكان إفريقية ومنها ديار مصرهم من نسل حام ولد نوح عليه السلام.

واعلم أن مصر التي بناها مصرايم ولد حام وتوطنها بنوه من بعده [إذا صح هذا القول] يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق البحر الأحمر وخليج السويس ومن الجنوب بلاد النوبة ومن الغرب الصحراء وبلاد برقة وهى واد يكتنفه جبلان شرقاً وغرباً يتخللهما النيل من الجنوب إلى الشمال ويصب فى البحر الأبيض المتوسط عند مدينتى رشيد ودمياط بمصبيهما، وكان المصريون يعتقدون أنهم أول من سكن هذه الديار وعمرها ولذا سموا أنفسهم لوت ونقشوه على الآثار ومعناه أصل البشر ظناً منهم أنهم آباء البشر، قال ده روجيه فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ الست عائلات الأول: أن الذى تحقق له من الآثار أن أصلهم وتمدنهم إنما هو من آسية لا من الجهة الجنوبية.

□□□

الفصل الثانى

(فى تاريخ مصر القديم وفيما يعتبره المصريون قاعدة لتأسيس مملكتهم)

اختلف أهل التاريخ على اختلاف طبقاتهم فى تحديد مبدأ تأسيس المملكة المصرية وتاريخ نشأتها وكيفية ارتقائها مراقى ذلك التمدن العجيب فمن قائل إنها قديمة العهد جداً ومن قائل إنها ابنة اثنين وخمسين قرناً ومن قائل خمسة وثلاثين ولكل على قوله حجة وبرهان فالقائلون بأنها قديمة العهد جداً جعلوا مستندهم على أنه لما لم يهتد قدماء المصريين إلى معرفة مبدأ تأسيس مملكتهم وتاريخ نشأتها فرضوا لظهورها ثلاث عائلات أولية على وجه الاحتمال والتقريب وسموا العائلة الأولى منها بعائلة المعبودات التى يقال لها العائلة المقدّسة والثانية العائلة الشبيهة بالمقدّسة والثالثة عائلة آبائهم الأوّلين وهم الحورشو وقد ذكر كلٌ من كهنة منف وطيبة عائلة المعبودات المذكورة على الترتيب الآتى :

عدد	جدول أسماء المعبودات بمنف		عدد	جدول أسماء المعبودات بطيبة	
١	بتاح		١	أمون	المشتري
٢	رع		٢	منتو	المرّيخ
٣	شو	وأخته نفتوت	٣	توم	
٤	سب	وزوجته نوت	٤	شو	وأخته نفتوت
٥	أزوريس	وزوجته إزيس	٥	سب	وزوجته نوت (زحل)
٦	ست	وزوجته نفتيس	٦	أزوريس	وزوجته إزيس
٧	حور	وزوجته حاتحور	٧	ست	الشيطان وزوجته نفتيس
		الشعري اليمانية	٨	حور	وزوجته حاتحور

قالوا: ومعنى بتاح الفتاح وهو رمز للقدرة الإلهية التى أوجدت الكون ومعنى رع عنصر النار وشو عنصر الهواء وسب عنصر التراب وأزوريس عنصر الماء، قال صاحب العقد الثمين أما حور فإنه يدل على الزمن المستقبل ولذا كان المصريون

يلقبون به ولى العهد كما أنهم يلقبون الملك الحاكم برع أى الشمس والأموات بأزوريس وكانوا يعتبرون هذه المعبودات ملوكاً حقيقية وجعلوا لها أسماء وألقاباً رسمية. قال: وأما العائلة الشبيهة بالمقدسة وعائلة أجداد المصريين فلم يوجد لها على الآثار القديمة شيء يذكر غير ما رأيناه فى ورقة تورينو يعنى المحفوظة فى خزانة التحف بمدينة تورينو إحدى عمالات إيطاليا المبينة لترتيب الملوك ومدة ملكهم من أن الذين حكموا مصر قبل الملك (مينا) وسبقوه فى الترتيب كانوا يدعون حورشسو ومعناه خدمة المعبود حور ولعلهم كهنة . اهـ. قال لبسيوس: إن قدماء المصريين ينسبون لمعبوداتهم أو لأجدادهم حورشسوسنّ القوانين المدنية، وإبداع الفنون، والصنائع، واختراع الورق، والكتابة، وإيجاد الأسماء المقدسة، وترتيب الديانة والمذاهب، ولذلك كان قدماء المؤرّخين من اليونان يقولون إن البركان حكمها (أى مصر)، كذا من السنين ومعناه أن كاهن هيكل النار التى كانت إحدى المعبودات قد حكمها كذا سنة، ويقال إن أوّل هؤلاء الملوك يعنى الكهنة كان من مدينة طيبة كما يقال إن أوّل من أسس مدينة طيوه التى هى الآن بلدة الأقصر وما حولها هو الشمس يعنى كاهن الشمس، ثم خرجت بعد ذلك العائلة الملوكية من هاتين المدينتين، وأما من قال بأنها ابنة اثنين وخمسين قرنا فجماعة من كبار أصحاب التاريخ المتقدمين وتبعهم جماعة من المتأخرين منهم مانيتون المؤرخ قال إن العائلات التى ملكت مصر إحدى وثلاثون عائلة تنقسم إلى ثلاث طبقات وقد جعل لكل منها بابًا مخصوصاً، فالباب الأول فى الطبقة الجاهلية أو الطبقة القديمة ومدة ملكها ألفان ومائة سنة وخمس سنين وتشتمل على إحدى عشرة عائلة من العائلة الأولى إلى الحادية عشرة والثانى فى الطبقة الوسطى ومدة ملكها ألف وثلاثمائة وإحدى وسبعون سنة وتشتمل على ست عائلات من الثانية عشرة إلى السابعة عشرة، والثالث فى الطبقة الأخيرة ومدة ملكها ألف وثلاثمائة وإحدى وسبعون سنة وتشتمل على أربع عشرة عائلة من الثامنة عشرة إلى الحادية والثلاثين فيكون مجموع سنى ملك هذه العائلات زهاء خمسة آلاف سنة، وقد عد هذه العائلات جماعة من المؤرخين نحو ثلاثين عائلة وعدها آخرون ستاً وثلاثين، وقارن جماعة من المتأخرين بين مبدأ ظهور كل طبقة من الطبقات الثلاث المذكورة وبين التاريخ الميلادى والهجرى فكان مبدأ ظهور الطبقة الأولى منها أى الطبقة الجاهلية موافقاً لسنة أربعة آلاف وخمسين قبل الميلاد المسيحى وسنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية، والطبقة الوسطى منها لسنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد، وسنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة، والطبقة الأخيرة منها لسنة اثنتين وسبعمائة وألف

قبل الميـلاد أى سنة خمس وعـشرين وثلاثمـائة وألف قبل الهـجرة. قال مـانيطون وكانت كل عائلة من هذه العائلات تلقب بمركز حكومتها فإذا كانت العائلة فى مدينة طيبة مثلاً سـميت بالطيبية وإن كانت فى مدينة منف سمـيت بالمنفية ورتب مانيطون هذه الطبقات الثلاث وحقق سنى ملك كل منها فى كتابه على الترتيب الآتى : ـ

ترتيب العائلات	تخت المملكة لكل عائلة فى القدم	سنو ملك كل عائلة	
		سنة	
العائلة الأولى	تنيس	٢٥٣	الطبقة الجاهلية كما رواه مانيطون
» الثانية	منفيس	٣٠٢	
» الثالثة	»	٢١٤	
» الرابعة	»	٢٨٤	
» الخامسة	»	٢٤٨	
» السادسة	إيليفنتين	٢٠٣	
» السابعة	»	٧٠	
» الثامنة	منفيس	٢٤٢	
» التاسعة	هرفيليوبوليس	١٠٩	
» العاشرة	»	١٨٥	
» الحادية عشرة	طينية	٠٠	
العائلة الثانية عشرة	طينية	٢١٣	الطبقة الوسطى كما رواه مانيطون
» الثالثة عشرة	»	٤٥٣	
» الرابعة عشرة	اكسويس	١٨٤	
» الخامسة عشرة	الرعاة	٠٠	
» السادسة عشرة	»	٥١١	
» السابعة عشرة	»	٠٠٠	

ترتيب العائلات	تخت المملكة لكل عائلة فى القدم	سنو ملك كل عائلة	
العائلة الثامنة عشرة	طيبة	٢٤١	الطبقة الأخيرة كما رواه مانيطون
» التاسعة عشرة	»	١٧٤	
» العشرون	»	١٧٨	
» الحادية والعشرون	تانيس	١٣٠	
» الثانية والعشرون	بوباست	١٧٠	
» الثالثة والعشرون	تانيس	١٨٩	
» الرابعة والعشرون	سيس	٦٦	
» الخامسة والعشرون	اتيوبيه	٥٠	
» السادسة والعشرون	سيس	٠٧	
» السابعة والعشرون	الفرس	١٢١	
» الثامنة والعشرون	سيس	٠٧	
» التاسعة والعشرون	منريس	٢١	
» الثلاثون	سيبانيس	٣٨	
» الحادية والثلاثون	الفرس	٠٨	

وممن حذا حذو مانيطون هذا فى حسابه وتحقيقه العلامة الفلكى محمود باشا المصرى فقد قرأت فى رسالته التى حررها بالافرنسية فى سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف ميلادية تحت عنوان (عمر الأهرام والغرض من بنائها) ما ملخصه قال، رحمه الله.

كنت تعودّت أن أزور هذه الآثار الشريفة، يعنى الأهرام، فى أوّل فصل الربيع أحد الاعتدالين حينما يكون الليل والنهار متساويين ويقع ذلك مرتين فى السنة فى نحو الحادى والعشرين من كل من مارس وسبتمبر فلما جاء اعتدال مارس من سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف ميلادية استقدمنى الجناب الخديوى، يعنى به إسماعيل

باشا، إلى سرايه بالجيزة ورسم لى بالذهاب إلى الأهرام وتعيين اتجاهاتها واستنتاج كل ما يمكن استنتاجه منها من القواعد العلمية فقمت بالأمر طائعاً وضربت لى مضربا فى جوار الهرم الكبير ولبثت أربعة أيام كاملة كنت أرى فى لياليها النيرة نجومها اللامعة تتلألأ كأنها تحيى بابتسام تلك الآثار العظيمة الدالة على ذلك المجد الإنسانى فلما أمعنت الطرف فى حركات تلك النجوم والكواكب وسيرها استوقف نظرى ضياء ذلك الكوكب المعروف بسيريوس يعنى الشعرى اليمانية الذى هو أعظم كواكب برج الكلب الأكبر وأشرقها ضياء فكنت أرى أن أشعته تنبعث عمودية إلى الوجهة القبلية من الهرم بلا انحراف فجعلت أفكر فى ذلك وأدقق النظر والتأمل حتى ثبت عندى أن هذا الأثر العظيم لابد وأن يكون مقاماً لأحد الآلهة الفلكية وأصحاب المقامات العلوية وهذا الإله على معتقدهم إنما هو نجم الشعرى اليمانية، إلى أن قال، وليس الهرمان الكبيران هما المتجهين فقط تمام الاتجاه للأربع نقط الأصلية بل إن كافة الأهرام الصغيرة وسائر الآثار الجنازية هى كذلك أيضاً مما يدل على أن إنشاءها كان لغرض دينى أشبه بالذى حدا بالأمم الحاضرة إلى بناء مقابر موتاهم على وضع وشكل مخصوص، فإنك ترى عند معاشر المسلمين مثلاً أن وضع اللحد عمودى على اتجاه مكة المكرمة التى فيها بيت الله الحرام بحيث إذا وضعت الجثة على جانبها الأيمن كان وجه الميت متجهاً نحو الكعبة، قال ومما يؤيد أن بناء الأهرام كان لغرض دينى ما يراه الرائى من ميل سائر جهاتها على سطح الأفق بزاوية لا تزيد ولا تنقص عن اثنتين وخمسين درجة ونصف تقريباً وهذا لا يمكن وقوعه أبداً بطريقة الصدفة والاتفاق ولابد أن يكون لهم فيه مآرب ويكون لهذا الوضع العجيب علاقة بأحد الكواكب التى كانت آلهة لقدماء المصريين، إلى أن قال: وأما معرفة سنى الأهرام وما مضى عليها من الأعوام فينحصر فى البحث بين سنة (٢٢٥٠) وسنة (٣٢٥٠) وهو زمن يكون فيه الميل موافقاً ٢٢ درجة و٣٠ دقيقة وبعمل الحساب على مقتضى هذا يتضح أن بناء الأهرام كان سنة اثنتين وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد المسيحى وهذا التاريخ وإن كان على وجه التقريب نظراً لما يحصل عادة من الفرق فى حساب الأميال لكنه موافق لما ذكره معظم مؤرخى العرب مثل القوضائى وابن عبد الحكم والمسعودى والمقريزى وغيرهم وهم القائلون بأن حدوث الطوفان كان فى القرن الحادى عشر قبل تجسد السيد المسيح وإن الأهرام كان بناؤها قبل الطوفان بثلاثة أو أربعة أجيال.

قال: وربما استند هؤلاء المؤرخون وابن يونس الفلكى فى هذا القول على القصة

المشهورة التى جاء فيها أن بعض المصريين عثروا على ورقة من البابيروس الذى كان قدماؤهم يكتبون عليه فدفعوها إلى راهب قبطى من رهبان دير قلامون ليفك رموزها وكان ذلك حوالى سنة خمس وعشرين ومائتين هجرية فقال لهم: إن سنتكم هذه توافق سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وأربعة آلاف من بناء الهرم وسنة إحدى وأربعين وتسعمائة وثلاثة آلاف من الطوفان، إلى أن قال، وقد ذكر كل من بونسن والجنرال ويزا أن الزمن الواقع بين منيس ونبكتانيوس هو عبارة عن ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمس وخمسين سنة وأن مدة تسلط الأربع عائلات الأول من ملوك الفراعنة كانت خمسمائة وسبعين سنة وإن انقراض ملك العائلة الرابعة منها كان فى سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألفين للإسكندر وسنة عشر وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد المسيحى، قال ولما كان بناء الهرمين الكبيرين فى أيام الملك كيوبس والملك كفريم وكلاهما من ملوك هذه العائلة يعنى الرابعة التى حكمت مائة وخمساً وخمسين سنة كان بناؤها على مقتضى هذا الحساب فى القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد المسيحى أو فى الخامس والثلاثين على رواية بروكش، قال: وعندى أنه من المحقق الذى لا مراء فيه أن لبناء الأهرام علاقة دينية بنجم الشعرى اليمانية وأنه قد مضى عليها اثنان وخمسون قرنا . اهـ.

وممن قال إنها ابنة خمسة وثلاثين قرناً جماعة من المتقدّمين والمتأخرين أيضاً ممن اجتمعت كلمتهم على أن (منا) الذى هو أوّل ملوك الطبقة الجاهلية هو (مصرايم) المذكور فى التوراة.

ولما كان من الثابت المقرر فى التوراة أن مصرايم هذا هو ولد حام وحام ولد نوح عليه السلام كان من الثابت المقرر أيضاً أن المدّة الواقعة ما بين الخليقة من آدم عليه السلام والطوفان هى ألفان ومائتان وست وخمسون سنة أى قبل مولد المسيح بثلاثة آلاف ومائتين وأربع وأربعين سنة، وقبل هجرة صاحب الشريعة المحمدية بثلاثة آلاف وثمانمائة وست وستين سنة، وكانت الحقيقة هى غير ما ذكره مانيطون ومن حذا حذوه من المتأخرين ومع أن مانيطون عاد فاستدرك فقال: إن ملوك مصر فى سنى الطبقتين الأولى والثانية لم يكونوا جميعاً متتابعين ملكاً بعد آخر بل كانوا كثيرين متعاصرين مع بعضهم فمنهم من كان مستقلاً بحكم إقليم ومنهم من كان منفرداً بمقاطعة ومنهم من كان يحكم بالاشتراك وغير ذلك فإن المتأخرين من أهل التاريخ لما حاروا فى كيفية وأسباب هذا الفرق الجسيم، ولم يجدوا وجهاً للطعن فى صحة ما رواه مانيطون وقوّة سنده أوّله بعضهم بأن ديار مصر كانت منقسمة إلى عدة

ممالك، يملكها أمراء متعاصرون من ملوك الطوائف فى كثير من المدد المذكورة وغالط بعضهم أيضاً فقال وإن مانيطون وهم فعدّد كثير من العائلات الملوكية على أنها متتالية بعضها عقب البعض مع إنها كانت متعاصرة، وزعم أصحاب هذا المذهب أنه بينما كانت العائلة الخامسة قابضة على زمام الملك فى جزيرة ايليفنتيين مثلاً كانت العائلة السادسة مستولية فى هذه المدة على سرير الملك بمدينة منفيس.

قلت: وليس عبارة مانيطون المؤرّخ هذه وحدها التى كانت ولم تزل موضعاً للنقد بل هكذا حال التوراة أيضاً إذ قام فى هذا العصر جماعة من علماء التاريخ وآخرون من الكتاب يخطئون ماجاء فيها من أن المدّة الواقعة بين الخليقة والطوفان هى ألفان ومائتان وست وخمسون سنة وأثبتوا أنها أكثر من ذلك كثيراً وقد سلم جماعة من علماء اللاهوت صحة هذا المذهب حتى وفق بعضهم بين هذا القول وبين عبارة التوراة بأن سلسلة الآباء المذكورة فى التوراة غير متصلة وقالوا أنه لم يذكر فيها إلا خاصة الناس دون عامتهم ولم يقفوا عند هذا الحد بل تطرّف جماعة إلى القول أيضاً بأن أسفار موسى عليه السلام كتبت بعده بأعوام كثيرة بل بعد سبى بابل وأن ما جاء فى التوراة من الحوادث التاريخية الخاصة ببنى إسرائيل أو المنقولة عنهم لا يعوّل عليها كثيراً، ولكن هذا كله لم يغير من صحة التوراة ولم يمس عصمتها التى هى عقيدة أهل الكتابين من إسرائيليين ومسيحيين، على أننا لو وفقنا بين الحوادث التاريخية المذكورة فيها وبين حوادث أيام تلك الطبقات الثلاث التى ذكرها مانيطون وذلك بأن نضم أيام ملك الطبقتين الأولى والثانية التى هى أكثر إشكالاً وتعقيداً بعضها إلى بعض مع اعتبار أن مبدأ ملك الدولة الأولى منها كان بعد الطوفان لصح التوفيق وزال بعض اللبس وكأن هذا المذهب على ما فيه من التعليل أقرب سائر تلك المذاهب إلى الصواب وأبعدها عن الشطط وعليه فإنى مورد هنا ما صح عندى من أسلوب هذا التوفيق غير مشاغب ولا مفضل مذهباً على مذهب فإنى أعلم أنها كلها أحاجيّ ومعميات وإنها لا تزال كذلك حتى تنكشف خبايا تلك الآثار ويظهر لأصحاب العلوم الأثرية ما فيها من الرموز والأسرار، وليس هذا بالأمر العسير فى هذا القرن الذى كاد يبلغ فيه كل علم منتهاه.

أما طريقة الوصول إلى هذا التوفيق فهى أن نضم أيام ملك الطبقتين الأولى والثانية وهى عبارة عن سبع عشرة عائلة كما رتبها مانيطون بعضها إلى بعض ونحسب أن أيام ملكها جميعها تبتدىء من الطوفان وتنتهى إلى ما قبل نزول يعقوب وبنيه على أرض مصر فى أوائل حكم الدولة الثامنة عشرة المتأصلة، فإذا صح لديك

ذلك كانت مدّة ملك الطبقتين المذكورتين عبارة عن ألف وثلاثمائة وستين سنة لا غير وكان مبدأ ملكها قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف ومائتين وأربع وأربعين سنة وقبل هجرة صاحب الشريعة المحمدية بثلاثة آلاف وثمانمائة وست وستين سنة كما يتبين لك ذلك من الترتيب الآتى على ما جاء فى التوراة.

سنة	
١٠٧٠	من الطوفان إلى ميلاد إبراهيم الخليل عليه السلام بطريق تسلسل الأجيال
١٠٠	من إبراهيم إلى إسحق ولده عليهما السلام
٠٦٠	من إسحق إلى يعقوب عليهما السلام
١٣٠	من يعقوب إلى مجيء بني إسرائيل إلى مصر
١٣٦٠	

وقد جاء ما رواه مانيطون مطابقاً لما نصت عليه التوراة من أن نزول يعقوب وبنيه على أرض مصر كان فى أيام الدولة الثامنة عشرة المذكورة وهى الثانية المتأصلة التى قامت من مدينة طيبة بعد سقوط الدولة السابعة عشرة المعروفة بدولة الهكسوس أو دولة الرعاة وجلائهم عن البلاد فدل ذلك دلالة واضحة على أن مدّة ملك الطبقتين المذكورتين لم تتجاوز قط ألفا وثلاثمائة وستين سنة وليست ألفين وسبعمائة وثلاثاً وعشرين سنة كما رواه بعض أصحاب التاريخ.

أما الطبقة الثالثة وأعنى بها الطبقة الأخيرة التى تبتدىء من العائلة الثامنة عشرة وتنتهى بالعائلة الحادية والثلاثين على رواية مانيطون المؤرخ فهذه لما كانت أخبار أيام ملوكها ظاهرة جلية صح أن نقسمها إلى أدوار ستة بشرط انطباق ما وقع فى كل دور منها من الحوادث والأنباء على ما جاء فى التوراة وعلى هذا الترتيب يكون الدور الأول من هذه الأدوار شاملاً لأربع عائلات من الثامنة عشرة إلى الحادية والعشرين، ويصح أيضاً تقسيم هذا الدور إلى قسمين:

الأول منها يشتمل على عائلتين اثنتين هما الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أما أيام ملك هاتين العائلتين فكلها تقارن مدة سكنى بنى إسرائيل أرض مصر تمام المقارنة، قال مانيطون المؤرخ فى كتابه بعد كلام فأقام يوسف بمدينة منف وتسلط على سائر البلاد فى أيام أعظم وأقدر فراعنة المملكة الجديدة . اهـ . قلت يريد بفرعون هذا الملك طوطوميس الثالث أو طوطيمس الذى تولى الملك بعد نفى الملوك الرعاة وإخراجهم من أرض مصر وجاء فى التوراة ما نصه: وقال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على أرض مصر، وخلع فرعون خاتمه وجعله فى يد يوسف وألبسه ثوب

أرجوان ووضع طوق ذهب فى عنقه وأركبه فى مركبته الثانية ونادوا أمامه «اركعوا» وجعله على كل أرض مصر، وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر . اهـ.

ومماجاء أيضاً مؤيداً لصحة ظهور هذه العائلة المتأصلة بعد نفى الرعاة وإخراجهم من البلاد بغض المصريين لسائر رعاة الغنم وكراهتهم لاسم الرعاة واعتبارهم أن كل راع للغنم نجس. وقد جاء فى التوراة من قول يوسف عليه السلام لأهله عند قدومهم إليه بأرض مصر، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك من أصحاب الماشية منذ صبأنا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً كى تسكنوا أرض جاسان لأن كل راعى غنم رجس عند المصريين . اهـ. وكان خروج بنى إسرائيل من أرض مصر أيضاً فى أيام الملك منفطا الثانى أحد ملوك الدولة التاسعة عشرة التى هى إحدى الدولتين المذكورتين ومنفطا هذا هو ابن سيزوستريس صاحب الحروب المشهورة والفتوحات المأثورة. قال مانيطون المؤرخ: مات منفطا هذا عن ابنة اسمها طوسيرو ابن قاصر اسمه منفطا الثالث ويلقب بأوسير خبرورع ميامون فتزوجت هذه الابنة بعظيم من المصريين اسمه حفطا منفطا فكان يقال له أيضاً فرعون تبعا لها وكان يحكم بالنيابة عنها . اهـ.

ففسر أهل التاريخ أن زواج طوسير المذكورة بذلك العظيم الذى لم يكن من بيت الملك مع أن جدها سيزوستريس كان قد خلّف عدة بنين يدل على حدوث حادث عظيم جداً نجم عنه انقراض سائر أعضاء تلك العائلة الملوكية، قالوا: وهذا الحادث إنما هو غرق فرعون وجنوده فى البحر قلت فإذا صح ذلك كانت مدّة مقام بنى إسرائيل فى أرض مصر مائتين وثلاثين سنة وهى مدّة ملك العائلتين المذكورتين وتسلطهما على السواء.

والقسم الثانى منهما يشتمل على عائلتين اثنتين أيضاً وهما العائلة العشرون والحادية والعشرون فهاتان العائلتان وإن لم يقع فى أيامهما من الحوادث شيء يذكر إلا أنه يصح اعتبار مبدأ أيامهما من خروج بنى إسرائيل من مصر إلى حدوث ما حدث من الكوارث فى أيام العائلة الثانية والعشرين التى قامت بعدها هذه العائلة وبناء على ذلك تكون عبارة عن ستمائة وسبعين سنة بالمقارنة على ماجاء فى التوراة حسب الترتيب الآتى:

سنة	
٤٠	مدّة مقام بني إسرائيل في البرية
٣٠	رياسة يوشع بن نون على بني إسرائيل
٤٥٠	مدّة قضاة بني إسرائيل على ما في سفر أعمال الحواريين
٠٣٠	مدّة رياسة صموئيل النبي على بني إسرائيل بعد عالي الكاهن إلى ولاية شاول
١٢٠	من ولاية شاول إلى ملك سليمان بن داود عليهما السلام
٦٧٠	

وإلى هذا الحين أى إلى أيام ملك سليمان بن داود عليهما السلام انقسمت السلطنة الإسرائيلية إلى مملكتين أولاهما مملكة إسرائيل ورأسها ياربعام عبد سليمان وهذه لم تلبث أن تلاشت وعفت آثارها وثانيتهما مملكة يهوذا ورأسها راحبعام بن سليمان وهذه قد بقيت تتنازعها الآحن وتتوالى عليها الخطوب والمحن إلى مجىء المسيح ثم تلاشت أيضاً فأصبحت أثراً بعد عين كما أنبأ بذلك يعقوب عليه السلام ولده يهوذا.

إذا علمت ذلك كان مجمل سنى ملك الدور الأول من الطبقة الثالثة على هذا الترتيب تسعمائة سنة لا غير.

وأما الدور الثاني: فيشتمل على ثلاث عائلات من الثانية والعشرين إلى الرابعة والعشرين ومدّة ملكها مائتان وثمان وثلاثون سنة بالتطبيق على مدّة من ملك من ملوك يهوذا من أيام رحبعام إلى موت بوثام كما سترى ذلك مفصلاً فى محله، وقد طابق ما ذكره جماعة المؤرخين من الحوادث والأنباء التى وقعت أيام هذه العائلات الثلاث ما جاء فى التوارة أتم مطابقة من ذلك أن الملك شنشق الأول رأس العائلة الثانية والعشرين التى هى إحدى هذه العائلات وقاعدة ملكها بوبسط بالشرقية المعروفة بتلّ بسطة الواقعة الآن على قيد بعض فراسخ من مدينة الزقازيق قد أجار ياربعام أحد عبيد سليمان بن داود عليه السلام عندما نزل فى جواره هارباً من وجه سيده، وشنشق هذا مذكور فى التوراة باسم شيشق قال بعض أهل التاريخ ونزل ياربعام عبد سليمان بن داود على شيشق ملك مصر مستجيراً فأكرم شيشق مثواه واتفق أن مات سليمان عليه السلام بعد ذلك بقليل فتولي الملك بعده ابنه رحبعام فلم يستو على سرير الملك حتى خرج عن طاعته عشرة أسباط من بنى إسرائيل لأسباب لا محل لإيرادها هنا وسيروا فى طلب ياربعام عبد سليمان عليه السلام فسار إليهم فأحسنوا لقاءه وولوه الملك وسموه ملك إسرائيل فتجرد رحبعام عند ذلك لقتاله

وركب عليه فى جيش عظيم من سبطى يهوذا وبنيامين فأرسل ياربعام إلى شيشق ملك مصر يستنجده على قتال رحبعام فسار شيشق لنجدته فى جيش ضخم وألف ومائة مركبة حربية وقاتل رحبعام قتالاً عنيفاً للغاية وفتح مدن يهوذا ونهب خزائن بيت المقدس وبيت الملك وأخذ تروس الذهب التى كان عملها سليمان عليه السلام وعاد إلى مصر ظافراً غانماً ونقش تاريخ هذه الغزوة على جدران هيكل الكرنك وكتب عليه يهوذا ملكى، يعنى أن مملكة يهوذا صارت فى قبضة يده، أما بيان سنى ملك هذه العائلات الثلاث التى هى عبارة عن مائتين وثمان وثلاثين سنة كما تقدّم لك ذكره فهى على الترتيب الآتى ممن ملك على يهوذا كما هو مذكور فى التوراة

سنة	
١٧	مدّة ملك راحبعام
٠٣	مدّة ملك إبيا
٤١	مدّة ملك آسيا
٢٥	مدّة ملك يوشافاط
٠٨	مدّة ملك يورام
٠١	مدّة ملك احزيا
٦	مدّة ملك عليا
٤٠	مدّة ملك يواش
٢٩	مدّة ملك أموصيا
٥٢	مدّة ملك عذريا
١٦	مدّة ملك يوثام
٢٣٨	

وأما الدور الثالث: فينحصر كله فى العائلة الخامسة والعشرين السودانية ولا يتعداها ومدة سنى هذا الدور إحدى وعشرون سنة لا غير وهى عبارة عن المدة الواقعة من ملك أحاذ الذى تولى على يهوذا بعد يوثام إلى ملك حزقياً حسب البيان الآتى:

سنة	
١٢	مدّة تملك أحاذ على اليهودية قبل تملك هوشع على مملكة إسرائيل
٠٤	مدّة تملك أحاذ على اليهودية بعد تملك هوشع على مملكة إسرائيل
٠٥	مدّة تملك حزقيا الذي تولى بعده أحاذ المذكور
٢١	

ومن الحوادث التاريخية التي وقعت في أيام هذه العائلة وجاءت مذكورة في التوراة أيضاً أنه لما قام شلمناصر ملك آشور على هوشع ملك إسرائيل المذكور وكان هوشع معاصراً للملك سيواس فرعون المذكور في التوراة باسم سواء وهو أخو الملك سباقوس الحبشي الذي دوّخ ديار مصر وتولى ملك الفراعنة قسراً بعد حروب وخطوب أتينا على شرحها في ترجمته أرسل هوشع ملك إسرائيل إلى سواء ملك مصر يستنجده ويستحثه فأبطأت النجدة وركب شلمناصر على هوشع في عسكر جرار وقاتله وظفر به وقبض عليه وسجنه فجعل هوشع يستغيث بسواء الملك فلم يغثه لعدم تمكنه من ذلك وقالت التوراة في هذا المقام ما نصه، وفي الثانية عشرة لاحاذ ملك يهوذا تولى هوشع بن أيلة على السامرة على إسرائيل تسع سنين وعمل الشر أمام الرب ولكن ليس كملوك إسرائيل الذين كانوا قبله وصعد عليه شلمناصر ملك أشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية ووجد ملك أشور في هوشع خيانة لأنه أرسل رسلاً إلى سواء ملك مصر ولم يؤد جزية إلى ملك أشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك أشور وأوثقه في السجن وصعد ملك أشور على كل الأرض وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين وسبى شعب إسرائيل إلى أشور . اهـ.
قلت: وكان خراب مملكة إسرائيل وزوالها تماماً بعد هذا التاريخ.

وأما الدور الرابع: فمبدؤه العائلة السادسة والعشرون التي قام على رأسها بسماتيكوس الأول المشهور بحب العلوم وتوسيع نطاق المعارف والآداب وهو الذي في أيامه اتسع نطاق استعمال الكتابة بالحروف الأبجدية ومدة سني هذا الدور مائة وثلاث وعشرون سنة وأشهر على ترتيب سني من عاصرها من ملوك يهوذا الآتي بيانهم بعد:

شهور	سنين	
٠٠	٢٤	مدّة ملك حزقيا خلاف الخمس سنوات التي كان يعاصر فيها الدور الثالث
٠٠	٥٥	مدّة حكم منسا بن حزقيا
٠٠	٠٢	مدّة حكم آمون بن منسا
٠٠	٣١	مدّة حكم يوشيا بن آمون الذي قتله فرعون نخو
٠٣	٠٠	مدّة حكم يهويا حاذ بن يوشيا الذي خلعه فرعون نخو
٠٠	١١	مدّة حكم الياقيم بن يوشيا الذي ولاه فرعون نخو
٣	١٢٣	

ومن الحوادث التاريخية التى جاءت فى التوراة مثبتة مطابقة هذه المدة على الوجه المشروح لمدة الدور الرابع المذكور: حادثة نخاوس بن بسماتيكوس رأس هذا الدور، ومحصلها إنه لما كان نخاوس هذا ميالا كأبيه إلى تحسين أحوال الرعية بتوسيع نطاق التجارة عمد إلى فتح البلاد وركب فى عسكر جرار وزحف على يهوذا وقاتل يوشيا ملكها وضيق عليه وما زال حتى قتله وفتح مدائنه وتملك عليها من البر والبحر فبايع بنو يهوذا يهوياحاز ولد يوشيا بالملك واجتمعوا تحت رايته فأغضب ذلك نخاوس فرعون المذكور وركب من فوره فى عسكره على يوشيا وحاربه وظفر به وخلعه وذلك عند رجوعه من غزوة بابل وولى مكانه أخاه الياقيم وضرب الخراج على شعب يهوذا فى كل عام مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب واستصحب يهوياحاذ إلى مصر أسيراً فبقى بها حتى مات قالت التوراة، وفى أيامه يعنى فى أيام يوشيا هذا، صعد فرعون نحو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله فى مجدو حين رآه وأركبه عبيده ميتاً من مجدو وجاءوا به إلى أورشليم ودفنوه فى قبره فأخذ شعب أرض يهوذا يهوياحاذ ابن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضاً عن أبيه وكان يهوياحاذ ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم واسم أمه حموطل بنت أرميا بن لبنة . اهـ.

وأما الدور الخامس: فمبدؤه أواخر سنى العائلة السادسة والعشرين أى أوائل ملك بسماتيكوس الثانى الذى حارب النوبة وأبلى فى قتالها بلاء حسناً، ومات فقام بالأمر بعده ابنه فرعون خفرع الذى يقال له أيضاً وح أبرع.

قال أصحاب التاريخ: وكان فرعون هذا معاصراً لصدقيا ملك يهوذا الذى وقع خراب أورشليم وسبيها إلى بابل فى أيامه بإغارة بختنصر ملك بابل وإن صدقيا أرسل إلى فرعون خفرع المذكور يستنجده على قتال بختنصر فلم يفلح وسقط صدقيا فى يد بختنصر، قال الله تعالى على لسان نبيه أرمياء الذى كان على عهد سبى بابل هكذا قال الرب ها أنا ذا أدفع فرعون خفرع ملك مصر ليد أعدائه وليد طالب نفسه كما دفعت صدقيا ملك يهوذا ليد بنوخز نصر ملك بابل عدوّه وطالب نفسه. اهـ.

قال أهل التاريخ: وقد تم ما أنبأ به نبى الله أرمياء حيث انتقض على (فرعون خفرع) عسكره وشقوا عصا طاعته عند عودته من حروبه مع القيروان ثم خلعوه وملكوا عليهم جندياً اسمه أماسيس ويقال له أيضاً أحعمس فسار أحعمس هذا مع هؤلاء الخوارج لقتال وح أبرع ولم يكن مع وح أبرع فى ذلك الحين سوى بعض الجنود الأجنبية التى كانت فى خدمته وهى زهاء ثلاثين ألفاً فلما التقى الجمعان عند

مدينة صا الحجر اقتتلا قتالاً عنيفاً فكانت الدائرة على جنود وح أبرع ووقع فى قبضة أحمعس فحبسه فى قصره قال هيرودوتس فلم تلبث الجنود بعد ذلك أن طلبته من أحمعس وشددت فى طلبه فدفعه إليهم فقتلوه فى الحال واستقل أحمعس بالملك واتسعت كلمته وخضع لحكمه أهالى جزيرة قبرص ثم مات فتولى الملك بعده بسماتيك الثالث فلم يستقر به المنصب حتى زحف ملك فارس على أرض مصر فى عسكر جرار فخرج بسماتيك لقتاله فى عدة وافرة من الجنود المصرية واليونانية الذين كانوا فى خدمته فلما التقى الجمعان واشتد القتال هجمت جيوش بسماتيك على جيوش كمبيز ملك فارس وكان كمبيز قد وضع فى مقدمة جيوشه كثيراً من السنانير والبزاة وغيرها من الحيوانات التى كان يعبدها المصريون فلم يجسروا على القتال ولم يرموا بسهامهم على عدوهم مخافة أن تصيب تلك الحيوانات المقدسة فجفلوا ورجعوا القهقرى وسقط بسماتيك فى قبضة كمبيز فقتله بعد أمور قد أتينا على ذكرها مفصلة فى ترجمته وبسقوط بسماتيك هذا زالت دولة الفراعنة وانثل عرشها وتقلص ظل ملكها من هذه الديار فأصبحت من هذا الحين ولاية تابعة لمملكة كمبيز ابن كورش ملك فارس (قلت) وقد ورد فى التوراة أن الله أوحى إلى حزقيال النبى عند سبى بابل وخراب أورشليم أنه لا يكون بعد اليوم رئيس من أرض مصر وألقى الرعب فى أرض مصر ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ فإنه لم يقم من ذلك الحين رئيس على مصر من أهلها إلى يومنا هذا.

وقد عدّ أهل التاريخ هذه الدولة الفاتحة الغاصبة فى عداد الدول المالكة باعتبار أنها السابعة والعشرون بعد السادسة والعشرين المصرية المتأصلة فإذا صح لديك ذلك كان إدخالها أيضاً فى دائرة الدور الخامس على مقتضى الترتيب المتقدم بيانه لازماً مع ما يدخل معها فى هذا الدور أيضاً من بقية الدول الأخرى المتممة له كالدولة الثامنة والعشرين الصاوية والدولة التاسعة والعشرين الأشمونية والثلاثين السمنودية والحادية والثلاثين الفارسية التى انقرضت بإغارة الإسكندر المقدونى على البلاد أما سنو ملك هذه العائلات فمائتان وثلاث وثلاثون سنة على مقتضى التنسيب الآتى للحوادث التاريخية المذكورة فى التوراة.

سنة	
١١	مدّة تملك صدقياء على يهوذا وهو الذي وقع خراب أورشليم وسبي بابل في أيامه
٢٧٢	المدة من سبي بابل إلى ظهور الإسكندر المقدوني
٢٨٣	

بقي علينا الآن أن نأتـي على ذكر الدور الـسادس الذى هو آخـر مـا رتبناه من هاتيك الأدوار وبيان عدد ما يـدخل فيه من الدول التى تولت الملك وسنى ملك كل منها تتمـيما لحساب هذه القاعـدة التى اخترناها للتوفيق بين ما جـاء فى التوراة وما جاء فى التاريخ، فنقول إذا صح ما تقدم بيانه وكان هذا الترتيب غير معيب فى شىء كـان إذن مبـدأ الدور السادس المذكـور ظهـور الإسكندر المقدونى وكـان هذا الدور مشتملاً على دولتين لاغير أولاهما: الدولة البطليـموسية وثانيتهما: الدولة الرومانية أو اللاطينية المعـروفة فى حسـاب أهل التاريخ بالدولة الرابعـة والثلاثين وهى الدولة التى ولد فى أيامهـا السيـد المسيح وكانت مـدة ملك هاتين الدولتين ثلثمائة وتسع عشرة سنة على الترتيب الآتى:

سنة	
٠١٢	مدّة ملك الإسكندر المقدوني
٢٧٥	مدّة ملك الدولة البطليموسية
٠٣٢	مدّة ملك الدولة الرومانية أو اللاطينية
٣١٩	

فإذا جمعت سنى ملـك كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث إلى بعـضها على ما رتبناه من الأدوار ظهر لك أن المدة الواقعة من عهـد الملك (منا) رأس العائلة الملوكية الأولى الذى يسميه بعض أهل التاريخ مـصرايم بن حام بن نوح عليه السلام أو من الطوفان إلى مولد السيد المسيح ثلاثـة آلاف ومائتان وأربع وأربعون سنة ولم تتجاوز الأربعة آلاف سنة كما قاله جماعـة من المؤرخين المتقدّمين والمتأخرين وإن أنكروا أن مـصرايم هو (منـا) وإذا علمت ذلك فالوقـوف عند حـد بعض هذه الاحـتمـالات والفروض الثلاثة التى ذكـرناها أو تفضيل بعضهـا على بعض والأخذ به دون الآخر ترجيح بلا مـرجح ولذلك لم أورد ما أوردته من المقـارنة والتطبيق بين مـا جاء فى التوراة وما جاء فى كتب التاريخ القديمة علـى ماتقدّم بيانه انتصارا لمقالة على أخرى ولا حذف حجة للترغيب فى تفـضيل مذهب على آخر لأنى أعلم أنها كلها آراء لم يثبت منها لغاية الآن شىء ولا صحت بـها دعوى ولكنى حرصت على أن لا تفوت محبى التاريخ معرفة هذه النبذة أيضاً فذكـرتها غير كاتم ما فى نفسى منها ولا ساتر رأيى فيها فلا أنا داع إليها ولا ناه عن الأخذ بها.

واعلم أن المصريين كـانوا قبل عهد الملك بسـماتيك يزعمون أنهم أقـدم شعب على وجه البسيطة قال هيرودوتس: لما تولّى بسماتيك الملك عـمد إلى معرفة حقيقة هذا الزعم وكان يـظن أن الفريجيـين أقدم شـعب ويتلوهم المصريون قـال: وكانت

أبحاثه إلى ذلك الحين لم تكف لمعرفة الحقيقة فأخذ طفلين رضيعين وسلمهما إلى راع يربيهما مع عنز ورسم له أن يضعهما فى بيت لا يدخل أحد عليهما إلا العنز لترضعهما فى وقت معلوم وأن يتفرغ عن كل أشغاله وقت إرضاعهما وقصد بذلك أن يعرف ما هى أوّل كلمة ينطقان بها متى صارا قادرين على الكلام فلما مضى عليهما سنتان دخل الراعى يوماً وقد فتح باب البيت فزحف الولدان نحوه وصرخا بيكوس ومدا إليه أيديهما فاستكان عند ذلك ليرى ما يكون بعد هذه اللفظة فصار كلما دخل عليهما يصرخان بيكوس فاعلم الملك بالقصة فرسم باستحضارهما فلما حضرا وسمع منهما تلك اللفظة استخبر عن الشعب الذى يستعمل كلمة بيكوس وما معناها فقيل له أن الفريجيين يسمون الخبز بهذا الاسم قال هيرودوتس فلذلك تنازل المصريون للفريجيين عن إدعاء الأسبقية (قلت) ولعلها خرافة رووها عن هيرودتس بعادات المصريين وأخلاقهم وأعيادهم وقدرة آلهتهم وكهنتهم وسحرتهم وغير ذلك مما اعتاد هذا المؤرخ العظيم الإسهاب وبسط الكلام فيه ومع ذلك فإن هذه الرواية على ما فيها من الخلط تؤيد ما قلناه من أنه لم يتيسر لقدماء المصريين أن يعرفوا من أين جاء آباؤهم ولا مبدأ تأسيس مملكتهم ولا من أين وصلت إليهم مادة هذا التمدّن العجيب ولذلك لم يجزموا بشىء من هذا كله بل بنوا كل ما قالوه فى هذا الباب على فروض واحتمالات اجتمعت كلمتهم على بعضها واختلفت فى البعض فتبعهم فى ذلك أصحاب التاريخ من المتقدمين والمتأخرين غير مبالغين فى النقد لضعف سندهم وعجزهم عن تفنيد البرهان بالبرهان ودحض الحجة بأقوى منها وكان ما اجتمعت عليه كلمتهم ولم يختلف فيه منهم اثنان قولهم إن (منا) هو أوّل مؤسس للمملكة المصرية وأنه رأس العائلة الأولى من الطبقة الأولى إحدى الطبقات الثلاث التى رتبها مانيطون فى جدوله فعلى مقتضى هذا الترتيب نأتى هنا بذكركل دولة من الطبقات الثلاث المذكورة وذكر أخبار كل ملك منها على التعاقب وبالله سبحانه وتعالى البداية ومنه تبارك وتعالى الهداية.

الكتاب الأوّل

(فى ملوك الطبقات الثلاث وفيه أبواب)

الباب الأول

(فى الطبقة الأولى أو الطبقة العليا)

كان مبدأ هذه الطبقة على ما رواه جماعة المؤرخين سنة خمسة آلاف وأربعة قبل الميلاد المسيحى أى سنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية وهى تبتدى بالملك (منا)، وتنتهى إلى الدولة الحادية عشرة الطينية وسنو ملكها ألف وتسعمائة وأربعون سنة.

الفصل الأول

(فى العائلة الأولى الطينية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة خمسة آلاف وأربعة قبل الميلاد المسيحى أى سنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية وسنو ملكها ثلثمائة سنة وخمس سنين وعدة ملوكها تسعة أولهم الملك(منا) أومناوس الذى قالوا باحتمال أنه (مصرايم) المذكور فى التوراة.

فى الكلام على الملك منا

هو أوّل ملوك مصر وأوّل مؤسس للمملكة المصرية بعد دولة الحورشسو وأصله من مدينة طينة وهى بلدة كانت على مقربة من العراية المدفونة بجوار جرجا ولما استخلص (منا) المذكور الملك من أيدى الكهنة واستقل بحكم البلاد هاجر من مدينة طينة المذكورة لميل أهلها إلى الكهنة وأقر رؤساء القبائل على ما هم عليه من قبل وأسس مدينة منف التى موقعها الآن البدرشين وميت رهينة وهما من أعمال مديرية

الجيزة وجعلها تخت ملكه وحوّل إليها النيل إلى مجراه الذى هو عليه الآن. قال ديودور الصقلى: وكان النيل يجرى بصحراء ليبيا وأصلح أحوال الرعية بتحسين أحوال الزراعة. قال هيرودوتس: كانت الإصلاحات التى أحدثها بمدينة منف سبباً فى عمارتها وتخطيط المدن بأزجائها وشيد فيها هيكلاً لمعبودها (بتاح) أى الفتاح فصارت منف مركز المدنية والتمدن والعلوم والمعارف إلى عصر اليونان ثم أدخل سكان ليبيا تحت الطاعة بعد أن غزاهم قال مانيطون: وبعد موته اتهم أنه غير عادة أسلافه من الزهد بميله إلى الترف ووضع الطعام على الموائد وتناوله الطعام مضطجعاً على سرير. قال ديودور: واقتدت به الملوك من بعده فلما تولى الملك نفتحت أحد ملوك الدولة الرابعة والعشرين أنكر عليه هذه العادة الذميمة والبدعة السيئة إذ هى موجبة للجبن والخمول وأمر بنقش كلام عنها فى حجر هجا فيه (منا) ووضعه فى معبد آمون بطيبة. وقال مانيطون: أنه لما تغلب الملك (منا) على طائفة الكهنة ونزع الحكم من أيديهم بالقهر والغلبة نسبوا إليه سوء العاقبة، وقالوا إنه ابتلعه تمساح البحر بعد أن حكم ستين وقيل اثنتين وستين سنة وكان الملك (منا) المذكور معظما فى قومه مهيباً عندهم حتى إنهم عبدوه وقدّموا له الذبائح والبخور واستمروا على عبادته فلما مات خلفه ابنه أثوتيس.

فى الكلام على الملك أثوتيس
(ومن ملك بعده من هذه العائلة)

تولى هذا الملك بعد أبيه ويقال إنه لبث عاملاً على مصر العليا والصعيد ثلاثين سنة فى حياة أبيه وهو الذى زين مدينة منف وحسنها وبنى فيها الهياكل والقصور المشيدة واشتغل بعلم التشريح وألف فيه رسالة استمدّ منها أطباء قدماء المصريين، قال صاحب العقد الثمين وهى التى تجددت كتابتها فى عهد رمسيس الثانى وعنوانها مكتوب فى الصحيفة الخامسة عشرة فى كتاب الأموات ونصه.

هذا أوّل مجموع فى التذاكر الطبية النافعة لمعالجة البرص قد نقل من صحيفة قديمة وجدت داخل محبرة تحت تمثال أنوب فى مدينة ليتوپوليس.

قال: وكان وجودها فى عصر الملك سيتى الذى هو الخامس من هذه العائلة حسب ترتيب الآثار وحيث إن بينه وبين الملك تتا (يعنى أثوتيس) ملكين فهذا يثبت للملك تتا المذكور معرفة علم الطب والتشريح ولعظم فائدة هذه الرسالة نقلت إلى الملك (سندا) المندرج اسمه فى جدول العائلة الثانية.

ومات الملك أثوتيس فقام بالأمر بعده كنكنيس ولم يعلم المؤرخون من أخباره شيئاً يذكر، ومات بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة، فقام بالأمر بعده (ونيفس) الأوّل. وفى أيام هذا الملك حصلت بمصر مجاعة عظيمة جداً ومن أعماله الهرم الموجود على شمالى الهرم المدرّج بسقارة وهو المعدّ قديماً لدفن ما كان يعبد من الثيران فى أيامه، قال صاحب العقد الثمين وقد استكشف هذا الهرم البارون فون مينونولى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية فوجده موضوعاً على خلاف وضع الأهرام لعدم اتجاه أركانه إلى النقط الأربع الأصلية وله أربعة أبواب وبداخله حجرات. قال فإن صح ذلك كان هذا الهرم أوّل هرم بنى فى مصر. اهـ.

ومات ونيفس المذكور بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين سنة، فقام بالأمر بعده ونيفس الثانى ولم يذكر المؤرخون من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة، ثم قام بالأمر بعده (سيتى) وهو الذى وجدت فى أيامه الرسالة الطبية التى ألفها الملك أثوتيس المكتوبة فى الباب الرابع والستين من كتاب الأموات، وهى من ضمن الرسائل الطبية المشتملة عليها الصحيفة القديمة الموجودة فى برلين كما رواه صاحب العقد الثمين ولم يذكر المؤرخون لهذا الملك شيئاً من الأخبار ومات بعد أن حكم عشرين سنة، فقام بالأمر بعده مية بيدوس ولم يعلم أيضاً من أخباره شىء ومات بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة، فقام بالأمر بعده مميسس وهو حفيد الملك سيتى وفشا فى أيام هذا الملك فى البلاد الوباء ففتك بالخلق فتكا ذريعاً ثم قامت فتنة عظيمة فاختلّ نظام البلاد وعكف الناس على ارتكاب المعاصى واستفحل أمر الفتنة فمات فى أثنائها الملك مميسس بعد أن حكم ثمانى عشرة سنة، فقام بالأمر بعده (ببه ننحس) وقد تولى الملك فى خلال الفتنة وانتشار الخلل فزاد الهيجان بتوليته واشتدت الفتنة وعظمت ولم تنطفىء نارها إلا بزوال العائلة الأولى هذه وبموت ببه ننحس المذكور الذى هو تاسع ملوكها وآخرهم فقامت بعدها العائلة الثانية المعروفة بالطينية.

الفصل الثانى

(فى العائلة الثانية المعروفة بالطينية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة فى سنة أربعة آلاف وسبعمائة وإحدى وخمسين قبل الميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها ثلاثمائة وستون سنة وعدة ملوكها تسعة وهم الآتى ذكرهم بعد، قال جماعة الكتاب ويقال: إن بين هذه العائلة وبين الملك (منا) أول مؤسس للمملكة المصرية قرابة

متواصلة ولكنه لم يقم من الأدلة ما يثبتها ولم يوجد في النقوش الأثرية لهؤلاء الملوك شيء سوى أسمائهم وكان أول ملوك هذه الدولة (الملك بوثوس)، قال مانيطون المؤرخ المصرى لما استولى الملك بوثوس على ملك مصر نزل رجز من السماء على مدينة بوبست المعروفة الآن بتل بسطه خسف بها الأرض وأهلك فيها خلقاً كثيراً. اهـ.

ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره أو آثاره شيئاً ومات بعد أن حكم ثمانياً وثلاثين سنة، فقام بالأمر بعده (كايه خوس) وفى أيامه عكف الناس على عبادة الحيوانات فعبدوا الثور أبيس بمدينة منف والثور منيفس بالمطرية والحمل المقدس بمدينة تمى الأمديد. قال صاحب العقد الثمين وذلك ما دلت عليه النقوش التى وجدت داخل مقابر منف بسقاره . اهـ.

ومات (كايه خوس) المذكور بعد أن حكم تسعاً وثلاثين سنة (فقام) بالأمر بعده بنيوثريس ومن أعماله أنه سن قانوناً أجاز به للنساء الحكم وورّثهن فى الملك كيلا يخرج الملك من بيته (قال ده روچيه) وحاصل ما فى هذا القانون أن الملك إذا مات وكان له أولاد ذكور كانوا أحق بالملك وإن لم يكن له ذكوراً أو كانوا وانقرضوا كان الحق فى الملك لبناته. اهـ.

(وقال ماسبرو) فى ذلك ما مؤداه أن كل ملك توفى عن زوجة ولم يعقب ولداً أو كان ولده قاصرا تولّت الملك من بعده زوجته بشرط أن لا تتزوّج فإن تزوّجت بغيره ممن ليس له الحق فى الملك لا يجوز لزوجها هذا أن يكون ملكاً وإنما يجوز لذريته منها أن يعطى لهم منصب الملك ولقب الفراعنة. اهـ.

وقد أجاز الملك بنيوثريس فى قانونه المذكور أن سلطة الملوك على الرعية حق مفروض عليهم أداؤه بالنيابة عن المعبودات؛ وبالغ فى هذا الأمر جداً حتى زعم أن دمه الذى فى عروقه من دماء المعبودات ولذلك جعل لنفسه السلطة على جميع صنوف الرعية ولقب نفسه بابن الشمس التى هى أعظم المعبودات ليثبت القرابة لنفسه ولمن يأت بعده بالمعبودات فسرى هذا الزعم منه إلى جميع الملوك المصريين إلى أيام الرومان ومن هذا الحين صارت الرعية لا تستخف بالملوك ولو ضعفت شوكتهم وذلك لخصائصهم القدسية وقرابتهم من المعبودات فإنه إن زالت عنهم دولة الحكم بقيت لهم حرمة التقديس، وأخذ المصريون من هذا القانون أن كل من أراد تأسيس عائلة غير ملوكية ووصلها بالعائلة الملوكية التى قبلها فليتزوّج من بنات الملوك أو يأخذ منهن لأولاده فيتم له وصف القرابة بينهما كما دلت على ذلك الآثار (ومات

الملك بنيوثريس) المذكور بعد أن حكم سبعاً وأربعين سنة(فقام)الأمر بعده (طلاس) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً (ومات) بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالأمر بعده الملك ستنس (قال مانيطون) المؤرخ المصرى كان الملك الخامس من هذه العائلة المدعو ستنس واسع العلم، كبير المعرفة، فكان لذلك محترماً إلى عهد اليونان، وقد أتم الرسالة الطبية التى وجدت فى مدينة سخم المعروفة عند اليونان باسم ليتوبوليس (ومات) بعد أن حكم إحدى وأربعين سنة، ومعنى ستنس باللغة القديمة المهول (ثم قام) بالأمر بعده خايرس ولم تذكر عنه جماعة الكتاب شيئًا (ومات) بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالأمر من بعده الملك نفرخرس وهو السابع من ملوك هذه الدولة. قال مانيطون: وقد حلا فى عصر هذا الملك ماء النيل حتى صار عذباً كالعسل وبقى على هذا الحال أحد عشر يوماً ومات نفرخرس المذكور بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة، فقام بالأمر بعده الملك سيسوخريس وهو ثامنهم. قال مانيطون وكان هذا الملك طويل القامة جداً، ونقل صاحب العقد الثمين عن علماء القلم المصرى القديم أن مقبرة (توت حُتب) الموجودة بمنف وتمثال (سبا) المحفوظ بمتحف باريس هما من آثار هذه العائلة لأنه يظهر من نقوشهما وصناعتهما وتصاويرهما أنهما من صناعة الحالة الأولى لكونهما أقل اتقاناً من صنائع المتأخرين (ومات) سيسوخريس المذكور بعد أن حكم ثمانياً وأربعين سنة (فقام) بالأمر بعده خينه رس وهو آخر ملوك هذه الدولة ولم تذكر أصحاب التاريخ من مآثره شيئاً (ومات) بعد أن حكم ثلاثين سنة وبموته انقرضت هذه الدولة التى هى من نسل الملك (منا) على ما رواه بعض أصحاب التاريخ الذين قالوا أيضاً أن الملك منا المذكور وإن كان قد أخضع لحكمه جميع القبائل القاطنة فى وادى النيل وأدخل تحت طاعته جميع رؤساء الأقسام بشرط أن يكون الحكم متوارثاً بينهم وبين ذريتهم إلا أنه لم يتمكن من جعل أهل مصر أمة واحدة وما زالت كذلك إلى أن تغلبت عليها ذريته فاختلطت القبائل بعضها ببعض وتآلفت وصارت أمة واحدة واشتهرت بالأمة المصرية، قيل وقد كان فى عصر هاتين العائلتين عائلات أخرى معاصرة ومشاغبة لهما ولبثوا كذلك إلى أن أطاعوا ودخلوا تحت حكم ملوك الدولتين (قال) صاحب العقد الثمين ولذا نجد أسماء بعض الملوك منقوشة على ألواح حجرية لم يذكرها مانيطون فى جدوله فلابد وأن تكون من تلك العائلات المضادّة لذرية منا . اهـ .
وبانقراض العائلة الثانية المذكورة على وجه ما تقدم قامت بعدها العائلة الثالثة المنفية.

الفصل الثالث

(فى العائلة الثالثة المعروفة بالمنفية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة تسع وأربعين وأربعمائة وأربعة آلاف قبل الميلاد أى سنة إحدى وسبعين وخمسة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وأربع عشرة سنة وعدة ملوكها تسعة أولهم الملك نخروفس. (قال) أصحاب التاريخ كان منشأ هذا الملك بمدينة منف وهو رأس العائلة الثالثة ولم يستقرّ به المنصب حتى قامت الفتنة فى البلاد واتصلت بسكان صحراء ليبية الداخلة تحت طاعة ملوك مصر من عهد الملك (منا) فسير لقتالهم عسكرا فالتقى الجمعان فى ليلة مقمرة فخيل لسكان الصحراء أن دائرة القمر تغير شكلها المعهود فخافوا وظنوا أن الله غضب عليهم لخروجهم على الملك نخروفس فبادروا بالطاعة له وانحسمت الفتنة واستتبّ الأمن وتوطد وأخذت البلاد فى الترقى فانتشرت العلوم واتسع نطاق الصنائع والفنون وما زالت تترقى فى أيامه حتى مات بعد أن حكم ثمانى وعشرين سنة كما رواه مانيطون المؤرخ فقام بالأمر بعده توسورثرس فحذا حذوه فى بث العلوم والصنائع فأحسن فن الكتابة وأتقن صناعة قطع الحجر ونحته وكان ماهراً فى علم الطب كالملك (تتا) وألف فيه كتبا تداولها الناس فى القرن الأول من التاريخ المسيحى ثم مات بعد أن حكم تسعاً وعشرين سنة فقام بالأمر بعده الملك تره يس ولم تذكر له جماعة الكتاب شيئاً ومات بعد أن حكم سبع سنين، فقام بالأمر بعده الملك سسوخريس ولم تعلم جماعة الكتاب من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالأمر بعده الملك سوفيس ولم يعلم من أخباره شىء ومات بعد أن حكم ست عشرة سنة، فقام بالأمر بعده الملك تسرتاريس ولم يعلم من أخباره شىء ومات بعد أن حكم تسع عشرة سنة، فقام بالأمر بعده الملك أخس ولم يعلم من أخباره شىء ومات بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة (فقام) بالأمر بعده الملك سفوريس ولم يعلم من أخباره شىء يذكر ومات بعد أن حكم ثلاثين سنة (فقام) بالأمر بعده الملك كرفريس وهو آخر ملوك هذه العائلة. قال مانيطون المؤرخ وفى أيام ملك هذه العائلة زادت ثروة المملكة وكثرت عماراتها (قال) صاحب العقد الثمين فمن تلك المبانى أبو الهول الموجود الآن بين الهرمين بالجيزة ويسمونه حورمخى أى شمس الأفقين يعنون بذلك الشمس وقت شروقها وغروبها وهما الوقتان اللذان كانوا يعبدونه فيهما وصورته على شكل سبع له رأس آدمى إشارة إلى القوة والعقل وبهذه المثابة جاز لهم أن يرمزوا به لكل ملك ذى قوة وتدبير حكم مصر ولذا ترى فى المتاحف والبرابى والهياكل وغيرها كثيراً من الملوك المصورة أجسامهم على هيئة سبع مع إتقان

وجوههم ودقة هيآتـهم الأصلية ومن هذه التماثيل ما هو كبير وصغير وأكبرها أبو الهول الموجـود بين أهرام الجيزة ومنها الهيكل الموجود بالجهة القبلية من أهرام الجيزة ويعـرف الآن بالكنيسة وهو من بدائع عصـرهم ومحاسن صنعهم لكـونه مبنياً بالحجر الصوّان المنحوت والجبس العظيم ومنهـا أيضاً جملة محاريب ومقابر بتلك الجهة كان سكان منف يدفنون فيها موتاهم خشية الغرق وكانت تلك المقابر تبعد عن منف بخمسة آلاف متر من الجـانب الغربى، وكان أغلب فقرائهم يدفنون موتاهم فى لحود على عمق متر واحد والمتوسطون يدفنون فى ضريح مربع مبنى بطوب أصفر غير متقن ولا يضعون معهم شيئاً سوى أوان من الفخار بجانب الجثة فيها طعام معد لغذاء الميت وقت بعثه يوم القيامة حسب اعتقادهم، وأما الأغنياء فكانت مقابرهم تتركب من ثلاثة أجزاء أولهـا حجرة ظاهرة منقوشة بأنواع النقوش والتصاوير المتقنة إما قليلاً أو كثيراً على قدر ميسرة أربابهـا وكانت هذه الحجرة معدّة لاجتماع أقارب الميت فيها وقت زيارة القبور. وثانيها حجرة صغيرة رأسية مفتوحة الفوهة فى حجرة أخرى من حجـرات المقبرة. وثالثها حـجرة أو عدة حجرات أخر فى أسـفل الحجرة الصغـيرة وهى المعدة لوضع جـثة الميت فيـها ولا يجوز لأحـد أن يدخلها، وبعض الناس يصنعون مقـابرهم بكيفية أخرى فينحتـون فى الجبل آباراً عميقة فـيها منامة أو جملة منامات معدة لمواراة الموتى وأهل هذه الطبـقة يضعون موتاهم فى توابيت على هيئة الإنسان عارية عن الرسوم ومصنوعة من جملة قطع ويثبتونها بمسامير من خشب ويكتبون فوقـها ما معناه (أنت فلان ابن السماء وخلقـة الأرض)، وفى عصر العائلة الحادية عـشرة جـعلوا يدهنون وجه التـابوت باللون الأصفـر أو الأبيض أو الأسود ويصوّرون فوقه المعـبودتين (أزيس ونفتيس) راكعتين وأجنحتـهما على التابوت وفى عـصر العـائلة الثـامنة عشـرة كانوا يلـونون التوابيت من باطـنها وظاهرها بالسـواد ويجعلون الوجه أحمـر ذهبياً ويرسمون على الصدر صورة عقـاب وفى عصر العائلة التاسعة عشرة إلى الحادية والعشرين كانوا يدهنون توابيتهم بالطلاء المعروف بالورنيش الذى فى لونه صفرة ويبالغون فى إتقان التصـاوير دون النقوش وكانوا يضعون الموميا الصغيرة أى الجثة المصبرة إما فى تابوت أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة يدخلون بعضها فى بعض، وفى عصر العائلة الثانية والعشرين إلى الثالثة والعشرين كانوا يلوّنون التوابيت من باطنها بلون أسود أو بلون الخشب ويجعلون وجهها أحمر وعلى رأسها عصائب مزخرفة ويلفون موتاهم بلفائف من القماش ثم اصطلحوا بعد ذلك على تلوين باطن التوابيت بالأبيض وتقسـيم أغطيتها بالألوان إلى أقسـام عديدة ويكتبون فوقهـا كتابة بمداد أخضر وفى زمن البـطالسة اتخذوا توابيتهم من الـصوان والمرمر الأزرق فكانوا ينقشون عليها نقوشاً متـقنة الصناعة (قال الراوى) فلو تأملنا جميع هذه التوابيت وما

عليها من النقوش والحلية علمنا ما كان يلزم للميت من النفقات والمصاريف الجسيمة التى كانت تزداد قيمتها بما يتبعها من كثرة النقوش والمبالغة فى التصاوير اهـ. وقد وجد مكتوباً على ورقة قديمة فى متحف فرنسا سميت باسم (بريس) الذى وجدها ما تعريبه أنه لما توفى الملك حوتى وهو (سفوريس) ثامن ملوك هذه العائلة تولى بعده الملك سنفرو وهو (كرفريس) تاسع هذه العائلة وكان محسناً لأهل مملكته. وفى مدته ثار عليه سكان جبل الطور وقعدوا على حدود مصر فقاتلهم وقهرهم واستولى على أرضهم وشيد فيها قلاعاً وحصوناً وديارا وحفر آباراً وأقام بتلك الأرض رجالاً تستخرج له المعادن من النحاس والحجارة الكريمة كالفيروزج وعساكر تخفرهم ثم رسم نفسه هناك على صخرة (بوادى مغارة) فى هيئة مقاتل يقمع أعداءه ونقش بجانب صورته ذكر غزوته (قال ده روچيه) ووضع اسمه داخل خانة ملوكية ولقب نفسه فى تلك الصخرة بخمسة ألقاب وهى (حور) ومعناه الكاهن و(موت نب) (عرع نب) ومعناه صاحب التاجين وهما تاج العقاب وتاج الثعبان و(حور نب) ومعناه المنصور الظافر بأعدائه و(سوثن سخت) ومعناه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى و(سارع) ومعناه ابن الشمس وهو الاسم المقدس المختص بالعائلة الملوكية وختم ذلك بجملة دعائية له وهى (عنخ ازاسنب) ومعناها دام بصحة وعافية قال فاقتدى به الملوك بعده فى جميع ذلك، ولما عاد إلى مصر بعد هذه الغزوة بنى فى حدود الدلتا قلاعاً وحصوناً بقيت إلى عصر العائلة الثانية عشرة وابتنى له هرماً سماه (خع) أى العيد ولم يعلم محله وإنما يقال أنه هو الموجود بميدوم بدليل وجود اسم هذا الملك منقوشاً على بعض جدران مقابر قديمة فى تلك الجهة كما رواه ده روچيه فى كتابه فى الست عائلات الأولى ولمدافعته عن بلاده أحبته الرعية وبالغت فى تعظيمه وعكفت على عبادته بعد وفاته واستمروا على عبادته واحترامه إلى عصر البطالسة وكان متزوجاً بالملكة مرتيتفس واصطلح ملوك هذه الطبقة على نقش أسماء أهرامهم فى الآثار بجانب أسمائهم فكان ذلك سبباً لسهولة معرفة أسماء الأهرام فى مدتهم كما رواه ده روچيه فى كتابه المذكور، ومن مآثر ملوك هذه العائلة التمثالان الموجودان الآن بمتحف بولاق أحدهما تمثال (رع حتب) وثانيهما تمثال (نفرت) زوجته المتخذان من حجر واحد وعليهما نقوش تدل على أن رع حتب كان الكاهن الأكبر فى المطرية وقائداً للجيوش المصرية وأن زوجته نفرت أعنى الجميلة كانت حفيدة ملك لم يعلم اسمه بعد اهـ. ومات الملك كرفريس بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة وبانقراض الدولة الثالثة المذكورة على وجه ما سبق بيانه قامت بعدها الدولة الرابعة المنفية.

الفصل الرابع

(فى العائلة الرابعة المنفية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة خمس وثلاثين ومائتين وأربعة آلاف قبل الميلاد أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وأربع وثمانون سنة وعدّة ملوكها أربعة عشر ملكاً (قال) أصحاب التاريخ ولم يعلم من أسمائهم غير ثمانية وسنذكر ستة منهم بعد وأولهم الملك خوفو وبظهور هذه العائلة ظهرت مصر بمظهر الارتقاء وحسن البناء والعمائر التاريخية.

فى الملك خوفو

كان هذا الملك غازياً شديد البأس عظيم المهابة قاتل طائفة من بنى عون وهم قبيلة من عرب البوادى الذين كانوا مستوطنين بناحية وادى مغارة وكانوا كثيرى التعدى على حدود مملكة مصر الشرقية من الجهة البحرية فأذلهم وأخضعهم وكان يحب تشييد العمارات والمبانى العظيمة فمن مآثره الهرم الأكبر الموجود بالجيزة واسمه (خوث) يعنى البهاء وكان العمال المشتغلون ببنائه مع المناوبة فى كل ثلاثة أشهر مائة ألف عامل واستمرت عمارته ثلاثين سنة منها عشرة فى توطيد أرضه وتأسيس حجارته السفلى وبناء الجسر الموصل إليه من شاطىء النيل بالحجارة لنقل الأحجار التى بنى بها هذا الهرم ومنها عشرون سنة فى تشييد ذات الهرم كما رواه هيرودوتس ونقل أيضاً عن بعض المؤرّخين أن قدماء المصريين إنما أرادوا ببناء تلك الأهرام منع المعتدين الذين ينتهكون الحرمات وينبشون القبور من سلب ما يكون فيها للموتى من التوابيت الجميلة والأوانى الفاخرة بالدخول فيها ووافقهم آخرون على ذلك وقالوا أن قدماء المصريين كانوا أشد الناس حرصاً على موتاهم ولذا صنعوا هذه المبانى الضخمة لإعجاز أهل الغايات عن التوصل إلى كنهها اهـ. كما رواه ماريت.

وقال صاحب العقد الثمين وهذا الهرم لم يحصل له خلل مع ثقله وطول مدته البالغة ستين قرناً وليس فى طوق البشر الآن أعمال بناء فيه حجرات وطرق وارتفاع بثقل يمكث زمناً كزمته (قال) وقد اطلعت على حجر بدار التحف المصرية عليه نقوش بجانبه الأيمن والأيسر فالتى على جانبه الأيمن تفيد أن الملك (خوفو) بنى هرمه المذكور والمقابر التى محيت آثارها الآن بجانب هيكل المعبودة إزيس المجاور ذلك الهيكل لمعبد أبى الهول من الجانب الغربى البحرى وأنه أنشأ أيضاً لابنته الأميرة

(حونت سن) هرماً بجوار هيكل إزيس المذكور ومن هذا يعلم أن أبا الهول ومعبده وهيكل إزيس كانت موجودة قبل بناء هرم خوفو ويستفاد من النقوش التي على جانبه الأيسر أن الملك المذكور كان أهدى هدايا للمعبودة إزيس المسماة أيضاً حاتحور واتخذها والدة له وأصلح معبدها ووضع بداخله التماثيل التي وجدها فيه من قبل وهي سفينة إزيس وتمثال (سلك) وتحوت وبتاح وحور وازيس ونفتيس وسخت وأزوريس وحيي وبجانب كل تمثال منها مكتوب اسم المادّة المتخذ منا فسفينة إزيس وتمثال حور وتحوت كانت من الخشب المطلي بالذهب وكان تمثال إزيس من الذهب والفضة وتمثال نفتيس من التنج (قال) وأثبت ذميخن أن الملك خوفو أصلح أيضاً هيكل حاتحور الذي بدندره ومن هنا يتضح لك أن دعوى اليونان على الملك خوفو بأنه كان ظالماً لرعيته في تسخيرهم لبناء هرمه وغلق أبواب الهياكل وإهانة المعبودات المصرية كذب لا أصل لهما لما علمت من تشييده الهياكل السابقة ولعل قولهم أنه ظالم لرعيته في بناء هرمه مبني على أنه لما قاتل بني عون وأسر رجالهم سخرهم في بناء هرمه كما هي عادة قدماء الملوك في معاملة الأسرى وهذا وحده لا يفيد أنه ظالم لرعيته (والأهرام) مقابر كانت تهتم في بنائها الفراعنة من تاريخ استيلائهم على الملك فيشيدون أولاً حجرة يدفنون فيها الملك بعد وفاته ثم يبنون عليها هرماً صغيراً ويعلونه طبقة فطبقة بالتدريج على حسب مدة حكم الملك فإن طالت مدته كان هرمه كبيراً شامخاً والافتراء صغيراً وعلى ذلك يكون عدد طبقات كل هرم دليلاً على عدد سني حكم صاحب ذلك الهرم وعدد الأهرام الموجودة في ديار مصر ينيف على المائة والمشهور منها سبعون هرماً اهـ. وفي عصر هذا الملك عثر أحد الكهنة على رسالة طبية بالقرب من محراب معبد مدينة ديموت ببلاد النوبة فنقلها إلى الملك خوفو وكتب على هذه الرسالة كيفية عثوره عليها بالألفاظ المعرّبة بما مؤدّاة (كانت الأرض محدقة بالظلام والقمر يضيء من كل جهة على هذه الرسالة) فأحضرتها أعجوبة لجلالة الملك خوفو اهـ. ثم مات (الملك خوفو) بعد أن حكم تسعاً وعشرين سنة فتولى الملك بعده سوفيس الأوّل وهو الملك رعد ددف.

(الملك رع ددف)

كان هذا الملك كثير العبادة شديد التدين فأحبته الرعية واحترمته وقدّسته وجعلته في مصاف المعبودات (قال أصحاب التاريخ) وقد وجد نقش على حجر لرجل مصري اسمه ابساموتيك بن أصاحور يفيد أن ابساموتيك المذكور كان كاهناً للمعبود (تانن) وللمعبودة (إزيس) ملكة الأهرام وكاهناً للملك خوفو وللملك خفرع الذي

هو سوفيس الثانى وللمقدّس رع ددف الذى هو سوفيس الأول وللمعبود حورمخى الذى هو أبو الهول ويظن أنه ابن الملك خوفو والأخ الأكبر لخفرع أى سوفيس الثانى قال بعض الكتاب فإن صح ذلك صدقت الرواية اليونانية بأن خفرع كان خليفة أخيه فى الحكم بدون ملك بينهما وكانت مدّة الملك سوفيس الأول المذكور ثلاثاً وستين سنة ثم مات وقام بالأمر بعده سوفيس الثانى ويسمى أيضاً خفرع.

(فى الملك خفرع)

قال أصحاب التاريخ من اليونان لما تولى الملك خفرع بعد موت أخيه رع ددف الذى هو سوفيس الأوّل شرع فى بناء الهرم الثانى بجانب هرم خوفو وجعله على وضعه وسماه (آر) يعنى الكبير قال صاحب العقد الثمين ويرى بجانبه محل قطع الأحجار التى كانت تستعمل فى بنائه وكلا الهرمين موضوع على جبل ارتفاعه مائة قدم (وروى هيرودوتس) عن المصريين أنهم نسبوا لهذا الملك الظلم والاعتساف بالرعية وقالوا أنه سار على سيرة الملك خوفو فى جميع أعماله وقد سخرهم فى بناء هرمه وأغلق الهياكل وشدّد عليهم فأبغضوه بغضاً شديداً كبغضهم للملك خوفو وكانوا يودّون لو أنهم لا ينطقون باسم أحدهما ولذلك سموا هرميهما براعى المواشى تهكماً واستهزاء وذكر ديودور الصقلى أن كلا الملكين حرم من بقائه مدفوناً فى هرمه وذلك لأن الرعية كانت تبغضهما بغضاً شديداً وقد عمدت إلى جثتهما فأخرجتهما من الهرمين وكسرت تابوتيهما وألقتهما على الأرض إهانة لهما قال ولم يستدل إلى الآن من الآثار على شىء من سيرة خفرع المذكور غير أنه عثر على سبعة تماثيل من حجر الصوّان على رسم صورته كانت ببئر فى المعبد المشهور الآن بالكنيسة التى قبلى أبى الهول فنقلت إلى دار التحف المصرى وحفظت فيها اهـ.

ومات خفرع المذكور بعد أن حكم ستاً وستين سنة على ما رواه مانيطون المؤرّخ فقام بالأمر بعده منكورع الذى يسمى أيضاً منخرس.

(فى الملك منكورع)
(المسمى أيضاً)
منخرس

(قال) جماعة الكتاب لما استقرّ بمنكورع المنصب عمد إلى إنشاء الهرم الثالث الموجود خلف الهرمين وبالغ فى إنجازه وسماه (حور) يعنى الأعلى قالوا وكان

منكورع هذا عادلاً محباً للرعية شفيقاً عليهم واسع الحلم كثير الرحمة فكان إذا تظلم أحد الناس من حكم يكون صدر عليه حنّ إليه وعمه بإحسانه ولاطفه ليهوّن عليه الأمر وقد دلت النقوش الأثرية على اهتمامه بأمر المعابد والهياً كل حيث أمر ولده (حورددف) أن يطوف على جميع المحاريب والمعابد فيصلح ما تخرّب منها وينشيء غيرها فى الكثير من المدن فقام بالأمر قالوا ولما كان يدبر العمل فى محاريب مدينة(ليتوپوليس) المعروفة الآن باسم (وسيم) عثر على كتابة مزبورة بلون أزرق على لوح من رخام فأحضرها إلى أبيه فرحاً مسروراً وقدّم اللوح إليه قال ماسپرو وهى الكتابة المدرجة ضمن المواعظ والحكم القديمة التى جمعها علماء اللغة الهرمسية فى الباب الرابع والستين من كتاب الأموات فصعب عليهم حلها لأنها أعجزت أهلها كماجاء فى قول كاتب من عصر الرمسيسية إلى رفيقة له وهو (تأتيني بأسرار كبيرة) أى بمواعظ وحكم عن الأمير حور ددف وتقول لى أنك ما علمت منها طيباً ولا رديئًا وكأنها سور منيع لا يمكن تجاوزه وكيف تقول ذلك مع إنك كاتب ماهر فائق على أقرانك فطن ولك فكر رائق وكلام موزون إذا قلت كلمة كانت أعظم من ثلاث كلمات صدرت عن غيرك ولقد تركتنى أصم بما حصل لى من فزع قولك. قال: وبهذا يتضح لك أن المواعظ والحكم القديمة كانت صعبة على أهلها ولذا يتعسر الآن على علماء القلم المصرى القديم حل معضلاتها اهـ.

وكان الملك منكورع حليماً ومآثره كثيرة منها عدّة مؤلفات فى علم الدين وكان شديد الرغبة فى تقدّم وطنه والارتقاء به إلى درجات التمدّن والتقدم ولذلك كفل الملك شبسكاف الذى تولى الملك بعده فجعله فى بيته وأحسن تربيته بين عائلته وزوّجه بابنته المسماة (معت خع) ليؤهله لارتقاء منصة الملك من بعده.

(قال صاحب العقد الثمين) وقد وجدت جثة الملك منكورع هذا فى تابوت من حجر الصوّان داخل هرمه فأرادت دولة الإنجليز نقله إلى متحفها فغرقت السفينة به فى ساحل البرتغال ولم تتحصل على شيء منه سوى الجثة وغطاء التابوت المحفوظين إلى الآن فى متحفها وهذا الغطاء مصنوع من خشب الجميز على شكل آدمى وعليه نقوش تتضمن دعوات طيبة له وتدل على أنه كان ملكاً على جميع أرض مصر اهـ.

ومات بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة كما شوهد ذلك على الآثار القديمة وفى رواية مانيطون ثلاثاً وستين سنة فقام بالأمر بعده شبسكاف وهو خامس ملوك هذه الدولة ويسميه مانيطون فى جدوله باسم سبرخرس.

(فى الملك شبسكاف)
(المسمى أيضاً)
سبرخرس

هو خامس ملوك هذه الدولة ولما استقر به الملك أمر ببناء الإيوان الغربى الموجود بمعبد بتاح بمنف قالوا وهو أعظم إيوان مزين بالصور والرسوم الغريبة ليمتاز بذلك عن أسلافه وبنى له هرماً يعرف باسم (شبسكافكب). قال هيرودوتس ونقش عليه يعنى على الهرم المذكور نقوشاً معناها.

لا تحقر هرمى بين الأهرام المبنية بالحجارة لإنى أفضله عليها تفضيل المشترى على جميع الكواكب إذ كان بناؤه بطوب متخذ من خشب مبلول فى مستنقع ماء امتص ذلك الخشب طفل المستنقع. وقال أيضاً أن هذا الملك كان أحد الخمسة المشرعين بالديار المصرية وأنه رتب الديانة وأبدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسن قانونا للقرض يجوّز للمرء أن يرهن جثة والده عند الغير ويأذن للدائن أن يتصرف فى مقبرة المدين حتى يوفيه دينه فإن لم يوفه حرم المدين هو وذريته من الدفن فيه بعد وفاتهم.

ومات بعد أن حكم سبع سنين كما جاء فى جدول مانيطون المؤرخ فقام بالأمر بعده (ثامقيش) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم تسع سنين وبه انتهت العائلة الرابعة ولم يعلم من أخبارها غير ما ذكر وقامت بعدها العائلة الخامسة التى كان تخت حكمها جزيرة أسوان.

الفصل الخامس
(فى العائلة الخامسة التى كان تحت حكمها
جزيرة أسوان)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة إحدى وستين وتسعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وثمان وأربعون سنة وعدة ملوكها تسعة، قال ده روجه: ولم يظهر لنا من تاريخ هذه العائلة بعد البحث والتنقيب من الآثار وغيرها إلا ما سنذكره لبعض ملوكها وكان أوّل هذه العائلة الملك إسكاف ويقال له أيضاً اسركاف.

(فى الملك إسكاف)
(الذى يقال له)
(اسركاف)

قال أصحاب التاريخ كان هذا الملك محباً للرعية عادلاً دينا موقراً فكانت الرعية تحبه وتحترمه وتجله الكهنة إجلالاً عظيماً ولذلك جعلوا له وقتاً معيناً للعبادة وسماه مانيطون فى جدوله باسم اسرخرس وابتنى اسركاف هذا لنفسه هرماً سماه عب ستو يعني (المكان الطاهر) ولم يعلم من أخباره شيء غير ما ذكر ومات بعد أن حكم ثمان سنين وقال مانيطون ثمانياً وعشرين سنة.

فقام بالأمر بعده الملك سحورع الذى يسميه مانيطون سفرس ولهذا الملك هرم على شمال قرية بوصير واسمه خعبا ومعناه بعثة الروح قالوا وله فى وادى مغارة لوحة أثرية موجودة للآن ومنقوش عليها رسم صورته على هيئة المنصور على أعدائه وأمام صورته نقوش يستفاد منها أنه قهر جميع أعدائه وتغلب عليهم قالوا ولبث المصريون يعبدون هذا الملك بعد موته زمناً طويلاً وقد وجد فى عصر اليونان هيكل معدّ لعبادته وبداخله أسماء الكهنة الذين كانوا معينين لخدمته وكان لهذا الملك مدينة شهيرة على مقربة من إسنا سماها پاسحورع وقد محيت آثارها الآن ومات بعد أن حكم أربع سنين وقال مانيطون ثلاث عشرة سنة.

فقام بالأمر بعده الملك ككا ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم سنتين.

فقام بالأمر بعده الملك نفرار كارع ويسميه مانيطون نفرخرس ولهذا الملك هرم سماه (با) ومعناه الروح وفى أيام هذا الملك ازداد تمدن البلاد واشتغل أهلها بالعلوم والآداب. قالوا وقدوجد بين قبور هذا العصر أسماء لكثير من الأدباء مثل(أورخوو) و(ينحوك) قالوا وكلاهما كان حائزا للشرف العالى بين قومه.

ومات نفرار كارع بعد أن حكم عشرين سنة فقام بالأمر بعده الملك شبسكارع ولم تذكر عنه جماعة الكتاب شيئاً ومات بعد أن حكم عشرين سنة كما رواه مانيطون المؤرخ.

فقام بالأمر بعده الملك خع نفررع ولم يوجد له شيء يذكر سوى اسمه ومات ولعل مدة حكمه كانت مع مدة شبسكارع فيكون الاثنان حكماً معاً. وقال مانيطون

أنه حكم سبع سنين ويسميه باسم سيسيرس ثم قام بالأمر بعدهما الملك وعنوسر ويسميه مانيطون المؤرخ ريورّس قالوا وهو أول من أضاف اسم (آن) وهو اسم عائلته إلى اسمه فكان يقال له بعد ذلك رعنوسر آن وكان ملكاً محارباً كثير الغزوات غزا سكان جبل الطور وانتصر عليهم وبنى له هرماً ببوصير سماه (من ستو) ومعناه المحل المتين فلما مات دفن في الهرم المذكور بعد أن حكم إحدى عشرة سنة وقال مانيطون بل أربعاً وأربعين سنة.

فقام بالأمر بعده الملك منكاحور ويسميه مانيطون المؤرخ فى جدوله منخرس وله هرم يعرف باسم نترستو ومعناه المحل المقدس قالوا والغالب أن موضع هذا الهرم بجهة سقارة ومات بعد أن حكم ثمان سنين وقال مانيطون تسع سنين فتولى الملك بعده الملك دد كارع.

(فى الملك دد كارع)
(الذى يقال له أيضاً)
(تتحرس)

كان دد كارع المذكور كثير العناية بالعلوم والصنائع وقد استكشف فى أيامه معادن بوادى مغارة وابتنى له هرماً كأسلافه الفراعنة وسماه نفر ومعناه الجميل. قالوا ولم يعلم مكانه إلى الآن وكان له ولد من العلوم والفلسفة بمكان عظيم اسمه بتاح حتب وقد شاخ ومات ودفن بجانب مقبرة (تى) واشتهر بالعلوم والمعارف التى نقلت عنه وكذلك المواعظ والحكم التى منها إذا كبرت بعد الصغر أو حزت مالا بعد الفقر وصرت به الأوّل فى مدينتك وازدادت به شهرتك فلا تعظم نفسك بسببه لأن الله منّ عليك به ولا تحقر امرأ كان كما كنت فقيراً أو كان ذا مال مثلك ميسوراً ومنها كن وجيهاً ما دمت حياً ومنها متى صار للمرء اعتبار وساح فى الأرض وتأهل بامرأة فإن كان عاقلاً جهز بيته وأحب زوجته ولم يتنازع معها وأطعمها وزينها بتحسين أعضائها وعطرها وجعلها مسرورة مدة حياته ولا يكون عليها متوحشاً قاسياً، ومنها أيها الهنهان (اسم لمعبود) صاحب العمر الكبير متى أتى للمرء الهرم وحصل له الضعف والعجز وأتاه النذير ورقد متألماً صغرت عيناه وثقلت أذناه واضمحلت قوته وتلجلج لسانه وأظلم قلبه ووهن العظم منه حتى لا يفكر فى أمس ويلازمه النسيان لضرّ ألم به فيتبدل معه الطيب بالخبيث الذميم ويذهب عنه الطعم والذوق السليم كيف لا وهو الهرم الذى يصير الإنسان فى أسوأ حال وأقبح هيئة ومآل فيعطل حواس شمه

حتى لا يستنشق رائحة العود ويكلّ من الوقوف والقعود فماذا يفعل الإنسان إذا وصل لحالتى وسمع مقالتى. فقال الهنهان تعلم نصيحة من سلف التى يستغربها الصغار ويستعملها كبار الخلف وهى (ادفع عنك أذى العقلاء ولا تسىء أحدا ولو من الأعداء) اهـ. كما نقله ماسبرو.

(ومات الملك) دد كارع المذكور بعد أن حكم ثمانياً وعشرين سنة وقال مانيطون بل أربعاً وأربعين سنة فقام بالأمر بعده الملك أوتاس وهو آخر ملوك هذه العائلة على ما رواه جماعة المؤرخين.

(فى الملك أوتاس)
(الذى يقال له أيضاً)
(آتوس)

لما ارتقى أوتاس المذكور عرش الملك ابتنى له هرماً بسقارة وسماه نفرستو ومعناه الجميل قال صاحب العقد الثمين فتح يعنى الهرم سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وألف للميلاد وهو الموضوع فى الجنوب الغربى من الهرم المدرج ويرى حوله كثيب من الرمال والحصباء ناشىء من عمليات الفتح التى حصلت فيه قبل الآن ومن تساقط كسوته الظاهرة التى كانت مصنوعة من حجارة طرا ويرى على ظاهره هيئة الدمار وسقوط الصخور والأحجار وكان عرض قاعدته مائتين وعشرين قدماً وارتفاعه اثنتين وستين قدماً فتناقصت الآن مقاييسه لما حصل فيه من الهدم والدمار من أهل الغوايات الذين سعوا فى فتحه لأخذ ما كان مكنوزاً فيه حسب اعتقادهم فلما أزالوا الكسوة الظاهرة وتوصلوا إلى مدخله وجدوه مسدوداً بالصخور التى لا يمكنهم إزالتها فاضطروا إلى فتح كوة معطفة طولها تقريباً سبعة أمتار توصلوا بها إلى المدخل الأصلى وهو عبارة عن طرقة طويلة عرضها متر وستة وثلاثون سنتيمتر مكتوب عليها بالمداد الأحمر أحمد النجار. قال: ولعله هو الذى أيضاً فتح هرم الملك خوفو الموجود بالجيزة مدة المأمون لرسم اسمه فيه فإن صح ذلك كان فتح هذا الهرم سنة عشرين وثمانمائة هجرية. ومن تلك الطرقة يتوصل إلى قاعة معدة لاستراحة الزائرين وكان طولها ثلاثة أمتار وتسعة وثمانين سنتيمتر وعرضها مترين وستة وخمسين سنتيمتر ثم تمتد من تلك القاعة طرقة أخرى يوجد فى وسطها ثلاثة حواجز ارتفاع كل واحد منها الآن متر واحد وكانت من قبل مجعولة لسد مدخل الهرم ثم تنتهي بقاعة وسطى طولها ثلاثة أمتار وخمسة وسبعون سنتيمترا وعرضها ثلاثة أمتار

وثمانية سنتيمتر وفيها طرقتان إحداهما على اليمين والأخرى على اليسار فالتى على يمين الداخل طولها متر وخمسون سنتيمتراً وعرضها متر وستة وثلاثون سنتيمتراً وتفضي إلى حجرة طولها سبعة أمتار وتسعة وعشرون سنتيمتراً وعرضها ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتيمتراً. قال ولما فتح الهرم لم يوجد به شيء سوى تابوت الملك المتخذ من المرمر الأسود وغطاؤه ملقى بعيداً عنه وذراع الملك الأيمن وعظم ساقه وبعض قطع من أكفانه ويرى فى وسط هذه الحجرة حفرة كبيرة كان حفرها اللصوص للبحث عن دفائن كنوزية والتى على يسار الداخل مقاسها كالطرقة السابقة وتوصل إلى طرقة أخرى فتقطعها فى وسطها وطولها ستة أمتار وثلاثة وتسعون سنتيمتراً وعرضها متران وخمسة وثمانون سنتيمترا وجانبها الشرقى مقسم بفاصلين إلى ثلاثة أقسام كل فاصل بارز فى الطرقة بمقدار متر وخمسة وعشرين سنتيمتراً ويرى على حجرات هذا الهرم نقوش هيروغليفية محفورة فى حيطانه ترجمها جناب ماسپرو مدير الانتيكخانة الآن فى كتاب مخصوص وهى عبارة عن أدعية اعتاد قدماء المصريين كتابتها فى القبور. قال: وقد أعرضنا عن درج ترجمتها هنا لعدم أهميتها وهذا الهرم معد الآن للفرجة اهـ. بنصه ومات الملك أوتاس بعد أن حكم ثلاثاً وثلاثين سنة (قال بعض الكتاب) وقد اتضح من الصحيفة المصرية القديمة المحفوظة الآن فى متحف تورينو بإيطاليا أن الملك أوتاس المذكور كان المتمم للقسم الأول من طائفة الفراعنة وأن ملوك هذا القسم الذين حكموا مصر على عمود التعاقب من عهد (منا) إلى أوتاس المذكور كانوا من نسل (منا) وبعد موت الملك أوتاس انقرضت ذرية (منا) ونسله كما حققه بعض المؤرخين. وقال آخرون بل إن الملك (تتا) أحد ملوك العائلة السادسة هو آخر نسل الملك (منا) ولكل حجة وبانقراض هذه العائلة أى الخامسة قامت بعدها العائلة السادسة التى كانت قاعدة ملكها جزيرة أسوان.

الفصل السادس

(فى العائلة السادسة التى قاعدتها جزيرة أسوان)

كان ابتداء ملك هذه العائلة سنة ثلاث وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتا سنة وثلاث سنوات وعدد ملوكها ستة أولهم الملك آتى الذى يقال له أتوس وشريكه الملك تتا.

(فى الملك آتى والملك تتا شريكه)

كان الملك (آتى) المذكور قبل ولايته حاكماً على الإقليم القبلي. ويقال أنه كان من جزيرة أسوان وقيل أنه من العرابة المدفونة، وأما الملك (تتا) فكان حاكماً على الأقاليم البحرية فعدّهما أصحاب التاريخ لذلك كملك واحد لحكمهما فى وقت واحد. وقد كان (تتا) المذكور آخر من ولد من الملوك بمدينة منف كما قاله بعض المؤرخين. وقال آخرون أن الملك (آتى) هو رأس العائلة السادسة المذكورة وأول ملك منها حكم البلاد وقد بنى له هرماً سماه (بايو) ومعناه هرم الأرواح وجلب إليه الأحجار من وادى الحمامات فى السنة الأولى من حكمه وعين لهذا العمل رئيساً اسمه (احى خفا) والأمير (تحوت ارينى) وملاحظين اسم الأول منهما (أبى) والثانى (بتاح انكيو) ومائتين من العساكر ومائتين من العمال ومثلهم من أهل الصناعة وشيده على نحو ما أراد وأما الملك (تتا) فقد بنى له هرماً آخر وسماه (ددستو) ومعناه أمتن المحال صلابة ولقبه بابن الشمس. قال أصحاب التاريخ ولم يسبقه بهذه التسمية أحد فى هرمه. قال مانيطون المؤرخ: ومات بعد أن حكم ثلاثين سنة قتله عساكره فتولى بعد موته وموت (تتا) شريكه المذكور (مريرع) الذى يسميه مانيطون باسم فيوس.

(فى الملك مريرع)
(الذى يسمى أيضاً
فيوس)

تولى مريرع المنصب الملوكى فجعل تحت حكمه جزيرة أسوان كما فعل الملك (آتى) سلفه فانحط لذلك قدر مدينة منف وأخذت بهجتها فى الزوال وظهرت عليها جزيرة أسوان وكان مريرع المذكور عاقلاً محباً لتقدم البلاد وعمرانها فاستوزر رجلاً اسمه (اونا). قال العلامة د. روجيه. وكان (اونا) هذا فى أول أمره رئيس كهنة الملك (تتا) وكان مسموع الكلمة عنده فقلبه فى أكبر الوظائف وأعلاها وقد كان رباه فى بيته فلما تولى الملك مريرع استوزره وسلمه مقاليد الأمور ورسم له بالذهاب إلى طرا ليبحث له هناك على صخرة بيضاء يصنع منها تابوتاً لجثته فتوجه (أونا) المذكور وأتى إليه بالصخرة فزاد عنده قبولاً وأخذ من هذا الحين يزيد فى ترقيه حتى ولاه نظارة أشغاله فأحسن التدبير وفرح المصريون به لحسن سياسته ووجه الملك مريرع عنايته إلى استكشاف المعادن فرتب لها الملاحظين والعمال حتى كثرت محصولاتها

وزادت عما كانت عليه قبل أيامه وفتح طريقاً مخصوصاً فى الصحراء من قفط إلى البحرالأحمر تسهيلاً للمسافرين وفتح طريقاً أخرى فيها للتجارة واختط مدينة جديدة فى مصر الوسطى وأصلح معبد (حاتحور) الذى بدندره حتى أعاده إلى ما كان عليه وكانت الحوادث قد دمرته فى العصر القديم ولقب نفسه بابن (حاتحور) وأدرج هذا اللقب مع اسمه فى خانة ملوكية وخرج عليه أهالى النوبة وقبائل الشام المسماة (عمو) وقبائل هيروشا القاطنون أيضاً فى جنوب بلاد الشام وكانوا أهل قوة ومنعة فركب إليهم وغزاهم وتغلب عليهم وأرجعهم إلى الطاعة قال صاحب العقد الثمين وتفصيل ذلك منقوش على لوحة (اونا) الحجرية وهو وزيره وتعريبها ملخصاً من كتاب العلامة ده روچيه.

(إن جلالة الملك بيبى) وهو لقب الملك مريرع جيش جيشاً عظيماً من كافة أرجاء مصر ومن بلاد أرمنت ومن بلاد العبيد وهى أمام (واوات) (وكاوو) (وتمام) وأرسل (اونا) على هذا الجيش بعد أن رتبه وعلمه بمشاهير رجال دولته فتوجه به (اونا) إلى قتال الحروشعيين وغزاهم وهدم حصونهم وقطع أشجارهم ودواليهم وحرق زرعهم وقتل من عساكرهم ألوفاً عديدة وأسر جما غفيراً من رجالهم ونسائهم وأطفالهم ورجع بجيشه سالما منصورا من غير ضرر ففرح به الملك فرحاً كبيراً واستعمل الأسارى فى أشغاله وباع العبيد منهم. وقال (اونا) إنى توجهت خمس مرات بهذا الجيش المجند إلى قتال بلاد (حروشع) وقهرت عصاتهم ثم عصاة بلاد (تجع) التى هى على شمال حروشع فسرت إليهم بهذا الجيش، وقاتلتهم قتالاً شديداً حتى أهلكت جميع عصاتهم وبهم انتهت الحرب وانقادت لأوامر الملك جميع البلاد. قال ولما تمت هذه الغزوات نلت عند الملك مزيد الشرف والقبول وتكرم علىّ بعدم خلع نعالى عند دخولى فى القصر عليه وتمثلى بين يديه اهـ.

وعادت بعد ذلك الراحة إلى عموم البلاد وخضعت أهالى النوبة والليبيا وجهات آسية المتاخمة للدلتا وبلاد الحبشة واسترجع هذا الملك إلى ملكه جبل الطور وقد كانت ضمته إليها بلاد آسية على عهد من سلفه من الملوك وملأ ديار مصر بالآثار العظيمة فكان أعظم ملوك هذه العائلة وبه نالت مصر شهرة عظيمة وراحة كبيرة ومات بعد أن حكم أربع عشرة سنة وقال مانيطون بل ثلاثاً وخمسين فقام بالأمر بعده الملك مرنرع الأول الملقب (سوكرمساف) ويسميه مانيطون باسم مثه سوفس الأول.

(فى الملك مرنرع)
(أو)
(مثه سوفس الأول)

هو ابن الملك مريرع وكانت أيامه كلها راحة واطمئناناً فقد مهد له أبوه العقبات وأرهب جميع الأمم المخالفة المتاخمة لديار مصر فى أيامه فبقيت على الطاعة والسكينة واستوزر مرنرع المذكور وزير أبيه المسمى (اونا) وفوض إليه تدبير المملكة والنظر فى مصالح الرعية وسلم إليه عدة وظائف أخرى مهمة منها ولاية الحكم على الإقليم القبلى بأجمعه وهذا المنصب لم ينله أحد من قبل. قالوا ورسم له بأن يصنع له هرماً وناووسا، فأخذ (اونا) السفن ومراكب الحمل مع سفينة حربية، وهى أول سفينة حربية صنعت فى ديار مصر وسار إلى بلاد (أيبها) وإلى جزيرة أسوان لجلب الحجارة اللازمة لبناء الهرم والناووس ومنها إلى بلاد حانوب المشهورة بجودة الأحجار لإحضار مائدة عظيمة للمعاقرة وأتى بجميع ذلك على ظهر النيل وقت فيضانه ولم يسبق لهذا العمل مثيل من عهد الملك (منا) ثم أخذ فى بناء الهرم فما أتم بناءه حتى مات فحضر الملك جنازته ومشى أمامه حتى واروه التراب.

(ومات الملك مرنرع) أيضاً بعد أن حكم سبع سنين فقام بالأمر بعده الملك نفر كارع الذى يسميه مانيطون فيوبس.

(فى الملك نفر كارع)
(ويسمى أيضاً)
(فيوپس)

(تولى الملك نفر كارع) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره ما يعادل سنى ملكه فقد حكم قرنا كاملاً كما رواه مانيطون المؤرخ وتسعين سنة كما دلت عليه الآثار غاية ما قالوه عنه أنه رسم باستخراج المعادن من جبل الطور فى السنة الحادية عشرة من ملكه وأنه طرد من كان فيه من القبائل المتوحشة وبنى له هرماً سماه (من عنخ) ومعناه دار الحياة فبلغت مصر فى أيامه من الشهرة واتساع الكلمة وبعد الصيت مبلغاً عظيماً وبقيت محافظة على حدودها وملحقاتها زماناً طويلاً وقد لقبه اليونان (ببيى) قال بعض الكتاب وعلى هذه التسمية يكون هو (ببيى الثانى) ومات فقام بالأمر بعده الملك مرنرع الثانى الذى يسميه مانيطون مثه سوفس الثانى.

(فى الملك مرنرع الثانى)
(ويسمى أيضاً
مته سوفس الثانى)

(تولى مرنرع الثانى) الملك ولقب سوكرمساف الثانى ولم يستقرّ به المنصب حتى قامت الفتنة بين أهل البلاد واضطرمت نارها وارتفع لهبها فقاموا عليه وعصوه وقتلوه فكان خامس ملوك هذه العائلة وكانت مدة حكمه سنة واحدة فقامت بالأمر بعده أخته وزوجته الملكة نيتوقريس التى تسمى أيضاً ليوتوقريس.

فى الملكة نيتوقريس

كانت هذه الملكة من أجمل نساء عصرها وأشهرهن فضلاً وكمالاً وهى أخت وزوجة الملك مرنرع الثانى ولقبها مانيطون المؤرخ فى تاريخه بموردّة الخدين قالوا ولما استقرّ بها المنصب عمدت إلى الأخذ بثأر أخيها الذى هو زوجها من قاتليه وقد كانوا بعض رجال الدولة فاحتالت عليهم وجذبتهم إلى قصر لها تحت الأرض بقرب النيل بدعوى وليمة أعدتها لهم فلما جلسوا للطعام أمرت بانسياب النيل عليهم فغرقوا جميعاً وماتوا ويقال أنها ألقت نفسها بعد ذلك فى محل ممتلىء برماد فماتت فيه حتى لا تكون عرضة للعقاب وكانت مدة حكمها اثنتى عشرة سنة قالوا وفى أيامها أتمت الهرم الثالث الذى تركه الملك منكورع ناقص البناء وعظمت بناءه وكسته من الخارج بحجر الصوان واتخذت لها منامة فى وسطه بأعلى الحجرة التى دفن فيها الملك منكورع من قبلها بثمانمائة سنة.

وفى عهد هذه العائلة تقدمت صنعة التصوير والنقش واتسعت وأتقنت غاية الاتقان وكانت قبلها فى حالة واحدة متشابهة وانتشرت عبادة المعبود أزوريس وعمت جميع الأنحاء وقد كانت قبلها قليلة إلا فى بعض المدن وانتهت سنو ملك العائلة المذكورة بموت الملكة نيتوقريس التى كانت آخر ملوكها وقامت بعدها العائلة السابعة والثامنة المنفية والتاسعة والعاشرة الأهناسية على الترتيب الآتى بعد.

الفصل السابع

(فى العائلة السابعة والثامنة المنفية
(والتاسعة والعاشرة الأهناسية)

(قال أصحاب التاريخ) لم يتأت لأحد من جماعة الكتاب الاهتداء إلى معرفة

أخبار ملوك هذه العائلات ولا معرفة شيء من أخبارها فأن هذا الدور وهو الممتد من آخر الدولة السادسة إلى أوائل الدولة الحادية عشرة يعدّ من أشكل أزمان تاريخ مصر وملوكـها ويقـدّر بنحو أربعـمائة وثلاثين سنة حـتى إن مانيطون المؤرخ المصـرى لم يتعرض لذكر أسمائهـم ولم يأت على شيء من أخبارهم قالوا والغالب أنه إلى ذلك الحين لم تكن لتهتدى جماعة الكتاب على الجهات التى توجد فيها آثار هذه العائلات الأربع المذكورة (قال صاحب العقد الثـمين) وهذا القول هو الأرجح ويؤيده ما ذكره مريت باشا فى تاريخه من أنه يوجد بوجه الظن لهذه العائلات آثار فى نواحى ميدوم والفنت وإهناس المدينة، وفى سائر المنطقة الأرضيـة التى فى مدخل وادى الفيوم قال غير أننا إلى الآن لم نطلع عليـها ولم نقف على حقيقتهـا وما ورد عن مانيطون فى هذه العائلات الأربع هو أن العائلة السابعة كانت قاعدة حكمها مدينة منف وملوكها خمسة من غير أن يعين أسماءهم وكانت مدة حكمهم خمسة وسبعين يوماًوفى رواية سبـعين يوماً وفى أخرى سـبعين سنة. وقد ذكـر بعض الكتاب ابتداء ملكهم فـقال ملكوا سنة خمســمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة اثنتين وعشـرين ومائة وأربعة آلاف قبل الهجـرة والذى وجد من أسمائهم فى ورقة تورينو أربعـة وهم نفر كارع. وقد حكم سنتين وشهراً ويوماً ونفـروس وقد حكم أربع سنين وشهرين ويوماً وآخر ومحل اسمه مقطوع من تلك الورقة وقد حكم سنة واحدة وثمانية أيام.

وأن العائلة الثامنة كانت قاعدتها مدينة منف وملوكها سبعة وعشرون ملكاً وفى رواية تسعة عشر وقيل تسعة وقيل خمسة ملوك ومدة حكمهم مائتان واثنتان وأربعون سنة وفى رواية مائة سنة وأن ابتداء ملكهم كان سنة خمسمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة اثنتين وعـشرين ومائة وأربعة آلاف قبل الهـجرة وأن العائلة التاسـعة كانت قاعـدة ملكها إهـناس المدينة المتآخـمة لمدينة بنى سـويف على شاطىء بحـر يوسف وملوكـها تسـعة عـشـر وفى رواية أربعة لم يعلم مـنهم سوى ملك واحـد واسمـه (اكتوس) وكـانت سنو ملك هذه الدولة مائة سنة وتسع سنين وقيل مـائة سنة وكان ابتداء ملكهم سنة ثمـان وخمسين وثلاثمائة وثلاثة آلاف قـبل الميلاد أى سنة ثمانين وتسعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وأن العـائلة العاشرة كانت قاعدتها إهناس المدينة أيضاً وعدة ملوكهـا تسعة عشر وسنو ملكهم مائة وخـمس وثمانون سنة وكان ابتداء حكمهم سنة تسع وأربعين ومـائتين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة إحدى وسـبعين وثمانمائة وثلاثة آلاف قبل الهـجرة قالوا وقد وجد بعض أسماء ملوك هذه العائلات الأربع منقـوشاً على لوحـة حجـرية فى هيكل سـيتى الأول بالعـرابة المدفونة (قـال صاحب العقد الثمين) ومرتب فى هذا الجدول على الصورة الآتية:

نمرة اللوحة	أسماء	ألقاب	نمرة اللوحة	أسماء	ألقاب
٤٠	نتركارع		٤٩	نفركارع	ترل
٤١	منكارع		٥٠	نفر كاحور	بيبي سنب
٤٢	نفركارع		٥١	نفركارع	
٤٣	نفركارع	نبي	٥٢	نفر كارع	عنو
٤٤	دد كارع	شما	٥٣	كورع	
٤٥	نفر كارع	خوندو	٥٤	نفر كورع	
٤٦	مرنحور		٥٥	نفركو حور	
٤٧	سنفركا		٥٦	نفرار كارع	
٤٨	رعنكا				

قال وهذا أصح ترتيب وجد لأسماء ملوك هذه العائلات وكان سبب انقراض العائلة السابعة والثامنة هيجانا داخلياً استمر نحو مائة وخمسين سنة ثم بعدها ظهرت العائلة التاسعة والعاشرة من إهناس المدينة التى كانت تسمى قديماً (خينتسو) وتسميها اليونان (هيرقليوپوليس) وهى على قيد ثلاثين فرسخا من منف وكان موقعها جهة الغرب فى جزيرة عظيمة أحدثها فرع النيل الذى كان جارياً إذ ذاك تحت سفح جبل ليبيا ولم تكن إهناس المذكورة دار سياسة والذى أشهرها ملك يدعى (أخيثوس) مذكور اسمه فى كتب اليونان أنه من هذه العائلات وكان رجلاً جباراً متمرداً ظلوماً فأصيب فى آخر أيامه بالجنون ثم ابتلعه تمساح كما رواه هيرودوتس المؤرخ وكانت مدة حكم هاتين العائلتين ستمائة وقيل ثلثمائة سنة ولم يذكر أصحاب التاريخ أن كان حكمها عم ديار مصر جميعها أو تناول بعضها. قالوا وإنما قد تحقق من الآثار أنه حصل بين الملكين المتممين للعائلة العاشرة وبين أمراء طيبة بالإقليم القبلى محاربات انتصر فيها الأمراء على الملكين المذكورين ثم تعاهدوا على ترك الأقاليم القبلية للأمراء المذكورين بشرط أن يحكموا بالتبعية لملوك إهناس المدينة ولكن لم يلبث الأمراء طويلاً حتى خرجوا وجعلوا لهم عائلة أى دولة مخصوصة هى الدولة الحادية عشرة وأقاموا عليهم انتف الأول والياً يحكم بالتبعية لملوك إهناس المدينة وانتف هذا هو رأس هذه العائلة انتهى ببعض تصرف.

الفصل الثامن

(فى العائلة الحادية عشرة الطيبية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة ثـلاثين ومائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجـرة وكان عدة ملوكها ستـة عشر ملكا لم يشتهـر منهم بالأخبار سوى تسـعة وكانت مدة حكمـهم ثلاثاً وأربعين سنة ولكنهم كانوا تابعين لملوك إهناس المدينة ولذلك لم تتوسع جـماعة الكتاب فى ذكر مآثر كل واحد منهم إلا الملك (منتوحب) الرابع (ومعنخ كارع). قال صاحب العقد الثمين قد كـانا ملكين يحكمـان بالأصـالة اهـ. وأول من ملك مـن هذه العـائلة الملك انتف الأول.

(فى الملك انتف الأول)

(الذى يقال له أيضاً

انتف عا الأول)

هو رأس ملوك الدولة الحـادية عشـرة وقد حكم البـلاد بالتبـعيـة لملوك إهناس المدينة، ولذلك لم يدرج اسمه داخل خانة ملوكيـة كالفراعنة لأنه لم يكن أصيلاً بل كان والياً على الإقليم القبلى، وكان ملكاً مهيباً جليل القدر ذا شوكة عظيمة وله هرم على ضفة الصحراء فى الجهة المعروفة الآن بذراع أبى النجا بمديرية قنا مبنى بالطوب اللبن وجـعل فى وسطه ضريحـاً كساه بالحـجر الأبيض وأتقـنه غاية الإتقـان قالوا: ووجد أهل تلك الناحية جثتـه داخل هذا الضريح موضوعة فى تابوت غطاؤه مطلى بالذهب وعليه اسمه ولكنه فقد.

قال صاحب العقـد الثمين وكذا وجد فى داخل الضريح حـجر مؤرخ فى السنة المتمـمة للخمسـين من حكمه وعليه رسم صورته وعلى رأسـه تاج الثعبان ويجـانبه أربعة كلاب كـان يحبها مـدة حياته وكان له ولد يدعى (منتـوحتب الأول) لقب فى أيام أبيه بولى العهـد وحكم البلاد القبلية تحت سلطة ملوك إهنـاس المدينة فلما مات أبوه تولى الحكم بعده ووضع اسمه فى خانة ملوكـية اهـ. ولم تصل جماعة الكتاب إلى معرفة شىء من أخباره ثم مات فـقام بالأمر بعده (انتف عا الثانى) ولم يوجد له أثر يذكر غـير تابوته الذى صار العـثور عليه فى جـهة الأصاصـيف بقرب ذراع أبى النجا ثم مات.

فقام بالأمر بعده منتوحتب الثانى، ومات ولم يقف أحد من الكتاب على شيء من أخباره.

فقام بالأمر بعده انتف الثالث ولم يوجد له أثر يذكر ومات.

فقام بالأمر بعده منتوحتب الثالث وله صورة منقوشة على أثر فى جزيرة الكنوز القريبة من قصر أنس الوجود على شكل مقاتل منصور على ثلاث عشرة أمة أجنبية متوحشة وبجانبها نقوش معناها أنه يعترف بالمعبودة (الخم) معبودة قفط التى كانت يومئذ محصنة بالحصون والقلاع للدفاع عن وادى الحمامات وكانت مستودع الذهب والحجارة النفيسة التى كانت تستخرج من ذلك الوادى وكان بينها وبين بلاد العرب علاقة تجارية وقد زادت هذه العائلة بهجتها ورونقها بما أحدثته فيها من المبانى والعمائر العظيمة قالوا: (ولمنتوحتب) هذا نقوش فى وادى الحمامات منها ذكر والدته المسماة (أمّ) ومنها حثه الناس على الاهتمام باستخراج المعادن النفيسة من هذا الوادى، ومنها أنه حفر بئراً فى وسطه عمقها عشرة أذرع مصرية سبيلاً للواردين.

(قال صاحب العقد الثمين) ووجد له أيضاً فى هذا الوادى نقوش مؤرخة فى اليوم الخامس عشر من شهر بابه سنة اثنتين من حكمه يذكر فى أولها توسلات للمعبود (خم) ثم يقول فيها لرجل اسمه (أمنمحعت) انقل تابوتى وغطاءه من هذا الوادى إلى طيبة فتقرب هذا الرجل أولاً بقربان إلى معبوداته ثم جمع ثلاثة آلاف رجل على هذا التابوت وأنزلوه فى سفينة على ظهر النيل حتى أوصلوه إلى طيبة اهـ. فلما مات قام بالأمر بعده (انتف الرابع) وكان ذا تدبير حسن وسياسة حازمة فما زال حتى نزع الإقليم القبلى من ملوك إهناس المدينة واستقل بالحكم عليه وأخضع أيضاً أهل آسية الشمالية (قال ماسبرو). وقال إنى استوليت على الوجه البحرى أيضاً ولكن لا صحة لقوله لوجود ملوك إهناس المدينة المتأصلين فى الوجه البحرى اهـ. وله آثار أخرى ومات فدفن فى ذراع أبى النجا.

وقام بالأمر بعده (منتوحتب الرابع) ولقبه (نبخررع) فلم يستقر به المنصب حتى ركب على ملوك إهناس وأخذ يقاتلهم ليستخلص منهم الوجه البحرى وما زال على قدم الحرب والقتال حتى ظفر ونزعه منهم واستبد بملك مصر وادعى أنه المؤسس لهذه العائلة وابتنى له هرماً سماه (خوستو) ومعناه أبهى الأماكن لم يعلم محله وإنما استدل على اسمه من حجر وجد فى العرابة المدفونة لكاهن كان خادماً فيه ثم مات (منتوحتب) هذا.

فقام بالأمر بعده (سعنخ كارع) فلما استقر به المنصب سهل المواصلات ومهد

العقبات التى كانت بين بلاد العرب وديار مصر ونقش على حجر فى وادى مغارة نقشا ذكر فيه ما ترجمته عن شاباس.

(ويقول حنو) أرسلنى الملك لأوصل السفن إلى بلاد العرب ولأحضر له الصمغ ذا الرائحة الذكية. يعنى البخور الذى جمعه رؤساء الصحراء للملك خوفاً منه لأن رعبه عم جميع الأمم فتوجهت من قفط ومعى جنود من جنوب طية يخفرون التجريدة المرسلة لمقاتلة الأعداء فى بلاد العرب وعددها ثلاثة آلاف رجل وكان معى أيضاً نحاتون وعمال وضباط فمررت بالكفر الأحمر ثم بأرض مزروعة وأعددت معى قرباً وآلات لحمل زلع الماء، وكانت عشرين زلعة فصارت تحملها الرجال مع التناوب وحفرت أربعة أحواض أحدها كان فى غابة متسعة ومقاسه اثنتا عشرة قصبة واثنان فى محل يدعى (اتاحتت) مقاس أحدهما قصبة واحدة وعشرون ذراعاً ومقاس الآخر قصبة وثلاثون ذراعا ورابعها كان فى جهة تدعى (آتب) طوله عشر قصبات فى مثلها وعمقه ذراع واحد ثم وصلت إلى سبا وأنشأت هنا سفنا لنقل المحصولات من مين البقيع ورجعت من سبا إلى (واك) و(رهان) فأحضرت منهما الحجارة النفيسة لتماثيل المعابد ولم يحصل مثل ذلك من قبل وكذا لم يعهد أن أحدا من أقارب الملوك أرسل إلى تلك الجهات غيرى وإنما فعلت ذلك لفرط محبة الملك لى اهـ. (قال شاباس) المترجم لهذه الحكاية أن (حنو) هو أول من فتح الطريق الموصل من قفط إلى بلاد العرب بأمر الملك (سعنخ كارع) وجعل فيها خمس محطات وعيونا للماء فكانت سبيا لترتيب المواصلات فيها وسلوكها بالقوافل التى كانت تأتى بالبضائع والسلع من بلاد الهند والعرب إلى مصر واستمر هذا الطريق كذلك إلى عصر اليونان والرومان.

وكان المصريون يطلقون على حضرموت واليمن اسم (پون) فاستعار العرب هذا الاسم ووضعوه للقهوة المعروفة بالبن وصار علما لها إلى يومنا هذا (قال مريت باشا) وقد وجد فى ذراع أبى النجا جملة من آثار هذه العائلة يرى عليها علامات الغلظ وهى عدة ألواح حجرية مستديرة من أعلاها وبعض أمتعة وأوان وفاكهة وخبز وملبوسات وشىء من أثاث البيوت والأسلحة وآلات الصناعة وكل ذلك محفوظ بخزانة التحف ببولاق. قال: وقد اصطلح أهل هذا العصر على أنهم يرسمون فوق توابيت موتاهم أشكالاً بأجنحة على هيئة الطيور ويلوّنونها بألون مختلفة باهرة إشارة إلى ما كان من جملة عقائدهم الدينية من أن إحدى معبوداتهم المسماة (إزيس) كانت تحنو على أخيها (أزوريس) بالتجنيح عليه بذراعيها فشبهوا الميت بآزوريس ووضعوا

صورته على توابيت الموتى. قال وإلى الآن لم يستوعب جميع آثار هذه العائلة اهـ.

(قال مانيطون المؤرخ) وضعفت شوكة من قاموا بالأمر بعد الملك(منتوحب الرابع) وزال بأسهم وتقهقروا فكان ذلك سبباً فى انتقال الملك منهم إلى العائلة الثانية عشرة بعد أن ظلوا قابضين على زمام حكم البلاد نحو ثلاث وأربعين سنة اهـ. قلت فانتهت الطبقة الأولى بانتهاء هذه العائلة وظهرت الطبقة الثانية بدور جديد ومظهر مفيد فزادت البلاد فى أيامها بهجة وعمراناً والعلوم والصنائع تقدماً وإتقاناً كما سيذكر فى محله.

□□□

الباب الثانى
(فى الطبقة الثانية)

(قال أصحاب التاريخ): كان ظهور الطبقة الثانية من ملوك مصر فى سنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وعدة من تملك منها ست عائلات من العائلة الثانية عشرة إلى آخر العائلة السابعة عشرة وفى رواية من الحادية عشرة إلى الثامنة عشرة والأولى أرجح ، وكانت سنو ملكها ألف سنة وثلثمائة وإحدى وستين سنة.

الفصل الأول

(فى العائلة الثانية عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وثلاث عشرة سنة، وقد اتخذت قاعدة مملكتها مدينة طيبة فلما استتب لها الأمر عملت على توحيد حكومة البلاد وجعلها مملكة واحدة تحت حكم ملك واحد وقد كانت إلى هذا الحين منقسمة إلى حكومات مختلفة حاكمة فى وقت واحد فنجحت وفازت وصارت البلاد كلها فى أيامها مملكة واحدة وكان عدة ملوكها ثمانية أولهم الملك امنمحعت الأول الملقب سحب أبرع وهو الآتى ذكر أخباره بعد.

فى الملك امنمحعت الأول

لما ارتقى امنمحعت الأول سرير الملك نهض إلى قتال الأعداء الذين كانوا يشنون الغارة على البلاد وقد كانوا أحزاباً من سكان ليبيا والنوبة وآسية اجتمعوا على قتاله فقاتلهم حول قلعة تاتوى التى كانت غربى مدينة منف وما زال بهم حتى انتصر عليهم وتغلب وأخذ منهم منف وتعقبهم حتى طردهم عن البلاد، وعاد غانماً قال صاحب العقد الثمين: ولما طرد هؤلاء الأحزاب واستتبت الراحة فى عموم مصر قال مقالة مكتوبة فى ورقة سالير تعريبها:

فرجت عن الحزين حزنه فلم يسمع أنين صوته وانطفأت بهمتى نار الحروب وزالت الثورات والكروب وكان الناس من قبلى كثور يضرب وهو لا يشعر بماض ولا

آت ولم يكن للجاهل والعالم راحة فى جميع الحالات ووسعت الفلاحة إلى جزيرة أسوان ونشرت علائم الأفراح إلى روضة يحيط بها البحران واقترحت فى ملكى ثلاثة أصناف من الحبوب وأجبيت (تبرا) أعنى إله الحب المحبوب كيف لا وقد فاض النيل من جدواى على جميع الأرض فلم ير من جائع فى مدتى ولا من ظمآن تحت سلطتى وما هذا إلا لامتثال الرعية أوامرى واستماعهم كلمتى وتمسكهم بأفكارى فلهذا قهرت السبع وقطعت دابر التمساح وظفرت بأقوام (واواى) فنعم هذا الفلاح وأخذت (المتاشيو) أسارى وألزمت أهل آسية السير بجانبى كالأرانب حيارى اهـ.

قال: وكان لهذا الملك العاقل ولد ذكى فلما آنس منه رشدا صار يخبره بأحواله وطباعه فى الحروب وغيرها وهذه ترجمة ما قاله لابنه فى ورقة سالير: متى جن الليل، استغرقت ساعة فى السرور ثم تمددت على فرش لينة بقصرى وتهيأت للراحة لتأخذنى سنة النوم وهكذا عادتى فإذا عصتنى جماعة وتظاهرت علىّ بالعدوان أظهرت لهم أولاً الضعف كالثعبان البرى ومتى تهيأت لقتالهم لم أجد أحدًا منهم يقاومنى فى القتال وبذا لم تنبنى نائبة طول عمرى، وإذا انتشر الجراد وأضر بالعالم أو أضمر أحد إحداث الشقاق فى قصرى أو كانت زيادة النيل غير كافية أو نضب الماء من الصهاريج كنت أجتهد فى إصلاح ذلك اهـ.

وقد اعتنى امنمحعت المذكور فى استخراج الذهب من النوبة، وكان قد أهمل أمره من عهد الملك (بيبى) وقاتل بعض طوائف الزنوج وأدخلهم تحت الطاعة وغزا بنى (واواى) وقد كانوا من ألد أعداء المصريين من قديم الزمان ولكنهم لم يلبثوا أن فارقوا أوطانهم ونزحوا عنها تخلصاً من خضوعهم إليه قال بركش: إن سواحل المنزلة الشرقية التى كانت معمورة بأخلاط من المصريين ومن قبائل آسية كانت كما قيل خارجة عن حكمه، وقد شيد لنفسه هرماً سماه (كانفر) أى الهرم العالى الجميل وبنى هيكلاً عظيماً لمعبودات منف فتنافس من أتى بعده من الملوك فى توسيعه وتحسينه وبالغوا فى ذلك ، ثم بعد استقلاله بالملك عشرين سنة أشرك معه فى الحكم ابنه المدعو أوسرتسن الأول وكتب ذلك فى صحيفة وجدها سالير وتعريب ما فيها:

رفعتك يابنى من بين الرعية وأطلقت لك التصرف كى يخافوك ويهابوك أما أنا الآن فأتزين برفيع الأقمشة لأظهر للعيون كنبتة من نبت بستانى وأعطر نفسى بالعطريات الكثيرة كأنما أنثر علىّ ماء من صهاريجى اهـ.

وكانت مدة مشاركة ابنه له فى الملك عشر سنين من غير منازعة بينهما فظهر ابنه بين الرعية بمظهر أطفأ مظهر أبيه واتسعت كلمته وعلت شهرته، وكان للملك

امنمحعت كتـاب بين فيه قصة حياته وكان نـفيساً جداً حسن العبارة فـتداول تعليمه أهل المدارس القديمة وتنافسوا في ذلك وكان مانيطون يسميه باسم أفنمس ومات بعد أن حكم ست عشـرة سنة وفي رواية ثلاثين سنة فانفـرد بالأمر بعـده ابنه أوسرتسن الأول الملقب خپر كارع.

(فـي الملك أوسـرتسـن الأول)

لما مات الملك امنمحـعت استبدّ ولده أوسـرتسن بالملك فكان ملكاً جليل القدر عالي الهـمة محبـوباً استمال إليـه قلوب الرعية بمظهـره العظيم وهو صاحب المسلة الكبيـرة المنصوبة بالمطرية، وقد كانت أمـام هيكل الشمس المدعو أتوم تعظيـماً لهذا الهيكل لما كان له من الشهرة الواسعـة وكانت تؤمه الناس في كل وقت لأداء شعائر دينهم وصنع بجانبها مسلة أخرى ولكنها تكسـرت ولم يبق لها أثر أما الأولى فباقية إلي يومنا الذي نحن فيه وعليها نقوش بالقلم الهرمسي. قال صاحب العقد الثمين: وملخصـها أن الملك المنصور حيـاة كل موجود سلطان الوجـه القبلي والبحري خـپر كارع صاحب التـاجين وسلالة الشمس أوسرتسن المحب لمعـبودات المطرية دام بقاؤه صنع هذا الأثر في مبـدأ العيد الرسمـي لتخليد ذكره وإحـياء لهذا العيـد اهـ. قال ماسـپرو: وكان هذا اليوم يعني يوم العـيد الرسمي مـحترماً عند المصـريين حتى أن الملك أوسرتسن الأوّل نصب فيه المسلتـين المذكورتين في مدينة المطرية، وكانت هذه المدينة محـدقة بصور وفيـها أصنام هائلة بين قائم على قـواعد وقاعد على نصـبات عجـيبة طول كل صنم منهـا ثلاثون ذراعاً وأعضـاؤه على تلك النسبة ووجـد أيضاً بجوار قرية بجبيج جهة الفيوم لهذا الملك مـسلة ثالثة عليها نقوش تتضمن أنه نصبها تعظيما لمـعبودات الفيوم أمـام باب هيكل قد دمر الآن. قال وكـان في عصره رجل اسمه (امني) قـد بنى له مقبرة في بـني حسان مكتوباً عليـها مناقبه وملخـصها. أن (امني) هذا مـات اليـوم الرابع عـشر من بؤنـة سنة ثلاث وأربعـين من حكم الملك أوسرتسن الأوّل وقد كان سافر مع الملك في البحـر والبر لقيادة الجيش المرسل لقتال الأعداء في جهتي (كنت) (وأتو) ببلاد الايتيوبيا فـتغلب عليهم وظفر بهم وعاد معه سالماً، ثم أرسله الملك ثانياً بأربعمائة رجل لجلب سبائك الذهب من تلك الجهة فلما أحضرها غـمره بإحسانه ثم عينه ثالثـاً لتوريد البقر الحلوب للقصـر الملوكي فقام في تحصيل ذلك خيـر قيام ثم جعله ناظراً علي قسم (سعح) الذي كـان شرقي المنية فلم يظلم في حكمه فـقيرا ولا أرملة ولا صيـادا ولم يطرد راعيا ولم يسخـر في أعماله

أحداً بل سقى العطشان وأطعم الجوعان ولما حصلت فى زمنه السنون المجدبة اجتهد فى زرع جميع أرض قسمه وأطعم سكانه وجلب لهم المأكولات فلم يجع أحد منهم، وكان يسوى فى العطاء بين الأرملة والمتزوجة وبين الكبير والصغير ولما وفت زيادة النيل أخذ كل زارع مخصول أرضه من غير أن يأخذ منه (امنى) شيئاً اهـ.

(ورأى أهل التاريخ) أن هذه الرواية قريبة من قصة يوسف عليه السلام فظنوا أن أوسرتسن الأول هذا هو فرعون يوسف الذى وقع القحط فى أيامه لأهل مصر وعندى أن هذا الظن بعيد عن الصواب لأن مدّة يوسف بن يعقوب لا توافق هذا العصر واعتنى هذا الملك أيضاً باستخراج الأحجار النفيسة من جبل الطور وكان جليل القدر مسموع الكلمة فى تلك الأصقاع، وكان من مشاهير عصره أمير اسمه (منتوحتب) قال صاحب العقد الثمين: وله قصة منقوشة على حجر في متحف بولاق حاصلها أنه كان ناظر الداخلية والحقانية والأشغال العمومية والديانة، وكان عادلاً مشرعاً عالمياً فمهد كل أمر فى ديار مصر وأقام شعائر الدين وحامى عن الفقير والعاجز وأعطى الأمان لمن شاء وقاتل أعداء الملك وتغلب على أهل آسية وسكن هيجان الوادى والعبيد وكان له الأمر والنهى فى الوجه القبلى والتصرف فى وضع الضرائب على الوجه البحرى وصنع له محراباً ملاصقاً لمعبد أزوريس بالعرابة المدفونة وحفر فيه بئراً اهـ.

وقبل موت أوسرتسن هذا رسم لمهندسه المسمى مرى أن يبنى له مقبرة فبناها وجعل بداخلها أودا بطرقات مقامة على أعمدة وجعل فيها حوضاً متصلاً بالنيل وعمل لها أبواباً ومسلات ووجهة من حجر طرا الأبيض ثم مات بعد أن حكم خمساً وأربعين سنة وفى رواية مانيطون ستاً وأربعين وكان مانيطون يسميه سيسونخوسيس. فقام بالأمر بعده امنمحعت الثانى الملقب تب كورع.

(فى الملك امنمحعت الثانى)

لم تذكر جماعة الكتاب عن الملك امنمحعت هذا شيئاً من الأخبار سوى ما قاله بعضهم من أن المصريين كانوا فى أيامه في قتال وحروب هائلة مع طوائف الأيتيوبيين بغية توسيع مملكتهم وتقوية حدودها فى تلك الأنحاء وأن الملك امنمحعت المذكور كان متزوّجاً بالملكة نفرت ومعناها الجميلة وكان مانيطون المؤرخ يسمى هذا الملك باسم أمانمس وقد حكم ثمانياً وثلاثين سنة ومات فقام بالأمر بعده الملك أوسرتسن الثانى.

(في الملك أوسرتسن الثاني)

تولى الملك أوسرتسن الثانى فأحسن التدبير وحافظ على حدود المملكة واجتهد فى بقاء شهرتها التى أوجدها أسلافه وقد كانت الحدود يومئذ تمتد إلى بلاد الايتيوبيا ومن آثار عصر أوسرتسن الثانى المذكورة مقبرة (خنوم حتب) الموجودة فى بنى حسان وعليها أجمل نقوش. قال صاحب العقد الثمين: وهي مبينة لبعض أحكام الوراثة في ذلك العصر إذ يفهم منها أن خنوم حتب بن (نحر) وأمه (بوقت) كان قريب الملك وصنع هذا الأثر لتخليد ذكره وذكر مستخدميه الذين عملوا الخيرات، وذكر من امتاز من فلاحيه بالدرجة العالية وبين كل صنعة ووظيفة تحت رسم صورته وأخبر أن الملك امنمحعت الثانى أورثه الحكم الذى كان لجده من أمه على البلاد الشرقية بجهة المنية وأورثه أيضاً وظيفة الكهانة للمعبودين (حور) (وبخت) التي كانت لجده أيضاً بعد أن وضع له الحدود بنفسه في كل جهة ووزع على الأراضي مياه النيل كما كان جارياً لجده من قبله وسبب توريث الحكم إليه من جده هو أن الملك امنمحعت الأول أمر بتعيين جده رئيساً على البلاد الشرقية جهة المنية وبعد أن مهدها له وأخمد عصيان أهلها وأصلح ما دمر منها وبين حدودها بنفسه ووضع عليها الضرائب على حسب المحصولات ووزع عليها المياه كما كان مقرراً في السجل جعل هذا الجد ناظرا على قسم (سعح) بعد أن بين له حدود ومياه ذلك القسم وأنعم على ابنه المرحوم (نخت) برتبة حاكم على مدينة المنية إذ كان له حق الوراثة فيها.

قال: ولما تولى الملك أوسرتسن الأول أصدر قرارا مؤيدا للأرشد من ذرية الجد برتبة الرئاسة فكانت والدتي (بوقت) هي السابقة في الترؤس على مدينة امنمخعت الأول المسماة سحتب أبرع في قسم سعح فساغ لها بذلك أن تتزوج بحاكم فتزوجها الحاكم (نحر) والدي وعلى ذلك أورثني امنمحعت الثاني رتبة الرئاسة على مدينة المنية التي كانت لجدي وذلك سنة تسع عشرة من حكمه فعملت ما فيه الإصلاح لهذه المدينة وأحييت اسم والدي (نحر) وشيدت المعابد ووضعت تماثيلي فيها ورتبت لها ما يلزم للقرابين وعينت لها قسيساً أقطعته أراضي وأخدمته فلاحين ورتبت للأموات الصدقات في جميع أعيادهم الآتية وهي:

عيد السنة الجديدة وعيد رأس السنة وعيد السنة الكبيرة وعيد السنة الصغيرة وعيد آخر السنة والعيد الكبير وعيد الحر الأكبر وعيد الحر الأصغر وعيد خمسة أيام النسيء وموسم ورود المحصولات ومواسم أنصاف الشهور الاثنى عشر وفي كافة أعياد الأحياء ومواسم الأموات وشرطت أنه إن بدل كاهن شيئاً من هذه الرسوم فهو معزول عن الخدمة ولا يتوب ابنه عنه. انتهى.

وكان خنوم حتب هذا من كبار المصريين وعظمائهم وكان يؤمه كثير من الناس لكرمه فمن أتى إليه قاصدا بابه عائلته من بني عمو القاطنين بآسية وكانوا سبعة وثلاثين فرسمهم في مقبرته بصورة أنهم قيام بين يديه خاضعون يشيرون إليه بالتحية ويسألونه أن يأذن لهم بالإقامة في جواره ورسم كاتبه المسمى نفر حتب كأنه يعرض عليه ورقة. قال صاحب العقد الثمين: مضمونها يعني مضمون الورقة المذكورة، في السنة السادسة من حكم الملك أوسرتسن الثاني قدم سبعة وثلاثون نفسا من بني عمو وأحضروا معهم من جهة (بتسو) معدنا يسمى (مستموت) هدية منهم للملك وكان هذا المعدن مرغوباً جداً عند المصريين ولذا كانت عرب البقيع المسماة عمو تأتي به إلى أهل مصر. اهـ.

قال ويرى على قبر خنوم حتب رسوم دالة على كيفية الفلاحة وأعمال الجهادية وطرق الموسيقى وتربية المواشي ومبينة لصور الملوك والأعيان وملاعيب اللهو وبعض قواعد الأحكام وتدبير المنازل وأثاثاتها وفيها أيضاً أعمال دينية وآثار تاريخية وفن الملاحة وعلم الحيوانات. قال: فمن أراد الوقوف عليها فليتوجه إلى بني حسان وينظر رسمها في قبر خنوم حتب هذا.

وقد استنتج بركش من حكاية خنوم حتب أن الرتب والوظائف والرئاسة في الأقسام والمدن كانت تورثها الملوك الذكور عن آبائهم وأجدادهم وأن الأجنبي كان لاحق له في الحكم إلا إذا تزوج امرأة لها حق الوراثة فيه وأن الملوك كانت تباشر توزيع المياه على الأراضي وتسجيلها في الدفاتر وضبط مساحتها ووضع الضرائب اللائقة بها وبهذه العادة الحميدة كان يمتنع الظلم والخصومة بين الأهالي. اهـ.

ومات الملك أوسرتسن الثاني بعد أن حكم تسع عشرة سنة. وقال مانيطون بل ثمانياً وأربعين سنة وسماه باسم سيسوستريس فقام بالأمر بعده الملك أوسرتسن الثالث الملقب خع كارع.

(في الملك أوسرتسن الثالث)

تولى الملك أوسرتسن الثالث فكان شهماً مهيباً صاحب عزم وحزم فاتسعت لذلك شهرته وكبرت شوكته وبلغت مبلغاً عظيماً جداً حتى عبدته الناس بعد موته وقد غزا مرارا طوائف العبيد المقيمين في جنوب مصر رغبة في توسيع حدود المملكة وأنشأ في وادي حلفا بالقرب من الشلال الثاني القلاع والحصون وقد بقي منها قلعتان للآن يعرفان بقمنه وسمنه لمنع دخول الأعداء جوف البلاد وفيهما يرى آثار

الأسوار الشامخة والبروج العاليـة والخنادق والنزلات وغير ذلك. قال صاحب العقد الثمين: وكان بداخلهـا معبد وعدة مسـاكن دمرت الآن وقد عثر على حـجرين كانا مجعولين حدا فاصلا لبلاد مصر من جهة الجنوب مكتوب على أحدهما ما نصه:

هذا حد مصر الجنوبي وضع في السنة الثـامنة من حكم الملك أوسرتسن الثالث مخلد الذكر لا يـجوز لأيّ أسود أن يتجاوز هذا الحـد في أثناء سفره إلا سفنا فـيها حيوانات من بقر ومعز وحمير من قبل بني الأسود. اهـ.

وفي آخر هذه الكتابـة عبارة مضمـونها لا يجوز لأي سفينة تابـعة لبني الأسود خالية من الحـيوانات المذكورة الدخول أثناء سـيرها في بلاد مصر الجنوبيـة. والكتابة الموجودة على الحجر الثاني يفهم منها أن هذا الملك وضع سنة ست عشرة من حكمه هذا الحجـر حدًّا فاصلا لـبلاد مصر الجنوبيـة وأنه أمر بنصب تماثيله في تلك الجـهة فلهذا ابتهل أهل النوبـة بصالح الدعوات إلى أوسرتسن هذا بعد وفـاته ومدحوه بأنه كان حامي حمى مصر، وكان رجلاً مقداماً ثم بعد مضى خمسة عشر قرناً أعني في عصـر العائلة الثامـنة عشرة شـيد له تحوتمس الثـالث معبـداً في سمنه وكـتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الوقت وهذا تعـريبها ملخصاً، أيهـا الأمراء الذين يحتـرمون معبودات جـهاتهم إذا قربتم من هذا الأثر فاتلوا هـذا الابتهال إلى معبـود النوبة (توتون) وإلى الملك المرحوم أوسرتسن الثالث عسى أن يرحـما فلاناً. اهـ.

وكان أوسرتسن الثالث المذكور كـثير التعبد يحترم المعـبودات ويشيد لهم الأبنية العظيمة وقد وجد على الآثار من قوله أنه في اليوم الثامن عشر من كيهك سنة أربع عشرة من حكم الملك أوسرتسن الثالث مخلد الذكـر ومحب (خم حز) معبود مدينة قفط صدر أمـر منه بصنع أثر في وادي الحمامات (لحرشف) مـعبود أهناس المدينة . اهـ. وله هرم في دهشور ثم مات بعد أن حكم ستا وعـشرين سنة فقام بالأمر بعده الملك امنمحعت الثالث الملقب عنامعت.

(في الملك امنمحعت الثالث)

تولى الملك امنمحعت الثـالث فأحسن التدبير وخلد له ذكـراً لا يمحي بما شيده في الفـيوم من المبـاني الجسيـمة والعـمائر النافـعة، وذلك أنه لـما كانت ديار مـصر وزروعات أرضهـا بين عاملين هائلين هما الغرق والشرق وكـان إذا وقع أحدهما في إحدى السنين كانت الطامة الكبرى على البـلاد وأهلها وكان الملك امنمحعت المذكور

كبير العناية بأمر مملكته شديد الرغبة في إسعادها وإيرادها موارد الغنى والتقدّم نهض إلى تلافي هذه الأضرار وجعل البلاد في مأمن منها وكان في الصحراء الغربية من مصر بادية عظيمة تصلح للزراعة وهي التي تعرف الآن بوادي الفيوم وكانت كما قاله بعض الكتاب تتصل بوادي النيل الأصلي بقطعة من الأرض كالبرزخ وفي وسطها قطعة أرض مستوية سطحها يضاهي سطح مزارع مصر وفي جانبها الغربي أرض منخفضة متسعة جداً تغمرها مياه بحيرة طبيعية هي التي تعرف الآن ببركة قارون تبلغ من الطول أكثر من عشرة فراسخ فرسم بحفر بركة في وسط تلك القطعة الأرض المستوية وجعلها مستودعاً للماء عرفت ببركة موريس فإن كانت زيادة النيل ضعيفة فتحت البركة المذكورة فيخرج من المياه المخزونة فيها ما يكفي لري مزارع بادية الفيوم بل سائر أراضي الجانب الأيسر من النيل إلى البحر الأبيض، وإن كان النيل كثيراً جداً بحيث يخشى منه تكسير الجسور صرف القدر الزائد عن المنافع إلى تلك البركة الجديدة فإن طفحت فيها المياه انصرف ما زاد عنها إلى بحيرة قارون بواسطة قنطرة تسد وتفتح بحسب الحاجة.

وكان الملك يرسل في كل سنة قبل ارتفاع النيل جماعة إلى النوبة يستكشفون زيادة النيل جهة سمنه وقمنه ولذا يرى في تلك الجهة نقوش بالقلم البربائي معناها على ما رواه جماعة من الكتاب هكذا، إلى هنا وصل ارتفاع النيل في السنة الرابعة عشرة من حكم الملك امنمحعت الثالث خلد ذكره . اهـ.

قال العلامة لبسيوس وكان فيضان النيل في عصر العائلة الثانية عشرة يزيد عن أكثر فيضانه الآن جهة سمنه وقمنه ثمانية أمتار وسبعة عشر سنتميتراً وأن زيادته المتوسطة في عصر امنمحعت الثالث تزيد على فيضانه الحالي سبعة أمتار . اهـ.

قال صاحب العقد الثمين: فيتضح لك مما تقدم أن بركة قارون كانت طبيعية وبركة موريس صناعية وكانت الأولى كثيرة الأسماك والثانية يصب فيها ماء النيل من ترعتين وقت زيادته ثم يحجز فيها بواسطة سد فإذا كان وقت الشرق فتح هذا السد فيسقى الأراضي المجاورة لبركة موريس، وكانت إحدى هاتين الترعتين تتفرع من النيل بجانبه الغربي ثم تجري تجاه بحر يوسف الحالي وكان باب السد موضوعا في مجمع الترعتين والترعة الثانية كانت تجري جهة الشمال وكانت معدة لتوزيع المياه على الأرض عند الشرق وكان في وسط بركة موريس المذكورة هرمان في كل منهما تمثال جالس فالهرم الأول كان فيه تمثال زوجته المسماة سبك نفرورع وقد وجد رسم هذه الملكة في صحيفة موجودة بمتحف بولاق وسماها اليونانيون باسم موريس يعني

تلك البحيرة وأصلها (مرى) ومعناهـا (بحيرة) اذ من عادتهم أن يضعوا حرف السين آخر أسـماء الأعـلام عندهم فلذا حولوا كلمـة مرى إلى مـوريس. وقالوا (بحـيرة موريس) زاعمين أن مـوريس هذا اسم لأحد الفراعنة المصريين والحقـيقة ليس بشيء قال بعض الكتاب:

وأما الفيوم فأصلهـا بايوم أوفايوم ومعناه بالهرمسية بلد البـحر ثم عربها العرب فقالوا: الفـيوم وأطلقوه على نفس الإقليم تسـمية للأرض باسم الماء الذي أخصـبها باقتراح الملك امنمحعت الثالث ومن أعمـال هذا الملك السراى الشهيرة باسم لابيرانتا وتسمى بالقلم الهـرمسي لابوراحونت ومعناها مـعبد فم البحيـرة وكان ينعقد فـيها مجلس الأعيان من كهنة المصريين للمداولة في أمور السياسة وكان بداخله اثنتا عشرة رحبة متقابلة الأبواب ستة على الشمال وستة على اليمين، وهذه العمارة محدقة من الخارج بسور كبير وفيها ثلاثة آلاف أودة منها ألف وخمسمائة في الدور الأول وألف وخمسمائة فـوقها وفيها أيضاً إيوانات ورحبات وجـميعها مسقوفة بالحـجارة ومقامة على أعمـدة من الحجر الأبيض منتظمة الصـفوف وفي آخر هذه العمـارة هرم مزين بالرسومات العـجيبة والأشكال الغريبـة يتوصل إليه بسرداب تحت الأرض وفيـه قبر امنمحعت الثالث الذي دفن فيه.

(وذكر اسـترابون) أن الأماكن التي داخل تلك العـمارة كانت بعدد أقـسام ديار مصر القديمة فكـان لمندوب كل قسم محل مخصوص فيـجتمعون فيـها إما بأمر من الملك أو على مقـتضى قانون البلد لـكي يتداولوا في أحوال بلادهم كـوضع الرسوم والأموال وتغيير الملك أو العائلة وهذه العمارة موضـوعة في الجهة الشرقية من بحيرة موريس على ربوة واسعة مربعة طولها مائتا متـر وعرضها مائة وستون متراً، وكانت وجهتها المطلة على بحيرة موريس مصنوعة من الحجر الأبيض فإن دخلها إنسان ضل عن الطريق، ولم يهـتد للخروج منهـا لكثرة أماكنهـا وأحجارهـا مجلوبة من وادي الحمامات بدليل ما وجد عـلى صخور الوادي المذكور من النقوش الدالة على أنه في السنة التاسعة من حكم الملك امنمحعت الثالث سار هذا الملك بنفسه إلى هذا الوادي لجلب الحجارة للعـمارة الجاري العمل فيـها بمدينة الفيوم، وصنع تمثـالاً لنفسه على شكل جالس ارتفاعه خمسة أذرع وهو المـذكور آنفاً، ويرى أيضاً في وادي الحمامات نقوش أخـرى تفيد أن الملك أرسل هناك جـماعة من المهندسين لمبـاشرة قطع ونحت الأحجار ولعمل التـماثيل المطلوبة له ووجد فيه أيضاً نقـوش من أعمال بعض رجال دولته يفـهم منها أن لهذا الملك مآثـر كثيرة منهـا استخراج بعض المعـادن من بحيث

جزيرة جبل الطور وأخصها معدن الفيروزج ومنها أنه قاتل الزنج وفتح بلادا كثيرة.
اهـ.

ومات الملك امنمحعت الثالث المذكور بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة. وقال مانيطون بل حكم ثمان سنين وكان يسميه باسم أمرس فقام بالأمر بعده الملك امنمحعت الرابع الملقب معت خرورع وأخته سبك نفرورع.

(في الملك امنمحعت الرابع)
وأخته
(الملكة سبك نفرورع)

تولى الملك امنمحعت الرابع وأخته الملك سبك نفرورع معاً وحكما بالاشتراك وكانت ولاية أخته بحق الوراثة كالملكة (نيتوقريس) من العائلة السادسة ولم يعلم من أخبارهما شيء يذكر غاية ما كتبه أصحاب التاريخ أنه قد استدل من الآثار على أن حدود المملكة المصرية كانت تمتد في عصر هذه العائلة إلى بلاد النوبة، وكانت ملوكها متسلطة على بحيث جزيرة الطور وكان بين المصريين وبين سكان ليبيا الشمالية وأهل آسية أشغال ومعاملات تجارية كان مركزها بين مدينتي بني سويف واهناس المدينة ولهذه الأسباب اختلط المصريون بالليبيين فتعلم المصريون عن الليبيين ألعاب المصارعة، وكان الزنوج في أيام هذا الملك يأتون إلى بلاد مصر أفواجاً لخدمة أهلها، وكانت العلوم والصنائع في أيام هذه العائلة بالغة حد الكمال والمدارس في نجاح وتقدّم وحدود البلاد وأقسامها وحركة نيلها في انتظام غريب وأتقن فن البناء وصناعة الأحجار ولذلك قال أصحاب التاريخ إن أغلب ما يوجد في الأقاليم القبلية من الأعمدة الحلزونية الشكل هو من أعمال هذه العائلة دون غيرها.

ومات الملك امنمحعت الرابع المذكور وأخته الملكة نفر ورع ولم يذكر أصحاب التاريخ أيهما مات أولاً وإنما يستنتج من جدول أسماء هذه العائلة المنقول عن الآثار وجدول مانيطون المؤرخ أن مدة حكم الملك امنمحعت الرابع المذكور كانت تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة أيام حسب الآثار وثمان سنين حسب ما قاله مانيطون وكانت مدّة حكم الملكة نفر ورع سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً كما دلت عليه الآثار وأربع سنين كما رواه مانيطون وبموتهما انقرضت الدولة الثانية عشرة المذكورة وقامت بعدها الدولة الثالثة عشرة الطيبية.

(الفصل الثاني)

(فى العائلة الثالثة عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة وألفين قبل الميلاد المسيحي أي سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها أربعمائة وثلاث وخمسون سنة وقيل غير ذلك وعدّة ملوكها سبعة وثمانون وقيل غير ذلك.

وقد خفى على أهل التاريخ معرفة أسماء ملوك هذه العائلة وما لهم من المآثر وغاية ما قالوه عنهم أن أكثرهم كان يلقب بلقب (سبك حتب) (ونفرحتب) قالوا وبالبحث في الآثار القديمة وجد كل من لقب سبك حتب ونفر حتب منقوشاً على الأحجار القديمة ولكن لم يعلم من أي عائلة هو ولما عثر أصحاب العلوم الأثرية على نقوش على الصخور التي بجهة سمنة مضمونها أن الملك (سبك حتب الأول). كان حياً على عهد الملك (أوسرتسن) الثالث استنتجوا من ذلك أن ظهور هؤلاء الملوك الملقبين باللقبين المذكورين كان عقب العائلة الملوكية الثانية عشرة وقد وجدت أسماؤهم مرتبة في جدولين على صحيفة من البردي ممزقة وهي موجودة بمتحف تورينو بإيطاليا. قالوا: وعدّتهم سبعة وثمانون ملكاً كما تقدّم.

ولم تعلم أسماؤهم كلهم إلا القليل منهم وهم كما ذكرهم صاحب العقد الثمين رع خوتاوي الملقب سبك حتب الأوّل. وسخم كارع. ورع امنمحعت الأول. وسحتب أبرع الأوّل. وأوفني. وسعنخ أبرع الملقب أمني أنتف امنمحعت. وسمن كارع. وسحتب أبرع الثاني. و... كارع. والعاشر لم يعلم اسمه. والحادي عشر اسمه نزم أبرع. ثم رع سبك حتب الثاني. وران سنب. وأتو أبرع الأوّل. وسزف.. رع. ورع سخم خوتاوي الملقب سبك حتب الثالث. ورع أوسر.. وسمنخ كارع الملقب مرمشا. و... كارع. و...أوسرسر. ورع سخم سوزتاوي الملقب سبك حتب الرابع. وخع سيشش رع الملقب نفر حتب بن حاعنخف. ورع ساحاتور. وخع نفررع الملقب سبك حتب الخامس. وخع كارع. وخع عنخ رع الملقب سبك حتب السادس. وخع حتب رع الملقب سبك حتب السابع. وح أبرع الملقب يعب. ومر نفررع الملقب أبي. ومر حتب رع. وسعخنسرع الملقب أوتو. ومر سخمرع الملقب أنرن. وسوز كارع.. أورع. وأنمم... رو. ومن الخامس والثلاثين إلى الثالث والأربعين ساقط من الأصل. والرابع والأربعون هو مرخپر رع. ثم مر كارع. ثم من السادس والأربعين إلى الخمسين ساقط. ثم... مس. ورع معت.. الملقب أبا. و.. رع أوين الأوّل. و... كا. ورع.. تن. ورع... وسابع خمسيهم

لم يعلم له اسم. وثامن خمسيهم اسمه نحسي رع. ثم خع خرورع. ثم نبف عا أتورع. وسحبرع. ومرز فارع. وسوز كارع. ونبز فارع. ورع أوين الثاني ومن سادس ستيهم إلى سابع ستيهم ساقط. واسم ثامن ستيهم... زف عرا. ثم... رع أوين الثالث. ثم... أتو أبرع الثاني. وحرابرع. ونب سن رع. ومن ثالث سبعيهم إلى سادس سبيعهم ساقط. ثم سابع سبعيهم سخبرن رع. ثم دد خرورع. وسعنخ كارع. ونفرتوم.. رع. وسخم... رع. وكا... رع. ونفرا برع. ورع... ورع خع... ونزكارع. وسمن... رع. وهو سابع ثمانيهم.

وكانت المملكة المصرية في عهد هذه العائلة حافظة لمجدها باقية على حالها من بعد الصيت واتساع الكلمة بل كبرت حدودها عما كانت عليه واتسعت وكان الملك الثالث منها وهو المسمى (سعنخ أبرع) له لقب محتو على ثلاثة أسماء ملوكية وهي امني. وانتف. من العائلة الحادية عشرة (وامنمحعت) من العائلة الثانية عشرة وابتنى له هرماً سماه (أمني خورب) قالوا ولم يعلم له محل للآن.

وللملك السادس عشر من هذه العائلة المسمى (سبك حتب) الثالث نقوش بقرب سمنة على صخور بشاطىء النيل رأسية الوضع صعبة المرقى مكتوبة على ارتفاع سبعة أمتار فوق ما تبلغه زيادة النيل الآن ومعناها أن ماء النيل وصل ارتفاعه إلى هنا في السنة الثالثة من حكم جلالة الملك (سبك حتب) الثالث خلد ذكره.

وأما الملوك الأربعة الذين هم (سبك حتب الرابع) (ونفرحتب) (ورع ساحاتور) (وسبك حتب الخامس) فقد تركوا من الآثار ما دل على أنهم كانوا حقيقة في عداد ملوك هذه العائلة قال صاحب العقد الثمين: وقد عثر على تمثال الملك سبك حتب المذكور المتخذ من حجر الصوّان في صان فدل وجوده هناك على أنه كان حاكماً على الوجه البحري كما ثبت ذلك أيضاً للملك سبك حتب الخامس لوجود تمثاله المحفوظ الآن بمتحف باريز في تل بسطة وكذلك استدل على وجود تمثال وأسماء بعض ملوك هذه العائلة في جزيرة (ارجو) وفي جهة الكاب بمقبرة (سبك نخت) على أنهم كانوا حاكمين على الوجه القبلي والنوبة وكان لهم عليها الصولة والقوة حتى وضعوا فيها تماثيلهم إثباتاً لحكمهم وتذكرة بسلطتهم عليها وقد ذهب بعض أصحاب التاريخ إلى أن العمالقة الذين هم الرعاة قد دخلوا ديار مصر في أيام هذه العائلة ولكن الآثار الدالة على تملك هذه العائلة على جميع ديار مصر والنوبة تكذب هذا المذهب . اهـ.

وانقرضت هذه العائلة وبانقراضها قامت بعدها العائلة الرابعة عشرة السخاوية المنسوبة إلى مدينة سخا التي هي من بلاد مديرية الغربية الآن.

الفصل الثالث

(في العائلة الرابعة عشرة السخاوية)

كان مبدأ ملك هذه العائلة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وألفين قبل الميلاد أي سنة عشرين وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائة وأربع وثمانون سنة وفي رواية أربعمائة وأربع وثمانون سنة والأول أقرب إلى الصواب وعدة ملوكها ستة وسبعون ملكاً ولم يذكر مانيطون الكاهن شيئاً من أخبارهم ولا تعرض لذكر أسمائهم فحذا حذوه بقية الكتاب. قال صاحب العقد الثمين وكذا لم يبلغنا من غيره يعني غير مانيطون ولا من الآثار رواية عنهم ولكن بالاطلاع على صحيفة تورينو وجد مذكوراً فيها بعد ملوك العائلة السابعة جملة ملوك تنسب لهذه العائلة يعني الرابعة عشرة المذكورة وجميعها محصورة في الجدولين الأخيرين منها وأكثرها متلاش وهم رع سحب رع. ورع مرزفا. ورع سفتكا. ورع زفارع خب. ورع أوبن. وسادسهم وسابعهم سقطا من الأصل ثم جاء بعدهما رع نب زفا. ورع أوبن. ورع سفوتوحت. ورع حرحت. ورع نب سنو. وثالث عشرهم ورابع عشرهم ساقطان من الأصل. ثم جاء خامس عشرهم وهو رع ب... ثم سخبر نرع. ورع ددخرو. وسعنخكارع. ورع نفر بابي. ورع سخم. ورع كا... ورع نفرحت. ورع آ... ورع خعو. ورع نفركا. ورع سمن. وسابع عشريهم وثامن عشريهم سقطا من الأصل. ثم جاء تاسع عشريهم وهو رع أوسر. ثم رع... ورع سخم... ورع سخم س... ورع سسن. ورع نب أرى. ورع نب أتن. ورع سمن أوسر... ورع سا أوسرأت. ورع سخم حرو. ومن تاسع ثلاثيهم إلى خامس ستيهم ساقط من الأصل. وكذلك سادس ستيهم غير مرقوم. ثم جاء سابع ستيهم وهو رع سنفر كا. ثم رع منخوو. ومن تاسع ستيهم إلى ثاني سبعيهم ساقط من الأصل. وكذا ثالث سبعيهم غير مرقوم. ثم جاء رابع سبعيهم وهو حاناتحا. ثم (بينوو) خامس سبعيهم وهو آخرهم.

قال ماسپرو وكان انقراض هذه العائلة مسبباً عن عصيان الرعية وشقهم عصا طاعة آخر ملوكها فذهبت على يد من ظهروا من ملوكها خاملي الذكر. اهـ. قال صاحب العقد الثمين ولعل الملك رعمنحعو الملقب (غن أب) هو من ملوك هذه العائلة وله أثر في دار التحف المصرية يدلنا بوجه التقريب على درجة الصناعة في ذلك العصر. اهـ. وقال ماريت إن آثار هذه العائلة توجد بأسيوط . اهـ. وبانقراض هذه العائلة قامت بعدها العائلة الخامسة عشرة وارتقت منصة الأحكام.

الفصل الرابع

(فى العائلة الخامسة عشرة)

لم يعلم أحد من أهل التاريخ مبدأ ظهور هذه العائلة ولا سنى ملكها ولا عدّة من ملك منها بالتحقيق غاية ما جاءوا به أن ملوكها ينقسمون إلى قسمين وطنيين وأجانب فالوطنيون لم يعلم عنهم شيء سوى أنهم كانوا قابضين على زمام الأحكام بالأقاليم القبلية وكانت قاعدة مملكتهم مدينة طيوه. والأجانب كانوا يعرفون بالرعاة وبالعمالقة وعدّتهم ستة ملوك وقد حكموا البلاد وساسوها زهاء مائتي سنة وتسع وأربعين سنة وكانت قاعدة مملكتهم مدينة أواريس بالإقليم البحري وأوّل من ملك منهم الملك سلاطيس وهو الذي تسميه العرب الوليد بن روقع.

(في الملك سلاطيس المعروف عند العرب بالوليد بن روقع)

هو أول ملوك هذه العائلة، وقد ارتقى منصة الملك بعد إغارة قومه على الأقاليم البحرية من ديار مصر وأخذها من الملوك المتأصلين، وتحرير الخبر أنه في نهاية أيام آخر ملوك الدولة الرابعة عشرة السخاوية جاء إلى ديار مصر طوائف مختلفة الأجناس تحت راية الوليد بن روقع وهو المسمى عند اليونان باسم سلاطيس ونزلوا مصر السفلى والوسطى وحاربوا من فيهما وتغلبوا عليهم بعد هجمات متتابعة وحروب هائلة وقيل بل بدون كبير معارضة لأن أهل البلاد كانوا يومئذ في ثورة وخروج وكان هؤلاء الأقوام كثيرين جداً فانبثوا في البلاد وعاثوا وأفسدوا وأحرقوا المعابد والهياكل ودمروا الكثير منها ورسم سلاطيس المذكور ببناء القلاع والحصون بدلها وأكثر من سفك الدماء والقتل والسلب فنزح أكثر الأهالي وساروا مع من بقى من بيت الملك المتأصلين إلى الإقليم القبلي واستقروا بمدينة طيوه، واتخذوها تختا لملكهم فشحن سلاطيس المذكور الإقليم البحري بالجند والأسلحة ومعدات الحرب تحرزا من هجمات المصريين وجعل مدينة منف تختا لمملكته ورتب نظام الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين بالإقليم البحري، وانتقل من هذا الحين ملك البلاد إلى الرعاة ما عدا الأقاليم القبلية فإنها بقيت مستقلة تحت حكم العائلة المتأصلة المصرية في مدينة طيوة التي هي دار الفراعنة وصار من هذا اليوم في ديار مصر مملكتان، مملكة الفراعنة، ومملكة الرعاة المتغلبين على منفيس. قال مانيطون ولما غضب الله على مصر أرسل إليها من المشرق أمة خبيثة قوية شديدة البأس فاستولت عليها بلا حرب ولا قتال واستعبدت أهلها ورؤساءها وهدمت معابدها وهياكلها

وسبت الأولاد والنساء وملكت عليها ملكاً جديداً من هذه القبيلة الهكسوسية أقام في مدينة منف وهو الملك سلاطيس ومن فرونجا من أفخاذ العائلة الملوكية ذهب إلى الصعيد وإلى ساحل البحر الأحمر وتحصنت هذه القبيلة بالقلاع والمعاقل والحصون وتمكنت من الأقاليم البحرية والوسطى وفعلوا بأهلها ما لا خير فيه ولم يبق للدولة المصرية المتأصلة إلا ملك الصعيد وكانت دار ملكه مدينة طيوه انتهى...

ووفد على الملك سلاطيس هذا جموع كثيرة من أهل آسية فاتخذ له منهم عسكرا ليأمن شر الكنعانيين القائمين في بلاد الشام ومن بقى من سلالة الملوك المصريين المتأصلين ومن العراقيين فابتنى القلاع والحصون في المواقع النافعة، وحشد أكثر جنده جهة مدينة السويس الآن وبنى في مدينة أواريس معسكراً عظيماً. وأنشأ حولها الخنادق والحصون وبالغ في ذلك جداً فهابه المصريون واتسعت كلمته وطارت شهرته وظل يدبر الأمور تسع عشرة سنة ثم مات.

فقام بالأمر بعده الملك (بنون) وقد قضى أكثر سني ملكه في قتال ملوك طيوه وإخضاعهم وجعلهم تحت طاعته فلم يفلح ثم مات بعد أن حكم أربعاً وأربعين سنة.

فقام بالأمر بعده الملك (انحناس) فتجرد كذلك لقتال ملوك طيوه وغيرهم من الملوك المتاخمين ومات بعد أن حكم ستا وعشرين سنة وسبعة أشهر.

(فقام بالأمر بعده الملك (آبابي الأول) وكان مغازياً كثير الحروب والقتال مع الملوك المصريين ومات بعد أن حكم إحدى وستين سنة).

فقام بالأمر بعده الملك (يانا) ومات بعد أن حكم خمسين سنة وشهرا ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً.

فقام بالأمر بعده الملك (أسس) وهو سادسهم وآخرهم ومات بعد أن حكم تسعاً وأربعين سنة وشهرين وانقرضت بموته هذه العائلة كما قاله أهل التاريخ وكانوا كلهم قساة غلاظ القلوب فأبغضهم المصريون بغضاً عظيماً وكرهوهم كرهاً زائداً. قالوا: وأصل هؤلاء الملوك مجهول فمن قائل أنهم من العبرانيين، ومن قائل بل هم تتار وتركمان وبعضهم يجعلهم صوريين وكنعانيين والأقرب إلى الحقيقة أنهم من جهة الحجاز وبلاد الشام المتاخمة لديار مصر. قال علماء الآثار فقد شوهد من هيئة أشكالهم المرسومة على كثير من الآثار القديمة أن صورهم كلها مرسومة بالوشم الأزرق وهم متشحون بجلود الغنم وهذه الإشارات من الأدلة الناطقة بأنهم من العرب لا من العبرانيين ولا من غيرهم، ولا سيما أن دولتهم في بلاد مصر كانت

تعرف بهيك سوس يعني الملوك الرعاة. قالوا: لأن لفظة هيك عند قدماء المصريين معناها الملك وسوس معناها الرعاة فإذا زيد عليها واو وقيل سوسو كانت بمعنى العرب وبتطبيق هذا الرسم على ما يوافقه بالقلم البربائي، وجدت كلمة(حق شاسو) موافقة له لأن معنى حق ملك، ومعنى شاسو أيضاً البوادي. وقال ماسپرو إن معنى شاسو اللصوص من عرب البوادي فسماهم المصريون بهذا الاسم لدناءة أصلهم.

وذكر ماريت أن قبائل الهيكسوس كانو أخلاطاً من العرب وأهل الشام، وكانت أكبر قبيلة حاكمة عليهم تسمى بالقلم الهرمسي (خيتا) وفي التوراة الحيثيين وفي كتب العرب العمالقة وبعد أن أقاموا في ديار مصر مدّة طويلة مالوا إلى حضارة أهلها فتأسوا بهم وغلبت عليهم طباعهم فتركوا الفظاظة والغلظة ومالوا إلى محبة الرعية وإحياء ما اندرس من معالم التمدن والعمارية واستخدموا الكثير من كتاب المصريين وتلقبوا بألقاب الفراعنة ودانوا بدينهم وفتحوا المدارس لتهذيب أولادهم واعتنوا بالأمن والراحة واختاروا لمصالح دولتهم رجالاً محنكين من أولى المناصب والرتب العالية، واتخذوا مدينة صان تختالهم وفتحوا معابدها وأكثروا من العمائر فيها حتى صارت من أعظم المدن شهرة وتغلبوا على الوجه القبلي ونزعوه من أيدي الملوك المتأصلين واستولوا على كافة أنحاء مصر القبلية والبحرية وطالت أيامهم وتعاقبت ملوكهم وعم نفوذهم مشرق البلاد ومغربها وبانقراض هذه العائلة انتقل الملك إلى العائلة الثانية منهم وهي العائلة السادسة عشرة المعروفة بالصانية.

الفصل الخامس

في العائلة السادسة عشرة (الصانية)

كان مبدأ ملك هذه العائلة سنة أربع عشرة ومائتين وألفين قبل الميلاد أي سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألفين قبل الهجرة وسنو ملكها خمسمائة وإحدى عشرة سنة وعدد من ملك منها اثنين وثلاثين ملكاً كلهم من الرعاة الذين هم الهيكسوس كما رواه مانيطون ولم يذكر من أسمائهم سوى اسم ملك واحد وهو (آبابي) وسماه (أبوفيس) وتسميه العرب الريان بن الوليد الملقب (رعاكنن).

(في الملك آبابي أو أبوفيس الملقب رعاكنن)

(الذي تسميه العرب الريان بن الوليد)

قال بعض الكتاب: الغالب أن مانيطون المؤرخ لم يأت بذكر الملك (أبوفيس)

هذا دون من ملك من هذه العائلة إلا لشهرة أيامه وأهميـة ما وقع فيها من الحوادث والأنباء إذ هو الريان بن الوليد الملقب رعاكنن وهو فرعون يوسف عليه السلام، وفي أيامه وفـدت السيارة التي اشـترت يوسف من إخوته بعـد إخراجه من الجب فبـاعه مالك كـبير هؤلاء السيـارة إلى وزير مصر قـفطير. ويسمى بالقلم القـديم (بدوفر) ومعناه هدية الشمس فلمـا اشتراه قفطير أتى به إلى بيته. وقـال لامرأته رعاييل بنت رعاييل أكرمي مثواه فلما رأت حسنه عشقته وأحـبته حبا كبيراً وراودته فامتنع. وقال لها كـيف وزوجك سيدي وقـد أكرم مثـواي فلا يصح لي أن أخـونه فكان من أمر سجنه ما جاءت به الكتـب. وكانت الحبوس يومئذ في الجانب البـحري من سقارة. قال صاحب العـقد الثمين، ومكانه معروف للآن عند أهل تلك الجـهة. اهـ. وكان معه في السجن فتيان هما ساقي الملك وخـبازه. وكان من أمر رؤياهما وما قاله لهما يوسف ما جاء في الكتب المنزلة وبعد مكثـه في السجن بضع سنين رأى فرعون رؤيا هي أن سـبع بقرات سـمان وسـبع بقرات عـجاف خـرجن من نهر يابس فـابتلعت العجاف السمان، ورأي سـبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفـركت وسبعاً أخرى يابسات قد استـحصدت فالتوت اليابسات علـى الخضر حتى غلبتها فـجمع السحرة والكهنة وطلب منهم تـفسـير هذه الرؤيا فـقالوا أضـغاث أحـلام وما نحن بتـأويل الأحلام بعـالمين فعند ذلك أخبـر السـاقي عن يوسف فأرسله الملك إليـه في السجن (ففسر له يوسف هذه الرؤيا كما جـاءت به الكتب المنزلة فكان ذلك سببا في خروج يوسف من السجن) وجـعله الملك (زافتات بنياخ) ومـعناه أمين على خزائن الأرض فأشار على الملك حينئـذ بأعمال الخزائن لجعل الطعام فيـها بقصله وسنبله وأن يرفع الخمس من طعـام الناس مدة سـبع السنين المخصبـة فأمر الملـك ففعلوا مـا أشار به يوسف فكفى يوسف أهل مـصر ومن تاخمهـا مدة السبع سنين المجـدبة وفي خلال ذلك جاء بنو يعـقوب في مصـر وتعرفوا بأخـيهم يوسف وأقامـوا نحو أربعين سنة بمدينة تعرف الآن بالسهريج بمديرية الشرقية وقصتهم مذكورة في التوراة.

قالوا: وقد اسـتدل جماعـة الكتاب على حصول القـحط في أيام يوسف عليه السلام بما عـثروا عليه من النقوش على أحـد مقابر قـرية الكاب لرجل من المصريين اسمه (بابا) ويلقب (آباتا) وهو من أقـارب ملوك العائلة الثالثة عشرة وكـان معاصرا ليوسف. قال صـاحب العقد الثمين وتعريبـها كنت ذا قلب رؤوف لا آلف الغضب ولذا أكرمـتني المعبـودات بالخير الجـزيل في دار الدنيا وكـان أهل بلدي وهي الكاب تهنئني بالصحة والسلامة. وكنت أقـتص من المسيئين ورزقت من الأولاد مدة حياتي

باثنين وخمسين ولدا صغيراً وكبيراً بين ذكور وإناث وكان لكل واحد منهم سرير وكرسي وسفرة وكانوا يأكلون في كل يوم مائة وعشرين مداً من القمح والحبوب، وكان لهم ثلاث بقرات حلوبة واثنان وخمسون بقرة وثمانية حمير وكانوا يحرقون من البخور ماينيف عن الهين[1] ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين فإن ناقضني أحد في قولي وظن أنه أضحوكة فأشهد المعبود (مونت) على ما قلته من الحق وإني أحضرت جميع ذلك في بيتي وكنت أعطي اللبن الرائب في قدر والبوظة في قدر طويل ضيق الرأس يعرف بالدلق بمقدار يزيد عن الهين وجمعت قمحاً كثيراً محبة للمعبود الطيب أي الملك وكنت متيقظاً وقت الزراعة في السنين المخصبة.

قال: ولما حصل القحط في كثير من السنين كنت أعطي القمح لأهل المدينة في كل مجاعة وبهذا يعلم أن تنبهه زمن الزراعة وصرفه الغلال للناس وقت المجاعة هو إشارة بلا شبهة إلى سني يوسف المخصبة والمجدبة . اهـ. (كما رواه بركش).

وقامت في أيام هذه العائلة فتنة دينية بين الملوك وأمراء الأقاليم القبلية وكبرت واستفحل أمرها وما زالت حتى انسلخ الوجه القبلي عن حكم الرعاة المذكورين وعاد إلى حكم ملوكه المتأصلين وكان أوّل من ظهر منهم الملك (تاعا الأوّل) وأسس في الإقليم القبلي العائلة السابعة عشرة وهي العائلة المتأصلة، وكان ذلك في أيام الملك (ايابي) الملقب رعاكنن الذي هو آخر الملوك الرعاة من العائلة السادسة عشرة المذكورة.

الفصل السادس
(في العائلة السابعة عشرة)

لم يعلم أحد من أهل التاريخ مبدأ ظهور هذه العائلة ولا سني ملكها غاية ماجاءوا به عنها أن عدد من ملك منها ستة ولم يأتوا بشيء من أخبارهم لا بالإجمال ولا بالتفصيل. قالوا: وفي عصر هذه العائلة كانت مصر بين حكومتين الأولى في الإقليم البحري وجزء من الإقليم القبلي، وهذه كانت ملوكها من الرعاة وعددهم ثلاثة وأربعون ملكاً لم يعلم اسم أحد منهم سوى الملك ايابي. رعاكنن. وكانت قاعدة ملكهم مدينة صان، والثانية في الصعيد الأعلى وملوكها من الوطنيين المتأصلين وقاعدة ملكها مدينة طيوه وعددهم ثلاثة وأربعون ولم يعلم منهم سوى

(١) الهين: بكسر الهاء وسكون النون كيل معروف عندهم.

ستة لا غير وهم تاعا الأول الملقب رعسكنن الأول وتاعا الثاني الملقب رعسكنن الثاني وأليسفر غموثوريس وتشموزيس وتاعاكن الملقب رعسكنن الثالث وكامس الملقب رعوز خبر ، ولنتكلم على كل ملك منهم بالتعاقب واحداً فواحداً وأولهم الملك تاعا الأول.

(في الملك تاعا الأول الملقب)
(رعسكنن الأول)

قال جماعة الكتاب: لما ارتقى تاعا الأول منصة الملك نهض إلى استخلاص البلاد من أيدي العمالقة والاستبداد بالملك وجيش لذلك جيشاً ضخماً للغاية وقاتل الرعاة المذكورين وقام لنصرته الأمراء من أهل البلاد الذين هم من أفخاذ العائلات الملوكية المتأصلة وأمدوه بالذخيرة والرجال وما زالوا يطاردون الرعاة والحرب بينهم سجال حتى أجلوهم عن مصر الوسطى ودفعوهم إلى مدينة منف فأقاموا فيها ما استطاعوا.

ولما رأى تاعا الأول من قيام هؤلاء الأمراء لنجدته واستخلاص الوطن من الأغراب عينهم نظاراً على أقسام مملكته وأباح لهم التلقب بلقب (سوتن) ومعناها ملوكي تعظيماً لشأنهم حيث هم من نسل الملوك. وفي أيام الملك أليسفرغموثوريس ركب عليهم أيضاً وقاتلهم ليطردهم من البلاد وما زالوا حتى أجلوهم عن منف أيضاً فانحازوا بجنودهم إلى مدينة أواريس التي بها معسكرهم واستقروا بها حقبة من الدهر آمنين ثم قام عليهم الملك رعسكنن الثالث وقاتلهم وكذلك الملك كامس وغيرهما من ملوك هذه العائلة الذين لم تعلم أسماؤهم لجماعة الكتاب فلم يستطيعوا إخراجهم من أواريس لمنعتها وظلوا حاكمين على أواريس المذكورة وما جاورها من المدن والبلاد حتى تغلب عليهم الملك (أموسيس الأول) رأس العائلة الثامنة عشرة التي قامت بعد هذه العائلة. قال بعض الكتاب: ولم يبلغ كره المصريين للرعاة حدّ ما ذكره بعض أهل التاريخ، فقد كانوا في آخر أيامهم هم والمصريين على وفاق ووئام حيث شيدوا لهم المباني العظيمة وابتنوا المعابد الكثيرة كما تقدم. فمالوا إليهم وأحبوهم وسمى بعض المصريين أولادهم بأسماء الرعاة تفاؤلاً وبانقراض هذه العائلة تم انقراض الطبقة الثانية بأسرها فظهرت بعدها الطبقة الثالثة التي هي الطبقة الأخيرة.

□□□

الباب الثالث
(في الطبقة الثالثة)

كان ظهور هذه الطبقة سنة ثلاث وسبعمائة وألف قبل الميلاد أي سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألفين قبل الهجرة وتبتدئ بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بالعائلة الحادية والثلاثين التي هي العائلة الفارسية عبارة عن أربع عشرة عائلة وسنو ملكها ألف وثلثمائة وإحدى وثلاثون سنة وفي رواية ألف وثمانمائة وست وستون.

الفصل الأول
(في العائلة الثامنة عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة ثلاث وسبعمائة وألف قبل الميلاد أي سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألفين قبل الهجرة وهو مبدأ ظهور الطبقة الثالثة وكان عدد من ملك من هذه العائلة أربعة عشر ملكاً وسنو ملكهم مائتي سنة وإحدى وأربعين سنة وأولهم الملك أموسيس الأول وتسمى هذه العائلة بالطيبية.

(في الملك أموسيس الأول)
(الذي يقال له)
(أحعمس الأول)

كان مبدأ ظهور الملك أموسيس الأول مظهراً لطبقة جديدة وعائلة حازت السؤدد والفخار وعلو الكلمة فقد انفردت بالشوكة الملكية والسطوة الأهلية وامتدت حدود مملكتها امتداداً سريعاً وزادت ثروتها وتكاثرت عماراتها وكان أموسيس المذكور مصاهراً لملك الايتيوبيا بزواج ابنته المسماة (أحعمس نفرت آري) فتعاهد معه على إخراج العمالقة من أرض مصر والنهج على منوال أسلافه من الفراعنة المتأصلين وأخذ في التأهب والاستعداد وتجييش الجند فلما كانت السنة الخامسة من ملكه سار بجيش عظيم وانضم إليه الأمراء المصريون الذين هم من سلالة الملوك المتأصلين حتى نزلوا حول قلعة أواريس وحاصروها برا وبحراً وضيقوا عليها وشدّدوا حتى فتحوها عنوة وطردوا من كان بها من العمالقة وتبعهم الملك أموسيس بعسكره حتى أدخلهم

قلعة (سروحن) في حدود أرض كنعان، وكانت هذه القلعة غاية في المنعة والضخامة وقد أنشأها العمالقة ليتحصنوا فيها عند الحاجة فحاصرها ثم هجم بجيشه عليها وأخذها وأسر من العمالقة خلقاً كثيراً ففر من بقى فتبعهم بعسكره حتى عبروا الفرات فتركهم وعاد منصوراً وقد تخلصت البلاد من أيديهم وانفكت من قيود العبودية والأسر بعد أن تسلطوا عليها ستمائة سنة وفي رواية أربعمائة سنة.

وبقى من العمالقة قوم في جوف البلاد فأظهروا الطاعة والخضوع لملك البلاد فأنزلهم على سواحل المنزلة وأقطعهم الأراضي التي كانت بيد أسلافهم ليتعيشوا من غلاتها ولم تستقر به الراحة بعد قتال العمالقة وإخراجهم (حتى خرج عليه أهل النوبة وعصوا أمره وشقوا عصا طاعته فسار لقتالهم وظهر عليهم وأرجعهم) إلى الطاعة ولما رأي الايتيوبيون من منزلة زوجة الملك أموسيس عند المصريين واعتبارهم لها وهي من جنس الايتيوبيين خضعوا له وأطاعوه بغير قتال احتراماً لقدس زوجته فاتسعت عند ذلك كلمته وعلت على جميع الديار المصرية من الشلالات إلى البحر الأبيض المتوسط لا يعارضه في حكمه أحد. قال بعض الكتاب وقد استمرت نار الحرب والقتال مضطرمة بين ملوك الرعاة والملوك المتأصلين زهاء مائة وخمسين سنة حتى عاد لمصر استقلالها، ورجعت مملكتها التي أنشأها أول ملوكها (منا) وكانت في خلال هذه المدّة الطويلة أخذت عماراتها وآثاراتها العظيمة في التداعي إلى السقوط بل تخرب منها الكثير واضمحل حال الرعية فنهض الملك أموسيس المذكور إلى ترميم العمارات وتنظيم الأحكام وترتيب الإدارة وعين الأمراء الذين ساعدوه على إخراج العمالقة نظارا على أقسام مملكته وأباح لهم التلقب بلقب (سوتن) يعني ملوكي كما تقدّم. وفي السنة الثانية والعشرين من حكمه أمر بتشغيل محاجر طرا وفرض على أساري العمالقة نقل الحجارة منها، ووكل بهم رجالاً لترميم معبد (بتاح) بمدينة منف ومعبد (أمون) بالكرنك ولإنشاء معابد أخرى جديدة فعاد إلى البلاد رونقها القديم وبهجتها الأصلية وأحبته الرعية حبا كبيراً وبالغوا في تعظيمه وقد أمر بمعسكر أواريس الذي كان للعمالقة فهدم وأنشأ محله قلعة تسمى (تاسال) لتكون حائلاً بين إغارات أهل آسية وبين بلاد مصر وهجر مدينة صان حيث كانت تحت حكم العمالقة وتركها على حالة ما أصبحت عليه بعد الحرب الأخيرة حتى كاد اسمها يمحى من كتب التاريخ، ثم مات أموسيس المذكور بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة وهو المعروف في جدول الآثار القديمة (بأجعمس الأول) فقام بالأمر بعده الملك أمنحوتب الملقب رعركا.

(فى الملك أمنحوتب الأول)

تولى الملك بعد موت أبيه ولعدم بلوغه سن الرشد قامت أمه (أحعمس نفرت آري) بدلاً عنه بمهام المملكة وما زالت حتى بلغ رشده فقام بالأمر ونهض إلى تعزيز مصر من الجانب القبلي، وكذلك فعل بالجانب البحري حتى صار حصيناً لا يمكن وصول العدوّ منه إلى ديار مصر وكانت له عدّة وقائع حربية في الصعيد الأعلى تشهد بها النقوش المنقوشة على أحجار الكاب المنسوبة إلى أحعمس رئيس الملاحين. قال صاحب العقد الثمين منها ما معناه إني أحضرت سفينة الملك أمنحوتب حين جهز تجريدة لقتال الايتيوبيين لتوسيع حدود مصر هناك فانتشب بينهم الحرب وأسر الملك رئيس سكان جبل النوبة من بين رجاله وكنت أنا في مقدّمة فرساننا، وقاتلت قتالاً شديداً حتى شاهد مني الملك البسالة والشجاعة. وقتلت رجلين من العدوّ وقطعت أيديهما وقدّمتهما لجلالته ثم أسرت رجلاً وأحضرته له وصرت أبحث عن أهله ومواشيه وبعد هذه الغزوة صحبت جلالته راجعين إلى مصر في يومين، وكان قيامنا من جهة البئر الأعلى فأحسن إليّ بعقد من ذهب وكنت غنمت جاريتين غير الجواري اللاتي أحضرتهن له ولذلك لقبت بفارس الملك. اهـ.

ووجد أيضاً بجهة الكاب نقوش لرجل مصري يدعي (أحعمس بن سوتب) تفيد أن هذا الملك تقاتل مع أهل الايتيوبيا ومع الجهة المسماة (امكاحاك) التي في الجانب الشرقي من مصر، وقد أصلح ما تهدم من قسم طيبة وهيكل أمون ولذا يرى اسمه منقوشاً على طوبها وحجارتها وملك مصر مع جميع ملحقاتها ولما وطد دعائم الراحة تزوّج بالملكة (أحع حتب) وأقام معها في أرغد عيش وأتم راحة واتخذه أهل مصر بعد موته مقدساً وجعلوا له كهنة مخصوصين لعبادته لما شاهدوه من الراحة في زمن حكمه.

قال صاحب العقد الثمين وجثته بدار التحف المصرية طولها متر واحد وخمسة عشر سنتيمتراً وهي محفوظة في تابوتها ومدرجة في أقمشة بنبية اللون وفوقها أكاليل من أزهار البشنين والبردي وغيرهما. اهـ.

ومات أمنحوتب المذكور بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة فقام بالأمر بعده الملك تحوتمس الأول الملقب رعا خبركا.

(في الملك تحوتمس الأول)
(ويسمى أيضاً)
(توتومس الأول)

قال صاحب العقد الثمين: هذا الاسم مركب من كلمتين إحداهما تحوت ومعناها هرمس؛ والثانية مس ومعناها ابن ثم صارا علماً على هذا الملك.

وقال غيره من الكتاب: أن اسمه مركب من كلمتين إحداهما توت ومعناها هارب وميس أوموسيس ومعناها ابن ثم صارا علماً وكان ملكاً عظيم البأس كثير الحروب قاتل الايتيوبيا جنوباً وانتصر عليهم ونقش نصراته على بعض الألواح الحجرية في مدينة كرمان إزاء جزيرة أونبو وأعظم نقش فيها ما نقشه بالجزيرة المذكورة في السنة الخامسة من حكمه حيث يذكر فيه وقائعه الحربية وأسماء الأمم التي دخلت تحت طاعته ووضعت له الجزية وامتدت حكومته إلى محاجر مدينة أونبو من النوبة وقد وجد اسمه منقوشاً على حجر هناك ووجد أيضاً نقوش أخرى بجهة أسوان مؤرخة في السنة الأولى من ملكه تدل على نصرته على بلاد النوبة وتغلبه على أهلها واتسعت في أيامه حدود مصر وامتدت من الجنوب إلى جبل (أبتا) بأرض الحبشة ومن الشمال إلى آخر أماكن أهل آسية وكانت بلاد الايتيوبيا منبع ثروة ديار مصر حيث كانت تأتي منها البضائع والأرزاق على المراكب بالنيل من الحبوب والجلود والعاج والأخشاب والحجارة النفيسة والحيوانات والمعادن من الذهب وكان المصريون يستخرجونه من تلك الأصقاع بواسطة الأسرى والعبيد، وكان هذا المعدن يسمى عندهم (نب). قال صاحب العقد الثمين: فاشتق من هذا الاسم كلمة النوبة المعلومة الآن.

وقاتل هذا الملك النوبيين وأدخلهم تحت طاعته ثم أقام عليهم أمراء ليحسنوا تدبير البلاد وسياسة أمورها وكان يلقب كل أمير منهم بلقب (الأمير الملوكي لبلاد الايتيوبيا) ولما تم له الأمر بجهة الجنوب واتسعت مملكته وعلت كلمته سار بجيش عظيم نحو الشمال وقاتل سكان وراء فلسطين وأرض كنعان بالسهول الواقعة بين دجلة والفرات وهم الطوائف المعروفون في النقوش القديمة باسم (روتنو) وكانت هذه الطوائف لا حاكم لها ولا سلطان يرجعون في أمورهم إليه وكان يقطنون بلاد الجزيرة التي بين دجلة والفرات ومنها مدينة بابل ومدينة نينوي وبلاد الكرد وكانت تأتي إليها التجارة من مصر إلى (رافيا) التي كانت مأهولة يومئذ بالعمالقة ثم إلى

فلسطين ومنها يعبر نهر الفرات فينتهي إلى الجزيرة المذكورة وكان هذا الملك عظيم القدر عالي الهمة موفقاً في جميع أعماله.

قال بعض الكتاب: وهو الذي بيع يوسف بن يعقوب عليهما السلام إلى وزير مصر في أيامه على ما قيل واشتهر وفسر له أحلامه المذكورة في الكتب (قلت) وقد اختلف أصحاب التاريخ من جهة شخص فرعون يوسف من هو من الفراعنة فزعم البعض أنه من ملوك العائلة الثانية عشرة وهذا بعيد وزعم البعض الآخر أنه كان من الملوك الرعاة الذين تغلبوا على مصر واسمه الوليد المعروف عند اليونان باسم (أبي فاس) وقد تقدّم بيان ذلك في محله. وقال أحد المتأخرين من أهل التاريخ المحققين إن هذا الزعم غير صحيح لتقادم عهد تلك المدّة (قلت) والأصح أن دخول يوسف إلى مصر كان بعد انقراض دولة الرعاة كما قال مانيطون المؤرخ المصري فإنه لما تكلم على مدينة منف التي هي منفيس، قال: وعاش بها يوسف وتسلط على جميع البلاد في زمن أقدر وأعظم فراعنة المملكة الجديدة التي قامت بعد نفي الرعاة وخروجهم من أرض مصر إلى أرض كنعان وهي الدولة الثامنة عشرة المتأصلة التي قامت بمدينة طيبة ويؤيد صحة هذا القول ماجاء في التوراة من قول يوسف لإخوته عند نزولهم عليه بأرض مصر ، يكون إذا دعاكم فرعون. وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك من أصحاب الماشية منذ صبانا إلى الآن نحن وأباؤنا جميعاً حتى تسكوا أرض جاسان لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين. ويستدل من الآثار أن تحوتمس هذا تزوّج بأخته المسماة أحعمس. ويقال إنها ملكت مصر بعده ولذا يظن أن اسم أميسيس الوارد في جدول مانيطون المؤرخ بعد اسم الملك المذكور هو اسم هذه الملكة.

ومات تحوتمس الأول المذكور بعد أن حكم عشرين سنة وحسبها بعضهم إحدى وعشرين سنة وقد عبده المصريون وعبدوا أخته بعد موتهما وجعلوهما في مصاف المقدسين وبموته قام بالأمر بعده تحوتمس أو توتوميس الثاني.

(في الملك توتوميس الثاني)

لما ارتقى توتوميس الثاني سرير الملك عمد إلى تعمير الهياكل والمعابد ثم أرسل جيوشه إلى الشام والايتيوبيا ليأخذوا له البيعة من أهلها فبايعوه، وكانت السودان قائمة على قدم القتال من عهد الملك توتوميس الأول فحاربهم توتوميس الثاني هذا وقاتلهم قتالاً شديداً حتى أدخلهم تحت نير الطاعة وصير بلادهم جميعاً إلى حدود

الحبشة ولاية تحت حكمه بعد أن كانت مستقلة وأقام عليها العمال من قومه من ذوي الرتب العالية وسماهم (ولاة الديار الجنوبية من قبل المملكة المصرية) كما فعل أسلافه من قبل ثم اعتبر هذا اللقب رتبة عالية فكان ينعم به على من يستحق حكم تلك البلاد ولو كان قاصر القصد الشرف والاعتبار وكان إذا أحسن به على من لم يبلغ رشده أقام له رئيساً يحكم بالنيابة عنه إلى أن يتم رشده فيتولى الحكم بنفسه: ومات هذا الملك بعد أن حكم ثلاثين سنة وبضعة أشهر ولم يعقب نسلاً فتولى الملك بعده أخوه توتوميس الثالث ولاية اسمية حيث كان قاصرا فقامت أخته بالأمر بالنيابة عنه حتى يبلغ الرشد وهي الملكة حعتشبسو الملقبة رمكا.

(في الملكة حعتشبسو)
(وتسمى أيضاً
رمكا)

هي ابنة توتوميس الأول وأخت توتوميس الثاني المتقدّم الذكر. قال أصحاب التاريخ ولما كان لها حق الحكم على البلاد بالوراثة عن أمها (أحعمس) وجدّتها (أحعمس نفرت آري) أشركها أبوها توتوميس الأول معه في آخر أيامه في حكم البلاد فلما مات والدها ظهرت وعلت كلمتها، وعظمت شوكتها أيضاً في أيام أخيها توتوميس الثاني وزادت بتوليتها النيابة عن أخيها توتوميس الثالث واعتبرها المصريون الوارثة الحقيقية لكرسي الملك فلما دانت لها الأمور تزوّجت بزوج اسمه توتوميس ومات فتزوجت بآخر اسمه (امتطه) وولدت من الأول ولدها المسمى توتوميس وكانت عالية الهمة فنهضت لتشييد المباني العظيمة والهياكل الكبيرة وسمتها باسمها ورتبت لها القرابين وأحسنت التدبير جداً وحافظت على البلاد وأخذت الجزية من طوائف (الروتنو) سكان سوريا الشمالية وكانت عظيمة القدر مهيبة فرسمت نفسها في الآثار على هيئة رجل له لحية ملوكية وكانت متسلطة على بلاد الشام والايتيوبيا وعزمت على أخذ بلاد (بون) وبلاد (توترو). قال صاحب العقد الثمين. ومعنى أسماء هذه البلاد الأراضي المقدسة وموضعها في جنوب بلاد العرب من جهة الهند وهي متاخمة بلاد البون وكانت مركز التجارة للشرق عموماً ولمصر خصوصاً وكانت بضائعها ترد إلى مصر على طريق قفط. اهـ. وكانت تريد بذلك توسعة ملكها بتلك البلاد الشهيرة بالأخشاب النفيسة والصمغ والعطريات والذهب والفضة واللازورد والحجارة النفيسة وجميع التجارات العظيمة التي تحتاجها مصر لأشغال الهياكل

والمعبودات وغيرها وأنشأت في البحر الأحمر عمارة حربية وسافرت فيها بنفسها لتقود عسكرها وتقاتل بلاد (البون) المذكورة فلما نزلت عليها طلب أهلها الأمان فأمنتهم فسلموا بلا حرب ولا قتال وعدلت عن المسير لقتال أهالي الأراضي المقدسة بعد أن رأت من استسلام أهالي (البون) ما رأته ثم رجعت إلى مصر وأمرت برسم صورة تلك الواقعة وتحريرها على جدران حجرتين في الدير البحري وفي أحد جوانب هاتين الحجرتين ما يدل على أن قائد جيوش الأعداء يتمثل بجيشه مع التضرع والخشوع أمام قائد جيوش هذه الملكة المتوج بالنصر والغلبة وترى صفة قائد جيوش الأعداء أنه أغبر اللون له ضفائر من الشعر مستطيلة على ظهره مجرداً من السلاح ومن خلفه زوجته وابنته في صورة شنيعة وحالة فظيعة ينفر منها الناظر. قال صاحب العقد الثمين: ورسمها موجود في متحف بولاق فإذا نظرت إليهما وجدت نوع استرخاء في أعضائهما وورما في أفخاذهما يدل ذلك على أن في جسمهما مرضا وتشاهد في الجانب الآخر من الحجرتين المذكورتين رسومات ثانية بها أشكال السفن الحربية المصرية يشحنها رجال من الأعداء المنقادين بالحيوانات الغريبة كالزرافات والقردة والنمور. وفي جهة أخرى ترى أنواع الأسلحة وسبائك النحاس وحلق الذهب وفي أخرى حمل الصناديق من أصناف الأشجار العطرية المضمخ أسفلها بالطين وقدرها اثنتان وثلاثون شجرة لغرسها في بساتينها بطيبة وصورة السفن ضخمة يظهر عليها متانة التركيب ذات شراع ومجاديف وعلى سطحها طوائف البحرية ويوجد تماثيل أخر عليها أشكال العساكر المصرية راجعة من الغزو كأنها تسرع في المشي وتدخل مدينة طيبة بدلائل النصرة مسلحة برماح أو بلط في الميامن وفي المياسر قابضة سعف النخل علامة النصر والغلبة وأمامهم الطبول والمزامير وكأنهم يضربون النوبة الحربية وبجانبهم الضباط حاملين على أكتافهم الأعلام والرايات الوطنية مكتوباً عليها اسم الملكة (حعتشبستو) الوصية على الملك (توتوميس الثالث). اهـ.

وقد فعلت هذه الملكة من جليل المآثر وعظيم المفاخرة ما أعلى قدرها وحفظ بين هذه العائلة ذكرها واستبدت بالتصرف مدة سبع عشرة سنة ومع بلوغ أخيها سن الرشاد وتصرفه في الأمور كانت هي صاحبة الحل والعقد إلى أن ماتت فاستبد أخوها توتوميس الثالث المذكور بالملك.

(في الملك توتوميس الثالث)

لما استقر بالمنصب واستبد بالحكم بعد موت أخته حعتشبسو عمد إلى إبادة ذكر أخته بمحو اسمها الذي كانت نقشته على ما شيدته من المباني العظيمة والعمائر الجسيمة المرسوم عليها صور وقائعها الحربية ونقش اسمه عليها بدل اسمها ليمحي خبرها ويطفىء سراج مجدها الذي دلت عليه فعالها انتقاماً منها على ما صنعته به من اغتصاب الملك والتصرف في الأمور بعد بلوغه سن الرشد ولم يمض على استقلاله بالملك إلا القليل حتى خرجت عليه طوائف (الروتنو) وامتنعت من دفع الجزية واقتدى بها سكان جميع الجهات المجاورة لها ثم خرجت كذلك جميع الايالات التي كانت لمصر في آسية ولم يبق منها سوى غزة وما تاخمها من البلدان فركب الملك توتوميس عليهم بجيوش عظيمة وهزمهم شر هزيمة ونقش وقائع حروبه معهم على جدران هيكل الكرنك.

قال صاحب العقد الثمين ما حاصله: في شهر برمودة سنة اثنتين وعشرين من حكم الملك تحوتمس الثالث يعني توتوميس توجه هذا الملك إلى مدينة غزة وعمل فيها عيد ولايته ثم أخذ في المسير منها إلى مدينة (يوحم) فوصل إلى ضواحيها في عشرة أيام، ونزل بعسكره هناك وانتظر استكشاف طلائعه لينظم جيشه على حسب أخبارهم ففي اليوم السادس عشر من الشهر المذكور أخبرته طلائعه أن الأقوام المتحالفين تحت قيادة أمير كدش قد عسكروا بالقرب من قلعة مجدو في مضيق كرمل وانتشرت قوتهم في طريق ليبان فعند ذلك أشار عليه بعض قواد جنوده بالتوجه إليهم من طريق أثونا ليكون الهجوم على الأعداء من خلفهم وكانت هذه الطريق موصلة إلى سهل (يزرل) الواقع بين مدينة مجدو وجبل ثابور فلم يقبل الملك منهم ذلك خوفاً من عدم نجاح هذا المشروع وسار بجيشه مسرعاً إلى (آلون) فوصل إلى ضواحيها في ثلاثة أيام وكانت تلك الجهات خالية من الأعداء ومن الحصون لعدم الاعتناء بها فشغلها الملك بجزء من عسكره وفي صبيحة عشرين من الشهر اجتاز المضيق الآنف الذكر من دون معارضة وانتظر في سفح الجبل من جهة الشمال مؤخر جيشه فلما اجتمع جيشه في الساعة السابعة من اليوم المذكور نشره في السهل على شاطىء نهر (كينا) تجاه معسكر الأعداء من غير أن يبرز للقتال وفي صبيحة الحادي والعشرين من الشهر نظم جيشه للقتال والهجوم وجعل الميمنة في حصن حصين هناك بوادي (كينا) والميسرة ممتدة في السهل إلى الشمال الغربي من مجدو وأقام هو في القلب ثم هجمت الجيوش المصرية على أهل الشام هجوماً فظيعاً أوقع الرعب

الشديد في قلوبهم فتشتتوا وتركوا عرباتهم وخيولهم وولوا الأدبار مسرعين في فرارهم إلى مجدو فلما رآهم حراس هذه المدينة أغلقوا الأبواب دونهم خوفاً من دخول الجيوش المصرية في أثرهم ولذلك لم يتمكن أحدهم من دخول المدينة سوى من تسور الجدران من القواد على الأحجار.

وأما باقي الجيش فإنه تشتت داخل الجبل وتخلص من سفك الدم والذي قتل منهم ثلاثة وثمانون مقاتلاً وأسر نحو ثلثمائة وأربعين رجلاً وغنم المصريون في ساحة القتال مائتي ألف واثنين وثلاثين حصاناً (كذا) وتسعمائة وأربعاً وتسعين عربة وغير ذلك من الأشياء التي تركها أهل الشام وقت هزيمتهم ثم توجه الجيش المصري منصوراً إلى مجدو وهي وقتئذ أعظم من ألف مدينة فلم تثبت في صف القتال إلا أياماً ثم سلمت للمصريين وبفتحها انتهت الحرب وأطاعه رؤساء الشام والجزيرة والكرد وبادر الجميع بدفع الجزية وإظهار الانقياد والتعظيم للملك المنصور تحوتمس الثالث. اهـ.

ثم عاد أمير الشام إلى العصيان ثانية وخرج عن طاعة الملك توتوميس الثالث المذكور وهيج عليه سكان شمال سوريا فركب عليهم توتوميس وحاربهم وتغلب على مدينة تونب وحلب وارواد وذلك في السنة التاسعة والعشرين من ملكه وهجم في السنة المتممة للثلاثين على مدينة كدش فتملكها وأخذ جميع ما فيها من الأموال ودمر الأسوار ودكها دكاً وسار منها إلى مدينتي صميرة وارواد فظفر بهما أيضاً وانتصر على الخوارج ثم عفا عن زعماء العصاة وأبقاهم في مناصبهم وأخذ أولادهم وإخوتهم إلى مصر رهينة فكان إذا توفى أحد من هؤلاء الرؤساء أرسل واحداً من المرهونين ليتولى بدله.

وفي السنة الثالثة والثلاثين من ملكه عبر الفرات وسار إلى الجزيرة التي بين دجلة والفرات في الجهة التي نصب فيه توتوميس الأول الحجر الشاهد على نصرته وتغلبه على بلاد الأرمن وإدخالهم تحت طاعته ثم عبر نهر الخابور إلى دجلة وسار حتى وصل إلى نينوي بالعراق فخرج إليه رئيس العراق وتلقاه بالبشر والقبول وسلم إليه وأطاعه فأقره على منصبه وأباح لعسكره صيد ما في تلك الأصقاع من وحوش البر فاصطادوا منها مائة وعشرين فيلاً وأتوا له بجلودها وما غنموه من تلك الغزوات ثم سار إلى مصر فكان إذا مر بمدينة أو قرية خرج له أهلها بالجزية والهدايا النفيسة وتلقوه بالفرح والقبول فظن أن قد تم له الأمر وخضعت جميع آسية إليه ولم يبق له من يعارضه في ذلك.

فلما كانت سنة أربع وثلاثين من ملكه عادت بلاد آسية إلى شق عصا الطاعة وخرج كذلك في سنة خمس سكان الجزيرة وفعل كذلك أهل كدش وغيرها من البلاد المجاورة لها فركب عليهم وقاتلهم جميعاً، وما زال حتى أخضعهم وانتصر عليهم نصراً مؤزراً ولم يكد يرجع من غزوة آسية وإخضاع أهلها حتى قام عليه الزنوج والعبيد القاطنون على شاطيء النيل الأعلى فسار إليهم فلما أحسوا بقدومه تركوا أوطانهم وهربوا إلى الجبال فأمر فنهبت مواشيهم وجميع أموالهم من الذهب والأواني المعدنية والريش وغير ذلك وهدموا مساكنهم وأحرقوها ثم عاد بجيشه والنصر يتقدّمه فكانت أيامه كلها حروباً وشدائد.

ومات توتوميس الثالث المذكور في الثلاثين من شهر برمهات سنة أربع وخمسين من حكمه بعد أن قهر بلاد الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة وبلاد العراق الغربي وكردستان وجزيرة قبرص وأخذ منها جميعها الجزية صاغرة، وهو من أشهر ملوك هذه الدولة الثامنة عشرة التي هي رأس الطبقة الثالثة من طبقات ملوك مصر كما تقدّم حسب ترتيب جماعة المؤرخين من المتقدمين والمتأخرين وكانت مدّة حكمه خمساً وعشرين سنة وبعض أشهر وفي رواية ثماناً وأربعين سنة فانتقل الملك بعده إلى حفيده أمنوفيس الثاني الملقب رعا خبرو ويسمى أيضاً أمنحتب الثاني.

(في الملك أمنوفيس الثاني)

ارتقى أمنوفيس الثاني هذا سرير الملك والبلاد آمنة مطمئنة لا مهدد لسطوتها ولا موقف من الأمم لنفوذ كلمتها فزاد في نفوذها وإعلاء كلمتها وتقوية شوكتها وأخذ في تتميم ما نوى سلفه على فعله من بناء العمائر العظيمة والمباني المشيدة في النوبة وبلاد الكنوز وإبريم ولم يتمها وكانت في أيامه الراحة ضاربة أطنابها في جميع أنحاء البلاد والرعية في خوف من شدّة بأسه وجبروته لم تجسر على الخروج ولا شق عصا الطاعة مدّة ثم هب الآشوريون بعد ذلك من سنة الخمول وعمدوا إلى شق عصا طاعته والاستقلال بحكم أنفسهم فلما آنس منهم ذلك وأحس بما وراءه من الخوف على بقية الايالات الداخلة تحت سلطانه جيش جيشاً عظيماً وركب لقتالهم فاجتاز الفرات ونهر ارسات وأرسل طليعة من عساكر الشام يستكشفون أحوال الآشوريين في مدينة (انات) ثم سار لقتالهم وضيق عليهم حتى انتصرت عساكره ثم سار منها إلى الجزيرة، ووقعت الهدنة بينه وبين أهلها إلى شهر أبيب، فقضى الشتاء فيها وذلك في السنة الثانية من حكمه، فلما كان العاشر من شهر أبيب سار إلى نينوي

فلاقاه أهلها واستسلموا له بغير قتال فنزل بدجلة وسار إلى مدينة (اكاد) وتملك عليها وكانت هذه الغزوة آخر الحرب مع الآشوريين ثم عاد في السنة الثالثة من حكمه بطريق البحر وكان في مقدّم سفينته سبعة قتلى من رؤساء مدينة (تاخيس) قد قتلهم بيده في معمعة الحرب فلما دخل مصر أمر فعلقوا ستة منهم على سور مدينة ثيبة وقد قطعوا أيديهم وعلقوها أيضاً بجانبهم ونقلوا سابعهم إلى النوبة فعلقوه في مدينة (ثبتا) ليكون عبرة لأهالي تلك الأصقاع. وحكم هذا الملك خمساً وعشرين سنة، وقيل لم يحكم إلا عشر سنين وعشرة أشهر وكان جليل القدر فلما مات تولى بعده الملك توتوميس الرابع الملقب رعمنخبرو وهو ابن أمنوفيس الثاني.

(في الملك توتوميس الرابع)

تولى هذا الملك بعد أبيه أمنوفيس الثاني وعكف على بناء الهياكل وتشييد المباني العظيمة وحافظ على بقاء مصر على ما وجدها عليه من رفعة الشأن واتساع الكلمة وحارب الايتيوبيين في السنة السابعة من حكمه وأخضع الشام لخروج أهلها عن طاعته وحصن مصر وجعلها في منعة على القبائل العاصية جهة لوبية وبلاد برقة. قال صاحب العقد الثمين: ثم عكف على عبادة الشمس كما ورد في الأسانيد الأثرية على جدران معبد أمدا بالنوبة واحترم أبا الهول القائم بين الهرمين بالجيزة حيث كان السر في وضعه الأصلي رمزاً عن الشمس المشرقة التي كان يتصف بها كل حاكم حائز لكافة الأوصاف الفرعونية لكونه بهذه الأوصاف يكون نائباً في الأرض عن الشمس المعبودة لهم. قال: ويشاهد في صدر أبي الهول حجر ارتفاعه أربعة عشر قدما إنكليزية قد علته الرمال وبأعلاه صورة الملك تحوتمس الرابع مرسومة جهة اليمين على هيئة أنها تعبد أبا الهول وعلى يسارها رسم الشمس ثم يلي ذلك نقوش مؤرخة في اليوم التاسع عشر من شهر هاتور من السنة الأولى من حكم هذا الملك تفيد أنه لم يوفر أشياء لتحسين مدينتي منف والمطرية ولإعطاء المرتبات المقررة للمعابد ولإنشاء الهياكل وأعمال التماثيل للمعبودات وإنما تصفه بالقوّة والشوكة بين الدول. قال: ومن أجمل عبارات هذا الحجر خطاب منصوص في آخره عن لسان أبي الهول يخاطب به الملك ويقول له:

أكلمك بنفسي كما يكلم الأب ابنه فانظرني وسرّح الطرف نحوى ياتحوتمس ياولدي أنا أبوك(حورمخي خبرع توم) أي الشمس المشرقة الموجودة الكاملة. أعدك بأن تملك سائر الأرض في طولها والعرض وأن تعطيك الأمم جزياتها العديدة ويطول عمرك سنين مديدة. اهـ.

وحكم هذا الملك تسع سنين وثمانية أشهر ومات فتولى الملك بعده ابنه أمنوفيس الثالث الذي رزق بـه من زوجته مـوت أموا ويسمـى أيضاً أمنحتب الثـالث ويلقب رعماتب.

(فى الملك أمنوفيس الثالث)

لما تولى هذا الملك واستـقر به المنصب بسط يده على جميـع حدود المملكة التي كانت تمتد يومئذ شمالاً إلى نهر الفرات وجنوباً إلى دجلة وكان جليل القدر له شهرة عظيمة في الأقطار الغـربية وكان اليونان يسمـونه (الممنون). وقيل: إنه لم يكن من جنس المصـريين ولكنه اغتـصب المملكة وتسلط عليـها بمداخلتـه مع أحد الفـراعنة بالزيجة ويسـتدل على صحـة ذلك بانفراد قبره الذي في مـدينة ثيبة عن قـبور باقي الفراعنة ويحكي أن ولادته وتربيـته وشئونه كـانت عجيبـة ومرسومة في آثار مـباني لقصرو، تحرير الخبر أن رئيس الكهنة بشر أمه بحمله فأحست بذلك عن قرب فلما وضعته بشرها أيضاً بعظم شأنه واتساع كلمته وأن يكون له ملك عظيم لم يسبق لمثله ويملك ما بين الخافـقين شرقاً وغرباً وشمـالاً وجنوباً فتم جميع مـا قاله الكاهن وقد شيـد المباني العظيمـة والهياكل بلقـصر وبيبـان الملوك وغزا الغزوات الكثـيرة بالنوبة والسودان وانتصـر فيها فادّعـى لنفسه الألوهية ولقب نفسـه (هودوس) يعني شمس الربيع وكذلك سـمى نفسه ملك القطرين وصـاحب المصرين ومولى الخافـقين وكان يعني بالقطرين الإقليمـين البحري والقبلي وبالمصـرين منف وثيبة وبالخافـقين المشرق والمغرب يعني آسية وإفريقية وكان مهيباً حسن السياسة بعيد النظر في الأمور فامتدّت مملكته مـن الجزيرة إلى قلب الحبـشة وملأ جـوانب النيل بالآثار العجـيبـة والرسوم الغريبة والهيـاكل والمعابد فمنها هيكل جبل البركل وهيكل الشلال الثـالث وغيرهما من الآثار الأخرى بجـزيرة أسوان وجبل السلسلة وطرا ومنف وجـزيرة الطور. قال صاحب العقد الثمين ونقش تاريخ غزواته على تاج هيكل لقصر الذي جدد فيه جزءا عظيماً فقال ما معناه:

أنا الملك المنصـور الأكبـر والليث الشـديد الغضنـفر أنا الذي دوّخت بالسـيف طوائف المتوحشين وملكت بلادهم وفرقت شملهم وأبدتهم أنا ملك القطرين، وولى أمر المصرين والسيد المالك المطلق التـصرف وابن الشمس ضارب رقاب الولاة الكبار ورؤساء الأقوام في الأقطار لا بلدة من البلدان تقاومني ولا دولة من الدول تصادمني بل سرت في سائر الأقطار جامعاً شمل الانتصار كالمعبود حوريس ابن المعبودة إزيس

وكالشمس في كبد السماء أضرب قلاعهم وأدمر حصونهم كيف لا وقد قهرت جميع الملل وألزمت كافة الدول بتأدية الجزية لديار مصر ألست بسلطان البرين وأمير العالمين ومن سلالة الشمس. اهـ.

ويقال إنه هو الذي أنشأ على ميسرة النيل تجاه ناحية لقصر معبدا من أعظم الآثار المصرية القديمة، وقد تخرب الآن ولم يبق منه إلا الصورتان الموجودتان به المسماتان الآن بالصنمات وهما صورة الملك أمنوفيس الثالث المذكور. ويقال لهما أيضاً: شامة وطامة وكان في الزمن الأوّل لم يلتفت إلى هذه الصورة أحد فحصلت زلزلة في سنة سبع وعشرين قبل الميلاد المسيحي فأسقطت جزء أحد التمثالين المذكورين وبقيت قاعدته قائمة في محلها وقد شوهد أن هذه القاعدة متى سقط عليها الندى وقت الصباح سمع منها صوت مستطيل عند شروق الشمس فكان يعجب من ذلك أرباب السياحة من اليونان والرومان واعتقدوا أن صورة الملك أمنوفيس الثالث المذكور هي صورة شمسون أحد أرباب الايتيوبيين ابن نيتون وأمه (أورور). وهو الذي أعان (بريام) على إرغام أنوف اليونان وأنه يشير بالتحية عند طلوع الشمس إلى أمه (أورور) أي الفجر ويودعه. قال بعض المتأخرين: إن هذا الصوت كان من أثر الندى وتأثير الشمس على الحجر فهي خاصية طبيعية وكان هذا الملك متزوجاً بامرأة أجنبية من بيت الملك تدعي (تابي) ورزق منها بولد اسمه أمنوفيس الرابع. ويقال إنه خلف عدة أولاد تولى منهم بعده ملك مصر ابنه هودوس. وقد كان تناوب كرسي المملكة المصرية من غير بيت الملك عدة ملوك قد حسبوهم في عداد ملوك الدولة الثامنة عشرة ولكنهم كانوا خاملي الذكر ليس لهم من الآثار ما يذكر قالوا: فلما تولى هودوس بن أمنوفيس الثالث المذكور رجع به المنصب الملوكي إلى أهله من بيت الدولة الثامنة عشرة وكانت مدة حكم أمنوفيس الثالث المذكور ستاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر، فقام بالأمر بعده الملك أمنوفيس الرابع الملقب رع نفروخون آتن.

(في الملك أمنوفيس الرابع)

كان هذا الملك قبل تولية الملك كاهناً للشمس فلما آل إليه الملك بالوراثة عن أبيه أمنوفيس الثالث أمر الناس بعبادتها ونهاهم عن عبادة بقية المعبودات وغير اسمه لما فيه من ذكر أمون لبغضه له وسمى نفسه (خون آتن) يعني نور قرص الشمس وأمر فمحوا جميع أسماء أجداده وأقاربه التي وجد فيها اسم أمون وحافظ كثيراً على كل

ما كان فيه اسم الشمس محبة فيها واحتراماً لها. قال صاحب العقد الثمين وقد أمر بتخطيط مدينة جديدة بمحل تل العمارنة قرب منية الصعيد لتكون تختاً جديداً للدولة المصرية بدل مدينة طيبة التي هي مقر المعبود آمون ونقل في مدينته المستحدثة تمثال قرص الشمس وسماه (آتن) موافقة لاسم معبود اليهود أدونوس أو أدوناي وبكشف أرض تلك المدينة ظهر أنها كانت كثيرة الأماكن والشوارع المنتظمة منها آثار معبد الشمس المشتمل على دهليزين وعلى ستة عمد مدرجة الوضع كانت منصوبة في وسط هذ المعبد وشوهد أيضاً على جدرانه رسم الشمس مشرقة فوق الملك ورجاله وهم وقوف يقدمون القرابين إليها ولها أشعة ذات أيد كأنها تنثر الحياة على المخلوقات. وحول ذلك أدعية وقصائد يتلوها المرتلون مصحوبة بنغمات الأوتار ومعهم غانية تدعى (سنرو) تقول مدحة لقرص الشمس مطلعها:

لك الثنا ياصاحب الأعوام ياموجد الشهور والأيام
يامعدد الساعات في سائر الأوقات

وقد كان شديد المحافظة على حدود مملكته كثير العناية بأمرها فكان الايتيوبيون وأهل الشام والولايات الشرقية وجزائر البحر الأبيض يدفعون له الجزية صاغرين وكان ملكاً مهيباً موفقاً في الحروب والغزوات ومات عن سبع بنات ولم يعقب ذكرا يتولى الملك بعده. قال صاحب العقد الثمين ولذا انتقل الملك بعد وفاته إلى خمسة رجال من المصريين حكموا على التناوب بينهم بدون حق في الوراثة وسنذكر من علم منهم على ترتيبهم في جدول ملوك هذه العائلة قال:

(في الملك آيي)

هذا الملك هو أوّل الملوك الخمسة، وكان قبل استيلائه على سرير الملك يدعى (نتراتف آيي حق نتراوس) ومعناه الكاهن آيي الحاكم المقدس في طيبة وكان متوليا عند الملك أمنوفيس الرابع وظيفة سائس ركاب الميسرة ثم ترقى إلى ناظر خيول الملك ثم إلى كاتب سره وكان أخاه من الرضاعة. وزوج ابنته الكبيرة(آتي) فلما آل إليه الملك على ديار مصر غير اسمه آيي وسمى نفسه (رع خبر خبر وأرما) وقد علم من الآثار أنه أبقى ديانة الشمس واحترم أيضاً أمون والمعبودات المصرية التي أبطلها أمنوفيس الرابع، وكانت مدّة حكمه تزيد عن أربع سنين، وفي أثناء ذلك عين باور والياً على الأقطار السودانية وصنع لنفسه مقبرة في بيبان الملوك بطية نقش اسمه عليها فمحاه من حكم بعده من الملوك لكونه خارجاً عن بيت الملك ولم يبق اسمه

إلا على بعض مواضع من تابوته ولقصر مدّته ترك مقبرته المذكورة ناقصة البناء . اهـ. وبموته قام بالأمر بعده الملك توت عنخ أمون.

(في الملك توت عنخ أمون)

تولى توت الملك بعد الملك آبي وهو ثاني الملوك الخمسة وكان قبل توليته المنصب الملوكي حاكماً على مدينة أرمنت، وقد بقيت جميع المدن والبلدان خاضعة لحكمه وكان ملكاً مهيباً جليل القدر نافذ الكلمة أتى إليه رؤساء قبائل الآشوريين والروتنو والجزائر وبلاد السودان بالجزية والهدايا النفيسة من الذهب والفضة والأواني من المعدن المتقنة الصناعة ومن الخيول والسباع وجلود النمور وغير ذلك مما كان يصنع ويوجد بالجزيرة التي بين دجلة والفرات وكانت أيامه غاية في الراحة والعز والطمأنينة فلما مات تولى الملك بعده الملك (رسعا كاخبرو) ثم ملكان آخران مجهولاً الاسم كما رواه صاحب العقد الثمين ولكن لم يعلم لهؤلاء الثلاثة شيء من الأخبار أو المآثر، ولم يصل جماعة المؤرخين إلى الوقوف على شيء من أعمالهم، وبموتهم عاد الملك ثانية إلى من بقى من العائلة الثامنة عشرة المتأصلة، وهو الملك(حوربي) وقيل هو الملك هوريس بن أمنوفيس الثالث وبنته المسماة طماهو موت.

(في الملك حوربي أو حور محب)
(ويسمى أيضاً)
(رع سر خبرواستبن رع)

لم يستقر الملك حوربي المذكور بالمنصب حتى قامت الفتنة في جوف البلاد واشتدّت وأخذت في الانتشار بسبب ما حصل من تغيير ديانة البلاد على عهد الملك أمنوفيس الرابع وقام الأهالي على قدم وساق ومحيت آثار الملوك الذين ساعدوا على تغييرها من جميع الهياكل والمعابد فنهض الملك (حور محب) إلى إطفاء نار الفتنة ورسم بإرجاع عبادة المعبودات المصرية القديمة فقام عند ذلك الأهالي على هيكل الشمس ودكوه دكاً ومحوا آثار المدينة العظيمة التي أسسها هؤلاء الملوك على مقربة من تل العمارنة وكانت تخت مملكتهم بدلاً عن مدينة طيبة كرسي الملوك المصريين وما زال الملك حور محب حتى مهد الأمور وأسكن الفتنة وتم له الأمر فنهض إلى إنشاء العمائر وبناء الآثار العظيمة فبنى الواجهة الرابعة من معبد الكرنك وأصلح

الغار الكبير الذي بجبل السلسلة وكان قبل ذلك مقطعاً تستخرج منه الحجارة ونقش على جانبه الغربي نقوشاً تدل على نصرته على أهل الايتيوبيا وكان ملكاً حسن السياسة فعادت المملكة في أيامه إلى ما كانت عليه أولاً وبلغت من العز والمجد مبلغاً عظيماً وحافظت على ما لها من الحدود البعيدة على عهد الملك توتوميس الثالث وحور محب هذا هو آخر من أبلغ الديار المصرية من ملوك الدولة الثامنة عشرة أقصى درجات العمار وأكبر مراتب الفخار ومات عن بنته طماهوموت وابنه رمسيس الأوّل ولما كانت طماهوموت أرشد من أخيها وكان أخوها قاصرا تولت الملك بدلاً عنه وقامت بتدبير أمور المملكة خير قيام فكانت مدّة حكم الملك حور محب وابنته معاً ثماناً وثلاثين سنة وخمسة أشهر وهو آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة على قول جماعة من الكتاب وقد أقامت هذه الدولة على كرسي المملكة إحدى وأربعين ومائتي سنة ثم قامت بعدها الدولة التاسعة عشرة، وعلى رأسها الملك رمسيس الأول الذي هو ابن حور محب المذكور.

الفصل الثاني

(في العائلة التاسعة عشرة)

كان ابتداء ملك هذه العائلة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف قبل الميلاد أي سنة أربع وثمانين وألفين قبل الهجرة وعدة ملوكها ثمانية ومدّة ملكهم مائة وأربع وسبعون سنة وأول ملوكها الملك رمسيس الأوّل وهو ابن حور محب وأخو الملكة طماهوموت آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وهو الآتي ذكر مآثره بعد.

(في الملك رمسيس الأول)

تولى رمسيس الأول الملك والبلاد في ضعف وشوكتها في ذبول وكلمتها في انحطاط بسبب الفتن المترتبة على تغيير الديانة القديمة من آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وقد طمع فيها الغريب، وخرج أهل آسية عن طاعتها وانضموا إلى الحيثيين وصاروا يشنون عليها الغارة، ولما كان رمسيس هذا ابن الملك (حور محب) وأخا الملكة (طماهوموت) تولّى الملك خلفاً لأخته وأبيه خلافاً لما قاله بعض الكتاب من أنه لم يعلم إن كان من عصبة الملوك المصريين، أو ظهر من أهل آسية. قال: وغاية من علم أن زوج ابنته (سيتي) هو من ملوك العائلة الثامنة عشرة ثم تبوأ كرسي الملك كبيراً فأحسن السياسة في رعيته وأوردها موارد الراحة، وكان مهيباً جليل القدر قاتل

في السنة الثانية من حكمه أهالي شمال الشام من طريق الفرات وجبل كورين والبحر الأبيض وهي البلاد التي يسكنها الخيتاس ويعرفون في التوراة بالحيثيين وهاجم الجم الغفير من حلفاء هذه الطائفة من سكان آسية وقاتلهم قيل وهو أول من أقدم على مقاتلة الحيثيين والتغلغل في بلادهم حتى وصل نهر العاصي ثم عاهدهم وكانت مدّة حكمه تسع سنين وخلفه ابنه منفطه الأوّل المسمى عند اليونان (سيتي) أو سيطوس الأوّل.

(في الملك سيطوس الأوّل)
(الملقب)
رعما من

لما ارتقى سيطوس الأوّل كرسي المملكة خف إلى الأعمال النافعة وتعزيز جانب المملكة واتبع آثار جدّه الملك (توتوميس الثالث) في إعلاء شأن البلاد والوصول بالمملكة إلى أوج العز والفخار وله من الآثار الغريبة والعمائر العظيمة بالإقليمين القبلي والبحري وعلى سواحل البحر الأحمر وبلاد النوبة ما يدل على علو همته وجليل قدره وقد أكمل بناء هيكل القمر الذي كان قد أنشأه الملك (توتوميس الرابع) بناحية بني حسن القديمة وبنى بجانبه معابد أخرى ومقابر مرسوماً عليها اسمه وأنشأ بالصعيد الأعلى عند جبل السلسلة على الشاطىء الغربي من النيل معبداً منحوتاً في الجبل لم تزل منه بقايا جيدة الصناعة كاملة الزينة تدل على تقدّم فن العمارة والنقش في أيامه، وله القاعة ذات الأعمدة الموجودة بجهة الكرنك التي هي من أبدع العمائر المصرية القديمة وتسمى بالقصر المنفطي نسبة إليه قيل ولم يتمم (سيطوس) المذكور بناء هذا القصر وإنما الذي تممه ابنه (رمسيس الثاني) وأنشأ هيكلاً آخر للشمس في الوادي المعروف بوادي الموية على بعد يومين من النيل في البرية التي في طريق القصير، ومن أعماله أيضاً إصلاح الغار الموجود في بني حسان للمعبودة (بشت) وهو المعروف الآن بغار (تمسيسدوس) وكان من قبل مقطعاً تستخرج منه الحجارة للعمارات وينسب إليه أيضاً مقطع أحجار الرصيف المصنوع الآن في جزيرة أسوان وهو من آثار الأحجار التي نقلها للعمارات التي بناها في هذه الجزيرة ومن آثاره المسلة العظيمة التي نقلت من مصر إلى مدينة رومة، والهيكل الكبير الذي استكشف حديثاً بالعرابة المدفونة، وما يحتوي عليه من التصاوير العجيبة والنقوش الغريبة، وهو أول من حفر الخليج الموصل ماء النيل إلى بحر القلزم الذي هو البحر الأحمر

وأول من فتح طريقاً لـلقوافل من إسنا إلى معدن الذهب بجـبل (اتوكي) وحفر في الجبل هناك عيناً ينبع منها الماء وله جملة غـزوات وحروب مع السودان والشام وكثير من بلاد آسية وانتصر على قبيلتي (الخيتاس) (والروتونو) وهما أعتى القبائل وأشدّها بأساً وغزا مـدينتي نينوي وبابل وسار بجنوده إلى أقصى بلاد أرمينيـة، وانتصر على أهلها، وكـانت جميع بلاد آسـية إلى عهد الملك سـيطوس الأول ثاني ملوك الدولة التاسعـة عشرة قد خرجت عـن طاعة المملكة المصرية وصارت تشن عليـها الغارات وتتقـوى وتتحرز حتى صـارت من أكبر أعدائهـا وكان بينها وبين مصـر من الوقائع والحروب مـا سيذكـر في محله ثم مـات الملك سيطوس الأول المذكـور فكانت مدة ملكه اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وفي رواية مانيـتون إحدى وخمسين سنة ودفن في مدفنه الذي ابتناه لنفسه في بيبـان الملوك عند مدينة طيبة تحت الأرض يعجب منه كل من يراه لما فيـه من الهيئات الفلكيـة كالشمس تسبح بسـفينتها في السـماء وكأن السماء لجة ماء وتجتاز ما يعارضها من عقبات الثعبان أبب وكالنجوم الثوابت والسيارة وغير ذلك، وتولى بعده بكر ولديه وولي عهده رمسيس الثاني.

(في الملك رمسيس الثاني)
(المعروف)
(بسيزوستريس)
(الملقب)
رع أوسر ما استبن رع

اشتهـر هذا الملك برمسيس الأكبر، حـيث كان أعظم ملوك مصر قـوّة وأكبرهم سلطة واقـتدارا وكان ظافـرا كثـير الحـروب والغزوات مـلأ مشارق الأرض بـصيت فتوحاته وأرهب مـغاربها بهيبته وبأسه وسطواته ولم يكن أحـد قبله من ملوك مصر عبر البـحر الأحمر فجهـز هو عمارة عظيمة قيل أنـها كانت أربعمائة سفـينة حربية وتغلب على سـواحل البحـر المذكور وعلى جزائـر بحر الهند فـامتد ملكه مـن نهر الكنك بآسية إلى نهر الدانوب الذي هو نهر الطونة، وكـان كلما فتح قطرا واستولى على مملكة من الممالك شيد فيها هيكلاً وآثارا تدل علـى نصراته وفتوحاته وأنزل فيها طائفة من جنده المصـري ليستـوطنوها وينشروا ديانتـهم وعوائدهم فيـها ليكون ذلك دلالة ظاهرة على تخـليد ذكـره وزاد في ثروة أهل وطنـه وأوردهم موارد السـعـادة والرفاهية ونعم بالهم وسن لهم القـوانين والأحكام ونظم أمورهم على أكمل ترتيب

وأحسن نظام وضرب الجزية على عشرين أمة استرعاها. ويقال: إن كاهن الشمس بشر أباه بأن ولده هذا يملك سائر بلاد العالم ولذلك لما آلت إليه المملكة المصرية اعتنى بهياكل مدينة منف المكرسة للشمس فشيدها ووسعها توسيعاً خارجاً عن حد العادة. وقد طال عمره وامتدت مدّة ملكه وتنوقلت مآثره وتواترت مفاخره. وتكلم عنه كثيراً أصحاب التاريخ. وقالوا: إنه لم يسبق هذا الملك أحد من ملوك العائلتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أعظم من توتوميس الثالث الذي كان بينه وبين رمسيس الثاني هذا ستة ملوك وكان رمسيس من زمن شبوبيته فاضلاً بارعاً متضلعاً من العلم والحكمة حتى قيل أنه تلقى جميع العلوم وسائر الفنون عن (هرمس المثلث) الذي هو إيليا النبيّ أي إدريس عليه السلام زعم البعض أنه تلقاها عنه مشافهة. (قلت): وهذا غير صحيح لتأخر زمن رمسيس ورفع إيليا إلى السماء قبل زمن رمسيس كما جاءت به الكتب ولعله تعلمها بالتلقي عن أحد الهرامسة المصريين وقد دلت كتب اليونان على أن هرمس الهرامسة المثلث هو إيليا النبيّ وهو مصري المولد، وأنه أول من وضع العلوم والفنون والسياسات والتدابير والحروب والصنائع، وله رموز عجيبة وأسرار غريبة ومعارف غزيرة واسعة قد أودعها بطون الأسفار والكتب، وهو أول من عرف الله سبحانه وتعالى وعبده. قالوا: ولماجاء الطوفان وأغرق الأرض وأهلك سائر النوع البشري ثم عمرت الأرض بأولاد نوح عليه السلام كان الناس كافة على الفطرة الأولى لا يعرفون شيئاً من ضروريات المعيشة فبعث الله لهم هرمس هذا في صورة إنسان، وقد كان رفع إلى السماء قبل الطوفان فعلمهم ما يحتاجون إليه وثقفهم فتبدلت أخلاقهم الوحشية بإنسانية وطباعهم الحيوانية بآدمية إذ كانوا هائمين على وجوههم كالوحوش لا يفهم بعضهم بعضاً إلا بصياح ساذج متقطع مختلطاً ووضع لهم أسماء المسميات وعلمهم طرق التعارف فيما بينهم. قالوا: وله اثنان وأربعون كتاباً سلمها إلى طائفة الكهنة وأمنهم عليها وأودعهم أسراراً غامضة وأمرهم بمعرفة ما في تلك الكتب كل على قدر حاجته ومرتبته في الهيئة الاجتماعية. وقال چامبليك: إن كتب هرمس الهرامسة بلغت بمصر عشرين ألف كتاب. وقال مانيطون: بل أكثر من ذلك كثيراً. اهـ. ولغزارة علمه كانت جميع عباراته سهلة المآخذ مقبولة مألوفة للنفوس وكانت عادة المصريين أنهم إذا اخترعوا شيئاً من المعارف النفيسة والحكم نسبوه إلى هرمس المثلث ليسهل تلقيه من عامة الناس ويكون حسنا لديهم مقبولاً وكان (رمسيس الثاني) المذكور بطلاً شجاعاً ميالاً للغزو والقتال فأرسله أبوه لغزو بلاد العرب فنزل عليهم وقاتلهم وأرجعهم إلى الطاعة ولم تكن العرب

قبله انقادت لملك من الملوك الأولين وكان معه في هذه الغزوة كثير من أبناء المصريين الذين كانوا تربوا معه ثم سيره إلى جهات المغرب فاستولى على برقة وغيرها من بلاد إفريقية وصيرها من ملحقات المملكة المصرية ثم مات أبوه عقب ذلك فتولى الملك بعده فلم يستقر به المنصب حتى جيش الجيوش وأكثر من معدات القتال وسار لقتال الأقطار السودانية وما زال بها حتى أخضعها وضرب على أهلها الجزية مقدارا يدفعونه في كل سنة من الآبنوس وسن الفيل والذهب، ولما كان في مبدأ السنة الخامسة من حكمه قامت عليه سكان آسية الشمالية وهم قبائل الخيتاس وكاتي وكركميش وكدش وأراد، وكانوا أقواماً أصحاب قوة وبأس فتألبوا على محاربته وانضم إليهم أقوام أخر لم يكن لهم سابق قتال مع المصريين فعمت بذلك الفتنة وامتدت في أرجاء آسية الشمالية كلها وانحدروا جميعاً على عجل إلى أن وصلوا إلى وادي الارنؤد على مقربة من حدود مصر، فلما بلغ رمسيس خبر وصولهم ركب في جيش عظيم وسار لقتالهم فعبر أرض كنعان التي كانت يومئذ خاضعة لديار مصر وانعطف إلى الجهات الشمالية ونزل بشبتون القريبة من كدش، وبث العيون والجواسيس لتأتي له بأخبار العدو وما هو عليه من المنعة أو الضعف وكذلك فعل العدو فلما كان في بعض الأيام خرج رمسيس في طائفة من حراسه وسار صوب مدينة كدش فلقيه رجلان من الأعداء وأخبراه بأن رؤساء القبائل الذين كانوا اجتمعوا لنجدة رئيس الحيثيين انفصلوا عنه وسيروا بهما لخدمته والعمل بمقتضى إشارته وأنهما تركا رئيس الحيثيين في حلب شرقي مدينة تونب يتقهقر بعسكره فراراً من رهبتك وخوفاً من جبروتك فاغتر رمسيس بهذا الكلام وتمكنت منه الخيلاء فزحف على الأعداء بمن كان معه من طوائف الحرس في ذلك اليوم؛ وقد كان بينه وبين معسكره بعد بعيد. وكان قد رتب من معه من الجند وقسمهم إلى أربع فرق. الأولى منها فرقة أمون رع، والثانية فرقة رع، والثالثة فرقة بتاح، والرابعة فرقة سوتنح وعين لكل موقفاً أمام العدو، فلما سار بمن معه من الحرس نحو كدش يريد مفاجأة العدو وأخذه أخذ عزيز مقتدر، برز إليه رجلان بعث بهما رئيس الحيثيين ليقبضا عليه ويأخذاه أسيرا وكانت جيوش العدو مجتمعة في الشمال الشرقي من كدش وهي على أهبة الهجوم على كل من يمر بهم من عساكر رمسيس فآنس رمسيس من الرجلين أنهما إنما أتيا ليقبضا عليه ويأخذاه أسيرا فأمر جنوده بالقبض عليهما وأوسعوهما ضرباً حتى اعترفا بسر بعثتهما وخفيّ مأموريتهما وأنهما إنما حضرا لكشف أخبار الجيوش المصرية والقبض على رمسيس، فعقد رمسيس لذلك مجلساً

من كبار جنده وعنفهم وبالغ في تعنيفهم. وقال: كيف تأتون بنا من طريق لا خبرة لنا بها ولا معرفة لنا بما فيها وكيف بسوء تدبيركم نضل عن طريق السلامة ونقع مع ما نحن فيه من القلة في أيدي الأعداء الذين هم لنا بالمرصاد فجعلوا يعتذرون ويهوّنون عليه الأمر ويقولون إنما ذلك كله من فساد قلوب حكام هذه البلاد التي نزل بها العدو فلم يخبروا بخبره ولم يكشفوا لنا عن عوراته. والرأي أن نرسل الساعة من يأتي لنا بالجيوش فنركب على الأعداء ونقاتلهم حتى نظفر بهم، فبينما هم يتدبرون إذ ظهر العدو في عُدَدِهِ وَعَدَدِهِ يريد قتال رمسيس ومن معه؛ وكان رمسيس في هذا الحين نازلاً بمن معه من جند الحَرس على شمال كدش قريباً من نهر العاصي فهجم عساكر الحيثيين عليه هجمة رجل واحد وصدموا جنود القلب وأوقعوا فيهم القتل ففشل المصريون وانقسموا وولوا الأدبار وبقي رمسيس بين الأعداء منفرداً فتأهب للقتال. قال صاحب العقد الثمين: وقد جاء في النقوش الأثرية أن الشاعر المصري (بنتاأور) كان حاضراً مع رمسيس في هذه الموقعة. فقال في ذلك ما نصه:

إن حضرة الملك نهض وهو في غاية الصحة واعتدال المزاج ونهاية القوة والابتهاج كأنه المعبود مونت آخذا عدة الحرب في الحال، ومتهيأ للضرب والقتال فأرسل عربته في صفوف الجموع، وهجم على بني خيتاس منفرداً بنفسه لم يتقدم معه أحد من أبناء جنسه، واقتحم المعركة وحده أيّ اقتحام بمشهد من جميع الأتباع والخدام؛ وقد أحاط به ألفان وخمسمائة عربة حربية من شجعان الخيتاس والعصبية والقبائل المتكاثرة والعشائر المتظاهرة وهم (آرادوس) (ومازو)، (وبتاسا)، (وكشكاش)، (واليون)، (وجازوناتان)، (وشيروب)، (واكتور)، وغيرهم وكان على كل عربة من عرباتهم ثلاثة من المحاربين؛ ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته ولا من أمراء دولته ولا من قواد جنوده ولا من العساكر الرماة ولا من عساكر العربات فتوجه إلى معبوده واستغاث بمولاه قائلا:

تركني وحدي جند الرماة والفرسان ولم يبق معي من يشد أزري. أو يعضد ظهري. فماذا يريد مولاي أمون؟ فهل أنا عاص أستحق العقاب مع إني لمولاي سميع مطيع أعمل بما أعلم من الأمر بقدر ما أستطيع. وأقوم بحقوق المشاعر وإظهار الشعائر. وأملأ بيوت العبادة من غنائم الأعداء وأتقرب للمعبود بالقرابين التي لا تحصى عدا. وقد أكثرت من المعابد والهياكل وذبحت ألف ثور قرباناً مزينة بالزهور الطيبة الرائحة وشيدت الهياكل الجسيمة. واقتطعت لها الأحجار العظيمة. وغرست في المعابد الأشجار المخلدة. ونذرتها لتكون مآثر مؤبدة. وأحضرت من جزيرة

أسوان للمولى المعبود أحجار المسلات الشامخة. وأجريت السفن في البحار الزاخرة لجلب غنائم الملل إلى الهياكل الباذخة. فها أنا يامولاي أدعوك وأنا بين أقوام كثيرين لا أعرفهم. وأنا في حضرتك وحدي. فاقدا لجندي. تركني عساكر الرماة وفرّ عني الفرسان الكماة. وقد دعوتهم فما أجابوبي. واستغثت بهم فما أغاثوني. وأنت أولى بي من الجنود الرماة والفرسان. وأحق بنصرتي من الأبطال والفتيان. فانصرني على العدد الكثير والجم الغفير. قال: ثم أجاب الشاعر في قصيدته بكلام عن مولاه أنه لبى دعاءه؛ وقبل رجاءه. (قلت): وقد ضربنا صفحا عن إيراده هنا خوف ملل القارئ.

وبعد قتال وحروب هائلة بين رمسيس والحيثيين والكنعانيين مدة خمس عشرة سنة كادت تفنى فيها جيوش الفريقين تقدم ختاسار رئيس الحيثيين في طلب الصلح والكف عن القتال حقنا للدماء واستبقاء لما بقي من تلك النفوس فجنح رمسيس إلى ذلك. قال صاحب العقد الثمين: وأبرم أمره سنة إحدى وعشرين من حكم رمسيس، وحرروا معاهدة كتبت صورتها أولاً بلغة الحيثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت إلى ملك مصر في مدينة رمسيس وكانت مبنية على الشروط والأحكام المدوّنة في المعاهدة التي وقعت بين أمير الخيتاس ورمسيس الأوّل وسيتي الأوّل وهذا نص تعريبها.

المقدمة

في اليوم الحادي والعشرين من شهر طوبة سنة إحدى وعشرين من حكم رمسيس ميامون محبوب (أمون رع)، (وحورمخي)، (وبتاح) سيد قسم (أنختو) بمنف (وموت) سيدة قسمي (أثر)، (وخونفرت حتب) بطيبة وهو القائم على كرسي ملك العباد كأبيه (حورمخي) تخلد ذكره بينما كان هذا اليوم في مدينة بارمسيس ميامون يؤدّي فيها الشعائر للمعبود أمون رع ولحورمخي ولتوم سيد مدينة المطرية ولأمون الساكن بمدينة بارمسيس ولبتاح بالمدينة المذكورة وللشجاع (ست بن تحوت) لأنهم منوا عليه بدوام عيده الرسمي وبدوام أعوام السلم له، وبخضوع الأهالي والأمم تحت نعليه على الدوام، إذا برسل من طرف أمير الحيثيين ختاسار أقبلت إليه وتقدمت بين يديه ليطلبوا الصلح منه. وكانت صورته منسوخة على لوح من فضة

مرسل من طرف أمير الحيثيين إلى ملك مصر مع رسولين هما: (تارتيسبو)، (ورمسيس) يطلب الصلح من رمسيس ميامون ثور الملوك الذي وضع حدوده في كافة الأرض حيثما أراد وهذه المعاهدة كتبها ختاسار أمير الحيثيين المفخم ابن موراسار أمير الحيثيين المفخم، وحفيد سابلل أمير الحيثيين المفخم على لوح من فضة وذلك بينه وبين رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر المفخم ابن سيتي الأول ملك مصر الأكبر المفخم، وحفيد رمسيس الأول ملك مصر الأكبر المفخم، وهي معاهدة وطيدة على الصلح والمحالفة والوفاق مؤكدة للسلم ، والاتفاق دائمة على الدوام.

كان فيما مضى من عهد بعيد حصل بين ملك مصر، وأمير الحيثيين عليهما رضوان الرب اتفاق إلا أن أخي موتور أمير الحيثيين نقضه وتحارب في زمنه مع سيتي الأول ملك مصر الأكبر لكن من الآن فصاعدا أعني من هذا اليوم تعهد ختاسار أمير الحيثيين بمراعاة هذه الشروط سائلاً (أمون رع)، (وست) أن يمنا بدوام اتباعها في ديار مصر وفي بلاد الحيثيين وأن يزيلا الشقاق أبداً من بين المتشارطين. قال:

(المعاهدة)

اتفقت أنا ختاسار أمير الحيثيين، ورمسيس ميامون ملك مصر الأكبر من هذا اليوم على مراعاة الصلح والمعاهدة بيننا أبد الآبدين وعلى أن يكون حليفي ومنطوياً على السلم معي، وعلى أن أكون حليفه ومنطوياً على السلم معه دهر الداهرين، كما كان ذلك في عصر أخي موتور أمير الحيثيين الأكبر الذي خلفته في الحكم بعد موته وجلست على تخت والدي وها أنا ختاسار أظهرالمودة الصادقة لرمسيس ميامون ملك مصر الأكبر وبناء على معاهدتنا ومسالمتنا هذه تكون ديار مصر وبلاد الحيثيين في سلم ومحالفة تامة دائمة دون أن يقع بينهما أدنى شقاق مدى الدهر بشرط أن أمير الحيثيين لا يشن أدنى غارة على مصر لسلب شيء منها كما أن رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر لا يشن غارة على بلاد الحيثيين لسلب شيء منها وأن أتبع اتفاق العدل الذي حصل في مدّة سابلل رئيس الحيثيين الأكبر واتفاق العدل الذي حصل في مدة أبي مورا سار رئيس الحيثيين الأكبر وأن يتبع ذلك أيضاً رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر ونعترف بيننا سوية بأن نتبع هذا الاتفاق، ونجري أعمال العدل من هذا اليوم بشرط أنه إن أغارت أعداء على بلاد رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر لزمه أن يرسل إلى أمير الحيثيين ليخبره بالحضور فينضم إلى قوّته عليهم، ويجب على أمير

الحيثيين حينئذ أن يجيب سؤال ملك مصر الأكبر، ويقاتل أعداءه وإن لم يرد أمير الحيثيين الحضور بنفسه لزمه أن يرسل جنوده المشاة وعرباته ليقاتلوا أعداء ملك مصر، وإن غضب رمسيس ميامون على جماعة من أتباعه يكونون قد سرقوا شيئاً منه وأراد أن يقتلهم، فعلى أمير الحيثيين مساعدته على ذلك وإن أغار عدوّ على بلاد خيتا لزم أمير الحيثيين أن يرسل إلى ملك مصر ويخبره بأن يحضر بقوته ليقاتل أعداءه، فإن أراد رمسيس ميامون ملك مصر الحضور بنفسه، قاتل أعداء أمير خيتا، وإن امتنع عن الحضور بنفسه لزمه أن يرسل مشاته وعرباته ليقاتل أعداء أمير خيتا وأن يعين الوقت ويخاطبهم بذلك، وإن كانت جماعة من خدم أمير الحيثيين تسيئه في خدمته فعلى رمسيس ميامون أن يساعده في تأديبهم، وإذا هاجر بعض السكان من بلاد رمسيس ميامون إلى أمير خيتا. فعلى هذا الأمير أن لا يقبلهم بل يرسلهم إلى رمسيس ملك مصر الأكبر، وإذا ذهب بعض العملة الماهرين إلى أمير خيتا لعمل ما فلا يتوطنون أرض خيتا بل يرسلون إلى رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر، وإذا كان بعض الهاربين يحضرون من بلاد خيتا ليتوجهوا إلى رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر فلا يقبلهم عنده بل يرسلهم إلى أمير خيتا، وإذا ذهب بعض العمال الماهرين من أرض خيتا إلى ديار مصر لعمل ما فعلى رمسيس ميامون ملك مصر أن لا يوطنهم مصر بل يأمر بإرسالهم إلى أمير خيتا. هذا الكلام الذي على لوح الفضة مقول على لسان ألف معبود من معبودات ومعبودي الجهاد منهم معبودات بلاد خيتا وعلى لسان ألف معبود من معبودات ومعبودي الجهاد منهم معبودات مصر، وهو أيضاً يعتبر حقاً وذمة علينا ويشهد بذلك ست معبود تونب، وست معبود خيتا، وست معبود مدينة أرنا، وست معبود مدينة توسور، ونتاوست معبود مدينة بركاوست معبود مدينة خساب، وست معبود مدينة سارسو، وست معبود مدينة حلب، وست معبود... وست معبود مدينة سربينا، وأسترتا معبود بلاد خيتا وجزيرة تاضرار وكدش، ومعبود مدينة أخن، ومعبود مدينة تساي، وجبال وأنهار بلاد خيتا، ومعبودات بلاد كادز وأتانا وأمون ورع وست والأرباب الحربية والمعبودات وجبال وأنهار ديار مصر وكافة من بدائرة البحر الأكبر والهواء والسحب وهذا الكلام الذي على لوح الفضة منسوب لبلاد خيتا وبلاد مصر، فكل من لم يتبع مضمونه تصرف ألف معبود من بلاد خيتا، وألف معبود من بلاد مصر في مسكنه وأملاكه وخدمه ومن يتبع الكلام الذي على هذا اللوح سواء كان من بلاد خيتا أو من بلاد مصر

أحبـه ألف معبود من بلاد خـيتا وألف معـبود من بلاد مصـر وأحيت بيته وأمـلاكه وأتباعه أيضاً. وإذا هرب رجل أو اثنان أو ثلاثة من مصر وذهبوا إلى أمير خيتا فعلى أمير خيـتا أن لا يقبلهم بل يأمر بإرسالهم إلى رمـسيس ميامون ملك مـصر الأكبر، وكل من أرسل إلى رمـسـيس ميامـون لا يعاقب بذنبه ولا يـبـيد بيتـه ولا امرأته ولا أولاده ولا تقتل أمـه ولا يضرب على عينه ولا عـلى فمه ولا على رجليـه ولا تقام عليـه أية تهمـة جناية وإذا هرب من بلاد خـيتـا رجل أو اثنان أو ثلاثة وذهبـوا إلى رمسيس ميامـون ملك مصر الأكبر فعليه أن يأمر بإرسالهم إلى أمـير خيتا، وكل من أرسل إليه لا يعـاقب بذنبه ولا يـبيد بيـته ولا امرأته ولا أولاده ولا تقـتل أمه ولا يضرب على عـينه ولا على فمـه ولا على رجليه ولا تقام عليـه تهمة جـناية انتهى بنصه.

فلما تمت هذه المعاهدة بين الفريقين، بقي كل منهما مـحافظًا عليها ستاً وأربعين سنة، وفي هذه المدة حصلت الراحة التامة للرعيـة، ووقع فيها المصاهرة بين رمسيس وأميـر الحيثـيين، وذلك أن رمسيس تزوّج بابنة هذا الأمـير وبعد المصـاهرة بمدة دعا رمسيس صهـره إلى الحضور في ديار مصر كمـا دلت على ذلك الكتابة الموجودة في ورقة انسطاسي وحاصلها:

أن رئيس الحيثيين الأكبر أرسل إلى أمير (كاتي) أحد أمراء دولته قائلاً له: هيىء نفسك كي تذهب إلى مصر حيث دعانا ملكها رمـسيس لذلك ولا يسعنا مخالفته إذ لا فرق بينه وبيننا وقد أحبته الناس لكونه يمنح الحياة لمن يشاء. اهـ.

وكان حضور أمـير الحيثيين لزيارة رمسيس في مـدينته بعد مضي ثلاث وثلاثين سنة من حكمه ولتـذكار سياحتـه نقش حاصل رحلته في حجـر ورسم عليه صورة نفسـه وصورة ابنته التي تزوّجـها رمسـيس وصورة رمسـيس فتعـجب المصريون من ذلك. وقالوا: إنما أهل مصـر صاروا قلباً واحداً مع أمير الحيـثيين؛ وهذا من الأمور التي لم يسبق لها مثيل من عهد المعبود (رع) انتهى.

قال أهل التاريخ: ولم يكن له من غاية في هذه الفتـوحات العظيمة سوى حب الظفر والغنيـمة وتذليل الأعداء وانقيـاد الأمم لسطوته وخضوعهم لعـزته وجبروته، ولكن قد خانته الأيام فإنه ما رجع إلى تخت مملـكته حتى هبت جميع تلك الممالك إلى الخروج عليه، ونهضت إلى شق عصا الطاعة، فلم يبق له منها إلا بعض المدائن

والبلاد القريبة، وهذه أيضاً لم تبق على الطاعة لملوك مصر بعد موت رمسيس الثاني المذكور إلا زهاء أربعة قرون، ثم عصت وخرجت كغيرها ولما كف عن الغزوات والحروب وجه عنايته إلى تزيين الهياكل وإتحافها بنفائس الغنائم ثم صرف همته إلى تشييد المباني العجيبة. وكان في بنائه الهياكل يراعى معتقد الأهالي في كل بلدة ومدينة. وكان الذين أسرهم في غزواته يقطعون الأحجار ويشيدون تلك الآثار. وكان جل اهتمامه منصرفاً إلى تحسين المدينتين العظيمتين وهما منف دار الملك، وطيبة دار الدين والعلوم، وقد أنشأ الجسور والقناطر والترع والخلجان، وسخر الأسرى في ردم الأراضي المنخفضة التي كان يفسدها النيل، وفي رواية أنه حوّل النيل إلى مجراه الحالي ليصلح بذلك ما تلف من الأراضي المنخفضة. قال بعض الكتاب: ويقال أنه لما رجع رمسيس الثاني المذكور من آخر غزواته إلى ديار مصر خرج أخوه للقائه، ومعه جماعة من خواصه وأظهر الفرح والسرور؛ وقابله بمدينة تنيس فأحسن الملك فيه ظنه وأخلص له في المودة، فلما استقر بالملك المقام مع عائلته في قصره الملوكي بمدينة تنيس أضرم أخوه النار في القصر يريد إهلاك الملك وعائلته حرقا وأخو الملك هذا هو المسمى عند اليونان (دانوس المصري) فلما أحس الملك بالحريق فرّ هارباً ونجا هو وعائلته من هذه المكيدة، فخاف دانوس وهاجر إلى بلاد اليونان. ويقال إنه أسس فيها القبائل المصرية وقد حكى بعض المؤرخين أن دانوس هذا هو نفس أرمايس أخو رمسيس الثاني وأنه ركب سفينة من مصر مع طائفة من المصريين وهاجر إلى موره وعمر بلاد اليونان ومدنها وخالف ذلك بعض المؤرخين. فقال: إن دانوس هذا ليس من أبناء ملوك الدولة التاسعة عشرة ولا من إخوة رمسيس الثاني، وإنما هو من عائلة الملوك الرعاة المشاغبين للعائلة المصرية المتأصلة، وأنهم لما حاربوا أمراء الملوك الرعاة وأخرجوهم ومزقوا شملهم هاجروا تحت رئاسة دانوس المذكور. وقيل إنه من أبناء بنت ايتاخوس المصري الذي كان قد فرّ من مصر إلى مدينة حور ومعه طائفة من عرب العمالقة فنزل وتزوّج منها وأعقب بنتا ولدت دانوس المذكور؛ ثم هاجر ايتاخوس إلى بلاد اليونان، وتولى ملك إقليم ارغوس في بلاد مورة فلما انتقلت المملكة إلى أولاده وأولاد أولاده وكان دانوس من ذرية بنته ارتحل إلى مملكة ارغوس ليأخذ حقوقه ووراثته في ممالك جده. قالوا: وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن تمدن اليونان انتقل مع من هاجر إليها من ديار مصر في تلك الأزمان وأن اليونان إنما هي بنت مصر لا محالة.

وطالت أيام ملك رمسيس فكانت ثلاثاً وثلاثين سنة، وقال آخرون: بل سبعاً وستين سنة. وقيل ثمانياً وستين سنة وأشهرا واستدلوا على ذلك بأنه لما تغلبت دولة فارس على بلاد مصر، وخرجت الحكومة من يد ملوك مصر الأهلية، وكان في رواق الصور الملوكية بمدينة طيبة بالصعيد صورة رمسيس الثاني المذكور، أراد داريوس ملك فارس أن يضع صورته في هذا الرواق فوق صورة رمسيس الأكبر، فغضب رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور من ذلك، وقال للملك بغلظة: لا يجوز لأحد من الملوك أن يعلو على رمسيس الأكبر إلا من حذا حذوه في أعماله العظيمة فلم يغضب داريوس من كلامه، وقال له: لأجتهدن وأفعلنّ لمصر من المنافع ما فعله هذا الملك العظيم إن عمرت عمر رمسيس حتى لا أكون دونه في الشهرة ورفعة المقام.

ورمسيس هذا هو الذي قسم مملكة مصر إلى ست وثلاثين إيالة، وأقام على كل إيالة نوابًا لجمع العساكر وتجنيد الأجناد وهو الذي رسم صورة الخريطة وصوّر فيها صورة المدن التي افتتحها ليبين لأهل مصر عظم ملكه وكنه جبروته وكان فيه تيه وتعاظم فإنه كان إذا ركب في موكبه لزيارة المعابد أو التنزه يأتي ببعض الملوك والأمراء والعظماء الذين أسرهم ويلبسهم ثيابهم الملوكية، ثم يربطهم كالخيل أربعة أربعة ليجروا عربته، وكان بعد رجوعه من هذا الموكب يجلسهم ويحسن إليهم. وكان قد كف بصره في آخر أيام حياته فجزّع نفسه بعد ذلك بيده كأس الحمام وجسده اليوم محفوظ بدار الآثار المصرية. وبموته تولى بعده ابنه المسمى منفطاً الثاني. (ويقال له أيضاً: منفتاح الأوّل).

(في الملك منفطا الثاني)
(ابن رمسيس الأكبر)

تولى الملك بعد موت أبيه رمسيس الأكبر سنة خمسمائة وألف قبل الميلاد. ويقال له أيضاً فاران أو فرعان وفرعون وإنما سمى منفطا لكون جده كان يسمى بذلك، وكانت عادة ملوك مصر القدماء أن يلقب الملك منهم بلقب جده وله أبنية ومآثر عظيمة تدل على علوّ همته، وفي أيامه خرج بنو إسرائيل من مصر مع موسى وهارون سنة أربع وخمسين وستمائة وألف قبل الميلاد بعد وقوع ما وقع من المعجزات على يد موسى كما جاء في التوراة فهو على هذا فرعون الذي أغرقه الله

سبحانه وتعالى في بحر القلزم. وقال بعض المؤرخين من أهل أوروبا: إن خروج بني إسرائيل وغرق فرعون كانا في زمن رمسيس الثاني، وزعم بعضهم أن هاتين الحادثتين كانتا في زمن ابنه منفطا الأول والذي وعليه معظم المؤرخين أنهما في زمن فرعون بن رمسيس الأكبر المسمى عندهم فرعان أو (أبو خوريس) وهو منفطا الثاني هذا. قال مانيطون المؤرخ: مات منفطا يعني منفطا الثاني هذا عن ابنة اسمها (طوسير) وابن قاصر اسمه منفطا الثالث ويلقب (أوسير خپرورع ميامون) فتزوّجت هذه الابنة بعظيم من المصريين اسمه حفطا منفطا، فكان يقال له أيضاً فرعون تبعا لها وكان يحكم بالنيابة عنها. اهـ. ففسر أهل التاريخ أن زواج طوسير المذكورة بذلك العظيم الذي لم يكن من الدم الملوكي مع أن جدها سيزوستريس كان قد خلف عدة بنين يدل على حدوث حادث عظيم للغاية نجم عنه انقراض سائر أعضاء تلك العائلة الملوكية. قالوا: وذلك الحادث إنما هو غرق فرعون وسائر جنوده في البحر ، ولا بأس من أن نذكر هنا تفصيلاً لقدوم بني إسرائيل إلى مصر وما جرى عليهم إلى يوم خروجهم منها على ما جاء في التوراة، وما قاله المفسرون في ذلك تتميما للفائدة وإن كان فيه بعض الإسهاب والتطويل.

أعلم أن أولاد يعقوب الذين جاءوا إلى يوسف بمصر مع يعقوب أبيهم هم راؤبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساخر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير. وقد تناسل من هؤلاء الأحد عشر وممن خرج من أصلابهم سبعون نفساً غير يوسف عليه السلام فلبثوا مع أبيهم بمصر ما شاء الله. ثم مات يوسف وجميع إخوته وسائر ذلك الجيل. وبقي من خرج من أصلابهم فتوالدوا ونموا وكثروا كثرة بالغة جدا وامتلأت أرض مصر منهم شرقاً وغرباً، فلما رأى فرعون كثرتهم ونماءهم (وهو رمسيس) خاف شر العاقبة. وقال لقومه: انظروا كيف نما بنو إسرائيل وكثروا وصاروا شعباً أعظم منا هلم نحتل لهم لئلا يكثروا فيخشى أنه إذا حدثت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويكونون لهم عوناً علينا، فجعلوا عليهم رؤساء تثقل عليهم وتسومهم الخسف، ثم جعلوا يسخرونهم في البناء ونقل الأحجار وحمل اللبن فابتنوا مدينتي (فيتوم) (ورعمسيس) وفيتوم هذه هي المسماة في الآثار باسم بيتوم (ورعمسيس مدينة حصينة واقعة بين مصر وفلسطين). وكان أولئك الرؤساء لا يألون جهداً في تعذيبهم وإيذائهم فقد وجد منقوشاً على جدران هيكل طيبة الصغير من قول أولئك الرؤساء للعمال من بني إسرائيل وذلك في عصر توتوميس الثالث

(ها هي العصا بيدنا فلا تكونوا متوانين). قال أصحاب التاريخ: وقد اشتدت عليهم وطأة العذاب في أيام رمسيس الثاني إذ لم يكن ثمة ما يشغله عنهم بسبب المعاهدة التي تمت بينه وبين أمير الحيثيين بالكف عن الحرب والقتال، فوجه عنايته إلى بناء المعابد وإنشاء العمارات الجسيمة والأبنية الضخمة بعمال من الإسرائيليين فكان فريق منهم للبناء وفريق للحرث وفريق للأعمال الدنيئة، ومن لم يقدر على عمل شيء فعليه الجزية، وقد وجد مكتوباً على ورقة البردي الموجودة الآن بمتحف لوندرة عاصمة الإنجليز ما ترجمته:

إن جلالة الملك رمسيس شيد لنفسه مدينة تدعى رعمسيس حصينة الموقع بين مصر وفلسطين مملوءة بالخيرات العظيمة ورسمها كرسم (أون) يعني أرمنت وستبقى أكثر من منف وتشرق الشمس في أفقها وتغرب فيها وتهجر الناس مواطنها لتسكنها فهيكل (أمون) غربيها وهيكل (سوتنح) جنوبيها وهيكل (استرته) شرقيها والآلهة (بوتو) في شمالها والمدينة بينهم كأنها أفق السماء وفيها (رمسيس) كأنه معبودها فهو ملك كالشمس بين الأمراء لم تكن لمصر لذة إلا به وهو مثل (توم) من حيث حُسن الإدارة، كيف لا وقد خضعت له الأرض. اهـ.

قالوا: ولما أتم عمال الإسرائيليين بناء المدينة المذكورة فرح بها رمسيس فرحاً عظيماً وأولم فيها وليمة حضرها كاتب من المصريين اسمه (بنيتا) فكتب في ذلك إلى رئيس له اسمه (أمنم أبت) يقول ، قد دخلت مدينة رعمسيس فوجدتها في أحسن حال وهي جميلة ليس لها في الحقيقة مثيل في عمارات طيبة ولا في جبل السلسلة الذي هو محل النعيم حيث ترى حقولها مملوءة في كل آن بالمغروس والمأكول وحيضانها مشحونة بالأسماك وغدرانها ترفرف عليها سائر أشكال الطيور المائية ومروجها مخضرة بالحشائش الأنيقة إلى أن قال: وميناها غاصة بالسفن والشواني المشحونة بالخيرات الكثيرة من المأكولات على اختلاف أنواعها تأتي إليها في كل يوم، وإذا نزل بها مقيم سره وانشرح صدره إذ لا رقيب فيها ولا معارض بل يستوي فيها الصغير والكبير إلى أن قال: وفيها جواري الملك الحسان واقفات على أبوابها والفرح يعم سائر أرجائها بلا مكدر لصفوه، عشت يارمسيس في صحة وعافية، ومع ما كان فيه بنو إسرائيل من الذل والحيف كانوا في نماء وازدياد عظيمين حتى خاف فرعون عاقبة أمرهم وحسب لهم ألف حساب، وكان لنساء الإسرائيليين قابلتان إحداهما اسمها شفرة وثانيتهما اسمها فوه، فأرسل فرعون في طلبهما فلما تمثلتا بين

يديه. قال لهما: انظرا إذا جاء المخاض لإحدى العبرانيات ودعيت إحداكما إليها فإن ولدت ذكراً فلتقتله في الحال بلا مهل، وإن ولدت بنتا فلتبقها فلم تفعل القابلتان ذلك وخالفتا فرعون فيما أمر وأحس فرعون بذلك فأرسل في طلبهما وسألهما فقالا: إنا لم نخالف لمولانا أمراً ولكن العبرانيات أشدّ وأقوى من المصريات ولذلك يلدن قبل أن تصل إحدانا إليهنّ فتركهما فرعون ونادى في قومه أن اطرحوا كل ذكر ولدته عبرانية في النهر، فإن ولدت بنتا فاستبقوها فتطاولت أيدي الناس إلى العبرانيات وبالغوا في إيذائهن وتنكيلهن، واحتاطت بهن العيون والأرصاد فكانت شدّة عظيمة للغاية، واتفق في هذا الحين أن تزوّج رجل من بيت لاوى بابنة من سلالة لاوي فحملت ثم ولدت ذكراً فنظرت إليه فرأته جميلاً حسن الصورة فخبأته ثلاثة أشهر، ثم خافت أن ينفضح أمرها فأخذت له سفطاً من البردي وطلته بالقار والحمرة ووضعت الصبي فيه وألقته في النهر بين الحلفاء النابتة على حافة النيل وأوقفت أخته من بعيد لترى ماذا يحل به وبينما هي على هذه الحال إذ أقبلت ابنة فرعون في وسط جواريها ووصيفاتها لتغتسل في النهر وكان بعض جواريها على مقربة من النهر فنظرن السفط في ذلك المكان فأخبرن سيدتهن بخبره فأمرت باستحضاره فأحضرنه ففتحته فرأت فيه الصبي يبكي فتأملت في وجهه وقالت: (هيه هو من أولاد العبرانيين). وخالج حبه فؤادها وعند ذلك تقدمت أخته إلى ابنة فرعون. وقالت: هل تسمح سيدتي بأن أذهب وآتي لها بمرضعة ترضعه، فقالت لها: اذهبي فذهبت أخته وعادت ومعها أم الصبي فدفعت لها ابنة فرعون الصبي. وقالت: أرضعيه ولك أجرتك فأخذته وانطلقت فرحة مسرورة بنجاته ولبثت ترضعه حتى كبر وترعرع فأتت به إلى ابنة فرعون فاتخذته لها ولداً وسمته (أوزار سيف) ومعناه كما فسره أهل العلم من المتأخرين (موسى) وجاء في التوراة أنها سمته (موسى). وقالت: إني انتشلته من الماء وعنيت بتربيته وتهذيبه وتعليمه العلوم والفلسفة المصرية حتى نبغ.

واتفق أن خرج موسى يوماً إلى حيث بنو إسرائيل يشتغلون، فرآهم وهم يقاسون العذاب ألواناً والرؤساء تسوقهم إلى العمل كالأنعام المسخرة ونظر فإذا مصري يضرب عبرانياً ضرباً شديداً فشق عليه هذا الأمر جداً وأغضبه ونظر يمنة ويسرة. فلم ير أحداً يخشاه فوكزه موسى فقضى عليه وواراه في الرمل وهو لا يظن أن أحداً رآه قط وأصبح فخرج وإذا باثنين يختصمان وكان أحدهما شديداً قوياً فكاد

يبطش بالثاني فتقدّم إليه موسى. وقال له: لماذ تضرب صاحبك؟ كف عنه يرحمك الله. فقال له الرجل: ومن جعلك رئيساً وقاضياً علينا أتصرّ على قتلي كما قتلت المصري بالأمس وشاع خبر قتل المصري ونقلوه إلى فرعون فغضب وطلب موسى فلم يجده حيث خرج هارباً من ذلك اليوم إلى أرض (مدين) ولما اشتد به التعب جلس عند بئر هناك ليستريح، وكان لرجل مدين المدعو رعوئيل سبع بنات فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن فبينما هي على هذه الحال إذ جاء بعض الرعاة وطردوهن وأخذوا ما في الأجران من الماء فكبر هذا الأمر على موسى واستعظمه. وقام وطرد الرعاة واستردّ الأجران وسقى غنم أبيهن فلما عادت البنات إلى أبيهن. قال: ما بالكن قد رجعتن اليوم مسرعات؛ فقلن: رجل مصري عاوننا اليوم وأنقذنا من أيدي الرعاة وسقى لنا الغنم، فقال رعوئيل: ويلكن ياقاسيات اذهبن واستدعين الرجل لنشكر له صنيعه فأتين به، فأكرم رعوئيل وفادته وأنزله مكاناً رحبا وبالغ في إكرامه وقربه منه، ولبث موسى على هذه الحال أياماً كثيرة فزوّجه رعوئيل إحدى بناته المسماة حفورة فرزقه الله منها بولد فسماه (جرشوم). قال لأني ولدته وأنا في بلاد غريبة.

وما زال موسى وزوجته عند أبيها رعوئيل حتى مات فرعون الذي هو رمسيس الثاني، وقد أخذت الشدّة من بني إسرائيل مأخذها، وارتفع صراخهم إلى عنان السماء واتفق أن خرج موسى يوماً يرعى غنم حميه على عادته فسار بهم على غير التفات إلى ما وراء جبل (حوريب) وجلس هناك قليلاً، وكان على مقربة منه عليقة فنظر إليها وإذا هي تتوقد ناراً ولم تحترق، فدنا من العليقة والخوف ملء فؤاده فسمع صوتاً يناديه (موسى موسى). فقال: لبيك. فقال: لا تقترب من هنا واخلع نعليك لأن الموضع الذي أنت واقف به مقدّس، واعلم أني إله أبيك وإله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب فاشتد الخوف بموسى وستر وجهه بيديه. فقال الصوت: إني عالم بمذلة شعبي الذي بمصر وعالم بأوجاعهم وسأنقذهم من تلك العبودية وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض واسعة تفيض لبناً وعسلاً وسأسكنهم حيث يسكن الكنعانيون والحيثيون والأموريون والغرزيون والحوّيون واليبوسيون فاذهب إلى فرعون وأخرج شعبي من بلاده. فقال موسى: من أنا حتى أذهب إلى فرعون، ومن أنا حتى أخرج شعبك من أرض مصر؟ قال، فإذا خرجت بشعبي من أرض مصر تعبدون الله على هذا الجبل. وهذه تكون لك علامة أني مرسلك، فقال موسى:

السمع والطاعة. فإذا أتيتهم وقلت لهم إله آبائكم أرسلني إليكم . وقالوا: ما اسمه. فماذا أقول؟ فأجابه الصوت قل لهم هو (أهية شر أهية) وقد أرسلني إليكم فإذا سمعوا قولك فادخل أنت وشيوخ بني إسرائيل على فرعون وقولوا له إن الله انتقانا وأمرنا بالدخول عليك لتطلق شعبه بني إسرائيل وإني أعلم أن فرعون لا يطلق شعبي ولا يسرحه فلذلك سأضرب مصر بكل عجائبي حتى تخرجوا ، فقال موسى: وكيف يصدّقني شعبك ويعمل بقولي؟ فقال له الصوت: وما تلك بيمينك؟ قال هي عصاي. قال: ألقها فألقاها؛ فإذا هي حية تسعى، فخاف موسى. فقال له الصوت: مدّ يدك وأمسك بذنبها فمدّ يده وأمسك به فعادت عصا، فنادى الصوت ياموسى: أدخل يدك في جيبك. فأدخلها ثم أخرجها. فإذا هي بيضاء مثل الثلج. فقال له: أدخلها ثانية. فأدخلها، ثم أخرجها، فعادت كما كانت. قال الصوت: فإن لم يصدّقوك بعد هاتين الآيتين فخذ ماء من النهر وصبه على الأرض فيصير في الحال دماً وسأشد أزرك بأخيك هارون وأكون لكما عوناً ونصيراً.

وانحدر موسى إلى مصر ومعه زوجته وأولاده وهارون أخوه وكان عمر موسى ثمانين سنة وعمر هارون ثلاثاً وثمانين، فلاقاهم بعض العبرانيين وفرحوا بمقدمهم وسجدوا لله شكراً حيث نظر إلى ضعفهم وما هم عليه من الذل والمسكنة وشاع الخبر بذلك فعم الفرح. وبات موسى ومن معه وأصبحوا وقد دخل هو وأخوه هارون على فرعون. وقالا له: يقول لك إله إسرائيل: أطلق شعبي ليعبدوني في البرية. فتعجب فرعون من كلامهما، وقال من أنتما ومن هو إلهكما الذي يطلب أن أطلق له بني إسرائيل عبيدي وعبيد شعبي اخسآ، ورسم للرؤساء والمسخرين بأن يشددوا على سائر العبرانيين ويضيقوا عليهم ما استطاعوا فشدّدوا وهدّدوا وساموهم الخسف فلما ضاق منهم الخناق اجتمع كبارهم ومدبرو أمرهم ووقفوا لفرعون في طريقه فلما دنا منهم صاحوا في وجهه. وقالوا: ارحم عبيدك ولا تحرقهم بنار غضبك، فلم يتلفت إليهم فعادوا وهم في أسوأ حال وإذا بموسى وهارون ينتظرانهم فكلموهما في الأمر وبكوا وانتحبوا، وقالوا لهما تضرعاً إلى الله كي يستجيب نداءنا ويرحم صراخنا فدخل موسى وهارون على فرعون، وقالا له: يقول الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب: إن أنت لم تطلق شعبه بني إسرائيل حاق بك وبجميع شعبك غضبه فزجرهما، وقال: ما الذي جئتما به من العجائب حتى أطلق عبيدي القائمين ببناء معابد آلهة شعبي وهياكلهم. فقال موسى لهارون: خذ عصاي وألقها أمام

فرعون ومن حوله من كبار دولته فألقاها فصارت حية تسعى فلم يحفل فرعون بما صنع موسى وهارون وأمر بالسحرة والعرّافين فحضروا. فقال: دونكم وما فعل هذا العبراني فطرح كل واحد عصاه فصارت حية تسعى فانقضت عليهن حية موسى وابتلعتهن جميعاً فغضب فرعون وأمر بإخراج موسى وهارون فأخرجوهما فعاد إليه موسى وأخوه ثانية. وقالا: يقول الرب إن لم تطلق بني إسرائيل نضرب الأرض والنهر فيتحوّل ماؤه وسائر مياه سواقيكم وآجامكم وكل مجتمعات مياهكم دما فيكون الدم في جميع أرض مصر حتى في الأخشاب والأحجار. قالا ذلك وفعلاه بحضرة فرعون وكبار دولته وجماعة السحرة والعرافين فالتفت فرعون إلى السحرة. وقال: وأنتم ماذا تقولون؟ قالوا: نفعل هاته الآية بعينها وفعلوها في الحال فاشتد عناد فرعون. وقال: لا أطلق قط ذلك الشعب النجس وكبر الأمر عليه جدًّا وجاء الناس ليستقوا من النهر فلم يقدروا لشدة نتنه فحفروا حوالي النهر وأخذوا الماء فوجدوه دماً فكانت شدة عظيمة وبعد سبعة أيام دخل موسى وهارون على فرعون وكلماه في إطلاق بني إسرائيل فلم يلتفت إليهما. فقالا له: يقول إله إسرائيل إن لم تطلق شعبي ليعبدني في البرية وأبيت ذلك فها أنا أضرب جميع قومك بالضفادع فيفيض النيل ضفادع وتنبت في الأرض وتدخل بيتك ومخدع فراشك وتصعد إلى سريرك وتدخل سائر بيوت شعبك وإلى مخابزك ومعاجنك. فقال فرعون: لا سبيل إلى ذلك فأمر موسى هارون فمدّ يده إلى النيل-ففاض في الحال ضفادع وانبثت على وجه الأرض فجاء العرافون وفعلوا كذلك واشتد إيذاء الضفادع بالناس، فاستدعى فرعون موسى وهارون. وقال لهما: اطلبا إلى إلهكما أن يرفع عنا ضفادعه فرفع موسى عينه إلى السماء ونادى الله تعالى فماتت جميعها بإذن الله فجمعوها، فكانت أكواماً كثيرة-لا تكاد تدخل تحت حصر وأنتنت وظن فرعون أنه لم يبق من موجب لإطلاق بني إسرائيل، فجعل يحاول موسى وهارون ويطاولهما فمدّ هارون يده بعصا موسى وضرب بها تراب الأرض فصار كله بعوضاً، وعم كل أرض مصر فجاء العرافون ليخرجوه بسحرهم فلم يقدروا واشتد البعوض بالناس والبهائم فكانت شدته عظيمة جدًّا فلم ينكف فرعون عن عناده ولم يسرح بني إسرائيل فغضب الله على فرعون وضربه هو وقومه بضربات أخرى متتابعة؛ هي الذباب وموت الماشية والقمل، والبرد، والجراد، والظلام الدامس مدّة ثلاثة أيام، ثم موت الأبكار من ولد فرعون الجالس على كرسي عظمته حتى بكر الجارية التي تطحن على الرحى حتى

بكر البهائم أيضاً فكانت هذه الضربة خاتمة ضربات مصر؛ فقام حينئذ المصريون قومة رجل واحد على فرعون ملكهم. وقالوا له: أطلق بني إسرائيل الساعة فأطلقهم، فساروا مع موسى وهارون من مدينة رعميس نحو مدينة (سكوت). وهم زهاء ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ومعهم شيء كثير جداً من الضأن والمعز والبقر فكانت مدة مقامهم بمصر مائتين وثلاثين سنة ، وقال موسى لبني إسرائيل: اذكروا أنكم خارجون من أرض مصر من بيت الذل والعبودية في شهر أبيب. وأخذ موسى وهارون جثة يوسف عليه السلام معهما ليدفناها في أرض الموعد، وسارا ببني إسرائيل وهم جيش عرمرم من سكوت إلى (ايتام) ونزلوا في طرف البرية أياماً ثم رجع بهم موسى ونزلوا أمام فم الجيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صهيون ، وندم فرعون على ما فعل من إطلاق بني إسرائيل فنادى في جنده وكبار قومه بالمسير خلفهم وإرجاعهم وأمر فشدوا مركبته وجهزوا ستمائة مركبة حربية وعدّة وافرة من مركبات النقل وسار بها سيراً حثيثاً جداً خلف بني إسرائيل حتى أدركهم عند فم الجيروث أمام بعل صهيون عند البحر، فلما رآهم بنو إسرائيل مقبلين بخيلهم وعرباتهم فزعوا جداً وصرخوا إلى الله تعالى وصاحوا في وجه موسى وهارون. وقالوا: ويلكما هلا يكون في أرض مصر قبور ندفن فيها حتى أتيتما بنا إلى هنا لنموت في هذه البرية، فرفع موسى عينه إلى السماء فسمع صوتاً يقول: قل لبني إسرائيل أن يرحلوا وارفع أنت عصاك وامدد يدك بها إلى البحر وشقه فتنكشف اليابسة فاعبر البحر أنت وهم ، ففعل وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وكانت ريح شرقية طول الليل فيبس البحر وظهرت اليابسة فعبر بنو إسرائيل والماء سور لهم ذات اليمين وذات الشمال فتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم بسائر مركباتهم وخيلهم فلما تم عبور الإسرائيليين مدّ موسى عصاه إلى البحر، فانهال الماء على فرعون ومن معه من كبار قومه وجنوده ومركباته، وأغرقهم جميعاً وشاهد بنو إسرائيل أجسادهم طافية على وجه الماء فصاحوا جميعاً صيحة الفرح، وجعلوا يترنمون بهذه الكلمات ، أرتل لله تعالى فإنه قد تعظم. وقد طرح الفرس وراكبه في اليم. الله ربي قوتي ونشيدي قد صار خلاصي هو إلهي سبحانه فأمجده إله أبي فأرفعه وجعلوا يكثرون من مثل هذه الأغاني حتى ملأت أصواتهم البرية وأخذت مريم أخت هارون الدف بيدها، وخرجت جميع النساء وراءها يضربن بالدفوف والكاسات ويرقصن ومريم تنشدهن شيئاً من الحماسيات، ثم ارتحل موسى ببني إسرائيل من بحر سوف،

وخرجوا إلى برية شور فساروا ثلاثة أيام ولم يجدوا ماء فانقلبوا على موسى وأخيه. وقالوا: قد جئتما بنا إلى هنا فمن أين ياترى نستقي وليس أمامنا إلا تلك العين المرة، فنظر موسى إلى شجرة كانت على مقربة منهم. وقال: اطرحوا هذه الشجرة في العين. فطرحوها فصار ماؤها عذباً زلالا ففرحوا واستقوا وساروا في طريقهم حتى نزولا على (إيليم) وكان بها اثنتا عشرة عينا وسبعون نخلة فاستقوا واستراحوا أياماً ثم ارتحلوا من (إيليم) فوصلوا إلى برية (سين) الواقعة بين (إيليم) المذكورة (وسينا) في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني من خروجهم من أرض مصر فشق عليهم ذلك جداً وتذمروا على موسى وهارون وخاطبوهما بفحش القول وهذر الكلام. وقالوا هل جئتما بنا إلى هذا القفر لتقتلانا بالجوع، والله قد كان خيرا لنا أن نخدم المصريين ونستعبد لهم ونحن جالسون عند معاجن الخبز وقدور اللحم، فكبر هذا الأمر على موسى ونادى ربه وبكى فقيل له إني منزل عليهم في الصباح خبزا من السماء فيخرجون ويلتقطون حاجة اليوم وفي المساء لحماً فيأكلون ويستغفرون، فكان ذلك وساروا من هناك إلي (إرفيديم) فأعوزهم الماء فصاحوا في وجه موسى وهارون وقالوا: ارجعا بنا إلى أرض مصر فإنه خير لنا أن نموت عبيداً لأهلها من أن نموت في هذه البرية عطشاً فغضب موسى. وقال: ويلكم إلى كم تغلظون في القول. وإلى متى تعنفونني؟ ونظر إلى السماء وبكى فناداه الصوت أن خذ عصاك التي ضربت بها البحر وخذ معك جماعة من شيوخ بني إسرائيل وسر بهم إلى حوريب واضرب الصخرة التي هناك بعصاك تلك فينفجر منها الماء فسار موسى ومعه الشيوخ إلى حوريب وضرب الصخرة بعصاه فانفجر منها الماء فاستقى بنو إسرائيل وسائر دوابهم وشكروا ودعوا ذلك المكان باسم (مسة ومريسة) ثم سار بهم موسى وهارون حتى جاءوا برية سينا وحطوا رحالهم أمام الجبل، ونادى الصوت موسى وهارون أن اصعدا إلى الجبل واقتحماه فصعدا فأنزل الله تعالى على موسى العشر كلمات شريعة يقضي بها. ولبث موسى يصعد إلى سينا وينحدر منه إلى بني إسرائيل بوصايا الله تعالى وشريعته التي سنها لهم حتى ناداه الصوت يوماً: أن اصعد ياموسى إلى الجبل فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لشعبي بني إسرائيل، فقام موسى لساعته وودع شيوخ بني إسرائيل. وقال لهم: إني مستخلف فيكم هارون (وحور). فمن كانت له ظلامة فليتقدم إليهما، وصعد إلى الجبل فغشيه السحاب وكانت نار آكلة تتأجج في وسط الجبل وبنو إسرائيل ينظرون

إلى ذلك وهم وجلون فأقام موسى فوق الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة.

ولما أبطأ موسى ولم ينزل هاج بنو إسرائيل وماجوا وملوا من المقام في البرية فقاموا على هارون وصاحوا في وجهه. وقالوا: قم واصنع لنا إلهاً يسير أمامنا؛ فإننا مللنا المقام في هذا المكان القفر أما موسى الذي أخرجنا من أرض مصر وجاء بنا إلى هنا فلا ندري ما فعل الله به فوعدهم فملوا من الوعد وذهبوا إلى السامري، فقال: ائتوني بالذي عند نسائكم وبناتكم من الحلي فأصنع لكم منه إلهاً. فأتوه بجميع ما عند نسائهم وبناتهم من الذهب فصنع لهم عجلاً على أحسن ما يكون فلما نظروه صاحوا. وقالوا: (هذا إلهكم يابني إسرائيل الذي أخرجكم من أرض مصر). وبنى لهم مذبحاً ونادى فيهم بأن تقربوا إلى إلهكم في الغد بما شئتم، ففرحوا وأكلوا وشربوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمعوا حول العجل يرقصون ويطربون ويغنون الأناشيد. وإذا بموسى قد انحدر من الجبل وألواح الشهادة في يده فلما اقترب من المحلة وأبصر العجل والناس من حوله يرقصون ويغنون اشتد به الغيظ والحنق وألقى ألواح الشهادة إلى الأرض فانكسرت، وانقض على العجل فنزعه وأوقد ناراً عظيمة وطرح فيها العجل ثم حرقه ثم نسفه في اليم نسفاً وكان بنو إسرائيل يستقون منه وأكرههم على شربه جزاء مخالفتهم فشربوه وهم صاغرون وغضب الله على بني إسرائيل، ونادى الصوت: ياموسى. قل لهذا الشعب قاسي القلب إنهم لا يدخلون الأرض المقدسة بل يلبثون أربعين سنة في هذه البرية ويموتون جميعاً فلا يدخلها إلا أولادهم وأحفادهم. فبكى موسى وتضرع إلى الله تعالى أن يرحم شعبه بني إسرائيل وأن لا يجازيه حسب عمله فناداه الصوت ثانية قائلاً: وأنت ياموسى لا تدخلها أيضاً أي لا تدخل تلك الأرض بل تراها من بعيد ثم تموت فاشتد بكاء موسى وشاع الخبر بين القوم فبكوا بكاء مرا ، لكن قد نفذ القدر المقدور ، وأقام بنو إسرائيل في تلك البرية أربعين عاماً حتى مات سائر من خرجوا مع موسى وهارون من أرض مصر. ولم يبق منهم أحد. وما أصابهم مما هو مذكور في التوراة لا حاجة إلى إيراده هنا.

أما مؤرخو اليونان فإنهم لم يأتوا على ذكر شيء مما جاءت به الكتب السماوية بشأن هذا الحادث وجميعهم يؤوّلُ انفلاق البحر لعبور بني إسرائيل بحادثتي المد والجزر وينكرون غرق فرعون موسى ويقولون إنه لم يكن من موجب لذلك أي لاضطهاد بني إسرائيل إلا انضمامهم مع من بقى من طوائف الملوك الرعاة وخلودهم

إلى شق عصا الطاعة فضرب ملوك مصر عليهم الاسترقاق والاستعباد كي لا يستطيعوا مد يد المساعدة إلى أهل الحجاز والشام الذين كانوا كثيري الإغارة على ديار مصر (قلت): وهذا القول بعيد لأن نزول بني إسرائيل على أرض مصر كان بعد طرد طوائف الملوك الرعاة من البلاد وجلائهم عنها وظهور العائلة الثامنة عشرة المتأصلة. قال مانيطون المؤرخ في كتابه بعد كلام، وعاش يوسف بمدينة منف وتسلط على سائر البلاد في أيام أعظم وأقدر فراعنة المملكة الجديدة يعنى طوطمس الذي تولى الملك بعد نفي الرعاة، ومما يدل على صحة ذلك ما جاء في التوراة أيضاً من قول يوسف لإخوته عند حضورهم إليه بمصر ، يكون إذا دعا كم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً لتسكنوا في أرض جاسان لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين . اهـ. وقال بعض الكتاب أيضاً ، قد دلت الآثار على أن السعاة وحملة الرسائل كانوا من الكنعانيين فاستغاثوا وابتهلوا إلى الله تعالى، فأرسل إليهم موسى وأخاه هارون فذهب موسى إلى فرعون بآيات مذكورة في التوراة فخاف فرعون وأطلق بني إسرائيل فساروا من مدينة(رعمسيس) حتى أتوا مدينة (سوكوت). وكانوا ستمائة ألف رجل غير الأطفال وسار معهم أيضاً عدّة كثيرة جدًا من الطوائف الأخر الذين كانوا في أسر المصريين ومنهم الفينيقيون وقد نزلوا (بارام) التي في آخر الصحراء وأمر الله تعالى موسى أن ينزل بهم أمام فم خروث التي بين مجدل والبحر أمام بعل صفون وأن يسير موسى أمامهم قريباً من البحر الأحمر وينزل هناك ففعل ، وندم فرعون على إطلاق بني إسرائيل فجمع فرسانه وجنوده وتبعهم ليرجعهم إلى أرض مصر، فأمر الله موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق وعبروا جميعاً على اليابسة حتى صعدوا إلى الشاطىء الثاني فأتبعهم فرعون وجنوده فغطاهم الماء وغرقوا جميعاً ، ولما عبر موسى البحر سار بأسباطه من طريق الصحراء بين مجدل والبحر. فكان طريقهم على أطراف بلاد العرب شرقي بلاد مصر والبحر الأحمر ولم يمروا بأرض فلسطين شرقاً خوفاً من جنود الحيثيين أن تردّهم إلى أرض مصر قياماً بالعهد الذي كان بين ختاسار ملك الحيثيين (ورمسيس) الأكبر ملك مصر وهو ردّ كل من أتى من رعايا أحدهما إلى بلاد الآخر ، وتاه بنو إسرائيل في البرية أربعين سنة عقاباً لهم على مخالفة وصايا الله تعالى كما جاءت به الكتب المقدسة ولم يدخل أرض كنعان أحد منهم سوى يوشع بن نون كما أمره الله مع أن مسافة الطريق فى البرية إلى أرض كنعان ليست إلا اثنتى عشرة مرحلة ودخلها بعدهم أولادهم أما موسى فقد أراه الله سبحانه إياها من جبل (تيو) ثم مات، ولم يعلم للآن مكان قبره.

وقال يوسوفوس المؤرخ غير ذلك. وقال آخرون: إن خروج بني إسرائيل كان في أيام الملكة طوسير بنت الملك منفطة الثاني كما سيأتي بيانه في محله.

(في الملكة طوسير بنت منفطة الثاني)
(وأخيها الملك منفطة الثالث)
(الملقب أيضاً)
(أوسر خبرورع ميامون)

تولت هذه الملكة حكم البلاد بعد أبيها منفطة الثاني، وكانت متزوّجة بعظيم يسمى حفطا منفطة. ويقال له أيضاً فرعون تبعاً لها وكانت ولايتها قبل أخيها لصغره ولذلك كان زوجها المذكور يدبر الملك بالنيابة عنها، وطالت مدتها مع أخيها منفطة الثالث فكانت تسع عشرة سنة ، قال بعض أصحاب التاريخ ، وفي أيام الملكة طوسير كان خروج بني إسرائيل من أرض مصر ، وقال يوسوفوس عن مانيتون الكاهن المصري في خروج بني إسرائيل أنه لما كان الملك أمنوفيس ، قال صاحب العقد الثمين ولعله منفطس ، يحب أن يرى المعبودات تتجلى له كما كانت تتجلى على الملك (حوريس) أحد أجداده سأل في ذلك أحد المكاشفين ورغب إليه أن يعلمه كيف يصل إلى هذه المرتبة. فقال له: إنك لن ترى إلهك عياناً حتى تطهر الديار من جميع المجذومين وأصحاب الدناسة، فجمع (أمنوفيس) الملك من هؤلاء ثمانين ألفاً وهم من الإسرائيليين ووضعهم في محاجر طرا وبينهم طائفة من الكهنة فأثار هؤلاء القوم غيظ المعبودات فخاف ذلك المكاشف شر العاقبة وكتب نبأ في صك يقول فيه: إن هؤلاء القوم ، يريد اليهود ، سيتعاهدون مع قوم آخرين ويملكون مصر مدة ثلاث عشرة سنة وبعد أن كتب ذلك قتل نفسه فلما علم الملك (أمنوفيس) بمقالة ذلك المكاشف لم يلتفت إليها ونقل أصحاب الدناسة إلى مدينة (أواريس) ليقيموا بها وكانت قد تخربت وتداعت إلى السقوط من أيام العمالقة فلما سكنوها واستقر بهم المقام تألفت منهم طائفة فكان على رأسها مقدم ديانتهم المسمى أوزار سيف المقيم بالمطرية. قال صاحب العقد الثمين ، وقد فسره أهل العلم من الأوروباويين بموسى، فجعل لهم قوانين مخالفة للعوائد المصرية وأعدهم للحرب وتعاقد مع من بقي من العمالقة المتوطنين من أجيال بالشام فهاجموا مصر سوية وملكوها بغير قتال فعند ذلك تذكر الملك (أمنوفيس) ما قاله ذلك المكاشف وخاف وجمع الأصنام وهرب بها إلى بلاد الايتيوبيا ومعه جيشه وكثير من المصريين فعاث العمالقة واليهود في البلاد

وأفسدوا في الأرض وأساءوا إلى أهلها وشددوا عليهم وضيقوا وحرّقوا المدن والقرى ونهبوا المعابد وكسروا الأصنام وأكلوا الحيـوانات التي كان المصريون يعبدونها وألزموا الكهنة من المصريين بذبحها وتقطيعهـا وإلقائها في الطرق وبينما هم على هذه الحال إذ عاد (أمنوفيس) من بلاد الايتيوبيا بجيش عظيم ورجع أيضاً ابنه (رمسيس) بجيش آخر وهجموا على العمالقة واليهود فانتصروا عليهم وقتلوا منهم عدة كبيرة، واقتفوا أثرهم حتى أدخلوهم أرض الشام . اهـ.

أما مؤرخو العـرب فقد قالوا: إن خروج بني إسرائيل وغرق فرعـون مصر كانا في أيام هذه الملكة وقد سموها باسم (دلوكـة بنت ذبا) وقد ذكر المقريزي في خططه ما نصه ، قال ابن عبد الحكم: لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها إلا الـعبيد والأحرار والنساء فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهن واحدة وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها (دلوكة بنت ذبا) وكان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت في شرف منهن وموضع وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة فخافت أن يـتناولها الملوك فجـمعت نساء الأشـراف. وقالت لهن: إن بلادنا لم يكن قـبلاً يطمع فيـها أحد ولا يمد عـينه إليها وقـد هلك أكابرنا وأشرافنا وقد ذهب السحرة الذين كنا نـقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصناً أحدق به جمـيع بلادنا فاضع عليـه المحارس من كل ناحـية فإنا لا نأمن أن يطمع فـينا الناس فبنت جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجـاً يجري فيه الماء وأقامت القنـاطر والترع وجعلت فيه مـحارس على كل ثلاثة أميال مـحرس ومسلحة فيـما بين ذلك محارس صغـار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالاً وأجرت عليهـم الأرزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس فيأتيهم الخبر من أي وجه كان في ساعة واحدة، فنظروا في ذلك فـمنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه في ستة أشهر وهو الجدار الذي يقال له جدار العـجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة فملكتهم ثلاثـين سنة. اهـ. قلت فليتأمل «أما أخوها الملك منفطة الثالث فقد كان كثيـر التعبد للأصنام المصرية شديد الخضوع إليهم وله إغـداقات كثيرة على الهيـاكل والمعابد وأهدى إليها تحـفاً كثيـرة جداً وقد أنشأ هيكلاً خـصوصيا لمـعبوده (أمون) في هيكـل الكرنك وعمل له قـسيسو مـدينة طيبـة في هذا الهيكل القـاعدة الصغيرة التي هي بالحـوش الأول تذكارا لاسمه. قال صاحب العقد الثـمين: وكتبوا عليهـا أن (لوى) رئيس كهنة مـعبد (أمـون) كان هو وابنه وخليفـته محـبين للملك ولكهنة (أمون) . اهـ.

وبنى لنفسه مقبرة عظيمة في بيبان الملـوك كتب عليها القسيسون أنه حكم جميع بلاد مصر وساسها، وقد حصل في أيامه الخلل وكثرت الاختلافات الداخلية وفشت الأغراض وخـرج عليه بعض الرعيـة وادعى بعضهم الرئاسة وانـتحل لنفسه حـقوق الكهونية والوراثة لملك مصر، وكـان ممن خرج رجل اسمه (أمنحبس) وادعى أنه ابن (رمنيس) الأكـبر وكان مولده في مدينة (خب) وأخذ يـنازع منفطة الثالث في الأمر وما زال حتى مـات منفطة الثالث فكانت مدة حكمـه بالاشتراك مع أختـه (طوسير) مدة واحدة قـدرها على ما قاله أهل التاريخ تسع عـشرة سنة وستة أشهـر فلما مات تولى بعده (أمـنجبس) المذكور وتسلق عـرش الملك اختـلاساً فحكم مـصر وجـميع ملحقاتها وأشاع أن المعبودة (إزيس) قـد اختارته من مدينته (خب) التي هي من قسم (أفرو وميتـوپوليس) وجعلته حاكماً على الأرض وكان مـتزوّجاً بامرأة تدعي (باكت أورنور) فلم يستقر بـه المنصب حتى عم الخلل جميع البلاد وأقامت فـيها الفوضى، واشتدت ووردها الأجـانب وتمكنوا منها ورسخت قدمـهم في جوفها فعـاملوا أهلها بالقسوة والجـفاء والغلظة حتى كادت ترحل أهل البلاد وتنزح إلى غـيرها من البلاد الأخرى. وما زال الحال هكذا حتى مات (أمنحبس) المذكور، ومحي بموته اسمه من جميع الهـياكل والآثار لكونه ليس من بيت الملك وفي أيامه ظهر (سـبتاح) من بيت الملك القديم ونازع (أمنحبس) الملك أياماً كثيـرة وما زال ينازعه حتى هم إلى معاونة (سبتاح) المذكور الوزير (بابي) وانضمت إليه زوجة (سبتاح) المسماة (توسرت) فتم له ذلك وارتقى المنصب بعنايتهما.

(في الملك سبتاح)

لما كثـرت الفتن والإرهاصات الداخليـة وعم الاختـلال وانتشرت الـفوضى في البلاد واستقـل كل رئيس بحكم جهة مخصوصـة نهض الوزير المسمى (بابي) واتحد مع (توسرت) زوجة (سبتاح) المذكور على تولية (سبتاح) ملكاً على مصر فعملا وما زالا يعمـلان حتى تم (لسبـتاح) الأمر، واسـتقل لملك مصـر. قال صاحب العـقد الثمين: ولذا قال هذا الوزير إني أزلت البـاطل وأظهرت الحق لكوني أجلست الملك (سبـتاح) على تخت والده. اهـ. ولما استقـر به المنصب أقام وزيره المسمى (سـيتي) حاكماً على بلاد (كوش) وقلده أيضاً مناصب أخرى عالية. وأجله وقربه عنده زلفى ولم يقدر (سبـتاح) المذكور على إعادة الراحـة في داخلية البلاد (إلى سـابق مجراها ولا ردع أهل البغي والفساد والخوارج الذين ظـهروا في داخلية البلاد) بل ظل الحال على ما هو عليه من الخلل والارتبـاك حتى مات فبقيت مـصر في يد هؤلاء الخوارج

زمناً طويلاً لم يتكلم أصحاب التـاريخ عنه بشيء إلى أن نهض من أمراء هذه العائلة (اريزو الفنديقي) واسـتقل بالملك فعـاث وأفسد وقـهر أهل البـلاد وأذلهم وأساءهم وطالت أيامه حـتى ظهر آخر اسـمه (سيتنخت) فقام على اريزو الـفنديقي المذكور وخلعه وطرده من البلاد واستقل هو بالملك. قـال صاحب العقد الثمين: ويرى اسم الملك (رعمـسوسبتـاح) منقوشاً مرتين في خـانة ملوكية داخل الهيكل الذي شـيدته زوجته (توسرت) فالمرة الأولى تجده في باب الهيكل والثانية في داخل الهيكل المذكور منزوياً في المكان الذي نقشت فيه زوجته اسمها وقـد شيد لنفسه قبراً في بيبان الملوك كتب عليه أسماءه ولكنها محيت منه . اهـ.

(في الملك سيتنخت)

لما استـقر بالملك (سيـتنخت) المنصب نهض إلى قتال الأغـراب الذين عاثوا في البلاد وأفسدوها ومـزقوا هيبتها فردعهم وأرغـم من قام من أهل البلاد ينازعه الملك وأخضعه وسعى جهد الاستطاعـة في إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه بعد أن اختل نظامـها في أيام الملك (أمـنحبس) إلى أيام (سـيتنـخت) هذا. قال صـاحب العقـد الثمين: ومما يؤيد صـحة ما كان حـاصلاً من الاختـلال والاضطراب في مدة الملوك الثـلاثة السابقـين وهم (امنحبس)، (وسـبـتاح)، (وسـيـتنخت) ما ورد في ورقـة (هارميس) من النصوص المقولة على لسان رمسيس الثالث في مبدأ حكمه حيث بين فيها حال تلك المدة الوخيمة بالألفاظ المعربة الآتية:

(قال الملك رمسيس الثالث) المقدس الأكبر لأمراء ورؤساء البلاد والجنود والمشاة وجنود العربات الحربية والسردانيين ولكثير من العـساكر الأجنبية وغيرهم من السكان المقيمين في ديار مصـر اسمعوا مقالتي فإني سـأعلمكم بحسن سيرتي ، لما صـرت ملكاً على البلاد وكـانت أهل مصر منفيـة بالجهات الخارجـة ولم يكن للمقيم فـيها اعتبار ومضى على ذلك زمن طويل وتداولت الأيام ومـصر في أيدي رؤساء أجنبية، وكان أحدهم يقـتل الآخر بدون مراعاة الشـريف والحقير ثم بعـد هذا الاختلال بمدة ظهر (الفنديقي اريزو) أحـد هؤلاء الرؤساء واختلس الملك لنفسـه وألزم جميع الأمم بدفع الجـزية له وكانت رفـقاؤه تنهب كل مـا أدّخره الناس لأنفـسهم وهكذا كـانوا يفعلون وعـاملوا المعبودات كـالناس ومنعوا عنهم قـرابينهم المعتادة ولكن المعـبودات أصلحوا الأمـور وأوجدوا العدل في المملكـة وتكرموا بتحـسين الحال وإزالة الأهوال وجعلوا (سيتنخت مرمايون) ملكاً على جـميع المملكة (وأجلسوه فوق التخت المنيف

فكان إذا غضب يشبه (ست) واعتنى بكافة المملكة) وقتل كل من ثبت عليه قتل نفس أو ذنب وبذلك طهر تخت مصر المنيف من أهل الجرائم وحكم أهلها فوق تخت الشمس (توم) المعبودة لهم واستقبلها بوجهه وكان يبني الحائط على كل من لم يظهر لصاحبه الصحبة والأخوّة ونظم المعابد وأعطى المعبودات مرتباتهم من القرابين حسب مربوط قوانينهم وأورثني الحكم في أرض مصر وجعلني حاكماً على جميع ملحقاتها لأقوم بأمر الأمة التي التأمت ثانياً ثم توفي وظهر من دائرة نوره كالأجسام السماوية فعملوا له الرسوم المعتادة لدفن الأموات وشيعت جنازته في النهر على سفينة ملوكية ثم وضعوه في جدثه الأزلي غربي طيبة وبعد ذلك جعلني أبي (أمون) وأعظم المعبودات (رع)، (وبتاح) ذوي السماحة ملكاً على تخت والذي فتقلدت رتبته مع غاية المسرة وفرحت الناس وانشرحت مما حصل لهم من مزيد سرورهم وقروا عينا لما تطروني ملكاً على مصر حيث إني أشابه (حور) ملكها حين كان فوق تخت (أزوريس) وتتوجت بتاج (أتف) وبتاج الثعبان وتزينت بالريشتين كالمعبود (تاتانن) وهكذا كان ارتقائي على تخت (حورمخي) وتزييني بملابس الفخار مثل (توم) . اهـ. بنصه.

وبموت الملك (سيتنخت) هذا انقطعت مدة حكم الدولة التاسعة عشرة على ما قاله جماعة من الكتاب فإنهم عدّوه آخر ملوكها، وبعضهم يقول غير ذلك، فكانت مدة حكم هذه الدولة على المشهور من أقوال أصحاب التاريخ مائة وأربعاً وسبعين سنة وقامت بعدها الدولة المكملة للعشرين وأولها الملك رمسيس الثالث ابن (سيتنخت) المذكور.

(الفصل الثالث)

(في ملوك الدولة المتممة للعشرين الطيسوية)

كان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف قبل الميلاد أي سنة عشر وتسعمائة وألف قبل الهجرة، وعدد ملوكها اثنا عشر ملكاً وسنو ملكهم مائة وثمان وسبعون سنة وقيل غير ذلك. وأول ملوكها من نسل ملوك العائلة التي قبلها. قال أهل التاريخ وقد كان لفظ الدولة عند قدماء المصريين غير المعنى المعهود منها في اصطلاح المتأخرين وإنما كانت عندهم بمعنى آخر كالعصابة أو الفرع مثلاً قالوا: والعائلة هي التي تحكم مدة خاصة في بلد خاصة حكومة متميزة وإن لم تختلف السلالة ولاأخرجت الحكومة عن السلسلة الملوكية وأول من ملك منهم رمسيس الثالث الآتي الكلام عليه.

(في الملك رمسيس الثالث)

(الملقب)

(رع أوسر ماميامون)

كان أول ملوك هذه الدولة الملك رمسيس الثالث ويسمى رمسيس الميمون يعني عبد شمس ويقال له أيضاً سيطوس الأول وإنما سمى باسم رمسيس الثالث تفاؤلاً بهذا الاسم وافتخارا إذ أن رمسيس الأكبر جعل لهذا الاسم كبير اعتبار ومزيد افتخار، وقد تلقب به من أتى بعده من الملوك حتى أن هذه الدولة أي المكملة للعشرين سميت بالدولة الرمسيسية ورمسيس الثالث هذا آخر مشاهير ملوك مصر وكان قبل موت والده (سيتنخت) شريكاً له في حكم البلاد وتدبير أمورها فلما آل إليه الملك كبر اهتمامه بأمور المملكة وحفظ حدودها وملحقاتها واعتنى بتنظيم داخليتها، وكان شجاعاً عالي الهمة محارباً ولم يستقر به المنصب حتى قامت عليه قائمة الحروب والفتن وخرج أهل البادية فهددوا معاقل إقليم مصر المعروف بالدلتا وأذلوا العملة الذين كانوا بطور سينا لاستخراج المعادن، وزحف على ديار مصر طائفة عظيمة من الليبيين من جهة الشرق برئاسه أربعة وهم (ديد ومشاكن وصمار وصا وتمار) وانضم إليهم طوائف (التهانو)، (وتماحو)، (وكحاك) وقبائل أخرى ممن يجاورهم وقد ساروا من سهول صحراء ليبيا وما زالوا حتى احتلوا قسم مريوط وقسم صان ومصابّ النيل إلى فرعه الأكبر وانتشروا وشغلوا جزء الدلتا الغربي من مدينة (كريانا) إلى آخر حدود مصر الشرقية، ومنها إلى ضواحي منف من الجهة القبلية، فقام عليهم الملك رمسيس. وقاتلهم قتالاً شديداً مبتدئا بأهل البادية فهزمهم وانتصر عليهم نصرا مبيناً حتى أبادهم ولم يبق منهم إلا القليل ثم طارد الليبيين الذين هم أهل برقة ومن معهم من بقية الطوائف في السنة الخامسة من حكمه فهزمهم شر هزيمة فانحاز بعضهم إليه فأدخلهم في جيوشه المعدّة للإمداد وتتابعت نصراته عليهم حتى أدخلهم تحت الطاعة وأذلهم وكسر شوكتهم وأزال بأسهم.

قال صاحب العقد الثمين: وهذه الواقعة منقوشة في خمسين سطراً على جدران مدينة (آبو) بطيبة تركنا من أولها ستة عشر سطراً لعدم فائدتها لنا ولنذكر ههنا من السطر السابع عشر إلى آخرها نقلاً عن (شباس) وهذا نصها.

(الملك رمسيس الثالث) ذبح سكان بلاد السهول والجبال وأبادهم وأخذهم إلى مصر أساري متواضعين أمام معبوداتها وأشبع الجائع بالمؤنة الوافرة التي غمر بها

إقليمي الصعيد والبحيرة وبث الفرح في أهل مملكته على الدوام كيف لا وهو الذي أجلسه المعبود (أمون) على تخت مصر وجعل غالب ما تطلع عليه الشمس في قبضة يده. ثم إن أهل آسية وبلاد (تهانو) اللصوص أهل الدناءة عصوا وفعلوا أفعالاً قبيحة في مصر وشنوا غارة العصيان عليها مدّة الملوك السالفة: ونهبوا أمتعة المعبودات وأموال الناس، ولم يردعهم أحد مذ عصيانهم. فلما ظهر هذا الشاب الهمام وثب عليهم كالأسد ذي المخلب القاتل وهجم عليهم كالمعبود (نهى) أعني (هرمس) حتى أبطل كلامهم الذي هددوا به أهل مصر وأثبت كلامه عليهم وسرت إلى جنوده قوّة حميته، فظهروا كالثيران المستعدة للهجوم على المعز وكانت خيالته تهجم عليهم كالصقر إذا انقض على الطيور الصغيرة ولهم زئير كالسباع الهائمة من الغيظ، وكانت ضباطه شديدة البطش لا تقاوم كأنهم المعبود (رسپ) ينظرون الألوف من الناس صغيرة كحدقة العين، ولقد كانوا في قوتهم مثل (مونت) الذي اسمه ميزان العدل يخافه جميع بلاد السهول والجبال، وبعد ذلك اجتمع أيضاً لقتاله (الليبيون ... والمشواشيون) المعروفون قديماً (بتماحو) واعتمد جنودهم على رأي رؤسائهم المهيج لقلوبهم ووافق أفكارهم هذا الرأي فقالوا هلم بنا نسكر ونشبع من خمر الحمية إلا أنهم خابت آمالهم ولم ينالوا مقاصدهم لعدم استحسان هذا الرأي لدى المعبود (أمون) حيث لم يستجب دعاء رئيسهم لكونه معبوداً محسناً عالماً بالهدى والضلال سلطان المعبودات الذي أقام رمسيس رئيساً على مصر وجعل بيده القوّة والنصر حتى صار بدعوات الأمم له ملكاً ذا دولة عظيمة بفطنة وذكاء كالمعبود (هرمس) ولما ظهر لهذا الملك ما كمن في قلوب (تماحو) ذوي القلوب الصغيرة من سوء مقاصدهم تغلب عليهم فخضعوا لسيفه وتفصيل ذلك (انهم اجتمعوا) عند رئيسهم وأصروا على سلب بعض أراض من مصر فتعجب المصريون. وقالوا: كيف ينالونها مع كونهم لم يسمعوا قولاً يشبه ذلك في مدّة الملوك السالفة فلما سمع الملك رمسيس كلام الأعداء هاج قلبه واضطرب وهمّ باستئصالهم بسيفه المنصور، فرعبوا منه كالمعز إذا هجم عليها ثور ووطئها برجليه وضربها بقرنيه وزعزع الجبال واقتفى أثر من قرب إليه. كيف لا وقد منحته المعبودات في حضرتهم ما يليق به من القوّة فكان إذا اخترقت جماعة حدوده هجم عليهم كالنار المحرقة إذا انتشرت في الحشائش فيصيرون كالأوز المأخوذ من شبكة للتقطيع والشيّ، ولذلك تساقط منه أولئك الأعداء عند هجومه عليهم رمما مضرجة بدمائها تساقطا هائلاً ولم يمكنهم من شيء سوى مشاهدة ذنوبهم كبيرة بينهم كالجبال الشامخة بل جردوا في الميدان من أسلحتهم

وتراكمت على الأرض أمواتهم بشهامة الملك المنصور صاحب السيف والقوّة (رعمسيس الثالث) المماثل (لمونت) وأحضر معه من هذه الواقعة لمصر أيديا وأحاليل مقطوعة وأسرى لا تحصى مسلسلة في الأغلال منقادة، واجتمع في هذا الوقت رؤساء هؤلاء الأمم المأسورة لينظروا فضيحتهم، أما الملك فقد سارت معه أعيان دولته الذين هم من درجة الثلاثين نحو المعبود (أمون رع) باسطين أيديهم إلى السماء منادين نداء السرور مع امتلاء قلوبهم بمحبة الملك قائلين: أيها المعبود قد وجب علينا مدح شهامة الملك رمسيس الذي حضرت لديه جميع رؤساء الدنيا وقلوبهم مرتجفة ومختطفة وغير مستقرة في صدورهم شاخصين إلى هذا الملك الشبيه (بتوم) ملك كسر في حكمه أصلاب (تماحو) الذين زحفوا على حدود مصره ودمروا الأرض وجعل قواد فرسانهم فرقاً تحت تصرفه ولقبهم باسمه هذا ما حصل مع (تماحو) الذين بدءوا بالعدوان على مصر من غير أن يقفوا على حالها وجلبوا معهم المشواشين كالسيل ورحلوا من وطنهم فهلكت مزارعهم وتلفت وشلت أعضاؤهم من الفزع وعجزت وصاروا يقولون لقد انقصمت في بلاد مصر ظهورنا وأذل إلى الأبد ملكها نفوسنا والمصريون يقولون ياحسرة عليهم إنهم يرون رقصهم تبدّل بذبح والمعبودة (سخت) المصرية في أثرهم والفزع لاحق بهم فازداد عند ذلك تأسف الأعداء. وقالوا: هزمنا من غير مقاتلة فرسانهم لنا في ميدان القتال فلا نمشي في الطريق التي يمشي الناس فيها بل نخوض الماء حياء منهم، ولقد ألمّ بنا الخراب من ملكهم إذ كان كالنار علينا كل مرة أراد قتالنا واختطفتنا رجاله حين قربنا إليهم ولم نجد لنا سبيلاً إلى النجاة منهم، ولما أراد رئيسهم رمسيس الشبيه (بست) الهجوم علينا كالسبع ذي المخلب واتبعنا ليقتلنا اضطرنا إلى القهقري دائماً والبعد عن مصره فأوجاعنا أعظم من الموت وسرت فينا النار فلا نزرع أبداً ولقد أراد رؤساؤنا (ديد - ومشاكن - ومرايو - وصماور - وصاوتمار) الذين كانوا أكبر المهيجين لنا مع الليبيين إضرام اللهيب في مصر من أولها إلى آخرها، ولكن سخطت علينا المعبودات لأننا نهبنا هياكلهم وأراضيهم فالتزمنا بالخضوع لسيف مصر ذي البسالة العظمى أليس هو الذي أعطته الشمس قوة النصر فشابهها وقت ظهوره واستنارت به البشر، فهلم بنا نسد إليه احترامنا ونقبل الأرض أمام حسام مصر المنصور. (قال): وبهذا يتضح لك أن الليبيين انهزموا هم ومن معهم شر هزيمة وضربت عليهم بسبب عصيانهم الذلة والمسكنة وهذا حاصل ما تم في الواقعة الأولى ، وقد وقعت له واقعة ثانية كانت أكبر من الأولى وهي أنه لما سمع أهل آسية الصغرى والجزائر اليونانية بهذه الحرب

الأخيرة هموا بالخروج عن طاعة رمسيس الثالث، فشنوا الغارة عليه وهم (الدنائيون ـ والترسانيون ـ والشكالاشيون ـ والتكرسيون) الذي خلفوا (الدزدانيين) في البطش والمنعة بين الأمم الترواتية، وتعاهدوا على قتال هذا الملك وانضم إليهم (الليسيون ـ والفلستيون) وساروا حتى نزلوا ببلاد (خيتا ـ وكركميش ـ وكاتي ـ وآراد ـ وكدش) فنهبوها وأخذوا رجالها معهم ليستعينوا بهم على قتال المصريين ثم ساروا حتى نزلوا ببلاد الأموريين وأقاموا بها مدة. ثم نزلوا على مصر كسيل العرم من طريق الدلتا فتقابلت جيوشهم وسفنهم الحربية بالمراكب والجيوش المصرية وكانت تنتظرهم بين مدينتي (رافيا ـ والطينة) بجانب برج رمسيس الثالث وامتلأت مصابّ النيل بالسفن الحربية والمراكب المشحونة بعساكرالأعداء فشرع الفريقان في القتال والطعان فكانت المشاة من المصريين تزأر كالسباع وعساكر عرباتهم تقاتل تحت قيادة رؤساء محنكين وضباط مدّربين وخيولهم تضطرب أعضاؤها وتدوس الأمم بسنابكها أما رمسيس فكان واقفاً أمام جيشه كأنه معبود الحرب (مونت) يقتل في الأعداء ويجندلهم ويغرق سفنهم وأموالهم حتى هزمهم هو ورجاله شر هزيمة وانتصر عليهم نصرة تامة وعادت الراحة بعد ذلك واستتبت وعمت الطمأنينة أنحاء البلاد مدة طويلة، فلما كانت السنة الحادية عشرة من هذه الواقعة عاد (الليبيون) إلى شق عصا الطاعة مرة ثانية وزحفوا على ديار مصر ومعهم قبيلة (المشواشيين) وطوائف (سباته ـ وكبكاش) وبعض طوائف أخر وجيش من الجنود (الترسينية ـ والليسية) وأغاروا على مصر من جانبها الغربي، وذلك في شهر مسرى من السنة المذكورة، وكان مقدم هذه الحملة(كابور) وابنه (مشاشال) فلما التقى الفريقان أعمل فيهم المصريون القتل وأبلوا فيهم بلاء حسناً وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً.

وأرسل رمسيس الثالث طائفة من جنوده المظفرة إلى جبل الطور لقتال أهل البادية الذين كانوا يغيرون على الحدود ومحلات المعادن فضربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت الطاعة فعلت بعد ذلك كلمته وطار صيته واتسعت مهابته وانجلى عن أرض مصر جميع من كان بها من (السردانيين ـ والترسينيين ـ والليسيين ـ والفلسطينيين) بعد أن كانوا يأتون إليها مهاجرين من أوطانهم منذ خمسة أجيال ورحلوا إلى قارة أوروبا (قال شباس) فاستوطن (الترسينيون) شماليّ مصبّ نهر (الطبر) ونزل السردانيون بجزيرة سردينيا فسميت باسمهم ورحل الفلسطينيون إلى الشام وأقاموا بساحل البحر بين يافا وسهول مصر بأرض كنعان وعاشوا فيها وحاكمها ملك مصر واستقرت طائفة المشواشيين الذين يسميهم مانيطون الحبر المصري

(ماكسير) في الناحية الأخرى من الدلتا وأقطعهم رمسيس هناك أرضاً وصارت رجالهم في ليبيا وسواحل النيل جنودا تحت قيادة المصريين وامتازوا بالبسالة والإقدام والمثابرة على الحروب.

قال بعض المؤرّخين ولما خرج الملك رمسيس الثالث لقتال الأعداء أقام أخاه المسمى (أرمايس أو بتناور) حاكماً متصرفاً على مصر بالنيابة عنه بشرط أن لا يلبس التاج الملوكي وأن يراعي حقوق زوجة أخيه رمسيس أمّ أولاده فبينما هو يقاتل، إذ وردت إليه الأخبار من رئيس كهنة المصريين بأن أخاه (أرمايس) لم يعمل بوصيته وأنه أقام راية العصيان واستبدّ بالملك فكرّ رمسيس راجعاً إلى مصر ودخل مدينة تنيس واستولى على سرير الملك ولبس التاج الملوكي فهرب (أرمايس) وهاجر إلى بلاد اليونان، واليونان يسمونه باسم (دانوس). وقال هيرودوتوس المؤرخ أنه حين رجوعه أي رجوع رمسيس من غزوته جاء إليه أخوه (أرمايس) الذي كان حاكماً على مصر بالنيابة عنه ودعاه هو وزوجته وأولاده إلى الحضور في وليمة أعدها له في قصره بمدينة صان وتظاهر بتهنئته وأبدى له البشاشة والفرح فأحسن الملك فيه ظنه ولم يعتقد أن أخاه يظهر خلاف ما يبطن والحقيقة أن أخاه أضمر له السوء والهلاك فلما استقرّ بالملك المقام أضرم أخوه النار في القصر ولم يشعر الملك بذلك فلما أحس هو وعائلته بالحريق فرّوا هاربين ونجوا من هذه المكيدة.

ولما صفا للملك رمسيس الحال نهض إلى إصلاح العمارات فوسع معبد الكرنك وأصلح هيكل لقصر وغيره من عمارات الأقاليم البحرية وزاد في قرابين المعبودات وفي الاحتفالات الدينية والمواسم والأعياد. (قال صاحب العقد الثمين): ويرى على حيطان هيكل مدينة. (آبو) أن الملك رمسيس هذا كان متزوّجاً بامرأة أجنبية من آسية أو من بلاد الحيثيين تدعى (هيمارو صاث) وأبوها يدعى (هيبواتر وصاث) رزقت من رمسيس باثنين وثلاثين ولدا منهم ثمانية عشر ذكرا وأربع عشرة أنثى وأكثر أسمائهم تلاشت ولم يبق منهم سوى العشرة الأول، وهم الأمير رمسيس الأوّل، وكان قائد المشاة. فلما تولى الملك لقب برمسيس الرابع ثم الأمير رمسيس الثاني، ولما تولى الملك لقب برمسيس السادس، والأمير رمسيس الثالث ناظر الاصطبلات ، ولما تولى الملك لقب برمسيس السابع، والأمير رمسيس الرابع ناظر الاصطبلات، ولما تولى الملك لقب برمسيس الثامن والأمير يراهيو ناميف أول قائد للعربات الحربية والأمير منتحوحي خوبشف قائد الجيوش والأمير رمسيس الخامس الملقب (بمريتوم) كان رئيس الكهنة في المطرية ثم صار ملكاً، والأمير رمسيس السادس الملقب (بخاموس)

رئيس كهنة معبد (بتاح سوكـار) في منف والأمير رمسيس السابع الملقب (بأمون حي خوبشف) والأمير رمسيس الثامن ولقبه (ميامون). اهـ.

ومما تقدّم يستدل على أن الدولة الملوكية المتمـمة للعشرين كانت سعيدة الطالع، وأن هذا الملك قد أعلى شأن المملكة المصرية ورقاها مراقى الـعز والرفاهية كما كانت في القدم. ولما كانت السنة الثانية والثلاثون من حكمه اعتزل الأشغال، وأشرك معه ابنه رمســيس الرابع في الحكم إلى أن مات بعد ذلك بقليل ودفن في قـبره الذي بناه في بيبان الملوك فاستقل ابنه رمسيس الرابع بالملك وهو بكر أولاده وولي عهده وقائد جيوشه المشاة.

(فـي الملك رمسـيس الرابع)

لما استـقرّ به المنصب الملوكي وأخذ في تدبيـر أمور الرعية. قـام عليه في السنة الثانية من حكمه أهل آسية وخرجوا عن طاعته فركب عليهم، وقاتلهم وأعادهم إلى الطاعة صاغرين ثم عنى بالتـجارة فسهل أسبابها وفتح لها طـريقاً ما بين مصر وبلاد العرب من ناحـية (قفط) وأصلح شؤون الرعـية بسن القوانين، وإيجـاد النظام ومال إلى محبتـهم فأحبوه كثيـراً وأثرت البلاد في أيامه وأخصبت، وكان واسـع السياسة ميالاً إلى توسيع حدود المملكة مولعاً بإبداع مـا يؤثر عنه، وقد وسع معبد (خونسو) بطيبة وعمل رسوماً بالحفر على حيطان وأعمدة معبد الكرنك. ويقال إن مدّة حكمه كانت طويلة جداً، ولم يذكـرها أحد من الكتاب وقد مات فتـولى الملك بعده أخوه رمسيس الخامس وهو الملقب (برع أوسرماس خبرزع).

(في الملك رمسيس الخامس)

قد اختلف أصحاب التاريخ في رمسيس الخامس هذا إلى رمسيس الثالث. فقال بعضهم: إنه لم يكن من ذرية رمـسيس الثالث (وقال بعضهم غـير ذلك أما من قال أنه لم يكن من ذرية رمسيس الثالث) فقد نسب ارتقاءه سرير الملك وقبضه على زمام حكم البلاد بعد موت رمسيس الرابع ابن رمـسيس الثالث إلى الخديعة والغش وذلك أنه لما ظهر الاختلال في داخلية البلاد وكـثرت الدسائس في آخر أيام الملك رمسيس الرابع المذكور ظهر هذا الملك بمظهر الخديعة، واختلس الملك لنفسه ونقش اسمه على الآثار بعد اسم سلفه رمسيس الرابع، وانتحل النسبة إلى العصابة الملوكية، فلما تولّى بعده الملك رمـسيس السادس مـحا اسمه المكتـوب بينه وبين أخيه رمـسيس الرابع، ونقش اسمه مكانه لاتصال سلـسلة العائلة بدون فاصل أجنبي عن بيت الملك، وبني

رمسيس الخامس المذكور له قبراً في بيبان الملوك ظاهرا على ربوة في آخر الوادي وعليه نقوش تدل على وقائع فلكية ورموز دينية مثل رسم فلك الشمس وما تقطعه في اليوم والليلة، ورسم عدد ساعات اليوم والليلة أيضاً وجداول مطالع الكواكب وحلولها في البروج وأحكام النجوم وتناسخ الأرواح والنص على ثواب المحسن وعقاب المسيء، وذكر الحروب التي وقعت في أيامه. ويقول بعض المؤرّخين أن مدّة حكم هذا الملك كانت عشرين سنة فلما مات تولى بعده رمسيس السادس.

(في الملك رمسيس السادس)

(الملقب)

(بنباميامون)

(وفي الملك رمسيس السابع، ورمسيس الثامن ومیامون مرتيوم، ورمسيس التاسع)

لما استقرّ برمسيس السادس هذا المنصب الملوكي اهتم ببناء بيوت العبادة والهياكل العظيمة، وكانت له عناية تامة بالمعبودات وعاداتها المقرّرة واستكشف في أيامه المنجمون من المصريين نجم الشعري اليمانية، وبنوا على استكشافه حسابهم الفلكي، فأمر برسم هذا النجم على مقبرته التي أنشأها في بيبان الملوك، وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف قبل الميلاد المسيحي كما قاله (بيوت) الفلكي الفرنساوي في حسابه. قال بعض أصحاب التاريخ من اليونان: وقد كان المصريون يحسبون سنتهم التوتية ثلثمائة وخمسة وستين يوماً واستمروا على هذا الحساب الأزمان الطوال ثم تبين لهم برصد الشعري اليمانية اختلاف حسابهم ونقص سنتهم ربع يوم فبتكميل ربع يوم في الحساب تكون السنة التوتية ثابتة على حالة واحدة ووجدوا الفرق بين السنة المختلفة، والسنة الصحيحة في كل مائة وعشرين سنة شهراً كاملاً وبضم هذا الشهر وزيادته يتكوّن منه في كل ألف وأربعمائة وستين سنة زيادة ثلثمائة وستين يوماً سنة كاملة وهي الفرق بين السنين المختلفة والسنين الصحيحة فبكبس هذه السنة في تلك المدة يوافق في آخر الدور أول السنة الصحيحة لأوّل السنة المختلفة، ويوافق طلوع الشعري اليمانية فصار تصحيح السنة التوتية على هذا الوجه يسمى عند القدماء (بالدور الشعروي). قالوا: ووجه هذا التصحيح أن الألف والأربعمائة والستين سنة المختلفة بإضافة سنة الفرق عليها للتصحيح تكون ألفاً وأربعمائة وستين سنة صحيحة وحينئذ يكون عدد دورهما بهذه الإضافة واحدا لأن مقدار أيام كل

منهمــا مساو لمقدار الآخــر في العدد فلذا صح التحــرير والتصحيح لتــوفيق السنين، وكان تاريخ هذا التصحيح في أواخر القرن العشرين قبل الميلاد المسيحي . اهـ.

قال صاحب العــقد الثمين: وقد وجد على صخــرة ببلاد (النوبة) بجبل (أنيب) الذي على شاطىء النيل الأيمن حذاء إبريم على بُعد خمسين كيلو مترا من أبي سنبل نقوش لرجل مصري يدعى (بني بن خرونفر) كان في عصر هذا الملك يعني رمسيس الســادس رئيســاً على إقليم (واوا) وحــاصلهــا أن هذا الرجل أوقف لتـمثـال الملك رمسيس السادس أربع قطع من الأرض الزراعية المجـاور بعضها لمدينة هيكل الشمس بالدير وبعضها لمدينة (أما) المعروفة أيضاً بإبريم البالغــة مساحتها ألفا وخمسمائة ذراع من ضرب خمــسة عشر في مائة وقطعــة أخرى من الأرض الطفلية غيــر مدرجة في سجل الزراعة تبلــغ مساحتهــا ألفا ومائتي ذراع حاصلة من ضــرب أربعة في مائتين واثنين في مائتين وأنه أوقف غيطا في أرض عالية تدعى (رفــتي) وجعل زرعها معداً لأكل الثــور الذي يذبح كل سنة قرباناً لتـمثـال الملك المذكور، ويرى في آخــر هذه النقــوش وصية مــعناها كل من تعــدّى على حدود هذه الأراضي التي أعــرضنا عن ذكرها هنا لعدم فائدتهــا جازاه (أمون) جزاء مضاعفاً وتجازت المــعبودة (موت) امرأته والمعبــودة (خونو) أولاده ولحقه الجــوع والظمأ والذل إلى أن يهلك في تلك الأرض اهـ. ملخصاً من تاريخ بروكش.

وكان رمسيس السادس المذكور عظيم الشوكة كــبير المهابة، وقد تغلب على كثير من البلدان وعلى إقليم (آهي) وعلى بلاد الذهب المســماة (إكينا) وأخذ منهــا الجزية وبسط حكمه على بلاد الزنوج، وأقام عليهــا الولاة والحكام لجباية الأموال، ومات، فتولى الملــك بعده الملك رمسيس الســابع الملقب بـ (رع أوسر ماميــامون استبن رع) قال أهل التاريخ وهو أخو الملك رمسيس السادس ولم يعلم من تاريخ حياته وأعماله شيء يذكر ولا المدة التي حكمهــا ومات فتولى الملك بعده رمــسيس الثامن الملقب بـ (رع أوسرمــاخون امن) قالوا وهو أخــو رمسيس السادس أيــضاً ويظن أنه حكم مع أخيه رمسيس السابع فكانت مدة حكمهــما واحدة ولم يعلم لهما شيء من أخبارهما ولا آثارهما أيضاً، وبموت هذا أيضاً حكم بعدهما الملك (ميامون مرتيوم) ثم رمسيس التاسع وهو (سبتاح) الملقب بـ (سنحعــن ميامون). قال أهل التاريخ: ولم يعلم من سيرتهما شيء يذكر وماتا فتولــى الملك بعدهما الملك رمسيس العاشر الملقب بـ (نفر كاوورع استبن رع) الذي سيأتي ذكر أخباره بعد.

(في الملك رمسيس العاشر)

(الملقب)

بـ (نفر كاوورع استبن رع)

كان لهذا الملك آثار كثيرة بالقرنة والكاب وقد وجد له دفتران محفوظان بمدينة لندن عاصمة الإنكليز أحدهما فيه حساب السنة الثانية من حكمه، والثاني فيه حساب سبع عشرة سنة من أوّل ستة عشر أمشير سنة واحد إلى أحد عشر أمشير سنة سبع عشرة من حكمه، وله بعض عمارات أخرى مهمة ونقوش من هذا القبيل، قال صاحب العقد الثمين: ومنها النقوش التي على حيطان هيكل (أمون رع) بطيبة الدالة على علو شأن الكهنة في عصره وعلى بعض ملحوظات تاريخية ومحصلها أن رؤساء كهنة أمون بطيبة أخذوا من عهد رمسيس الثالث في الظهور ونفوذ الكلمة شيئاً فشيئاً مع كل ملك إلى أن آل ملك مصر بعد انقراض هذه العائلة يعني الرمسيسية إلى (حرحور) الذي هو سادس الكهنة المذكورين الذين هم (روى ـ وروما ـ ومرى بتست ـ ورمسيس نخت ـ وأمون حتب ـ وحرحور) المذكور.

ومما اشتهروا به في أيام هذا الملك أن (أمون حتب) لما تولى رياسة الكهانة على معبد (أمون رع) الموجود بطيبة بعد موت أبيه (رمسونخت) تحبب كثيراً إلى الملك وتداخل في أمور الحكومة حتى وكل الملك لعهدته تجديد عمارة الهياكل وغيرها من الأشغال الجليلة التي كانت من وظائف الملوك ومدحه بخطبة عظيمة بعد أن كان المدح من الكهنة للملوك فكان ذلك باعثاً على تقدّم هؤلاء الكهنة وتداخلهم في أمور الحكومة وتقرّبهم إلى السدّة الملوكية كما يشهد بذلك صريح النقوش المكتوبة على الحائط الشرقي من هيكل طيبة ونصها:

أن (أمون حتب) ولي العهد قام بدل أبيه (رمسونخت) رئيساً على كهنة (أمون رع) سلطان المعبودات بطيبة . اهـ.

فكان انتحال لقب ولي العهد لنفسه تمهيداً لتنفيذ ما قد وطن النفس على عمله وهو أخذ الحكم لنفسه أو لمن يأتي من الكهنة بعده، ولذا تعدى على عمل الملوك فقال:

إني لما وجدت هذا البيت المقدّس المعدّ من قديم الزمان لكهنة (أمون رع) آل إلى الدمار. أردت أن أصلح ما فيه كما فعل (أوسرتسن الأوّل) في أيامه فشرعت في بنائه وجدّدته بعمل جيد وصناعة متقنة وقوّيت حيطانه من جميع جهاتها وأتممت

بناءه وصنعت أعمدته وأمسكتها بحجارة كبيرة من أسفلها وأعلاها بعمل متقن وصنعت له باباً كبيراً بمصراعين من خشب السنط بقفل محكم وأتممت سوره الكبير المطل على جهة (محي) من الحجر وبنيت فيه بيتاًجديداً عالياً ليكون مسكناً لكل رئيس على كهنته ونضدت هذا الباب الكبير بخشب السنط وجعلت مفاتيحه من النحاس الأحمر، وطليت التماثيل بالذهب النقي والفضة، وبنيت فيه باباً كبيراً بالحجر يفتح إلى بحيرة المعبد من الجهة القبلية لأخذ الماء منها لغسل المعبد وأحطت جميع المعبد بسور، ثم نصبت الأحجار الشامخة المنقوشة على بابه الكبير، وركبت مصاريع الأبواب المتخذة من خشب السنط، ونصبت أمامها تمثالاً من حجر النحت الكبير، ودهنت دائرة النقوش باللون الأحمر وكتبت عليها اسم الملك وبنيت خزانة للأموال في الأرض داخل القاعة الكبيرة، أما الأعمدة الكبيرة فصنعتها من الحجر والأبواب من خشب السنط الملوّن وبنيت أيضاً حجرة للملك، وأنشأت خلف الكيلار محلاً من حجر لوضع أدوات المعبد فيه، وجعلت أبوابه ومصاريعها من خشب السنط ونصبت في الحوش الأول الكبير تماثيل لكل رئيس من كهنة (أمون رع) وأنشأت بساتين كالبساتين التي على بحيرة معبد (اشر) في الكرنك، وغرست فيها الأشجار إلى أن قال أفضل سيدي (أمون رع) سلطان المعبودات وأعترف له بالعظمة والحكمة والقوّة وأطلب منه للملك ولنفسي الحياة والصحة والعافية وطول البقاء. اهـ.

فلما تم بناء الهيكل المذكور على ما وصفه رسم الملك لمن حوله من الأمراء والوزراء بأن يعطوه العطايا العظيمة جزاء ما فعله من الذهب والفضة. فلما كان اليوم التاسع عشر من هاتور من السنة العاشرة من حكم رمسيس العاشر المذكور حضر (أمون حتب) فى الحوش الأول من معبد (أمون رع) وحضر أمراء الملك وهم (أمون حتب) مستشار الملك وأمين خزانته (ونس أمون) مستشار الملك (ونفركا أم بيامون) كاتب الملك وترجمانه ومستشاره. فلما انتظم محفلهم حضر الملك وألقى مقالة مدح فيها (أمون حتب) وهي: دعوت (مونتو) معبود الحرب و(أمون رع)، و(تحوت) صاحب الكلام القدسي ومعبودات السماء والأرض أن يكونوا شهداء عليّ وأشهدت نفسي وأنا رمسيس العاشر ملك مصر الأكبر، وأشهدت أولاد وأحباب المعبودات على أن يكون التوزيع والتمتع بمنافع أشغال الأهالي فيما يختص بمعبد (أمون رع) سلطان المعبودات تحت نظارتك وتعطي لك الإيرادات كافة وأن تستلم الضرائب وتتكفل بإدارة خزائن الأموال ومخازن المأكولات وشون الغلال التابعة لمعبد

(أمون رع) سلطان المعبودات لتكون على أحسن حالة وعلى ذلك أكافئك أيها التابع العظيم الممتاز وأكلفك بهذه الوظائف لتقوى بها على ما فيه الإصلاح ولما شاهدت فعلك تعجبت منه وأصدرت أمري بالإنعام عليك بالذهب والفضة وغيرهما مكافأة لك وأنطت بذلك أمين خزانتي والمستشارين (نس أمون ـ ونفركا أم بيامون).

فعند ذلك قام المستشاران ووضعا في عنق (أمون حتب) عقدا من ذهب وحلياه بأنواع الحلي كما يشاهد ذلك على صورته المرسومة في الحجر بمعبد أمون في الكرنك. اهـ.

ومن هذا الحين أخذت شوكة (أمون حتب) رئيس الكهنة المذكور في العظم واتسعت كلمته وعلت وتمكن من الملك وأرباب دولته وتداخل في جميع أمور المملكة حتى آلت حكومة البلاد وانتقلت إلى عقبه كما سيأتي بيانه في محله إن شاء الله تعالى.

ولما مات الملك رمسيس العاشر المذكور، تولى بعده الملك رمسيس الحادي عشر وهو الملقب برع أوسرما (اسبين رع).

(في الملك رمسيس الحادي عشر)

كان هذا الملك عظيم الكلمة واسع المهابة امتد حكمه على بلاد الايتيوبيا وجميع بلاد سوريا، ولم يستدل له على شيء من الآثار سوى ما وجد منقوشاً على حجر مستخرج من هيكل (خونسو) وهو موجود بالخزانة الملوكية بمدينة باريس عاصمة الفرنسيس. وحاصل ما على الحجر المذكور أنه بينما كان هذا الملك في الجزيرة بين دجلة والفرات التي كانت من ملحقات الديار المصرية في ذلك الحين، وفد عليه جميع ملوك الأمم الخاضعة لسلطانه وقدموا له الجزية المضروبة عليهم من الذهب والحجارة الكريمة والعطريات اللطيفة من محصول بلاد العرب، وكان ممن أرسل الجزية إليه ملك (بختانا) أرسلها مع ابنته وكانت جميلة، فلما رآها الملك أحبها ومال قلبه إليها فتزوجها وسماها من هذا الحين (نفرورع) ورجع بها إلى ديار مصر وعمل لها الولائم والأفراح، ولما كان اليوم الثاني والعشرون من أبيب سنة خمس عشرة من حكمه سار إلى مدينة طيبة التي هي تخت الملك يومئذ لزيارة (أمون رع) يوم عيده البهي بطيبة الجنوبية، فبينما هو هناك إذ دخل عليه أحد حجابه وأخبره بأن بالباب رسولاً وفد من قبل صهره ملك (بختانا) ومعه هدية عظيمة برسم الملكة فأمر به فتمثل بين يديه. وقال: السلام عليك ياشمس الأمم، نسألك العيش في كنفك ثم

تذلل. وقال: إني أتيت إليك أيها الملك العظيم لأخبرك عن (بنت رشت) شقيقة الملكة (نفرورع) فإنه قد أصابها مرض في جسمها فأتيت أسألك إرسال طبيب ينظر في شأنها. فلما سمع الملك مقاله أمر بالأطباء والروحانيين فتمثلوا بين يديه فقال لهم: قد دعوتكم لتختاروا من بينكم رجلاً ماهراً حاذقاً فأتوه بكاتب الملك واسمه (تحوت أم حب) فرسم له بالمسير مع الرسول إلى بلاد (بختانا) فلما وصل إلى المدينة التي فيها (بنت رشت) وجدها ممسوسة بجني ورأى نفسه غير كفء لدفعه عنها وأخبر ملك بختانا بذلك فأرسل الملك المذكور إلى ملك مصر يقول: أيها الملك العظيم والسيد المفخم تكرم علينا ثانياً بإرسال معبود مع كاهنه إلى بلادنا لإخراج ذلك الجني، وكان وصول هذا الطلب إلى مصر في غرة بؤنة سنة ست وعشرين الموافق يوم عيد (أمون) وكان الملك يومئذ في مدينة طيبة فقام من ساعته ودخل على (خونسو) معبود طيبة الثابت في كماله. وقال له: أيها السيد العظيم قد جئت إليك من أجل بنت أمير بختانا، ثم أمر الملك فأنزلوا المعبود (خونسو) وكاهنه في سفينة كبيرة وهيأ لهما خمساً من السفن وكثيراً من الخيول والعربات لتسير على يمينه ويساره عند مروره في بلاد بختانا، فلما وصل ذلك المعبود إلى المدينة التي فيها (بنت رشت) من تلك البلاد بعد مضي سنة وخمسة أشهر جاء ملك بختانا لمقابلته ومعه قومه وامرأته وألقى نفسه على الأرض وتقدم إليه. وقال: لقد جئت إلى بلادنا وأفرحتنا بأمر صهرنا ميامون رمسيس ملك مصر، ثم أتوا بالمعبود إلى المكان الذي كانت فيه (بنت رشت) فسرت كرامة المعبود فيها حتى برئت من مرضها ونطق الجني الذي كان عليها أمامه قائلاً: أهلاً وسهلاً بالمعبود الكبير مزيل الأذى عن بلاد بختانا هي لك وأهلها جميعاً عبيدك وأنا أيضاً عبدك فسأعود من حيث أتيت لينشرح صدرك بإتمام الغرض الذي دعيت إليه، غير أني أرجو منك أن تأمر بأن يعملوا لي في يوم واحد مهرجاناً من قبل ملك بختانا فأشار كاهن المعبودات إلى ملك بختانا أن اعمل قرباناً عظيماً لهذا الجني وعند تلاوة العزيمة على الجني المذكور، كان ملك بختانا واقفاً مع قومه وجلا فعمل الملك القربان وأولم (لخونسو) وللجني وليمة عظيمة، ثم ذهب الجني إلى حيث أمره المعبود (خونسو) الحاذق، ففرح ملك بختانا وقومه فرحاً شديداً. وقال في نفسه يجب أن أبقى هذا المعبود في بلادي وأعوقه عن الرجوع إلى ديار مصر فمكث في بلاد بختانا ثلاث سنين وتسعة أشهر، وبينما الملك نائم في سريره إذ رأي أن المعبود قد خرج من ناووسه العظيم كأنه باشق من ذهب قد بسط أجنحته وطار إلى مصر فاستيقظ فوجد نفسه مريضاً. فقال لكاهن (خونسو)

إن المعبود يريد أن يفارقنا ويذهب إلى مصر وأمر فوضعوه على عربته وأطلق سبيله وأعطاه كثيراً من أنواع الهدايا العظيمة فلما وصل سالماً إلى طيبة توجه إلى معبد (خونسو) ورفع إليه أنواع الهدايا الثمينة التي أهداها إليه ملك بختانا فلم يأخذ منها شيئاً وبعد ذلك رجع (خونسو) الحاذق إلى معبده في اليوم الثالث عشر من أمشير سنة ثلاث وثلاثين من حكم الملك رمسيس ميامون مانح الحياة ومخلد الذكر. انتهى باختصار.

ولما مات رمسيس الحادي عشر هذا تولى الملك بعده رمسيس الثاني عشر وهو الملقب (رع من ما استبن بتاح).

(في الملك رمسيس الثاني عشر)

لما تولى الملك رمسيس الثاني عشر هذا زين مدينة طيبة بالمباني العظيمة في بيوت المعابد وغيرها من بقية الآثار وزين معبد (خونسو) في المدينة المذكورة بكثير من التماثيل الصغيرة كما زين مقابر العائلة الرمسيسية. وقد وجد مريت باشا مدير دار التحف المصرية في سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية حجرا في شونة الزبيب بالعرابة المدفونة، فحوى ما هو منقوش عليه أن رمسيس هذا طال حكمه سبعاً وعشرين سنة. قالوا: وخط هذه النقوش يضاهي تقريباً الخط المكتوب على الورقة القديمة المحفوظة الآن في متحف تورينو بإيطاليا المؤرخة في اليوم الخامس والعشرين من كيهك من حكم الملك المذكور وحاصل ما نقله منها بروكش في فهرست تاريخه، أن هذا الملك أصدر أمراً إلى (بيانخاس) حاكم الايتيوبيا ورئيس الأمم الأجنبية التابعة للدولة المصرية يقول فيه سيصل إليك مرسومي المتضمن لما في الجواب المعطي للرئيس (ياني) مستشاري الذي سافر بأوامري فبوصول هذا الأمر إليك اشترك معه في إنجازها بالحسنى لأنه هو المكلف في الأصل بأدائها وعليك أن تلاحظ توابيت المعبودة وتضعها في سفينة وأن تأتي بها معه إلى المكان الذي أعد لنصب التماثيل فيه مع إحضار الأحجار النفيسة لتسليمها للصناع واحذر من التأخير في إنجاز هذه المطلوبات وإلا خلعتك وعاملتك على مقتضى ما يصل إلينا من أخبارك. قالوا: فإن صح أن هذه الورقة محررة في عصر هذا الملك كان حكمه ممتدا إلى بلاد الحبشة غير أنه كان ضعيف القوة قليل البطش، ولم يزل كذلك حتى توفى وتولى بعده الملك رمسيس الثالث عشر الملقب (برع خبر ما استبن رع).

(في الملك رمسيس الثالث عشر)

قد كان هذا الملك خامد الهمة ضعيف العزيمة ذابل الشوكة، وكان المتولي في

أيامه على رئاسة كهنة (أمون رع) سلطان المعبودات الكاهن (حرحور) وهو سادس العائلة التي تقدّم ذكر اسم كل منهم في محله، فلما رأى (حرحور) المذكور من ضعف عزيمة رمسيس الثالث عشر تطاول إلى الأعمال السياسية وتداخل في أمور البلاد وأحكامها، وضم إليه قومه وأخذ في مخاصمة الملك وعائلته، وتظاهر بالعداء فاختل نظام الدولة وتفرقت كلمة أهل البلاد وزالت سطوة الحكومة وانحطت شوكتها وخرجت جملة بلاد عن حيازتها فضاقت حدودها وأحاطها من جميع الجهات أعداء أشدّ قوّة منها واقتدارا وما زالت تنسير القهقري حتى انتزعها (حرحور) رئيس الكهنة المذكور من رمسيس الثالث عشر وزال الملك عن الدولة المتممة للعشرين التي آخرها رمسيس الثالث عشر المذكور، وقامت بعدها الدولة الحادية والعشرون وأولها (حرحور) رئيس الكهنة وهو من مدينة طيبة.

(الفصل الرابع)

(في ملوك الدولة الحادية والعشرين التنيسية)

كان ابتداء ظهور هذه العائلة سنة عشر ومائة وألف قبل الميلاد أي سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وألف قبل الهجرة وعدد ملوكها أربعة. وقال العلامة ماسبرو بل هم سبعة نقلاً عن الآثار، ورتبهم على الترتيب الآتي الكاهن (حرحور) والكاهن (بعنخي)، والكاهن (بينوزم) الأول والملك (بينوزم الثاني)، والكاهن (مزاحرتي)، والملك (منخوبر يرى)، والكاهن (بينوزم الثالث). ولكنه لم يجزم بصحة هذا الترتيب حتى تنكشف له حقائق ما في الآثار ومع أن هذا الترتيب المنقول عن الآثار يكاد يكون في حكم الثابت المحقق، فلم يأتنا أصحاب التاريخ إلا بأخبار ثلاثة منهم ليس إلا وذكر بعضهم أسماء الأربعة الأخر دون ذكر أخبارهم. وقال أن مدة ملكهم جميعاً كانت مائة وثلاثين سنة. وأن أصل هذه العائلة من مدينة تنيس التي هي صان شرقية؛ وكانت هذه المدينة من أعظم مدن الديار المصرية هواء وتربة وأتقنها نظاماً وترتيباً وفيها كثير من البساتين، والكروم، والنخيل، والمزارع الواسعة، والأشجار العظيمة، والخلجان الكثيرة، والترع التي يجري فيها الماء صيفاً وشتاء ثم يصب في البحر الملح من جميع جهاتها. وكانت هذه العائلة في عصر سيدنا سليمان وأبيه داود عليهما السلام. ويقال إن سيدنا سليمان تزوّج بنت أحد فراعنتها وأمهرها مدينة غزة، وأول ملوك هذه العائلة الكاهن حرحور وهو أحد الثلاثة الذين جاء أهل التاريخ على ذكر أخبارهم تفصيلاً.

(في الكلام على الكاهن حرحور)

قد كان هذا الكاهن في أول أمره خاضعاً معترفاً بالتابعية للملك رمسيس الثاني عشر فلما تولى الملك رمسيس الثالث عشر وأحس بضعف شوكته خرج عن طاعته واتخذ لنفسه الألقاب الملوكية، فسمى نفسه أول كاهن (لامون)، وولى العهد، وحامل المروحة على يمين الملك، وقائد الجيش في الأقاليم القبلية والبحرية، وأمين خزائن الأرض كيوسف بن يعقوب عليهما السلام ، وكان رمسيس الثالث عشر لا يلتفت إلى ذلك ولا يفكر في المآل فكبرت كلمة (حرحور) وانضم إليه جميع الكهنة، وخرج على رمسيس الثالث عشر ونزع منه ملك البلاد واستولى على الأقاليم القبلية والبحرية وتصرف في جميع الأمور ورسم نفسه على جدران هيكل (خونسو)، (وسيتي) معبودة (انبو) تقدم له التاج الأحمر الخاص بالإقليم القبلي، والمعبود (حور) يقدّم له التاج الأبيض الخاص بملك الإقليم البحري ، قال صاحب العقد الثمين: وكتب على هذا الهيكل يعني هيكل (خونسو) ما معناه إني وسعت مصر وأتت إليّ رؤساء (روتنو) خاشعين لسطوتي إلى غير ذلك من عبارات المدح. اهـ.

قال المؤرخون: ولم يكن شيء من ذلك البتة فقد كانت البلاد في غاية الاختلال والضعف، ولم تقو على رد ما خرج من البلاد الأجنبية وقد منعتها الشام من الوصول إلى حدودها، ولم يبق في وسعها غيرالدفاع لا الفتوح كما كان في الأيام السابقة. وقد جمع حرحور الكاهن المذكور من بقى من العائلة الرمسيسية ونفاهم إلى الواحات الكبرى تشفياً وانتقاماً وهم رمسيس الرابع عشر، ورمسيس الخامس عشر، ورمسيس السادس عشر، قالوا: وكان رمسيس السادس عشر المذكور متزوّجاً بابنة ملك آسية المدعو (بلاشارنس) فرزق منها بولدين وبنت وهم الأمير (صيحور أوف عنخ) والأميرة(صي أن نوب أوص عنخ)، (والنمروذ) الذي تولى قيادة الجيوش المصرية على عهد حرحور وهو المعروف (بنمروذ الخليل إبراهيم عليه السلام). ولما مات حرحور المذكور تولى الملك بعده ابنه (بعنخي).

(في الكاهن بعنخي)

قد كان بعنخي الكاهن المذكور ضعيف الشوكة قليل التدبير والسياسة فلما رأي أهل البلاد منه ذلك نهضوا إلى الثورة وهب من بقى من العائلة الرمسيسية إلى إثارة الخواطر وتحريض الأهالي على الخروج فاختل نظام الحكومة وساء تدبير بعنخي الكاهن فلم يتمكن من نقش اسمه بين أسماء الملوك، وظهر رمسيس السادس عشر

في أيامه واستعان بصهره ملك آسية، المدعو (بلاشارنس) فسير إلى مصر طائفة من أهل الشام وكان من أمرهم في ذلك العهد ما سيذكر في محله، ومات بعنخي المذكور قبل أن تصل إليه النجدة من صهره ولم يأت عملاً يذكر، فلما مات تولى بعده ابنه (بينوزم) الأول الملقب (خع خبرع استبن أمن).

(في الكاهن پينوزم الأول)
(الملقب)
(بخع خبرع استبن أمن)

تولى بينوزم الملك بعد أبيه في خلال القلاقل والاضطرابات وظلت الدسائس قائمة إلى السنة الخامسة والعشرين من حكمه، اشتدت الفتنة وقامت على ساق بين الإقليمين القبلي والبحري بسبب إبعاد العائلة الرمسيسية إلى الواحات وعلا لهيبها فلم يقدر (بينوزم) الكاهن على إطفائها لاشتغاله بدفع إغارة أهل الشام الذين كانوا أتوا لنجدة رمسيس السادس عشر صهر ملكهم فأرسل ابنه المدعو منخبر رع إلى مدينة طيبة لإرجاع الأمور إلى سابق مجراها وإطفاء نيران الفتنة فسار إليها وما زال بها حتى سكنت الفتنة وزالت فلبث بطيبة وأقام نفسه رئيساً على كهنة (أمون رع) معبودها بدل أبيه (بينوزم) واستقدم من بقى من الرمسيسيين من الواحات ، قال صاحب العقد الثمين: وهذه القصة هي المنقوشة على حيطان هيكل (خونسو) بطيبة وحاصلها:

أنه في السنة الخامسة والعشرين أتى (منخبر رع) ابن الملك بينوزم رئيس الكهنة،وقائد الجيش بقوة عظيمة إلى الوجه القبلي ووطد الراحة في البلاد، وقمع البغاة واقتص منهم بما يناسبهم، وأعاد النظام إلى حالته الأصلية ثم توجه إلى مدينة طيبة فرح الفؤاد فاستقبله أهلها بمدائح التهاني، وبعد ذلك أخرجوا تمثال (أمون رع) في محفل عظيم لمكافأة (منخبر رع) على صنعه بحضرته فأمر أمون بجلوس (منخبر رع) على كرسي والده (بينوزم) وجعله رئيس كهنته وقائد جيوش الوجه القبلي والبحري، فصنع (منخبر رع) في نظير ذلك خيرات عظيمة، وفي أول يوم من سنة ست وعشرين الموافق لمولد (إزيس) وموسم (أمون رع) أخرجوا أمون هذا في موكب عظيم ووضعوه أمام باب القاعة الكبرى من معبده فدخل عليه (منخبر رع) وتضرع إليه بأدعية كثيرة وقرب إليه قرباناً عظيماً. ثم قال له: أيها السيد العظيم لقد كثرت الشكوى من غضبك على الناس المنفيين في الواحات فأبتهل إليك أيها المعبود المصور

لكل موجـود ويا مخرج الغذاء للمـعبودات والموجودات ويا نور الشـمس فى النهار وضياء القـمر فى الليل، يا من يسرى فى السماء بسـلام دون وقوف وإهمال. انظر إلى أولئك الذين نفيتهم بأمرك واشف مرضاهم وارأف بهم لأنهم أمك العديدة فهل يستطيع أحـد أن يسكن غضبك لـو غضبت على شىء أنت الشـعاع المنير اسـتجب دعوتى واعف فى هذا اليوم عن الخدم الذين نفيتهم فى الواحات ليعودوا إلى مصر.

فاسـتجاب دعاءه، ثم طلـب منه ثانياً أن لا ينفى أحد من أهل مـصر إلى تلك الجهات البعـيدة. فأجاب سؤاله أيضاً. ثم طلب منه ثالثـاً أن يصرح بكتابة أمره هذا على حجـر لنشره فى البلاد فـقبل المعـبود طلبه وبعـد ذلك قال (منخبـر رع): لقد فرحت كثـيراً بتمام قصدى الذى سـتحسن به بين الخلق سيرتى. فـأنا عبدك النائب عنك فى مـدينتك من صغـرى أنت صورتنى وأظهـرتنى فى الوجود لسـرور خلقك فأعطنى عـيشة هنيـة فى خدمتك وقـدساً ووقاية من عـذابك وأرشدنى إلى طريقك واهدنى سبيلك وحبب قلبى فى بيتك العظيم ولا تحرمنى من فضلك، إلى غير ذلك من العبارات المألوفة لديهم . ثم طلب فى آخر هذه النقوش من معبوده أمون أن يبيد ويميت كل ذى سعى فى الفساد، فأجابه المعبود إلى ذلك. اهـ.

وأما الملك (بينوزم) فـإنه بينما كان مرابطاً فى الحدود لـدفع العدوّ عن البلاد إذ قدم نمروذ ملك أشـور بجيش عظيم جداً يريد التـملك على ديار مصر وضمـها إلى مملكته لا إلى معاونة الرمسيسيين أصهاره فقاتل الملك (بينوزم) وعساكره وانتصر عليه نصراً مـبيناً ونزع الملك منه، وأدخل مـصر تحت حكمـه وتصرف فى البـلاد تصرف الفاتح، وما زال بينوزم منزوياً حتى مات فدفنته أمه المسماة (مهتن أوسخ) فى مقبرة بالعرابة المدفـونة ورتبت لقبره المرتبات المعـتادة فى أعياد الأمـوات والخدم والحشم، وزال الملك من كهنـة طيبة بزوال الكاهن (بينوزم) وتولـى نمروذ على البلاد ، قـال بعض المؤرخيـن: وكان عدد ملوك هذه الدولة أعـنى دولة الكهنة الحادية والعـشرين سبعة ملوك وكـانت مدّة حكمهم جميعـاً مائة وثلاثين سنة وأصلهم من مدينة تنيس التى يسميها بعضهم أيضـاً (صان) وهى أعظم مدن مصر وكانت ذات جنات ونخيل وبها المجارى العظيمة لرى أرضها صيـفاً وشتاء كما تقدّم لك القول ، قال صـاحب العقد الثمين: قد حصل خـلاف بين بروكش وماسبرو فى شأن هذه العائلة، فذهب بروكش اتباعـاً لنص بعض الآثار إلى أن رؤساء الكهنة نزعوا المـلك من الرمسيسـية ونفوهم إلى الواحات، ثم حصلت مصاهرة بين الرمـسيسية وملوك الدولة الآشورية فـأدى جمـيع ذلك إلى تفـرق الكلمـة الأهليـة ووقوع مـصـر فى يد ملوك الدولة

الآشورية، وذهب ماسبيرو إلى أنه لما أراد رؤساء الكهنة حصر الملك فيهم عارضهم سكان الوجه البحرى وأقاموا (سمنتو) ملكا عليهم فنفى الكهنة إلى بلاد الأيتيوبيا إلا أنه بالنظر لضعفه وتفرق الكلمة الأهلية لجأ هو ومن كان معه من الملوك إلى جيرانهم فكان ذلك سببا لزوال الملك منهم وسقوط مصر فى أيدى ملوك الدولة الآشورية.

قال وأما ما يتعلق بالتنيسيين وهم أهل صان فقال ماسبيرو أنه لما أراد (حرحور) حصر الملك فيه وفى عائلته عارضه فى ذلك سكان الوجه البحرى مع أهل صان وأقاموا (سمتوميامون) ملكاً عليهم فجعل مركز حكمه بمدينة صان وتبعه فى ذلك خلفاؤه الذين اعتبرهم مانيتون ملوكاً أصليين لهذه العائلة إلى أن قال: ولضعف هؤلاء الملوك، أعنى بهم ملوك الدولة الحادية والعشرين المذكورة ، كان أهل طيبة يطيعونهم وقتاً دون وقت وكذلك الايتيوبيون خرجوا عن طاعتهم واستقلوا تحت حكم كاهن من رؤساء كهنة أمون وعصتهم أيضاً بعض بلادهم فالتجئوا إلى بعض الملوك المجاورة لهم واحتموا فيهم واختلطوا بهم فزوّجوا أولادهم بنات ملوك الإسرائيليين وأخذوا من بناتهم لأولادهم فكان هذا سببا لنزع مصر من أيديهم واستيلاء النمروذ المتقدّم ذكره عليها ، قال صاحب العقد الثمين: بين بروكش كيفية تداخل الأجانب فى بلاد مصر الذى أدّى إلى نزعها من ملوكها. فقال: إن ملوك مصر اعتادت من قديم الزمان على تكملة ما ينقص من جيوشهم من أسارى الحرب وتغالوا فى ذلك حتى زعم ملوك العائلة الثانية عشرة أنهم نقلوا أهل الشمال إلى الجنوب وأهل الجنوب إلى الشمال، وأنهم أسسوا لهم فى وادى النيل طوائف عديدة ، ولما خرجت ملوك العمالقة من أرض مصر فى عصر العائلة الثانية عشرة ، **قلت**: لعلها الثامنة عشرة كما يؤيد ذلك ما جاء فى التورات بقى غالب قومهم فى شرق الدلتا وحازوا بعض امتيازات ميزتهم عن المصريين وأطلق عليهم اسم (بى أمو) أى (بيناميت) وتحصلوا أيضاً من المصريين على وظائف مهمة كالكهانة ونحوها فأدّى ذلك إلى إدخال معبوداتهم فى الديانة المصرية فاحترمها المصريون وبنوا لها معابد فى منف.

قال: ولما تعاهد رمسيس الثانى مع الحيثيين كان ذلك سبباً أيضاً لسريان اللغة السامية فى بلاد مصر فتعلمها غالب المصريين والليبيين وحصل من ذلك تغيير وتحريف فى اللغة المصرية القديمة فاستعملوا (كريات) بدل (نوت) أى مدينة (وترعا) بدل (را) أى باب وحرفوا كثيراً من الكلمات فقالوا: (خبوشا) وشانبشا وبدل (خبش)، (وشنس) أى باب ومصباح وفضلاً عن تغيير اللغة وتداخل الأجانب فى بلادهم شيئاً فشيئاً استقلت قبيلة من الليبيين بنفسها غربىّ الدلتا فى أرض هناك استحوذت عليها

من المصريين فأدى جميع ذلك إلى أن صارت مصر غنيمة للأجانب فى آخر هذه العائلة . اهـ.

هذا وقد كان النمروذ من نسل (بياى). ويقال له (بواى) أو (بوبوايى) الشامى الأصل الشهير الذى قدم إلى مصر أثناء ملك العائلة المتممة للعشرين، وأقام ببسطة أو بضواحيها ونمت ذريته بها فزوّج ابنه الخامس (ششنق) بأميرة من بيت الملك تدعى (مهتن أوسخ) فولدت له هذا النمروذ الذى تلقب رئيس الكهنة وقائد المشواشيين، ثم ولد النمروذ ولد سماه ششنق على اسم أبيه فتولى ششنق هذا ملك مصر بعد موت ميامون سبيونخع الثانى آخر ملوك التنيسية من هذه العائلة فكان هو المؤسس للعائلة الثانية والعشرين.

(الفصل الخامس)

(فى ملوك الدولة الثانية والعشرين)

قال أصحاب التاريخ: كان سرير ملك هذه الدولة مدينة بسطة بإقليم الشرقية ومحلها الآن تل بسطة القريب من مدينة الزقازيق على بُعد بعض فراسخ وعدد ملوكها تسعة وسنو ملكهم مائة وسبعون سنة. قالوا: والغالب أن ملوكها لم يكن منهم من الغزاة وأصحاب الفتوحات إلا القليل، ويظهر أيضاً أنه كان لهم مصاهرة أو قرابة أو حب واختلاط بالأجانب لتقارب أسمائهم بأسماء ملوك الأكراد والعراقيين. ولم تكن جنودهم الخاصة بحراسة أجسادهم من المصريين المتأصلين ولا من المستوطنين بل كانوا من المغاربة. وكان أول ملوك هذه العائلة البسطية حسب ترتيب الآثار الملك ششنق الذى سيأتى الكلام عليه، وكان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة ثمانين وتسعمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وستمائة وألف قبل الهجرة.

(فى الملك ششنق الأول)

هو رأس هذه الدولة الثانية والعشرين. وتسمى أيضاً بالدولة البسطية نسبة إلى مدينة بسطة التى كانت تحت حكمها ويلقب هذا الملك (برع ونرخبراستبن رع) تملك نحو سنة تسعين وتسعمائة قبل الميلاد على ما رواه جماعة المؤرخين وثمانين وتسعمائة على رواية مانيطون. والثانى أقرب إلى الصواب ويسمى فى التوراة شيشاق. وهو الذى لجأ إليه يوربعام ملك إسرائيل مستغيثا به فنهض إلى نجدته وقصد أورشليم بألف ومائتى مركبة وستين ألف فارس وقاتل رحبعام بن سليمان

ملك يهوذا وكان فى جيوشه قوم من السود والحبشان فافتتح مدن يهوذا عنوة ونهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك، وأخذ تروس الذهب التى عملها سليمان عليه السلام ثم عاد إلى مصر ظافرا غانماً ونقش تاريخ هذه الواقعة على جدران هيكل الكرنك العظيم وكتب عليه (يهوذا ملكى) يعنى مملكة يهوذا فى قبضة يده، وقد عنى كثيراً ببناء المعابد وقطع الأحجار من جبل السلسلة لعمارة هيكل الشمس وكان أكبر أولاده المسمى (آووبوت) رئيساً لكهنة (أمون رع) وقائد جيوش الصعيد، فوكل لعهدته جلب الأحجار للعمارات الكثيرة فقام بذلك خير قيام، وأقام الملك ششنق إلى أن مات فى أحد فصول الصيف وتولى بعده ثانى أولاده المدعو (ارسرخان) وهو الملقب (برع خم خبر استبن رع) فكانت مدة حكم ششنق المذكور اثنتين وعشرين سنة وفى رواية إحدى وعشرين سنة.

(فى الملك ارسرخان الأول)

تولى ارسرخان الملك بعد أبيه ششنق رغماً عن معارضات أخيه (آووبوت) إذ قام ينازعه ويزعم أنه أحق بالملك لأنه أكبر أولاد ششنق واشتد النزاع بينهما وطال الجدال ثم استتب الأمر (لارسرخان) فارتقى سرير الملك، وقبض على زمام البلاد وعلت كلمته وهو المذكور فى التوراة باسم زاراح الحبشى وقد حارب مملكة يهوذا بعشرات آلاف من النفوس وثلثمائة عربة حربية فسار ملك يهوذا لملاقاته واصطفت جنود الفريقين فى وادى (صعد) فوقع الرعب فى قلوب جند مصر، فولوا الأدبار جميعاً وانتصرت عليهم جند يهوذا نصراً مبيناً، فلم يعد ارسرخان إلى محاربتهم ثانية ومات وتولى الملك بعده ابنه (تاكلوت) الأول الملقب (برع خبراستبن أمن نترحق أون) فكانت مدة ملك ارسرخان خمس عشرة سنة.

(فى الملك تاكلوت الأوّل)

لم يقف أصحاب التاريخ لهذا الملك على شيء من الأخبار أو الآثار ولم يعلموا شيئاً عنه وغاية ما أمكنهم الوصول إلى معرفته من أخباره أنه كان متزوّجاً بامرأة تدعى (كابوس) فولدت له صبياً سماه (أرسرخان الثانى) فلما مات (تاكلوت) المذكور قام بالأمر بعده ابنه (أرسرخان) الثانى ولقب (برع أوسر ما استبن أمن).

(فى الملك ارسرخان الثانى)

تولى ارسرخان الملك بعد أبيه تاكلوت، ولم يعلم له من المآثر التاريخية سوى أنه فى السنة الثالثة والعشرين من حكمه مات العجل المسمى (أبيس) وهو معبود

المصريين الأعظم. قال المؤرخون: وكان هذا الملك متزوّجاً بامرأتين إحداهما تدعى (كراما) والثانية تدعى (موت آووت عنخس) فولدت له الأولى ولدا سماه (ششنق) باسم جدّه فلما بلغ أشده ولاه رئاسة كهنة(بتاح) معبود مدينة منف وورث عنه إخوته من أمه هذه الوظيفة من بعده، وولدت له الثانية ولداً سماه (نمروذ ششنق) باسم جدّه، أيضاً ولما بلغ أشده ولاه رئاسة الجيش ونظارة كهنة المعبود (خنوم) فى مدينة اهناس وخلفه إخوته لأمه فى وظيفة الكهانة ثم انتقل من اهناس وصار حاكمًا على الوجه القبلى ورئيساً على كهنة أمون بطيبة ولما مات (ارسرخان) الثانى المذكور تولى الملك بعده ابنه ششنق الثانى الملقب (برع بسنحم خبراستبن امن).

(فى الملك ششنق الثانى)

قال علماء التاريخ: لم يوجد لهذا الملك من المآثر شيء يذكر، وقد انقطعت بعده سلسلة العصبة الوارثة من بيت الملك: ولذلك لما مات ارتقى على سرير الملك بعده رجل اسمه (تاكلوت) وتاكلوت هذا كان زوج الأميرة (ميموت كروما ما أمن موت أم حعت) أخت النمروذ بن ارسرخان الثانى وكان رئيساً على كهنة أمون طيبة وقائد الجيوش المصرية، وقد رزق من زوجته هذه بولد سماه (أوسورخون) وجعله رئيساً على كهنة (أمون رع).

(فى الملك تاكلوت الثانى)

(الملقب)

(برع خرخبراستبن رع)

لم يكن تاكلوت هذا من سلالة بيت الملك. وكأنه لم يتقرب إلى هذا المنصب إلا بسبب تزوّجه بالأميرة (ميموت كروما ما أمن موت أم حعت) أخت النمروذ بن اوسورخون الثانى. وفى أيامه زحف على مصر الايتيوبيون من الجنوب والآشوريون من الشمال وهددوها، فخرج أهل الشام وغيرها من ملحقات مصر عن حكمها وانكمش ملوكها الأصليون فى مدائن الأقاليم البحرية وصاروا كالولاة وهم ثلاثة ملوك (شيشاق الثالث وبيمايى وشيشاق الرابع). قالوا: وفى أيامهم جزئت مصر إلى ولايات صغيرة، وكان على كل ولاية رئيس من الليبيين تحت حكمهم واشتغل هؤلاء الملوك بجمع الخراج وإدارة الأمور الداخلية ولم يلتفتوا إلى ما كان الرؤساء المذكورون يفعلونه من الاستبداد بالأحكام والتشديد على الرعية، ولم يأخذوا

حذرهم منهم ولا من الأجانب الذين استوطنوا البلاد بسبب ضعف الحكومة وانحطاط قدرها فعظمت شوكة أولئك الحكام وتجاوزت فعالهم الحدود، وكانت تساعدهم على ذلك طوائف الجند من الليبيين الذين دخلوا في خدمة الحكومة المصرية وطمحوا بأنظارهم إلى الوظائف العالية واختلسوا الألقاب الملوكية، فخاف الملوك الأصليون وانزووا أولا فى مدينة بسطة ثم هاجروا منها فرارا من أعدائهم إلى مدينة منف واتخذوها مقرا لهم، وقامت الفوضى فى البلاد وتكاثر الخروج والعصيان فكانوا فى شاغل مستمر بدفاع الأعداء من الآشوريين والايتيوبيين وما زالوا على هذه الحال من الضعف والانحطاط حتى مات (شيشاق الرابع) الذى هو آخرهم وانتزعت الملك من بعدهم طائفة أخرى من التنيسيين وهم المعروفون بالعائلة الثالثة والعشرين، فكانت مدة حكم العائلة الثانية والعشرين المذكورة ستاً وستين سنة وقيل أكثر من ذلك.

(الفصل السادس)

(فى ملوك الدولة الثالثة والعشرين التنيسية)

كان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة عشر وثمانمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف قبل الهجرة. وعدد ملوكها أربعة ومدّة ملكهم تسع وثمانون سنة. وكان مركزها فى تنيس وهى المعروفة الآن بصان فى إقليم الشرقية، وهؤلاء الملوك الأربعة هم (بدوسابست)، (وأوسورخون الثالث)، (ويساموت)، (ودت) ولم يكن من سبب لدخول مصر فى حكم هذه العائلة سوى ضعف شوكة شيشاق الرابع الذى هو آخر ملوك الدولة الثانية والعشرين وخروج الإقليم القبلى عن طاعته وانسلاخ الكثير من ملحقات مصر كالشام وغيرها عن حكومته وانزوائه فى مدينة منف واستقلاله بحكم الإقليم البحرى إلى أن مات وظهر بعد موته التنيسيون، فاستولوا على الإقليم البحرى أولاً وأوّل ملوكهم (بدوسابست) الذى يسميه مانيطون المؤرخ (بتوباستيس) فجعل هذا الملك قاعدة مملكته مدينة بسطة، ولما استقر به الملك أخذ فى تقوية مملكته وما زال حتى نزع طيبة من أيدى الايتيوبيين وضمها إلى ملكه فعظمت شوكته وهابه أبناء جنسه وغيرهم، وطالت أيامه فحكم أربعين سنة لم يغفل فيها عن أعدائه ولم يخفض لهم جناحاً ثم مات فقام بالأمر بعده (أوسورخون الثالث) فجعل مقره طيبة وتنيس وحافظ على مملكته من الأعداء، وبالغ فى ذلك ومات بعد أن

حكم تسع سنين فقام بالأمر بعده (بسامسوت) الملقب (أوسر رع استبن بتاح بيموت) وجعل تخت مملكته مدينة منف واتبع طريق أسلافه فى اليقظة والمحافظة على مملكته ومات بعد أن حكم عشر سنين. ثم قام بالأمر بعده (دت) وهو آخر ملوك هذه العائلة، فحكم إحدى وثلاثين سنة حسب ما قاله مانيطون، قال بعض المؤرخين: وكان عصر هذه الدولة عصر محن وإحن وانقسمت فى أيامها مصر إلى عشرين ولاية فكانت كل ولاية تشتمل على عدة بلاد وجملة أقسام وعليها أمير مخصوص، واستمرت على هذه الحال مدة إلى أن ظهر جماعة من صا الحجر بالإقليم البحرى فنهضوا إلى نزع الحكومة من أيدى هؤلاء الرؤساء، وقد كانوا أضعفوها بسوء تدبيرهم، وما زالوا حتى تم لهم الأمر ثم أرادوا أن يؤسسوا عائلة جديدة تقوم بحكم البلاد وتدبير سياستها فعاكسهم الدهر أياماً وقام لمعارضتهم أولئك الرؤساء ثم لم يلبثوا أن عجزوا عن مقاومة الصاويين وأعيتهم الحيلة فى أمرهم فاستعانوا بالايتيوبيين فطمع الايتيوبيون فى حكومة البلاد واستولوا على الإقليم القبلى وقاموا على الصاويين يريدون إرجاعهم عن عزمهم فلم يقدروا واستمرت الحال بين الفريقين على ما هى عليه إلى أن ظهر رجل اسمه (تفنخت) فركب على طائفة الايتيوبيين وردعهم وأسكن الفتنة، ولم يلبث أن ظهروا عليه وهزموه شر هزيمة فعاد إلى مصالحتهم والاتفاق معهم على توليته حكم البلاد تحت إمرتهم فولوه، فأسس الملك للعائلة الرابعة والعشرين وكان هو رأسها وعدد ملوكها خمسة كما سيأتى بيانهم.

(الفصل السابع)

(فى ملوك الدولة الرابعة والعشرين الصاوية)

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وألف قبل الهجرة، وكانت تخت حكمها مدينة صا الحجر التى كانت من أشهر مدن الديار المصرية فى ذلك الحين. ولذلك كانت تعرف بالدولة الصاوية. وقيل: ولم يملك منها سوى ملك واحد أو اثنين أو خمسة وهو أصح على ما رواه مانيطون المؤرخ وسنو ملكهم ست. وقيل إحدى وعشرون سنة، وقيل أربع وأربعون ولم يذكر أصحاب التاريخ سوى مآثر اثنين منهم وهما (تفنخت) الذى يقال له أيضاً (تخناتس) رأس هذه العائلة وابنه الملك (باكوريس) الملقب (بوح كارع) وتركوا أخبار الثلاثة الأخر لاتفاق وقائعهم مع وقائع وأخبار الملوك

الايتيوبيين، وهم ملوك الدولة الخامسة والعشرين السودانية الذين تغلبوا على بلاد مصر ونزعوا حكمها من يد الدولة الصاوية هذه.

(في الملك تفنخت)
(الذي يسمى أيضاً)
(تخناتس)

ذكرنا فيما تقدم أن مصر إلى ذلك الحين كانت منقسمة إلى عشرين ولاية صغيرة وكان على كل ولاية منها ملك أو أمير مستقل بحكمها، ولكنه يخشى إغارة جاره على ولايته ولذلك كان بعضهم لبعض عدوّاً فحصن كل أمير ولايته وأكثر فيها من القلاع والحصون والرجال ومعدات القتال، وكان أكثر جندهم من المشواشيين وغيرهم من الأجانب. وقد ملؤوا أرض مصر من الحصون والمعاقل على الآكام وضفاف النيل والجزر والبحيرات وغير ذلك وكان الملك (تفنخت) هذا حاكماً على مدينة (نتر) التي يقال لها باللغة القبطية (منوتى) المجاورة لمدينة (كانوب) على بحر رشيد فتاقت نفسه إلى الملك وطمعت فيه فركب بقومه لقتال أقرب الولايات إليه وما زال حتى انتصر على ملكها في عدة مواقع، ولما كثرت جموعه واشتد أزره بهم. قام لقتال بقية الملوك وقاموا لقتاله فاشتدّت الحرب بينهم وكادوا يوقفونه عند حده، ثم صارت بينهم سجالاً إلى أن قويت شوكته فتغلب عليهم وظفر بهم وأخذ منهم قسم صا الحجر وقسم اتريب وقسم ليبيا وقسم منف ولم يتعرض للتنيسيين الذين هم بقية عائلة الملوك التنيسية الحاكمين على جميع البلاد شرقى الدلتا ثم سار بجيوشه إلى الصعيد فأذعن له بعض أمرائه بالرضا والتسليم وبعضهم بالقهر والغلبة، وما زال حتى وصل قسم أرمنت واستولى عليه وضرب الضرائب على قسم اهناس الجنوبية، وكانت هذه الأصقاع تابعة (لبعنخى) ملك الايتيوبيا فلما بلغ (بعنخى) خبر زحف (تفنخت) المذكور ركب لقتاله واقتتل الفريقان قتالاً شديداً للغاية فانتصر (بعنخى) ملك الأيتيوبيا على (تفنخت) نصراً مبيناً ، قال صاحب العقد الثمين: ونقش ذلك على حجر وجد بجبل برقل ونقل منه إلى متحف بولاق وهذا نص نقوشه التي ترجمها ده روجيه.

(في غرة توت) سنة إحدى وعشرين من حكم ملك الوجه القبلى والبحرى (بعنخى) ميامون خلد ذكره صدر أمر منه بما نصه: اسمعوا ما فعلته زيادة عن أجدادى أنا الملك المخرج من سلالة مقدسة النائب عن المعبود (توم) اشتهرت بأنى

ملك منذ خروجى من ظلمة الأحشاء واحترمنى الأمراء... وميزتنى والدتى بسيما الملك من صغرى أنا المقدس الطيب محبوب المعبودات ابن الشمس (بعنخى ميامون) لما بلغنى أن (تفنخت) أمير الجنوب الحاكم الأكبر فى مدينة(نتر) تملك على... (قسم اكسوئيتس) وعلى مدينة (حعب...) وعلى مدينة (عين) وعلى مدينة (بنوب) المسماة باليونانية (مومنفيتس) وعلى مدينة (منف) واستولى على جهة الغرب من أول بلاد البحيرات أعنى (بوتو) إلى الحدود الفاصلة بين الصعيد والبحيرة، وسار نحو الجنوب بجيش جرار واجتمع معه سكان الإقليمين، وأطاعته الأمراء وأعيان البلاد، وصاروا تحت رجليه أذلة كالكلاب ولم يغلق دونه حصن فى الأقسام الجنوبية وسلمت له مدينة (ميدوم)، (وبيسخم خبر رع)، (والبهنسة)، و(نكاناش) وباقى المدن التى فى الجهة الغربية خوفاً منه ورجع إلى أقسام الجهة الشرقية ففتحت له البلاد وهى: (حابنو)، (وتايوحاى)، (وأطفيح) وزحف متقدمًا إلى أن حاصر مدينة اهناس الجنوبية حصاراً تاماً من كل جهة ومنع الناس عن الدخول فيها والخروج منها واستمر فى قتالها حتى غلبها، وأبقى الأمراء الذين اعترفوا له بالسيادة فى أقسامهم وأباح لهم الحكم على البلاد كما كانوا عظموه بما يستحقه لذكاء عقله، فانشرح فؤاده.
قال: (بعنخى) وكانت تأتينى الرسل كل يوم من قبل الأمراء وقواد الجيوش سائلة عن سبب سكوتى وعدم مدافعتى عن بلاد وأقسام الوجه القبلى ومخبرة لى بأن (تفنخت) أخذها ولم يعارضه أحد وأن النمروذ رئيس الأشمونين وأمير (حاور) أى (مجالوپوليس) هدم حصون (نفروس) ودمر المدينة مخافة أن يأخذها (تفنخت) ثم التجأ إلى مدينة أخرى فاقتفى (تفنخت) أثره، فاضطر إلى الخروج عن حزبى والانضمام إليه وصار من جملة رعاياه، وأعطاه قسم اهناس الجنوبية وكافأه وغمره بجميع ما تمناه من الخيرات. فعند ذلك أرسلت إلى قوادى وضباط عساكرى الذين كانوا فى مصر بطيبة وهم (بورم)، (ولامر سكانى). وغيرهم من بقية ضباطى المقيمين بالجهات المصرية أن يستعدوا لقتاله ويسلبوا رجاله ومواشيه وسفنه التى فى النيل. ويمنعوا العمال عن الخروج إلى الغيطان والزراع عن الزرع ويحاصروا مدينة أرمنت ويهجموا عليها هجوماً متوالياً فذهبوا إلى حيث أمرتهم وأمددتهم بجنود أرسلتها إليهم ونصحتهم بنصائح عديدة قبل توجههم إلى القتال بقولى لا تهجموا أثناء الليل هجوم المتلاعبين بل اهجموا متى رأيتم أنه أعد جيوشه وخيوله للمسير إليكم، وإذا قيل لكم أنه جمع مشاته وخيالته فى مدينة أخرى فاثبتوا فى مكانكم إلى أن تأتى إليكم جنوده وقاتلوهم واهجموا عليه متى قيل لكم أنه نزل بجيوشه فى

أية مدينة وانضم إليه الرجال الذين أحضرهم لإعانته من رؤساء التهانيين وعساكر الوجه البحرى، أو متى نظم هيئة القتال على النمط القديم لأننا لا نعلم ما يريده من تشكيل عساكره المشاة وفرسانه الكماة وإذا اشتبكت الحرب فاعلموا أن (أمون) هو المعبود الذى أرسلنا إليهم، وإذا وصلتم إلى قسم (أوس) أمام مدينة طيبة فانزلوا فى النيل وطهروا أنفسكم منه وألبسوا ملابس الأعياد فى ساحل (تب) وضعوا عنكم القسى والسهم ولا يتعرض رئيس منكم إلى (أمون) صاحب الشجاعة. إذ بدونه لا يكون لفارسكم قوة لأنه يجبر الذراع الكسير ويفنى العدد الكثير وينصر الواحد على الألوف واغتسلوا فى مياه معابده واسجدوا له وقولوا ثبت أفئدتنا على الحق لنحارب فى ظل سيفك لأن المقاتلين الذين ترسلهم يبددون الألوف، فعند ذلك تواضعوا أمامى قائلين اسمك سيفنا وعملك مرشد لجيوشنا وخبزك فى جسمنا حيثما نذهب ومشروباتك تطفىء ظمأنا وشجاعتك سلاحنا والنصر مقرون باسمك، وحاشا أن يثبت جيش رئيسه معتد باغ فمن يشابهك أيها الملك المنصور الفعال بنفسك الآمر بالحرب وبعد ذلك انحدروا فى النيل إلى أن وصلوا طيبة، ففعلوا كل ما أوصاهم به ملكهم، ثم زحفوا منها منحدرين أيضاً فى النيل فقابلتهم سفن حربية سائرة إلى الجنوب مشحونة من الوجه البحرى بالملاحين والجنود والضباط الماهرين المدربين وكان مجيئهم لمحاربة جيش الملك (بعنخى) فحاربهم رجال الملك المذكور وقتلوا منهم جمًا غفيراً وأسروا باقى عساكرهم وسفنهم وأرسلوهم أحياء إلى محل إقامة الملك (بعنخى) ثم ساروا قاصدين مدينة اهناس الجنوبية لمحاربة أهلها فبلغ أمرهم إلى أمراء مركز الصعيد وهم النمروذ والملك (وابوت)، (وششنق) ملك المشواشيين بمدينة أبى صير (وتتا مناوف عنخ) ملك المشواشيين الأكبر بمدينة تمى الأمديد وابنه البكرى قائد الجيوش فى (باتوت ابرححو)، (وبوكوتفى) ولى العهد وجنوده وابنه البكرى (نس نقدى) رئيس المشواشيين فى قسم اتريب وجميع الأمراء المتوجين بريشة الوجه البحرى (وأوسوركون) أمير مدينة بسطة ومدينة (رع نفر) وجميع أعيان ورؤساء وحكام الأقسام الغربية والشرقية والبلاد الوسطى، وكانوا كلهم متفقين على رأى واحد وهو اتباع (تفنخت) رئيس الوجه القبلى الأكبر الحاكم على أقسام الوجه البحرى كاهن المعبودة (نيت) سيدة صا الحجر وكاهن (بتاح) فقدمت عليهم رجال (بعنخى) وأوقعوا بهم القتل الشديد، وأخذوا سفنهم من النيل ومن بقى منهم عبر النهر، وأقام جهة الغرب فى محل يدعى (بابيك) وفى صباح اليوم الثانى من تلك الواقعة اجتاز جيش (بعنخى) النيل مقتفياً أثرهم فأدركهم واختلطت الجنود بالجنود

وقتلوا كثيراً من رجالهم وخيولهم وحصل للباقين منهم رعب شديد فهربوا إلى الوجه البحرى منهزمين شر هزيمة. قال المترجم: ولم نقف على خسائرهم لكسرحصل فى الحجر. قال: ولما سمع النمروذ جنود الملك (بعنخى) شارعة فى أخذ بلدة أرمنت جمع من كان معه من رجاله وخيوله ورجع إليها وتحصن بها وكانت وقتئذ جيوش (بعنخى) مصطفة على النهر بساحل قسم أرمنت، فبلغهم رجوع النمروذ إلى بلده فحاصروها من جهاتها الأربع، ومنعوا الناس من الدخول إليها والخروج منها، وأرسلوا مكتوباً إلى الملك (بعنخى ميامون) يحتوى على أسماء من قتلوه من الأعداء فعند تلاوته اغتاظ وتلون كالنمر. وقال: لئن تركوا باقى جيوش الوجه البحرى أحياء أو مكنوا أحداً منهم من الهرب لمقابلة فرقته ولم يقتلوهم جميعاً وقت هزيمتهم فبحياتى وبحق المعبود (رع) وبحق أبى (أمون) لأقاتلن بنفسى وأهدمنّ جميع ما حصنه أهل الوجه البحرى وأحرمنهم نزول القتال ولكن يلزمنى قبل ذلك أن أعمل موسم رأس السنة بجبل برقل وأقدم القربان لأبى (أمون) يوم موسمه العظيم الذى يتجلى فيه بالظهور عند حلول السنة الجديدة وأتوجه إلى طيبة لمشاهدته هناك فى موسمه العظيم وأخرج صورته فيها ليلة موسمه الجليل الطيبى الذى قرره له المعبود (رع) من قديم الزمان ثم أرجعه إلى معبده وأجلسه على تختبه ثانى يوم هاتور المعد لدخوله فى المعبد. وبعد ذلك أذيق الوجه البحرى طعم سطواتى. ولما بلغ عساكره الذين كانوا بمصر أنه غضب عليهم توجهوا لقتال مدينة(واب) فى قسم (أوكسرنحوس) فأخذوها كموجة الماء المتطايرة وأرسلوا يخبرون ملكهم بذلك، فلم يسكن غضبه، ثم هجموا على (تهنى) وكانت مدينة حصينة فوجدوها غاصة برجال الوجه البحرى فعملوا متاريس حولها وهدموا أسوارها وأوقعوا القتل فى أهلها، ولم يعلم مقدار من قتل منهم إلا أنه كان فى زمرة القتلى ابن (تفنخت) أمير المشواشيين فأرسلوا يخبرون الملك بذلك فلم يسكن غضبه، فهجموا على (حيينو) وفتحوا أبوابها ودخلوا فيها وأرسلوا يبشرونه بذلك، فلم يسكن غضبه أيضاً فلما كان اليوم التاسع من شهر توت أتى (بعنخى) من بلاده إلى طيبة وعمل فيها موسم (أمون) السنوى المعتاد ثم توجه منها إلى أرمنت وخرج من مقعد سفينته ووضع النير على خيوله وركب عرباته فانتشر الفزع منه فى قلوب الناس إلى أقصى بلاد آسية. ثم برز للقتال وهجم على الأعداء وزأر عليهم كالأسد. وقال لهم: إذا ثابرتم على القتال أخرتم أوامرى بالعفو عنكم، وإن عزمتم على العصيان أذقت الوجه البحرى فزعاتى، فلم يسمعوا قوله فهزمتهم فرسانه شر

هزيمة ووضع معسكره فى الجـهة القبلية الغربية من أرمنت وأخذ فى الهـجوم عليها كل يوم وعمل متاريس من تراب لتحـجب عنهم ما يأتى من أسوارها ووضع سلالم للارتقاء إليها ففوقـت عليها الرماة سهامهم وألقى فيها الملقـون أحجارهم واستمروا على قتـال أهلها مـدة ثلاثة أيام حتى فـسد هواؤها وحرم أهلهـا استنشـاق الهواء، فسلمت أرمـنت عند ذلك مستـغيـثة بالملك وخرج مـنها رسل النمروذ حـاملين من الأشياء العظيمة مـا يسر الناظر كالذهب والحجارة النفيسة وأقمـشة البسوس قائلين: لقد ظهـر الملك وتاج الثعـبان على رأسه وغـيظه مكظوم، ولم نلبث إلا أيامـاً حتى أطعنا تاجه، فـأرسل النمروذ امرأته بنت الملك (مـستنت مح) لترجـو زوجات الملك (بعنخى) وجواريه وبناته وأخواته (فى العفو عنهـم) فسجدت أمام زوجات الملك فى القـصر قائلـة: أيتها الـزوجات وبنات الملك وأخـواته أغثننى وسكنّ غـضب الملك صاحب القصر فما أكبر سطوته وما أعظم عدالته.

* سقط من الأصل خمسة عشر سطراً لكسر حصل فى الحجر

قال الراوى: فـقال (بعنخى) للنمروذ :لقـد سددت طريق الحيـاة على نفسك. فقال النمروذ: لو كنت صعدت نحو السماء كالسهم لأدركتنى، وكيف لا وقد غلبت بلاد الجنوب وأطاعتك بلاد الشمال فهل لنا أن نستظل بظلك فقد أفنى بأسك جميع رجالى فـلا أب يرى مع ابنه حتى امـتلأت البـلاد بالأطفال ثم تواضع أمـام جلالة الملك. وقال: لقـد جعلتنى سطوتك فى هذا الحال فأنا أحـد عبيدك الذين يـدفعون الجزية لخـزينتك فاحسب جـزياتهم وأنا أعطيك أكثـر منهم، ثم بادر بتقديم الفـضة والذهب واللازورد والزبرجد والحديد والأحجار النفيسة المتنوعة بمقدار وافر حتى ملأ خزينة الملك بجزيتـه وأحضر حصاناً بيده اليـمنى وآلة موسيقية مـصوغة من الذهب واللازورد بيده اليسرى، فخرج الملك عند ذلك من قصره وتوجه إلى معبد (هرمس) سيـد أرمنت وإلى هيكل المعبـودات الثمانيـة المسمى باسمـهم فأظهـر له جنود قسم أرمنت الفرح. وقـال له الكهنة: ما أعظم الملك (بعنخى) سلالة الشمـس لقد جئت فى مدينتك فنرجوك ياحامى حوزة أرمنت أن تعمل لنا عيداً احتفاء بقدومك، فتوجه عند ذلك إلى المدينة ودخل قصر النمروذ وطاف على جمـيع حجراته وعاين الخزينة والمخازن وأمر بإحـضار زوجات وبنات النمروذ، فأتين متـواضعات لجلالته حسـبما تعلم النســاء من شئون الـتواضع، إلا أن الملك أعرض بـوجهه عنهن ثـم توجه إلى اصطبل الخيـول وبيت المهارى فرأى أنهم كانـوا تاركيها من غـير أكل فأقسم بحـياته وحق (رع) الذى يمنحه أنفاس الحياة الجديدة قائلاً: إن مجاعة خيولى أقبح ذنب فى

الذنوب التى فعلتهـا أيها النمروذ. فقال الـنمروذ: لا تغير قلبك بالغضب، سـأخبر أيها السيـد الخدم بغيظك المتسبب عن مـجاعة خيولك. فـقال (بعنخى): هل كنت تظن أنك تنسى ظل وجهى المقدس وأنهم يفرون من قوتى ولو كان إنسان غير معلوم عندى وفعل مثل ذلـك لما سامحته أمـا يعلمون إنى مذ ظلمة الأحـشاء خرجت من بيضة مقـدسة ومنحنى المعبود جوهره فكان جـسمى من جسمه فلا أفـعل شيئاً دونه فهو الذى يرشـد أعمالى ، ثم وهب أموال أرمنت وما فى مخـازنها لخزينة وأملاك (أمون رع) ساكن طيبة ثم جاءه ملك اهناس المدعو (بنابسط) بهدايا من ذهب وفضة وأحجار نـفيسة ونجائـب من خيول اصطبله وسجـد أمامه قائلاً: السـلام عليك أيها الملك الحاكم المنصور الثور الذى يبطش بالثيـران. لقد كنت فى مكان سحيق تغشانى الظلمة وقد أضاء لى النور بعد الظلمات ولم أجد يوم الشدّة من يساعدنى فى القتال سواك أنت المنصور الذى أبدّت الظلمات عنى أنا عـبدك ولك جميع ما أملكه وتدفع أهل اهناس الجزية لك فـانظر كيف وضعنا تمثال (حورمـخى) فوق تماثيل الكواكب. وكانت منزلتك عندنا كمنزلته، وكما لم ننقص قدره كذا لم ننقص قدرك أنت الملك (بعنخى) مخـلد الذكر ثم توجه إلى (أين) إلى مكان يـسمى (روهن) فوجـد مدينة (براخم خبرع) أسـوارها مرتفعة وأبوابها مـغلقة وكانت ممتلئة بأبطال الوجـه البحرى فأرسل يقول لهم: أيها المقـيمون فى الموت الضعفاء المحقرون أنتم أيهـا المقيمون فى الموت لئن تأخرتم عن فتح المدينة لترون مايحل بكم من القتل ولو كان يشق على فلا تغلقوا عليكم الأبواب التى افتحها لنجاتكم من ضيق هذا اليوم، ولا تفضلوا الموت وتكرهوا الحياة بين الناس...

فأرسلوا يقـولون له: حيث إن ظل المعبـود على رأسك وأن ابن (نوت) أعانك بيده وكل ما رغبته كان مقضياً لك فى وقته ما كأنه إلا صادر من فم معبود وكيف لا وأنت ابن معـبود كـما نرى ذلك من أفعـالك فالمدينة وأسـوارها طوع يدك وأذن لنا بالدخـول والخـروج فـأذن لهم بما تمنوه فـخـرجـوا ومعـهم ابن (تـفنخت) رئيس المشواشـيين ودخلت جنود (بعنخى) المديـنة ولم يقتلوا أحدا من النـاس الذين كانوا بها، وأرسل فى الحال (بعنخى) أمناء خزائنه ليختموا خزائن صكوك تلك المدينة، ثم أحصى بنفسه مـا فى خزائنها وأشوانها وتطوع به لقرابيـن أبيه (أمون) ثم توجه إلى مدينة (ماريتوم) مسكن (سوكارى) صاحب النور فوجدها مغلقة الأبواب، ولما وصل إليها اضطـربت قلوب أهلها مما حصل لهم من الرعب والفزع الذى أخـرس ألسنتهم فأرسل يقول لهم: اختاروا أحد أمرين. إما أن تفتحوا الأبواب فتنجوا بحياتكم وإلا فتمـوتون لأنى لا أمر بمدينة مقفلة فـفتحوا له أبواب المدينة فى الحـال ودخلها وقدم

قرباناً إلى (منهى) فى مدينة (شات) وحصر الخزينة والأشوان وأعدها لقرابين (أمون) ثم توجه إلى مدينة (تاتوى) فوجد أسوارها مقفلة وحصونها مملوءة بأبطال الصعيد ولكنهم فتحوا أبوابها له وتواضعوا أمامه قائلين: أن أباك أورثك السيادة على الإقليمين فستملكهما وتكون السيد الحاكم على الدنيا ولما مر الملك بالمدينة قدم لمعبوداتها قرباناً عظيماً من ثيران وعجول وإوز ومن جميع الأشياء العظيمة وحصر خزائنها وأضافها إلى خزائنه ووهب ما فيها لقرابين (أمون) ولما قرب من منف أرسل يقول لسكانها لا تغلقوا أبوابكم ولا تحاربوا أيها الناس القاطنون فى المدينة لأنى سأدخل وأخرج بدون إساءة أحد كالمعبود (شو) الذى كان موجوداً فى القرون الأولى، وإن لم تتعرضوا لى فإنى أتقرب بقربان (لبتاح) ولمعبودات منف وأؤدى فى معبد (شيتى) الصلاة (لسكارى) وأشاهد (بتاح) وأذهب بسلام وأرأف بمنف وتنجوا من كل غائلة تبكى أولادكم واعتبروا بسكان الوجه القبلى فإنه لم يقتل منهم أحد سوى الذين أغضبوا المعبود ولم يصب العقاب إلا من طغى، فلم يسمعوا لقوله وأغلقوا أبوابهم دونه وأخرجوا منهم عساكر تقاتل فرقة من رجاله مؤلفة من شغالة ورؤساء عمارة وملاحين وكان ذلك على ساحل منف، أما ما كان من أمر (تفنخت) أمير صا الحجر فإنه أتى إلى منف أثناء الليل. وقال مرارا لجنوده وملاحيه وجميع قواده وكانوا ثمانمائة ألف رجل إن منف صارت مستقر أعظم جنود الوجه البحرى والأشوان غاصة بالشعير والقمح وأنواع الحبوب وجميع عدد الأشغال... والسور مبنى والطابية الكبيرة محكمة حسب قوانين الحرب، والنهر محيط بشرقى المدينة ولا يجد العدوّ نقطة للهجوم منها عليكم، وأنتم تعلمون أن مراعينا مملوءة بالمواشى وخزانتى غاصة بأنواع الفضة والذهب والنحاس والملبوسات والعطريات والعسل فسأذهب وأعطى جميع ذلك لأمراء الوجه البحرى وأفتح لهم أقسامهم، فدافعوا عن أنفسكم إلى أن أعود إليكم فلما تم قوله ركب جواده لكونه أسرع من عربته. وذهب إلى الوجه البحرى خائفاً من الملك (بعنخى) ولما كان اليوم الثانى صباحاً قرب الملك (بعنخى) من منف ورسا على جهتها الشمالية فوجد الماء مرتفعاً إلى أسوارها والسفن راسية على سواحلها وتأملها فرآها محصنة منيعة لها سور مرتفع قد بنى جديداً واستحكامات قوية، ولم يجد فيها منفذا للهجوم عليها فتداولت فى شأنها رجاله بما تقتضيه أصول الحرب. وقالوا: إن الهجوم عليها أولى... ولكن نرى جنودها مستعدة فاستحسنوا رأياً آخر. وقالوا: نجمع كثباناً مساوية لارتفاع سورها ونضع عليها سلالم وننصب حولها السوارى وعروق الخشب

الطويلة ونضع في محيطها متاريس من تراب للتمكن منها، وبعد رفع الأرض بارتفاع سورها نجد لنا سبيلاً للاستيلاء عليها، ولكن تلون ملكهم (بعنخى) تلون النمر. وقال وحياتى وحق المعبود (رع) وأبى (أمون) أنا أعلم أن ما حصل فى هذه المدينة من تحصين وغيره هو بأمر (أمون) أما سمعتم كلام سكان الوجه القبلى الذين فتحوا (لأمون) الطريق رغم أنفهم لكونهم لم يذكروه فى قلوبهم ولم يعرفوا قدر أوامره فخذلهم ليبين لهم قوته ويريهم هيبته فسآخذ هذه المدينة كريح عاصف بأمر (أمون) وفى الحال أمر قواده بتقريب سفنه ومراكبه وجنوده ليهجم على منف من جهة الساحل فأحضروا امتثالاً لأوامره جميع السفن والرواميس ومراكب النقل التى يمكنها المرسى على سواحل منف، وربطوا مقدمات السفن فى بيوت المدينة، ولم يشعر أحد بهم ولم ينزعج طفل من أطفالهم ثم أتى الملك ليسير السفن بنفسه وأمر رجاله بالهجوم على المدينة والإحداق بسورها والدخول فى بيوتها من النهر. وقال لهم: إذا تسور أحدكم سورها فلا يقف فى محله ولا تقاتلوا الرؤساء الذين يستسلمون لكم لأن هذا مذموم لا سيما وقد حاصرنا الآن الوجه القبلى، وقربنا من الوجه البحرى وصرنا فى وسط الإقليمين وبهذا التدبير أخذ منف كريح عاصف وقتل منها خلقاً كثيراً وأحضر بين يديه أسراها، ولما كان اليوم الثانى من هذه الواقعة أرسل جماعة يحافظون على المعابد ثم توجه بنفسه إلى هيكل معبودات منف، وقدم لهم قرباناً من المشروبات، وطهر المدينة بالنطرون والبخور وأرجع الكهنة إلى أماكنهم ثم توجه إلى معبد (بتاح) وتطهر ببابه وعمل مهرجان المملكة، ولما دخل فى المعبد قدم لأبيه (بتاح رسبتيف) قرباناً عظيماً من ثيران وعجول وأوز وغير ذلك من الأشياء النفيسة ثم دخل قصرها الملوكى وبلغه أن جميع البلاد التى فى ضواحى منف وهى (حريبديمى)، (وبنينافوعع)، (وبيوخن نبيو)، (وتاوحيبى) فتحت أبوابها وهربت رجالها ولم يعلموا أين المفر. ثم إن الملك (وابوت) وأمير المشواشيين (موكانشو) والأمير (بتيسيس) وجميع رؤساء الوجه البحرى أتوا بجزيتهم راجين أن يؤذن لهم باجتلاء أنوار الملك (بعنخى) وبعد ذلك تطوّع الملك (بعنخى) بخزينة وأشوان منف لقربانات (أمون)، (وبتاح) وباقى معبودات (حكابتاح). وفى اليوم الثانى توجه إلى الجهة الشرقية، وتقرب إلى (توم) فى مدينة (حزاو) وإلى معبوداتها فى هياكلهم وإلى معبودات مدينة (اماح) بقربان من ثيران وعجول وأوز راجياً أن يمنحوه السعادة، ثم توجه نحو المطرية من جهة (خر) وقصد طريق المعبود (سب) من جهة (خر) ومر بالمعسكر الذى كان فى جنوبى مدينة (مرتى) وقدّم قرباناً

لمعبوداتها، وتطهر فى المنبع الرطب وغسل وجهه من ماء (نو) حيثما تغسل الشمس وجهها ثم مر نحو (شيوكامان) وتقرب الشمس وقت شروقها بقربان من ثيران بيض ولبن وعطريات وبخور. وغير ذلك من أنواع الأخشاب ذات الرائحة الذكية ثم قصد معبد الشمس ودخله، وصلى فيه مرتين وطلب له الكاهن الأكبر من المعبود أن يهزم أعداءه، وبعد ذلك صلى الملك صلاة الباب ، قال المترجم: وهى صلاة مخصوصة عندهم ، وكسا الضريح وتبخر بالبخور، وتقرب للمعبود بمشروب، وأحضر له أزهار (الحبنبن) وهى المزروعة فى المعبد ليستخرج له منها العطر ثم ارتقى على الدرجات نحو الشباك الكبير لينظر الشمس فى ضريحها واختلى وحده ورفع المتراس وفتح الأبواب ونظر الشمس فى ضريحها وعظم السفينة المقدسة المعلقة فى مقام (رع وتوم) ثم أقفل الأبواب ووضع عليها طين ابليز وختم فوقه بالختم الملوكى. وقال للكاهن إنى وضعت ختماً فلا يجوز لأى ملك من الملوك أتى هنا أن يدخل فى هذا المحل فتواضع أمامه الكهنة قائلين: سيبقى هذا الختم محفوظاً مباركاً ولا يحصل له أدنى ضرر أيها الملك الحاكم محب المطرية، ثم استعد بعد ذلك للدخول فى معبد (توم) أدى فيه صلوات (انتا) لأبيه (توم خبرع) سيد المطرية وفى أثناء ذلك أتى (اسربون) إلى المطرية ليجتلى أنوار الملك (بعنخى) ولما كان اليوم الثانى توجه الملك (بعنخى) إلى الساحل الذى فيه سفنه، وسار منه إلى ساحل قسم اتريب وضرب خيمته فى جنوب مدينة (كهانى) التى كانت فى الجهة الشرقية من هذا القسم، فأتاه ملوك ورؤساء الوجه البحرى وجميع الأمراء والأعيان الممتازين بوضع الريش والظلل على رؤوسهم ومعهم أمراء وأولاد ملوك الوجه القبلى والبحرى والجهات الوسطى ليشاهدوا أنوار جلالته وبعد مثولهم بين يديه، تواضع الأمير (بتيسيس) لعظمته . وقال شرف أيها الملك قسم اتريب حفظتك المعبودة (خونت) لترى المعبود (خنتى خاتى) أى (حور) وقدم له فى معبده قرباناً من ثيران وعجول وأوز وادخل قصرى وافتح خزانتى وتصرف فى جميع ما يكون لأبى وسأعطيك من النفائس فوق ما ترغب من الذهب والزبرجد ومن الخيول أعظم ما فى اصطبلاتى فتوجه الملك أولاً إلى معبد (خنتى خاتى) سيد مدينة(كامور) وتقرب إليه بثيران وعجول وأوز، ثم توجه إلى قصر الأمير (بتيسيس) فقدم إليه هذا الأمير فضة وذهباً ولازوردا وزبرجدا. وغير ذلك من الملابس الملوكية والسرر المغطاة بالأقمشة الرفيعة ومقدارا عظيماً من عطر (انتا) وزيتا طيباً فى أوعية وخيلاً وأفراساً من أعظم خيول اصطبلاته، وحلف الأمير (بتيسيس) أمام ملوك ورؤساء الوجه البحرى. قائلاً: إن كل من خبأ خيوله وأخفى شيئاً مما يملكه فلابد من موته وإلحاقه بأبيه. وقد حذرتكم

لتمتنعوا من إخفاء شيء من أموالكم وإن كنتم تعلمون أني لم أظهر شيئاً مما أملكه فأخبروا الملك بما أخفيته في بيتي إن كان ذهباً أو فضة أو أحجاراً نفيسة أو أواني أو أساور أو عقود ذهب أو عقودا مرصعة بالحجارة النفيسة أو حلياً أو تيجاناً أو حلقاناً أو زينة ملوكية أو من أوان من ذهب للغسل أو حجارة نفيسة سوى ما قدمته إليه من الأقمشة والملابس والنفائس التي في قصري وعلمت أنها تعجبه وأرجوك أيها الملك أن تمر باصطبلي وتختار ما يوافقك من الخيول فقبل ذلك الملك منه وأمضاه الملوك والرؤساء وقالوا نحن أيضاً نذهب إلى مدننا ونفتح خزائننا وننتخب منها ما يعجبك من أعظم ما في اصطبلاتنا من نجائب الخيل فأجابهم إلى ذلك وانصرفوا وكان هؤلاء الملوك هم (اساركون) ملك مدينتي (بسطة ورع نفر)، (ووابوت)، (تنترينو وتاعان)، (وتاتا من اف عنخ) رئيس مدينتي (تمي الامديد وتارع)، (وعنخ حور) رئيس العساكر في (باتوت ابيرجح)، (وموكانشو) بنوتس)، (وباحبي)، (وسمهور)، (وبتنف) رئيس المشواشيين الأكبر (بسوبتي)، (وابن سوبتي حز)، (وبحو) رئيس المشواشيين الأكبر في نير (وناسنا كاتي) رئيس المشواشيين الأكبر في قسم (حسب) ولعله قسم (نس)، (ونخت جورناسنو) رئيس المشواشيين الأكبر في قسم (باور) رئيس المشواشيه (وبنتابوخن) رئيس المشواشين وكاهن (حور) بمدينة (سخم ستوحارستمو)، (وحوربسا) رئيس قسمي (باسخت بنت سا)، (اسخت نسبرا حساوي)، (وتخيو) رئيس (ختنينفر)، (وبابس) رئيس (وبحايي).

قال الراوي ثم أتو بهداياهم العظيمة وكانت... من ذهب وفضة وسرر بالأقمشة الرفيعة وعطر في أوعية وغير ذلك من الهدايا العظيمة كالخيول ونحوها ولما قالوا للملك (بعنخي) أن رئيس مدينة (مسى) أغلق سورها خوفاً منك وأحرق بيته وتهيأ للقتال على النهر وملأ مدينته بالجنود... فعند ذلك أرسل الملك فرسانه لينظروا ماذا حصل من عدو الأمير (بتيسيس) فرجعوا إليه قائلين: نحن قتلنا جميع الرجال الذين وجدناهم في تلك المدينة فأعطى الملك أرضها للأمير (بتيسيس) ولما بلغ هذا الخبر (تفنخت) رئيس المشواشيين أرسل (لبعنخي) رسولاً يقول له: اكظم غيظك. فإني وجل من رؤيتك لعدم مقاومتي نار حربك وامتلأ قلبي بفزعك لأنك كمعبود الجنوب (نبتي) وكمعبود الشمال (مونت) الموصوف بالثور المنصور إن أردت شيئاً لم يعارضك أحد فيه أنا الآن وصلت جزائر البحر خشية من سطوتك ومن توبيخك المؤلم وتعنيفك الموجع. أما يسكن خاطرك بما حصل لي منك؟ ألا ترى أني صرت الآن حقيراً؟ فلا توقعني في شرك ذنبي لأن دقة الميزان تظهر الفروق الصغيرة فأسألك أن تضاعفها لي بالعفو منك واعلم أنك إن بذرت بذورا حصدت محصولها عند حلول

وقتها ولا تخلع الساق حينما يكون مكللاً بالأزهار، ولقد أوقعت الرعب فى قلبى وسرى فزعك فى سائر أعضائى حتى صرت لا أستقر لحظة فى حانة المشروبات ولا أتناول سوى الخبز إذا اشتد جوعى والماء إذا اشتد ظمئى ومذ بلغك اسمى بالعصيان ألم بجسمى الفزع وتصدع رأسى وخلقت ثيابى، وقد التجأت الآن لحمى المعبودة (نيت) فأتنى وانظر بوجهك نحوى وإن جحدت ذنبى أفلا يعفو السيد عن خادمه وخذ لخزانتك جميع ما أملكه من ذهب وحجارة نفيسة وأجود ما فى خيلى المعدّدة بعددها وأتمنى عليك قدوم رسول من عندك ليزيل الرعب من قلبى وأذهب معه عند المعبود وأحلف يميناً أمامه بعدم العود فأرسل الملك إليه (بتامنستو) الكاهن الأكبر ومعه (بوارما) رئيس الجيوش فأعطاهما (تفنخت) فضة وذهباً وملابس وحجارة نفيسة متنوعة ثم توّجه معهما عند المعبود وتاب إليه وحلف يميناً مقدسة بأنه لا يخالف أوامر الملك ولا يتعدى أقواله ولا يسىء رئيساً من غير رضاه وأن يفعل طبق كلامه ويمتثل أمره فرضى الملك بذلك منه، وفى الحال جاءه البشير يقول له: إن مدنية (نترحاانبو) فتحت أبوابها ومدينة(أفروديتوبوليس) أذعنت لطاعتك ولا يوجد قسم من أقسام الجنوب والشمال والغرب والشرق مغلقاً دون جلالتك؛ وأن الأقاليم الوسطى تواضعت خوفاً منك وأتاك أهلها بأموالهم، واعترفوا أنهم رعيتك، ولما كان اليوم الثانى صباحاً أتى ملكا الوجه القبلى وملكا الوجه البحرى وتاج الثعبان مضىء على جباههم ومعهم رؤساء الوجه البحرى ليقدموا تحيتهم للملك (بعنخى) ويتشرفوا بلقائه وكانت فرائصهم ترتعد كفرائص النساء، فلم يؤذن لهم بالدخول لدى الملك لأنهم كانوا مدنسين بأكل السمك المحرم أكله فى محل الملوك، وإنما أذن فقط للنمروذ بالدخول فى قصر الملك لكونه طاهراً لم يأكل السمك المنهى عنه. وأما الباقون فإنهم لبثوا وقوفاً على الأقدام من غير أن يؤذن لهم بالدخول وبعد ذلك أزاد الملك (بعنخى) الرحيل إلى بلاده فشحن سفنه بما أهدى إليه من الذهب والنحاس والملابس والخيرات الواردة إليه من الوجه البحرى ومن الشام، ومن بلاد العرب، وسار فى النيل وقلبه مسرور وأهل مملكته مستبشرون به من الغرب إلى الشرق، فكانوا يستقبلونه مظهرين السرور، وكان كلما حل فى جهة رفع أهلها أصواتهم بالفرح قائلين: أيها الملك المنصور (بعنخى) لقد أتيت وحكمت الوجه البحرى وصيرت رجاله أذلة كالنساء وحل الفرح فى قلب أمك التى ولدتك فصرت شهماً وأعطاك (أمون) جوهره فبشرى لك أيتها البقرة التى ولدت ثوراً كان له على مر الدهور ذكر مخلد وملك مؤبد. ألا وهو الملك المحب لقسم طيبة. انتهى.

وجعل الملك (بعنخى) مصـر تابعة لمملكته وأبقى لرؤسائها ما لـهم من الامتياز وجعل (تـفنخت) ملكاً عليهم بالأصـالة بعد أن كـان رئيسـاً على الجيوش المـصرية فاستقـر (تفنخت) بمدينة صا الحجر مقر حكومتـه الأصلية ورجع (بعنخى) إلى مقره بمدينة (نبتا) ونقل إليها تخت الملك من طيـبة ومنف بعد أن أرجع الأحوال فى مصر إلى سابق مجراها ولم يمض عليه بعد رجـوعه إلى (نبتا) إلا قليل حتى أدركه الموت فورثه فى الملك أميـر اسمه (كاتشا) لم يكن من بيت الملك، وإنما كان مـتزوجاً بابنة كاهن مصرى من العائلة الملوكية، قيل ولما انتقل إلى (كاتشا) المذكور الملك من عائلة (بعنخى) قام عليه أهل مصر وخرجوا عن طاعته فسحب جيوشه من الإقليم البحرى ومن مـصر الوسـطى وانحاز إلى بلاد الـسودان وفى هذه الأثناء مـات أيضـاً الملك (تفنخت) فقام بالأمر بعده ابنه المسمى (باكوريس) الملقب (بوح كارع).

(فى الملك باكوريس)

ولما استـقر (باكوريس) على كـرسى الملك حذا حـذو والده (تفنخت) وحارب أمراء الوجه البـحرى وولاة الأحكام فيه ونزع منهم مصر الوسطى والأقـاليم البحرية وجعل مـصر كلها تحت حكمـه واستقل بملكهـا ، وكان عاقـلاً مدربا ذا رأى ثاقب وخبرة بالأمور قاضـياً متشرعاً. وفى خلال هذه المدّة مات (كـاتشا) الذى قام بالأمر بعد (بعنخى) عن ولدين أحدهمـا اسمه (سباقـون) وثانيهما اسمه (امـريتس) فتولى سباقون بعد أبيه ولما علم بما فعله (باكوريس) ملك مصر سار لقتاله وكان (باكوريس) المذكور مبـغضاً من جميع الأمـراء المصريين لتغلبه عليـهم ونزع حكم البلاد منهم، فلما علموا بقـدوم (سباقون) انضمـوا إليه وعاونوه على قتاله كـما عاونوا (بعنخى) على قتال (تفنخت) فوقع (باكوريس) فى قبضة (سـباقون) فى مدينة صا الحجر فأمر بإلقـائه حيّـا فى لهيب النار فـمات. وكـانت مدة حكمـه سبع سنين علـى ما رواه مانيطون المؤرخ وزال بموتـه الملك من العائلة الصاوية وانتـقل إلى الدولة الايتيـوبية، ونزح من بقى من العائلة الصاوية المذكورة إلى إقليم الدلتا وتفـرقوا فيها وقد أخذت أملاكهم ولبثوا بإقليم الدلتـا يتربصون خروج الايتيوبيين من مصر خـمسين سنة كما رواه هيرودوتس المؤرخ اليونانى. (قـال بعضهم) وقد كان السبب فى استيلاء ملوك السودان على مـصر تغييـر الأحوال واختـلاف كلمة ملوك الدولة الرابعة والعـشرين وبغض بعضهم لـبعض، واشتداد المنازعات، وقـيام الفتنة فى داخلية البـلاد فعمت الرزايا والمحن وكـثرت الخطوب والإحن وزادت الانقـلابات والدسائس فى الأقـاليم

القبلية والبحرية. وقالت التوراة فى هذا الصدد ما نصه أن ملوك تنيس ضاروا لا عقول لهم، وملوك منف ضلوا وأضلوا قومهم فقضينا أن نعطى مصر لملك جبار يتولى أمرها ويدبر شأنها ، ففسر الأحبار الملك الجبار بالملك (سباقون) السودانى وهو رأس الدولة السودانية التى تولت ملك مصر وهو الملقب نفر كارع الآتى ذكره بعد.

(الفصل الثامن)

(فى الدولة الخامسة والعشرين السودانية)

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة خمس عشرة وسبعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وألف قبل الهجرة وعدد من ملك منها أربعة وسنو ملكهم خمسون سنة وقيل ثلاث وخمسون وأول ملوكها الملك سباقون.

(فى الملك سباقون)

قد كان ابتداء ملك سباقون هذا نحو سنة خمس عشرة وسبعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثلاثين وألف قبل الهجرة بعد تغلبه على الملك باكوريس وإحراقه إياه وظفر بمملكة مصر فاتسع نطاق سلطته إلى البحر الأبيض وتكنى بكنى الملوك المصرية وتلقب بألقابهم الفرعونية وسار فى الرعية سيراً حسناً فدبر أمور البلاد أحسن تدبير وبث روح العدل بين أهلها وأبقى كل أمير والياً على إقليمه تحت سلطانه وملاحظة أمناء من أبناء جنسه وقد نظم الجسور وأصلح القناطر والترع والخلجان ورمم المبانى النافعة واصطنع المصانع العظيمة وبذل الجهد فى تعمير مدينة بسطة ورمم ما تهدم من مدينة منف وأعاد نقوشها إلى رونقها القديم وأصلح مدينة طيبة عاصمة الوجه القبلى وكان (سباقون) المذكور إذ ذاك تحت تصرف شقيقته الملكة (أمن ريتس) وأصلح بعض المعابد والهياكل. ويقال إنه أول من أبطل العقوبة بالقتل من قوانين البلاد فأحبه الناس ومالت إليه قلوب الرعية وعلت كلمته وبعد صيته فاستتبت الراحة فى داخلية البلاد ورفل أهلها في حلل الرفاهية وثار في أيامه ملك أشور على الفنيقيين والإسرائيليين وأهل فلسطين وأقلقهم بغزواته المتتابعة وكان الآشوريون أهل شدّة وبأس وصبر على الحروب فاتحدت الممالك الثلاث على أن تتعاهد مع ملك مصر وتحالفه على الذب والدفاع ليخلصوا من جور الأشوريين وتقدّم إليه هوشع ملك إسرائيل فى ذلك وأرسل إليه هدايا ورغب إليه فى معاقدتهم على قتال شلمناصر

ملك أشور فعاقـدهم سباقون على ذلك طمعاً فى ضم بلادهم إلى مملكتـه كما فعل أسلافه وأخذ الهدايا فى مقام الجزية ، فلما علم شلمناصر ملك آشور بذلك احتال على هوشع ملك إسرائيل وما زال به حتى أسره وفاجـأ قومه وركب عليهم فأخذهم جميعـاً أسرى وألزمهم الطاعة فاعـترفوا له بها ثم سار شلمناصر إلى مـدينة سامرية وحاصرها وضيق حصارها ولكنه مات قبل فتحها وهو آخر بيت السلطنة الآشورية ، فلما مات اجـتمع أعيان دولتـه واتفقوا على إقامـة (سرخون) كبيـر قواد الجند ملكاً عليهم وبايعـوه بالملك فلما استقـر به المنصب شدد فى حصار سـامرية حتى فتـحها وزحف بجيشه على بلاد فـلسطين وحارب ملكها (يهوبيد) وقتله فلمـا علم سباقون بذلك خاف وسـار بعسكره إلى الشام وانضم إلى (حـانون) ملك غزة وكان حليـفه فالتـقى هناك بجنود ملك آشـور فى مدينة (رافـيا) فـانتشبت الحـرب بين الفريـقين فـانهزمت الجنـود المصرية والجنود الـشامـية ووقـع (حانون) ملك غـزة فى قـبضـة (سرخون) ملك آشـور وهرب سباقون ملك مصر وهام فى القـفار فضل عن الطريق فلقيـه أحد الرعاة فدله على الطريق وسـار معه من فلسطين إلى أرض مـصر فزالت بهزيمـته فى هذه المرة هيبتـه وعصاه أهل الوجه البـحرى وخرج أمراؤه عن طـاعته وطردوا من كانوا فيه من السودانيين وأخرجوهم إلى طيبة واستقلت حينئذ مدن صان وبسطة واهناس، وكـان ممن بقـى من أقـارب الملك (باكـوريس) آخـر ملوك الدولة الرابعة والعـشرين الصاوية رجـل اسمه (اسطيـفانيتس) فلمـا رأى خروج هذه المدن واستقلالها عمد لإرجاعها إلى ما كانت عليه ونادى لنفسه بالملك فتم له ذلك وتكنى بكنى الفـراعنة وأرسل إلى (سرخون) ملـك آشور يبشـره بهزيمة عـدوّه (سبـاقون) وفراره إلى الصعيد ويخبره برجـوع حكم الأقاليم البحرية إلى أصحابه من المصريين أما (سباقون) فإنـه لما استعصى عليه إخضاع الوجه البحرى فـرّ إلى الصعيد ثم مات بعد قليل فقام بالأمر بعده ابنه (سبـيخون) الملقب (بذد كورع) وتولى ملك الإيتيوبيا والأقاليم القبلية.

(فى الملك سبيخون)
(ويقال له أيضاً)
(شباناق)

(قال أويرت المؤرخ) بعد كلام ولقد كانت العائلة الصاوية قبل جلوس هذا الملك فى نزاع واختلاف مع العائلة الصانية بأسباب ملك الأقاليم البحرية ورغبة كل منهما

فى الاستيلاء عليه فلما آل إليه الملك عقد النية على الانتقام منهما جزاء ما فعلاه بأبيه سباقون فجيش الجيوش وأعد معدّات الحرب وأكثر منها وازداد همة وإقداماً بتفرق الكلمة بين المصريين ثم ركب عليهم وقاتلهم وأنشب نار الحرب فيهم فظهر عليهم وبسط يده على جميع الديار المصرية وحكمها ولكنه لم يلبث بعد هذه النصرة حتى ظهر عليه (طهراق) الملقب (نفرتوم خورع) وقتله وتولى الملك بعده.

(فى الملك طهراق)
(ويقال له أيضاً)
(تاراقوس)

هو ثالث ملوك الدولة السودانية الخامسة والعشرين، وكان رجلاً محارباً ظافراً ذا شوكة وبأس ولما استقر به المنصب ركب على العصاة والخوارج فبدد شملهم ونزع مدينة منف (من اسطيفانيتس) ملكها وكبير العائلة الصاوية، قالوا: واستقدم أمه من السودان فقدمت فلقبها بالحاكمة أم الإقليمين القبلى والبحرى وسيدة الأمم. كقول العلامة ده روچيه. وتحرك ملك آشور لقتاله فزحف بالآشوريين على مصر من ناحية الطينة. وقاتل طهراق قتالاً عنيفاً حتى هزمه فتقهقر بعسكره إلى مدينة (نبتا) تخت الإيتيوبيا فتبعه ملك آشور بجيوشه وأخذ منه منف وطيبة ونهب ما فى هياكلها من الأمتعة وأسر كهنتها وبعث بما ناله منها إلى بلاد آشور وأمر بوضع بعضها فى هياكلها لتكون شاهدة على نصرته على ملك مصر واستقر فى بلاد مصر وجعل ينظر فى إصلاح ما فسد من أحوالها وما اختل من أعمالها وأعاد أمراءها العشرين إلى مراكزهم وأرجع إليهم امتيازاتهم وضرب عليهم الجزية وجعلهم يتصرفون فى ولاياتهم، كانوا وأقام من بينهم الأمير (نحاو الأول) رئيساً عليهم وكان (اسطيفانيتس) فى هذا الحين قد مات وترك ابنا اسمه (نخبشو) فتولى حكم إقليم صا الحجر بعد أبيه تحت راية ملوك السودان وكان (نخبشو) المذكور ساحراً وفلكياً كبيراً على ما رواه (غاليان) ولكنه كان قليل الهيبة فأقام حاكماً على الإقليم المذكور حتى مات وخلفه (نخاو) الأول فترأس على أمراء البلاد وحكم تحت سلطة الملوك السودانيين مدة من الزمان حتى تغلب ملك آشور على (طهراق) فانحلت تابعية (نخاو) واستبد بالأمر وكان (نخاو) المذكور ذا غيرة ونشاط وحمية فلما انفرد بالحكم أخذ فى تتميم ما كان قد شرع فيه أسلافه منذ مائة سنة من إصلاح شئون البلاد وتوحيد حكومتها وتحالف مع ملك آشور ليحفظ لنفسه الرئاسة على أمراء مصر

واسترجع لحكمه مدينة منفق ولما تم لملك آشور الأمر ومهد الأحوال فى الديار المصرية أراد الرجوع إلى وطنه فحصن مصر ووضع فى قلاعها نفرا من عسكره للذب عن البلاد من غائلة السودانيين إذ كان فى عزمه الرجوع لقتالهم وإدخالهم تحت الطاعة ثم سار إلى نينوى ليعيد لها رونقها وفخرها القديم وكان قد دوخ مصر وأذلها وأهان عاصمتها طيبة الشهيرة كما فعل (توتوميس) الثالث (وامنوفيس) الثانى بمدينة نينوى منذ تسعة قرون.

ونقل صاحب العقد الثمين عن أويرت المؤرخ. فقال إنه لما وصل ملك آشور إلى نهر الكلب نقش على صخرة هناك بالقرب من الحجر الذى نصبه رمسيس الثانى شاهداً على نصرته نقوشاً كثيرة بين فيها فتكه بالمصريين والسودانيين ونسب لنفسه السلطنة عليهما، ولما كانت سنة تسع وستين وستمائة قبل الميلاد أصيب بمرض شديد منعه عن الدفاع فعاد حينئذ (طهراق) إلى مصر وهزم أهل آشور فى منف وخلص المدينة منهم بعد أن حاصرها حصاراً شديداً فبلغ أمره آشور أخا الدين، وكان قد أحس بالعجز عن القيام بواجب مملكته فتنازل عن الملك لابنه البكرى آشور بانبال ثم سكن بابل ومات فيها بعد ذلك بقليل فقام آشور بانبال بإحياء الملك وسار إلى مصر لمحاربة الإيتيوبيين، وضم إليه عساكر الآشوريين الذين كانوا بمصر ودخل فى الوجه البحرى فلم يعارضه أحد وجال فى البلاد إلى أن تقابل بالجيوش السودانية بجوار مدينة (كاربانيت) وتغلب على ملكهم (طهراق) وأخرج جيوشه من منف وطيبة فحلت بهما عساكره ومكثت فيهما مدة من الزمان وبعد انتهاء الحرب أرجع الحكم إلى الأمراء العشرين ثانياً وأصلح الأحوال كما كانت عليه منذ خمس سنين فى زمن آشور أخى الدين وظن بعد ذلك أن لا يعود الآشوريون إلى الحرب فعاد إلى وطنه إلا أنه لم يصادف ظنه محله إذ بوصوله إلى نينوى نشر (طهراق) لواء العصيان وعزم هذه المرة على الانتقام من المصريين لمساعدتهم أهل آشور عليه فهابه المصريون وأرسلوا له رسلا ليعقدوا معه معاهدة سرية مقتضاها مساعدتهم له على رجوع ملك مصر إليه فبلغ أمر هذه المعاهدة ولاة آشور الحاكمين فى مصر فبادروا بالقبض على رؤساء العصاة وهم (سادلودارى) رئيس إقليم تنيس (وباكرور) رئيس إقليم (باسوريتى)، (وتخلو) رئيس إقليم صا الحجر وأرسلوهم فى الأغلال إلى نينوى وحيث كان أول من عصى من الأقاليم البحرية هو إقليم صا الحجر (ومندس)، (وتنيس) نهبهم ولاة آشور ليكونوا عبرة لغيرهم ولكن لم يستطع هؤلاء الولاة صد

الملك (طهراق) حيث لم يكن لهم قبل بجنوده فرجعوا القهقرى أمامه واسترجع طهراق لملكه مدينة طيبة ومنف وأبطل منهما عبادة العجل (أبيس) الذى عكف المصريون على عبادته حديثاً ثم أخذ فى تهديد الوجه البحرى فلما بلغ ذلك ملك آشور أراد أن يحسن المعاملة مع أمراء مصر المأسورين عنده ليكونوا أعواناً له على عدوّه (طهراق) فطلب (نيخاو) وخلع عليه خلعة الشرف وأعطاه سيفا غمده من ذهب وعربة وخيولاً وبغالا ولكن لم يستصوب أن يرئسه على إقليم صا الحجر بل جعل ابنه (بسامتيك) الكبير حاكماً على قسم اتريب ورخص له فى الرحيل إلى مصر فعاد (نيخاو) ولم يجد فيها (طهراق)، حيث كان قد هاجرها وتوجه إلى بلاده لرؤيا رآها فى المنام كما رواه هيرودوتس، وكان قد حكم مصر عشرين سنة والإيتيوبيا خمسين سنة وبإخلائه الوجه البحرى احتله أهل آشور ودخلوا منف بدون قتال ولكنهم لم يتجاسروا على الجولان فى الجهات القبلية خشية من الإيتيوبيين وولى على مصر ثانى مرة أمراءها الأصليين فخلفه صهره (أورد أمن) وأعلن لنفسه بالسلطنة فيها على طيبة وجمع قوة وشرع فى مهاجمة أهل آشور حتى ظهر عليهم أمام منف فدخلوا فيها وأغلقوا عليهم أبوابها فلما طال عليهم الحصار سلموا أنفسهم إليه ووقع (نيخاو) فى قبضته فقتله ونجا منه (بسامتيك) بن (نيخاو) حيث فرّ هارباً إلى الشام كما رواه هيرودوتس ولما طال الأمر بهذه الحالة على ملك آشور عزم على قطع دابر الإيتيوبيين من مصر وأمر رجاله بالانتقام منهم فظهروا على (أوردأمن) وهرب إلى طيبة مؤملاً أن يجيش فيها جيشاً ويأخذ منهم بثأره فخاب منه الأمل إذ كانوا فى أثره ولم يمكنوه من طيبة ولا من تجنيد الجنود فيها فانحاز فى (كبكيت) بالإيتيوبيا ونهب الآشوريون طيبة وكانت آخذة فى إصلاح ما دمر منها مدّة الملك آشور أخى الدين سنة اثنتين وسبعين وستمائة قبل الميلاد وأسروا رجالها ونساءها وسلبوا أموالها من ذهب وفضة وحجارة نفيسة وجميع ما كان ادخره (منتوحع) فى معابدها من أقمشة فاخرة ونحوها وأخذوا أيضاً مسلتين نصبوهما فى نينوى حسب ما رواه (أنين مرسلين) وأرجعوا مصر إلى الحالة الآشورية التى كانت عليها فحكمها العشرون أميراً ثالث مرة وهم الذين كانوا متولين أمرها منذ ست أو سبع سنين وترأس عليهم هذه المرة (بسامتيك) ولكنه لم يصل إلى درجة والده (بخناو).

وأما (أورد أمن) فإنه لجأ إلى بلاد الإيتيوبيا ولم يرجع وبقيت مصر تابعة لمملكة آشور مدة من الدهر كما رواه أويرت إلى أن رأى آشور بانبال أن التملك عليها

يحتاج لكبير مشقة فتركها وتنازل عن سيادته فيها فآلت من بعده إلى (نوات ميامون) ملك الإيتيوبيا بعد أن استقلت بنفسها حينا من الدهر.

(فى الملك نوات ميامون)

(الملقب)

(بيكارع)

(قال أصحاب التاريخ) لم يتنازل ملك آشور عن سيادته على مصر إلا لاضمحلال دولته وضعف شوكته وخروج مصر عن طاعته فحكمت نفسها مدة فلما رأى ملك الإيتيوبيا خروج مصر عن طاعته واستقلالها فاجأها وأغار عليها وأدخل المصريين تحت حكمه وتحرير الخبر أنه لما مات (أورد أمن) ملك الإيتيوبيا قام بالأمر بعده ابنه (نوات ميامون) المذكور وكان حازماً قوى البطش فرأى فى منامه أنه سيملك إقليمى مصر القبلى والبحرى ففرح بهذه الرؤيا واستبشر بها وأخذ فى إعداد الجند ومعدات القتال وهاجم الوجه القبلى بجيش ضخم فلم ير من أهله مخالفة وكانت طائفة من الإيتيوبيين قد أقامت بطيبة وأسست فيها حزباً قوياً جداً وكذلك فى ضواحيها وحازت لنفسها رتبة الكهانة فى معبد (أمون) فأمدوا الملك (نوات) المذكور عندما هم بالإغارة على مصر وساعدوه ومهدوا له الموانع والعقبات فكان لذلك استيلاؤه على الوجه القبلى بغير مقاومة ولا منازعة وبعد أن رسخت قدمه فى الوجه القبلى سار لقتال الوجه البحرى فركب أمراؤه لقتاله أيضاً. فحاربهم وردهم خاسئين فانحازوا إلى القلاع والحصون ولم يبرزوا لقتاله وقد طال انتظاره فملّ وعاد إلى منف على غير هدى من أمره واجتمع الأمراء المذكورون وتشاوروا فى الأمر فأشار كبيرهم وصاحب الرأى فيهم المدعو (بكرور) بوجوب الطاعة إلى (نوات) وأن لا يخالفوا له امراً فوافقوه وساروا إلى لقاء (نوات) بمدينة منف وقدموا له الطاعة ففرح بذلك فرحاً عظيماً وتم له الأمر.

قال صاحب العقد الثمين ونقش هذه القصة على حجر وجده مريت باشا فى أطلال مدينة (نيتا) بجبل برقل سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية وهو محفوظ الآن بمتحف بولاق وهذا تعريبه بديباجته.

(الديباجة)

ظهر الملك العظيم (نوات ميامون) يوم ولايته كالمعبود (توم) وحكم العالم فكان

ملكاً عظيماً حائزاً للسيادة على الدنيا بأسرها ذا ذراع منصور وعزم مشهور أوّل مبارز في القتال ومحارب ذى قوّة كالمعبود(مونت) فى الصيال، وكان شجاعاً كالأسد المهول فطناً (كهيمشرت) أى هرمس المشهور ذا أبهة فى سياحته بالبحر لنوال المقصود سائداً على كل أرض وحدود، كيف لا وقد ملك مصر بدون قتال، ولا معارضة له من أمراء وأبطال ملك الوجه القبلي والبحرى (بيكارع) سلالة الشمس (نوات ميامون) محبوب (أمون) ساكن (نبتا)

(القصة)

(فى السنة الأولى من حكمه) رأى فى المنام أثناء الليل ثعبانين أحدهما على يمينه والآخر على يساره فلما استيقظ ولم يجدهما طلب من المعبرين تأويل هذه الرؤيا فقالوا له إنك ستملك الوجه القبلي والوجه البحرى ويضيء على رأسك تاجاهما وتدخل مصر تحت يدك طولاً وعرضاً ويكون (أمون) مساعداً لك دون غيره فى هذا الأمر فارتقى هذه السنة على كرسى الملك ثم خرج من محله كالأسد إذا انطلق من أجمته وصحبه كثير من الخلق. فقال لهم أحق رؤياى فأنال المرام أم هى أضغاث أحلام رأيتها فى المنام . ثم توجه إلى (نبتا) عاصمة الإيتيوبيا وقتئذ فلم يعارضه أحد عند دخوله فيها وتمتع بمشاهدة معبودها (أمون) فوق جبله المقدس وأحضر له الأزهار وأخرجه من محله وتقرب إليه بقربان يليق به وهو ستة وثلاثون ثورا وأربعون كأساً من المشروبات وتطوع له بمائة حمار ثم سار إلى مصر فى النيل بعد أن تضرع كثيراً لهذا المعبود ذى الاسم المكنون زيادة عن غيره من المعبودات ولما قرب من جزيرة أسوان عبر النيل وتوجه إليها ودخل هيكل (خنوم رع) معبود الشلالات وأخرج تمثاله وتقرب إليه بقربان كما تقرب بالخبز والمشروبات لمعبودات منبعى النيل ثم انحدر من عطفة النيل هناك وتوجه إلى مدينة (خفت جنبس) بقسم طيبة التابعة (لامون) وتوجه منها إلى مدينة طيبة ودخل هيكل معبودها (أمون رع) فقابله الكهنة والخدم وكللوه بأزهار هذا المعبود ذى الاسم المكنون فانشرح صدره لا سيما لدى مشاهدته المعبد ثم أخرج تمثال (أمون رع) وعمل له موسماً كبيراً فى جميع أرجاء البلد وبعد ذلك سافر فى النيل إلى الوجه البحرى فقابله سكان الشاطيء الشرقى والغربى مظهرين الفرح والسرور قائلين توجه مصحوباً بالسلامة فى ذاتك الأمن وفى جوهرك حياة الإقليمين توجه لتصلح الهياكل التى دمرت وتقيم تماثيل المعبودات كما كانت وتصرف لهم المرتبات وتبعث الرحمات إلى الأموات وترجع كل كاهن إلى محله لإحياء شعائر الدين. هذا ما كان من أمر الحزب المطيع

له وأما حزب العصاة الذين كانوا يريدون قتاله فتبدل بعضهم له خوفاً منه وخرجوا عليه بمجرد ما قرب من منف وحاربوه فأحدث فيهم مذبحة كبيرة لا يعلم فيها عدد القتلى واستولى على منف ثم زار معبد (بتاح رستيف) وتقرب إلى (بتاح سوكر) بقربان وتعبد إلى المعبودة (سوخت) الشهيرة بالمحبة وانشرح صدره مما فعلته المعبودات من مساعدته رعاية لمعبوده (أمون) ساكن (نبتا) وأمر بتوسيع معبد (بتاح) وأنشأ فيه إيواناً جديداً ولم يكن قبل فيه إيوان فبناه بحجر غشاه بالذهب وكساه بخشب الصنط وملأه بالبخور المحضر من بلاد العرب واتخذ أبوابه من النحاس الأحمر اللامع وطرازه من الحديد وبنى خلفه محلاً لحلب حيوانات المعبد، وكانت مائة وستة عشر رأساً من الماعز وكثيراً من العجول المطلقة خلف أمهاتها، وبعد أن أتم ذلك توجه لمحاربة أمراء الوجه البحرى فالتجئوا إلى أسوارهم وتركوا له الجهات فانتظر مبارزتهم مدة من الأيام فلم يبرز أحد لقتاله فعاد إلى منف واستقر بقصره هناك، وعزم على أن يرسل فرسانه فى طلبهم إلا أنه قبل توجه فرسانه أخبره حجابه بأنهم أتوا إلى الجهة التى كان ينتظرهم فيها فسأل ماذا يطلبون هل أتونى محاربين أم طائعين رجاء نجاتهم فسألهم الحجاب. فقالوا بل أتينا طائعين لمولانا الملك. فقال الملك: وجب على شكر (أمون) معبود طيبة العظيم فى جبله الكريم على كل من آمن به الحفيظ لكل من أحبه معطى القوة لكل من اتبع سبيله وأطاع أمره المرشد لكل من سلك طريقه. وهو الذى أرانى فى الليل ما نظرته فى النهار. ثم قال - إن ما يريده الأمراء لا يمكن إنجازه الآن فقالوا له إنهم وقوف بالباب فخرج من قصره وكانوا مؤمنين بالشمس المنيرة فى أفقها فلما رأوه خروا على جباهم احتراما لهيئته. فقال: لقد تحقق ما أخبرنى به المعبود وتأكد نفاذ أمره الموعود فسأفعل ما يأمرنى به ولى عبرة فى ذلك بما حصل لى الآن حيث تحقق لى وقوع ما أمر به وتأكد عندى أن الشمس المعبودة تحبنى وأن (أمون) جعلنى مباركاً وكيف لا وإنى تربصت هذا الأمر حتى تحقق لى وقوعه فأنا كخادم يسعى فى مصالح سيده وعلى الخادم أن يعلم ما يليق بمولاه وليس لى أن أتعرض لطلب ما يعدنى به بل ينبغى أن أتربص لما سيقع لعل عنايته تسعدنى وتسعفنى. فقال الأمراء: نسأل هذا المعبود الذى نصحك أول الأمر أن يكون مرشداً لك ودليلاً وأن يجرى الخير على يدك وأن لا يكذبك فيما تقوله فأنت ملكنا وسيدنا وبعد ذلك قام (بكرور) ولى العهد وأمير مدينة (بسانبو) مخاطباً للملك بقوله:

إنك تميت وتحيى من تريد بدون أن يلومك أحد فتبعه الرؤساء جميعاً قائلين هل لنا أن نستنشق منك أيها الملك نسيم الحياة إذ لا معيشة لأحد من دونه فنحن نروم أن

نخدم (أمون) كتوابعك حسبما تمنيت يوم تسلطنك فلما سمع الملك كلامهم انشرح فؤاده وأعطاهم خبزاً ومشروبات وخيرات كثيرة وأبقاهم عنده عدة أيام وهو يغمرهم بالعطايا والإحسان مع كثرتهم ثم قالوا فيم الإقامة هنا ألم تتم مقاصد سيدنا وحاكمنا، فقال لهم الملك: لماذا تعجلون بالرحيل فقالوا يلزمنا الرجوع إلى بلادنا لنقوم بواجبات رعايانا وعبيدنا فأذن لهم بالذهاب إلى بلادهم والتمتع بمعيشتهم ثم أتاه سكان البلاد القبلية والبحرية مقدمين له الجزية والخيرات من الصعيد والبحيرة وبذا اطمأن قلب الملك (بيكارع) سلالة الشمس (نوات ميامون) سلطان الوجه القبلي والبحري دام بصحة وعافية وحياة مرضية ودام ملكه إلى الأبد . اهـ.

ومات الملك (نوات ميامون) بعد أن حكم ثلاث سنين وبموته زالت الدولة الخامسة والعشرون وقامت بعدها الدولة السادسة والعشرون.

(الفصل التاسع)

(في الدولة السادسة والعشرين الصاوية)

(قال أصحاب التاريخ) قد حصلت فترة بين مدة ملك الدولة الخامسة والعشرين وهذه الدولة التي هي السادسة والعشرون عبارة عن خمس عشرة سنة كانت فيها حكومة البلاد حكومة جمهورية التزامية. قالوا: وبيان ذلك أنه لما أحس أمراء البلاد المصرية بما ألم بالبلاد من الذل والعار والانحطاط والبوار بسبب بسط يد الأغراب عليها واستعظامهم البقاء تحت سلطنة الدولة السودانية مع ما بذلته هذه الدولة من مزيد العناية بأحوال الرعية وتحسين حالة البلاد بالعمائر العظيمة والمنافع الجليلة. قاموا وعقدوا معاهدة بينهم على إنقاذ البلاد من أيدي هؤلاء الطامعين واتحدوا قلباً وقالباً وقاتلوا الدولة السودانية قتالاً عنيفاً أياماً كثيرة حتى أجلوها عن البلاد ثم تقاسموا بينهم الملك فصارت بين اثني عشر حاكماً من أمراء المدن المتعاهدين كل أمير يحكم مدينة إقليم ويحكم ذلك الإقليم بتمامه فسميت هذه الحكومة بالمقاسمة الاثني عشرية فكانت عبارة عن جمهورية التزامية كما تقدم القول وكان من هؤلاء الأمراء أمير اسمه (بسامتيك) صاحب مدينة صا الحجر فتاقت نفسه إلى الاستقلال بالملك والاستبداد بالعظمة فقام وقاتل الأمراء وطال القتال بينهم كثيراً حتى خلص البلاد من أيديهم واستولى عليها واستبد بحكمها فصارت بعد ذلك مملكة واحدة. قالوا: وقد استعان بسماتيك هذا على نزع الحكومة من أيدي هؤلاء الأمراء بطائفة من جنود

اليونـان المتطوعة فـقد حكى هيـرودوتس المؤرخ واقعـة تملك بسامـتيك على مـصر واستبداده بحكمها على وجه غـريب فقال إن بعض الكهنة كان قد أنبأ هؤلاء الأمراء المتعاهدين أنه سـيأتى يوم يتقربون فـيه جميعـاً بالشراب إلى المعبود (بتاح) فـيشرب أحـدهم شرابه فى قـدح من حـديد فمن شـرب فى هذه الكاس تولى ملك البـلاد المصرية بأسره. قـال: وكانوا يشربون شرابهم فى أقداح من ذهب فبـينما كان هؤلاء الأمراء الاثنا عشر مـجتمعين للتنادم على الشراب تقربـاً إلى المعبود (بتاح) ولم تكن أقداح الذهب الموضوعـة بينهم إلا أحد عشر قدحا لسـهو حصل من الكاهن الموكل بتقديمها فبقى أحدهم وهو الأمير (بـسامتيك) بدون قدح فنزع مغفره من رأسه وكان من حديد فشرب به الشـراب فتذكر رفقاؤه ما أنبأ به الكاهن وتنبـهوا لذلك فأكرهوه على أن يهاجر إلى بعض اجمات الوجه البحرى خـشية أن يستبد بالملك دونهم فأقام بتلك الأصقاع منفيا وبيـنما هو كذلك استقدم إليه أحد الكهان وسـأله عما سيقع له فبشره بأنه سيأتى يوم يستبد فيه وحده بحكم البلاد وأن ينصره على أعدائه رجال من حديد يقـدمون عليه من جـهات البحر الأبيض فـاتفق أنه رسا على سواحل مـصر جماعة أصـحاب صيال من ملاحى اليونان مسلحيـن بأسلحة من حديد وطلعوا إلى البر على مقـربة من منازل (بسامتيك) يريدون النهب والسلب فلما علم (بسـامتيك) بنزولهم فطن لأمرهم وتذكر بشرى الكاهن له فـبادر إليهم ورحب بهم وأكرم نزلهم ووعدهم بالأنعام فعاهدوه وحالفهم على أن ينصروه فحالفوه ودخلوا فى خدمته فقام بهم على الأمراء وشن الغـارة عليهم وانحاز إليـه أيضاًحزبه من أهل البلاد فـتلاقى جند الفريقين واقـتتلوا فظفر (بسامـتيك) بهم وخلعهم من مناصبهم واسـتبد بالملك وحده فكان هو مبدأ العـائلة الصاوية السادسة والعشرين وبه عاد إلى مـصر مجدها الأول وشوكتها القديمة وطمحت إلى الغزوات والفتوحات الجسيمة فنالت من توسيع دائرة ملكها بعد الضـعف ما شاءت وقد حقق بعض أهل الاستكشـافات الجديدة أن الدولة الاثنى عشريـة أقامت متحالفـة خمس عشرة سنة ويظهـر لبعض المؤرخين أن ملوك الدولة السادسـة والعشرين المذكـورة بل والأمراء الاثنى عشـرية أيضاً هم من نسل الأمراء الأغـراب وأنهم من مغاربة برقة وأنه قـدجعلهم كثيـر من المؤرخين من أبناء أمراء مـصر المتأصلين ولكنهم مع ذلك كـانوا من الشهرة وعلو الهـمة بمكان إذ أورثوا البلاد السعادة والرفاهية مدّة مـائة سنة وثمان وثمانين سنة بما فعلوه من إحياء العلوم والفنون والصنائع وبناء الهياكل القديمة بعد اندراسها وتجديد المعابد العظيمة، وغير ذلك من الأعـمال الجسيمـة التى أحدثوها بمدينة صاالحجـر تخت ملكهم (قال بعض كـتاب الأخبـار) ولم تزل بقـايا تلك الأعمـال إلى الآن تدل على عظم تلك

المدينة التى كان حولها ما لا يحصى من الحدائق والبساتين والطيور المغرّدة والوحوش المستأنسة والأنهار المطردة والرياض المونقة والقصور المرتفعة ما لا يدخل تحت الوصف وبظهور (بسامتيك) المذكور ظهرت الدولة السادسة والعشرون فكان مبدأ ظهورها سنة خمس وستين وستمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف قبل الهجرة ومدّة حكمها مائة سنة وثمان وثلاثون سنة وعدد ملوكها تسعة وقيل ستة وسيأتى ذكر مآثر كل منهم بعد.

(فى الملك بسامتيك الأول)

(تولى بسامتيك المذكور) الملك مستقلاً سنة خمس وستين وستمائة قبل الميلاد المسيحى أى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف قبل الهجرة المحمدية، وكان رجلاً حازماً محمود السيرة محباً للعلوم والفنون والصنائع فلما استقر به المنصب وسع ملكه بالفتوحات ففتح الأقاليم القبلية بدون قتال واتصل بالشلال الأول وتزوّج بالأميرة (شابنت تب) بنت الملكة (أمن ريتس) التى كانت حاكمة على الأقاليم القبلية ليحفظ لنفسه ولذريته من بعده الملك حسب الرسوم القديمة إذ كان لا يعتبر الملك ملكاً حقيقياً إلا إذا كان متأصلاً أو متزوجاً من بيت الملك كما تقدم الكلام على ذلك فى محله، وكانت مصر فى سلطنته قد مات أكثر رجالها وتولاها الخراب بأسباب حروبها المتتابعة مع الآشوريين والإيتيوبيين فقد حاصر الآشوريون مدينة منف ونهبوها ودمروا مدينة طيبة وأحرقوها مرتين وخربوا أكثر المدن والبلاد العظيمة فاشتغل المصريون بقتال الأعداء والدفاع عن الوطن وتركوا النظر فى المنافع العمومية فطمت الترع وسدت الطرق التى عنى سباقون الملك بفتحها واندرست معالم تلك الأعمال النافعة أو كادت وزالت بهجتها فعمد (بسامتيك) الملك إلى إحياء البلاد وإعادة رونقها القديم فأصلح الترع وسهل الطرق وأعاد الأمن والراحة إلى سابق مجراهما وبث العلوم والصنائع بين الرعية وعمر بيوت العبادة وبنى واجهات معبد (بتاح) فى مدينة منف من الجهتين الشرقية والقبلية وأنشأ فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبرى التى كان يعلف فيها الثور (أبيس) وأصلح ما تهدم فى معبد الكرنك وحث الناس على اكتساب العلوم والمعارف وشدد عزائم أمرائه وكبار دولته على ذلك فاتقنت فى أيامه صناعة النقش والتصوير والرسم والتمثيل وجمعت التماثيل بين التناسب والاعتدال وتساوت فيها الأعضاء من حيث التناسب، وقد كانت فى عصر ملوك منف والملك رمسيس الثانى تصنع إما عريضة وإما كبيرة غير متناسبة الأعضاء وأحسن سياسته مع بقية الممالك وشيد حصون البلاد وحصن

قلاعها وأنشأ المعاقل فى مضايق طريق الشام من الجهة الشرقية وفى ضواحى بحيرة المنزلة من الجهة الغربية وفى الشلال الأول من الجهة القبلية إذ كان للمصريين أعداء ثلاثة لا ينكفون عن شن الغارة عليهم واختلاس الفرص المناسبة للظفر بهم وهم الآشوريون من شمالها والإيتيوبيون من جنوبها ومملكة القيروان التى استحدثها اليونان على شمالها أيضاً، وقد نزلت بها طوائف من مغاربة ليبيا وحصن مدينة (دفنه) القريبة من قلعة (تسال) لمنع إغارة الآشوريين ووضع فى جزيرة (أسوان)، (ومريا) مرابطين لمنع إغارة مغاربة برقة والسودان كما رواه هيرودوتس (قال ليبسيوس) فلما أتم هذه الحصون والمعاقل انتقل من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم فغزا النوبة واستظهر عليها ولم يعلم تفصيل هذه الواقعة غير أن جنود اليونان الذين استأجرهم لهذه الغزوة نقشوا اسمه وأسماء قواد جنوده على جدران التماثيل الموجودة فى معبد (أبى سنبل) . اهـ. ويقول المصريون إنهم دخلوا (قرقميش) التى على مقربة من الشلال الثانى وأدخلوها تحت حكم مصر وسماها اليونان بعد ذلك (دوديكاشين) أى اثنى عشر شيئاً وذلك لأن المسافة الواقعة بينها من الجهة الجنوبية وبين جزيرة أسوان هى اثنا عشر شيئاً يعنى ثلاثين مرحلة ثم سار بجنوده أيضاً يريد فتح الشام فقاتل أهل فلسطين وملكها وأخذ مدينة (اشدود) إحدى مدائن الكنعانيين ولم يتوغل فى داخلية البلاد بعد هذه الغزوات.

قال هيرودوتس المؤرخ وبعد هذه الفتوحات حلت بمصر مصيبة عظيمة وداهية جسيمة وذلك أن (بسامتيك) المذكور سلك مسالك أسلافه الفراعنة من تقريب الغرباء إليه وتوطينهم فى بلاده فرغب فى مصر الأغراب وأتوها من كل صوب وحدب ووفد إليه كثير من اليونان والكاريين فأكرم نزلهم وأقطعهم أرضاً على سواحل بحر الطينة (قال استرابون) وفى ذلك الوقت جاء إلى مصر أيضاً أقوام من الميليزيين فى ثلاثين سفينة فرسوا بها على سواحل رشيد ونزلوا هناك وأنشأوا فى ذلك الموقع العظيم معسكراً كبيراً للغاية وأقاموا لهم أحكاماً مخصوصة سموها بالمعسكرى (الميليزى) وانحاز إليهم أيضاً آخرون من الأغراب النزلاء فكثروا ونموا وقويت شوكتهم وأرسل لهم (بسامتيك) الملك بعض الغلمان من المصريين ليعلموهم اللغة اليونانية ليترجموا منها ما يحتاج إليه الحال باللغة المصرية فتخرج الكثير من هؤلاء الغلمان واتسع بسبب ذلك نطاق التجارة فنهضوا إلى تأسيس مدرسة فى الإقليم البحرى لتعليم الشبان فن الترجمة وظن بسامتيك الملك أنه باختلاط قومه بأمة برعت فى الصناعة تنبث فيهم بأسباب هذا الاختلاط روح البراعة فيصيرون مع تمادى

الوقت بارعين كرجال تلك الأمة، ولكنه لم يصب ظنه المرمى الصحيح إذ كان الغرباء يسعون منذ قرنين فى تكدير راحة البلاد وإيرادها موارد البوار وقد كره المصريون لذلك مخالطتهم ولا سيما مخالطة اليونان الذين أتوا إلى مصر فى ذلك الحين وما قبله بقليل ، قال بعض المؤرخين: وربما كان للمصريين بعض الميل إلى الأمم التى كانوا يعرفونها قديماً كالفنيقيين والإسرائيليين والآشوريين ولكنهم لا يحبون من حدث عليهم من نزلاء اليونان.

ولما استقر اليونان بمصر شاهدوا من المصريين التمدن والفلاح فأولعوا بمصر ومالوا إلى ديانتها وعلومها فأرادوا أن يذهبوا بعبادتهم مذهب عبادة مصر وأن يخلطوا عائلاتهم الشهيرة بالعائلات الملوكية المصرية فشبهوا معبودهم (أثينه) بمعبود المصريين (نيت) الذى بصاالحجر كما رواه ديودور الصقلى. قال هيرودوتس المؤرخ وأكثروا من تلك التشبيهات حتى ملئوا كتبهم منها وأدخلوا أطفالهم المدارس المصرية ليتعلموا فيها العلوم والحكمة فمن تخرج عليها من مشاهير اليونان (سولون)، (وفيساغورس)، (وأدوكس)، (وأفلاطون) ومع ذلك فقد كان المصريون ينظرون إليهم بعين المقت ويعتبرونهم أمة نجسة فكانوا يجتنبون معاشرتهم كى لا ينجسوا منهم بل كانت العامة من المصريين لا تأكل ولا تشرب مع اليونان ولا تستعمل سكاكينهم ولا طناجرهم وكان أصحاب المظاهر يعتبرونهم كطفل جاهل شب بين عائلة أصلها متوحش فكانوا يخفون هذه الكراهة ثم ظهرت بعد ذلك للعيان إذ كثر ميل الملك (بسامتيك) إليهم أى إلى اليونان وإلى الكاريين إحدى طوائفهم فكان يعطيهم الرتب العالية ويقربهم منه لمساعدتهم إياه على قهر أعدائه كما تقدّم القول واتخذ له منهم حراساً وألف منهم جناح الجيش الأيمن الذى هو علامة الشرف والنصرة وأقام منهم المرابطين بعد أن كان المحافظون على البلاد من المصريين والمشواشيين وقد اختصوا بها من قديم الزمان فلما رأوا هذا كله ولا سيما نزع المحافظة على البلاد من أيديهم وبقاء عساكر اليونان المحافظين على (مريا) ، (ودفنه) وجزيرة أسوان بدون تغيير ولا انتقال من مراكزهم مدة ثلاث سنين خلافاً للنظام المتبع فى ذلك هاجوا وماجوا وعزموا على ترك الأوطان فاجتمعوا وتشاوروا فى الأمر فاستقر رأيهم على أن الرحيل وترك الأهل والوطن خير من الخروج وشق عصا الطاعة فاجتمع منهم نحو المائتين وأربعين ألفا وكلهم شاكو السلاح وساروا قاصدين بلاد الإيتيوبيا ولم يصل خبرهم إلى (بسامتيك) الملك إلا بعد خروجهم من مصر فسار فى إثرهم فى عدة كثيرة من قومه حتى لحقهم وأخذ يلاطفهم ويستعطفهم

أن لا يتركوا معبودات بلادهم ولا يفارقوا أهلهم وولدهم فقال له أحدهم لا حاجة لنا بك الآن فإننا نرزق بنساء وأولاد فى أى أرض كنا وساروا فى طريقهم فرجع بسامتيك على عقبه ومازالوا حتى دخلوا بلاد الإيتيوبيا فتلقاهم ملكها بالترحيب وأكرم نزلهم واتخذهم له جنداً ثم أنزلهم بين النيل الأبيض والنيل الأزرق فنشأت منهم أمة عظيمة شديدة البأس اشتهرت بطائفة (الاسماخ) أى حجاب ميسرة الملك كما رواه هيرودوتس ثم سماهم السياحون من اليونان (أتوموليس وسمبرتيس) فبقى هذا الاسم مشهوراً بهم إلي القرن الأول من الميلاد.

وقد عاد بسامتيك الملك فندم على فعله حيث رأى أن المحافظة على بلاده أمست فى قبضة الأجانب من اليونان بعد أن كانت فى أيدى أهلها وشق عليه الأمر جداً ولكن هيهات أن يرد ما فات فجعل يشتغل بتنظيم جيش جديد من أبناءالبلاد وأنشأ سفنا للحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع إلى أن مات كما رواه هيرودوتس سنة إحدى عشرة وستمائة قبل الميلاد ودفن فى مدينة صاالحجر فقام بالأمر بعده ابنه (نيخاوس) الثانى المعروف بفرعون الأعرج وكانت مدة حكم بسامتيك نحو أربع وخمسين سنة.

(فى الملك نيخاوس الثانى)
(المعروف)
(بفرعون الأعرج)

تولى الملك بعد موت أبيه (بسامتيك) وكان كأبيه له عناية واهتمام بتحسين أحوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة وكان ميالاً إلى الغزو والفتوح واتساع المملكة ونفوذ الكلمة فاهتم بالعساكر والأجناد الذين نظمهم أبوه وأكثر من إنشاء السفن الحربية وفتح على الشام أبواب الحرب وما زالت جنوده تقاتل حتى هزمت جنود الشام وتغلبت على كثير من المدائن وتملك عليها من البر والبحر وقتل ملكها (يوشيا) فى مجدل المذكورة فى التوراة باسم مجدو فبايع أهل الشام ولده يهويا حاز فقاتله (نيخاوس) وظفر به وخلعه وذلك عند رجوعه من غزوة بابل وولى مكانه أخاه (الياقيم) وضرب الخراج على شعب يهوذا فى كل عام مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب وجاء بيهويا حاز إلى مصر أسيراً وبقى بها إلى أن مات وفى أيام (الياقيم) هذا تولى بختنصر الأول ملكاً على بابل فجهز الجيوش وأكثر من معدات الحرب وزحف على أورشليم وملكها واسترد ما كان قد أخذه (نيخاوس) فرعون

مصر من بلاده فانقطع بذلك حكم فرعون عن أورشليم وخسر ما كان اكتسبه من الممالك والمدن فى آسية وعقد مهادنة مع (بختنصر). وقد كان (بختنصر) على عزم مهاجمة مصر وأخذها عنوة وعاد فى نفر قليل إلى بابل من طريق صحراء العرب كما رواه بيروس.

قال بعض المؤرخين ولما عاد الملك (نيخاوس) إلى مصر لم يسكن غضبه على ملك بابل وقومه الآشوريين ولم يهدأ له بال فجيش جيشاً عظيماً وأعد كثيراً من سفن الحرب وعمد إلى إثارة الفتن بين الآشوريين ودس إلى (الياقيم) ملك يهوذا أن يخرج على ملك الآشوريين. وكان (الياقيم) يبغض ملك آشور وينقم عليه لتسلطه على مملكة يهوذا فأطاع لذلك (نيخاوس) وعصى (بختنصر) وخرج عن طاعته فسار إليه (بختنصر) فى جيش عظيم وحاربه حتى استظهر عليه وضرب عليه الجزية فعاد (نيخاوس) وحرضه على الخروج ثانية فعصى ونكث عهده مع (بختنصر) فأرسل إليه (بختنصر) قائداً من قواده ومعه عساكر بنى (أمون)، (وموآب) فحاصروا أورشليم وشددوا عليها الحصار وفى أثناء ذلك مات (الياقيم) فقام بالأمر بعده ابنه وحضر (بختنصر) إلى أورشليم وأمر فشددوا عليها الحصار حتى استسلمت فخرب بيت المقدس وأخذ ما فيه من الخزائن والتحف وكذلك ما فى خزائن ملك يهوذا ، قال مانيطون ، ومع ذلك فقد مات (نيخاوس) المذكور بعد هذه الغزوات بستين ولم يبلغ المراد بأخذ بلاد الشام وكان (نيخاوس) المذكور ذا عناية شديدة بتدبير داخلية مملكته وتحسين أحوال رعيته وتوسيع نطاق التجارة فتواتر فى أيامه الاختلاط بالأجانب واتسعت فروع المعاملات كما تقدم القول فخطر على باله أن يصل بحر القلزم بالبحر الأبيض الرومى بواسطة قطع برزخ السويس بترعة موصلة إلى النيل على امتداد أربع مراحل بحرية عرضها يسع سفينتين متحاذيتين ومبدأ هذه الترعة من مدينة بسطة وآخرها بركة التمساح التى كانت تسمى قديماً بالبحيرة المرة حيث كان بحر القلزم يومئذ فشرع فى هذا العمل الجسيم وجدّ فيه وبالغ فى الاجتهاد فمات فيه من العمال مائة وعشرون ألفاً على ما حكاه هيرودوتس المؤرخ فأوقف (نيخاوس) العمل نظراً لما أخبره به بعض الكهان من أن حظ الانتفاع بهذا المشروع الخطير لا يكون إلا لدولة أجنبية قال (ارسطاطاليس) إنما ترك (نيخاوس) وغيره من الفراعنة هذا العمل بعد أن ابتدؤا فيه لما أعلمهم المهندسون بأن سطح البحر الأحمر أعلى من أرض مصر فلذلك لم ينته العمل إلا إلى بركة التمساح. قال بعض المؤرخين: وقد شرع دارا الأكبر ملك فارس فى فتح هذا البرزخ ولكنه عاد فأوقف العمل خوفاً من غرق البلاد

بسبب ارتفاع سطح البحر الأحمر عن أرض مصر ثم أتى الملوك البطالسة من بعد فتمموه وأوصلوه إلى بحر القلزم واستعانوا على حفظ الأراضى المصرية من التلف بأبواب وأقفال ورياحات فسهلت بأحداثه أسباب النقل وراجت التجارة، ولكنه لم يلبث أن طمّ وبقى كذلك إلى دخول عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأمر أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب بفتحه ثم سد فى زمن المنصور الدوانقى العباسى.
قلت: وقد فتحه ديلسبس الفرنساوى على عهد الخديو إسماعيل وصار خط الانتفاع به لدولة أجنبية هى دولة الإنجليز ـ كما قاله الكاهن المصرى.

ولم يقعد الكف عن فتح البرزخ المذكور للملك (نيخاوس) همة ولا أضعف له عزيمة بل تاقت نفسه إلى معرفة محيط قطعة إفريقية؛ والوقوف على مسالكها البحرية، وكان أهل صور وقرطاجة قد استكشفوا سواحلها ورأوا فى بعض بلدانها كثيراً من الذهب والعاج والأخشاب النفيسة والخيرات العظيمة ولكنهم لم يأتوا منها بشىء لما بين الأمتين من البغضاء والشحناء، وقد حرموها على أنفسهم ومنعوا غيرهم من الوصول إليها فأرسل (نيخاوس) طائفة من ملاحى (الفنيقيين) بسفنهم إلى تلك البلدان فطافوا حول إفريقية فى ثلاث سنين وكان مسيرهم من البحر الأحمر ومنه إلى المحيط الهندى ثم إلى المحيط الأطلانطيقى حتى بلغوا بوغاز جبل طارق فعبروا منه إلى البحر الأبيض وساروا حتى وصلوا إلى مصر وحرروا بالدقة ما ظهر لهم من الأماكن والمسافات فعلمت سواحل إفريقية وما حولها من البحار على وجه صحيح، ولكن لم يلبث علمها حتى غاب عن العقول وتناساه الناس وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

(ومات نيخاوس) الملك بعد أن حكم سبع عشرة سنة كما زواه مانيطون الكاهن. وقال هيرودوتس بل ست عشرة سنة والأول أصح وأشهر. فقام بالأمر بعده ابنه (بسامتيك) الثانى الملقب بـ (سنفرأبرع).

(فى الملك بسامتيك الثانى)

(تولى الملك بعد أبيه) ولم يستقر به المنصب حتى قام عليه ملك الإيتيوبيا فسار لقتاله فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة قبل الميلاد وغزاه وظفر به ومات عند رجوعه من الغزو فى نحو السنة السادسة لملكه، ولم يعلم من سيرته شىء سوى أنه وجد حجر فى مقبرة العجل (أبيس) بسقارة يستفاد منه أن هذا العجل ولد فى السابع من بؤنة سنة ست عشرة من حكم الملك (نيخاوس). الثانى ودخل معبد (بتاح) فى التاسع من أبيب من السنة الأولى من حكم الملك (بسامتيك) الثانى ومات فى الثانى

عشر من برمـودة سنة اثنتى عشرة من حكم هذا الملك. قال صاحب العقـد الثمين: ومن هذا يتبـين أن مدة حـياة العجل المذكـور كانت سـبع عشرة سنـة وستة أشـهر وخمسة أيام ويستدل منه أيضاً بوجه التـحقيق على مدة حكم نيخاوس الثانى وبوجه التقريب على مدّة حكم بسامتيك الثانى. اهـ.

ولما مات بسامتيك الثانى قام بالأمر بعده ابنه (وح أبرع) الملقب (بحعع أبرع).

(فى الملك وح أبرع)
(ويقال له أيضاً)
(فرعون حفرع)

قد ذكر هذا الملك فى التوراة باسم حفرى وان (صـدقيا) ملك يهوذا استنجد به على بختنصـر ملك فارس، وكان أرمياء النبىّ فى هذا الحـين حياً وقد أنذر صـدقياً بخراب مملكة فلسطين ووقوع إسرائيل فـى الأسر إن لم يطع ملك بابل ويخضع إليه فلم يلتفت صدقـياً لقول أرمياء النبـىّ، وقد عميت بصيـرته وخرج عن طاعة ملك فارس وجاهره بالعصيان وامتنع من أداء الجزية وتحالف مع (وح أبرع) هذا على قتال ملك فارس فسار (وح أبرع) لنجدة صدقـياً بالشام فى جيش عظيم، وقامت الحرب بينهمـا وبين ملك فارس فلمـا التقى الجـمعان وبرزت جنود فـارس وقع الرعب فى قلوب العساكر المصريـة وفشلوا فاستظهرت عليهم عساكر بابـل وهزمتهم شر هزيمة ثم ركب (بختنصر) بجيوشه على إسـرائيل وغزا بلادهم وقبض على صدقيا ملكهم وأولاده وأمر بهم فقتلـوا بين يدى أبيهم صدقياً وفقأ عـينى صدقياً فهاجـر كثير من اليهود إلى أرض مصـر فاستقبلهم (وح أبرع) وأقطعهم أرضاً بقـرب (دفنه) فانتشروا فى (مجدل)، (ومنف) وسكن بعـضهم بصعيد مـصر فلما ظفر (بختنصـر) باليهود وخلص من حروبه بآسية سار نحو مصر يريد الانتقام من ملكها لمحالفته صدقيا ملك إسرائيل، وقد كان يطمع فى الاستيلاء عليها حـيث أخبره أرمياء النبىّ بالغلبة عليها وإدخالها تحت حكمه.

قال المؤرخ يوسـفوس وقد أغار (بخـتنصر) على مصـر وقاتل الملك (وح أبرع) وقتله وخرب مـصر، وأقام عليها واليـاً من قبله ثم عاد إلى وطنه وأخذ معـه جميع اليهود الـذين استوطنوا بمصر. قلت: ولم يعـول أصحاب التاريخ على مـا قاله هذا المؤرخ إذ هو مخالف لما نقله هيرودوتس. فقد قال: إن المصريين يقولون بأن الهزيمة وقعت على عساكر بابل وأن سفن الملك (وح أبرع) كانت مدت بملاحين من اليونان

فضربت السفن التي كانت في خدمة البابليين في تلك الغزوة وأن العساكر المصرية رفعت الحصار عن مدينة صيدا والتجأ أهل الشام إلى التسليم بغير قتال فدخلت حينئذ سواحل الشام تحت سلطتهم رغم أنف (بختنصر) واحتلت الجنود المصرية جهة يقال لها (جبل) وشيدوا فيها معبداً استكشفت آثاره حديثاً كما رواه (رينان) فلما تم النصر للملك (وح أبرع) داخله الغرور وتعاظم وتكبر وادعى أنه أكبر أسلافه سطوة وأوسعهم كلمة. قال هيرودوتس ولكنه لم يلبث في الراحة طويلاً حتى استنجده سكان سواحل ليبيا على قبائل اليونانيين القاطنين في القيروان فخاف أن يرسل لنجدتهم جنوداً يونانية من الذين كانوا في خدمته لأنهم من أبناء جلدتهم فأرسل لهم فريقاً من المصريين، فلما التقى الفريقان عند (إيرانه) اقتتلا فكانت الغلبة على المصريين وانهزموا شر هزيمة ومن بقى منهم كرّ راجعاً إلى مصر فقامت الفتنة عند ذلك على الملك (وح أبرع) وخرجت عليه جنوده المصرية، وقامت أيضاً طوائف الكهنة على الملك إذ ظنوا أنه إنما أرسلهم إلى ليبيا لهلاك من لا يحبه واتسع نطاق الفتنة وعمت جميع البلاد وارتفع لهيبها، وكان ممن قلده الملك (وح أبرع) قيادة بعض الجنود المصرية رجل من العامة اسمه (أحعمس) وكان فطنا لبيًا مدبرا وأصله من مدينة (سيوف) قرية بجوار صاالحجر فأرسله الملك (وح أبرع) إلى العصاة ليردهم عن عصيانهم فسار إليهم ووقف بينهم خطيباً، وأطال النصح وشدد في القول فبينما هو كذلك إذ تقدم نحوه أحد الجند العصاة ووضع على رأسه مغفراً وصاح بأعلى صوته (قد رضيناك لنا ملكاً)، فلم يمتنع (احعمس) من قبول ذلك واجتمعوا تحت كلمته فسار بهم لقتال الملك (وح أبرع) ولم يكن مع الملك المذكور إلا الجنود الأجنبية التي كانت في خدمته وهي زهاء ثلاثين ألفاً، فالتقى الفريقان عند مدينة صا الحجر واقتتلا فانهزمت جنود الملك (وح أبرع) ووقع هو في قبضة احعمس فجبسه احعمس في مقره الذي كان يسكنه قبل وقوعه في الأسر وأحسن معاملته وأظهر له غاية الملاطفة وحفظ ناموسه (قال هيرودوتس) فتشفى جنود مصر بما حصل لهذا الملك من الضيم والذل بالعزل والحبس لما كانوا عليه من الحنق والغيظ فأكرهوا الملك (أموزيس) الذي هو احعمس خصمه على أن يسلمه إليهم فسلمه فقتلوه خنقاً في الحال. اهـ.

وبموته خلا المنصب الملوكي (لاحعمس) المذكور فاستقر به وسمى باسم (أموزيس) ولقب نفسه بـ (خنوم أبرع) وهو الآتي ذكره بعد.

(فى الملك أموزيس)
(ويسمى أيضاً)
(احعمس الثانى)

لما جلس هذا الملك على سرير الملك لم تحفل به الرعية ولم تحترمه العساكر والأحبار لأنه لم يكن ذا حسب رفيع ولا نسب عريق. قيل ولما علم بما خطر فى بعض النفوس من احتقار صفته وخسة أصله وأحس بما وراء ذلك جمع محفلاً كبيراً، وتمثل فيه بإناء من ذهب كان يستعمل فى كثير من الأمور العادية بين أيدى السادة والعبيد ثم صار تمثالاً معبوداً موقراً مهيباً فعظم من هذا اليوم محله فى النفوس؛ وصار مرعى الحرمة والناموس. قال هيرودوتس وتزوّج (أموزيس) بحفيدة الملك (بسامتيك) الأوّل المسماة (عنخ ناس نفرت حت) وكان قد اصطفاها من العائلة الملوكية ليؤسس لنسله منها عائلة ذات حق فى تاج الملك فولدت له ولدا سماه (بسامتيك الثالث) باسم جده وقام بتدبير المملكة خير قيام فحافظ على نفوذ مصر وسلطتها على فنيقيا وأخضع لحكمه جزيرة قبرص وأحسن السياسة مع الدول المعادية لمملكة مصر وأزال عنهم الوحشة فانكفوا عن الإغارة وكان يخشى كثيراً من ملك فارس فلما قامت الحرب بين الملك المذكور وبين الليديين استعمل الحيادة ولم يظهر ميلا لأحد الفريقين ولكنه مع ذلك لم يسلم من شرهما فقد أخذوا منه فنيقيا، فلم يعارض خوفاً مما وراء ذلك بل زاد فى حُسن السياسة مع (كيروش) ملك فارس والتزم جانب المسالمة ليحافظ على بلاد من غائلته فصفا له بذلك الوقت وتمتع بالراحة خمساً وعشرين سنة نظر فيها إلى أوجه الإصلاح وموارد الثروة فوسع الترع وأصلح الخلجان وأنشأ الجسور واعتنى بأمر الزراعة والتجارة فاتسع نطاقهما وأثرت البلاد، وعادت إلى مجدها القديم فبالغ المؤرخون فى أيام هذا الملك حتى هيرودوتس حيث جعلها أعظم من أيام سواه من الملوك وأن مصر لم تخصب فى أيام غيره كخصبها فى أيامه الهنية، ولم يفض النيل على مصر بالخيرات فى مثل أيامه ولا صارت قبله كما فى عهده مريعة غنيةحتى قيل أن مدتها بلغت فى عهده عشرين ألف مدينة عامرة والغالب أن الكفور والقرى كانت معدودة منها، وكانت هذه زاهية زاهرة كالمدن ، وقد أخبره بذلك الكهنة الذين كانوا يحبون المغالاة والإطراء فى المدح خصوصاً فى أيام تظاهر الفرس.

وقد زاد البلاد إثراء فى أيام هذا الملك اختلاط الأجانب بأهلها للاتجار لا سيما

طوائف اليونان فإنهم كانوا فى ذلك الوقت أصحاب جدّ واجتهاد فى التجارة فضلاً عن الصناعة مما نقلوه عن المصريين بالاختلاط. فمال إليهم الملك (أموزيس) وأحبهم وزاد فى مساعدتهم وتزوّج بنت رجل يونانى اسمه (اركيز يلاوس) وأهدى إلى مدنهم الهدايا النفيسة من التحف المصرية، فأرسل إلى مدينة القيروان تمثال زوجته (لاديكة) ابنة (اركيز يلاوس) وتمثال المعبودة (نيت) مغشيين بالذهب غشاء جميلا وبعث أيضاً إلى طائفة الفنيقيين المعروفة باسم (ليندوس) تمثالين من حجر وزردية من كتان والى (يونون سامين) تمثالين من خشب رآهما هيرودوتس بنفسه، وأكثر من الإحسان إلى اليونان وبالغ فى الترحيب بهم حتى نموا وكثروا وبلغوا مائتى ألف نسمة على ما رواه (ليترون) فأنزلهم جميعاً فى مدينة (نقراطيس) التى قيل أن محلها الآن بندر فوّة. وقيل أنه كوم نكراش وقد جعل محلها محمود باشا الفلكى بالاستظهار (نقرهة) بالقرب من دمنهور البحيرة لقرائن أثرية دلته على ذلك، وقد أباح الملك لهؤلاء الأجانب أن يتمسكوا بأصول ديانتهم وأقطعهم أراضى مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم على اختلاف طوائفهم وأديانهم فلما كثروا فى مدينة نقراطيس اختطوا حولها مدنا وكفورا ودوّنوا لهم قانوناً مخصوصاً، كان من أحكامه أن كل من يستوطن بينهم من التجار أو غيرهم يجب عليه الانقياد لأحكام قانونهم، فإن لم يقبل ذلك أكرهوه على الرحيل عنهم فيرخص له أموزيس الملك بالاستيطان فى أية بلد شاء من مملكته. قال هيرودوتس ولما اتسعت دائرة التجارة اتخذ تجار اليونان لهم وكلاء من أبناء جلدتهم وبعثوا بهم إلى الجهات التى تمر منها القوافل ، فكان بعض الميليزيين فى العرابة المدفونة وبعض الساميين فى الواحات الكبرى، وكان وجود هؤلاء الأجانب لا يخل بشرفهم ولا يقلل من اعتبارهم إذ كانوا تجاراً وعليهم مدار حركة البلد.

وعاقد (أموزيس) مملكة أثينا وعاهدها ووطد عروة المودّة معها، وكان فى أيامه (كيروش) ملك فارس لا ينكف عن التجهيزات الحربية والاستعداد للقتال عند سنوح الفرص، فلما مات (كيروش) وخلفه ابنه (كمبيز) على كرسى المملكة وعلم بما هو عليه (أموزيس) من الضعف والانكماش صار يترقب وقوعه فى الزلل وينتحل لاضرام نار الحرب معه أسباباً ويعظم صغائر الأمور واختلفت روايات أصحاب التاريخ عن تعللات (كمبيز) المذكور وألبسوها أشكالاً وألواناً. فقال هيرودوتس أن (كمبيز) المذكور طلب أن يتزوّج بابنة (أحعمس) ظناً منه أن أباها لا يقبل ذلك فيحاربه فأحس أحعمس بهذه الحيلة وأرسل له ابنة الملك (وح أبرع) فلما دخل بها

كمبيـز ناداها بابنة (أحعمس) فقالت أنا لست بابنتـه فحقد (كمبيـز) عليه ذلكِ وغزا مصر. وقال هيـرودوتس أيضاً: إن سبب غزو العجم مصر طمـعهم فى ثروتها وما فيها من الخيرات، وقد كان للمـصريين فى ذلك الوقت أسوار وحصون ومعاقل فى الصحراء والأباطح، وكان بين حدود الشام وخان يونس وبحيرة (سربونيس) الضاربة فيها مقدّمات الجيوش المصرية فى ذلك الحين مـسافة شاسعة قلما يقطعها الجيش فى ثلاثة أيام ومع أن صـحراء العـرب لم تكن يومئـذ فى اتساعـها الآن المتـرتب على تخريب الآشوريين والكلدانيين لبلادها وتركها للعرب الرحالة فنهبوها حتى دمرت، وصارت بلقعا غير أن كمـبيز كان يخاف على عساكره من التيه فيـها فتحير فى أمره فقبض الله له رجلاً يونانياً اسمه (فانيس). وفد عليه من ديار مصر وكان قائد جيش فيها فأعلمـه (فانيس) المذكور بحقيقة تلك البلاد ودله على الطريق فـاشتدّت عزيمة (قمبيز) وتقـوّت أطماعه وعقد عهدا مع مشايخ قبـائل العرب الذين كانت لهم اليد على الطريق الموصلة إلى مصـر ليرخصوا له بالمرور منها، ويأتوا لجـيوشه بالماء على ظهور نوقهم ثم سار بجيوشه وما زالت حتى حلت أمام الطينة فبلغهم إن (أحعمس) قد مات وأن ولده (بسامتيك) الثالث خلفه على سرير الملك. اهـ.

وكان لهذا الملك أعـمال مهمة فـقد أصلح الكرنك جميعـه وقطع الأحجار من محاجر طرا وأســوان ورمم غير الكرنك من المبانى العظيمة بطيبـة التى كانت زوجته مقيمة فـيها ، وكانت الحوادث والأحن قد خربت الأقاليم البـحرية فوجه عنايته إلى تعمـيرها فأصلح منف وبنى فـيها مـعبداً (لأزيس) اندرست آثاره الآن وقـد شاهده هيـرودوتس المؤرخ. فقـال: إنه لم ير أكـبر ولا أعظم مـنه فى ديار مصـر ونصب (أموزيس) المذكور أيضـاً أمام معبد (بتاح) بمـنف عمودا طوله خمس وسبعـون قدماً وبنى فى صا الحجر مـداخل لمعبد (نيت) يقدمها صـفوف من تماثيل أبى الهول على هيئة منـتظمة، ونصب أمام تلك المداخل مسلتـين كبيرتين وصنع لذلك المـعبد خلوة من الصوان الأحـمر المقـتطع من محاجـر أسوان فنقلهـا ألفا مـلاح من أسوان إلى صاالحجر فى ثلاث سنين وطول الخلوة المذكورة من الخارج أحد عـشر مترا وعرضها سبعة أمتار وثمـانية وثلاثون سنتيمترا وارتفاعها أربعة عشـر مترا ووزنها وهى خالية خمســمائة ألف كيلوجرام وقد وضـعها خارج المعبـد لضخامتهـا . ويقال إن سبب وضعهـا هناك هو أن المهندس المكلف بنقلها حين وضـعها خارج المعبـد أخذ يئن مما عاناه من المشاق فى نـقلها فسمعـه (أموزيس) وهو على هذا الحال فأمـر بإبقائها فى محلـها، وقال هيرودتس إن عدم وضعها فى المعبـد ناشىء عن هلاك أحد العمال تحتها،

وقد كان (لأموزيس) المذكور مراسلات مع الملوك الأجانب، وقد روى لنا التاريخ مراسلة منه مع ملك جزيرة (صيصام) التى يقال لها (سيموس) ينصحه فيها بنصيحة خيرية اقتضاها الحال ويقول له لا تأمن صروف الزمان بل استعد لنوائب الحدثان واقمع النفس بالزهد فى الدنيا عن اتباع هواها واعصها ولا تبلغها بالتشهى مناها، قيل فبمجرد وصول هذه النصيحة إلى الملك المذكور وكان بأصبعه خاتم جوهر نفيس لا يؤثر عليه شيئاً من زينة الحياة الدنيا ألقاه فى اليم وعزم على الزهد فابتلع الخاتم حوت ثم اتفق أن هذا الحوت وقع فى يد أحد الصيادين، وكان حوتاً عظيماً فقدمه لطباخ الملك المذكور فوجد الطباخ فى جوف الحوت خاتم سيده فأعطاه إليه فعلم الملك عند ذلك أن الأشياء سعود وبخوت ، وكان له أيضاً مراسلات مع (سولون) حكيم اليونان ومع ذلك فقد كان لا يحرم نفسه من حظوظها ويوفيها ملاذها. وقال ذات يوم لبعض أخصائه أما علمتم أن القوس لا تؤثر إلا عند الحاجة وترخى متى فرغ القصد منها وهكذا الإنسان إذا اشتغل بجدّ فى أمر مّا فعليه أن يعطى نفسه الراحة ويبلغها من الحظ ما تستروح به وتستريح إليه لأنها إن استدامت على الجدّ داخلتها الحماقة والغفلة واستعدّت للوساوس والجنون، وصارت غير قابلة لإدراك الأمور. اهـ. ومات (أموزيس) بعد أن حكم خمساً وثلاثين سنة على ما رواه بعض أصحاب التاريخ. وقال مانيطون: بل أربعاً وأربعين وخلفه ابنه (بسامتيك) الثالث الملقب بـ (رع عنخ كان).

(فى الملك بسامتيك الثالث)

لم يستقر المنصب ببسامتيك هذا حتى جاءت جيوش ملك فارس إلى أرض مصر ووقفت أمام الطينة تريد القتال فسار إليهم بسامتيك فى عدّة كثيرة من الجيوش المصرية واليونانية الذين فى خدمته وعسكروا أمام العدو وكان (فانيس) اليونانى الذى فرّ من مصر وذهب إلى ملك فارس وهوّن عليه قتال المصريين قد ترك أولاده بمصر فأحضرهم المصريون إلى معسكرهم وذبحوهم بين الصفين وأبوهم ينظر إليهم ويتقطع قلبه حسرة عليهم ووضعوا دمهم فى إناء ثم مزجوه بخمر وشربوه تشفياً وانتقاماً من (فانيس) المذكور على ما فعله وهجموا بعد ذلك هجوماً شديداً على جيوش (كمبيز) فحملت عليهم الفرس أيضاً والتقى الصفان والتحم الجيشان، وكان الملك (كمبيز) قد وضع فى مقدمة جيوشه كثيراً من السنانير والبزاة وغيرها من الحيوانات التى يجلها المصريون فلم يجسروا على القتال ولم يرموا سهامهم على عدوّهم خوفاً من أن تصيب تلك الحيوانات المقدّسة عندهم فرجعوا القهقرى، ولم

يثبت منهم فى صفوف القتال سوى العساكر اليونانية والكارية واشتد القتال بينهم وحمى الوطيس فقتل من الفريقين عدد كثير ثم ظفرت الفرس باليونان والكاريين وتمت لهم الغلبة فانهزموا إلى منف فأرسل لهم (كمبيز) رجلاً من قومه يطلب منهم أن يستسلموا فركب الرسول سفينة يونانية من سفن (مدلين) وسار إلى منف فلما وصل إليها ورآه أهلها خرجوا إليه من القلاع زمراً وقبضوا عليه وكسروا السفينة قطعاً وذبحوا من كان بها مع الرسول أيضاً. فلما علم (كمبيز) بما فعله المصريون غضب جداً وجاء إلى منف وأحاط بها وحاصرها وضيق عليها حتى أخذها عنوة وقبض على ولد الملك (بسامتيك) وقتله وقتل معه عدّة من أكابر المصريين فخضعت البلاد بعد هذه الواقعة لملك فارس (قال بعض أهل التاريخ) ولما استسلمت منف أمر الملك (كمبيز) بإحضار أولاد (بسامتيك) وبنته ومرورهم أمامه بثياب الرق والعبودية ثم طلب أيضاً أولاد أكابر المصريين الذين حكم عليهم بالقتل ليمروا أمامه قبل قتلهم، وكان الملك بسامتيك واقفاً ينظر إلى الجميع مع الثبات والصبر ولم يشفق بهم (كمبيز) وفى هذه الأثناء مر بـ (بسامتيك) أحد ندمائه بلباس الرّق فلما رآه (بسامتيك) على هذا الحال تضجر تضجر الآسف الحزين وضرب بيده على جبهته فتعجب (كمبيز) من ذلك وسأله عن سبب ثباته أوّلاً مع نظره إلى بنيه ثم تضجره وضربه على جبهته عند نظره إلى نديمه. فقال إن البكاء فى جنب مصائبى قليل واعلم ياابن (كيروش) أنه إذا تجرّد الرجل عن مفاخرة وحلت به الخطوب وأحاطت به الكروب ولحقه الجوع والهرم استحق الحزن والبكاء عليه. قالوا: فلما سمع (كيريزوس) أحد قوّاد العجم هذا الكلام بكى وبكى أيضاً (كمبيز) الملك ، وكثير من العجم وحن قلب كمبيز وأخذته الشفقة عليه فعامله معاملة الملوك وكاد يرجع إليه تخت الملك ويجعله تابعاً لحكومته ولكن علم بعد ذلك أن (بسامتيك) المذكور يغرى الناس على الخروج عليه فأمر به فقتلوه فزالت بموته الدولة السادسة والعشرون وانقرضت دولة الفراعنة وزال ملكها، وكانت مدة حكمه كما رواه مانيطون المؤرخ ستة أشهر بحيث لا يكاد يعرف له فيها أمر ولا نهى، وكانت مدة حكم الدولة السادسة والعشرين المذكورة (مائة سنة وثمانياً وثلاثين سنة).

ولما تم الأمر للملك كمبيز ومهدت له الأحوال سلم إدارة البلاد بعد قتله بسامتيك إلى (ايرندس) الفارسى فصارت من هذا الحين تابعة لدولة فارس خاضعة لأحكامها وخيمت عليها شيئاً فشيئاً عناكب الذل والهوان وقام السفه والجهل بين أهلها مقام الرشد والتمدّن وذبلت نضارة علومها ومعارفها وكادت تبور صنائعها

لتوالى المظالم والمحن، وتراكم الخطوب والفتن، وتصرف الهيئة الحاكمة فى الرعية تصرف السيد فى عبيده أو التاجر فى سلعته وتم ما أوحى الله تعالى به إلى حزقيل النبيّ عند سبى بابل وخراب أورشليم حيث قال: (قال الله تعالى لا يكون بعد رئيس من أرض مصر والقى الرعب فى أرض مصر). قلت ومن أصدق من الله قيلاً وسيأتى بيان هذا فى محله إن شاء الله ، وقد رأينا قبل الكلام على دولة الفرس، وما كان فى أيامها أن نذكر هنا شيئاً من ترتيب مملكة مصر فى القدم وفى أقسامها ومعبوداتها وفى سياستها وأخلاق أهلها وعوائدهم وفى كيفية إقامة الحدود والعقوبات عندهم وفى تمدّنهم وصنائعهم وأعيادهم ومواسمهم وأحكامهم وشرائعهم تتميماً للفائدة، وقد جعلنا ذلك فصولاً على الترتيب الآتى بعد.

(فصل)

(فى ترتيب مملكة مصر فى القدم وفى أقسامها ومعبوداتها)

كانت تنقسم ديارمصر على عهد الفراعنة إلى قسمين عظيمين اشتهرت بهما وهما الأقاليم القبلية، والأقاليم البحرية وكانت الحدود الفاصلة بين هذين القسمين مدينة دهشور. قال أصحاب التاريخ ثم إنهم قسموا الأقاليم القبلية إلى اثنين وعشرين قسما والبحرية إلى عشرين قسما، وكان القسم يعرف فى لغتهم باسم (حتب) وكان لكل قسم من هذه الأقسام حاكم وإدارة مخصوصة وحدود فاصلة من الحجارة المطرّزة بالكتابة وتخت للحكم وهو مقر الجند والكهنة والديانة المتبعة فى ذلك القسم.

قال صاحب العقد الثمين وأقسام الوجه القبلى المعروف باسم (بتورميس) هى أوّلا ـ (تاخونت الفنتين) وقاعدته مدينة (أب) وتعرف الآن بجزيرة أسوان وأشهر مدنه جزيرة أنس الوجود ومعنى (أب) الفيل وسميت بذلك لأنه كان يباع فيها سن الفيل وكان فيها معسكر وسور ومقياس للنيل وهو الموجود الآن بها. ولهذا القسم معبودان ـ أحدهما (خنوم) ويرسم بصورة كبش ومعناه مصوّر الكائنات ـ والآخر (سبت) أى النجمة المعروفة بالشعرى اليمانية، وكان فى جزيرة أسوان عدة معابد وهياكل فاخرة انطمست آثارها ولم يبق منها سوى بعض حجارة مكتوب عليها ما فيه تذكرة بهذه المعابد والبيوت المقدسة وبجوار مدينة أسوان جبل الصوّان الأحمر المسمى قديماً (دودوشر).

والثانى ـ (ادبوا پولينو پوليتس مغنا) وقاعدته مدينة (دب) وتعرف الآن بادفو وكان فيها معبد عظيم لمعبود هذا القسم المسمى (حور) أى العظيم ورسمه على هيئة الباشق وهو الذى تسميه اليونان (ابولون) ويوجد تجاه مدينة ادفو فى الجانب الغربى من النيل بئر ماء حفرها الملك (سيتى الأول) وتسمى عندهم (تاخنوم) ومعناه البئر ولم تزل باقية إلى الآن بقرية تدعى (ردسيا) وهى أول محطة للقوافل التجارية التى كانت تمر على الصحراء إلى البحر الأحمر وأشهر مدن هذا القسم (خنو) أى جبل السلسلة، وكان مركزا للعلوم والمعارف فى تلك الأزمان.

والثالث ـ (تن لاتو پوليتس) وقاعدته مدينة (نخب) أعنى القرية المعروفة الآن (بالكاب) الموضوعة على الجانب الغربى من النيل وهى أحد الحصون القديمة، وكانت الأرض المجاورة لها شهيرة بمعادن الملح، وموضع هذا القسم الشاطىء الغربى من النيل، وكان كل من حكم هذا القسم يلقب بابن الملك (نخب) ولا يكون إلا من عائلة ملوكية وأشهرمدنه (حابك) أعنى الكوم الأحمر، وكانت سكانه تحترم المعبودة (نحب) ورسمها على شكل عقاب له وجه آدمى وعلى رأسه تاج يسمونه (اتف) وهى معبودة خصوصية لهذا القسم وعمومية للأقاليم الجنوبية، وكان أكل السمك فى هذا القسم منهيًا عنه وفيه مدن شهيرة منها (سينى) أى اسنا، وكان فيها معبد عظيم لم تزل تشاهد آثاره إلى الآن.

الرابع ـ (أس ديو سبوليتس) وقاعدته مدينة(نو) أو (نوامون) أى مدينة طيبة. ويقال لها ثيبة وطيوة وكانت أكبر مدائن الديار المصرية وأشهرها ولم يزل يشاهد فيها إلى الآن من المعابد، والآثار ما يوجب تعجب الناظرين واستغراب المتفرجين ويستدل على حدودها القديمة بالكرنك، ولوقصر والقرنة ومدينة (ابو) الشهيرة قديماً بالمبانى الفاخرة، وكانت دار إقامة لعدة ملوك متناوبة بعد مدينة منف واستمرت تختا للديار المصرية نحو ألفى سنة، ولهذا القسم معبودان الأول (أمون رع) وسمى بهذا الاسم فى عصر العائلة الحادية عشرة، وهو معبود خصوصى لهذا القسم وعمومى لكافة مصر ومعنى (أمون رع) الشمس الخفية التى لا تدركها الأبصار عند مغيبها، وهو رمز للمعبود المنظم للكون ومرتبته فى المعبودات بعد (بتاح) منشىء الكائنات، والثانى (مونت). ويقال له (مونتو)، أو (منت) وهو معبود عمومى لهذا القسم وخصوصى لأشهر مدنه المسماة الآن أرمنت وصورته على شكل إنسان له رأس باشق عليها قرص الشمس وريشتان مستقيمتان قابض بيده اليمنى على المدية المسماة (خوبش) إشارة إلى كونه إله الحرب ورب الشجاعة ويوجد غربى مدينة القرنة مقابر

للفراعنة المعروفة الآن ببيبان الملوك وهذا المكان مشهور بأعظم القبور الأثرية التى يهرع لمشاهدتها السياحون فى كل سنة.

الخامس - (قوبطى قوبطيتس) وقاعدته مدينة (قبطى) أى قفط وموضعها على جانب النيل الشرقى ومعبودها (خم) ورسمه على هيئة رجل واقف رافع ذراعه الأيمن إشارة إلى كونه يبذر التقاوى ويده اليسرى مستترة مع جسمه بأقمشة ملتف بها وعلى رأسه ريشتان طويلتان وقضيبه منتصب دلالة على القوّة الموجودة للتناسل والزروع ، وكان يعمل له عند وفور المحصولات الزراعية وجودتها موسم عظيم بالكيفية المرسومة على آثار مدينة (ابو)، وكانت تمتد من تلك المدينة طريق للقوافل التجارية فتمر بالصحراء من جهة القصير إلى أن تتصل بالبحر الأحمر، وكان فى جنوب قفط مدينتان تعرفان الآن بشنهور وقوص الشهيرة قديماً باسم (كوسى).

السادس - (تام تنتريتس) وقاعدته مدينة (تنترر) وتعرف الآن بدندره وموضعها على شاطىء النيل الغربى، وكان أهل هذا القسم يحترمون الكوكب المسمى (حاتحوم) أى الشعرى اليمانية ويحرّمون على أنفسهم أكل العسل والسمك كما كان أهل القسم الثالث يحرمون على أنفسهم أكل السمك.

السابع - (سوبسخم ديوسبوليتس) وقاعدته (حا) وهى مدينة (هوّ) الآن ومعبودها (نبتا ونفرحتب) وموضعها على جانب النيل الغربى، وقد اشتهرت قديماً هى والقسم التابع لها بخصوبة الأرض ونضارة البساتين.

الثامن - (ابزوثينيتس) وكانت قاعدته فى الأوّل مدينة (تينى) أعنى طينة وهى مسقط رأس الملك (منا) ثم صارت قاعدته بعد دمارها مدينة (أبدو) أى العرابة المدفونة، وكان أهل تلك الجهة يحترمون المعبود (انحور) ومعناه الذى بيده مقاليد السماء والأرض ورسمه على هيئة صبى متوّج بتاج فوقه أربع ريشات وبيده حبل، وكانت مدينة العرابة المدفونة ذات شهرة عظيمة بسبب المقبرة التى كانوا يعتقدون أن معبودهم (أزوريس) مدفون فيها، ولذا كانوا يأتون إليها فى كل عام زائرين ويتمنون الدفن فى تلك البقعة المقدسة عندهم، ولم يزل يشاهد فيها إلى يومنا هذا بأطراف الصحراء عدة مقابر فاخرة.

التاسع - (خم پانوپوليتس)وقاعدته مدينة (بنجم) أى أخميم وهى موضوعة على جانب النيل الشرقى ومعبودها (خم) السابق ذكره الذى من صفاته أيضاً أنه منزه عما توصف به سائر الذوات وكان لأهل أخميم شهرة عظيمة بالمهارة فى فن صناعة الأقمشة ونحت الحجارة.

العاشر - (وص افروديتو پوليتس) وقاعدته الأولى (دبو) أعنى مدينة النعال، وهى المعروفة الآن بقرية (ادفه) على الجانب الغربى من النيل بحرى سوهاج، وكان أهلها يعبدون (حور) أى العلى. وقاعدته الثانية (دوكا) أى (قاو) ومعبودها (ست) أى الشيطان، وكان لهذا القسم شهرة عظيمة بمعادن الحجارة النفيسة التى كانت تستخرج من الجبال المجاورة له بالجانب الشرقى من نهر النيل.

الحادى عشر - (سماهبسليتس) وقاعدته مدينة (شس حتب) ويستدل عليها بالقرية المعروفة الآن باسم (شطف) وكانت مستودع الأسرار الدينية ومعبودها (خنوم) أى منشىء الكائنات وبارئها.

الثانى عشر - (دوف أنتيوپوليتس الشمالى) وقاعدته مدينة (نونت بك) ويستدل على محلها بقاو الكبيرة ومعبوداتها (حور ومتى أى أزيس).

الثالث عشر - (أتف خونت ليكوپوليتس) وقاعدته مدينة (سيوط) أى أسيوط ومعبودها (أبماتن) أى الحافظ على جميع ما فى الجهة الجنوبية من الأموات والسبل، وهو على شكل ابن آوى وجثته مدفونة فى الجهة الغربية من أسيوط، وكان أهل هذا القسم يحترمون أيضاً المعبود (حاتحور) يعنى الشعرى اليمانية.

الرابع عشر - (انف بحو الفروديتوپوليتس) وقاعدته مدينة قوص ومعناها مدينة الرخام الأبيض، ويستدل عليها الآن بقرية قوصنيه، وكان للرخام الذى يستخرج من مقاطع تلك المدينة شهرة عظيمة عند الأقدمين، وكان أهل تلك الجهة يحترمون المعبودة (معا) ويرسمونها جالسة ملتفة بأقمشة، وعلى رأسها علامة بالهيروغليفية تدل على العدالة ونطق هذه العلامة (معا) ويعتقدون أن هذه المعبودة تقدم الأموات إلى محضر الحكم يوم القيامة.

الخامس عشر - (آن هرموپوليتس) وقاعدته (سنو) يعنى الأشمونين ومعبوده (تحوت) يعنى (هرمس) ومعناه رب الحكمة.

السادس عشر - (مح هبونن) وقاعدته مدينة (هبون) ويستدل عليها الآن بقرية انصنا ومعبودها (حور) يعنى العظيم، وكانت بلدة شهيرة ويشهد لذلك آثار المعابد والخلوات التى كانت معدة للجنائز فى الجبال القريبة منها وأشهر مدنها (سات) يعنى بنى حسان (وثانويل) يعنى الكوم الأحمر.

السابع عشر - (انومسينوپوليتس) وقاعدته مدينة (كاسا) وتعرف الآن باسم قلوصنه ومعبودها (أنوب) وهو ابن آوى وأشهر مدنها سملوط.

الثامن عشر ـ (سبوت اكسير تحيتوس الشمالى) وقاعدته مدينة (حاسوتن) ومعبوده (أنوب).

التاسع عشر ـ (وسب اكسير تحيتوس الجنوبى) وقاعدته (بماص) يعنى البهنسة ومعبوده (ست) يعنى الشيطان.

العشرون ـ (أم ادخونت هيراقليوپوليس) وقاعدته (خينتو) يعنى اهناس المدينة، وله معبودان هما (خانوم) و(حورشف) أى القادر وأشهر مدنه مدينة بوص.

الحادي والعشرون ـ (أبحوا رسينونيتش) وقاعدته مدينة (صخور) ومعبودها (خنوم) يعنى مصور الكائنات وأشهر مدنه (بى سبك) يعنى الفيوم، وكانت تعرف أيضاً باسم (بسيومع) يعنى مدينة اليم.

الثانى والعشرون ـ (تباحوا مزوديتوپوليتس) وقاعدته (تياح) يعنى أطفيح ومعبوده (حاتحور) أى الشعرى اليمانية، وآخر حدوده من الجهة البحرية مدينة دهشور وهى الفاصلة بين الوجه القبلى والبحرى كما تقدم.

(فى الكلام على أقسام الوجه البحرى)
(المسمى قديماً)
(يتومحيت)

أول هذه الأقسام (انبوحز منفيتس) وقاعدته مدينة (منفر) يعنى المكان العظيم أو المينا العظيمة، وتعرف عند مؤرخى العرب باسم منف وهى منحصرة فيما بين البدرشين وميت رهينة ومديرية الجيزة ولها معبودان **الأول** (بتاح) يعنى الفتاح ويلقبه القدماء بالمبرىء منظم الكون ويرسمونه على الآثار تارة متوجاً بتاج الجعران واطئا بأرجله تمساحاً إشارة إلى الانقلاب والتغيير وتارة على شكل موميا مطلقة اليدين يشيرون بذلك إلى استحالة الروح بعد خروجها من الجسد إلى نور يصعد إلى السماء ينضم إلى نور الشمس **والثانى** المعبودة (سخت) يعنى حرارة الشمس المهلكة. ويقال إنها منوطة بعقاب الخاطئين فى النار ورسمها على شكل آدمى له وجه سبع وعلى رأسه الشمس، وكان يوجد أمام الكرنك يعنى أمام المعبد جملة من تماثيل هذه المعبودات موضوعة صفين بانتظام ونقل بعضها الآن إلى متحف فرنسا ويوجد وراء منف أهرام لعدة ملوك من الطبقة الأولى، وكانت منف قاعدة للملك مدة سبعين قرناً وحدها القبلى شنباب، والغربى بحر يوسف والشرقى النيل والبحرى الجيزة، وكان فيها قصور ومبان فاخرة بقيت عامرة إلى عصر اليونان ويوجد بقربها على

الشاطىء الشرقى من النيل محاجر طرا وتعـرف قديماً باسم (طرويا) وكان يستخرج منها الحجارة لبناء الهياكل وغيرها.

الثـانى ـ (اعاليتو پوليتس) وقاعدته مدينة (سخم) المسماة الآن وسيم وهى على الجـانب الأيسر من فـرع رشيـد ومـعنى (سخم) المكان المـنزه عن شوائب التـدنيس ومعبود هذا القسم (حور) أى الأعلى الفخيم.

الثالث ـ (امنت) ويقال لها (ليبيا) أو (ماريدس) أو (مومنفيتس) وقاعدته مدينة (نى نوننت حى) يعنى مدينة الثور (ابيس)وموضعه جهة مريوط ومعبوده (ستى).

الرابـع ـ (سبيريس منيتانتس) وقاعدته مـدينة (صقع) يعنى (كاتوب) وموضعها بجوار أبى قير علـى الجانب الأيمن من فرع رشيد، وكان أهل هذا القـسم يحترمون المعبود (آمون رع) والمعبودة (نيت).

الخـــامس ـ (سابى محت سـايتس) وقاعدته مدينة (صا) يعنى صـا الحجر، وكانت مـدينة شهيـرة فيـها هيكل فاخـر مؤسس لعبـادة المعبـود (تحوت) يعنى رب الحكمة ولهذا القسم معبودة تسمى (بست).

السادس ـ (كاسيت اكسوتيس) وله قاعدتان الأولى (سخاوة) ومعناها سخاوهى الموجودة بمديرية الغربية، وكـانت مدينة عظيمة اجتهدت فى عمـارتها العائلة الرابعة عشرة واتـخذتها تختـا لها مدة من الزمن ومعـبودها (أمون). والثانيـة (عنت عرى حوس) يعنى مدينة السبع الكاسر كناية عن (أمون).

السـابع ـ (امنت متليتس) وموضعه بين مديريتى الغربية والبحيرة، وله قاعدتان الأولى مدينة (سنتـينفر) يعنى مـدينة مسيل. والثـانية مدينـة العطف المسماة قـديماً (دبيت). وكان أهل هذا القسم يحترمون المعبود (حور) والمعبودة (إزيس) ويرسمونها على شكل امرأة جالسة فوق رأسها كرسى.

الثـــامن ـ (ابوت سنروتيس) وموضـعه فى مديرية الدقهلية بجـوار بركة المنزلة وقاعدته مـدينة (سوكوت) المذكورة فى التـوراة بهذا الاسم ومعبـودها (توم) ومعناه الشمس وقت غروبها ورسمه على شكل آدمى متـوج بتاج يسمى (بشنت) وكان فيها قصر للـملك (منفتاح) وقلعة حـصينة بالقرب من مدينة (رمـسيس) المعروفة قـديماً باسم (بيتوم) وكانت هذه القلعة مفتاح الديار المصرية فى العصر القديم.

التاسع ـ (آتى بوصيريتس) يعنى قسم أبى صير وقاعدته مدينة (بى اسرتب دو) يعنى مـدينة أبى صيـر ومعـبـوده (ازوريس) وهو المقدس الذى يحكم فى أحـوال

الأرواح ويصحب الإنسان بعد موته فيهديه إلى أقدام الرب الأعلى ويوصف بفاعل الخير.

العاشر - (كاكم اتريبتس) يعنى اتريب فى مديرية القليوبية على الشاطىء الشرقى من فرع دمياط ويستدل عليه بتل اتريب وقاعدته مدينة (حاتحوراب) يعنى مدينة الأرض الوسطى ومعبودها (حور) يعنى العلى ولقبه (خنتى حتى) وكان له معبد عظيم فى مدينة (حتى) القديمة.

الحادى عشر - (كاحبس كباسيتس) وقاعدته مدينة (كاحبس) يعنى شباس، وكان سكان هذا القسم يعبدون الشيطان (ست).

الثانى عشر - (كاتب تيتوس) وقاعدته (سب نوتر) يعنى مدينة سمنود ومعبوده (انحور) المسمى عند اليونان (مارس).

الثالث عشر - (حق آن هيلوپوليس) وقاعدته مدينة (آن) يعنى المطرية، وكانت دار علوم ومعارف وفيها معبد للشمس ومسلتان إحداهما مسلة الملك (أوسرتسن الأوّل) القائمة الآن هناك على ساقها، وهى تدل على باب المعبد المذكور، ولم يزل يشاهد فى تلك المدينة ما فيه تذكرة بمبانيها الفاخرة، ولهذا القسم معبودان الأوّل (حورمخو) يعنى الشمس وقت الشروق والغروب والثانى المعبودة (يوزاس).

الرابع عشر - (خونت ابدت تانيس) وقاعدته مدينة (صعن) يعنى صان وكانت مدينة شهيرة لا سيما فى عصر (رمسيس الثانى) الذى شيدها وسماها باسمه وفيها أظهر موسى عليه السلام المعجزات لفرعون (منفتاح) الأول لإطلاق بنى إسرائيل من مصر فأذن لهم بالرحيل، فخرجوا من تلك المدينة بعد اجتماعهم فيها وساروا إلى (سوكوت) حيث أمرهم الله، وكان لهذا القسم معبودان الأوّل (حور) يعنى العظيم الفخيم والثانى المعبودة (حونت أبوت).

الخامس عشر - (بحع هرموپوليتس) وقاعدته (بى تحوت) وتسميها اليونان (هرموپوليس) يعنى أشمون الرمان، ومعبوده (تحوت) يعنى كوكب المريخ.

السادس عشر - (خامندسيوس) وقاعدته (بى بى نب دد) ومعناه (مندس) يعنى قرية تمى الأمديد وله معبودان الأوّل (بى نب دد) وتسميه اليونان (مندس) والثانية المعبودة (حامحيت).

السابع عشر - (سمهود پوسپوليتس) وقاعدته مدينة (باخن أمون) المعروفة عند اليونان باسم (باخنامونيس) ومعبوده (أمون رع) والآلهة موت.

الثامن عشر ـ (أم خونت بوبوتيتس) وقاعدته مدينة (بى بست) أعنى مدينة بسطة ويستدل على محلها الآن بتل بسطة ومعبودها الآلهة (بست) المعروفة عند اليونان باسم (ديانا) وإملها دميانا التى تزورها الأقباط فى كل عام.

التاسع عشر ـ (امحت بوتيكوس بثنوتس) وقاعدته مدينة (بيوتو) أى كوم الرمان ويعرف عند اليونان باسم (بوتو) وهو اسم لمعبود هذا القسم أيضاً.

العشرون ـ (سبت عربيا) وقاعدته مدينة (باقوسيم) المعروفة عند اليونان باسم (فقوسة) ويستدل على موضعها بالقرية المسماة الآن فقوس ومعبوده (ست) أى الشعرى اليمانية . قال: وهذه الأقسام متفق عليها فى عصر الفراعنة والبطالسة.

(فصل)

(فيما كانت عليه سياسة البلاد وفى إقامة القضاة وفى الدعاوى والأحكام)

ولما عرفت الأمة المصرية أن لابد من رابطة وثقى لا انفصام لها بين الراعى والرعية والرئيس والمرؤوس، وتحققت أن الحكومة الملكية التى تكون على مثال ما كانت هى عليه إلى ذلك الحين لا تقوى أركانها ولا ينجح لها عمل إلا بالشورى، قامت بتعضيد ملكها وأمدته بالمال والرجال وضمت إلى ديوانه جماعة العلماء والحكماء وأصحاب الرأى فكان أمناء الدين فى ذلك الحين فى صدر الهيئة الحاكمة يرتبون ديوان الملك داخلاً وخارجاً ويشاركونه فى جميع أموره وعليهم معتمده وإليهم المرجع فى فض المشكلات، فإذا مات حكموا عليه بأنه كان فى أيامه من أهل السعادة أو الشقاء وأنفذوا عليه الحكم، وتحرير الخبر أنه إذا مات الملك وانتشر خبر نعيه مزق الناس ثيابهم وأغلق الكهنة أبواب المعابد والهياكل ومنعوا من تقريب القربان وامتنعوا من عمل المواسم والأعياد واستمروا على هذا الحال من الحزن اثنين وسبعين يوماً إجلالاً لمنصبه، وكانت فى خلال هذه المدة تنتشر جموع الناس من الذكور والإناث مرتين فى كل يوم فى الشوارع والحارات للندب وإنشاء المراثى فكانت هذه المدة عندهم مأتماً حافلاً يحزن فيه الخاص والعام فإذا انقضت هذه الأيام وضعت جثة الملك محنطة مصبرة فى دهليز المقبرة ثم بحثوا عن جميع ما فعله من خير أو شر بحضرة الألوف المؤلفة من الناس على اختلاف درجاتهم وأخذ كل يعدد محاسن الملك ومساويه ويذكر ما حسن من سيرته وما قبح ثم يطلب حكم الجمهور

فإن حكم بدفنه دفن بهذا الاحترام على مقتضى مقامه الملوكى وإلا حرم وجرد عما يجب له من واجب التعظيم.

ولم يكن للأهالى ولا لعامة الناس قط تداخل مع الملك فى حكم البلاد إلا فى هذا الأمر ومع أن هذه المداخلة ليست إلا بالأمر الهين لا سيما بعد الموت، قد كانت نتيجتها من أهم النتائج وأكبرها وأشدها تأثيراً على بيت الملك، وقد حرم من الدفن كثير من الفراعنة لقبح سيرتهم فخاف خلفاؤهم العاقبة وأجهدوا النفس فى إصلاح العمل وسلوك مسالك العدل فراراً من هول هذا العقاب، وكان المصريون فيما عدا هذه الحالة يخدمون ملوكهم ويقدمون لهم واجب الطاعة بقدر الاستطاعة حتى كانوا يعبدونهم كعبادتهم الآلهة إذ كانوا يعتقدون أن من قدر له فى عالم الغيب منصب الملوكية، ووفق للعدل بين صنوف الرعية فهو بشرفى مظهر الألوهية.

وكانت ملوك المصريين تختار من بين أمناء الدين والكهنة فى محفل من المبعوثين من كل إقليم نوابا وعليهم فى المداولات الاعتماد فكانوا يجتمعون فى البرية التى بين ميت رهينة والفيوم فتشكل منهم جمعية عمومية تنعقد فى الحوادث المهمة كالصلح والحرب وتجديد التراتيب وتغيير الدولة عند خلو المنصب الملوكى وغير ذلك من الأمور الخطيرة، ولم يكن من شأن الملوك يومئذ مباشرة دعاوى الخلق ولا الحكم بأنفسهم فى الوقائع بل كانت المحاكم محلاً للأقضية والأحكام فكان القضاة والحكام يخرجون من مدينة منف وعين شمس بالأقاليم البحرية، ومدينة أبو بالأقاليم القبلية، وكانت كل مدينة من هذه المدن ترسل عشرة من القضاة لإجراء الأحكام فيجتمع من المدن الثلاث ثلاثون قاضياً لمجلس القضاء، وكان للقضاة الثلاثين المذكورين الحق فى نصب قاض منهم رئيساً عليهم وبعد نصبه يكملون عدة الثلاثين من مدينة القضاة العشرة الذين اختير منهم ذلك الواحد، وكانت نفقاتهم من خزينة الحكومة ومرتبات رئيسهم من بيت المال، وكانت لا تقام الدعاوى فى مجلس القضاء إلا بالكتابة ولا يسمع التداعى أو التخاصم بالمشافهة والمخاطبة مخافة أن تنجذب قلوب القضاة من سماع كلام أحد الخصمين وتستميل قلوبهم فصاحته أو عذوبة ألفاظه إذ ربما ترتب على ذلك الانحراف فى الأحكام فلذلك كان يكتب المدعى شكواه أولاً ويبين مقدار ما يلتمس الاعتياض به فى نظير ما خسره أو ما حصل له من الإساءة فيعطى للمدعى عليه صورة ما كتبه خصمه ليعلم ما قاله فيرى كلام خصمه ويناقضه بما شاء ثم يجوز أن يعطى جواب المدعى عليه للمدعى عساه أن يجيب عنه وكذلك يجوز أن يعطى للمدعى عليه بعد ذلك فإذا فرغت المناقشات

وجب على مجلس القضاة بعد البحث فى القضية أن يحكم فيها بما يظهر له فيكتب الحكم أيضاً ويختمه رئيس القضاة على وجه عجيب وذلك أن الرئيس له سلسلة من ذهب معلق فى عنقه فيه صورة من الجوهر عليها تمثال الحق فعند افتتاح المذاكرة لابد من تعليق الصورة فى عنقه فإذا صدر الحكم من المجلس صدق عليه الرئيس بختمه بصورة الحق ووجهها صوب أحد الخصمين الحاضرين بالمجلس حين الختم علامة على أنه ظهر له الحق فعمل به وأنفذه وبقيت الحال على ذلك إلى زمن البطالسة أيضاً، وقد عثر أهل العلوم الأثرية على شقة من البردى وهى موجودة بمتحف مدينة تورينو من أعمال إيطاليا مكتوب عليها باللغة اليونانية ملخص دعوى نظرت بالمحكمة الكبرى بمدينة طيبة، وكانت بين أحد المصريين وأحد اليونانيين وتعريب ما فيها ، تقدمت هذه الدعوى إلى محكمة طيبة عاصمة المملكة المشمولة برئاسة (هيركليد) حكمدار الخفر السلطانى وحاكم قسم الضواحى ورئيس جباة الأموال بالقسم ومعه كل من (بوليمون هركليد) الجمباز و(ابونيوس هرموجين) صديق الملك بمعيته و(بانكرات) ضابط من الدرجة الثانية و (بانسكوس) من أهالى مصر إلخ قضاة بالمحكمة المذكورة.

(الموضوع)

إنه فى الثانى والعشرين من شهر أتير يعنى (هاتور) سنة أربع وعشرين من حكم بطليموس أو يرجيطه أى (الرحيم) طلب (هرماس) بن بطليموس حمكدار نقطة امبو الحربية خصمه المدعو (هورروس) بن (أرسيازى) المصرى ومعه فلان ، وفلان ، إلخ الجميع صناعتهم مباشرة تحنيط الأموات للحضور أمام هذه المحكمة لأن المذكور اغتصب منزله الكائن بمدينة طيبة المحدود من بحرى، إلخ، وبعد ما سكنه فى غيبته وأخذ يباشر صنعته به وأبى الخروج منه وأن (هرماس) المدعى طلب المدعى عليه وهو (هورروس) جملة مرات للحضور أمام المحاكم الأخرى لأجل حصوله على حقه لم يفد ذلك شيئاً وأن المدعى عليه كان يستعمل المراوغة والحيل كما أن المدعى كان مجبوراً على عدم مباشرة الدعوى لإقامتها بمحل وظيفته إلى أن نظرت أخيراً بهذه المحكمة للحكم فيها نهائياً.

قال الراوى لهذه الحكاية أما وجه التمليك للمنزل فمذكور في عمودين ونصف من الورقة المشار إليها ، وذكر بعد ذلك أقوال المحامين عن الخصمين وهما (فيلوكليس) النائب عن المدّعى و(دنسيون) النائب عن المدّعى عليه ، قال وملخص

ذلـك، أن كل واحد منهما كان يبرهن بالأوراق والحـجج والعقود والتواريخ المثبتة لصحة تمليكه المنزل متمسكاً بنصوص بنود القانون العامى والمدنى وأخذ (فيلوكليس) يزدرى بجمعـية المحنطين للأموات مسـتظهراً بالقوانين والأوامر السلطانيـة الصريحة المانعـة لمباشـرة هذه الصنعة بقـرب المسـاجد أمـا (دينون) فكان يدافع عن جمـعيـة المحنطين ويذكر حـالتها الطبيعـية وشدة الحاجـة إليها وأنها بمكان عظيم فى الهـيئة الاجتماعية وشرح نصوصها القانونية وبالغ فى الشرح والتعبير وفند مدعيات خصمه وشد النكيـر على (فيلوكيس) اليونانى لانتـهاكه حرمـة القواعد المقدسة المـرعية عند جميع المحاكم على اخـتلاف درجاتها ، وكان فى خلال هذا الدفـاع يقول إن موكله يمتلك تـلك الدار من أعوام كثـيرة وجعل يـعددها ثم عطف فى أثناء المرافـعة على بعض مواضـيع أثنى فيها على حُـسن الإدارة وعلى الكثير من القضـاة وما لهم من شرف الوظيفة، وعلى الترتيبات النظامية الجارية بالقطرالمصرى وذكر أحوالاً أخرى لا تخلو عن الفـائدة التاريخـية ، قال الراوى ثم صـدر الحكم فى العمـود التاسع من الورقة المذكورة برفض دعوى المدّعي اليونـانى واحقية (هوروس) المصرى بتلك الدار لثبوت وضع يده. اهـ. قلت وطريقة هذه المرافعة لا تختلف فى شىء عما هو جار بالمحاكم الآن فرحم الله تلك الأيام ما أعدلها.

(فصل)

(فى كيفية الحدود والعقوبات عند بم)

كانت للمصريـين أحكام غريبة دونت فى كتب شرائعهم وذلك كـعقاب الحانث فى يمينـه بقتله، قالوا: وسر ذلك أن الحانث يرتكب كبـيرتين أولاهما كونه حلف كاذباً وخان معبوده بسبب حلفه به كذبا. وثانـيتهما لأنه غش الناس وخدعهم بيمينه الفاجرة ليـصدقوه فأوقعـهم فى تصديق الكذب ، ومن أحكامــهم أن من رأى فى طريقه من يقتل إنسـاناً أو يصول عليه ولم يغثه من القتل أو الصـيال مع قدرته على ذلك فجزاؤه القتل. فإذا كان لا يقدرعلى إغاثته بنفسه وإنما يتمكن من طلب الإغاثة بغيره وجب عليـه أن يطلب إغاثته من القادر عليـها فإذا قصـر فى ذلك قتل أيضاً. وكذلك إذا علم أحد بقتل آخر وجب عليه التـبليغ لأولى الأمر فإن لم يفعل فجزاؤه القتل، قالوا لأن وجوده كعدمه، ومنها أن الخائن الذى يبلغ الأعداء أسرار الحكومة ويطلعهم على عوراتها جزاؤه قطع لسانه وكذلك من يصطنع النقود الزيف أو يطفف المكاييل والموازين أو يزور فى الأختام والمكاتيب والحجج فجزاؤه قطع يده.

قلت: ولعل قول الراوى (وكذلك من يصطنع النقود الزيف إلخ) فيه زيادة عن الأصل حيث اجتمعت كلمة أهل التاريخ على أن النقود لم تستعمل بديار مصر إلا فى أيام الدولة السابعة والعشرين الفارسية ويدل على صحة ذلك ما قاله هرودوتس المؤرخ من أن دار ابن (هستاسب) هو أول من ضرب نقود الذهب وبالغ فى تصفيتها وأن دارا المذكور حكم بالقتل (على اريانديس) عامله بمصر حين علم بأنه ضرب نقوداً من الفضة . اهـ.

قال أهل التاريخ وقد كانت النقود المتداولة قبل دارا المذكور اصطلاحية على أشكال مختلفة كالضفادع والحلقات والثيران والعجول الصغيرة المصنوعة من الذهب والفضة والمعادن الأخرى مرقوماً عليها قيمتها ووزنها وعيارها فكانوا يقومون بها السلع والبضائع ويقال هذا يعادل حلقتين من الذهب أو من الفضة وهذا بثلاث ضفادع أو أربعة ثيران مثلاً. وكانت جزية الأمم الخاضعة لمصر كلها من حلقات الذهب أو الفضة تقبضها منهم بالوزن.

وكات الأحكام على النساء أيضاً غاية فى الشدّة وبالنسبة لهن كذلك فإن من ثبت عليه أنه اغتصب امرأة حرّة غير رقيقة بالزنا فجزاؤه قطع آلته. قالوا لأن فى هذا الذنب ثلاث كبائر الأولى: التعدى على امرأة بهتك عرضها، الثانية: السعى خلف إفساد الأخلاق السليمة والعوائد فى الهيئة الاجتماعية، الثالثة: ما يترتب على ذلك من اختلاط الأنساب فإذا زنى بها برضاها فجزاؤه جلده ألف جلدة وجزاء المرأة قطع أنفها لتشويه خلقتها حتى ينقطع ميل الرجال إليها، ولا ينفذ الحكم على الحبالى منهن إلا بعد الوضع ومن أحكامهم أن الدين المدّعى به لا يثبت على المدين إذا حلف على رؤوس الأشهاد أن ذمته بريئة من ذلك الدين وأن الدائن لا يستحق فى ذمته شيئاً ووجه ذلك أن اليمين أقوى ما لم يثبت الدائن عليه دينه بسندات ومن أحكامهم أيضاً أن الربح عندهم فى أى شىء كان فى البيع والشراء لا يتجاوز رأس المال وإلا عدّ من الغبن الفاحش، وأن من كان عليه دين فأملاكه كافلة لذلك الدين وضامنة له وأما ذات المدين يعني شخصه فليس لمدينه عليه ولاية قالوا وسر ذلك أن ذات المدين مملوكة للهيئة الحاكمة بحيث تطلبها فى كل وقت وفى كل حال سواء كان ذلك فى زمن الصلح أو زمن الحرب. فلذلك كان لا يجوز القبض على أحد من الأهالى ولا حبسه فى الأمورالخصوصية كالدين ونحوه ويحكم بقطع يمين مطفف الكيل والميزان ومقلد ختم السلطان أو ختم أحد الناس ومزور الخطوط ومغير مواضيع الدعاوى الرسمية، ويحكم بالعذاب ثم بالحرق، ومن قتل أحد أبويه عمداً

أحرق حيا ومن قتل ابنه أو ابنته يحكم عليه بأن يعانق جثة المقتول أيام بلياليها. قال هيرودتس: وبقى الحكم بالقتل معمولا به إلى عهد الملك سباقون أحد ملوك العائلة الخامسة والعشرين فأبطله واستبداله بالأشغال الشاقة فى حفر الجسور ونحو ذلك من المنافع العمومية. قال: ومن مآثر الملك (مايس) أحد ملوك العائلة السادسة والعشرين أنه فرض على كل مصرى أن يثبت اسمه بالكتابة فى آخر الجهة الداخل فى دائرة اختصاصها ويبين مهنته ووسائل معيشته وتكسبه فإن أكل أو ظهر أنه يأكل من طريق الحرام والسحت حكم عليه بالقتل.

(فصل)

(فى تمدن المصريين فى صنائعهم وعقائدهم وبعض عوائدهم)

اعلم أن دلائل الآثار وما جاء به التاريخ المصرى القديم والحديث أثبت ما كان عليه أجدادنا المصريون من المعارف وما وصلوا إليه من درجات المدنية وما حازوه من الفنون العقلية والفلسفية والطبية والكيماوية، وكيف تقدّموا وبرعوا ونالوا الأسبقية فى علم الهيئة والنجوم والهندسة لا سيما فن الطب الذى اتقنوه إتقاناً غريبًا جداً إذ كان الطبيب عندهم لا يتفرغ إلا لمعالجة مرض واحد من الأمراض فيتقنه غاية الإتقان. قال بعض الكتاب: وقد وجد كتاب محرر فى فن الطب من عهد الملك (خوفو) وكتابان آخران أحدهما من عصر الملك (منكورع) كله تذاكر طبية، وثانيهما كان قد وجد فى عصر الملك (سيتى) فتممه الملك (سندا) ثم نقلت هذه النسخ فى مدة العائلة الثانية عشرة والتاسعة عشرة ولنفاستها تداولتها مدارسهم وحفظت فى مكتبة (امبحتب) التى بقيت إلى عهد اليونان، وكان حكماء اليونان يستنبطون منها العلاج، قال هيرودوتس المؤرخ: وكان قدماء المصريين يعتنون بصحة أجسامهم زيادة عن غيرهم من الناس فكانوا كل شهر وثلاثة أيام يتعاطون مقيئات وشربا لتنظيف أجوافهم لأنهم كانوا يعتقدون أن أمراض الإنسان تنشأ عن المأكولات، قال: وإن الطب كان مقسماً عندهم إلى أقسام متباينة بمعنى أن كل طبيب كان يشتغل بنوع مخصوص من الأمراض ولهذا كان حكماؤهم كثيرين . اهـ.

وقد برعوا فى عمليات التصبر ووصلوا فيه إلى درجة لم يتأت لأحد من بعدهم الوصول إليها ومع ذلك. فقد كانوا لا يميلون إلى البحث فى علم التشريح ولا

التفنن فيه لاعتقادهم أن الجسم إذا شرح يكون مشوه الخلقة عند بعثه. ولذا كانوا يبغضون كل من كان سبباً فى تشريح جثة موتاهم حتى إن المصبر الذى كان من وظيفته عمل الفتحات اللازمة لعملية التحنيط كان عرضة للعن والكراهة، وكان إذا عمل الفتحات المذكورة فى الجثة خرج مسرعاً فيلحقه الحاضرون ويرجمونه بالحجارة، وكان الأطباء لهذا السبب يعالجون المرضى حسبما كانت تقضى به الشريعة عندهم فإن خالفوا ذلك أخطئوا وخاطروا بأنفسهم ، وإذا مات المريض حال معالجته حكم على طبيبه بحكم القتل، وقد ورد فى الرسالة القديمة المحفوظة بخزانة التحف ببرلين عدّة مسائل مهمة تتعلق بحياة الجسم الإنسانى عندهم وتعريب بعض ما فى تلك الرسالة.

أن للرأس اثنين وثلاثين وعاء توصل النفس إلى داخله ثم يسرى منه هذا النفس إلى جميع أعضاء الجسم، ويوجد أيضاً فى الصدر وعاءان يوصلان الحرارة إلى الشرج ووعاءان فى القمحدوة واثنان فى قمة الرأس واثنان فى القفا واثنان فى الأجفان واثنان فى الأذن اليمنى ومثلهما فى اليسرى لحصول التنفس واثنان فى الخياشيم. اهـ. والنفس هو ما يستنشقه الإنسان من الأهوية فيدخل فى الأوردة والشرايين ويمتزج بجميع الدم الذى به حركة الإنسان وعند موته ينقطع النفس بخروج الروح وتبطل حركة الدم فيموت الإنسان. وذكر أيضاً فى الرسائل الطبية القديمة أسماء بعض الأمراض كالرمد والدوالى والقرح والحمرة والديدان والصرع. ونحو ذلك وفيها أيضاً باب مخصوص لبعض معالجات نافعة للحمل والولادة وورد فى رسالة قديمة محفوظة بانتكخانة برلين بعض علامات لتشخيص الأمراض التى هى أهم كل شىء للحكيم من ذلك تشخيص نوع من الالتهاب تعريبه:

أن يحس الإنسان بألم فى البطن وبضعف فى الأبهر وبالتهاب فى القلب ويشتد ضرب النبض وتثقل الملابس عليه بحيث لا يدفئه كثيرها وتلتهب بطنه عند قضاء الحاجة، ويشتد ظمؤه فى الليل، ويتغير معه طعم المأكل فيكون كرجل أكل جميزاً ويخدل جسمه كما يخدل جسم الإنسان المريض . اهـ.

وعلاج ذلك منصوص فيها على أربعة أنواع إما أن يعالج بالمراهم أو باللبخ أو بالجرع أو بالحقن حسب الطباع فمن هذه الأربعة ما يتركب من خمسين نوعاً منها ما هو من النباتات والأشجار كالعوسج والذرة ومنها ما هو من المواد المعدنية مثل كبريتات النحاس والملح وملح البارود. اهـ.

وكان بعض علماء الطب يدخلون فى تركيب المراهم المزيلة للالتهاب اللحم

والقلب والكبد والمرارة والدم السائل والجاف لبعض الحيوانات لا سيما الشعر وقرن الإيل فكانوا كثيراً ما يستعملونهما فى تركيب بعض المراهم النافعة لمعالجة الالتهاب وكانت أجزاء كل دواء تسحق على حدتها ثم تغلى وتصفى بخرقة وتمزج بعد ذلك بالماء القراح النقى أو بسوائل كمغلى الشعير ولبن البقر والمعز وزيت الزيتون النقى. وغير ذلك كبول الإنسان والحيوان ثم تحلى بالعسل ويتعاطى منها المريض وهى ساخنة فى الصباح والمساء ، أما الصرع المعروف عند العوام بالعفريت فكانت معالجته على نوعين إما بالرقية أو بالطب والأولى عبارة عن عزائم كانوا يقرؤنها على المريض فيخرج منه الصرع وسنذكر هنا نص العزيمة المكتوبة فى الرسالة المحفوظة بالانتكخانة الإنكليزية بمدينة الليد وتعريبها:

(أيها الجنى الساكن فى فلان بن فلان المسمى أبوك بضراب الرؤوس قد محى ولعن اسمك إلى الأبد لأنه جالب للموت . اهـ.

وتكرر هذه المقالة أربع مرات فإن كانت هذه العزيمة لا تزيل الصرع أتى الطبيب بعزيمة أخرى لإزالته. فإذا زال من المريض اجتهد الطبيب فى معالجة الجسم بالأدوية لدفع ما حصل للمريض من الهزال بذلك الصرع وبهذا تعلم أن الرقية اشتهرت عند قدماء المصريين بإزالة المرض الخفى كما أن الطب اشتهر عندهم أيضاً بإزالة المرض الظاهرى.

وكانت درجة العلوم عندهم عظيمة جداً وذات أهمية كبرى. قال لبسيوس وجدت نقوشاً قديمة على جدار مقبرة من مقابر قدماء المصريين بجوار أهرام الجيزة مضمونها أن صاحب هذه المقبرة كان ناظرا على الكتبخانة الملوكية فى مبدأ العائلة الثانية . اهـ.

وما ذلك إلا لعنايتهم الكثيرة بكتب العلوم حتى جعلوا لها خزانة وناظرا. قال بعضهم ومن هذه الكتب ما كان محررا فى مدّة العائلات الثلاث الأوّلى ومنها ما كان مؤلفا فى عهد الملك (منا) ومنها ما كان قبله مما يتعلق بالديانات خاصة وما يتعلق بالهندسة والطب وعلم الفلك وعلم التاريخ المشتمل على قصص الملوك وما حصل فى مدتهم من الوقائع والحوادث المهمة وعلى مدة كل ملك وتاريخ حياته، وكان فى الخزانة المذكورة كتب فلسفية وأدب وبعض كتب خرافات وغير ذلك ولم يتيسر للناس من ذلك إلا شىء قليل من علم الفلسفة والتاريخ.

وكان ما استكشفوه من علم الفلك كما رواه العلامة لبسيوس عبارة عن بعض النجوم السيارة التى هى المشترى والمريخ وزحل والزهرة وعطارد وبعض نجوم

ثوابت. قال ده روجية وكانوا يشبهون الأرض بالكواكب ويقولون انها تنتقل كالمريخ والمشترى وذهب شاباس إلى أن الشمس مركز الجميع وأنها تسير سيراً عمومياً وتسبح فى السماء مع النجوم السيارة وأن السماء لجة ماء تحيط بالأرض من جميع جهاتها وتركز على الجو فهو لها كالأساس المتين كما جاء ذلك أيضاً فى ورقة برلين الأثرية ويدل على ذلك أيضاً ما يشاهد على الآثار من رسم السماء على هيئة الماء وفيها تسبح الكواكب والنجوم على أشكال بشرية وحيوانية كل منها فى سفينة خلف الشمس وتشاهد فيها أيضاً النجوم الثوابت على هيئة مصابيح منتشرة فى القبة السماوية، وكان القدرة الإلهية توقدها كل مساء لتضىء الأرض أثناء الليل وجعلوا فى مبدأ هذه الهيئة النجوم التى كانوا يعبدونها وغيرها مما لا يمكن مقارنة أسمائها القديمة بالأسماء الحالية، كما تشاهد مرسومة فى الرصدخانات القديمة الموجودة بدندرة وصان ومنف والمطرية.

وكانوا يهتمون كل سنة بعمل تقاويم سنوية يبينون فيها ظهور وغروب الكواكب ولم تزل آثارها باقية وأشهر هذه الكواكب الشعرى اليمانية حيث كان ظهورها علامة على مبدأ فيضان النيل وعلى رأس السنة المصرية ولذا اتخذوها أساساً للتقويم. قالوا: وكيفية تقويمهم أنهم قسموا السنة إلى اثنى عشر شهراً كالجارى عند القبط إلى الآن وقسموا الشهر إلى ثلاثين يوماً فتكون السنة ثلثمائة وستين يوماً. ثم قسموا هذه الشهور إلى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة شهور. فالأول فصل فيضان النيل. والثانى فصل التخضير. والثالث فصل الحصيد. ثم قسموا أيضاً كل شهر إلى ثلاثة أقسام وجعلوا كل قسم عشرة أيام وقسموا الليل والنهار إلى اثنتى عشرة ساعة وعلى هذا الحساب زادت سنتهم خمسة أيام وربعا فنشأ عن ذلك عدم موافقة الفصول لمنازل القمر فاضطروا إلى رصد الشمس ثانياً واستقر رأيهم على إضافة خمسة أيام لكل سنة سموها بأيام النسىء. ومع ذلك لا يزال يرى فرق بين السنة البسيطة والكبيسة. لأن عدد السنة البسيطة ثلثمائة وخمسة وستون يوماً. وعدد الكبيسة ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم فصارت السنة الكبيسة تزيد كل أربع سنين يوماً واحداً سماه الكهنة بيوم الشعرى اليمانية. وكانوا يجعلون لها مواسم وأعيادا فى معبد (شيسوحور) بمدينة منف. وأما علم الرياضة فلم يهتد إلى شىء من كتبه وإنما دل بناء الأهرام الشامخة وتشييد العمارات المتسعة والمقابر المتقنة على أن فن الهندسة كان متقدماً جداً وأن المصريين كانوا يعرفون مقاييس الأجسام وجر الأثقال حتى أمكن المهندسين منهم أن يبتنوا تلك الأهرام الجسيمة والبرابى العظيمة الموجودة بسقارة وغيرها على شكل غريب وصنع عجيب وقد وجدت بعد بناء الأهرام بألفى

سنة رسالة فى الهندسة أظهرت حقيقة ما كان عليه هذا الفن فى عصر العائلة التاسعة عشرة.

وكانت لهم اليد الطولى فى صناعة الذهب والفضة وأعمال أشكال الحلى النفيسة وهم الذين اخترعوا آلات الحرث وصنعوا الزجاج بألوان مختلفة، وكان لهم اتصال مع بلاد الهند والصين بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون إلى تلك الجهات ما راج عندهم من الحبوب والمواشى والفخار والزجاج ويستبدلونها بالعطر والبهار والياقوت. وغير ذلك من النفائس والأصناف العزيزة عندهم.

ومن عوائدهم أنه إذا أراد إنسان اقتراض مبلغ من المال يجوز له أن يقترض ويرهن فى نظير ذلك - أى فى نظير دينه - جثة أبيه المدفونة فيكون قبر أبى المدين تحت يد الدائن إلى وقت استحقاق الدين فإذا لم يوفى المدين دينه ومات حرم من دفنه فى مقابر والديه وتحرم أولاده أيضاً ما لم يوفوا دين والدهم.

ومن عوائدهم أن الولائم التى يتخذها الأغنياء يحضرون فيها بعد الطعام فى غير المكان المعدّ له نعشاً مرسوماً عليه صورة من الخشب جيدة الصنعة على هيئة جثة الميت ينظر إليها جميع الندماء عند الشراب والطعام ويفرج بعضهم بعضاً عليها بالمناوبة فيقول بعضهم للبعض انظر إلى هذه الجثة التى سنكون مثلها بعد الموت فاشربوا ياهؤلاء هنيئًا وتمتعوا بدنياكم قليلاً.

ومن عوائدهم احترام الفتيان للشيوخ فإذا قابل الفتى شيخاً فى طريقه تأخر عنه فى السير وإذا قدم شيخ على مجلس فيه فتيان قاموا إجلالاً لشيخوخته وإذا تقابل المصرى مع إخوانه فى موضع ولزم التسليم على من لقيه انحنى للآخر وجثا على ركبتيه وقبل كل منهما يد صاحبه.

ومن عوائدهم أنهم كانوا لا يجالسون الأجانب ولا يأكلون معهم شيئاً ويبغضونهم بغضاً شديداً وكانوا إذا مات أحد أشرافهم مرغ نساء بيته وأولات قرباه الوجوه بالوحل وقرعن صدورهن وطفن بالمدينة صارخات باكيات. **قلت**: وهذه العادة باقية كما هى إلى يومنا هذا، وهكذا يفعل الرجال أيضاً ثم يأتون بالجثة إلى المحنطين وبعد التحنيط ينعقد مجلس القضاء على الميت فيأتون بالجثة أمام عرش القضاة فإن كان الميت من أهل الصلاح والتقوى ووجد من شهد بذلك صدرالحكم بدفنه مكرماً وإن كان ذميماً دفن على خلاف اللائق ولو كان من أعظم الأشراف أو ملكاً من الملوك وقد تقدّم الكلام على ذلك فى محله.

وكانوا إذا حنطوا الجثة أخرجوا دماغ القحف من المنخرين وأخرجوا الأمعاء إلا

القلب والكليتين من ثقب فى الخاصرة ثم يغسلونها بخمر الخل ويردونها إلى أجوافها ويملئـون الرأس وأجـواف الأمعـاء بالمر والقـرفـة وكل نوع من الأطيـاب والعطور ويدهنون الجسـد بالزيوت العطرية مدة ثـلاثين يوماً ثم يوضع فى مـاء النطرون مدة أربعين يوماً ثم يلف بلفائف مغموسة بالمر مدهونة من الخارج بماء الصمغ للوقاية من الهواء ثم يـوضع فى تابوت من الخشب أو الحـجر ويسلم لأهله فـإما إن يبـقوه فى بيوتهم وإمـا أن يدفنوه وكان أجـدادنا يلبثون الثـياب من الكتـان ولها طراز وفوقـها برانس من الصـوف الأبيض ولكـنهم كـانوا لا يلبـسـون تلك البـرانس فى المعـابد والهياكل ولا يكفنون بها موتاهم بل يقتصرون على الملابس الكتان لأن ديانتهم كانت تحرم عليهم ذلك.

ومع أنهم كـانوا كثيـرى الآلهة والمعـبودات فقـد كانوا أمـة موحـدة تعرف الله سبحـانه وتعالى وتعبده حق عبادتـه كما يؤخذ من كلام (بورفيـر) المؤرخ وغيره من المتأخرين . وقال هيرودوتس أن أهل طيبة كانوا لا يعبدون إلا الله وكانوا يقولون أنه هو الأول والآخر الحى الأبدى الذى لا يزول ولا يحول وروى (جـامبليك) أنه سمع باذنيـه من كهنة المصـريين أنفسـهم أنهم يعبـدون إلها واحـداً وهو خالق السـموات والأرض رب كل شىء المالك لكل شىء والخالق لكل شىء الأزلى الذى لا موجد له المنزه عن المباضـعة الذى لا تراه العيون يعلم مـا تكن السرائر وتخفيـه الصدور وهو الفعال لما يريد الموجد لكل شىء والموجود فى كل شىء. قـال: أما ما نراه من كثرة المعبـودات وتعدد الآلهـة فكلها رمـز يرجع إلى وحدانيـته وذاته العليـة. قال المؤرخ (شمبليون): وقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحة ما رواه المؤرخ (جامبليك) وما ذكره غيـره من المتأخرين من أن الأمة المصرية كانت أمة موحـدة فى عبادتها لله سبحانه وتعالى غير أنهم كانوا يظهرون صفاته العلية مشخصة فى بعض المحسوسات وأنهم لما تغلغلـوا فى سبل التـوحـيـد وقطعوا آخـر مـرحلة علمـوا أن الروح أبدية واعتـقدوا بصحة الحـساب والعقـاب. قال: وعندى أنه لا يعتـد بما قاله بعض أهل التاريخ من الأغراب الذين تطفلـوا على محافل المصريين فنقلوا من أخبـار عباداتهم ومعـبوداتهم كلامـاً اكتفوا فى نـقله بالظاهر دون الحقيـقة لجهلهم بعـادات المصريين ولغتهم ومبلغ علمهم بالديانة الصحيحة.

ومن المقرر على مـا رواه بعض المحققـين أن موسى عليه السـلام لما أخذته ابنة فرعون أبقتـه فى دار أبيها حتى ترعرع ثم أدخلته إحـدى مدارس الكهنة ويغلب أنها مدرسة عين شمس فتعلم الحكمـة وتخرج على كبار كهنة المصريين وتعلم منهم اسم

الله المكنون الذى كانوا يصونونه عن غيرهم من العامة. ولذلك قال بعض الكتاب أن لفظة (أدوناى) العبرانية التى قالها موسى عليه السلام ومعناها (الله) هى مشتقة من لفظة (ادن) أو (آتن) المصرية ومعناها عند عامة المصريين الشمس. وأما عند الكهنة والخواص فمعناها (الله القادر). قالوا وقد وجد على بعض الأوراق ما يدل على أنهم موحدون من ذلك أن الله واحد لا شريك له وهو خالق كل شىء ، ومنها الله فرد أزلى كان قبل كل شىء ويبقى بعد كل شىء لا بداية له ولا نهاية وقس على هذه العبارة ما يماثلها.

وقال العلامة سبرو نقلاً عن بعض المحققين من أهل التاريخ إن من يتأمل فيما بقى من الآثار القديمة بديار مصر وينظر إلى ما هو منقوش على اللوحات الدينية الموجودة بالهياكل وما هو مسطور أيضاً على البردى هالته كثرة تلك الآلهة المصوّرة عليها وأدهشه أمرها جدا لأن الإنسان لا يقع نظره إلا على صور تماثيل مختلفة الهياكل والأشكال قد طأطأت لها رؤوس كبار ملوكهم وأحبار كهنتهم فيخيل له أن ديار مصر إنما كانت مأهولة بهذه الآلهة وأن المصريين إنما خلقوا لعبادتها، وقد كان السبب فى ذلك أن المصريين أمة مخلصة فى العبادة إما بالفطرة وإما بالاكتساب فكانوا يرون أن الله تعالى فى كل مكان فهامت لذلك قلوبهم فى محبته واشتغلت أفكارهم به ولهجت ألسنتهم بذكره وملئوا كتبهم بمحاسن أفعاله وكانوا يقولون أنه واحد لا شريك له كامل فى ذاته وأفعاله موصوف بالعلم والفهم لا تحيط به الظنون ولا يدخل تحت الكيف والكم قائم بالوحدانية فى ذاته لا تغيره الأزمان فهو الذى ملأت قدرته جميع العوالم وهو الأصل والفرع لكل شىء وكلاهما واحد ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء واشتقوا منها نعوتا شخصوها فى المحسوسات وفى كل شىء نافع وجميعها يرجع إليه ولأجل التمييز بينها جعلوا لكل اسم تمثالا فانتشرت هى وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد فجعلوا لكل ناحية معبودات وميزوها بها لعدم الالتباس فنشأ من ذلك جملة معبودات متباينة فى الشكل مختلفة فى الهيئة منها الحيوان والطير والأسماك والحشرات وجعلوا لكل واحدة وظيفة خاصة ترجع إلى صفاته. قال: من ذلك معبودهم (أمون) وهذا عندهم هو الله الذى ينبعث منه كل شىء ويعطى للعقل نور القوّة لإدراك الخفايا، ومنها (بتاح) وهو فى معتقدهم الذى أتقن كل شىء ومنها (أوزيريس) وهو الله الرحيم فاعل الخير، وعلى ذلك يكون (أمون)، و(بتاح)، (وأوزيريس) أسماء لصفات مترادفة ترجع إليه تعالى. اهـ.

قال بركش باشا: وقد حصروا صفات الله تعالى العلية فى سائر الأشياء النافعة

كالثور والشمس مثلاً وغيرهما وعبدوه أى عبدوا هذه المنفعة لأنه مصدرها وأصلها وكانت الكهنة تعرف حقيقة ذلك جيداً ولا تقصد فى عباداتها إلا وجه الله تعالى.

أما العامة فقد كانوا على خلاف ذلك فإنهم مع توالى الأعصار صاروا يعبدون تلك الأشياء لذاتها ولجهلهم بالحقيقة كانوا يتقربون إليها زلفى وفشت فيهم هذه الزندقة. قال: وقد دل على ذلك ما رواه بعض أهل التاريخ عن بعض الأسفار المصرية القديمة المنسوبة إلى هرمس الهرامسة يعنى هرمس المثلث ما صورته ، يا مصر يا مصر يأتى عليك يوم يتغير فيه دينك القديم ويتبدل منهاجك القويم فتعم ربوعك الضلالات وتنبث فى أرجائك الخرافات وتحل عبادة الأوثان محل عبادة الواحد الديان وتطفىء نار الشرك والإلحاد نور الهدى والرشاد وتنحصر أخبارك فى بعض أحجارك . اهـ. وقال مريت باشا: اتفقت كلمة الجم الغفير من متقدمى أهل التاريخ على أن المصريين كانوا يعبدون الله وحده ولكننا مع الأسف لم نجد لذلك شاهداً على الآثار حتى كنا ننزل قولهم منزلة اليقين إذ الشك فى قولهم هذا آخذ كل يوم فى الازدياد. اهـ.

وكان لملوكهم عناية كبرى ببناء المساجد والهياكل وبذل النفيس فى تزيينها بالنقوش الفاخرة والرسوم الظاهرة والألوان المختلفة وكانوا يقطعونها الإقطاعات الواسعة ويرصدون عليها الإرصادات الكثيرة تقرباً للآلهة وتخليداً لذكرهم وذكر أيام ملكهم وكانوا جميعاً على اختلاف طبقاتهم شديدى العناية بتربية سائر أنواع الماشية والطيور إذ كان عليها مدار ثروتهم وخصوصاً أرباب الزراعة منهم فكانوا يهتمون بشأنها ويحسنون تربيتها ويستخدمون لعلاجها الأطباء والبياطرة والخدم وكانوا يقيمون لكل نوع منها كالمعز والأوز والضأن زعاة مخصوصين ولكل طائفة من أولئك الرعاة رئيس مسئول عنها وكانوا يبالغون فى حسن تربيتها لا سيما الثيران فإن عنايتهم بها كانت أشد بكثير نظراً لتفاخرهم بنطاحها وتحسين نوعها، وكان رئيس الرعاة هو المكلف بتمرينها على النطاح، وكان من عادة أولئك الرعاة وكبارهم أنهم إذا جاؤا إلى ساداتهم ليخاطبوهم فى أمر مّا وقفوا أمامهم بخضوع وخشوع وهم واضعون يدهم اليمنى على كتفهم الأيسر علامة على الطاعة وكمال الامتثال أما يدهم اليسرى فمرسلة تشير باحترام وكانت تربية هذه السوائم المختلفة فى الأقاليم البحرية أكثر منها فى الأقاليم القبلية لاتساع أرضهم وكثرة الكلأ عندهم ، قال صاحب الأثر الجليل: وقد وجدت لوحة فى إحدى المقابر بجوار الأهرام عليها رسم صورة صاحب القبر كأنه على قيد الحياة واقفاً يتفقد أحوال ماشيته وهو متمنطق ومتقلد بشريط عريض ينزل من كتفه الأيسر إلى خاصرته اليمنى وبيده عكاز طويل

وفوق رأسه راية من القماش المزدوج يحملها خادم ليقيه حر الشمس وبجواره بعض صغار أبناء آوى. وفى عنقه قلادة أو عقد وأمامه خدم أو رعاة تسوق أنواع الحيوانات وفوق كل فريق منها رقم واضح به كميته وفى مقدمة الجميع قطيع من الحمير يتقدمها جحش وعددها ثمانمائة وستون وعلى كتف الراعى عكاز عليه جلد حمار مات فى الغيط ليطلع سيده على صحة موته ثم يتلو ذلك قطيع من الغنم بقدر تسعمائة وأربعة وسبعين رأساً وخلفه راع يحمل فى يده سلة بها رأس حيوان بلا قرون يظهر من حالها أنها رأس ذئب ثم يتلوه سرب من البقر وعدده ثمانمائة وأربعة وثلاثون ثوراً ثم مائتان وعشرون ما بين عجل وبقرة ثم يتبعه قطيع من المعز وعدده ألفان ومائتان وأربعة وثلاثون. قال ووجد على حجر فى مقبرة أخرى لأحد أغنياء مصر الوسطى أن عدد حميره كان يبلغ ألفا وثلثمائة وأربعة وبقره ثمانمائة وثلاثين، والغالب أن بقر الملك كان من أجود الأنواع واكتشف بعضهم فى مقبرة لأحد وجوه مدينة منف صورة خدم وحشم يقدمون قرباناً إلى الميت (وهو سيدهم) من محصول أرضه ونتاج ماشيته مثل التمر والتين والعجول والأوز والغزال والفاكهة والأزهار ومنهم من يقود ثيراناً عظيمة الجرم منها الأبيض والأحمر والأسود وفى أعناقها قلائد بها زينة على شكل نبات البشنين ومنها اثنان من لونين مختلفين موسومان على فخذهما الأيسر بسمتين مربعتين سوداوين مكتوب فى إحداهما (المنزل الملوكى نمرة ٤٣) وفى الآخر (المنزل الملوكى نمرة ٨٦) قال الراوى وربما كان هذا الرقم يدل على عدد الثيران التى كانت من نوع كل ثور عليه هذه الوسمة. اهـ.

وكان من عاداتهم أنهم يرسمون رب العائلة واقفاً متكئاً على عصا طويلة علامة على الحكم والتصرف فى منزله وعائلته، وكانوا يحبون اللعب بالشطرنج والكرة والضامة والمصارعة وكانت المصارعة عندهم مفروضة على سائر الجنود من المشاة وأصحاب العربات وهى عندهم عبارة عن تمرينات ومنازلة مختلفة النوع والشكل فترى المصارعين منهم تارة فى هيئة الهجوم أو الدفاع وتارة فى هيئة الكر والفر يتناوبان ذلك بالدور والترتيب فينهزم المغلوب ثم يعود غالباً ويستعمل كل منهما ضروب المخاتلة والمراوغة وهما عاريان ليس على بدنهما إلا منطقة عريضة تستر سوأتهما.

وكانت تربية العساكر عندهم تستلزم الأيام الطوال، وكان يدخل فى تمريناتهم أيضاً سائر القواد وكبار الجند فكانوا يتعلمون قواعد الحرب وأركانه وأسباب الهجوم والدفاع ومقارعة العدو وكان سائر أولاد العسكر يتعلمون كآبائهم ويتمرنون فى حداثة سنهم على الحركات العسكرية والسبب فى ذلك أنهم هم الوارثون لآبائهم

القائمون بحماية الوطن من بعدهم وكان لا يجوز لأى إنسان منهم أن يشتغل بحرفة أخرى ما دامت فيه قوة على حمل السلاح.

وكانت الأسلحة المستعملة عندهم القسى والرماح والمزاريق والنشاب والحراب والحسام والخنجر والسيف والنصل والدبوس والشاطور والبالطة والسكين والدرق والزرد والدروع والمغفر، وكان نظام معسكرهم لا يختلف كثيراً عن النظام المتبع فى دول هذا الزمان فكان متقنا منظماً مرتباً ترتيباً عسكرياً ، وفيه مضارب الجند ومواقف العربات وبيوت المرضى والممرضين والأطباء ومحضرى العقاقير وأمرائهم والنقالات والأسرة وأصحاب الحملة ودواب النقل من الخيل والحمير والمكلفين بحمل جرار الماء، وكانت جندهم تنقسم إلى فيالق مسماة بأسماء معبوداتهم فكان منها فيلق (بتاح) وفيلق (آمون) وفيلق (أزوريس) ونحو ذلك فإذا باشروا الحرب براً كأن يكون العدو قد جاءهم من طريق البر قاتل الملك فى وسط الجيش وهو على ظهر عربته كآحاد القواد وإن باشروا الحرب بحراً اصطفت سفن المصريين أمام سفن العدو بقرب الساحل فتجرى وتتحرك بواسطة الشراع والمجاذيف وتصطف عساكر الرماة على الساحل مدداً للسفن ويرمى الجميع بالنبل والنشاب على سفن وشوانى العدو والملك واقف على قدميه فى وسط العساكر البرية يدبر حركة القتال ويقوى عزائم الجنود حتى يتم لهم الظفر بالعدو وربما اقتفوا أثره وحرقوا حصونه وقلاعه وهدموا أسوار مدنه أو عاقدوه على الهدنة أو الصلح وغير ذلك مما هو جار الآن على السواء ثم يعودون بعد النصر إلى الوطن فيسيرون فرقا فرقا والملك فوق عربته يقود خيلها بنفسه وهى مطقمة بأجمل زينة لها مجللة بأحسن ما يكون والأسرى أمامه وهم مكبلون بالحديد والضباط تحمل المظلات على رأسه فإذا دخل المدينة واقترب من المسجد ترجل ودخل وأثنى على معبوداته ثم يتوجه إلى مقره ويعين يوماً للتبريك فتأتى إليه الوفود من أرجاء المملكة فيجتمعون فى قصره ثم يخرج بهم إلى المعبد وأمامهم أصحاب البوق والنفير والشبابة والطبول والمغنون والمرتلون ويتلوهم أهل الملك وأقاربه ثم الكهنة وكبار الدولة وعظماؤها ثم ولى عهد الملك ويمشى أمام الملك وهو حامل للبخور ثم الملك فى هودجه المحلى بأنواع الزينة يحمله اثنا عشر ضابطا من كبار القواد وعلى رأس كل واحد ريشة من ريش النعام وتمشى أولاد الكهنة حول الهودج وهم حاملون قضيب الملك وقوسه وجميع سلاحه والشارات والرنك الملوكى ثم يتلوهم باقى الأمراء والكهنة وكبار الجند وحول الجميع فرقة من المشاة تمشى على شكل حلقة لتمنع الناس من العبث بنظام المشهد فإذا دنا من المسجد ترجل فتقابله الكهنة على شكل مخصوص من التجلة والتكريم فيدخل ويتعبد ما

شاء ثم يعود إلى مقـره فى موكبه كما حضر وكـان لكل عائلة فى مثل هذه المحافل العمومية نظام وترتيب على ما يناسب الزمان والمكان.

وقد اجتـمعت كلمة بعض أصحاب التاريـخ على أن الجيش المصرى لم يكن به عساكر من الفرسان وبنوا قولهم هذا على أنهم لم يعثروا على شىء من ذلك البتة لا فى الآثار ولا فى اللوحات الحربية ومع أنهم كانوا من الفروسية ومعرفة ركوب الخيل بمكان عظيم لكنهم لم يدخلوا ذلك فى جيوشهم، قال صاحب الأثر الجليل: والدليل على ذلك يعنى على مـعرفة المصـريين للفروسـية أنه وجد فى كـثيـر من النصوص الأثرية صورة فـارس يركض جواده ونجـاب يعدو مـسرعـاً بفرسه وهو قـابض على قراطيس من ورق أو مكاتيب ليـسلمها فى مـحل لزومها ووجد أيضـاً صورة أجنبى يعدو بفرسه وهو بلا سرج فراراً من الموت . اهـ.

وأيد هذا المذهب العلامـة شيمليون فيـجاك حيث قال: ما علمـنا أنه كان لمصر فرسـان وأن الغرض من الفرسـان المذكورة فى التوراة هم راكـبو العربات لا راكـبو الخيل وأن التـوراة ذكرت فى موضع آخر أن فرعـون غرق فى البحر بخـيله وعرباته وفرسانه أى المقاتـلة الذين كانوا عليها. قال: ويؤيد صحـة ما قلناه من خلو الجيش المصرى من الجند الفرسان كيفية تربية العســاكر وتمرينها المنقوش على الآثار وجميعها مشاة ولم نر للفرسان فيها أثرا . اهـ.

وكانت الجندية عندهم معدودة فى الطبقة الثانية بعد الكهنة وكان الملك هو قائد قواد الجند وعليـه تعيين الـرؤساء لسائر الفـرق من أولاده وأقاربه أو من أولاد ذوى البيوتات وأعاظم الـعائلات بشرط مراعاة الكفاءة والأهلية وكـان الغزاة من ملوكهم الميالـون إلى الفتح يقـودون الجيوش بأنـفسهم إلى حـيث يطوحهـم القتال وعلـيهم تدبيرها فى الحال والترحال وكان الملك منهم يقف فى ساحة الحرب على ظهر عربته كآحـاد الجند وهو شـاك سلاحه وحـوله جند الحـرس الخاص وكبـار الضبـاط وهم يقذفون سهامهم على العدوّ ويضربون بأسلحتهم ما استطاعوا وقد شوهد على الآثار أن كثيراً من هؤلاء الملوك كان يقتنص الأسود وهى صـغيرة ويربيها حتى تصير داجنة فكانوا يسيرونها أمام عربة المـلك عند الخروج للحرب فكانت تقاتل وتبلى فى العدو بلاء حسناً.

(فصل)

(فى أعيادهم ومواسمهم)

وكان المصريون من ذوى البـراعة فى علم التقويم ولهم أعياد ومـواسم معدودة يقدمون فيهـا للآلهـة مـن الذبائـح والقرابين شيئاً كثيراً، قال صاحب العقد الثمين:

وكانت مواسمهم منقسمة إلى أربعة أقسام، القسم الأول - فى أعياد السنة وفيه ثلاثة أعياد العيد الأوّل عيد رأس السنة والثانى عيد السنة الكبيرة أى الكبيسة والثالث عيد السنة الصغيرة أى البسيطة، والقسم الثانى فى أعياد الشهور، وفيه عيدان الأوّل عيد الحر الكبير، وكان يعمل فى غرة أمشير. الثانى عيد الحر الأصغر وكان يعمل فى غرة برمهات، والقسم الثالث فى أعياد الأيام وفيه عشرة أعياد عيد غرة الشهر وثانيه ورابعه وخامسه وثامنه وخامس عشره وسابع عشره وتاسع عشريه وثلاثيه من كل شهر وعيد أيام النسىء الخمسة، والقسم الرابع وفيه تسعة أعياد خصوصية، الأول عيد ظهور الشعرى اليمانية فى غرة توت، الثانى عيد (واك) وكان يعمل فى السابع عشر والثامن عشر من كل شهر، الثالث عيد المعبود (تحوت) أى هرمس وكان يعمل فى التاسع عشر من توت ، الرابع عيد السفر فى النيل ، الخامس عيد أوّل زيادة النيل وهو الشهير الآن بموسم النقطة ، السادس عيد السفينة (ثبت) السابع العيد الكبير ، الثامن العيد الطيب وكان يعمل فوق الجبل ، التاسع عيد (عماشع) أى عيد الرمل الكبير . اهـ.

قال هيرودوتس المؤرخ وكانت أعياد ومواسم المصريين تعمل فى مدن متفرقة بالبلاد البحرية والقبلية من مصر مثل مدينة بسطة وصاالحجر والمطرية (وبوتو) التى من آثارها الآن تلال موجودة فى ساحل البحر المالح مما يلى بحيرة البرلس ومدينة (بايرميس) التى لم يعلم الآن لها محل وكانت تلك المواسم والأعياد دينية وسياسية يحضرها الملك أو من ينوب عنه من عائلته والملكة وخلق كثير من الناس وأكبرها يعمل على رأس كل ثلاثين سنة مرة وكان لمن تقع هذه الأعياد فى زمنه من الفراعنة الفخر العظيم والصيت البعيد.

قيل وكان يصدر من المصريين فى هذه الأعياد كثير من الفحش والفجور وكانت الأعياد المذكورة مرتبطة بأوقات الزراعة فى كل سنة وأوّل أعيادهم كان عند شروق كوكب الشعرى اليمانية فى أشعة الشمس وميقاته غرة توت وهو أول شهورهم وكانوا يذبحون فيه واحدة من السمان قرباناً لمعبوداتهم (إزيس) ويخرج الكاهن من معبد مدينة (أبو) فى هياكل مقدسة محمولة على هوادج على أعناق جماعة من الكهنة يختلف عددهم من اثنى عشر إلى ستة عشر بالنسبة إلى ثقل الهيكل وهكذا فى باقى المواسم وبعد مضى أيام من هذا الشهر كان يعمل موسم (تحوت) الشهير (بهرمس) ولذلك كان يسمى هذا الشهر باسمه وكان من عوائدهم فى هذا الموسم أكل التين وشرب العسل ويقال بعد أكله (ما أحلى الحق).

ومن أعيادهم عيد كان يعمل فى السادس من بابه وهو عيد حمل (إزيس) بمولودها (هاربوخرات) يشيرون بذلك إلى وضع بذور الزرع فى الأرض بعد انحدار ماء النيل عنها وفى هذا الموسم كان يعمل طلسم فى عنق تمثال (إزيس) يسمونه (كلمة الحق) وفى الثامن عشر من هذا الشهر موسم (أمون رع) فى مدينة بايريس وكان من عادتهم فيه أن الكاهن فى الليلة المتقدمة عليه يأخذ الهيكل أى هيكل قدّيسهم ويضعه فى برزخ مذهب بموضع مقدّس لهم قريب من المعبد وفى الغد يقربون القرابين وبعد الفراغ منها عند زوال الشمس يقوم بعض الكهنة عند الهيكل ويقف الباقون عند باب المعبد وبأيديهم العصىّ والمساوق لمنع دخول الهيكل فى المعبد فإذا جاء حاملو الهيكل وجدوا باب المعبد مقفلا فيقع بينهم وبين من به من الكهنة وغيرهم مضاربة وقتال كبير ويجرح فيه كثير من الناس ويسيل دمهم ولا ينكفون عن القتال حتى يدخل الهيكل فى المعبد ويستقر فى مكانه وزعم الكهنة أنه لم يكن يحصل ضرر لأحد من تلك الجروح وكان المصريون يشيرون بهذه الأحوال إلى أن (حور) بن (إزيس) أراد الدخول على أمه ليزنى بها فمنعه حراسها من مرامه فجمع أحبابه وأصحابه وقاتل حتى غلبهم ونال مرامه وسرّ ذلك هو أن حرارة الشمس المعبر عنها (بإزيس) دخلت فى جوف الأرض لتخصبها وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر كانوا يعملون أيضاً موسم عصا الشمس ويعنون بها تقدمها فى العمر ونقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها احتاجت إلى عصا تتوكأ عليها ويعدّون فى هذا الموسم موكباً تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يطوفون بها حول المعبد سبع مرات إشارة إلى أن (إزيس) تبحث عن جثة زوجها (أزوريس) بعد أن قتلته (تيفون) وهى الريح الجنوبية.

وفى السابع والعشرين من هاتور كان يعمل فى المدن المعروفة الآن باسم بوصير عيد وقوع (أزوريس) فى قبضة (تيفون) عدوّه وإلقاء الثانى الأوّل فى النهر. ولذا كان هذا اليوم عندهم معدودا من أيام النحوس وفيه يكون ماء النيل قد انحسر عن أرض الزراعة وانحصر فى مجراه بين ضفتيه.

وكانت مدة هذا الموسم أربعة أيام يدور فيها المصريون بثور قرونه مذهبة وعلى ظهره قطعة قماش من القطن أو الكتان مصبوغة باللون الأسود مشيرين بالثور إلى (إزيس) وبقطعة القماش إلى مصر لأن لونها بعد انحسار النيل عنها يكون أسود وكانوا بعد هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر لنقص النيل ولغلبة الرياح الجنوبية المكنى عنها (بتيفون) على الرياح الشمالية فى ذلك الوقت ولقصر النهار بطول الليل

ولتجرد الأرض عن الخضرة وكان الحزن فى هذا الموسم عمومياً عند النساء والرجال لحزن (إزيس) على زوجها (أزوريس) وكانوا يكثرون فيه من الصلاة والصيام وتقريب القرابين من فحول البقر وكان من عادتهم أن لا يؤخذ من هذه القرابين بعد ذبحها إلا الجلد والأمعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل وما عدا ذلك من الجثة يملأ بالدقيق والعسل والتين والعقاقير الطيبة الرائحة ويحرق بالنار ويزيدونه اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليه، وفى ذلك الوقت تكثر النساء من الصياح والنوح والبكاء والعويل ويلطمن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد ذلك يأكل الناس ما أخذوا من لحوم القرابين. وكانوا يعملون فى هذا الموسم وغيره من بقية المواسم أعمالاً منكرة منها أن يجرح الرجال بعضهم بعضاً جروحاً بالغة وتشدخ النساء أفخاذهن بحجارة حادة حتى يسيل الدم من هذه الجروح إظهاراً لشدة الحزن والجزع . قال بعض الكتاب وقد أبطلت جميع هذه العادات قبل خروج بنى إسرائيل من أرض مصر.

وفى الثالث والعشرين كان موسم دفن (أزوريس) يشيرون بذلك إلى انحباس النيل فى مجراه مبدأ زراعة الخريف. وفى اليوم الأول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم فى مدينة إسنا لقدّيسهم بها ومن رسومهم فى هذا الموسم أن يظهروا جميع أوانى المعبد والحلى ويتقربوا بالخبز والنبيذ وغيره من المشروبات وبالأوز وفحول البقر وبسائر المزروعات على اختلافها. وفى اليوم التاسع من شهر طوبة كان موسم رجوع (إزيس) من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير فوقه صورة فرس البحر مسلسلة فى القيود وفى هذا اليوم خاصة كان يرخص لأهل مدينة عين شمس التى هى المطرية بأكل لحم التمساح وبعد هذا الموسم بأيام كان يعمل موسم تعويض مذاكير (أزوريس) بمثلها من الخشب والغالب أنهم كانوا يشيرون بذلك إلى غرس الأشجار فإنه يكون بعد هبوط النيل.

وفى التاسع عشر من هذا الشهر كانوا يتخذون بمدينة صا الحجر عيداً كبيراً مشهوراً بالوقدة التى كانت تعمل فيه، وكانوا يشيرون بها إلى زوال الظلمة التى عمت الأرض بموت (أزوريس) فكانت الكهنة يذهبون بحراً فى الليل صوب النيل فى موكب عظيم به خلق كثير حاملين هيكل (أزوريس) مزيناً بأنواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب يملئونه من النيل فى وقت معين وعند ذلك يقول الكاهن وجميع الحاضرين بصوت عال ها هو جسد (أزوريس) قد عثرنا به فكأنهم كانوا يشيرون بذلك إلى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال

يصنعها من الطين المعجون بماء النيل المعطر ببعض الأشياء الذكية وفى شهر أمشير كان عيد مشاهدة (إزيس)، (لأزوريس) يشيرون بذلك إلى ظهور المحصولات الصيفية على وجه الأرض، وكان لهم فى شهر برمودة أعياد أخرى ، أولها عيد تطهير (إزيس) قبل البذر ثانيها عيد الخصب ووقته سادس عشر هذا الشهر، وكانت تجعل فيه بهيكل (أزوريس) مذاكير مصنوعة من الخشب أو غيره على صورة أعضاء التناسل للإنسان وفى الغد من اليوم المذكور عيد دخول (أزوريس) فى القمر يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال ، ثالثها موسم ولادة (حور) فى الثامن عشر من هذا الشهر ، رابعها موسم قدّيستهم (نيت) فى مدينة (بويست) وهو موسم شهير ولعله هو الذى يعمل الآن فى جهة البرية للقديسة دميانة، وكان لهم فى شهر بؤنة عيد يتقربون فيه بفطير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك إلى تغلب (أزوريس) على (تيفون) أى إلى ابتداء النيل فى الزيادة ويزعمون أن تلك الزيادة ناشئة عما سكبته (إزيس) من الدموع وقت بكائها على (أزوريس) زوجها.
قال هيرودوتس: وهذا الموسم هو موسم مولد الشمس الذى كان يعمل فى مدينة عين شمس لأن الانقلاب الصيفى يحصل فى هذا الآن وهو عبارة عن ابتداء الشمس فى النزول بعد انتهائها فى الصعود، وقد حافظ قبط مصر على عادة الاحتفال بليلة النقطة التى تكون فى الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر ، وكان لهم موسم فى شهر مسرى لمولد (هربوخرات) ويعرف عندهم بموسم السكوت وإشارته حلقة صغيرة كانت توضع على الفم ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل، وكانوا يتقربون فيه بكلاب شقر كما كان الرومان واليونان يتقربون بها ثانى يوم مسرى إلى كوكب الشعرى . اهـ.

ولنرجع إلى الكلام على ملوك الدولة السابعة والعشرين وهى دولة الفرس التى قامت بعد انقراض دولة الفراعنة كما تقدم التنبيه على ذلك ونأتى على أخبار كل ملك منها ومن قام بعدها على الترتيب فنقول.

(الكتاب الثانى)

(فيمن تغلب على مصر بعد الطبقات الثلاث المتقدمة)

(الباب الأول)

(وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى العائلة السابعة والعشرين الفارسية الأولى وفى الملك كمبيز بن كورش رأس هذه العائلة)

قد أجمع أصحاب التاريخ على أن كمبيز هذا هو ابن كورش وكورش رجل خرج والتفت عليه جموع من أخلاط آسية الغربية لا ظهور لهم ولا ديانة فاجتاز بهم نهر (الرس) هائماً على وجهه فكان لا يدرى أين يتوجه ثم انضمت إليهم قبائل من أمثالهم من البلاد المجاورة لحدود بلادهم وساروا جهة الشمال الغربى من آسيا تحت قيادة كورش المذكور وهو كسرى الأوّل من ملوك الفرس لا يصدّهم فى طريقهم أحد ولا يعارضهم معارض، وكان مع كورش أيضاً طوائف من المجوس وضابط من أمراء الفرس يدبر أمر تلك الجموع وكانت الطائفة المقدّمة على غيرها من هذه الجموع طائفة الفرس فعبر كورش بهذا الجيش العظيم نهرى الفرات ودجلة وجعل معسكره فى إقليمي خوزستان والعراق واستولى على خورست وبابل المدينتين العظيمتين ثم تغلب على بلاد الشام بغير ممانع وضرب الجزية على ملكها وجعل على أهل الشام الفرض والمغارم فى نظير الترخيص لهم باستدامة التجارة مع بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات وصارت الشام بذلك إيالة تابعة لمملكة كورش المذكور ثم بعث بجنوده لغزو بلاد مصر فلم يتم له الأمر، ومات يوم كانت جنوده مشرفة على الاستيلاء على مصر، فتولى الملك بعده ابنه قمبشاش المسمى أيضاً كمبيز وسار على سيرة أبيه فى الحكم والإغارة والفتوحات التى كان أبوه مبدأ بها قبل موته فركب على بلاد مصر فى جموعه وحاربها وفتحها عنوة كما تقدّم بيان ذلك فى أيام الملك (ابسامتيك الثالث) وسمى نفسه (بختنصر الثانى) قال بعض الكتاب: ولعل هذا معنى قول المؤرخين أن (بختنصر) خرب ديار مصر مع أن بختنصر الجبار الذى هو ملك الموصل لم يحكم مصر ولا أتى إليها.

أما السبب الذى دفع بجنود الفرس إلى الإغارة على مصر فهو أنه لما كانت هذه الأمة قد اتخذت فى أيام كورش الحروب والإغارات ديدنا لها كانت تجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فى طلب الغنائم والمكاسب شأن الأمم المتبربرة والشعوب المتوحشة وكانت ديار مصر فى ذلك الحين مشهورة بالغنى والثروة التى لا مزيد عليها قصد كمبيز المذكور أن يتغلب عليها وساق جيوش أبيه الجرارة الذين هم من أخلاط اليونان وغيرهم ممن كان يتبع أباه فى الحل والترحال ولكنه لما كان يخشى من معاكسة قبائل العرب النازلين فى الطريق الموصلة إلى مصر عمد إلى محالفتهم وسار إلى مصر من جهة الفرما حيث كان ملك مصر نازلاً بعساكره لصدّه عن الوصول إلى داخلية البلاد فلما التقى الجمعان هجم كمبيز على ملك مصر وجنوده فهزمه وهرب ملك مصر حتى لحق مدينة منف فأرسل له كمبيز سفراء يخاطبونه فى شأن تسليم البلاد وكف القتال فقتلهم فسار كمبيز لقتاله، وطالت الحرب أياماً ثم سلم ملك مصر لخصمه بعد أن فارقه أتباعه ومن هذا الحين انتقل ملك مصر من أيدى أهلها إلى قبضة الفرس وقام السفه والجهل مقام الرشد والتمدن، وكان هذا مبدأ الدولة السابعة والعشرين.

ولما استقرّ بكمبيز منصب ملك مصر عمد إلى مسايرة أكابرها وأعيانها وميزهم بعلامات الامتياز استجلاباً لهم واتخذ لنفسه الألقاب الفرعونية ليوهم الناس أنه من نسل العائلات المصرية، وبالغ فى التزلف وسار إلى صاالحجر التى دفن فيها (أموزيس) ونبش قبره وأخرج جثته ومثل بها تمثيلا قبيحا بأن ضربها بالمناخيس حتى تمزقت وتفرقت أجزاؤها ثم أحرقها بالنار وأوهم الناس أنه إنما فعل ذلك لاغتصاب (أموزيس) المذكور الملك حالة كونه ليس من بيت الملك. قال هيرودوتس: وهذا سبب ظاهرى. أما الحقيقة فإن (أموزيس) كان قد أساء كمبيز فى حروبه فتشفى بما فعله فى جثته ولعدم اطلاع الناس عليه فى ذلك أكرم (لاديكه) زوجة (أموزيس) المذكور وأحسن معاملتها وبعث بها إلى أهلها ثم أمر بعد ذلك ببناء معبد (نيت) الذى بمدينة صاالحجر لتعسكر جنوده فيه وأصلح جميع ما دمره وخربه فى حروبه وقرّب منه أمناء الدين المصرى ليتعلم منهم ما اشتهروا به من العلوم والحكمة وتلقى من الكاهن (أوزاخوسن) الأسرار اللاهوتية الخاصة (بأزوريس) كما رواه ده روچيه وعزم على أن يجعل مصر حصنا يستعين به على غزو إفريقية وأكثر فيها من الاستعدادات فهابه المصريون واستوصلت جرثومة التعصب والتحزب من البلاد واستتبت فيها الراحة وكان لغزوه مصر وفتحها عنوة أثر مخيف عند سائر الأمم

المجاورين لها فجاء الليبيون وقدّموا له الطاعة ودفعوا له الجزية وأهدوا إليه الهدايا والتحف العظيمة لتوطيد علائق السلم والمحبة بينه وبينهم واقتدى بهم فى ذلك القورينيون (سكان مدينة قورين ببلاد العرب) وصفا له الزمان وعلت كلمته وذاع صيته فعزم على غزو القرطاجيين سكان مدينة قرطاجة والأمونيين سكان واحات أمون بالجبال القربية من ديار مصر والإيتيوبيين وهم الكوش. قال هيرودوتس: فأرسل إلى قرطاجة عمارة بحرية عظيمة فلم تنجح وعادت خاسرة وذلك لأن رجال تلك العمارة، كانوا من الفنيقيين فوقع بينهم الخلاف لأن الصوريين هم الذين عمرو مدائن قرطاجة فكان بين القرطاجيين والصوريين علاقة القرابة فامتنعوا من محاربتهم وعادت العمارة بغير طائل ثم أرسل فى الغزوة الثانية التى هى مع سكان واحات سيوى خمسين ألفاً من جنوده لفتح تلك الأصقاع واستعباد أهلها وتمهيد الطريق لجيوشه وهدم هيكل المشترى القائم بها وهو هيكل (أمون) الذى كانت تحج إليه الناس وسار مع جيشه هذا الأدلاء يرشدونه فخانوه وأضلوه عن الطريق حتى نفدت منه الميرة ونفقت الخيل والجمال وضل الجيش فى الصحارى وهبت عليه رياح السموم فأهلكت الجنود عن آخرهم ولم ينج منهم أحد، وكانت هذه الغزوة قبل غزوة السودان ثم سار ببقية جيشه إلى النوبة، فلما وصل إلى خمس الطريق نزل بجيشه القحط والمخمصة إذ لم يكن عندهم من الزاد ما يكفى فكانوا يأكلون دوابّ الحمل فلما فرغت كانوا يتغذون بما يصادفهم فى طريقهم من الأعشاب والحشائش الرديئة فلما توغلوا فى القفار صار يأكل بعضهم بعضاً بالاقتراع من كل عشرة واحدا ممن تقع عليه القرعة فكان هذا الأمر أشدّ عليهم هولا من الجوع ولم تكن هذه الأهوال لتردع كمبيز عن غيه ولكنه خاف على نفسه وارتد على عقبيه خاسئاً، ومع ما كانت عليه عساكره من الجوع والمخمصة وأكل بعضهم بعضاً كان هو يتلذذ على مائدته بما تحبه نفسه من أنواع المآكل والمشارب وما زالوا على هذا الحال حتى قفلوا راجعين إلى مدينة طيبة فى أسوء حال فلما دخل المدينة المذكورة أمر بهياكلها فسلبت العساكر ما فيها من الزينة والأمتعة والذخائر من الذهب والفضة وغير ذلك. وقد كانت مملوءة بالنفائس والأشياء الثمينة.

قال صاحب العقد الثمين: والغزوة الثالثة كانت مع أهل الإيتيوبيا. وقبل الكلام عليها يلزمنا أوّلاً أن نصف حال الإيتيوبيا، وما كانت عليه بلادها فى تلك المدّة وذلك أنه منذ هزيمة الملك (نوات ميامون) كانت مملكة الإيتيوبيا قد قطعت العلاقات بينها وبين ممالك آسيا فلما حاربها بسماتيك الأوّل والثانى قطعت أيضاً علاقاتها مع

مصر وحافظت على استقلالها وكانت ولاياتها التى بين الشلال الأوّل والثانى الشهيرة قديماً بكثرة العدد والعمران قد لحقها الخراب والدمار وصارت أشبه شىء بالصحارى والقفار وصارت مدنها التى شيدها ملوك العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أطلالا وأى أطلال وأوشكت هياكلها أن تعلوها الرمال. وأما الجهة التى بعد الشلال الثانى فكانت أخذت فى الظهور والارتقاء وكانت منقسمة إلى إقليمين كمصر وكانت مدينة (بينونى)، (ودنقلة) فى الجهات العليا منها ومدينة (نبتا) فوق جبل بركل ومدينة (تكاسى) فى مجمع النيل عند الخرطوم وكان فيها أيضاً نهر (استابوراس) الشهير الآن باسم (تكاسى) ثم مدينة (مروه) المسماة قديماً (بروه) وبعد مروه هذه مملكة (الواح) تمتدّ على سواحل البحرين الأزرق والأبيض حتى تصل إلى سهل سنار الأكبر، وكان فى جدودها الجنوبية طائفة (الأسماخ) وأصلهم من المصريين الذين هاجروا إليها فى عصر بسامتيك الأوّل، وكان بين درفور وجبال الحبشة والبحرالأحمر قبائل ما بين متمدّنة ومتبربرة بعضها من بنى الأسود وبعضها من إفريقية وبعضها من (بنى سام) بآسية، وكانت طائفة (الرهريشا) قاطنة جنوبى (مروه) بين البحر الأزرق ونهر (تكاسى) وطائفة (المادى) بين نهر (تكاسى) وسلسلة الجبال المارة بسواحل البحر الأحمر، وكانت مطامع ملوك الإيتيوبيا تسوقهم إلى محاربة تلك الجهات لوجهين الأوّل عدم وجود صعوبات فيها مانعة لهم الثانى كثرة غنائمها حتى قيل أن اثنين من ملوك الإيتيوبيا المعاصرين لكمبيز وهما (حورسياتف)، و(نستوسنن) أخضعا غالب هذه القبائل وأقمعا كل من أظهر المقاومة والثبات أمامهما. قال مريت باشا وكانت بلاد الإيتيوبيا مملكة شوروية. فإذا أراد أهلها انتخاب ملك يعملون فى معبد (أمون) بمدينة (نبتا) مجلسا يجتمع فيه الكهنة والنوّاب الذين تنتخبهم القضاة وبعض العلماء والعساكر والضباط. فإذا انعقد المجلس دخلت الإخوة الذين هم من العائلة الملوكية فى معبد (أمون) المذكور ووقفوا أمام هذا المعبود المشير بأصبعه إشارة اتفاقية إلى الإنسان الذى يريد الكهنة انتخابه من العائلة الملوكية لتوليه الملك ومتى تم الانتخاب واستقرّ الرأى على واحد جعلوه ملكاً عليهم وبقى مدّة حياته تحت سلطة الكهنة بحيث لا يمكنه إعلان حرب أو إجراء شىء مهمّ فى حكومته إلا إذا استأذن المعبود (أمون) وكهنته فإن عصى أو أراد الاستبداد أمرت الكهنة بقتله ولا مناص من إنفاذ ما أمروا به، وكما كان هذا القانون مشدّداً على الملك كان أيضاً مشدّدا على الرعية فلو خالف أحد الرعية رأى الكهنة أو غير أدنى شىء من الشعائر الدينية اعتبروا هذا التغيير بدعة سيئة وحكموا على صاحبه بالقتل ، وقد اتفق فى آخر القرن السابع أن بعض الكهنة أبدع فى شعائر

الدين المصرية القديمة بدعا سيئة منها إباحة أكل لحم القربان نيئًا وهى عادة بنى الأسود فتوجه الملك الحاكم حينئذ إلى معبد (أمون) ، (بنبتا) وحكم بطرد من أبدع شيئاً فى الديانة وأحرق ما وجد من آثار تلك البدع السيئة فعلى هذا الأمر خرج أصحاب المذهب الجديد من بلادهم إلى جهات متباعدة واتخذوا لهم فيها مساكن وتمكنوا من نشر هذا المذهب كل التمكن لأن رؤساء الديانة المصرية، كانوا وقتئذ فى غاية الضعف بحيث لا يمكنهم ردعهم ولذلك استمروا ناهجين هذا المنهج حتى ظهر السيد المسيح وبقيت هذه العادة إلى الآن عند بعض الحبشان فهم يأكلون اللحم النيء ويسمونه (بريندە).

ولما انقطعت العلاقات بين الإيتيوبيا ومصر واستبدّت الإيتيوبيا بأعمالها توفرت فيها أسباب الثروة وصار لها اسم شهير وصيت كبير بين أمم البحر الأبيض المتوسط فامتدت مطامع الملك كمبيز إلى فتحها فأرسل إليها سفراء من وادى الكنوز يحسنون لغة الإيتيوبيا، وكان رجال الايتيوبيا حسان الخلقة طوال القامة غلاظا شدادا أذكياء معروفين بعلو الهمة والشجاعة، وكان مما يزيدهم بسطة فى الجسم تدبيرهم للمطاعم والمشارب فلهذا كانوا أطول الناس أعمارا وكثيراً ما كان يعيش الإنسان منهم مائة وعشرين سنة. قال هيرودوتس: وكانت فى بلادهم عين ماء يرتوون منها تنعش أبدانهم ومروج مخضرة يانعة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وكان الذهب فى بلادهم كثيراً جداً حتى أنهم كانوا يستعملونه فى الأشياء الدنيئة كالسلاسل التى يسحبون بها الأسرى، وكان النحاس نادراً ومرغوباً عندهم فدخل سفراء كمبيز بلادهم بصفة عيون وجواسيس ليرودوا البلاد ويستكشفوا أحوالها فعرف أهل الإيتيوبيا منهم ذلك ولكنهم رحبوا بهم وعاملوهم أحسن المعاملة ولم يظهروا الحذر منهم ولا الاحتراس، وكان مع هؤلاء الرسل هدايا لملك الإيتيوبيا من المصنوعات الذهبية والحلل الأرجوانية وكثير من العطريات وأنبذة التمر فأعجبهم من هذه الهدية الشراب وسرّ به الملك وأمر فاحضروا له قوسه فأوترها بحضرة سفراء كمبيز. ثم قال للسفراء أودّ أن لا يأتى ملككم لحربنا إلا وهو على بينة من عدد جندنا وأحب أن لا يقدم عليها قبل أن يرى نفسه أو أحدا من قومه قادراً على أن يوتر هذه القوس بالسرعة التى رأيتموها منى الآن. فإذا أعياه الأمر ومال إلى علاج ذلك حينا من الدهر فليحمد معبوده حيث لم يرزق الإيتيوبيين الطمع فى الزحف على بلاد فارس وأخذ ملكهم.

فلما نقل السفراء لكمبيز هذا الكلام غضب وسار إلى بلاد الإيتيوبيا (وهى

النوبة) ليغزوها فأصاب جنده ما أصابهم كما تقدم فعاد إلى مدينة طيبة فلما دخل المدينة أمر العساكر بانتهاب ما فيها من الهياكل كما تقدم ثم سار إلى مدينة منف فاتفق وصوله إليها فى وقت كانوا يعملون فى هياكلها موسماً مشهوراً لوجود العجل (أبيس) فظن أنهم شامتون بهزيمته فقتل جميع من كان فى تلك الهياكل من الكهنة وأمراءالأديان وأرباب الحل والعقد. وقد أطنب المؤرخون فى وقائع جبروته وبالغوا. ومما يحكى عنه أنه سأل يوماً أحد وزرائه المسمى (أبربساسية) بقوله ما الذى يقوله الرعايا فى شأنى وما الذى يذكرونه من مناقبى وأخبار عدلى فى هذه الأيام. فقال: هم يصفونك أيها الملك بكل وصف حميد. ورأى سديد. ويرون أنه لا مثلبة فيك إلا الانهماك على الشراب ولولاها لكنت منزهاً عن جميع العيوب. فقال كمبيز هم يعتقدون إذن أنى أغيب عن الصواب وقت تعاطى الشراب. قال: نعم فنقم عليه كمبيز ذلك وأمر بإحضار الشراب بين يديه ووقف السقاة أمامه وكبيرهم ابن (أبربساسية) فأخذ كمبيز يشرب حتى صار كالزق المنفوخ ثم التفت إلى ابن (أبربساسية). وقال له قف ياغلام منتصباً وضع يسارك على رأسك فوقف الغلام، وكان صبياً جميلاً جدًا فالتفت كمبيز إلى (أبربساسية) أبى الغلام. وقال أتذكر ما قلته. قال: نعم. قال: سآتى لك بالبرهان الآن على أن الخمرة لا تفعل بى ما نقلته عن الرعية وها أنا مفوّق سهمى لأصيب فؤاد ولدك هذا فإن أصبت المرمى فلا سلطان للخمرة على عقلى مهما أكثرت منها وإن أخطأته صح ما يقول الناس عنى ثم سدّد سهمه صوب فؤاد الغلام فصاده بأحد السهام وأمر به فشقوا بطنه ليرى أبوه محل السهم من فؤاد ولده. ثم قال لأبيه هل وفق أحد قبلى لمثل هذه الإصابة. فقال لا وهى من دلائل البراعة والنجابة. ويحكى عن هذا الملك شيء كثير جداً من أمثال ذلك حتى يقال أنه كان يتسلى بقتل رعاياه من العجم ذبحا كذبح الغنم. وقيل إنه غضب على بعض أعيان مملكة فارس فأمر باثنى عشر منهم فدفنهم أحياء وأهالوا عليهم التراب ولما طال مكثه بديار مصر خرج عامله على فارس عن طاعته وأثار الفتنة وولى أخاه ملكاً على العجم ادعاء منه بأنه (اسمرديوس) أخو كمبيز. وقد كان أشبه الناس به فأطاعه الفرس وملكوه عليهم اعتقاداً منهم بأنه ابن كورش وأرسلوا الدعاة للمبايعة فى جميع الجهات وسمى فى كتب التاريخ (باسمردوس) المجوسى وقيل إنه إنما سمى بالمجوسى لظهور المدعو (زدرشت) بدين المجوسية فى أيامه. وقد كان المجوس يعتقدون نبوة (زدرشت) المذكور وبعضهم يجعل ظهور (زدرشت) قبل كورش.

وكان كمبيز فى وقت ظهور الفتنة ببلاد فارس قد خرج من أرض مصر ونزل على الشام فبينما هو هنالك إذ حضر داعى العجم يدعو أهلها لمبايعة (اسمرديوس) ملكاً على فارس فلما سمع كمبيز بذلك اغتم غماً شديداً ونادى فى عسكره بالرحيل إلى بلاد فارس وأسرع هو إلى جواده فبينما هو يركب اندلق سيفه من غمده فجرحه فى فخذه وألزمه الفراش فمات بعد أيام قلائل وهذه رواية هيرودوتس. وقال: (بهيستون) بل قتل نفسه عمدا ولم يترك أولادا ولا أوصى لأحد بالملك من بعده ولم يذكرجماعة المؤرخين لهذا الملك شيئاً من المناقب سوى أنهم قالوا أن أحد قضاته المسمى (سيزمناس) ارتشى فى بعض الوقائع ليحكم بغير الحق فعلم كمبيز بذلك فقتله سلخاً وأمر بجلده ففرشوه على منبر القضاء وولى ابنه مكانه وذكر ما حاق بأبيه ونهاه عن الرشوة. وقيل إن ما حكى عنه من مثل هذه الأمور غير صحيح وإنما هو من نقل هيرودوتس المؤرخ عن كهنة المصريين وهم أعداء له فكانوا يختلقون عليه ما لا يخفى من الأكاذيب فنقلها هيرودوتس عنهم كما تلقاها.

وكان كمبيز لدى مسيره من مصر إلى الشام أناب عنه فى حكم البلاد رجلاً اسمه (أرياندس) فلما استقرت به العمالة أخذ يعمل على تعزيز كلمته وتاقت نفسه إلى الاستبداد بالحكم والخروج عن طاعة مملكة فارس فلم يفلح وذلك أنه بعد أن قام (اسمرديوس) ملكا على فارس ثلاث سنين انكشف أمره واتضح لأهل البلاد كذبه واغتصابه للملك فقاموا عليه وقتلوه وولوا مكانه (دارا) فلما استقر بدارا المنصب وعلم بما يفعله (أرياندس) المذكور بمصر خلعه وأبعده عن البلاد.

(فى الملك دارا الأول)

تولى الملك فى سنة تسع عشرة وخمسمائة قبل الميلاد أى سنة إحدى وأربعين ومائة وألف قبل الهجرة ونودى له باسم دارا الأوّل فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير أمور المملكة وترتيبها على أحسن نظام وقد كانت بلغت فى أيام كورش وكمبيز مبلغاً عظيماً من الشهرة والاتساع ولم تكن أيامهما كافية للغزو وترتيب أمور المملكة فجاء (دارا) هذا بأحسن التدبير وأتم التنظيم وقسم المملكة جميعاً إلى عشرين إيالة وقيل ثلاث وعشرين ثم تزايد عدد هذه الأيالات بتزايد الفتوحات حتى بلغت إحدى وثلاثين فضرب عليها الخراج من مال وعروض فكان ما ضربه من المال بالعملة الحالية ستة وعشرين ألف ألف وخمسمائة وأربعين ألف جنيه وضرب لذلك سكة سماها الدارية. وأما العروض التى قررها على تلك الأيالات فقد كانت كثيرة جداً

فكانت مصر تعطى منها غلالاً تكفى لمؤنة الاثنى عشر ألف جندى المرابطين فيها، وكان الميديون يقدّمون فى كل سنة مائة ألف خروف وأربعة آلاف بغلة وثلاثة آلاف حصان ويقدم الأرمن ثلاثين ألف مهر والبابليون خمسمائة غلام من الخصيان وسكان سيسليا ثلثمائة وستة وستين حصاناً قيل ولذلك كانت تسميه الفرس بالنقاد لأنه كان يعرف من أين يأتى الكسب كما كانوا يلقبون كمبيز بالمتملك وكورش بالأب وكانت مصر السادسة من أيالاته. وقال بعضهم بل الثالثة وقد جعلها (دارا) مع قسم النوبة وإقليم القيروان وإقليم برقة أيالة واحدة وعمالة واحدة وصيرها فى الرتبة بعد بابل والموصل اللتين هما الأيالة التاسعة من أيالات فارس وأكثر جميع الأيالات خراجاً وقد ذهب بعض أصحاب التاريخ إلى أن النوبة لم تكن فى هذا العهد ملحقة بمصر ولم تدفع خراجاً لمملكة فارس بل كانت انفصلت عنها عند تغلب الفرس على مصر وأنه لا يعلم من تاريخ الفرس شىء يدل على أنهم كانوا يملكون شيئاً من البلاد بعد جزيرة أسوان مما يلى الجنوب وإنما كانت مملكة الإيتيوبيا المصافية لمصر تبعث بشىء من المال إلى الفرس إعانة لمصر وتبرعا ليس إلا وكانت هذه الإعانة عبارة عن مدين من الذهب الخالص ومائة قضيب من الآبنوس وخمس جوار نوبيات وإحدى وعشرين سن فيل فى كل سنة. قالوا: وقد دلت الآثار على أن الإيتيوبيين كانوا يدفعون مثل هذا القدر فى كل عام إلى الملك رمسيس الأكبر ولسلفه وخلفه ، وكان دارا المذكور شديد البأس صعب المراس. فمنع جميع الفرس الذين كانوا معه بديار مصر أن يدينوا بديانة المصريين وأمرهم أن يحافظوا على عبادة النار وحرم عليهم الكتابة بالقلم المصرى القديم ونهاهم عن أن يتداول بينهم هذا اللسان وطلب منهم أن يحافظوا على لغتهم حتى أوشكت أن تكون الشائعة الاستعمال فى مصر، وكانت كتابة الفرس المجوسية المقدسة عندهم مأخوذة من لغة الكلدانيين الذين هم السريانيون وهم أهل بابل ثم تلقاها عنهم أهل أذربيجان ثم انتقلت إلى فارس فلما تغلب الفرس على مصر بقيت فى مصر آثار من هذه اللغة يعنى من كتابتها.

قال ده روجيه ولما دخلت مصر فى حوزة دارا أحسن معاملة أهلها ليذهب عنهم ما كمن فى صدورهم من الحنق والغيظ المتسبب عن سوء تصرف كمبيز واضطهاده إياهم وعسفه بهم فاحترم الديانة وأصلح المعابد الخربة وعفا عن القسوس الذين أساءهم كمبيز. اهـ.

وقال هيرودوتس: وقبل أن يبارح دارا مصر زار معبد (بتاح) ومهد طرق التجارة وشرع فى إيصال النيل بالبحرالأحمر بواسطة ترعة احتفرها . ولذلك يوجد فى كثير

من المواضع ببرزخ السويس القديم كثير من الأحجار القديمة المكتوبة باسم الملك (دارا) ولما اتصل البحران وردت التجارة من الهند إلى الثغور المصرية بالبحر الأبيض المتوسط وفتح أيضاً طريق قفط الموصل إلى البحر الأحمر وطريق أسيوط الممتد إلى العرابة المدفونة، ومنها إلى أسوان فعاد إلى مصر رونقها القديم وغناها الواسع وراجت تجارتها رواجاً عظيماً واتسع نطاق معاملاتها.

وكانت دولة فارس لينة الجانب فى حكم الواحات وغيرها مما جاور مصر رجاء اتساع نطاق التجارة وتعميمها فى سائر الأقاليم الخاضعة لحكمها، فكانت تجبى المتحصولات من الغلال المفروضة على الأقاليم المسكونة بعساكرها مع غاية اللين والرفق بقدر كفاية عسكرها ولا تتعرض لبيت مال الأمة بضر ولا تأخذ منه إلا ما لزم لتعميم المنافع وتسهيل الطرق الواقعة ما بين مصر والحجاز والقصير وغيرها. قالوا: وقد وجد ما يدل على ذلك منقوشاً على الصخور ومع ذلك فقد كان المصريون لا يرضون بحكم الأجانب لهم وكانوا يراقبون الفرص للخروج عن طاعة دولة فارس إلى أن قامت الفتنة فى العراق وخرج أهلها على (دارا) وقومه واشتغل (دارا) بقتالهم فخرج أهل مصر وشقوا عصا الطاعة وطردوا عساكر الفرس المرابطين وولوا عليهم (خبيش) ملكاً وذلك سنة ست وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد. وفى السنة الخامسة والثلاثين من حكم (دارا) أى قبل موته بسنة واحدة هم بإرجاعهم إلى طاعته فحالت بينه وبين ذلك زيادة النيل وفيضانه ومات (دارا) قبل أن يبلغ منها وطرا، وذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع ومائة وألف قبل الهجرة وله من العمر ثلاث وسبعون سنة وكان له قبل جلوسه على سرير الملك ثلاثة بنين من زوجته المسماة (ارتابازانس) بنت (غوبرياس) وكان على عزم جعل أكبرهم ملكاً من بعده فعلمه فنون الحرب ودربّه على القتال معه فى غزوة التتار، ولكن لما عصت مصر وأراد دارا أن يعين من يرث الملك بعده من أولاده أشارت عليه زوجته الثانية أن يولى (شيارش) أكبر أولادها ففعل ذلك وصار ولى عهده ، أما (خبيش) الذى ولاه المصريون عليهم مكان دارا فيقال أنه من ذرية (بسامتيك) الملك، وكان استواؤه على عرش الملك باتفاق كلمة الأمة ، قال ماريت ولما استقر به المنصب حصن مصر بالقلاع المتينة حتى استعدت لدفع هجوم الفرس عليها، وكان قد مكث ثلاث سنين فى تقوية الوجه البحرى وتحصين الأباطح وأشاتيم النيل حيث كان يظن أن الفرس لا تهاجمه إلا من البحر فجعل أقوى استحكاماته على السواحل فلما فاجأه (شيارش) ملك فارس بالهجوم لم يثبت أهل الوجه البحرى فى صف القتال

إلا قليلاً حتى استسلموا لعساكر الفرس فعاملهم الفرس معاملة القسوة والجبروت وضربوا على كهنتهم المغارم ونهبوا ما كان فى معبد (بوتو) من الأمتعة والنفائس وفى خلال تلك الواقعة اختفى (خبيش) ولم يعلم له مقر إلى الآن . اهـ.

وعادت مصر بعد ذلك خاضعة إلى الملك (شيارش) بن (دارا) وكان من مآثره ما سيذكر بعد.

(فى الملك شيارش بن دارا)

تولى الملك بعد أبيه فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع ومائة وألف قبل الهجرة وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة. وقد كان فاتر الهمة لا يكترث بالقوانين ولا بالسياسة فترك تدبير أمور الأيالات التابعة لمملكته للأمراء المورثين يتصرفون فيها كما يشاؤن وولى أخاه اخيميتس على مصر فأحكم أمورها وعاقب الخوارج من أهلها وما زال حتى انقادت لحكمه وخضعت لكلمته فأقام فيها بعد أربع سنين قوة عسكرية ثم أعدّ هذه القوّة للغزو فى السنة الخامسة وسيرها للقتال وطلب من مصر المدد فأرسلت إليه مائتى سفينة مكملة العدة والرجال على رأس كل رجل من رجالها خوذة من الحديد ومعه درقة ورمح وكان لهؤلاء الجنود من آلات الحرب أيضاً دروع وسيوف.

قال أصحاب التاريخ: وكان المصريون يكرهون دوام ملك فارس عليهم ويتمنون الخلاص من ربقة عبوديتهم ولو أنه وجد منقوشاً على بعض آثار القصير ما يعبر عنه بأن الملك شيارش المذكور كان المولى المحسن سيد الجميع. قالوا: فهذه الكتابة إنما كانت صورية لا حقيقية قد جرى بها العرف والتأدب فى حق الملوك فلا يستدل منها على سعادة الرعية ولا شقائها ومع ذلك فقد كان المصريون لا ينفكون أبداً عن طلب استقلالهم وإنقاذ ملكهم من أيدى الأجانب. إذ كانوا مجبولين على الشجاعة والإقدام وحب الوطن فضلاً عن التمسك بشرائعهم وعوائدهم والذب عن دينهم ومفاداة حريتهم بالأموال والأرواح وكانوا لا ينسون قط مرارة ما ذاقوه من ظلم الأجانب وعدوانهم وما سلبهم ملوك الأغراب من المنافع الجمة وما فعلوه بهياكلهم ومعابدهم من النهب والحريق وهتك حرمات الدين عند زحف الفاتحين للبلاد فعادوا لذلك إلى الخروج والعصيان ولكنهم لم يقدحوا زناده ولم يجاهروا به وجعلوا يترقبون ظروف الأحوال.

ولما كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة قبل الميلاد انحطت شوكة مملكة فارس وتضعضعت فعصى عليها الكرد واليونان وقاموا على شيارش وقاتلوه وأحرقوا سفنه

وخرجت كذلك تساليا ومقدونيا وغيرهما من الأيالات التى فى قارة أوروبا واشتدت الأزمة على شيارش وتحير فى أمره. قال هيرودوتس فأخذ يستعمل الدهاء واللين إلى سنة ست وستين وأربعمائة قبل الميلاد حتى أتت سفن أثينا إلى سواحل القيروان وليكيا وطردت الفرس من هناك ثم قام بعد ذلك بقليل الأغا (اسباميثرس) والقائد (ارتابانوس) وقتلا شيارش وسارا إلى ولده (ارتخشارشا) وموها عليه الحقيقة وقالا إن أخاك (دريوس) قتل أباك فلا بد لنا من قتله والأخذ بثأر أبيك فأجابهم إلى قتله فقاما عليه وقتلاه وبعد أن قتلاه حاولا قتل (ارتخشارشا) أيضاً فخانهما أحد أقرانهما وقتلهما غدراً فآل الملك بعد موت (شيارش) إلى ولده (ارتخشارشا) فكانت مدّة حكم شيارش تسع سنين لا غير.

(فى الملك ارتخشارشا الأول)
(ويقال له أيضاً)
(ارتسخار)

تولى (ارتخشارشا) الملك بعد موت أبيه فى نحو سنة خمس وأربعين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحوسنة سبع وستين وألف قبل الهجرة قال: (تى سديد) وفى خلال قيام الفتنة ببلاد الكرد والقيروان. وخروج أهلها عن طاعة الفرس وضعضعة سلطنة فارس فى تلك الأصقاع وقيام اسبا ميثرس الطواشى ورفيقه على شيارش وقتله استبد المصريون بحكمهم وأقاموا (إيناروس) بن (بسامتيك) ملكاً عليهم وكان اذ ذاك أمير مدينة ماريا فانضم إليه رؤساء الوجه البحرى ولكنه رأى عدم استطاعته على مغالبة الفرس بهذا الجيش الصغير فاستعان بمملكة اليونان وكان عند اليونان سفن حربية أنشأوها فى جزيرة قبرس فأعانوه وأرسلوا إليه مائتى سفينة فسارت حتى جاءت إلى مصر ومعها جنود يونانية من الممالك المعاهدة لأثينة وانضموا إلى جنود مصر فتقوت بهم عزائم المصريين وقاتلوا جنود فارس قتالاً عنيفاً جدّاً وما زالوا حتى انتصروا على جنود (ارتخشارشا) وقتل (إيناروس) ملك مصر بيده فى وسط المعركة (اخيمينس) نائب مملكة فارس الذى كان بمصر وأرسل جثته إلى شقيقه ملك فارس وهجمت السفن اليونانية بقيادة أميرها (خاريتميدس) على السفن الفينيقية التى كانت مع جنود الفرس، وكان فى هذه السفن بعض العجم وبعض الجنود من الأهالى الذين حافظوا على طاعة فارس فحاربهم حتى أسروا منهم ثلاثين سفينة وأغرقوا عشرين وانتصر اليونان والمصريون نصرة عظيمة ثم ساروا على النيل حتى وصلوا إلى مدينة منفيس

وكان بها بعض العجم وبعض الجيوش الوطنية فحاربوهم حتى استسلمت المدينة لهم ولكن بعد قتال طويل تمكن فى خلاله ملك فارس من حشد جيش جديد. وقيل أنه لما رأى (ارتخشارشا) أنه لابد من هجوم اليونان والمصـريين ومن معهم على عساكره بمنفيس عـمل على سلخ عساكـر اليونان عن عساكـر مصر وفصم عـرى الاتحاد من بينهم فنجح وفاز حتى رشـا بواسطة رسله أهل اسبارطة من اليونانيين ليـمتنعوا عن الاشتراك فى الحرب فامتنعوا فأرسل على الفور القائد (مجابيسوس) بجيش جرار إلى مصر فقـابلته العساكر المصـرية وحاربته فحاربها وطاردها إلى جـزيرة (بروسوبيتس) وكانت هذه الجزيرة فى غاية المنعة لما فيها من القلاع والحصون فلما انحازوا فيها سد (مجـابيســوس) فرع النيل الذى كـانت فيـه السفن اليـونانية، وهو المحيـط بالجزيرة المذكـورة فغـاض منه الماء ونضب ثم هجم على المصـريين، ومن كـانوا معـهم من اليونانيين فـأسر (إيناروس) وأمر بقتله صلبـاً وهلك أكثر اليونان قـال: (تى سيديد) وكان من تمام مصيبة المغلوبين أن جاءت نحو الخمسين سفينة من سفن اليونان لإمداد المصريين ورست فى مصب البحـر المنديسى فهجمت عليها السفن الفـينيقية ودمرت نصفـها بل أكثر. قـال هيرودوتس فدخل عنـد ذلك (ثانيراس) ابن (إيناروس) تحت طاعة العجم وأظهر الخضوع فقلدته دولة فارس ملك مصر مكان أبيه مكافأة له على طاعته وكان من حـزب (إيناروس) المذكور رجل اسمه (أميرتيـوس) قد هرب عندما وقع (إيناروس) فى قبضـة (مجابيســوس) والتجأ إلى أباطح الساحل بإقليم الشـرقية الذى انحاز فيه الملوك الصاويون غير مـرة ودافع هو ومن كان معه من حزبه حينا مع الظفر والاسـتظهار ولكنه لم يفلح وعادت مـصر إلى ما كانت عليـه من الوقوع فى قبضة ملك فارس وأقام عليها عمه (أخـيمنس) نائبا فاستعبد أهلها وأذلهم وبالغ فى تنكيلهم وأذاقهم مرّالعـذاب وكانت هذه الوقائع المشؤمة على عهد كـثير من مؤرخى اليونان المشهورين أى فى أيامهم فحكوها فى عبارتهم على ما ينبغى والأصح منها ما رواه مانيطون المؤرخ المصرى وقد تأيد بما وجد على المبانى القديمة والنقوش ومما جاء فى كلامه أن (ارتخشارشا) الملك بعد أن مكن دولـته وثبت أركانها حكم مصر ثمانياً وثلاثين سنة بعد عصيـان المصريين على نائبه مدّة سنتين فتكون مدّة حكمه جـميعها على فارس أربعين سنة وبقى المصـريون خاضعين لنائبه (أخيـمنس) المذكور إلى أن مات (ارتخشارشا) سنة خمس وعشـرين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وأربعين وألف قبل الهجرة فخلفه (شيارش) الثانى.

(فى الملك شيارش الثانى)
(والملك سوغديانوس)
(والملك دارا الثانى)

تولى (شيارش) الثانى الملك سنة خمس وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وأربعين وألف قبل الهجرة فلم يستقر به المنصب سوى خمسة وأربعين يوماً وقيل ستين يوماً حتى قام عليه ابنه (سوغديانوس) فقتله.

فولوا (سوغديانوس) المذكور بعده فحكم ستة أشهر ونصفا وقيل سبعة وقام عليه دارا الثانى فخلعه وقتله.

فولوا دارا بعده فى نحو سنة أربع وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وأربعين وألف قبل الهجرة ولقب بلقب (رع ميامون) ولم يذكر المؤرخون السابقون وعلماء الفلك فى فهرست ملوك فارس اسم (شيارش) الثانى المذكور ولا اسم (سوغديانوس). قال بعضهم: وكذلك فى جدول سلسلة تاريخ الملوك الذين ذكرهم بطليموس الفلكى فى طالعة كتابه المحيطى التى بنى عليها زيجه لم يذكروا (كورش) وكمبيز (ودارا) الأول (وشيارش) ودارا الثانى ولا غيرهم. قالوا فتكون العمدة إذن على ما قاله مانيطون وكان دارا المذكور متزوّجاً بخالته المسماة (باربساتيس) قال (كيتزيانس) وكانت امرأة قاسية فاسدة غليظة الطباع وقد اختلت فى أيامه دولة فارس ولحق بأهلها الضيم والهوان فلما أحس المصريون بذلك هبوا إلى العصيان واستقدموا (أميرتيس) من الأباطح التى كان قد لجأ إليها بعد قتال العجم الأخير ليخلص الوطن من العدوّ ثم أقاموه رئيساً عليهم فقام بمن معه من العساكر على نائب دارا وعساكره المحتلة بالديار المصرية وأخذ يطاردهم فمات فى هذه الأثناء دارا وملك المصريون وطنهم واستقل (أميرتيس) بالملك وأعاد الأصول والأحكام القديمة السياسية والدينية على حكم أسلافه من الفراعنة وانقرضت بملكه دولة فارس من مصر التى هى عبارة عن الدولة المصرية السابعة والعشرين فكانت مدة ملك دارا تسع عشرة سنة وكانت مدّة حكم هذه الدولة على مصر مائة وإحدى وعشرين سنة كما رواه كثير من جماعة المؤرخين وجاءت بعدها الدولة الثامنة والعشرين الصاوية المنسوبة إلى مدينة صاالحجر ولم تتعدد ملوكها بل كانت كلها عبارة عن أيام ملك واحد هو الملك (أميرتيس) الذى تقدّم الكلام عليه فى آخر أيام الدولة السابعة والعشرين.

(الفصل الثانى)

(فى الدولة الثامنة والعشرين الصاوية)

كان رأس هذه الدولة الملك (أميرتيس) الذى يقال له أيضاً (أمرته) وقد تولى الملك بعد قتال كبير مع جند فارس الذين كانوا بمصر ويقال إنه من نسل بعض العائلات الملوكية المصرية وكان بطلاً مهيباً وقائداً مدرباً فى الحروب وهو المؤسس للدولة الثامنة والعشرين وقد تكنى بكنى الفراعنة فلما استقر به المنصب اجتهد فى إصلاح ما أفسدته دولة فارس وفى إعادة المراسم والمواسم الدينية القديمة وفى إرجاع ما كان للهياكل من الرونق والبهجة وفى إصلاح ما أفسده العجم أيضاً من المعابد والصنائع. قال جماعة المؤرخين: ولو أمد الله فى حياته لتمكن من إصلاح جميع ما أفسدته أيدى الغرباء إلا أنه أدركه الموت عاجلاً وذلك فى سنة ست وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة فكانت مدّة حكمه على ديار مصر سبع سنين وهى عبارة عن مدّة حكم هذه العائلة. وقد أبقى بقايا أصلحها من أتى بعده من ملوك الدولة التاسعة والعشرين التى أعقبت دولته وبموته زالت الدولة الثامنة والعشرون وقامت بعدها الدولة التاسعة والعشرون التى تعرف بالدولة الأشمونية.

(الفصل الثالث)

(فى الدولة التاسعة والعشرين الأشمونية)

قال أصحاب التاريخ: لا ندرى ما سبب ارتقاء هذه الدولة إلى منصة الأحكام بعد زوال الدولة الصاوية التى هى الدولة الثامنة والعشرون رغماً عن كل بحث وقد كان ابتداء حكمها فى سنة ست وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة، وكانت تسمى بالدولة الأشمونية. ويقال لها أيضاً الدولة الأشمونية نسبة إلى مدينة أشمون الرمان التى محلها الآن المدينة القديمة المسماة (منديس) فيقال لهذه الدولة أيضاً المنديسية، وكان فى أيامها مصب فرع من النيل يسمى الفرع المنديسى ولكنه قد غطته الآن الرمال وكان عدد ملوك هذه الدولة خمسة أولهم الملك (نفريتس) الأوّل المسمى عند اليونان (نفروطيس) ويلقب (بن رع نترو) وفى رواية أن عدد ملوكها أربعة وهو الأصح نقلاً عما جاءت به الآثار وسنو ملوكهم إحدى وعشرون سنة.

(فى الملك نفريتس الأول)

تولى الملك (نفريتس) الأوّل فى نحو سنة تسع وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة وكان ملكاً مهيباً جليل القدر فجعل ملك فارس منذ استوائه على سرير الملك يهدده ويخيفه بإرسال الجنود الكثيرة لمحاربته ومع ذلك لم تفتر له همة ولا ضعفت له عزيمة فى سلامة وطنه وإيراده موارد العز والرفاهية فعقد مع جمهورية اسبارطة اليونانية المعروفة باسم (لقدومنه) معاهدة للذب والدفاع ومهاجمة فارس فزادت بهذه المعاهدة مهابته وارتفعت كلمته وخافه الفرس وحشد جيوشه فى حدود الشام لقتال فارس وأكثر من آلات الحرب ومعدات القتال غير أنه قد حدث للفرس حروب فى جهات أخرى فحالت بينهم وبين قتال المصريين. قال بعض أصحاب التاريخ: ولما كانت سنة إحدى وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد طلب يونان جزيرة قبرس أن يعاهدوا الأثينيين (والهيكاتومنوس) ملك القيروان والمصريين وسعوا وراء ذلك سعياً مجيداً فتعاهدوا وارتبطوا برباط الاتحاد وتألبوا على الذب والقتال وحسب الفرس لهم ألف حساب ،ولكن لم تطل بعد ذلك أيام الملك نفريتس حيث أدركه الموت فى نحو سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة خمس عشرة وألف قبل الهجرة فخلفه (أخوريس) وكانت مدّة حكم نفريتس ست سنوات وأشهرا.

(فى الملك أخوريس)

تولى الملك أخوريس المذكور فى نحو سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة خمس عشرة وألف قبل الهجرة ويسمى باسم (هوقود) فلما استقر به المنصب حذا حذو (نفريتس) فى إعلاء شأن البلاد وتعزيز جانبها وجدد المعاهدات مع الأمم والملوك مثل أهل قبرس والعرب وأهل الغرب وبرقة وتعاهد مع اليونان على قتال الفرس فأمده اليونان بجيش جرار تحت قيادة (خابرياس) القائد الأثينى فلما جاءت عساكر فارس لقتال المصريين رأوا من شدّة بأسهم ما لم يبلغوا معه أربا وكان للملك (أخوريس) المذكور عناية تامة بإصلاح ما أفسده جور حكومة فارس مما لم يصلحه سلفه والدليل على عنايته هذه الإصلاحات التى أجراها بالأعمدة الموجود بالإيوان الكبير فى مدينة (أبو) فى طيبة بالصعيد وفى مقاطع الحجر بطرا ولكنه مات فى خلال اهتمامه بإصلاح شؤن البلاد وترتيب أمورها وذلك فى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وألف قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث

عشرة سنة كما جاء فى رواية مانيطون ، وفى أيام هذا الملك قدم أفلاطون وغيره من حكماء اليونان ليتخرجوا على حكماء عين شمس ومنف وطيبة وينشروا علومهم فى بلاد اليونان وبعد موته خلفه بساموتيس.

(فى الملك بساموتيس)

تولى بساموتيس فى نحو سنة إحدى وثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وألف قبل الهجرة ولم يحكم غير سنة واحدة ولم يذكر أصحاب التاريخ شيئاً من مآثره وأعماله غاية ما قالوه إنه وجد اسمه منقوشاً بجانب اسم سلفه الملك (أخوريس) فى قصر الكرنك ومات فى سنة ثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وألف قبل الهجرة وخلفه الملك (نفرتيس الثانى).

(فى الملك نفرتيس الثانى)

تولى نفرتيس الثانى الملك فى سنة ثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وألف قبل الهجرة ولم يحكم سوى أربعة أشهر وقيل سنة واحدة ولم يعلم من آثاره إلا صنم أبو الهول المحفوظ بخزانة التحف فى عاصمة الفرنسيس ونفرتيس هذا هو آخر ملوك هذه الدولة فكانت مدّة حكمها إحدى وعشرين سنة ثم انقرضت وزالت وجاءت بعدها الدولة المتممة للثلاثين وهى الدولة السمنودية المنسوبة لمدينة سمنود القديمة بالإقليم البحرى وهى كبقية الدول المنسوبة إلى الأقاليم البحرية إذ كانت قد محيت من مدن الأقاليم القبلية آثار شهرتها العظيمة وانحط صيتها البعيد بعد أن سارت به الركبان وزالت عنها مزية ما كان يعدد فيها من الملوك فإن مدينة طيبة التى خرج منها جميع ملوك دولة الفراعنة زمناً طويلاً أخنت عليها صروف الزمان وأصبحت شهرتها فى خبر كان.

قال بعض المؤرخين وانقطعت طيبة للكهنوتية فإنها لما طال بها الاستعباد وثقل عليها الهوان واضمحل شرفها القديم انطفأت أنوار بهجتها وضاعت منها مزية أنها مركز الملك لسرير الفراعنة وانتقلت منها الرئاسة إلى مدن الإقليم البحرى فسبحان من يغير ولا يتغير.

(الفصل الرابع)

(فى الدولة المتممة للثلاثين السمنودية)

كان مبدأ ملك هذه الدولة سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ألف

قبل الهجرة. وقد سميت هذه الدولة بالسمنودية نسبة إلى مدينة سمنود تخت ملكها بالوجه البحرى كنسبة من سبقها من الدول الأخرى إلى الإقليم البحرى فإن مدن الإقليم القبلى كانت زالت شهرتها العظيمة وانقطع ذكرها وانمحى صيتها البعيد الذى كان يذكر عند ذكر كل مدينة منها وأصبحت مدينة طيوه وهى طيبة التى هى أم ملوك أكثر الدول المصرية مجردة عن هذا الشرف والمجد العظيم وانقطعت للكهنوتية وانتقلت منها الرئاسة إلى الإقليم البحرى فنالت كل مدينة من مدنه حظها من ذلك حتى مدينة سمنود القديمة وكانت مدّة هذه الدولة التى هى السمنودية ثمانياً وثلاثين سنة وعدد ملوكها ثلاثة وأولهم الملك (ننحت حورحب) الملقب (يرع سنوزم حت استن أنحور) ويقال له (نقطانب الأول).

(فى الملك نقطانب الأول)

تولى نقطانب الأوّل الملك سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ألف قبل الهجرة وهو رأس هذه الدولة ولم يكن جلوسه على سرير الملك إلا فى خلال الفتن واشتداد أزمة الخطوب والإحن، وكانت دولة فارس لم تزل قلقة البال بأسباب خروج مصر من قبضة يدها طامعة فى استرجاعها وكان (نقطانب) يعلم منها ذلك فجهز عسكرا كبيراً وأكثر من معدات الحرب وتأهب لرد الفرس عن مملكته فلما كانت السنة الثانية من ملكه جاءت إليه عساكرهم برا وبحرا تحت قيادة (فرناياز) الفارسى (وافيكراتيس) الأثينى ونزلوا باشتوم أم فرج عند البحر المنديسى فلاقتهم هناك الجنود المصرية المحافظة على السواحل وقاتلتهم فهزموها وانتصروا عليها وأشار (افيكراتيس) الأثينى بالزحف على مدينة منف قبل أن تصل إليها جنود المصريين فعارضه فى ذلك (فرناياز) الفارسى وأبى إلا التربص حتى يأتى إليه المصريون فسار إليهم الملك (نقطانب) فى جيشه وحاربهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة وذلك على مقربة من منديس فولوا الأدبار إلى بلادهم وقيل انهم ركبوا السفن بالنيل وتمنعوا ببعض الجهات فحصن هو مدينة منف وزحف لقتالهم واقتفى أثر (فرناياز) قائدهم الأكبر وحاصره وكان ذلك عند حلول أيام فيضان النيل فوقع الفرس فى أيدى المصريين حيث ضاقت عليهم الأرض بمياه النيل. وقد مات منهم خلق كثير جداً وتخلصت البلاد من شرهم وعلت كلمة الملك (نقطانب) وظهر نبله وأرتاحت البلاد بنهضته بعد أن ذاقت من الفرس مر العذاب مدّة خمس وعشرين سنة كما رواه (يودور).

وظهـرت فى هذه الأثناء طائفة من اليـونان تسـمى طيـة اليونانيـة على أهالى (لقـدمونة) من أعـمال مملكة اسـبارطة وعظمت شـوكتـها فنزل الملك (اجـزيلاس) اليونانى إلى الملك نقطانب مستغيثا به على أهل طيـة اليونانية فأغاثه وجهز له جيشاً كبيراً فسار الجيش المذكور وظفر بأهل طيبة وتفرغ (نقطانب) بعد حروبه وغزواته فى آخر أيامه إلى أمـور المملكة فأعاد إليها الراحـة وأكسبها الطمـأنينة بعد الخوف وبنى الآثار الجليلة من الهـياكل والمعـابد وأحسن إدارة البـلاد ورتب أمورها على أحـسن ترتيب وأكمـل نظام ومات فى سنة أربع وستـين وثلثمـائة قبل الميـلاد أى نحو سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة وقد اختلف فى مدّة حكمه فقيل عشر سنوات. وقيل وهو الأصح أنه حكم ثمان عشرة سنة فـخلفه الملك طاخوس الآتى ذكر مآثره بعد.

(فـى الملك طاخـوس)
(ويقـال لـه أيضـاً)
(زيت حر)

تولى طاخوس الملك سنـة أربع وستين وثلثـمائة قبل الميـلاد أى نحو سنة ست وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة فلمـا استقر به الملك أخذ فى تدبير أمور المملكة ودفع غارات الفـرس عنها ومكن المعاهدة مع أهل (لقدمـونية) من أمم اليونان واسـتمدهم فبعثـوا إليه جيشاً كبيراً تحت قـيادة كبير من قواد عسكرهم اسمـه (اجزيلاس) ففرح (طاخوس) بقـدومه وأعجبه منظـره قبل أن يقف على حقيـقة مخبره فـعزم على أن يسلمه قيادة جميع الجيوش المصـرية البرية والبحرية ثم رابه من أمره ريبة فلم يسلمه إلا قيادة العسـاكر البرية وسلم قيادة العسـاكر البحرية لآخر اسمه (خـبرياس) ولقبه بلقب أمير عموم الجيوش المصرية وهمّ (طاخوس) بمهاجمة فارس وقتالهم فأشار عليه (اجزيلاس) أن لا يهاجمهم إلا إذا حضروا إلى ديار مصـر ويجتنبهم ما اجتنبوه فأبى إلا قتالهم بملاقاتهم فى سواد الشام وقام بجيوشـه نحو الشام للقتال فلما سار وابتعد عن مصر قامت عليه العساكر فـعزلته وولت مكانه ابن أخيه المسمى (نقطانب) الثانى فهرب (طاخوس) من وجه قومه إلى ملك فارس فقابله وهو بطريقه عند بلاد العرب فأكرم مثواه وأحسن لقاءه وحمله إلى بلاده فكانت مدّة حكمه إلى هربه سنتين اثنتين لا غير وخلفه (نقطانب) الثانى الذى يقال له أيضاً نخت نبف.

(فى الملك نقطانب الثانى)

تولى نقطانب الثانى الملك نحو سنة اثنتين وستين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة أربع وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة فلم يستقر به المنصب حتى قام من ينازعه فى الملك وهو أمير من أولاد وجوه مدينة أشمون قد خرج ومعه كثير من العساكر المتحزبة له فأجاب دعوته أيضاً الجم الغفير من الأحزاب واستفحل أمره وعلت كلمته وكان (أجزيلاس) قائد الجيوش البرية متحزبا للملك (نقطانب) فأشار على الملك بسرعة الهجوم على هؤلاء الخوارج وتمزيق شملهم كى لا يتمكنوا من التألب ولا يكثروا من جلب الإمدادات إليهم فلم يفعل وارتاب فى صدق النصيحة فلم يكن بأسرع من أن ساجله عصاة العساكر وغالبوه فامتنع فى إحدى المدائن فحاصروه وأحاطوا به ولم يمد إليه (أجزيلاس) يد المساعدة بل خذله وتركه أياماً فبعث إليه يستغيث فأشار عليه بأن يفتح أبواب المدينة ويخرج لمطاردة العدوّ ويحمل عليهم حملة شديدة ففعل فظهر عليهم وأبعدهم عن المدينة واقتفى (أجزيلاس) أثرهم وما زال حتى أخذ أميرهم أسيرا وخلا الجو لـ (نقطانب) فاستقر فى منصبه بلا منازع ولا معارض له فى شئونه.

وعقد فى السنة الثانية من حكمه معاهدة مع أهل صيدا وصور وقد كانوا كأهل مصر على خوف من غارات الفرس عليهم والتملك على بلادهم فكان الدفاع قدراً مشتركا بينهم فلما سارت الجيوش الفارسية لقتال المصريين لم يروا بداً من محاربة الصوريين أولاً فعاقهم قتالهم عن المسير إلى مصر واشتدت الحرب بين الفريقين فبعث (نقطانب) ملك مصر أربعة آلاف مقاتل من اليونانيين على نفقته مددا للصوريين وجعل (منطور) الروسى رئيساً عليهم وكانت قد دخلت فى هذه المعاهدة أيضاً عساكر قبرس فسار فريق منهم لنجدة الصوريين فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزمت جيوش فارس شر هزيمة فلما وصل الخبر لملك فارس اغتم غماً شديدا وجيش جيشاً ثانياً وانطلق به إلى مصر ففزع الأمير (منطور) الروسى من عظم هذه الغزوة وهاله كثرة عساكرها وخشى عاقبة هزيمته فانضم بمن كان معه للعدو واستسلم إلى (دارا أخوش) ملك فارس المذكور فرحب به دارا وأحسن نزله ولاطفه ليدله على البلاد ويكشف له عن عوراتها فيسهل عليه غزوها.

فلما علم فرعون (نقطانب) بما فعله (منطور) جهز من العساكر والأجناد ما يكفى لحماية البلاد فقاد جندا مؤلفاً من نحو خمس وعشرين ألفاً من اليونان وعشرين ألفا من المغاربة وستين ألفا من المصريين. وأقام المرابطين فى جميع الثغور

والحصون المهمة فكان فى مدينة (الفرمة) منهم خمسة آلاف وكان مع كل من ملكى مصر وفارس رؤساء وقواد من اليونان من حزبه يستشيرهم ويستعين ببسالتهم فى الحروب ويثق بأمانتهم فالتحمت الحرب بين الفريقين وكانت سجالاً وما زالت إلى أن ظهرت الفرس على المصريين فسلم المصريون واليونانيون أنفسهم فلما رأى ملك مصر انهزام جنده وتمزيق شملهم وقرب زوال ملكه ضاقت به الحيل وداخله اليأس والقنوط فلم يسعه إلا أن جمع أموالاً وفر إلى بلاد النوبة وانقطع خبره فكان هو آخر ملوك الدولة المصرية المكملة للثلاثين وكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة وزال بزواله ملك مصر من يد أهلها وسقطت فى أيدى الفرس مرة ثالثة وكان انتهاءهذه الدولة فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة بعد أن حكمت ثمانياً وثلاثين سنة كما جاء فى أقوال جماعة من المؤرخين وصارت مصر من هذا الحين مضغة فى أفواه الغرباء يتولاها ملك منهم بعد الآخر إلى يومنا الذى نحن فيه ولم يملكها ملك من أهل البلاد بعد أن تخلصت من استعباد الفرس وحفظت استقلالها وأعادت ما اندرس من معالم مجدها وحكمت نفسها زهاء ست وستين سنة وقد عدت دولة فارس فى تملكها على مصر فى هذه المرة الدولة الحادية والثلاثين وهى الدولة الثانية الفارسية المنقرضة بإغارة إسكندر المقدونى على مصر وأخذها منهم.

(الفصل الخامس)

(فى الدولة الحادية والثلاثين)

(وهى دولة الفرس الثانية المنقرضة بإغارة الإسكندر المقدونى على ديار مصر)

قال أصحاب التاريخ: بعد أن تخلصت مصر من حكم الفرس وفكت قيود استعبادها ولبثت زهاء ست وستين سنة وهى مدة حكم الدول الثلاث السابقة متمتعة بالاستقلال وقد أعادت فى خلال هذه المدة ما كانت خسرته فى أيام دولة فارس من المدنية والعمران وأصلحت ما أفسدته طوارق الحدثان ولمت شعثها بقدر ما فى الإمكان عادت فسقطت فى أيدى الفرس مرة ثانية فى أيام دولة الملك دارا أخوش الذى هو رأس الدولة الحادية والثلاثين المذكورة وذلك فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة ولكن لم تطل مدتها فلم

تتجاوز ثمـان سنين وكان عدد من تولى الملك منهـا ثلاثة أولهم الملك أخوش الذى سيأتى الكلام عليه.

(فـى الملك دارا أخـوش الفـارسـى)

تولى دارا أخوش الملك فى سنة أربع وأربعين وثلثمـائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة بعـد انتصاره على (نقطانب) الثانى فلما استقر به المنصب سمى نفسـه (ارتخشارشا) الثـالث وكان فظا غليظ الطبع متكبرًا فـأمر بقتل جميع أبناء وبنات الملوك الذين قبله ليمحو أثر أسلافه فقتلوا جميعاً وسلب من مصر جميع أموالها واغتنم ما فيهـا وعاث فى الأرض فسادا وأقام على مصر نائبا من قبله اسمه (فرنده) وهو أحد أمراء دولة فارس وبنى القـصر المعروف بقصر الشمع وجعل فيـه هيكلاً وهو موضع الكـنيسة المعلـقة للقبط المـتأصلين الآن فإن صـح ذلك كان القصر المذكـور من آثار دولة الفرس لا من آثار المصريين ، وكان دارا المذكـور قبل تغلبه على ديار مصـر قابضا على زمام حكم الفرس نحو العـشرين سنة وفى عصره أخذت مـقدونيـة فى الظهور بين الدول ووجهـت أطماعهـا إلى التملك على آسـية وأخذها من الدولة الفارسية وجعلت تراقب الفرص الملائمة لذلك وما زال الملك دارا المذكور يتصرف فى الأمور ويظلم ويجور ويسوم الرعية الخسف حتى أبغضته وكادت تشق عصا طاعته وبـدت عـلامـات الفتنة وقلقـت لذلـك خواطـر الـولاة والعمـال ودارا لا ينكف ولا يقف عند حد حتى دس له (باغـواس) الطواشى السم فى طعامه وقتـله فتولـى الملك بعده ابنه (ارسـيس) فكانت مدة حكم دارا المـذكور على مـصر سنتين اثنتين لا غير.

(فـى الملك ارسـيس بن دارا أخـوش)

تولى ارسيس الملك سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو أربع وستين وتسعمـائة قبل الهجرة فلم تكن مدة حكمـه إلا سنتين كأبيه ولم يذكر عنه جـماعة المؤرخين شيئاً، وإنما ذكره مانيطون المؤرخ فى فهرسته ومات فى سنة أربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وسـتين وتسعمائة قبل الهجـرة فخلفه دارا الثالث الذى هو آخر ملوك هذه الدولة.

(فـى الملك دارا الثـالث)

تولى دارا الثالث الملك سنة أربـعين وثلثمائة قـبل الميلاد أى سنة اثنتين وسـتين

وتسعمـائة قبل الهجرة، وكان اسـمه قبل الولاية (كودومانوس) وكـان ارتقاؤه سرير الملك فى نفس السنة التى تولى فـيها إسكندر الأكـبر المقدونى وكان دارا هذا مـشؤم الطالع على مملكـة فارس فـإنه مـا ارتقى سـرير ملكهـا حتى أخـذت فى الضـعف والانحطاط فزالت شوكـتها وتلاشى أمرها بظهور المقدونييـن عليها وذلك لأن الأمة الصادقة في حب وطنها المتحمسة فى الذب عن ذمارها متى كانت حائزة على بعض المعرفة بالسياسة حازمة مدبرة تحسب العواقب، ولو كان عدد أهلها قليلاً فإنها تغلب العدد الكثيـر وتظفر بالجم الغفيـر من أعدائها هذه مقدونيـة التى نبغت من بين أمم اليونان فى عهـد قريب قد وصلت فى دورها إلى درجة عاليـة من التمدن وتمسكت بعروة الشجاعة وحب الوطن فظهرت على غـيرها من الأمم وطار صيتها إلى أقاصى البلدان وسارت بشـهرة مفـاخرها الركبـان فحكمت اليـونان واستولت على جـميع أملاكـها ودبرت أمورها وأحـسنت سياسـتها وأحكمـتها ومـا زالت تترقى إلى أوج المعالى حتى تولاها إسكندر بن فلبس المقدونى فوسع ممالكها بسيف فتوحه ولم يعقه عائق عن توسيع دائرة فتـحه للبلاد وتسخيره للعباد بل طاف قـارة آسية فدخل الهند وبدد شمل قومها وهزم ملكهـا (بوروس) وكان بوروس المذكور قد حارب الإسكندر راكبا على فيل عظيم فـأظهر هذا الفيل من الشجاعة والفـروسية ما ادهش الإسكندر فلما وقع ملك الهند فى قـبضة يد الإسكندر أخذ فيله المذكـور وميزه ونذره لكوكب الشمس معـبود المقدونيين وسـماه باسم (اجاكس) الذى هو أحد فـحول اليونان ثم حرم ركوب ظهره ما عاش وقد ذكـرنا هذه الحكاية هنا على سبيل الاستطراد. وبعد أن تمت للإسكندر غـزوة الهند عرج إلى فارس وقـاتلها ومزقـها وورث ملكهـا وقد ساعده على ذلك بعض أهالى الولايات الـفارسية لبغضـهم لحكم فارس وميلهم إلى الخروج عن ربق عبوديتهم لا سـيما مصر فإنها كانت قد سـئمت نفسها الذل وتاقت إلى التخلص من قـيود ذلك الأسـر. فلما كانت سنة اثنتـين وثلاثين وثلثمـائة قبل الميلاد سيرت إلى الإسكندر تـستحثه على الحضور إلى ديار مـصر ونزعها من أيدى أولئك الظلمة القـساة فأتى إليهـا وأجلى الفرس عنها بعد قـتال عنيف وأزال ملكهم منها وأباد جميع من كان بها من قوم فارس فأصـبحوا كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً فكانت مدّة حكم الفرس على مصر فى هذه المرة بقدر المدّة الواقـعة ما بين قمبشاش الذى هو كمبيز إلى موت دارا الثـالث وهى عبارة عن ثمان سنوات فقط. قال بعض الكتاب فكان ما بينهما أى بين كمبيـز ودارا الثالث من الدول المصرية غير معتبر. إذ كانت دولة فارس لهم بالمرصاد فى المدة المتخللة بين حكمها فى المدتين السابقتين.

قال صاحب العقد الثمين: ويشهد على هزيمة الإسكندر المقدونى لدولة فارس بمصر نقوش وجدت على حجر محفوظ الآن بمتحف نابولى بإيطاليا لكاهن مصرى من عصر دارا الثالث يقال له (سمتاوى تفنخت) حيث يدلنا بنقوشه على حرب الفرس مع المقدونيين فى ديار مصر وعلى سقوط الدولة المصرية واضمحلالها وهذا تعريبه على ما ترجمه بروكش ، الأمير الوارث الممجد والحبيب الأعز الأوحد كاهن المعبود حور سيد (هيونن) وكاهن معبودات قسم (هيبونو) وكاهن معبودات (سمتاوى) بمدينة (أحجو) وناظر أملاك المعبودات ورئيس قسوس المعبودة (سنحت) فى كافة المملكة أعنى به (سمتاوى تفنخت) ابن المكرم (نس سمتاوى أوف عنخ) كاهن المعبود أمون بمدينة (بيشا) وابن المكرمة (عنخت) قال ما معناه ياسيد المعبودات (خنوم) أنت سلطان الوجه القبلى والبحرى وكبير المملكة أنت الذى تنير الدنيا بظهورك وتنير الشمس بعينك اليمنى والقمر بعينك اليسرى والشعاع مقتبس من نور عقلك والريح الطيبة من خياشيمك فهى تنعش حياة كل موجود أنا كنت خادمك وأفعل بإرادتك وقلبى ممتلىء بحبك ووددك ولم أزخرف مدينة كمدينتك ولم أقصر أبدا فى تبليغ سرك للبشر مع كثرتهم وفى إظهار معجزاتك للورى بين منازلهم فضاعفت لى ذلك مرارا بالخيرات الجزيلة حتى اشتهرت فى كافة الأرض وتقلدت إدارة بيت الملك وما ذاك أيها الملك المحسن إلا لتعطف قلبك على وإجابة سؤالى حتى رقيت إلى أعلى الدرجات من بين كثيرين ولما غضضت نظرك عن المملكة المصرية وجنح قلبك بالمحبة إلى ملك آسية أحبنى أصدقاؤك العشرة وقلدتنى أنت الرياسة على كهان المعبودة (سنحت) بدل أخى من أمى (سرحونب) الذى كان رئيساً على كهان تلك المعبودة فى عموم الوجه القبلى والبحرى أنت الذى حميتنى فى حرب المقدونيين حين طردوا أهل آسية من الديار المصرية وقتلوا بجانبى ألوفاً عديدة ولم يرفع أحد يده على ولما استتبت الراحة بعد وقوع هذه الحادثة أمرتنى بالتوجه إلى إهناس ووعدتنى أن تشملنى بانظارك وتلحظنى بعين عنايتك إذ كنت وحيداً فاقد الأهل فريدا فتوجهت إليها فى النيل المبارك ولم يحصل لى خوف لأنى كنت متفكراً فيك غير مجاوز لوصيتك حتى وصلت إلى مدينة إهناس بدون أن تقشعر شعرة من بدنى وكما كنت مهنأ بأمرك فى المحل الأول كنت كذلك فى المحل الثانى لأنك منحتنى الحياة مع راحة القلب فيا أيها الكهنة الذين يخدمون المعبود الجليل (خنوم) ملك الإقليمين والمعبود (حورمخى) العظيم بين معبودات مدينة إهناس والمعبود (توم) ساكن صان وكبير الكباش المقدسة المتصف بقوّة الرجال. ويأيها الناس والأرباب ويامللك مصر الأخير اعلموا أن الأمير الذى كان يحب ملك الوجه القبلى والبحرى قد صعدت روحه إلى السماء لتشاهد هناك المعبود (خنوم) ملك الوجه

القبلى والبحرى فى إيوانه والمعبود (توم) فى تختـه والمعبود (أونفـر) واعلموا أنهم يتكرمون بتخليد ذكركم فى دار الدنيا وأنكم تنالون المكافأة من (خنوم) ملك الدارين لوداومتم على المدح والشكر لمعبودات مدينة إهناس وعلى المدح أيضاً لتمثال (سمتا)، (وتفنخت) المقدس المحترم فى قسمه ليكون لكم أعظم رفيق ويمدحكم غيره على ممر السنين بالمدح العريق. اهـ.

قال ومن نقوش هذا الحجر أنه لما انتشبت الحرب بين المقدونيين والمصريين كانت الدائرة على العجم فانهزم دارا وقتل كثير من رجاله ثم قتله أحد نوابه فانتقل بعده حكم مصر إلى دولة اليونان. اهـ.

وقد أحدث الفرس بديار مصر من أسباب الخراب شيئاً كثيراً جداً وأزالوا بهجة المبانى والآثار العظيمة لا سيما ما كان منها بين مدينة طيبة من صعيد مصر ومحلة الذكة من بلاد النوبة على مسافة خط يزيد عن الستين فرسخا فقد تركوها خاوية على عروشها لم يبق منها إلا رسوم وأطلال وكانت أحكامهم فى مصر أحكاماً مطلقة فأذاق عمالهم وولاتهم أهل البلاد كأس الذل والهوان وجرعوهم الغصص ومنعوهم من التظاهر بعبادة معبوداتهم وضبطوا أملاك طوائف الكهنة وضربوا المغارم على آلهة المصريين فى نظير إباحة التعبد بها تدفعها لأصنام فارس ولم تكن الفرس تميل بالطبع إلى المصريين ولا تحب الاختلاط بهم ولا التقرب منهم شأن الأمة الفاتحة الغاصبة بل كانوا بمعزل عن جميع عوائدهم وزيهم وملبسهم وكذلك كان المصريون غير أن الفرس كانوا قد نقلوا عن المصريين الحكومة المستكملة وتعلم ملوكهم طرق الرئاسة وأساليب السياسة وقد كانت قبل تغلبهم على مصر مجهولة عندهم لا يرون للوصول إليها سبيلا ، قال بعض المؤرخين وبانقراض حكم دولة الفرس من مصر دخلت مصر فى تاريخ جديد على نسق جديد فى الوقائع الزمانية أعاد إليها رونقها القديم وفخرها القويم. قالوا فإن استيلاء الإسكندر ومن أتى بعده على مصر بعد دولة فارس يعد فوزا للمصريين ونصرة وذلك لما كان بينهم وبين اليونان من روابط المحبة وشرائط المودة باشتراكهم فى العلوم والمعارف الحكمية فضلاً عن العهود السابقة والمحالفات التى جعلت الأمتين يدا واحدة على الفرس فأبادوا حكمهم وضعضعوا شوكتهم فخرجوا من البلاد بعد أن أساءوا السيرة فى أهلها ، فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء.

وبانقراض حكم الدولة الفارسية قامت بعدها الدولة المقدونية الأولى وهى المعروفة بالدولة الثانية والثلاثين فى ترتيب أصحاب التاريخ وعلى هذا الترتيب لم يبق من عدد دول الجاهلية إلا ثلاث وهى الأخيرة منها الآتى الكلام عليها واحدة فواحدة على النسق الآتى:

(الباب الثانى)
(فى الدولة المقدونية الأولى التى ظهرت بظهور الإسكندر وفيه فصول)
(الفصل الأول)
(فى العائلة الثانية والثلاثين إحدى العائلات الثلاث الباقية من الجاهلية)

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة أربع وخمسين وتسعمائة قبل الهجرة، وكانت مدة حكمها سبعا وعشرين سنة وعدد ملوكها ثلاثة ورأس هذه الدولة الإسكندر الأول الملقب بالأكبر ، قال بعض المؤرخين وبظهور هذه الدولة انقرضت تماماً دول العائلات المصرية التى جاء على ذكرها المؤرخ مانيطون. قالوا: ولا يفهم من أحوال هذه الدولة وما جاء بعدها من الدول الأخرى إلى فتوح الإسلام شىء غير ما هو مكتوب على الآثار القديمة ومفهوم منها مع ما يضم إلى ذلك مما يستفاد من كتب اليونان والرومان المتداولة.

وكان رأس هذه الدولة بمصر الإسكندر الأكبر حيث دخلها بعد أخذه مدينة صور وصيدا وفلسطين وغزة من دار ملك فارس واستولى على ديار مصر جميعها وكان من مآثره ما سيذكر.

(فى الملك إسكندر الأكبر المقدونى)

ولما تغلب الإسكندر على دار ملك فارس تلقاه المصريون بالترحاب وأعانوه على قتال الفرس فرارا من جورهم واستعبادهم فاستولى الإسكندر على جميع ديار مصر وأخرج منها الفرس وعامل المصريين بالرفق واللين وأعاد إدارة البلاد وسياستها القديمة إلى ما كانت عليه ولم يغير شيئاً من عوائد الأهالى الدينية والمدنية وأطلق لهم حرية العبادة والقيام بشعائرها والجهر بها فى هياكلهم وبيوت عبادتهم ورفع عنهم المغارم والمكوس الثقيلة التى كانوا يؤدونها للدولة الفارسية.

واختار من أرض مصر القطعة الواقعة فى البرزخ الكائن بين بحيرة مريوط والبحر المتوسط فى غرب النيل ليبنى فيها مدينة جديدة على نسق المبانى المقدونية وكانت هذه القطعة يومئذ قرية قديمة تسمى (زاقودة) فاختطها الإسكندر بمعاونة

(ريناوخس) المهندس اليونانى ورسم أماكن المبانى العمومية والهياكل والمعابد لليونان والمصريين على السواء فكان محيط هذه المدينة لا ينقص عن ثمانين غلوة سهم ودخلت قرية (راقودة) المذكورة فى سور تلك المدينة وسماها (الإسكندرية) ويقى اسم (راقودة) لخطة بالإسكندرية بنيت على آثارها وقد زين الإسكندرية بأحسن الزينة وعمرها بالجم الغفير من أهالى المدائن المصرية فصارت عامرة آهلة ورتب فيها مرابطين من المقدونيين وأباح لجماعة اليونان وغيرهم من البلاد المشرقية الاستيطان بها وفتح أبوابها لأهل الملل وأعدها مركزا جديدا لتجارة المشرق والمغرب ، ثم قلد ولاية مصر للأمير (أقليومنوس) وسلمه زمام البلاد وسار هو بجيشه المظفر إلى آسيا وتوغل فى جوفها وقهر فى طريقه دارا ملك فارس وانتصر عليه النصرة الأخيرة بقرب مدينة (اربل) عند الموصل سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة قبل الهجرة ثم سار قاصدا مدينة بابل ولم يزل حتى لم يبق بينه وبينها إلا فرسخ ونصف فرسخ فخرج إليه مشايخ أهل العراق العارفون برصد النجوم وتمثلوا بين يديه وأعلموه أنه قد ظهر لهم من التنجيم ما دلهم على أن دخوله لبابل لا يعود عليه إلا بالفشل ويموت بها وألحوا عليه فى الرجوع عنها إلى غيرها من المدائن فتطير من ذلك وتشاءم فبعث ببعض أمرائه إليها وعاد هو إلى معسكره فوصله بعد مسيرة عشرة أيام وكان فى المعسكر جماعة من حكماء اليونان فقدموا عليه للسلام والتبريك وعلموا ما فى نفسه من الوسوسة والتطير وأنه عدل لذلك عن دخول بابل فما زالوا به حتى أزالوا عنه ذلك الخوف والارتياب وطمع فى المسير إلى بابل مع جميع عساكره وأجناده وكان قد بلغه قدوم الوفود من جميع البلاد المسكونة إليها وأنهم ينتظرونه فجد السير واستبشر وما زال حتى دخلها فى أبهة وكبكبة زائدة للغاية ثم اقتبل سفراء الملوك وأفسح لهم صدر الترحاب ولبث فى بابل نحو السنة يجدد فيها الأعياد والمواسم والمآدب والولائم وعكف على اللذات وانهمك فى الشراب فبينما هو ذات ليلة فى مجلس الشراب وقد أسرف كل الإسراف وأفرط فى تعاطى الخمرة حتى أخذت منه مأخذها نظر إلى ندمائه فتقدّموا إليه فى أن يشرب جاما على صحة كل واحد منهم وكانت عدتهم عشرين نديما ففعل ثم استدعى بقدح كبير كان يسميه (هرقطوس) الجبار فشرب به اثنين وقام يظهر من الضعف قوة فلم يقدر وانكب على محياه وأصيب فى الحال بحمى شديدة ولازمته نوبة بعد أخرى فكانت إذا فارقته أمرو نهى وأرسل الجيوش للغزو وفتح المدائن ظانا أن زمن مرضه قصير فلما رأى أن حياته على شفاجرف وأنه قد ضعفت حواسه خلع خاتمه من أصبعه وسلمه إلى الأمير (برديقا) وأوصاه أن ينقل جثته إلى هيكل المشترى

بواحات سيوه ليدفن هناك بين الآلهة ، وكان قد سار متنكرا عند دخوله مصر إلى كاهن المشترى فى واحات سيوه واستجوب الكهانة فعرفه الكهنة. وقالوا: له إنك ابن المشترى صاحب هيكل طيبة اليونانية وأن سرك سرى إلى معبد سيوه ، قال أصحاب الآثار ومع ما حكاه المؤرخون من سير الإسكندر إلى تلك الأصقاع فإنه لم يوجد من الآثار القديمة ما يدل على ذلك سوى أنه رؤى اسم الإسكندر منقوشا على مصراعى باب مصنوع من الحجر الصوان عثر عليه من عهد قريب بجزيرة أسوان . اهـ.

وكان يظهر التجلد والثبات وقد أسند ظهره يوماً إلى وسادة وجلس على عادته ويده ممدوة تقبلها الجند فسأله بعض كبار دولته عمن يخلفه. فقال خليفتى عليكم أصلحكم بحفظ ناموس الملك ، ثم قال إنى لأرى أنه لابد أن يقع بينكم الفشل والشقاق فتنصرم حبال عهدكم وسأله أحد كبار قومه متى نعدك فى عداد الآلهة المعظمين فقال: لا أستحق هذا الاعتبار إلا إذا سعدتم بعدى ولم تنقصم عروة اتحادكم.

ومات وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وذلك نحو سنة ست وأربعين وتسعمائة قبل الهجرة أى نحو سنة أربع وعشرين وثلثمائة قبل الميلاد فكانت مدّة حكمه اثنتى عشرة سنة ولم يعقب وارثا لسرير الملك إذ لم يكن له من الإخوة إلا أخ لأب يدعى فليبس أريديس وكانت أم هذا الولد رديئة الأصل ليست من ذوى البيوتات العالية وقد تسرى بها فليبس أبو الإسكندر فرزق منها بذلك الغلام وكان للإسكندر أيضاً. ولد من زوجته (باريسينه) بنت دارا الملك اسمه (هرقولس) وكانت زوجته التى مات عنها وهى (روشنك) بنت ملك همذان حبلى ومشرفة على الوضع فكان يرجى أن تضع ذكرا ولذلك أمسِت ولاية عهد الإسكندر منحصرة فى اثنين وثالث موهوم ظهوره فأما الاثنان فأحدهما فليبس أريديس أخو الإسكندر كان ضعيف الرأى لا يقدر على حمل أعباء هذا الملك الجسيم فلذلك كان لا يصلح للخلافة وكان ثانيهما ابنه (هرقولس) لا تجربة عنده ولا خبرة بسياسة الممالك فكان كذلك لا يصلح لتولى الملك بعد أبيه فاشتدّ الخطب لذلك على أمراء جنود الإسكندر وخاف أعيان دولته من ذهاب الملك وتمزيق ما جمعه الإسكندر واختلفوا فيمن يتولى هذا الملك العظيم بعده وكان ممن امتاز من قواد وأمراء الإسكندر بالمجد والنسب العريق والامتيازات الجندية والملكية ثمانية أمراء وهم (برديقا)، (واليوناط)، (وانطباطير)، (ولوزيماك)، (وبوطون)، (وبوطسطس)، (ومينارخس)،

(وبطليموس) فكان من هؤلاء الثمانية أن اجتمعوا فى غداة موت الإسكندر حول سريره ووضعوا عليه علامات الملك الخصوصية وسلاحه وتشاوروا فيمن يخلفه فرأى أحدهم (برديقا) أن يولى مولوده من زوجته (روشنك) حيث كان قد أزف وقت ميلاده ورأى (ميناخرس) أن الذى يصلح لذلك هو ابنه (هرقولس) فدفع (بطليموس) القولين. وقال إنهما من أسباط ملوك العجم فلا يصلحان للملك على أنا لو سلمنا الملك لأحدهما لترتب على ذلك تسليم ملك مقدونيا لملوك فارس والرأى عندى أن نجعل إدارة جميع مملكة الإسكندر شورى بين قواد الجيوش وأمراء الأجناد وبينما هم يتكلمون فى هذا الأمر إذا بصوت فى وسطهم يقول إنا نبايع أخا الإسكندر خليفة على كرسى أخيه ونلقبه بفيلبس وكان هذا الاسم محبوباً عند المقدونيين ثم انتدب رئيس جنود الإسكندر ونادى بالبيعة فعارضوه واستعانوا عليه بأمراء الفرسان فظهر فى الحال بينهم (فيلبس أريدس) أخو الإسكندر وعليه الحلة الملوكية بزى ملوك فارس فبايعه عند ذلك السواد الأعظم والجمهور من الأهالى والجنود ثم أمر بتحنيط جثة الإسكندر وكانت قد ألقيت بلا دفن مدة سبعة أيام وأخذ فى تدبير الأمور على ما يشاء وكان من أمره ما سيذكر بعد.

(فى الملك اريديس فيلبس)
(ويسمى أيضاً)
(ارهيدة فيلبش)

بويع أريديس فلبس بالملك بعد موت أخيه الإسكندر بسبعة أيام وذلك سنة أربع وعشرين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ست وأربعين وتسعمائة قبل الهجرة فلما استقر به المنصب وزع الأيالات والمناصب الملكية على طوائف أمراء الأجناد والعساكر ومشاهير الرجال وقلد (بطليموس) النيابة على مملكة مصر وشاركه فى ملك مقدونية ابن أخيه الإسكندر الثانى فكان مغلوباً على أمره وليس له من الملك سوى الاسم فقط ، وكان الأمير (برديقا) وصى الإسكندر على ممالكه وهو الذى سلمه خاتمه عندما أحس بأن حياته على شفا وهو صاحب الكلمة على جميع ممالك مقدونية ، وقيل بل إن الإسكندر لما احتضر استدعى أربعة من أمراء جنده الذين هم من ملوك الطوائف وجعل بيدهم أمر تقليد ملكه لمن يستحقه فكان من الأمير برديقا المذكور أن تغلب على خاتم الإسكندر عند موته وسعى فى أن يستولى على جميع الممالك وطمع فى سلطنته وكان للإسكندر الأكبر أخت تسمى (كليوباترا) فتزوّج بها الأمير

برديقا المذكور لظهور أمره فانكر عليه ذلك أربعة من ملوك الطوائف ومنعوه فخاف برديقا على نفسه وسار إلى مصر فرارا من أعدائه طمعاً فى أخذها من بطليموس نائبها فخرج بطليموس للقائه فالتقى الجمعان عند مدينة منف واقتتلا قتالا شديداً فانهزم برديقا هناك شر هزيمة وغرق فى نيل مصر وتبدد من كان معه من الخوارج.

ولم تصف الأيام لاريديس فلبس بتملكه البلاد والتصرف فى أمورها بعد موت برديقا حتى قامت عليه (لينبادة) زوجة الإسكندر الأكبر فقتلته فى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة قبل الهجرة لسبع سنين من حكمه فخلفه الإسكندر الثانى ابن الإسكندر الأوّل من لينبادة المذكورة.

(فى الملك إسكندر الثانى)

تولى إسكندر الثانى ابن إسكندر الأوّل الملك نحو سنة سبع عشرة وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة قبل الهجرة، وكان قد لقب ملكا فى طفوليته أيام اريديس فلبس فلما مات اريديس المذكور انفرد بالحكم وتمت له البيعة الكبرى ولكنه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة إذ ذاك للأمير (انطيباطير) أحد الأوصياء الأربعة وبقى على هذا الحال حتى مات انطيباطير المذكور فأوصى به الأمير (بيطون) أحد الأوصياء بإغراء بطليموس نائب مصر وكان للأمير انطيباطير ابن اسمه (كسذره) فلما رأى من تغلب بيطون على مسند أبيه بغير حق لضعف الملك وعدم قدرته على تدبير أمور المملكة قام على (كسذره) المذكور فقتله وتغلب على مملكة مقدونية وقتل لينباده أم الإسكندر الثانى وحمل الناس على المبايعة له وذلك سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة حكم الإسكندر الثانى منفردا ست سنين لا غير.

وكانت مصر فى أيام كل من اريديس فلبس والإسكندر الثانى المذكورين تابعة لمملكة مقدونية كما كانت فى أيام الإسكندر الأكبر إذ دلت على ذلك آثارهما فى ديار مصر، وقد وجدت لفيلبس مقصورة جميلة الصنعة من حجر الصوان بناها فى هيكل الكرنك وسط مقصورة أخرى من بناء الملك (توتوميس) الثالث أمام محراب هذا الهيكل وكذلك وجدت بعض نقوش بهيكل الكرنك ولقصر مرسوم عليها اسم الإسكندر الثانى.

وبموت الإسكندر الثانى هذا انقرضت الدولة الثانية والثلاثون فكانت سنو ملكها سبعا وعشرين سنة كما تقدّم وقامت من بعدها الدولة الثالثة والثلاثون أعنى بها الدولة اليونانية الملقبة بالدولة البطليموسية وهى رأس الدور الثانى بعد الجاهلية أى دور النصرانية والتدين بالدين المسيحى كما سبق الكلام على ذلك فى محله.

(الباب الثالث)

(فى الدولة البطليموسية اليونانية وفيه فصول)

(الفصل الأول)

فى العائلة الثالثة والثلاثين

تسمى هذه الدولة باليونانية وتلقب بالبطليموسية أو البطالسة وكان مبدأ ظهورها فى نحو سنة خمس وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبل الهجرة وسبب ظهورها هو أنه لما تغلب (كسذرة) بن انطيباطير على الإسكندر الثانى ملك مقدونية وقتله وحمل الناس على المبايعة له لبث نحو ست سنوات يدبر أمور جميع مملكة مقدونية وملحقاتها مستبدا بحكمها لا يعارضه فيها معارض ولا يشاركه مشارك ثم لم يلبث أن جنح إلى المشاركة فاقتسم الملك بينه وبين بطليموس نائب مصر فى تلك السنة فصارت مصر من هذا الحين فى حوزة بطليموس المذكور وعقبه من بعده مملكة مستقلة لا يشاركهم فى حكمها أحد ثم انضمت إليها مملكة قبرس والقيروان بعد حروب طويلة هائلة ثم انفصلت عنها ثم اتصلت بها وعادت فانفصلت عنها وهلم جرى وذلك بعد حروب وغزوات متتابعة.

وبقى ملك مصر فى أيدى هؤلاء البطالسة ثلاثة قرون متتابعة لا يقوى عليهم فيها محارب وصارت فى هذه المدّة الطويلة منفصلة عن مملكة مقدونية انفصالا تاما، وكان ملوك هذه الدولة التى هى دولة البطالسة أربعة عشر منها ثلاثة عشر ذكرا وواحدة أنثى وهى الملكة قلوبطره وكان رأسها الملك بطليموس الأول الملقب بسوطير يعنى المخلص وتعرف هذه الدولة أيضاً بالدولة المقدونية الثانية وسنأتى هنا على ذكر أخبار ملوكها على التعاقب واحدا فواحدا وأوّلهم بطليموس الأول.

(فى الملك بطليموس الأول)

هو أول ملوك البطالسة ورأس دولتهم وقد أصاب مصر نصيباً له حين اقتسم بينهم ملوك الطوائف ممالك الإسكندر الأكبر بعد موته وبطليموس هذا ابن لاغوص أحد قواد جيوش فيلبس أبى الإسكندر الأكبر فكان بطليموس المذكور مشاركا فى أيام شبيبته للإسكندر فى الحروب واقتسام الخطوب ولذلك رفع الإسكندر قدره حتى صار رئيس فرسانه فأحسن الرئاسة فى جميع غزواته وما زال عالى القدر مرموقاً

بعين الاعتبار حتى تولى ملك مصر فلما استقر به المنصب أحسن التدبير والسياسة واستمال لمحبته المصريين وأتى إليه أعيان القيروان مستنجدين مما حل بهم من جمهور الرعية لخروجهم عليهم وطردهم من البلاد فأجارهم وقام بنصرتهم بجيش عظيم وعدة من سفن الحرب فهزم أهل القيروان واستولى على بلادهم وعاد إلى مصر ظافرا غانما ثم جهز لغزو الشام جيشا وبعث به إليها فاستولى على أصول السواحل الشامية وبقيت فى قبضته مدة ثم أغار عليها إنطيفونس أحد ملوك الطوائف فاستلبها وسار دمتريوس بن انطيفونس المذكور قاصدا مصر يريد الإغارة عليها فأحس بطليموس بذلك وسار بجنوده لملاقاة دمتريوس المذكور فالتقى الفريقان عند غزة واقتتلا فيها قتالاً شديداً انكشف عن هزيمة دمتريوس شر هزيمة فرق بطليموس لحاله وأعاد إليه جميع الأسرى وسير إليه سفيرا يقول له لم يكن قصدى من محاربة انطيفونس وولده دمتريوس تحصيل الغنائم والسبايا وإنما قامت الحرب بيننا لمخالفتهما العهود وتعديهما على العراق وأخذها من ملكها ، وتملك بطليموس عقب هذه الموقعة على مدينتى صور وصيدا ولكنهما لم يبقيا تحت حكمه طويلاً حتى قام انطيفونس وابنه دمتريوس وجردا جيشاً ضخماً جداً وقاتلا بطليموس عليهما حتى أخذاهما وقد دك بطليموس جميع حصونهما ثم لما رأى بطليموس من توالى الحروب والغزوات وسوء النتائج المترتبة على ذلك عمد إلى ترك الحروب والخلود إلى السلم وتفرغ بقية أيام حياته لتنظيم أمور المملكة ونهض إلى تتميم الهياكل والقصور والمبانى والمعامل التى أنشأها بمدينة الإسكندرية وبنى للإسكندر الأكبر ضريحاً عظيماً جدًا وقد خفى الآن عن عيون الباحثين وأنشأ منارة الإسكندرية على شاطىء البحر الملح لمنافع الملاحة وهى من العجائب وبنى مدرسة الإسكندرية المعروفة باسم الرواق وجمع فيها جميع علوم تلك الأزمان من فلسفة ورياضيات وطب وحكمة وآداب وهيئة، وكانت هذه المدرسة موصلة للقصر الملوكى وقد جلب إليها طائفة من علماء اليونان وغيرهم من سائر البلدان فأصبحت مدينة الإسكندرية دارا للعلوم ومركزا لسائر الفنون وكانت هذه المدرسة تحتوى على إيوانات عظيمة ورواقات حسنة البناء والشكل وأنشأ فيها خزانة للكتب جمع فيها أقدم الكتب وأجلها فكثرت عنده الكتب النافعة وبلغت فى الكثرة مبلغاً جسيماً جدًا.

وكثرت فى أيامه التجارة وراجت أسبابها بمدينة الإسكندرية وأتى إليها الناس من البلاد القاصية والدانية مثل بلخ وهمذان والسودان والهند والحبشة وغيرها وبلغت البلاد أقصى درجات التقدم والعمران فضاقت مدينة الإسكندرية بالسكان ونزح إليها

الناس من جميع الأقطار وكـان لا يتعرض للأهالى فى أمر دينهم ولا يحـجر عليهم التمسك بعبـاداتهم القديمة ولا يتعرض للكهنة والأحبار ولما بلغ الثـمانين من العمر عهد بولاية الملك من بعده لأكبر أولاده من إحدى زوجـتيه واسمه بطليموس محب أخيه ثم ولاه أمور المملكة بعد أن تنازل له عنهـا وذلك سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وتسعمائة قبل الهـجرة وعمل لابنه المذكور موكباً حافلاً جدًا فكانت مدّة حكم بطليـموس الأول المذكور ثمانياً وثلاثين سنة منهـا سبع عشرة سنة فى منصب النيابـة وإحدى وعشرون سنة فى منصـب الملوكية ومات بعـد مضى سنتين من ملك ابنه بطليموس الثانى وهو فى الثمانين من عمره.

(فـى الملـك بطليـموس الثانـى)

(الملـقـب)

(بفـيلادلفـوس)

ثم قام بالأمر بـعده ابنه بطليموس الثـانى الملقب بفيلاد لفوس أى مـحب أخيه تهكما لأنه كـان يبغض إخوته بويع له بالملك فى حـياة أبيه كمـا تقدّم ، وذلك سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الميلاد أى سنة سبع وتسعمائة قبل الهجرة وله من العمر أربع وعشرون سـنة فلما استقر بـه المنصب سـاسيرة أبيـه، وكان ميالاً للصلح مـحباً للسلم ولذلك صـرف جل عنايته فى توسـيع دائرة العلوم والفنون وتعمـيم الصنائع والإكثار من تحـصيل الكتب فجمع منها عـددا عظيماً أضافه إلـى مكتبة الإسكندرية واستمـال مانيطون الكاهن المصرى إلى تأليف تاريخ مـصر باليونانية فـمال إلى ذلك وجمع تاريخه من الدفاتر والسجلات الرسمية والأوراق القديمة المحفوظة فى الهياكل والمعابد، ولكنه لم يبق منهـا لجماعة المتأخرين إلا شذرات قليلة ووسع بطليـموس المذكور نطاق التجـارة فى ديار مصر فنمت واتسعت أبوابها وراجت أسـبابها وبلغت ديار مصر من العمران درجة لم يسبق لها مثـال فقد حكى سيوقريطس أن مدن مصر بلغت عدتها فى أيام الملك بطليموس الثانى المذكور ثلاثاً وثلاثين ألف مدينة (**قلت**: ربما كان فى قـول هذا المؤرخ تغال كما هـو دأب جميع أصحـاب التاريخ إلا الذين تنزهوا عن الهـوى وقليل مـا هم وربما كـان مراده بـذلك ما يعم القـرى والكفـور ونحوها).

وجدّ بطلـيموس المذكـور فى معـرفة حقـائق البلاد واسـتكشاف طرق البـحار بالأسفار فأرسل البـعوث لاستكشاف داخلية بلاد أفريقيـة وبلاد سواحل بحر فارس

وبعث القبودان المسمى طيوسيطنس إلى قلب النوبة من طريق مصعد النيل لاستكشاف حقيقة مجراه ومنبعه ولكى يسخر بلاد السودان لطاعته فوصل طيوسيطنس بعد مسيرة ستين يوماً إلى جزيرة مروى بقرب شندى وبعث أحد قواده المسمى ارسطفريون إلى تلك الأصقاع أيضاً فجال فيها وانعطف من هناك إلى جهة المغرب فنجم عن ذلك اتساع نطاق التجارة بين مصر وتلك الأطراف وانتظم عقدها مع النوبة وظهر علم جغرافية الأرض بمظهر جديد لم يكن يعرف من قبل فسهل معرفة البلاد وعوائد أهلها وما فيها من نبات وحيوان. قال ديودور الصقلى لم يسبق لأحد التوغل فى بلاد النوبة من أهالى الأعصر الخالية إلى عهد بطليموس ولم تصل معرفة أهل تلك الأعصار إلا إلى حدود ديار مصر جهة الجنوب لأن أهل أواسط بلاد النوبة كانوا لا يحبون مجيء الأجانب إلى بلادهم فكان فى الوصول إليها غاية الخطر ومنتهى الضرر ولذلك بقيت حقائقها مستورة إلى أن سافر هذا الملك ودخل بها مع جيوشه . اهـ.

وعقد العهود بين مصر والممالك الهندية والمشرقية بما يترتب عليه توسيع أبواب التجارة وبدأ بحفر خليج السويس الذى كان قد شرع فى حفره (نخاوس) الملك أحد الفراعنة ودارا ملك فارس وجعل فم هذا الخليج من الجهة المعروفة بفرع طينة القريب من تل بسطة وأوصله إلى بحر السويس فى الجهة الشمالية وأرسل أيضاً من يستكشف له سواحل جزيرة العرب إلى بلاد الهند وسفنا لاستكشاف سواحل الحبشة وبلاد السودان الداخلية .

وكانت اللغة اليونانية فى أيامه قد امتدت إلى أقاصى ممالك الأرض فأمر بترجمة التوراة من العبرانية إلى اليونانية لمنفعة اليهود القاطنين بأرض مصر الذين أنساهم الأسر والاسترقاق لغتهم وكان عددهم كثيراً جداً فترجمت وسميت هذه الترجمة من ذلك الحين بالترجمة السبعينية لأن مترجميها كانوا سبعين عالما وزوّج ابنته المسماة برنيقه لانطيوكوس ملك الشام واشترط عليه أن يكون للذكور من أولادها وراثة ملك الشام بعده ثم جهزها وحملها إلى الشام وعمل لها فى مدينة أنطاكية أفراحاً عظيمة للغاية ثم عاد إلى مصر مريضاً وما زال حتى مات سنة ست وأربعين ومائتين قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدّة حكمه ثمانياً وثلاثين سنة وخلفه ابنه بطليموس الثالث الملقب بالكريم.

(فى الملك بطليموس الثالث)
(الملقب)
(بالكريم)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الثالث بويع له بالملك فى نحو سنة ست وأربعين ومائتين قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين وثمانمائة قبل الهجرة وكان يلقب بالكريم تهكماً وسخرية، وقد لقبه العامة أيضاً بلقب اطريفون ومعناه المهزول والأوّل أشهر ولم يكد يستقرّ به المنصب حتى قامت الحرب بينه وبين ملك الشام فسار فى جيش عظيم من المشاة والركبان والفيلة وجهز سفناً حربية وأغار على البلاد التى قبل نهر الفرات واستولى على مملكة أدنه وما جاورها وعلى سواحل سيواس وعلى أيالة عكا وسواحل أناطولى وجال فى بلاد أعدائه وصال وظفر وأبلى بلاء حسناً للغاية ثم اجتاز الفرات واستولى أيضاً على الجزيرة والعراق وخورستان وأذربيجان وعزم على غزو قارستان وجميع بلادها إلى بلخ وهمذان فوردت عليه الأخبار بقيام الفتنة فى ديار مصر فكر راجعاً وترك بتلك البلدان طوائف عسكره وأجناده ودخل مصر مثقلاً بالغنائم ومعه تماثيل الأصنام المصرية التى كان استلبها قمبيشاش ملك فارس من مصر ثم عاد سليوقوس ملك الشام لغزو مصر والأخذ بالثأر فانهزم وخاب أمله فاقتفى أثره بطليموس ودخل الشام وأخذ دمشق وميا فارقين وفر رؤساء السليوقية من وجهه إلى أنطاكية وانزووا فيها ولما كان فى حروبه مع انطنيوخوس ملك الشام نذرت زوجته برنيقه أنه إن عاد إليها سالماً من غزوته تكرس شعر رأسها للزهرة فلما رجع ظافراً غانماً وفّت نذرها فقصت شعرها ووضعته فى هيكل الزهرة فلم يبق زمنا حتى سرق من الهيكل فخاف الحراس من الملك واستعظموا هذا الأمر فلما علم الملك بالخبر التهب قلبه غيظاً وأمر بالحراس أن يقتلوا فدخل عليه بعض المنجمين وكان متقدماً فى بابه. وقال قد سمعت بخبر فقد شعر الملكة من الهيكل فأتيت أخبر بما علمته من أن الزهرة هى التى نقلت شعر الملكة إلى السماء ووضعته بين النجوم فلما سمع الملك كلامه سربه وصفح عن الحراس، ومن ثم سمى شعر الملكة برنيقه بين الناس من جملة مجاميع النجوم.

ومات بطليموس الثالث المذكور فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدّة حكمه خمساً وعشرين سنة وقيل أربعاً وعشرين وخلفه ابنه بطليموس الرابع محب أبيه.

(فى الملك بطليموس الرابع)
(الملقب)
(محب أبيه)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الرابع الملقب فيلوبا ترأى محب أبيه بويع بالملك سنة اثنتين وعشرين ومائتين قبل الميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة، وكان صبياً فكان نفوذ الحكم لوزيره سوسبيوس، وكان سوسبيوس هذا طاغية فى السياسة فأرخى للملك عنان السرف فى اللذات، وتركه يهيم فى بحبوحة الحظوظ والمسرات، وذلك لكى لا يكون له شريك فى الملك واحتجب بطليموس عن أرباب ديوانه وصار لا يراهم إلا نادراً وصرف وجهه عن الملك والممالك والبلدان التابعة لمصر فكان لا يعلم شيئاً عن أحكامها وعمالها ولا عن جندها، وكانت مصر إلى هذا الحين قد ملكت جميع الأراضى الشامية الكائنة ما بين طرابلس ودمشق ولها عدة مدن خاضعة لها على سواحل بلاد آسية وعلى الجزائر ، وكانت الثغور والأربطة فى أيدى ملوك مصر من عكا إلى الدردانيل وبوغاز كاليبولى وفيها من العساكر والأجناد شىء كثير جداً، وكان وزيره سوسبيوس المذكور يبالغ فى إبعاد الملك عن النصحاء وأهل المعارف لئلا يقف منهم على حقيقة حاله وفساد رأيه وخيانته فكان يوسوس إليه بالأراجيف والأخبار الباطلة التى لا حقيقة لها حتى صار يأخذ حذره خوفاً على نفسه وعلى تخته واشتد به الخوف والتطير إلى أن صار يأخذ الناس بالشبهات فإذا رابه من أحد ريبة أمر بقتله ، وكان قد حضر إلى مصر فى عهد بطليموس الثالث إقليومونس ملك أسبارطة مستجيرا ببطليموس فى إعادة ما ورثه عن أبيه من الملك، وقد نزعه منه ملك مقدونية فمات بطليموس الثالث قبل أن يقوم بنصرته وبقى عهد بطليموس إليه بذلك نسيا منسياً فلما استقر ببطليموس الملك راجعه اقليومونس فى الأمر ورغب إليه فى تنفيذ العهد الذى كان بينه وبين أبيه فلم يجبه إلى ذلك لاسيما وقد كان انطيفونس ملك مقدونية فى هذا الحين قد مات وقام بالملك بعده ابنه وكان صغيراً يبلغ الخامسة عشرة من العمر فألح اقليومونس على بطليموس واستحثه فلم يرض خوفاً من العاقبة وأبى أن يعينه مخافة أن يستولى على جميع بلاد اليونان فيعود ذلك بالضرر على مصر فغضب اقليومونس من ذلك ووسم بطليموس الرابع بضعف العزيمة وعدم الاكتراث بالعهود. وقال لا أهلية لبطليموس إلا فى الاتحاد مع الشبان الذين يلعبون بالمزامير فوصل هذا الكلام إلى

مسامع سوسبيوس الوزير فزعم أن ملك اسبارطه المذكور إنما أراد بقوله هذا إثارة الفتنة فى بلاد مصر فقبض عليه وسجنه وجعله تحت الحرس والمراقبة فالتهب اقليومونس غيظاً وأقسم أن لا يموت فى حبس الظلم موت الجبان وأخذ يتربص الفرص حتى علم يوماً بسفر بطليموس الملك إلى أبى قير فجمع أحبابه وأتباعه فى وليمة فحضروا فلما تكامل عددهم خرج بهم نهارا من سجنه شاهرا سيفه من غمده وهو ينادى فى الناس بالخروج وشق عصا طاعة بطليموس فلم يجبه أحد إلى ذلك فصعد إلى قلعة الإسكندرية وكسر أبوابها وأخرج من كان فى حبوسها وسلحهم بالأسلحة ليستعين بهم فلم يفلح حيث قام عليه كبار جند القلعة وهزموه فخشى هو وأصحابه من الوقوع فى أيدى خصومهم فتقاتلوا وجاء الخبر إلى بطليموس بما وقع وهو بأبى قير فكر راجعاً بمن كان معه من كبار قومه ورجال دولته إلى الإسكندرية لإخماد نار هذه الفتنة فلما علم بما جرى لأقليومونس وأصحابه أمر بصلبه ميتا وذبح زوجته تحته وأم أولاده حيث كان يتوجس منها شرا وذلك سنة عشرين ومائتين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة، وقام على بطليموس بعد ذلك انطيوكوس أخو سليوقوس صاحب الشام يريد قتاله انتقاما منه جزاء ما فعله أبوه بطليموس الثالث بالديار الشامية من القتل والنهب وغير ذلك وسار بخيله ورجله إلى انطاكية التى هى مدينة السليوقية وكان بها جند مصر يخفرها بعد نصرة بطليموس الثالث عليها فأخذها ثم سار إلى الشام وكان قائد العساكر والأجناد المصرية بها الأمير سيور وطوس اليونانى فلما قرب انطيوكوس منها سلمه سيور وطوس المذكور ما كان فى خفارته من القلاع والحصون والمدائن كصور وعكا وغيرهما كراهة بطليموس الرابع وانتقاماً منه فهال بطليموس هذا الأمر جداً وأزعجه وأرسل إليه قائداً من قواد جنده الكبار بجيش ضخم للغاية فلما دخل الشام نزل ببيروت وهاجم انطيوكوس فى جبالها فهزمه انطيوكوس شر هزيمة ووقعت جميع بلاد الشام فى يده إلى حدود مصر فألح وزراء بطليموس عليه فى أن يذهب بنفسه لقتال انطيوكوس وكشف عار هذه الهزيمة فسار من الفرما إلى الشام فى سبعين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان، وثلاثة وسبعين فيلاً، وكانت جنود أنطيوكوس اثنين وسبعين ألفًا من المشاة وستة آلاف من الفرسان ومائة واثنين من الفيلة فالتقى الجمعان تحت أسوار مدينة رافيا بين العريش وغزة واقتتلا قتالا عنيفاً فاستظهر انطيوكوس على بطليموس ملك مصر من الجناح الذى كان يدبره انطيوكوس ولم يلتفت إلى الجناح الثانى من جيشه، وكانت عساكر الجناح الثانى قد انهزمت وعادت

القهقرى وهو لا يشعر بهزيمتهم فلما أحس بها أخذ فى تلافى الأمر فلم يفلح ودارت عليه رحى الهزيمة ومات من عسكره خلق كثير وولى من بقى منهم فاستولى المصريون على مدينة رافيا ومدن سواحل الشام وفلسطين وطرابلس ودمشق فلم ير انطيوكوس بعد ذلك بدا من عقد متاركة وهدنة مع بطليموس ملك مصر مدة سنة واحدة.

ودخل بطليموس يافا وسار إلى بيت المقدس وسأل كاهن اليهود أن يريه ما فى البيت فأبى عليه ذلك فحقد بطليموس على اليهود والتهب قلبه غيظاً وعد ذلك إهانة وتحقيرا ورسم باستئصال شأفة يهود الإسكندرية وكتب لعامله بذلك فأوقع فيهم القتل والذبح حتى أفنوهم إلا من طال عمره فاختفى وعاد بطليموس إلى الإسكندرية ورايات النصر تخفق على رأسه وعاد إلى الانهماك فى اللذات والشهوات وأسرف فى اللهو وبالغ حتى انتهكت قواه وضعف بدنه فمات فى بحبوحة شبابه سنة خمس ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وعشرين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وخلفه ابنه بطليموس الخامس الملقب بالماجد.

(فى الملك بطليموس الخامس)
(الملقب)
(بالماجد)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الخامس الملقب بالماجد بويع بالملك بعد أبيه سنة خمس ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وعشرين وثمانمائة قبل الهجرة، وكان وقتئذ غير بالغ سن الرشد فأقاموا عليه الأمير أغا سقليس وصيا وهو أحد وزراء أبيه وبقى سوسيبوس وزير المملكة ومدبر أمورها، وكان أغا سقليس المذكور طاغيا سيىء التصرف فلما صفا له الجو ازداد فى ارتكاب الجرائم ومجاوزة الحدود وبالغ وأسرف حتى نفرت منه طباع الأهالى وسئمت نفوسهم وحقد الجند عليه حقدا شديدا فأوجس فى نفسه خيفة لئلا يشقوا عصا الطاعة عليه فراسل أهل مقدونية ليعاهدهم عسى أن يكونوا عونا له على المصريين فلم يفلح ولم يمض بعد ذلك إلا أيام حتى قامت الفتنة على ساقها وخرج الأهالى والجند عن طاعة أغاسقليس، وكان رأس هذه الفتنة طلابوليميس كبير الجند فلم يجد أغا سقليس له نصيرا ولا ظهيرا واشتد الخطب واستفحل أمر الفتنة. (قال يوليس المؤرخ) وانقسم أصحاب الفتنة إلى

طوائف وجماعات واجتمع بعضهم فى ميدان السباق وهم يضجون ويصيحون ويطوف منهم جماعة بين الناس ليهيجوا الخواطر ويحضوا الخلق على الثبات ومعاونة بعضهم لبعض بالخطب والمقالات المهيجة وانزوى بعضهم فى الدور والحصون عند اشتداد الأزمة، وكان أغا سقليس فى أثناء ظهور الفتنة وتجمع أولئك الجموع نائماً فى قصره فأيقظوه فلم يشعر إلا وقد امتلأ ما حول القصر الملوكى وميدان التعليم والرحبات والملاعب من جموع الثائرين والأحزاب على اختلاف درجاتهم فسار عندئذ فى أتباعه وأحزابه إلى حيث الملك بطليموس وأمر فسد بابان من أبواب القصر بالأحجار والمتاريس وحصن الباب الثالث بالقوة العسكرية وتترس من خلفه هو والملك بطليموس وسائر أتباعهما فازداد اجتماع الناس وكثرت الضوضاء وعلت الأصوات وتقاطر الناس من جميع أنحاء المدينة حتى سدوا الطرق وملئوا الميادين وضجوا وعجوا ونادوا بأعلى الأصوات كأنما اعتراهم الجنون، وبقى هذا الحال إلى ضحوة النهار وطلبوا أغاسقليس ونادوا بخروج الملك وتركه ليسقوا أغاسقليس كأس الهوان واشتد الحماس بالجند المقدونيين وحاصروا دهليز بيت الملك وبحثوا عن المكان الذى كان الملك مختفياً فيه فعثروا عليه فاقتحموا الأبواب وطلبوا الملك ليأخذوه فاشتد خوف أغاسقليس واستجار ببعض أعوانه وحراسه ورغب إليهم أن يستميلوا إليه فريق الأهالى، وبعض طوائف الجند المقدونيين فى نظير تنازله عن منصب الكفالة والوصاية فلم يجبه أحد لذلك فلما أيس من شفاعة الشفيع والملجأ فى هذا الخطب المريع مدّ يد السلام إلى العساكر المقدونية وسلم وأشار بذلك إلى الاستئمان وكذلك تقدمت أخته أغا سقلية التى هى أم بطليموس الرابع وكشفت عن ثديها .
وقالت لطوائف العسكر: هذا الثدى هو الذى أرضع بطليموس واغتذى بلبنه فلا يصح إهانته وإذلاله وأكثرت من الاستغاثة والتضرع فلم يرث أحد لحالهما ولم يلتفت إليهما وأخرجوا الملك من مكانه وأركبه الجند على جواد وذهبوا به إلى الميدان وساروا به فى وسط الجموع فلما رأوه فرحوا به وضجوا بأصوات التهليل وأقبلوا إليه وأجلسوه على سرير الملك وتقدم إليه من أمراء الدولة جماعة يسألونه عما يفعلونه بأغاسقليس ومن معه فأباح إراقة دمهم فرسموا إلى بعض الجند أن ينادوا بذلك بين الناس وصفوف العسكر فرفع أحدهم صوته بالمناداة ففرح العامة وضجوا ضجيج الاستحسان والفرح وتفرقت طوائف الجند وبقيت العامة وبينما هم على هذا الحال إذ برز فى وسطهم رجل من أخصاء أغاسقليس اسمه فيلون. وقال (كيف بكم أيها الناس لو رأيتم أغاسقليس واقفاً فى وسطكم لا جناح عليه وأنتم تجاهرونه بهذا العصيان وتقابلون نعمته بالكفران فافقهوا ياقوم ولا تكونوا من الضالين) فلما سمعوا

كلامه هجموا عليه فقاومهم أشد مقاومة فمزقوا ثيابه وطعنوه بالرماح وسرى من هذه الساعة الموت والقتل فى حزب أغاسقليس وقـومه وأهل بيته والقوا جثة ذلك الرجل فى الميـدان بعد قـتله وهاجـوا وماجـوا وعلت أصواتهم فظـهر أغـاسقليس مكبـلا بالسلاسل والأغلال فلم يمهلوه حتى أكبوه على وجهه وقتلوه ثم أتوا بأخته اغاسقلية مع بناتها وأقاربها فقتلوها وإياهم شر قتـلة ثم قتلوا زوجته المسماة إينانة. وقد كانوا أركبوها عريانة على جواد وقتلوا كذلك أتباعـها والمتقربين إليها، وكان المتولى القتل جمـهور العـامة والغوغـاء فأفـحشوا فـيه، وكانـوا يقتلون البعض بـعضٍ الأنياب، والبعض بطعن الحـراب وبعضهم كان يفـقأ العيون وكـانوا كلما قتلوا واحـدا مزقوه وقطعـوا أعضـاءه وألقوها فـى الطرقات ولما عم القـتل وعلمت النسـوة اللائى كن يخـدمن الملكة أرسنوية أم بطليـمـوس بحضـور فيـلامـون الذى قتلـها إلى مـدينة الإسكندرية قمن على ساق وقدم وأحطن ببيـته وأردن الفتك به وقبضن عليه وأثخنه ضرباً بالعصى والأحـجار وقتلن زوجته فى الميدان العـام، وكان له طفل على يديها فتناولتـه أيدى العامة وأماتـوه خنقاً ثم سكنت الفتنة وهدأت العـامة وأقاموا الأمـير اطلابوليموس قيما على بطليموس بدل أغـاسقليس واستبشر الناس بالظفر ولكن لم يمض إلا القليل من الزمن حتـى ظهر الأمر على خلاف مـا كان يظن وذلك لأنه لما كان اطلابوليـمـوس المذكور جندياً بحتاً لا خبـرة له بفنون السياسة التى عليـها حفظ شـرف الدولة ومركـزها خـبط وخلط فـترتـب على ذلك انحطاط المملكة وضـعف سطوتها وقد ساء تدبيره أيضاً وانهـمك وانكب على الألعاب بالصولجان والترس مع جماعة الـشبان وأكثر من المآدب والولائم وأسرف وبالغ فى مـثل هذه النفقات وبذر فى العطايا والمنح لسفراء ممالك اليونان تزلفا واستحبابا ووصل بنعمائه أرباب الملاهى والملاعب وأمراء العـساكر والأجناد وكل من تردد عـلى أبوابه واشتغل بجـميع هذه الأمور عن النظر فى شئون المملكة وقضاء مصالح الخلق واحتجب عن الناس ليتفرغ لملاذه وشهـواته فلما زاد إسـرافه على نفـسه سلم عنان الحكومـة ليد أرسطومـينين الرومى وأطلق له عنان الحريـة ومتعه بالسلـطة والنفوذ التام فلمـا أحس ملك الشام بضعـف أحوال المملكة المصـرية وعدم قدرتـها على دفع من يقـصدها بسـوء قويت عزيمته للأخذ بالـثأر جزاء ما فعله المصريون فى حرب رافيا فـعقد مع فيلبس ملك مقـدونية معاهدة دفـاع فقام فـيلبس بعساكره وأجنـاده وهجم على بوغاز الدردانيل وبوغاز كالـيبولى وعلى بلادروم إيلى التى كان بهـا المرابطون من عساكر مـصر من عهد فـتوح فيلادلف . وقـام كذلك ملك الشام وهجم على أمـلاك مصر فى أرض الشام وعلى جهات الأناضـول، وكان بتلك الجهات من قبل مصـر القائد اسقوباس

فلقيه اسقوباس بعسكره وقاتله فانتصرت العساكر المصرية على ملك الشام نصرة عظيمة فى سواحل الشام وبلاد فلسطين ولكنها لم تلبث أن انهزمت على منابع نهر الأردن وأخذ صاحب الشام مدينة سامرة وغيرها من المدائن كالقدس وما زال حتى أخذ أيضاً فى خلال سنة جميع المدن التابعة لمملكة مصر بولاية أدنة وغيرها من ولايات الأناضول.

وفرح انطيكوس صاحب الشام بنصراته المتتابعة وأخذه جميع أملاك مصر فى بلاد الشام وتاقت نفسه إلى قتال الرومانيين وغزو إيطاليا، ولكنه عاد فخاف عاقبة ذلك وجعل نصب عينيه ما بين مصر والشام من أسباب المشاحنة وخشى أنه إن سافر إلى إيطاليا قام عليه بطليموس صاحب مصر وظفر به فأخذ من هذا الحين فى التقرب من صاحب مصر وصالحه مصالحة نافعة تقوى روابط المحبة وتؤكد دوام الصلح بينهما، وكان لأنطيكوس بنت تسمى (كليوباترا) فكان من شروط الصلح أن يزوّجها لصاحب مصر ويمهرها سائر أرض الشام حيث كانت هذه الأراضى محل النزاع بين مصر والشام فجعلها انطيكوس من نصيب ابنته كليوباترا.

ولبثت كليوباترا فى بيت أبيها تنتظر استدعاء بطليموس لها حيث هو لم يدخل بها لعدم بلوغه سن الرشد إلى ذاك الحين وبينما هى فى بيت أبيها إذا قامت بمصر فتنة أخرى بأسباب البغضاء الواقعة ما بين أرسطونيوس الوصى على بطليموس ملكها واسقوباس كبير الجند وتمكن اسقوباس من مقاتلة أرسطونيوس بالإسكندرية. وقد انضم إليه جميع العساكر والأجناد الرومية الذين كانوا فى خدمة مصر واشتدت الفتنة وقامت على ساقها وتكاثرت أحزاب اسقوباس وخرجوا عن طاعة بطليموس الملك ووصيه وقام المصريون مع الملك وزاد بهم الغضب على اسقوباس وأحزابه، وأبناء جنسه وقبضوا عليه وساقوه إلى موقف التحقيق فثبتت خيانته فحكم بقتله مع أحزابه وحرمان جميع أبناء جلدته من الخدمة العسكرية وفاز أرسطونيوس وظفر بعدوّه ، ومن كان معه من الأحزاب فأولم واحتفل احتفالاً عظيماً وألبس بطليموس الملك التاج فى محفل عام وسلمه صولجان الملك، وهو يومئذ فى الثالثة عشرة من عمره وذلك سنة ست وتسعين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمانى عشرة وثمانمائة قبل الهجرة هذا ومع أن الفتنة كانت قد سكنت وأمست نارها رمادا وانكشفت عن جلوس بطليموس على سرير مملكته فإنه شاع خبر موته وانتشر واتصل بانطيكوس أبى زوجته كليوباترا فتاقت نفس انطيكوس إلى أخذ قبرس والتخلص من رابطة العهد الذى كان بينه وبين بطليموس، وكانت قبرس إذ ذاك تابعة لمصر فسير إليها

سفنا حربية فعصفت بها الريح وألقتها على سواحل الأناضول. ووردت إليه الأخبار بأن بطليموس لم يزل على قيد الحياة فانثنى عن عزمه وصمم على عدم حل عقدة التحالف، وكان قد مضى على عقد زواج بطليموس كليوباترا ست سنوات فسار انطيكوس أبوها إلى مدينة رافيابين غزة والعريش ومعه ابنته كليوباترا، وكان بطليموس الملك نازلا بها فالتقى الفريقان وبنى بطليموس بزوجته واستلم زمام الشام مهرًا لها.

ولما استقر ببطليموس المنصب وتخلص من نير الوصاية ساء تدبيره وكثر ظلمه للرعية وتجبر فكان وصيه ينصحه ويحذره عاقبة أفعاله فكان لا يلتفت لقوله ولا يسمع لنصحه ويحقد عليه في تهديده وتخويفه. ثم عمد إلى قتله فدس له السم فمات فلما ظفر بقتل وزيره المذكور واستبد برأيه ارتكب من المآثم والسيآت ما لم تستطع أن تحمله الأهالى فقاموا على قدم وساق وأثاروا الفتنة حتى كادت تعم جميع المدن ونادوا بخلع بيعة بطليموس من أعناقهم فانتدب بطليموس لقتال أصحاب الفتنة الجنود اليونانية الذين كانوا فى خدمة الحكومة فسار بهم قائدهم بولقراطس وضيق على الثائرين حتى استسلموا وكان بطليموس ممتنعا بمدينة صاالحجر فسار رؤساء الأحزاب إليه يطلبون الأمان فقبض عليهم جميعاً وقتلهم شر قتلة ومثل بهم وذلك سنة خمس وثمانين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وثمانمائة قبل الهجرة ولما سكنت الفتنة واستتب له الأمر عاد إلى عسفه وظلمه للرعية وأخذ يجهز جيشاً كبيراً لقتال سيلقوس الرابع بن انطيكوس فاخترمته المنية قبل أن يتم هذه الغزوة وذلك فى سنة إحدى وثمانين ومائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وثمانمائة قبل الهجرة سمه بعض الأعيان فمات والسبب فى ذلك أنه لما أكثر من تجنيد الجنود الأجنبية لغزو سيلقوس وبالغ فى الإكثار منهم سئل يوماً من أين ندفع جوامك هؤلاء العساكر ونفقات هذا الجيش. فقال ما سبب هذا السؤال أما تعلمون أن أموال أحبابنا هى أموالنا فدخلت من ذلك الحين الوساوس والأراجيف فى قلوب أحبابه ودسوا له السم فى الدسم فقضى عليه فكانت مدّة حكمه أربعاً وعشرين سنة وخلفه بطليموس السادس الملقب بمحب أمه على سبيل التهكم.

(فى الملك بطليموس السادس)
(الملقب)
(بمحب أمه)

ثم قام بالأمر بعده بطليموس السادس أكبر بنى بطليموس الماجد بويع له بالملك

سنة إحدى وثمانين ومائة قبل الميلاد أى نحـو سنة ثلاث وثمانمائة قبل الهجرة ولقب فيلوماطـور ومعناه محب أمه تهكمـا وسخرية لأنه كان يـبغضها بغضـاً شديداً تولى الملك قاصرا، وكانت مدّة قصوره أقل اضطرابـاً من مدّة قصور أبيه لأن أمه كليوباترا كانت قد أصلـحت حال المملكة ورتبت أمورها ووطدت أركانهـا بعناية وحزم، ولما مات أبوه واتصل الخبر بذلك إلى سيليقـوس الرابع صاحب الشام تاقت نفـسه إلى الاستيلاء على ولايات مـصر إلى سواحل الشام ولم يراع حرمة أخـته كليوباترا ولا طفولية ولدها بطليـموس فجهز العســاكر وجند الجنود وعزم على الزحف أولاً على وادى دمشق ثم على السواحل فـبينما هو على أهبة القـيام للقتال إذ اختـرمته المنون وحالت بينه وبين ما كان ينويه. وقام بالأمر بعده انطيوكوس فلم يلبث أن سار على خطة سيليـقوس فجـيش الجيوش وجند الأجناد وعـزم على تتميم هذه الغـزوة فلما أحست كليوباترا بما نواه انطيـوكوس راسلت جمهورية الرومان وطلبت مـنها حماية مملكة مصر وأن تكون تحت عنايتها وأن يكون ولدها بطليمـوس تحت كفالتها فبعثت الجمهـورية المذكورة أميراً اسـمه إيميليوس لايدوس وجـعلته كفيلاً على بـطليموس الملك وهو من طائفة الكهنة.

ولم تعش كليوباترا بعد حضور ايميليوس إلا قليلاً وماتت فقام عند ذلك أهالى الإسكندرية على ايمـيليوس المذكور وخلعـوه وولوا الكفالة اثنين من المصـريين هما أوليوس الطواشى ولونيوس أحد أعيان الدولة، وكان قد استولى ملك الشام فى هذا الحين على سـواحل دمشق التابعة لمصر فـراسله الوصيان وطلبا مـنه رد ما أخذه من البلاد بالتى هى أحسن فـاحتج عليهما وطلب كفالة ابن عـمته بماله من الأولوية من الأجانب فحدث أن اشتغل الوصـيان المذكوران بأمور أخرى عن فض الخلاف الواقع بين مصر والشام فاستفحل أمره بينهما واشتدّ بينهم الأخذ والرد وقامت الحرب على ساقها، ولما كان الرومانيون إذ ذاك مشغولين بالحرب مع برشاوش ملك مقدونية تعذر عليهم إعانة ملك مصر على صاحب الشـام فتغلب صاحب الشام على ولاية دمشق ويهوذا وسواحل الشام إلى حدود مصر واستولى على قبرس بخيانة القائم بحراستها فتقوى وتشددت عزائمه ورغب فى الإغارة على مصر فقام ملك مصر بعساكره ونزل عند الفرما وقاتل صاحب الشام قتالاً شديـداً فانهزم عسكر مصر فى هذه الواقعة شر هزيمة ودخل انطيـونوس صاحب الشـام إلى مصر مـؤيداً منصوراً وأحسن مـعاملة بطليموس ملكها. وقـيل إنه اعتذر إليه عما كان مـن قتاله إياه فلما رأى أهل ديوان الإسكندرية وجندها مـا حل بملكهم وقومـه من أسر انطيـونوس صاحب الـشام إياه

قاموا وبايعوا أخاه ولقبوه باويرجيطه الثانى ومعناه الرحيم وتأهبوا للقتال وأكثروا من جمع السلاح ومعدات الحرب وكان اويرجيطه هذا صبيًا قاصرًا فأحس أنطيونوس بذلك وسار بجيشه إلى الأسكندرية لقتال من بها من الأحزاب فتجهزوا للدفاع وشمروا عن ساعد الجد وبعث أويرجيطه الملك وأخته كليوباترا سفراء إلى الرومانيين يستنجدون بهم فوصل صاحب الشام إلى الإسكندرية وحاصرها وضيق عليها وأطال مدة حصارها فكان من يهود الشام أن أشاعوا موته تحت أسوار الإسكندرية فقامت بسبب هذه الإشاعة الفتنة فى داخل البلاد واشتدت وعظمت ووصل خبرها إلى أنطونيوس وهو تحت أسوار الإسكندرية فعزم على العود وترك الحصار فقام عند ذلك بطليموس السادس الذى كان فى أسر أنطونيوس وسار إلى مدينة منف رجاء أن اختلافه مع أخيه بطليموس أويرجيطه يكون داعياً لاستيلائه على تخت السلطنة ثانية، وكان أنطونيوس قد تخلى عن المحافظة على مدينة الفرما ولم ينجح فى إثارة الفتنة بين الأخوين وقد تعمدها وسار إلى بيت المقدس فاستولى عليه وسلب ونهب وأراق الدماء وفى أثناء محاربته مع يهود الشام والانتقام منهم جزاء ما أشاعوه من خبر موته تحت أسوار الإسكندرية اصطلح بطليموس السادس محب أمه مع أخيه اويرجيطه بوساطة أختهما كليوباترا وعقدا الخناصر على دفع العدو عن بلادهما ما استطاعا إذا عاد إلى شن الغارة عليها وطلبا من الرومانيين أن يبعثوا إليهما يومئذ مختارا لإصلاح ذات البين بين مصر والشام ثم بعثا بقواد الجنود المصرية لقتال سفن أنطونيوس على سواحل قبرس إلى أن يأتى الوفد الرومانى.

وفى فصل الربيع من سنة ثلاث وسبعين ومائة قبل الميلاد أى سنة خمس وتسعين وسبعمائة قبل الهجرة أتت جيوش صاحب الشام إلى حدود مصر وهجمت على البلاد واستولت على جميع ما كان فى طريقهم منها لحد مدينة منف ونصبوا معسكرهم على مقربة من الإسكندرية، وكان قد حضر فى هذه الأثناء سفير من قبل الرومانيين اسمه بوبليون ليناس فأوقف عسكر صاحب الشام عند الإسكندرية وعمل على إخراجهم من جميع أرض مصر فخرجوا منها على أحسن وجه ولكن لم تتحصل مع ذلك البلاد على ما كانت تتوق إليه من الراحة بعد خروجهم إذ وقع بين بطليموس وأخيه أويرجيطه من الوحشة والخصومة ما ترتب عليه غاية الفشل وتولدت عنه الحروب الداخلية التى لم يصل أصحاب التاريخ إلى معرفة تفاصيلها غاية ما قالوه عنها أنها كانت سببا فى ذهاب أويرجيطه إلى رومة مستغيثا بجمهوريتها فأرسلت معه سفارة وطلبت السفارة المذكورة من بطليموس أن يتنازل لأخيه

أويرجيطه عن مملكة القيروان وبرقة فلم يقنع اويرجيطه بذلك وطلب من مجلس رومة أن يضم إليه أيضاً قسما آخر من الأيالات التابعة لمملكة مصر فقبل منه ذلك وأضاف إليه جزيرة قبرس أيضاً فأبى بطليموس أن يعطى جزيرة قبرس فأغضب امتناعه الرومانيين إذ كانت لهم فى ذلك الحين الكلمة النافذة فى جميع الدول المشرقية، وكان لا يتأتى لأحد من ملوك زمانهم أن يعارض لهم فى كلمة أويزيف لهم رأياً فرسم مجلس رومة لسائر الممالك اليونانية وممالك آسية التى كانت يومئذ معاهدة لرومة أن يمدوا اويرجيطه بجميع الإمدادات التى يحتاجها وأن ينصروه على أخيه بطليموس ما استطاعوا فاستعان اويرجيطه بهم وجهز عسكرا لقتال أخيه وهاجمه بجيش ضخم وقاتله قتالاً عنيفاً انكشف عن هزيمة اويرجيطه ووقوعه فى يد أخيه بطليموس فعامله بطليموس خير معاملة وصفح عنه الصفح الجميل واشترط عليه أن لا يتطلع لمملكة قيروان وبرقة وبعض المدائن من جزيرة قبرس وأحكم بينه عرا المحبة والاتحاد بوعده له بزواج ابنته كعادة البطالسة فى ذلك الحين اقتداء بملوك فارس فزالت من بينهما الشحناء واستتبت الراحة فى داخلية البلاد وبقيت آمنة مطمئنة حيناً من الدهر.

وكان فى جزيرة قبرس من قبل ملك مصر عامل اسمه أرخياس فراسله صاحب الشام ومناه بالأمانى الطويلة إذ سلم إليه قبرس فأحس بطليموس بذلك وهاج المصريون وماجوا وكادت نار الحرب تضطرم بين مصر والشام وانكشفت خيانة أرخياس المذكور وخاب سعيه واتضح أمره فقتل نفسه وداخل صاحب مصر الحقد على ديمتريوس صاحب الشام بسبب إغوائه أرخياس وعقد النية على الانتقام منه، وكان لبطليموس الملك صهر اسمه إسكندر فدبر له أن يدعى أنه ابن أنطونيوس صاحب الشام فادعى ذلك وطلب الجلوس على تخت مملكة أبيه فأجلسه على تخت سلطنتها وخلع ديمتريوس سوطير ملكها وسيره إلى حرب ديمتريوس وأمده بالعساكر والجنود وقواه بمعدات القتال وآلات الحرب، وما زال حتى ظفر بالملك وقبض على زمام الأحكام فلما استتب له الأمر طلب من بطليموس ملك مصر أن يزوجه كليوباترا ابنته فزوجها له وجهزها وسار بها إلى الشام وعمل لها هناك الأفراح والولائم العظيمة ولم يمض على الإسكندر المذكور فى منصبه سوى ست سنوات حتى نهض ديمتريوس سوطير يطالب بتاج أبيه وانحاز إلى بطليموس صاحب مصر واستعانه فأعانه وجيش له جيشاً عظيماً وسيره إليه من البر والبحر وسار هو معه فساعدته الأقدار وانتصر على صاحب الشام انتصارا عظيماً، وأخذ الشام من

فلسطين إلى عكا وكان كلما ظفر بمدينة أو بلدة رتب فيها المحافظين من الأجناد المصرية وأحكم المحافظة عليها فارتاب من فعله هذا أمنيوس وزير صاحب الشام، وعقد النية على أن يقتله غيلة حرصا على ملك صاحبه إسكندر فأحس بطليموس بذلك واستشعر بما نواه عدوّه فرغب إلى إسكندر فى معاقبة وزيره أمنيوس فلم يقبل فاتخذ بطليموس إباءه ذريعة للحرب وركب على الإسكندر وقاتله وتغلب على مدن سواحل الشام إلى أنطاكية وفرق بينه وبين ابنته كليوباترا وساعد ديمتريوس بن سوطير على استرجاع مملكة أبيه وأعادها إليه ثم زوجه ابنته كليوباترا فاتحدت بهذه المصاهرة مصر والشام وصارتا قوة واحدة.

وقام بطليموس صاحب مصر على أنطاكية فاستقبله أهلها وألبسوه تاجين أحدهما تاج مصر والثانى تاج الشام فأبى أن يلبس تاج الديار الشامية بل آثر به ديمتريوس صاحبها وكان يومئذ شاباً فألبسوه إياه فكان ما فعله بطليموس مع ديمتريوس ما فعله قبله انطيوكوس فى مدينة منف مع ملك مصر سواء بسواء حيث كان صاحب الشام أعطى مملكة مصر لأورجيطه وهذا من الاتفاقات الغريبة.

أما إسكندر فإنه سار بمن بقى معه من قومه إلى بلاد اليونان وكأنه قد تقوى قليلاً فعاد لقتال أعدائه فانهزم إسكندر ثانياً وهرب عند شيخ حى من أحياء العرب والتجأ إليه فخانه ذلك الشيخ وقتله وذلك سنة ست ومائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين وسبعمائة قبل الهجرة وبعث برأسه إلى بطليموس صاحب مصر فلم يصل إليه إلا وكان قد مات هو أيضاً حيث سقط عن ظهر جواده عقب انتصاره فاندق عنقه فكانت مدة ملكه خمساً وثلاثين سنة قضاها بين حروب وغزوات وفى أيامه هرب أونياس الإسرائيلى إلى مدينة الإسكندرية وتقدم إلى بطليموس فى بناء هيكل لليهود على آثار معبد فى مدينة تل بسطه لإشهار شعائر اليهود فى مصر مثال هيكل بيت المقدس فأذن له بذلك.

ولما مات بطليموس المذكور خلفه ابنه بطليموس السابع الملقب بأوباطور ومعناه الماجد الأب.

(فى الملك بطليموس السابع)
(الملقب)
(بأوباطور)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس السابع الملقب بأوباطور أى الماجد الأب بويع بالملك بعد موت أبيه سنة ست وأربعين ومائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين

وسبعمائة قبل الهجرة، وكانت أيام حكمه قصيرة جداً حتى أنه لم يذكره بعض المؤرخين فى عداد البطالسة الذين ملكوا مصر وإنما نص بعضهم على أنه كان من البطالسة ثم ظهر للمتأخرين منهم استكشاف وثيقة معاهدة يونانية مكتوبة من ديوان مصر يعلم منها أنه ابن بطليموس محب أمه وأنه تملك على مصر ولقب بالماجد الأب وأنه تولى قاصرا وكفلته أمه كليوباترا وحكمت البلاد بالنيابة عنه مدّة يسيرة جداً لا تعد مدّة مستقلة بل متحدة داخلة فى مدّة أخيه بطليموس الثامن الملقب اويرجيطه الثانى يعنى الرحيم.

(فى الملك بطليموس الثامن)

(الملقب)

(اويرجيطه الثانى)

ثم قام بالأمر بعده أخوه بطليموس الثامن ولقب بأويرجيطه الثانى ومعناها الرحيم وبيان ذلك أن بطليموس هذا كان فى أيام أخيه بطليموس الماجد الأب ملكا على القيروان فبلغه خبر موت أخيه المذكور قبل حصوله، وكان شديد الرغبة فى العود إلى مصر وارتقاء سرير ملكها فصدق الإشاعة وعقد النية على الرحيل إلى مصر والقبض على زمام ملكها فجهز لذلك جندا كثيراً وهمّ بالمسير فوردت إليه الأخبار بصحة موت أخيه وقد مات حقيقة فى أثناء هذه المدّة عن زوجته كليوباترا التى هى أخته وعن ولدها القاصر منه المسمى بطليموس الماجد الأب فبادرت كليوباترا بالمبايعة لابنها المذكور ونادت بجلوسه على كرسى مملكة أبيه فلما قدم بطليموس الثامن إلى مصر ووجد أخاه قد مات كما وردت إليه الأخبار وأن ابن أخيه قد تولى ملك مصر لم يظهر ميلاً إلى الرئاسة ولم يتطلب الملك بنفسه بل طلب الوصاية على ابن أخيه فأبت كليوباترا أن تمكنه منها فلم يطق ذلك وهجم بعسكره على مدينة الإسكندرية وفتحها عنوة وتزوّج كليوباترا التى هى أخته قهرا عنها وذبح فى يوم عقده عليها ولدها بطليموس على حجرها بيده وأمر بقتل أحزاب ابن أخيه عن آخرهم ثم تزوج على أخته كليوباترا المذكورة بنتها من أخيه وبقى مع الزوجين الأم وابنتها وأبقى لكلتيهما عنوان ملكة مصر فأوجبت هذه الفعال الشنيعة فضلاً عن ظلمه وعسفه وجبروته نفور جميع الرعية منه وبغضهم إياه فخشى عاقبة ذلك واتخذ له جندا أجنبياً لحمايته ورتب لهم الجماكى والمرتبات وولاهم المحافظة على مملكته فاشتدت بذلك كراهية الرعية له ونفورهم منه وكان كثير الانهماك فى اللذات

والشهوات منعكفا على المعاصي فقبحت في أعين الرعية صورته وكرهوا منظره وكان ضخم البطن قصير القامة لا يكاد يقدر على المشي لهذه العلة فلقبه لذلك أهل الإسكندرية بالبطين.

وطال حكمه وتعست أيامه وأكثر من الجور والظلم، ولم يكن لطول ملكه من سبب سوى أن وزيره هوهياراش كان حازماً محبوباً مهيباً عند الرعية نافذ الكلمة فيهم حسن التدبير والسياسة فكانت مدّة وزارته مانعة لعطب المملكة حافظة لها من الاختلال واقية لها من الزوال ومع ذلك فإنه لما اشتدت على الرعية وطأة الظلم والاستعباد قاموا في سنة ثلاثين ومائة قبل الميلاد أي سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة قبل الهجرة وأثاروا الفتنة وخرجوا عليه وحرقوا قصره فهرب وسار إلى جزيرة قبرس وأخذ معه كليوباترا الصغيرة، وكان الذي أعان على إثارة هذه الفتنة واضطرام نارها كليوباترا الكبيرة فقد استدل على صحة ذلك أصحاب التاريخ بأنه لما كسر الأهالي تماثيل الملك زوجها إيذاناً بعزله وتنزيله عن منصب الملك سلموها زمام الحكومة وولوها أمور المملكة فلم تتأخر وارتقت سرير الملك آمنة وأخذت في تدبير الأمور فرحة جزلة.

ولما بلغ اويرجيطه الملك ما فعلته كليوباترا زوجته كاد يتميز من الغيظ وخشي أن تبايع ولدها منه على ملك البلاد فأرسل من قبرس من يأخذه منها فبعثت به إليه. فلما وصل قام عليه وذبحه ووضع أجزاءه في زنبيل وبعث به إلى أمه بالإسكندرية وبينما هي تحتفل بوليمة لمولدها إذ جاءوا إليها بجثة ولدها مذبوحاً ممزقا فكادت تموت حزنا وتجهزت لحرب اويرجيطه زوجها وتجهز هو أيضاً لقتالها وأكثر كل فريق منهما من الجند ومعدات الحرب وسلم اويرجيطه قيادة جيشه إلى هجالوخس القائد وسلمت كليوباترا كذلك قيادة جيوشها إلى مرسياس والتقى الجمعان في ميدان مصر واقتتلا قتالا عنيفاً فانهزم جيش كليوباترا ووقع قائده مرسياس أسيرا في يد خصمه فبعث به إلى اويرجيطه الملك في جزيرة قبرس فأحسن اويرجيطه معاملته وصفح عنه ليستميل بذلك إليه قلوب المصريين وتحزبت كليوباترا بعد هزيمة جيوشها في مدينة الإسكندرية وخلعت تاج الملك على صهرها ديمتريوس نيقاطور ملك الشام. وسارت هي إلى الشام هاربة فجاء ديمتريوس إلى الإسكندرية سريعاً وحاصر الفرما وضيق عليها حتى صارت على وشك التسليم فقامت بالشام فتنة فخاف ديمتريوس استفحالها فسلم الإسكندرية صلحا لاويرجيطه فركب اويرجيطه سرير سلفه ثانية وعقد النية على الانتقام من ديمتريوس جزاء ما فعل فأغرى رجلا اسمه سيداطس

على أن يدعى أنه ابن انطيوكوس ملك الشام، وأن له حق التملك عليها فقام وادعى ذلك ولقب نفسه بإسكندر رزابيناس فبايعه خلق كثير ثم قام لقتال ديمتريوس فانهزم ديمتريوس وهرب إلى صور فقتلته زوجته فيها فانتقل إليها ملك الشام، وكانت تعلم ما بين رزابيناس واويرجيطه من البغض والشحناء فتقربت من اويرجيطه صاحب مصر واستمرت على الحرب مع رزابيناس فانتصرت عليه بعناية اويرجيطه ومعاهدتها له وتزويج بنته طروفانه لابنها انطيوكوس اغرويوس ومن هذا الحين سكنت الفتن والقلاقل واطمأن اويرجيطه الملك واشتغل بزيادة كتب خزانة الإسكندرية على نحو ما فعله أسلافه من ملوك البطالسة زيادة كثيرة، وكان له مشاركة فى العلوم الحكمية والفنون الأدبية إذ كان قد تلقاها عن المعلم ارستارخس الشهير بالمعارف الأدبية فانكب عليها وألف بعض الكتب والرسائل المفيدة فى تلك العلوم.

وفى أيامه سارت الرحلة العلمية لاستكشاف بحر الهند، وكانت هذه أول رحلة ألفت من المصريين وسافرت لاستطلاع أحوال البحر المحيط الهندى تحت رئاسة القائد هودشيش القوزيقى وكان هذا القائد شجاعاً قادراً على الأسفار جسورا على اقتحام البحار يحسن الأرصاد الفلكية ويتبين مواقع تخطيط الأرض فطاف حول إفريقية وتمم بالأرصاد معرفة ما فى البحر الهندى من الجزائر والبلدان فى أيام بطليموس اويرجيطة المذكور ثم مات ايورجيطه فى سنة سبع عشرة ومائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه تسعاً وعشرين سنة وخلفه بطليموس التاسع الملقب بسوطير الثالث.

(فى الملك بطليموس التاسع)
(الملقب)
(سوطير الثالث)

ثم قام بالأمر بعده الملك بطليموس التاسع الملقب بسوطير بويع بالملك سنة سبع عشرة ومائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة قبل الهجرة ولقب بسوطير الثالث ومعناه المخلص ولقب أيضاً بوطونوس يعنى المحبوب ولاطوروس يعنى الأرقط لأنه كان له علامة فى وجهه وهو أكبر ولدى بطليموس البطين من كليوباترا الصغيرة، وكانت أمه تبغضه وتحب أخاه الصغير المسمى إسكندر وتؤثره عليه، وكانت متسلطة على قلب زوجها بطليموس البطين فحملته على أن يبعث بولدها الأكبر المذكور إلى جزيرة قبرس ليكون حاكماً عليها وقصدت بتغريبه وإبعاده حرمانه

من ولاية العـهد وانتـقال حق الملك لولدها إسكندر غـير أنه قـد خاب منهـا الظن وأخطأها الأمل فإنه لما مات بطليموس زوجـها قام أهل الدولة ورجالها وألزموها بأن تستدعى ولدها لتخت أبـيه فلم تر بدًا من استحضاره وألبسـته تاج الملك واشترطت طلاق زوجته كليوباترا أختـه وأن يتزوّج إحدى أخواته المسماة سيلانه لطاعـتها لأمها وعدم عقوقهـا فطلق كليوباترا وتركها فى جزيرة قبرس فلم يهـدأ لها حال وصارت تتداخل فى أمور دولـة الشام ومصالحهـا فقتلت بأمر أختـها طروفانة صاحـبة الشام وتخلص بطليموس منها وتزوّج بأخـته سيلانة وصار فى جميع أمـوره خاضعاً لأمه ولم يخالفها فى شىء ولكنها كانت مع ذلك حاقدة عليه مضمرة له العداوة مريدة له التلف فلما ماتت بنتها كليوباترا صاحبة قبرس ولت بدلها ابنها الصغير إسكندر ملكا لترشـحه للجلوس على مملكة مصر، وكـانت دائماً على نية خلع ولدها بطلـيموس وتنزيله ولا تنكف عن العـمل على ذلك وبقى بطليـموس المذكور وأمـه زمنا طويلاً على إدمان العداوة والإصرار على الدسائس الخفـية وكل منهما يكل أمره إلى حزب من أهل الشام يعضد أغراضه ثم كان من أم الملك المذكورة أن اتهمت ابنها بطليموس بأنه هم بقتلها بالسم وحـزبت عليه جميع الإسكندرية ليفتكوا به فـفر بطليموس إلى قبرس فاستقدمت ابنها إسكندر إلى مصر وبايـعته فبايعه المصريون كافة وجعلوه ملكا على مـصر كـما سيـذكر فى مـحله ولم تقف كليـوباترا عند هذا الحـد مع ولدها بطليموس بل جيشت لقتاله جيشاً كبيراً وسيرت به ليخرجه من جزيرة قبرس ويجليه عنها فخرج بطليموس إلى سـواحل الشام ومعه ثلاثون ألف مقاتل وهجم بهم على سواحل الأردن وهزم اليهود الذين كانوا على خـلاف مع انطيوكوس القوزيقى ملك الشام واستولى أيضاً على عكا، وكانت يومئـذ تابعة لمصر فلما علمت كليوباترا أمه بخبر هذه الغزوة ونصرات بطليـموس المتتابعة جهزت جيشاً ثانيـاً عظيماً وسيرته برا وبحر إلى الشام وقاتلته على عكا فأخذتها منه وسار عسكرها لأخذ مدينة قيصر فلم يقدر واستمرت الحرب سجالا إلى أن اصطلح الفريقان وانكفا عن القتال وقد طالت أيام هذه الحرب إلى حـدّ قامت مـعه الفتن فى داخل البـلاد المصرية وكثـرت فيـها الدسائس وكـاد يعمها الخلل وتنتـشر فيـها القلاقل والاضطرابات وكثـرت الأحزاب فوجهـت كليوباترا عنايتها إلى حـسمها بالـتى هى أحسن فلم تفلح ورأت أن ولدها إسكندر الذى ولته ملك مصر ولقبته ببطليموس قـد خرج عن طاعتها أيضاً فحقدت عليه وأضـمرت له السوء وقـصدت قتله والخـلاص منه وأخذت تتـربص به السوء فأحس بذلك وخاف سوء العاقبة فتدارك الأمر وأسرع هو بقتلها واستبدّ بحكم البلاد بلا منازع.

ولما خلا له الجوّ وبات مطلق اليدين طغى وتجبر وظهر ظلمه وعسفه وقيل إنه نبش قبر الإسكندر الأكبر وسلب تابوته المصوغ من الذهب واستبدله بتابوت من البلور فلم تطل مدّته بعد ذلك إذ غضبت عليه الرعية وأبغضه العساكر وشدّدوا عليه الوطأة ففرّ هارباً إلى خارج مصر فقرر ديوان الإسكندرية حضور أخيه بطليموس سوطير ثانياً فاستقدموه من قبرس فقدم ففرح الناس بمقدمه. وقد شوهد فيه من حميد الطباع وحُسن الأخلاق ما حبب الناس فيه واستمالهم إليه. وكان الإسكندر بعد أن خرج من مصر سار إلى بلاد برقة فاستولى عليها وقصد الاستيلاء على مدينة قبرس فلم يقدر ووقعت بينه وبين الجند المرابطين فيها حروب بحرية هائلة مات فيها وانمحى ذكره وذلك سنة تسع وثمانين قبل الميلاد أى سنة إحدى عشرة وسبعمائة قبل الهجرة ولما استقر المنصب ببطليموس سوطير المذكور دانت له البلاد إلا مدينة طيبة أم الصعيد فإنها لم تبايعه ثانية وامتنع أهلها عليه وشقوا عصا الطاعة فسار إليها فى جنده وقاتل أهلها وهزمهم واستولى على المدينة وقتل وسبى ونهب وسفك الدماء حتى أباد أهلها أو كاد ومحا آثارها وكانت من أعظم مدن مصر وأكثرها عمارة فأصبحت بعد ذلك وكأن لم تغن بالأمس.

وعادت مصر فى أيام بطليموس سوطير هذا إلى شأنها الأوّل كما كانت وصار لها اليد العليا والكلمة النافذة على ممالك بلاد المشرق إذ أعاد لها شوكتها البحرية بتعمير السفن الحربية والتجارية والإقبال على فن الملاحة فرغبت الدول فى معاهدتها وطلب سطريداطس ملك قابودوقياوار منستان عقد عهود المودة والولاء معها وكذلك الرومانيون فدل هذا كله على ما نالته من الشهرة والرفعة فى ذلك الحين وما وصلت إليه من عزة الجانب.

وكان بين ملك قابودوقيا وجمهورية الرومانيين شقاق وخلاف فكان كل منهما يرغب فى معاهدة مصر رجاء الفوز على عدوّه ومع إلحاحهما بطلب معاهدتها فإن بطليموس لم يرض أن يتعاهد مع الفريقين وعقد النية على أن لا يتظاهر بالمداخلة فى حروب الدولتين لأنه كان يخشى اتساع نطاق صولة الرومانيين وقوّة دولتهم لاسيما وقد كانت آخذة فى النماء والزيادة شيئاً فشيئاً فكان لذلك يعاون ملك قابودوقيا على عدوّه سرا.

ومات بطليموس حتف أنفه وترك مملكة مصر فى عز ورفعة عظيمتين جدًا وكان موته سنة خمس وثمانين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وسبعمائة قبل الهجرة فكانت مدّة ملكه وحده ومع أمه كليوباترا ستا وثلاثين سنة فخلفته ابنته كليوباترا برنيقه على

سرير الملك ولكنهـا لم تحكم إلا ستة أشـهر فتولى الملك بـعدها بطليموس العـاشر وبطليموس الحادى عشر.

(فـى الملك بطليموس العاشر وبطليموس الحادى عشر) وهما إسكندر الثانى وأوليطيس

توليا الملك بعد برنيـقة التى لم تحكم إلا ستة أشهر لا غيـر سنة خمس وثمانين قبل الميلاد أى سنة سبع وسبعمائة قبل الهجرة، وكان يعبر عن الأول منهما بإسكندر الثانى وعن الثـانى بعنوان أوليطيس ومعناه الزامر وتحرير خـبر توليتهـما أنه لما مات بطليموس التـاسع كان الرئيس على جمهورية الرومـانيين أميرا اسمـه (سولا) وكان لإسكندر الأول البطليـمـوسى ابن يسـمى إسكندر الثـانى وكان مـقـيمـاً فى ديوان متـريداطس نزيلا فلمـا جاء الأمـير (سـولا) المذكور إلى قـابودوقيـا قائدًا لعـسكر الرومانيين الذين أتوا لقـتال ملكها متريداطس وتنزيـله عن سرير الملك مال إسكندر المذكور إلى الأمـير (سولا) وانضم إليه عـسى أن يكون له عونا يوماً مّـا على ارتقاء كرسى مملكة مصر فـسار إلى (سولا) فأكرم (سولا) نزله وأخذه مـعه إلى رومة بعد انقضاءحـرب قابودوقيا فلما شـاع الخبر بموت سوطير الثـانى أخى الإسكندر المذكور وهو بطليموس التاسع ملك مصر أرسل (سـولا) رئيس جمهورية الرومانيين إسكندر المذكور لتولى ملك مصر بدل أخيه فلمـا وصل إسكندر خشى الفتنة فعمد إلى حسم أسبـابها ومنع كل خلاف بينه وبين الملكة كليـوباترا برنيقة فـتزوج بها وشاركـها فى الملك ولم يلبث معها إلا ستة أشهر حتى قام عليها وقتلها واستبدّ بالملك ولقب نفسه ببطليموس العاشر.

ولما رأى كبار العـساكر المصرية أن بطلـيموس المذكور معـوّل على دولة اليونان ومعتمد عليـها. وقد كان المصريون يعتبرونها أجنبـية عنهم ولا حق لها فى التداخل فى مصالح بلادهم عقدوا النية على قتله والتخلص منه ودبروا الأمر وأحسنوا تدبيره فقتلوه ذبحاً فى ملعب بمدينة الإسكندرية بعد تسعة عشر يوماً من استقلاله بالملك.

ولم يكن إذ ذاك للبطالسـة اللاغوسيـة أولاد ذكور من نكاح صحـيح وإنما كان لسوطير الثانى ولد من السفاح اسمـه بطليموس أوليطيس يعنى الزامر لولوعه بسماع المزمار فولاه المصريون ملكاً عليهم ولقبـوه ببطليموس الحادى عشر وتولى الملك وهو موسـوم بأمرين يعدّان من أقبح الصـفات (كمـا قال بعض الكتاب) وأكبـرهما عند

المصريين أولهمـا كونه من السفاح وثانيـهما ارتقاؤه المنصب الملوكى رغمـاً عن رغبة الجمهوريـة الرومانية بدل الذى كانت الجمهـورية انتخبته وانتظم فى عداد مـعاهديها وكان يتوقع من الجمهورية المذكورة أن لا تعترف بملوكية بطليموس المذكور فلم تلبث أن أعلنت بعـدم اعتبـارها لولايته وأن سـرير ملك مصـر لم يزل خاليـاً من الذات الملوكيـة التى تستحق التوليـة المعتبرة وأن المنصب الملوكى قـد خلا عن وارث له من السلسلة الملوكيـة فوجب لذلك أن يكون تحت كفالة جـمهورية رومة بمقتـضى وصية إسكندر الثانى ملكها. قالت وسواء كانت هذه الوصية صحيحة أو ادعائية فهى على كلتا الحالتين واجبة التنفيذ طوعا أو كرها.

وكان فى هذا الحـين بأرض الشام من ذرية بطالسة مصـر بعض بنات قد خلفن ذكورا وإنـاثاً من ملوك الشام فكن يطالـبن أيضاً بحـقوقـهن فى المنصب ويرغبن فى تقديم أولادهن على بطليموس الزامر فأكـثرن من الشكوى مما فعله المصريون، وكان ممن يطالب أيضاً بمثل هذا أخت بطليمـوس سوطير المسماة سيـلانة التى كانت زوجة بطليموس القـوزيقى صاحب الشام. وكان قد بقى لها من تعلقـات ديار مصر بعض مدن على سواحل الشام كمدينة عكا وكان لها ولدان من ملك الشام المذكور أحدهما يسمى أنطيـوكوس، والثانى يسمى سـيليقوس فبـعثت إلى إيطاليا ابنيـها لتطلب من جمهورية رومة أن تسعى فى ارتقائهما المنصب الملوكى بدعوى أن المملكة المصرية قد انتقلت إليهـما بطريق الميراث من جهة أبيـهما فأحس بطليـموس الزامر بذلك وبعث إلى روميـة من قبله سـرا عدّة سفـراء ليعارضـوا فى مطالب الملكة سيـلانة ويمنعوا أنطيوكـوس وسيليقـوس من دعوى ذلك لأنهما مـن أمراء الشام لا من أمراء مـصر وليستـميلوا بالرشا والبراطيل بعض أمـراء الجمهورية الرومانيـة ليكونوا له عونا على تنفيـذ أغراضه فـترتب على ذلك أن وقـعت المذكرات والمداولات فى مـجلس رومة وتكرّرت بشـأن مـا يجب فعله فـى مملكة مصـر. وفـيمـا إذا كـان يصح أن ترسل الجمهـورية إليها جنودا رومانية ليقـيموا فيها إقـامة مؤقتة لمنع الاختـلال وحفظ قوام المملكة وتثـبيت أقـدام بطليمـوس الزامر وكـان الحامل على هذه المذاكـرات وتوالى الاجتماعات هو ما كان سفراء بطليموس المذكور يدفعونه من الرشوة والهدايا النفيسة فلم تنحل هذه العقدة لهذا السبب ولسبب آخر وهو اشتغال الدولة الرومانية بالحرب التى كانت قائمة بينهـا وبين متريداطس ملك قبادوقيـا فكانت هذه الحرب عائقة عن التفاتـها لأمور المملكة المصرية وتنجـيز أغراضهـا فيها وما زال الحـال بين أخذ وردّ والسـفراء تغـدو وتروح بين رومة ومـصر حـتى تمت هزيمة ملـك قبـادوقيـا وفرغ

الرومانيون من قتاله فصرفوا الهمة لمصلحة مصر ووجهوا نحوها سهام أغراضهم وطلب اقراسوس ويولوس قيصر رئيسا رومة يومئذ من مجلس الجمهورية أن يبعثهما من قبله إلى ديار مصر لإجراء ما تقتضيه مصلحتها فلم يقبل المجلس ذلك وفى سنة أربع وستين قبل الميلاد أى سنة ٦٨٦ قبل الهجرة طلب المستشار (دولوس) من المجلس المذكور أن تضاف مملكة مصر للمملكة الرومانية. وتكون إيالة ملحقة بإيالة رومة، وكان فى المجلس وقتئذ (قيقرون) الخطيب الذى يقال له أيضاً (شيشرون) وهوخطيب مصقع مشهور بالفصاحة وحسن الخطابة فقام وخطب وأكثر من البراهين القاطعة على عدم موافقة إضافتها لما فى ذلك من مخالفة أحوال الملل والدول واحتج على وجوب استقلاليتها وأن تكون قائمة بنفسها مستبدة بأحكامها كما يقتضيه موقعها الجغرافى فحكم المجلس بناء على ذلك بتخليص مصر من ورطة التبعية لرومة وقضى بإبقاء استقلالها بنفسها على حاله وعدم التعرض لها بشىء ألبتة.

وبينما كانت الجمهورية المذكورة تتوعد مصر بإدخالها فى عداد إيالاتها وتهدّدها بتبعيتها لها كان من بطليموس ملك مصر أن صرف وجهه عن موالاة الجمهورية المذكورة ومصادقتها فى الباطن ولبث يراقب الحوادث فلما قامت الحرب بين متريداطس وبينها كما تقدم القول عمد بطليموس إلى ملازمة الحيادة وعدم التعرض للفريقين ولم يمدّ يد المساعدة للرومانيين بشىء ما ألبتة. ولم يساعد دمتريداطس أيضاً مساعدة ظاهرة ولكنه كان يكاتبه سراً ويطلعه على بعض الأمور فلما عاد جيش الرومانيين من هذه الحرب وكان الرئيس على الرومانيين يومئذ الأمير بومبيوس وكان قد نزل بالشام فبلغه فى طريقه موت متريداطس عدوّ الرومانيين فعرّج على حدود الديار المصرية فعلم بطليموس ملكها بوصوله وتخوّف منه فأرسل إليه هدايا فاخرة وواساه كل المواساة ورغب إليه أن يعينه على رعيته، وكانوا قد قاموا عليه فى هذا الحين وأضرموا نار الفتنة فى جوف البلاد فلم يقبل بومبيوس دخوله مصر وامتنع من إغاثة بطليموس فألح عليه وطلب منه العون والمحاماة فعاد لإجابة طلبه وأسكن تلك الفتنة فلما سار بومبيوس لحصار بيت المقدس أعانه بطليموس ملك مصر بالمال وأمده بذخائر الحرب فلما عاد بومبيوس إلى رومة وكان قيصر ملكها لم يزل فى منصبه الملوكى وكان بينه وبين بومبيوس محبة أوصاه على بطليموس ملك مصر واستماله إلى جانبه فجعله القيصر تحت حمايته وطلب من مجلس رومة أن يقره على ملوكية مصر بعد أن كان قد قضى قبل ذلك بنزع الملك من يده وذلك سنة تسع وخمسين قبل الميلاد أى سنة إحدى وثمانين وستمائة قبل الهجرة.

وأنفقت السلالة اللاغوسية الأموال الكثيرة فى الحصول على حماية رومة حيث قرر بعض أرباب المجلس الرومانى بعد ذلك بمدّة يسيرة إجابة لأغراض بعض أعضاء مجلس الأمة نزع ملكية جزيرة قبرس من يد ملكها الذى هو أخو بطليموس الزامر وإضافتها إلى أملاك رومة فأجيب إلى ذلك وابتلعت رومة جزيرة قبرس مضغة لينة فأغضب ذلك ديوان الإسكندرية وأهلها لأنهم كانوا إلى ذلك الحين شديدى الحرص على المحافظة على ناموس وطنهم وصيانة أملاكهم أكثر من تمسك ملوكهم بذلك فطلب أهل الإسكندرية من بطليموس الزامر أن يبذل الجهد فى نقض معاهدة الرومانيين وأن يهبّ إلى نزع قبرس بالقهر والغلبة ويعيد أخاه ملكا عليها كما كان وقد كان بطليموس فى هذا الحين لا يقوى على هذا الفعل ولا تؤمل منه القدرة على حماية البلاد فلم يوافقهم على ذلك فقاموا عليه وأثاروا الفتنة فهرب من مصر خفية إلى رومة يطلب الإعانة والمدد.

وكان الرومانيون قد أقاموا الأمير (قاطون) حاكما على جزيرة قبرس وسار حتى وصل إلى جزيرة رودس فلحق به بطليموس الملك بعد خروجه من مصر ليزوره فلم يحتفل به ولم يكرم وفادته ولامه على تركه مملكته وخروجه منها وأشار عليه أن يركب معه فى سفنه ليوصله إلى مصر ويتوسط له فى الصلح مع الرعية وأكد عليه فى ذلك فأبى بطليموس الرجوع. وقال: إن مدّ يد السؤال على مساعدة رومة لأهون علىّ من عودى إلى مصر وطلب الصلح مع الرعية.

واتفق أنه فى خلال هذه المدة انقطعت أخبار بطليموس الزامر عن مسامع أهل مصر ولم يقفوا له على أثر فظنوا موته وكان له بنتان كبيرتان وهما (قلوبطره طروفانه) و(برنيقة) فاتفق أهل البلاد على توليتهما الملك وبعثوا سفراء إلى الشام يطلبون من أنطيوكوس صاحبها الذى هو خال (كليوباترا)، و(برنيقه) المذكورتين أن يحضر إلى مصر ويشارك برنيقة وأختها فى أحوال المملكة، وكان أنطيوكوس فى هذا الحين قد خلع من ملك الشام وكان الذى خلعه بومبيوس رئيس رومة بعد طرد الرومانيين ملك الأرمن فلما ذهب السفراء لطلبه لم يجدوه على قيد الحياة وفاته المنصب الملوكى كما فات أهل الإسكندرية غرضهم من التعاون به فعرض السفراء هذا المنصب على فيلبس أحد أقاربه للياقته للتملك على البلاد ورد الأجانب عنها فمنعه غابنيوس كبير العسكر الرومانى عن المسير إلى الأسكندرية وحال بينه وبين هذه الأمنية فتكلم السفراء مع الأمير سيليقوس أخى أنطيوكوس صاحب الشام فقبل المنصب وسار إلى مصر فوجد كليوباترا طروفانه إحدى الملكتين قد ماتت بعد أن

حكمت مع أختهـا برنيقه سنة كاملة وبرنيقـه منفردة بحكم البلاد فتزوّجهـا واشترك معـها فى المنصب ولكنه لم يعش مـعها إلا قـليلاً حتى قـتلته خنقـاً وتزوّجت بعده أرخيلاوس كاهن هيكل البستان بيـلاد الأرمن وبقيت معه. ويقال أن أرخيلاوس هذا هو ابن متريداطس الأكبر ملك الأرمن.

أما بطليموس الزامر فكان قد انتقل من جزيرة رودس ووصل إلى رومة وتداخل مع أرباب الحل والعقـد ورجال الجمـهورية ودبر جمـيع ما قدر عليـه من الدسائس والحيل وتوسل إلى الرومـانيين ليرجـعوه إلى منصبه ملـكاً على مصر فأرسلوا مـعه الأمير أنطونيوس الشهير الذى تقلد بعد هذا الحـين قونصلية رومة. وكان وقت بعثته فى هذه السفـارة قد تقلد إمارة قبـادوقيا . وبلاد الأرمن فتـعهد للرومانيـين بإدخال بطليموس إلى مصر وردّ تاج الملك إليه رغم أنف كل مكابر.

واتفق أن حصل فى ذلك الوقت خلاف وشـقاق بين أعضاء جمعـية رومة أدى إلى المشاجرة والمهـاترة فتولد من ذلك قيام الـفتنة فى داخل البلاد واستفـحال أمرها فغـضب بومبيوس رئيـسها وخـرج من مدينة رومة فعـاقت هذه الإحن تنجيز سـفر بطليموس الزامر إلى مصر. وقد كان بومبيوس مظاهرا لبطليموس ومناصرا لأغراضه فبقى بطليموس فى رومـة لا يحرك ساكناً أما أهل الإسكندرية فإنه لما اتصل بهم أن بطليمـوس على قيد الحياة وأنه يسـعى سعيه فى رومـة أرسلوا إليها سفـراء لإحباط مسـاعيه والعمل على نـقيض مراده وأجازوا لهم أن يعـدّدوا معايبـه ويترافعوا مـعه بالنيابة عن أهل البلاد فى مجلس فاحتال بطليموس الزامر على قتل أكثرهم واستمال رئيسهم المـسمى (ديون) وباعد بينه وبين مأمـوريته بالرشا والبراطيل فلم يفـعل منها شىء وأبطأت رغـائب بطليـموس من رجـوعـه إلى منصب الملك إلى سنة خـمس وخمسين قبل الميلاد أى سنة سبع وسبعين وستمائة قبل الهجرة حتى تولى بومبيوس الحكم على جمـيع الرومانيـين وتلقب بلقب قونصل عليهـم فلما استـقر به المنصب كتب إلى غابنوس قائد العسكر الرومانى المأمور بغزو بلاد الفرس أن يسير ببطليموس إلى ديار مصر ويعيـد إليه تاج الملك وسير إليه بطليمـوس المذكور بالشام فلما وصل وجد غابنوس على عـزم عبور الفرات ليـعيد متريداطس الثـالث على إحدى ممالك فارس. وقـد كان طرده أخوه منها فـخشى بطليمـوس العاقبة وتقـرب إلى غابنوس بالرشا والبراطيل ووعده بالأموال فلما طن فى أذنيه صوت الدرهم والدينار مال إلى قضاء مـصلحة بطليموس وترك مـأمورية متريداطس فـصارت نسيًا منسـيًا ومع كون قانون الرومـانيين لا يجيـز للولاة الخروج عن إيالاتهم بل يجـيز لهم أن يرسلوا من

يقوم مقامهــم فى مثل هذه المهمات فإن غابنوس قام مع بطليمـوس الزامر إلى مصر وترك لولده تدبير البلاد فى غـيبته وأخذ من اليهود المـدد فأمدوه بأصناف الإمدادات وسلم قيادة جيشه إلى مرقوس انطنيوس محب بطليموس (الذى سيأتى بيان اشتراكه مع كليوباترا ملكة مصر فى التسلط على المملـكة فى محله) فوصل مرقوس المذكور أما مدينة الفرما وقاتلها وتغلب عليهــا وقيل أنه أخذها بدون قتال بخيانة من بها من اليهــود فقدم أرخيـلاوس زوج الملكة مسرعــا إلى ساحة القـتال، وكان شجـاعا فى الحروب صنديدا فى الشـدائد والخطوب، وهجم على جند غابنوس على مـقربة من الفرما فانهزم عسكره ودخلت عساكر الرومانيين أرض مصر من البر ودخلت سفنهم قهــرا من البحر ومخـرت فى النيل وسارت وهى صاعــدة بلا ممانع ومع كراهة أهل الإسكندرية لبطليموس الزامر فى الظاهر والباطن وعـدم توقعهم منه إلا السوء فإنهم بمجرد ما رأوه وقد وفد عليهم وصار بين ظهرانيهم ورأوا من أرخيلاوس زوج الملكة تصميماً على دفع جيوش الرومانيين وممانعتهم على قدر الاستطاعة وأنه على عزم أن يجهز مدينة الإسكندرية للمحاصرة والدفاع خشوا العاقبة وكرهوا المدافعة لظنهم أنها لا تأتى بالأثر المطلوب وكـثـر تحدثهم فى هذا الأمـر لا سـيمــا لما رأوا أرخيــلاوس المذكور يرسم خطوط الاستـحكام ويخطط أخاديد هندسية ويحفر الخنادق لـلممانعة فأحس أرخيلاوس منهم بذلك ولوى عنان جـهده عن هذه الخطة وركن إلى المهاجمة رجاء الظفــر والتأييد ولكنه خـاب فى عزيمته. وانهــزم وقتل فى هزيمتــه فلما علم أنطونيوس قــائد العسكر الرومــانى بقتل أرخيــلاوس رثى لحاله وتأسف عليــه وشيع جنازته بأعظم أبهة واحتفال لأنه كان أضافه قبل ذلك بمصر فأكرم ضيافته واحتفل به غاية الاحتفال فلم ينس له هذا الجميل.

وبموت أرخيلاوس استقرّ الحال لبـطليموس الزامر وجلس على سريرالملك ثانياً. وقبض على زمــام الحكم بعناية الرومانيــين ثم لم يلبث أن سلك فى الانتــقام أشنع المسالك وقـتل بنته برنيـقة وكثـيراً من الأغنيـاء والأعيان وضـبط أموالهم وسلمــها للرومانيين العاملين معه فعاد غـابنوس وقائد عسكره أنطنيوس إلى أوطانهما مثقلين بالذخائر والتـحف والأموال الكثيـرة وقد ترك غابنـوس لبطليموس من يحـرسه من أبطال الغالبـين الذين هم قدماء الفرنسـيس ولم يفعل بطليمـوس المذكور شيئـاً لخير البلاد ولا لفائدتها فى مدة حكمه الأولى والثــانية ومات فى عنفوان شبابه سنة ثمان وأربعين قبل الميلاد أى نحـو سنة سبعين وستمائة قـبل الهجرة فكانت مدة ملكه مع مدة من حكم قبله وبعد حكمه الأول نحو تسع وثلاثين سنة.

وكان قد أرسل قبل موته إلى مدينة رومة سفراء ومعهم وصية لمجلس الرومانيين ليحفظهـا بومبيوس تحت يده تتضـمن وصايته بمملكة مصـر لأكبر أولاده وبكر بناته بشرط عقد الزواج بينهما عند بلوغهما سن الزواج وأن يشتركا معا فى الملك شيوعاً، وأن يكون الوصى عليهما الأمة الرومانية، وأن تعـاملهما بمنطوق المعاهدة المبرمة بين الجمهورية والدولـة المصرية فقام بومبيوس بتـنفيذ هذه الوصية وعمل بحكم مـا فيها على الوجه الآتى.

(فى الملك بطليموس الثانى عشر)

(الملقب)

(بدنيس يعنى الخمار)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الثانى عـشر الملقب بدنيس ومعناه الخمار كما أوصى أبوه وذلك سنة ثمـان وأربعـين قبل الميـلاد أى سنة سبـعـين وسـتـمائة قـبل الهجرة، ولم يكن عمره يومئذ إلا ثلاث عشرة سنة فكان قاصرا وكان عمر كليوباترا الشهـيرة الموصى لها بالملك بـالمشاركة مع أخـيها سبـع عشرة سنة، فكانت مـتأهلة للسياسة وتدبير الأمور منحصر فيها دون أخـيها لعدم أهليته ورشده فأقيم عليه ثلاثة أوصـياء من أعـيان المملكة المصـرية وهم (بوطين الطواشى)، و(طيـودوطس) وزير الداخلية و(إخيلاس) رئيس الجند، وكان هؤلاء الثلاثة أعداء كليوباترا يكرهونها ولا يرغبون فى اشتراكـها مع أخيها فى الملك ولما صدق مجلس رومة عـلى تنفيذ وصية بطليمـوس الزامر واستقـرّ الملك ببطليموس الثانى عـشر وأخته كليـوباترا انتظما فى سلك الملوك المعاهدين للرومان، وكانت رياسة الدولة الرومانية فى هذا الحين فى يد أميريـن وهما (يولس) قيصـر و(بومبيوس) وكـانت قد ظهرت بينهمـا العداوة ووقع الفشل والاختـلال فانقسم لذلك الرومانيـون إلى حزبين متخاصـمين وانفرد كل من الرئيسين بحزبه فكان من وراء ذلك اشتداد الخصام ووقوع القتال بين الفريقين وإراقة الدماء هدرا فـعزم بومـبيوس عند ذلك على أن يهـاجر من رومـة إلى بلاد اليونان، وكانت يومئذ مـعدودة من الإيالات الرومانية وتهيأ للارتحـال فأرسل أكبر أولاده مع قائد من حزبه اسمه (قورنليوس سبيوس) إلى مـصر ليجمع منها عسكراً يستعين بهم على خصـمه قيصـر فأمدّته كليـوباترا بالزاد والراحلة وأعانته بسـتين سفينة حـربية وبالأبطال الغاليين الذين كـان انتقاهم غابنيوس لحراسـة الملوك البطالسة عندما أرجع

بطليموس الزامر إلى منصبه، وكان عددهم خمسمائة مقاتل فسار ابن بومبيوس إلى أبيه بهذا المدد ولم يكن على غرض الأوصياء فحقدوا لذلك على كليوباترا هذا الصنيع وحرضوا أهل الإسكندرية على الخروج عليها فثارت فتنة عظيمة واتسع نطاقها وكادت تعم البلاد فخافت كليوباترا على نفسها وفرّت إلى الشام مع أختها الصغيرة المسماة ارسنويه.

أما يولس قيصر فإنه قاتل بومبيوس وثابر على قتاله حتى هزمه عند مدينة فرسة بولاية ترحالة ففر بومبيوس هارباً إلى مصر وكان بطليموس الثانى عشر قد بلغ أشدّه فعزم على السفر من الإسكندرية ليقفو أثر أخته كليوباترا ويقاتلها فرأى سفن بومبيوس مقبلة وعلم أنه جاء مستنجدا لما له عليه من الأيادى البيضاء فلم يحسن بطليموس نزله ولم تستفزه النخوة لأن يأخذ بيد بومبيوس ولا تحرك خاطره لاستصراخه بل قبض عليه وقتله ولم يراع حقوق الذمة.

وكان قيصر متتبعا أثر خصمه بومبيوس فى كثير من سفن الحرب فحضر إلى الإسكندرية يبحث عنه ليقبض عليه، وكان بطليموس إذ ذاك بقرب الفرما يريد المسير إلى الشام فرجع على الفور إلى الإسكندرية. فلما أرسى قيصر بسفنه نزل إليه طيودوس وزير بطليموس ووضع بين يديه رأس بومبيوس فلما رآها قيصر فاضت عيناه بالدموع ورثى لحاله وظهرت عليه علامات الحزن والأسف وجهزه بكمال الأبهة والاحتفال وغضب مما فعله بطليموس وعزم على الانتقام منه جزاء ما فعل ببومبيوس وسيأتى بيان سجنه له ثم إطلاقه بشروط ثم إغراقه مع جنده فى النيل فكان ما فعله قيصر فى حق بومبيوس بعد موته نظير ما فعله الإسكندر الأكبر فى حق دارا ملك فارس خصمه بعد موته بقتل أتباعه له حيث أسف عليه جداً وقتل قاتله.

ولما لم يكن لقيصر رغبة سوى الحصول على غريمه بومبيوس. وقد قتل سار عن مصر إلى مدينة أفريقية حيث كان قد اجتمع فيها من بقى من أحزاب بومبيوس ليشتت شملهم فعاقه عن المسير اختلاف الرياح فاضطر إلى الإقامة بالإسكندرية زمنا ليس بقصير. وقال بعض أهل التاريخ بل لتعلقه بحب كليوباترا التى كان قد أحضرها معه من الشام وأعادها إلى منصب الملوكية مع أخيها وقد أخذت بمجامع قلبه لفرط جمالها فأقعده حبها عن الرحيل، وكان أهل الإسكندرية مولعين بحب الاستقلال يبالغون فى محبة حريتهم ويكرهون جداً تحرش الرومانيين لأمور بلادهم فلما حضر قيصر المذكور إلى ديار مصر وأصلح بين كليوباترا وبطليموس أخيها المذكور أغضب ذلك المصريين فشكى (بوطين) الطواشى للوجوه والأعيان من ذلك

وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى. وقال أن فعل قيصر هذا يعد هتكا لناموس البلاد وشرفها ورسم للأمير ارخيلاس قائد الجيوش المصرية بأن يزحف على مدينة الإسكندرية بجنده ويقاتل بطليموس الملك فقام ارخيلاس بجيشه وهجم على بطليموس وهو فى قصره فهرب بطليموس ولحق بمعسكر قيصر، وكان قيصر فى هذا الحين قد صرف جنده فرحلوا عن الإسكندرية ولم يبق منهم إلا ثلاثة آلاف. فلما دخل عليه بطليموس ورأى من كثرة عدد جند ارخيلاس ارتبك فى أمره وخاف على المدينة وما فيها من الأرواح والأموال فنشط إلى تسكين الفتنة وقرأ على أهل الإسكندرية وصية آخر ملوكهم ووعظهم الموعظة الحسنة ليدفعهم بالتى هى أحسن ورغب إليهم فى أن يعطوا ذرية بطليموس الزامر جزيرة قبرس وهم أرسونية وبطليموس القاصر ليشتركا فى مملكتها وألزمهم بذلك بصفة كونه رئيس الرومانيين والقائم بتنفيذ وصية ملك مصر وأكثر من مسايرة الرعية وتسكين الخواطر حتى انقطعت الفتنة وزالت أسبابها ولكنها لم تلبث أن عادت واضطرمت نارها بتحريض جماعة الوزراء حرصا على منصب وصايتهم وكرها فى انتقاله إلى الرومانيين وزادوا نار الفتنة إضراما واتحد (بوطين) الطواشى الوزير مع أرخيلاس قائد الجيوش على إهلاك قيصر ومن معه من الرومان فزحف أرخيلاس بجيشه. وكان عدده اثنين وعشرين ألفا إلى الإسكندرية ونصب معسكره أمامها وأعلم قيصر بأن إطفاء نار الفتنة لا يكون إلا بتسليم كليوباترا للشعب لينتقم منها كما يشاء فلم يرض قيصر بذلك واختار الإقامة تحت الحصار والتضييق واحتمل ما لا يحتمل ولم يرض بتسليمها للشعب يستبيحون دمها فهجم أهل الإسكندرية ليأخذوا سفن حربه فلم يمكنهم من ذلك وأضرم فيها النار فأكلتها وتطاير اللهيب منها إلى القصر الملوكى فأحرق دار كتب البطالسة الموصلة إلى هذا القصر وقد كانوا جمعوا فيها من نفيس الكتب من جميع الدنيا شيئاً كثيراً مع ما تجدد عندهم من التآليف المفيدة، قلت ولم يقم على صحة هاته الرواية دليل ولا برهان. قال بعض الكتاب ومن هنا يتضح أن نسبة إحراقها إلى عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب محض اختلاق والله سبحانه أعلم بالحقائق.

وبينما كانت جند قيصر مع قلة عددهم على شفا الهزيمة إذ جاءهم الفرج بغتة بقدوم فريق من الجنود الرومانية وذخائر مع أشياء كثيرة فتلقاها قيصر بنفسه فرحاً مسروراً وركب وقاتل قتالا عنيفاً جدا حتى تمت له النصرة وهزم أهل الإسكندرية شر هزيمة حتى التجئوا إلى طلب الصلح وأرسلوا إلى قيصر رسلا مفوضين فى ذلك

فقابلهم وطلبوا منه إطلاق بطليموس الثانى عشر وكان قد اعتقله على شروط معلومة فاتفقوا ثم أطلقه وهو عالم بغدره وخيانته فلما خلص بطليموس من الأسر تأهب لقتال قيصر وأعدّ لذلك جيشاً عظيماً، فساعد الحظ قيصر إذ قدم عليه دمترا يداطس صاحب (برغام) ومعه جميع الجنود الرومانية الذين كانوا فى هذا الحين فى الأناطول والشام وفلسطين فتقويت عزيمة قيصر واشتد أزره، وكان قد سار بمن معه من الجنود قاصدا الديار الشامية فلحقه بطليموس الثانى عشر فى طريقه وهجم عليه بعسكره المصرى فقامت على بطليموس عساكر اليهود على ساحل النيل واحتدم القتال بين الفريقين فانهزمت جنود مصر شر هزيمة، وفرّ بطليموس مع فريق من قومه فأدركهم فرسان قيصر على الساحل فغرقوا جميعاً فى النيل وهلك بطليموس فى جملة من غرق وقذفهم اليم بالساحل فعرفت جثته بما وجد عليها من الدروع المصوغة من ذهب. وذلك سنة سبع وأربعين قبل الميلاد أى سنة تسع وستين وستمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه خمس سنوات وخلفه أخوه بطليموس الثالث عشر.

(فى الملك بطليموس الثالث عشر)

ثم قام بالأمر بعده أخوه بطليموس الثالث عشر سنة سبع وأربعين قبل الميلاد أى سنة تسع وستين وستمائة قبل الهجرة بأمر قيصر وذلك لأنه بعد أن فاجأت جنوده قوم بطليموس الثانى عشر على ساحل النيل وأغرقتهم رجع قيصر إلى الإسكندرية وتغلب عليها بمن معه من الرومانيين وسار إلى مصر فأخذها وصارت البلاد فى قبضة يده ولو شاء يومئذ لضمها لأملاك رومة وجعلها مملكة واحدة. قال أصحاب التاريخ ولكنه راعى الذمم وحافظ على العهود. وقام بتنفيذ وصية بطليموس الزامر وآثر تنفيذها على أطماعه فولى بطليموس الثالث عشر المذكور، وكان قاصرا فأشرك معه أخته كليوباترا فى حكم البلاد وأبقى لحرس كليوباترا وصيانة مملكتها فريقاً من الجند الغالبين الذين هم قدماء الفرنسيس واستصحب معه إلى رومة أختها ارسنوية إذ لو تركت بمصر لقامت بتركها الفتنة فدخلت إلى رومة أسيرة كأنها من غنائم قيصر التى غنمها من مصر وسارت فى الموكب الذى انعقد لقيصر عند دخوله مدينة رومة فخلا الجو لكليوباترا وتصرفت فى ملك مصر التصرف المطلق، وكان زوجها الذى هو أخوها ليس له فى الملك إلا الاسم فقط.

وبعد جلوس بطليموس الثالث عشر المذكور على سرير الملك بسنة واحدة سارت كليوباترا وزوجها لزيارة رومة فتلقاهما الرومانيون بالبشر والإيناس وأكرموا

وفادتهما ولبثا فيها ما شآ ثم رجعا إلى مصر فمات بطليموس بعد رجوعه بسنتين فكانت مدة حكمه ثلاث سنين. وقال جماعة: إن أخته كليوباترا هى التى دست له السم فى الدسم وبقيت قلوبطره بعد موته ملكة على مصر بحماية قيصر حينا من الدهر . وفى خلال ذلك قويت شوكة قيصر وعظم بأسه وظهر منه قصد التعدى على حقوق الجمهورية الرومانية وبدت منه بعض الأمور الدالة على ذلك وكان حزب الجمهورية شديد البأس مسموع الكلمة وبينهم شجاع اسمه (يرطوس) دعى مجهول الأب إلا أنه كان من الشهرة بمكان ميالا للجمهورية محباً لمبادئها، وكانت أحزاب الجمهورية لما رأت ما رأته من قيصر المذكور أضمرت التخلص منه وعزمت على قتله فتقدموا إلى (يرطوس) فى ذلك. وقالوا له لو كنت بطلا كما تزعم الناس لما بقينا فى العبودية على هذه الحالة فتمكن الإغراء من قلبه. وقال للأحزاب لا تقنطوا ثم لم يكن بأسرع من أن جرد خنجره وأقبل على قيصر وهو فى المحفل العام فطعنه طعنة قاتلة فرفع قيصر عينه إليه. وصاح (قد طعنت أباك ياهذا) قيل وقد كان (يرطوس) هذا ابن قيصر المشار إليه من السفاح وإلى وقت قتله لقيصر كان لا يعلم أنه أبوه فندم ندماً شديداً.

وبموت قيصر أصبحت مملكة مصر فاقدة النصير، وكانت كليوباترا تخشى من هجوم قسيوس الرومانى صاحب الشام فخاطرت بنفسها والتجأت إلى المجلس الرومانى وتوصلت بعد موت أخيها بطليموس إلى تمليك أصغر أولادها الذى زعمت أنها ولدته من قيصر ولقبته بطليموس قيصرون يعنى القيصر الصغير (قلت) ويلقبه بعض المؤرخين ببطليموس الرابع عشر، وكان انطنيوس أحد الشركاء فى دولة الرومانيين قد رأى كليوباترا فعشقها ووقع فى شرك غرامها بعد موت قيصر فجعلها تحت حمايته ودافع عنها ثم تزوج بها وارتبط تخته بتختها وذلك أنه لما أدخلها تحت حمايته أراد غزو مملكة من ممالك العجم فعزم على المسير إليها ولكنه ارتاب فى رئاسة قلوبطره المذكورة واشتبه فى أمرها وخشى أن لا تكون صادقة فى محبتها وربما أعانت أخصامه عليه فأراد أن يتحقق أمرها ويعلم خفى سرها فشدد عليها فى الامتحان وطلب منها شيئاً كثيراً من المال فبذلته ولم تقصر فعزم عليها أن تسير من مصر بعد وصوله إلى مدينة طرسوس وتلحق به هناك، وكانت هى لا تعلم منزلتها عنده وما لها فى قلبه من شدة المحبة وأنها متسلطة على فؤاده فسلكت مسلك الدلال والخفر ولم تبادر كطلبه إلى السفر ثم لم تلبث أن حملها الهوى على المسير فسارت حتى وصلت إلى أيالة سلفكه فركبت نهر قراصو الذى هو نهر طرسوس وسارت فى

سفينة مذهبة الأطراف والأكناف أرجوانية القلاع والستائر، وكانت مياه البحر تضطرب بالنسمات على نغمات العيدان والمزامير وروائح البخور يعبق شذاها فى سائر الأرجاء فتكتسب الروائح المسكية ويفوح منها إلى سائر النواحى روائح الطيب الذكية حتى امتلأت شواطىء النهر من رياها. قال بعض الكتاب فلما لمح أهل طرسوس أن قد حل عليهم كوكب الزهرة المصرية هرعوا جميعاً إلى هذا النهر لمشاهدتها وحيوها بأعظم تحية ولم يتخلف عن الحضور سوى أنطنيوكوس إذ بقى فى مجلسه مظهرا التجلد وعزة النفس واستدعاها لتحضر أمامه فلم ترض إلا بحضوره إليها وإقباله عليها فأجاب إلى مطلوبها ولبى دعوتها كمرغوبها فلما قدم عليها ونظر حسنها وبهاءها تعجب من ذلك وأخذ حبها بمجامع قلبه فأدخلها فى مجلسه الملوكى وهيأ لها الولائم وزين لها المجلس بأفخر زينة وأصبح طوع يدها وأسير هواها وقضت معه أياماً ثم جاءت به معها إلى الإسكندرية وانعقد بينهما عقد القران بالوجه الرسمى فبقى معها وقد ذهل بجمالها عن كمالها حتى إنه غادر الوظيفة وأقام مع هذه الأليفة وما فصله عن مواصلة هذه اللذات ولا أخرجه من التمتع بجمال هذه الذات إلا تهديده من مجلس رومه بتجريده من منصب الحكومة وخوفه من انفراد اقطاوس قرينه بالرئاسة فخرج من مصر مكرها وسار إلى إيطاليا ثم سار منها إلى بلاد الشام ليجهز فيها معدات الحرب لغزو الأعجام فقابلته كليوباترا فى تلك الأقطار لتقضى ما فى النفس من الأوطار وطلبت منه أن يضيف إلى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على بحر سفيد وأن تضاف إليها أيضاً جزيرة قبرس وجزء من أناطول وبلاد يهوذا الموصوفة بالبلسم فى تلك الأزمان وطلبت أيضاً أن يعطى لها بلاد العرب والحجاز إلى بحر الهند كى تكون هذه البلاد مضافة لدولة الإسكندرية لأن أهلها أرباب صناعة وتجارة قاصدة بذلك أن تعود المعاملات بينها وبين مدينة الإسكندرية كما كانت فى الأزمان القديمة وتعوض ما فات إذ كانت فى هذا الحين قد تضعضعت معاملة الإسكندرية وتلاشت تجارتها أو كادت من عهد تدمير مدينة صور وخرابها التى هى شقيقة الإسكندرية على أنه من يوم انقراض دولة العجم لم يبق لمدينتى صور والإسكندرية إلا مجرد الاسم وتجهز أنطنيوس لقتال العجم وسار بجيشه ولكنه عرج على مصر ليقوم بما طلبته منه قلوبطره وأطال المكث معها وهو لا يستطيع الخلاص من أسر جمالها بل نسى مقام وظيفته وأخذ فى أسباب إضعاف الجمهورية الرومانية فأعطى عنوان الملك لولديه من كليوباترا المذكورة وقسم الممالك التى عزم على غزوها بينهما دون سواهما وجرد رومة من جميع هذه

الممالك ولم يراع حقوق بلاده وأعماه العشق والغرام فخالف عوائدها وجعل ابنه إسكندر ملكا على أرمينية وأذربيجان وفارس وقلد ابنه الثانى بطليموس ملك سواحل الشام ودمشق وأناطول ثم أحضرهما أمام جمهور الأهالى بالمظهر الملوكى المعتاد فى مثل هذه الولائم فألبس الأكبر التاج والحلة الملوكية فى زى ملوك الأرمن وأذربيجان وألبس الثانى التاج والحلة الملوكية فى زى ملوك الطوائف الذين خلفوا الإسكندر على الممالك اليونانية فصارت كليوباترا منذ ذلك العهد لا تخرج من قصرها إلا بالملابس الملوكية.

وكان فى عصمة انطنيوس زوجة أخرى رفيعة الحسب وهى (أوقطاوية) أخت أقطاوس شريك انطنيوس فى رئاسة الجمهورية الرومانية، وكان اقطاوس المذكور يحقد على انطنيوس فعله ويقبح معاملته لزوجته أوقطاوية وينهاه حتى اشتدت الخصومة بينهما بسبب ذلك ففارق انطنيوس زوجته أوقطاوية وقاطعها وبقى مع كليوباترا فشكاه أوقطاوس لمجلس الجمهورية واتهمه بأنه مزق شمل الدولة الرومانية وأنه أدخل قيصرون ولده فى وراثة قيصر مع أنه ابن سفاح فحكم المجلس بناء على ذلك بعزل انطنيوس من منصبه وحكم بإشهار الحرب على كليوباترا صاحبة مصر فلما سمع أوقطاوس ما حكم به المجلس. قال متهكما لا يصح لنا أن نقاتل انطنيوس لأن الخمرة المصرية قد أسكرته فذهبت بعقله فلا يكون حربنا إذن إلا مع قوم كليوباترا وأمراء جندها يريد بهذا القول أن انطنيوس المذكوركان دائماً مخمورا لا يكاد يفيق.

وتأهب بعد هذا الحكم كل من الفريقين للقتال فخرجت كليوباترا بنفسها للحرب واصحبت معها انطنيوس إلى ساحة القتال فى مدينة (اكسيوم) التى هى مدينة(ازيو) بساحل الروم ايلى وأمدت كليوباترا انطنيوس وقومه بمائتى سفينة حربية فبالغ فى الاستعداد وعمل على إحياء همة الجنود وتنشيطهم رجاء الانتصار وجعلت كليوباترا مدار الحرب على جنودها البحرية لتظفر بخصمها فانتشبت الحرب بينهم وكانت سجالا فلم ينتصر أحدهم على الآخر وبينما هم على هذه الحال إذ اندفعت ستون سفينة من سفن كليوباترا بقوّة المجاذيف وانفصلت عن بقية الأسطول وسارت تمخر صوب جزيرة المورة وفيها الملكة كليوباترا هاربة من القتال، قال بعض الكتاب: ولم يعلم إن كان هروبها هذا لفزعها من الحرب والهزيمة أم لاتفاق وقع بينهاوبين اقطاوس فغدرت بقرينها حيث وجدته قرين سوء فلما رآها انطنيوس قد أدبرت ولى مدبرا وراءها فاقتفى أوقطاوس أثرهما وتتبعهما فلم تر كليوباترا بدًا من تسليمه مدينة

الفرما التي هى مفتاح الديار المصرية. قالوا: وأرادت بهذه الخيانة التحبب إليه إلى أن تتنصل من انطنيوس، وكان انطنيوس لنكد حظه وسوء طالعه يعتمد على أمانتها ولم يخطر على باله قط ما قصدته من تسليم مدينة الفرما والعمل على الخلاص منه.

ومن غريب الاتفاق أنه فى اليوم الذى وصل فيه اقطاوس إلى مدينة الفرما ووقف أمام أبوابها وصل أيضاً انطنيوس إلى مدينة الإسكندرية ليطلع كليوباترا على دفتر أسماء الأبطال الذين جاهدوا معه فى حومة القتال وامتازوا بالبسالة والإقدام فلم ير منها إلا عيناً غامضة وأذنا صماء فبات ليلته تلك وأصبح وقد خانه سائر الغربان الذين كانوا يقاتلون معه وتحزبوا عليه مع اقطاوس وانفصل عن الجند المشاة وانضمت سفن الحرب المصرية إلى سفن قيصر وهذا كله كان بإشارة قلوبطرة ولم يشعر انطنيوس بشىء من ذلك ثم عادت كليوباترا فأحست بسوء فعلتها وحاك اثمها فى صدرها فخافت من انتقام انطنيوس إذا وقف على حقيقة سرها.

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فتوارت مع أموالها وكنوزها فى مدفن حصين كانت قد شيدته لتدفن فيه ثم أشاعت أنها تريد قتل نفسها وتواتر الخبر بذلك حتى بلغ انطنيوس فعزم هو أيضاً على قتل نفسه لكى لا يعيش بعدها فأشار إلى مملوك له بان يقتله فسل المملوك سيفه وتظاهر بأنه يريد قتل سيده وطعن نفسه بالسيف ولم تسمح نفسه بقتل مولاه فخجل انطنيوس من ذلك وطعن نفسه بخنجره فلم يمت فى الحال ثم علم قبل إزهاق روحه أنّ كليوباترا لم تزل على قيد الحياة فطلب من خدامه أن ينقلوه إلى مقرها ليجتمع بها قبل موته فلم تأذن بفتح الباب له بل ادنته من شباك المحل وأنزلته فى جهة من المدفن فمات فيه شر ميتة، وكان قد بلغ اقطاوس أن كليوباترا تريد قتل نفسها فأرسل إليها من جنده من يمنعها من ذلك فدخلوا من ذلك الشباك فوجدوا فى حزامها خنجرا كأنها كانت تقربه من بطنها ورأوها على هيئة من يعمد إلى طعن نفسه والأمر غير ذلك وإنما كانت تقصد أن تفتن أوقطاوس كما فتنت عمه قيصر فخاب ظنها ولم يلتفت إلى جمالها ولا مال قلبه إليها فلما آنست منه ذلك صممت على قتل نفسها فأمسكت عن الشراب والطعام وواصلت الصيام خوفا من الوقوع فى أسر اقطاوس وذهابها إلى رومة أسيرة فقتلت نفسها شر قتلة، وكان اقطاوس يكرر عليها القول بعدم قتل نفسها ويتوعدها بقتل أولادها إن هى فعلت فلم ترتدع وقد وجدت ميتة بين بعض النسوة وجميعهن نيام فكانت هى نائمة على فرش من الذهب الإبريز وعلى جبينها تاج الملك وكأنها متجملة بجميع زينتها الملوكية فى يوم عيد.

واختلف الكتاب وأصحـاب التاريخ فى كيفية قـتلها لنفسها. فقال جـماعة إنها تعاطت السم الناقع. وقال آخرون بل أحضرت ثعبـاناً عظيماً وأخفته فى وعاء مملوء من التين مدّة طويلة فلما خرج ذلك الثعبان من الوعاء. قالت له قد حان وقتك وقد حضـرت إليك فاقض عليّ فانسـاب عليها وعـجل بوفاتها وشـاع هذا الخبر يومـئذ وتكلم به الناس كـثيراً واعـتقـد أوقطاوس صحتـه فلما عـاد إلى رومة عـمل تمثال قلوبطره المذكورة وجـعل فى جانبه ثعـباناً ينهشهـا وكان موتهـا فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى نحو سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة.

وانتهى بموتها حكم البطالسة فى مصـر وصارت من بعدهم إيالة تابعة إلى رومة وقتل أوقطاوس أيضاً ابنها بطليـموس قيصرون بعد موتها، وكـان قد لقب فى أيامها بلقب ملك الملوك فكانت هى آخر ذرية البطالسة بديار مصر وهى سبب زوال مجدها وسقوط عرشها بمعاهدتها مع قيـاصرة رومة وقد سعت فى أيامها مع انطنيوس حتى توجت ابنها قيـصرون بتاج ملك الملوك يعنى ملك مصر وبلاد العـجم مثل أرمنسان وأذربيجان وغير ذلك من بلاد العجم فلهذا اعتبره المؤرخون فى عداد البطالسة. قال بعضـهم فإذا صح ذلك كان هو بطليـموس الرابع عشـر، وكان إدخاله فى مـيراث بعض الأقاليم الرومانية سببا فى حرب أوقطاوس مع انطنيوس وهلاك انطنيوس وقتل كليوباترا لنفسهـا وزوال دولة البطالسة وقطع دابرها واستئصال نسلها بقـتل قيصرون المذكور واستيـلاء الدولة الرومانية على جميع ديار مصر. قـالوا ومع أن مصر عادت فى أيام هذه الدولة القهقرى النسبية ومـالت من درجتها العليا إلى درجة ثانوية حيث فقدت مـا كان لها من رسوخ القدم وعلو الكلمـة على سائر الأمم إلا أنها مع ذلك كانت كثيرة المآثر غزيرة المفاخر. وقد زادها شرفًا ومجدًا تبصرها فى الأمور وحسابها للعواقب وإطلاقها عنان الحريـة لجميع صنوف الرعية وجعلهم جميعـاً متساوين أمام الشريعة والقـانون وقد اتحد المصريون واليونان بعناية بطليـموس لاغوس رأس ملوك هذه الدولة فى التـمدن العام والـتسوية فى الأحكـام. وفى إحياء المعـارف والعلوم فترجـموا التوراة من العبرانية إلى اليـونانية وفى أيامهم كتب مانيطون الحـبر المصرى تاريخه المشهور وجمع الكتب بالإسكندرية. وأنشأ بعضهم خزانة للتحف والغرائب أحضرها من سائر الأقطار ووضعـها برواق فى الإسكندرية يسمى رواق الحكمة حتى قيل إنه لم يبق تنظيم مـثل هذا الرواق فى سائر الأقطار وزادوا فى العمائر الـعظيمة والمبانى الجسيمة وأتموا ما لم يتمه أسلافهم من سائر الأهلية والمعابد الكبيرة وأضافوا إليه مـعابد أخرى جـديدة فى بلاد النوبة والتاكة وغـيرهما وبجـزيرة البربا التى هى

جزيرة أنس الوجود ومن بنائهم أيضاً مدينة أرمنت وبالغوا فى تحسين مدينة طيبة ولم يهملوها وبنوا فيها أيضاً هيكلا يعرف الآن بدار المدينة ومعبداً على بركة (آبو) وشيدوا على الجانب الأيمن منها الباب الكبير المنفرد فى شمال الكرنك والباب الآخر المناظر له وبنت الملكة كليوباترا بدندره هيكلا عظيماً أهدته لآلهة المصريين باسم ولدها قيصرون المولود لها من بولس قيصر الروم سفاحا وبنت أيضاً مدينة ادفو القديمة. قال بعض الكتاب ولهم غير ذلك من الآثار العظيمة بمنشأة النيدة التى بناها بطليموس فيلادلفس وكذلك بناحية بهبيت بجوار المحلة الكبرى ويغلب على ظن الباحثين عن الآثار القديمة أن من جملة آثار البطالسة المبانى الجميلة القريبة من مقابر العجول الأبيسية التى بناحية سقارة وما يوجد فى هذه المقابر من النواويس والتوابيت العجيبة الصنعة.

وقد جعلوا تخت حكمهم مدينة الإسكندرية كما تقدّم فصارت بذلك موردا للخاص والعام ، ووفد عليها من البلاد الأجنبية أرباب العلوم والمعارف والعلماء وجماعات الحكماء والأدباء وأصحاب العقول الكاملة فعمرت بهم وبقيت آثار ذلك العمار إلى أيام الرومانيين وكان لعلمائها وحكمائها اليد الطولى فى معاكسة النصرانية بعد ظهور المسيح وانتشار الديانة المسيحية فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكانت هذه الدولة ذات كلمة نافذة لدى الأمم الأجنبية ولم تزل كذلك إلى عهد الإسكندر بطليموس الزامر ثم إنه لم يعقب كفؤا لولاية عهده وأوصى بالمملكة كفالة وتمليكا إلى الدولة الرومانية من بعده فأخذت فى الذبول والاضمحلال وكانت مدة حكم الملوك البطالسة المذكورين مائتى سنة وخمسا وسبعين سنة كما قاله جماعة المؤرخين لأن ابتداء دولتهم كان فى سنة خمس وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبل الهجرة وانتهاؤها سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة.

وبانقراض دولة البطالسة على ما تقدم بيانه وهى الدولة الثالثة والثلاثون جاءت الدولة الرومانية المعروفة بالدولة الرابعة والثلاثين.

□□□

(الباب الرابع)

(فى الدولة الرومانيـة وهـى الدولة اللاتينية وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى الدولة الرابعة والثلاثين)

قال جماعة الكتاب: قد اشتهرت هذه الدولة باسم الدولة اللاتينية وعرفت أيضاً باسم الدولة الرومانية نسبة إلى مدينة رومة التى هى تختها وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم نسبة إلى بانيها (رومولوس) بالاشتراك مع أخيه (روموس) وقد أنشأها فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمس وسبعين وثلثمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وببنائها يؤرخ الرومانيون تاريخهم، وقد كانت فى مبدأ أمرها دولة ملكية مطلقة يتولاها ملك بعد آخر إلى زمن العائلة المعروفة بالعائلة (التريكنية) فنزعت منها وظهرت الحكومة الجمهورية، وكان الذى يرأسها يلقب بالقنصل ومعناه منفذ الأحكام واستمرت الحكومة الجمهورية على هذا الوجه مدّة خمسة قرون كاملة نالت فيها الغاية من العزة والظهور وتغلبت على جميع أمم إيطاليا أودخلتهم تحت الطاعة وحاربت قرطاجة، وقد كانت دولة عظيمة للغاية وطالت بينهما أيام القتال وكانت هائلة جدا سموها بالحروب (البونيقية) ثم انجلت عن نصرة رومة على قرطاجه فدمرتها تدميرا واستولت على مملكتها وظهرت كذلك على مملكة مقدونية وبقية أمم الرومان وجميع الأمم المعروفة فى تلك الأزمان ما عدا أمة الجرمان ودولة فارس القديمة وكانت مصر فى هذا الحين من أعظم الدول قوّة وأكبرهم شوكة فمدت دولة الرومان إليها أنظارها وتاقت إلى التغلب عليها فتداخلت فى تنصيب ملوكها البطالسة حين داخلهم الضعف ولازمهم الانحطاط بالحروب الداخلية وما زالت حتى تسلطت عليها وجعلتها إيالة تابعة لها فى عهد أغسطس كما سيأتى وأغسطس هذا هو مبدأ دولة القياصرة الآتى ذكرهم واحدا بعد واحد. قال أصحاب التاريخ: وبظهور قياصرتها المذكورين عظمت دولة الرومانيين وعلت كلمتها وتملكت على الدنيا بأجمعها ثم لم تلبث أن اضطرمت فى

داخلها نار الحروب الأهلية فأفسدت حالها وسلك القياصرة بعد ذلك مسالك الترف والانهماك فى اللذات والشهوات وفساد الأخلاق وطغوا وبغوا فكان هذا موجبا لضعفها وانحطاطها ، وكان ظهور الدولة القيصرية فيها بعد الجمهورية فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة، وكان أول ملوكها الملك أغسطس الذى سيأتى الكلام عليه. ثم انقسمت فى سنة إحدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة إلى قيصريتين إحداهما بالمغرب وتختها مدينة رومة والثانية بالمشرق وتختها مدينة القسطنطينية وبقيت قيصرية المغرب إلى أن زحفت عليها بعض الأمم المتبربرة كأمة (الغوطة) وغيرها وتغلبت عليها وأزالت بهجتها ولم تزل بها حتى زال ملكها بالكلية وبقيت قيصرية المشرق إلى أن فتحها الإسلام فغزا القسطنطينية بنو أمية وضربوا عليها الخراج ولم تزل كذلك حتى ركب عليها السلطان محمد خان الفاتح وأخذها كما سيأتى بيانه فى محله إن شاء الله تعالى.

وأما الديار المصرية فإنها دخلت فيحكم الرومانيين وصارت تابعة لها فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة كما تقدّم وبقيت كذلك إلى سنة أربعين وستمائة للميلاد أى سنة تسع عشرة للهجرة وهى السنة التى افتتحها فيها المسلمون على يد عمرو بن العاص فكانت مدّة حكم الرومانيين عليها ستمائة سنة وإحدى وسبعين سنة منها أربعمائة وإحدى عشرة سنة فى الجاهلية ثم صدر أمر الملك (طيودوسيس) بوجوب التمسك بالديانة المسيحية فى جميع الإيالات الرومانية وسنذكر هنا مآثر كل قيصر على حدته وبيان ما جرى على مصر فى أيامه مبتدئين بالملك أغسطس الذى هو رأس القياصرة المذكورين.

(فى الملك أغسطس قيصر)

تولى الملك أغسطس على كرسى المملكة الرومانية سنة تسع وعشرين قبل الميلاد أى سنة إحدى وخمسين وستمائة قبل الهجرة ثم استولى على مصر فكان يقيم عليها نوابا من قبله، وكان أغسطس المذكور يلقب بإمبراطور الرومانيين ومعناه فى الأصل رئيس الجيوش واشتهر كغيره باسم قيصر ولقب بلقب أغسطس ومعناه الرئيس الأعلى ولما ارتقى منصة الملك واستقر به المنصب وفد عليه رسل ملوك المشرق يرغبون فى موالاته ويضرعون إليه فى السلم فأسعفهم ودانت له الأرض بأسرها وضرب الخراج على أهل الآفاق وكان عامله على اليهود فى الشام يقال له (هيرودوس) ولما تغلب على مصر وقتل ولدى كليوباترا بعد قتلها لنفسها كما تقدم

بيان ذلك ولى عليها نائبا من قبله اسمه قورنليوس غالوس فكان أول نائب على مصر من نواب الرومانيين ولما استقر منصب النيابة قورنليوس المذكور قام بإصلاح ما أفسدته الفتن والحروب الأخيرة وبذل الجهد فى توطيد أركان الراحة بين الرعية وأصلح أراضى الزراعة بالعمليات كتطهير الترع والخلجان وإقامة القناطر والجسور ومع ذلك فلم يرض عنه الكثير من أهل البلاد ولم يلبثوا أن قاموا عليه وشقوا عصا طاعته وكان من المدن التى أضرم أهلها نار الفتنة مدينة طيبة بصعيد مصر فركب غالوس المذكور على أهالى تلك البلاد وأرجعها إلى الطاعة وضيق على مدينة طيبة ونهبها واستوعب ما فيها من الأموال وضبطها لدولة رومة وأخذ لنفسه كثيراً من الأمتعة النفيسة كما ذكر ذلك بعض المؤرخين، وكان هذا الانتصار سببا فى طغيانه وتجبره وفساد أخلاقه فنظم نفسه فى سلك الملوك الفراعنة وقلدهم فى جميع أفعالهم الجوهرية. فأمر أن تنحت تماثيل على صورته وتوضع فى الميادين العمومية بمصر وأن ترسم وقائع حروبه على المبانى والهياكل كما كانت تفعل الفراعنة ولكن لم تطل مدته إذ خلعه القيصر ونفاه لأسباب لم يذكرها أصحاب التاريخ ولعلها الخوف من استبداده بملك البلاد وخروجه عن طاعة القيصر فقتل نفسه فى منفاه وقيل إن سبب ذلك أن أغسطس الملك غضب على أحد علماء الآداب وطرده من مدينة رومة فأواه قورنليس الوالى المذكور بمصر فغضب عليه أغسطس لهذا السبب وأمر بخلعه ونفيه.

فتولى بعده بطرنيوس فلم تكد تستقر به النيابة حتى قام عليه أهل الإسكندرية وخرجوا عن طاعته لأسباب لم يذكرها المؤرخون فركب عليهم وقاتلهم إلى أن ردهم إلى الطاعة صاغرين وفى ولاية بطرنيوس هذا هم أغسطس قيصر المذكور بغزو بلاد العرب والتملك عليها وكلف بطرنيوس نائبه على مصر بهذه الحرب فجمع بطرنيوس جيشا لذلك وسلمه إلى اليوس غالوس أحد كبار الجنود الرومانية وسيره إلى بلاد العرب وقيل إن أغسطس ذهب لهذه الغزوة بنفسه فانتصرت العساكر المصرية على العرب ثم انهزمت وتلاشت أو كادت لصعوبة مزاج الأقطار الحجازية ودامت الحرب قائمة على ساقها سنة كاملة كابدت فيها الجنود المصرية من التعب وفقد الزاد والراحلة ما لا مزيد عليه ثم رجع من بقى منهم إلى مصر ولم يفز أغسطس بأمنيته من الاستيلاء على تلك الأصقاع ولا على بلاد اليمن التى كانت يومئذ مركزا لواردات الهند الشهيرة.

وبينما كانت هذه الحروب قائمة بين المصريين والعرب اغتنم أهل السودان فرصة تغيب الجنود عن إقليم الصعيد وكروا على حدود مصر الجنوبية بجيش جرار تحت

قيادة (قنداقة) ملكة جبال بركل بإقليم دنقلة فاستولى قومها على مدينة أسوان وما حولها من الجزائر المصرية كجزيرة الصنم وغيرها ودخلت بلاد الصعيد الأعلى وأهلكت الحرث والنسل وغنمت الغنائم العظيمة فركب عليها بطرنيوس وقاتلها حتى أخرجها من بلاده إلى السودان واقتفى أثرها فغلبها على دار ملكها ولم يعقد معها الصلح إلا على شرط أن تدفع خراجا سنويا لدولة الرومان وأن تبعث من عندها بسفراء للقيصر أغسطس لتتميم قاعدة الصلح، وكان قد بلغ ديوان رومة خبر هذه الوقائع وهجوم الملكة (قنداقة) على الديار المصرية فانفعل أغسطس من ذلك وأخذ منه الغضب مأخذه وسار بنفسه إلى مصر لينتقم منها فلم بلغ جزيرة صيصام علم بانتصار بطرنيوس على قنداقة وماعقده معها من الصلح وتفويض تتميمه إلى ذات أغسطس وأن بطرنيوس حمل (قنداقة) على أن تبعث بسفراء من قبلها إلى أغسطس فلبث أغسطس فى جزيرة صيصام ينتظر السفراء فلما وفدوا عليه تمم شروط الصلح معهم على ما قرره بطرنيوس وعافى (قنداقة) من دفع الجزية إلى رومة.

وعاد بطرنيوس من غزوة السودان ورايات النصر تخفق على رأسه وعكف على ما كان عليه من حُسن الإدارة وتدبير أمور البلاد وتحسين الأراضى واتساع الزراعة بما تقتضيه احتياجات البلاد وكان كثير الميل إلى تحسين مجارى النيل وإصلاح مصاريفه وخلجانه وترعه فبذل الجهد فى ذلك حتى تم له ما أراد فكان إذا بلغ النيل اثنى عشر ذراعا كفى لرى جميع الأراضى وكان قبل ذلك لا يفى بهذه الغاية إلا إذا بلغ أربعة عشر ذراعا وقيل ستة عشر ذراعا.

وبقى بطرنيوس واليـاً على مصر ثمان سنوات ثم خلفه عليها اليوس غالوس الذى كان قائدا على غزوة العرب فى نيابة بطرنيوس فلما استقرت به النيابة سار إلى الصعيد الأعلى واستصحب معه اسطرابونس الجغرافى لاستكشاف مواقع البلاد ومعرفة حقائقها وطالت مدّة ولايته حتى مات فى خلالها أغسطس الملك. قال أهل التاريخ: وكان دخول ديار مصر تحت حكم الرومانيين ضربة قاضية على العلوم والمعارف التى كانت يزاولها فضلاء مصر بدار العلوم فى مدينة الإسكندرية إذ تضعضعت أحوالها وزالت بهجتها وانحطت درجة المكاتب الأهلية فلم تكن هذه المضار دون ما سبق من حريقة مكتبتها فى آخر أيام الملوك البطالسة. وذلك لأن كبار المعلمين الذين كانوا فى هذه الديار ساروا من الإسكندرية إلى رومة ليتقربوا من قياصرتها وينالوا منهم الحظوة فخلت منهم ربوع العلوم والمعارف ومع ذلك فإن القياصرة لم يتأخروا عن إنشاء بعض المدارس والمكاتب وعينوا لها من الرؤساء

والرجال من له السبق فى مضمار الفضائل غير أن أهل البلاد لم تحتفل بتلك المكاتب ولم تقبل على ما فيها من العلوم حيث كان قد ألمّ بهم الفتور والكسل واستولى على خواطرهم الخمول والملل فتأخرت العلوم وتقهقرت الفنون وانحطت درجات الصنائع. وقد ساعد على هذا أيضاً أن الرومانيين ليسوا فى درجة اهتمام الفراعنة أو البطالسة بتقويم العلوم وتعضيد الفنون بل كانت همتهم منصرفة إلى الحروب والغزوات وتوسيع دائرة الفتوحات ولم تكن مصر عندها من عهد أن بسطت يدها عليها إلا بمثابة مخزن للدولة تستخرج منه ما تحتاج إليه من محاصيل الزراعة وجعلت الإسكندرية مركزاً للتجارة وتكثير البضاعة فكانت لذلك العلوم والمعارف لا تعد عندها إلا من الأمور الثانوية. وقد اقتدى أغسطس بالملك الإسكندر الأكبر حيث أجاز للمصريين التمسك بديانتهم وأباح لهم التعبد بمقتضى أصولهم ولم يتداخل فى شئون عقائدهم وعوائدهم فجددوا الهياكل فى جميع أنحاء مصر والنوبة وأصلحوا ما تهدم منها وكتبوا على مبانيهم اسم أغسطس قيصر تخليدا لذكره.

وفى نحو السنة العشرين من ملك أغسطس ولد السيد المسيح من مريم العذراء فكان ميلاده قبل الهجرة المحمدية بستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وبعد ولادة يوحنا المعمدان، وهو ابن زكريا، بستة أشهر على المشهور.

وجاء صريحاً فى الكتب السماوية ما محصله: وكان فى أيام هيرودوس ملك اليهودية شيخ اسمه زكريا وله زوجة من بنات هارون واسمها اليصابات، وكان كلاهما من التقوى والصلاح بمكان عظيم فبينما هو يوما يؤدى ما عليه من الخدمة فى بيت المقدس أصابته القرعة أن يدخل هيكل الله تعالى ويبخر أمام المذبح فدخل وبيده الجام وإذا به يرى ملكا من عند الله واقفا على يمين مذبح البخور فاضطرب وأخذ منه الخوف مأخذه. فقال له الملك يازكريا لا تخف لقد استجاب الله دعاءك وستلد اليصابات امرأتك ذكرا يدعى يوحنا وتفرح بولادته فرحا لا يوصف. فقال زكريا: سبحان ربى القدير كيف يكون ذلك وأنا شيخ وقد وهن عظمى وانحنى ظهرى وامرأتى كذلك فقال الملك يازكريا إنى أنا جبريل الواقف أمام العرش وقد أرسلنى الله تعالى لأبشرك بهذا وحيث إنك لم تصدق بما أمرنى الله بتبليغك إياه فإنك تخرس بإذن الله ولا تتكلم منذ اليوم إلى اليوم الذى تلد فيه امرأتك فخرج زكريا من ساعته وهو لا يتكلم.

ولما كملت أيام خدمته سار إلى بيته فحملت اليصابات زوجته وأخفت أمرها وهى لا تصدق أنها حامل، فلما كان الشهر السادس من حملها أرسل الله سبحانه

جبريل عليه السلام إلى مدينة من الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم تلك العذراء (مريم) فظهر لها جبريل وناداها بقوله سلام عليك يامريم سلام عليك أيتها المنعم عليها الله معك مباركة أنت فى النساء يامريم لا تخافى ولا تخشى فقد وجدت نعمة عند الله وستحبلين وتلدين ابنا يسمى (يسوع) ويكون عظيماً ويعطيه الله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم: إنى أمة لربى سبحانه وأنّى يكون لى ذلك ولم يمسسنى بشر؟ فقال يامريم: الروح القدس يحل فيك وقوة العلى تظلك وها هى اليصابات نسيبتك حبلى أيضاً بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك العاقر وليس على الله شيء عسير فسجدت مريم لله تعالى شكراً. وقالت إنى أمة الله والله سبحانه فعال لما يريد.

وسارت مريم يوماً إلى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا ونادت على اليصابات وسلمت عليها فما وقع صوت سلام مريم فى أذنى اليصابات حتى صاحت. وقالت مباركة أنت فى النساء يامريم فإنه ما وقع صوت سلامك فى أذنى حتى تحرك الجنين بابتهاج فى أحشائى، وتمت أيام اليصابات فوضعت ولدها وسمته يوحنا كما بشر أباه جبريل عليه السلام ولما رآه أبوه زكريا حمله على ذراعيه وبكى من فرحه فانطلق لسانه. وقال تبارك الله الذى خلق فسوى، واتفق فى ذلك الوقت أن صدر أمر أغسطس قيصر إلى سائر الولاة والعمال بإحصاء جميع من فى إيالاتهم وعمالاتهم من الرجال والنساء والأطفال ورسم بأن يكون إحصاء كل فى بلده ومسقط رأسه، وكان عامل أغسطس قيصر على الشام يومئذ كيرينيوس فنادى بذلك فى جميع المدن والبلدان والقرى وشدد فى الطلب ولما كانت مدينة بيت لحم بلد يوسف خطيب مريم سار يوسف من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى هى بيت لحم لأنه من بيت داود ومن عشيرته ليكتتب مع مريم خطيبته وأقاما ببيت لحم أياماً تمت فى خلالها أشهر حمل مريم فجاءها المخاض فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأول وتاسع عشرى كيهك سنة تسع عشرة وثلثمائة للإسكندر فانزوت فى معلف للبقر ووضعت ولدها وقطعت له السر بيدها ثم قمطته وأضجعته فى المعلف وجلست بجانبه.

وكان على مقربة من بيت لحم جماعة من الرعاة يحرسون غنما فى ليلتهم تلك فلم يشعروا إلا وقد لمع لامع من السماء وكثر الضوء واشتد من حولهم حتى كاد يغشى أبصارهم فانزعجوا وستروا وجوههم بأيديهم وإذا بصوت يقول لا تخافوا

فانى مبشركم الليلة بأن قد ولد لكم فى مدينة داود مخلص هو (المسيح) وهذه لكم علامة تجدون طفلا مقمطا مضجعا فى معلف للبقر ولم ينته الصوت حتى هبط من كبد السماء جمع من الملائكة وهم يسبحون الله تعالى ويقولون بصوت جهورى المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة وجعلوا يكررون ذلك مرات كثيرة ثم ارتفعوا واختفوا عن أبصار الرعاة ولما تراجعت إلى الرعاة نفوسهم وزال عنهم ذلك الخوف الذى كان قد اشتد بهم. قال بعضهم لبعض ماذا علينا إذا سرنا إلى بيت لحم للنظر ذلك الأمر الواقع وقاموا من ساعتهم وجاءوا إلى بيت لحم ودخلوا على مريم ويوسف وهما فى معلف البقر مع الصبى فرأوه وفرحوا به فرحا عظيما وحدثوا مريم ويوسف بما رأوه وسمعوه فتعجب يوسف من ذلك ونظر إلى مريم فلم ترد عليه جوابا لأنها كانت تعلم من أمر ولدها ما لا يعلمه سواها ، وجاء مجوس من المشرق إلى أورشليم وطفقوا يسألون أين المولود الجديد ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنقدم الطاعة له وشاع خبرهم فى أورشليم وعلم به هيرودوس فانزعج وجمع كل رؤساء الكهنة والكتبة وسألهم أين يا ترى يولد المسيح. فقالوا يولد فى بيت لحم اليهودية فسير هيرودوس فى طلب المجوس فأتوا إليه. فقال لهم متى كان ظهور ذلك النجم يعنى نجم ذلك المولود فقصوا عليه ما عرفوه من أمره فقال اذهبوا إلى بيت لحم وفتشوا عليه فإن وجدتموه فارجعوا إلىّ فخرجوا من عنده وساروا وإذا بالنجم يتقدمهم ففرحوا به فرحا عظيماً جداً وأتوا إلى بيت لحم ورأوا الصبى مع أمه فسجدوا لله تعالى شكراً ثم قدموا إلى الصبى هدية من الذهب واللبان والمر وباتوا ليلتهم تلك فرأوا فى منامهم من يقول لا ترجعوا إلى هيرودوس وسيروا من طريق أخرى ففعلوا.

واشتد القلق بهيرودس وأخذته الطيرة فرسم بقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وما يتاخمها من ابن سنتين فما دون ذلك وشدد وهدد فرأى يوسف فى منامه جبريل يقول له قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض مصر لأن هيرودوس يريد نفسه فقام يوسف غلسا وأخذ مريم وولدها وأركبهما على حمار وانحدر بهما إلى مصر ولبثوا بها حتى ظهر جبريل ليوسف فى رؤيا. وقال له قم وخذ الصبى وأمه وارجع إلى أرض إسرائيل فقد مات هيرودوس.

قال بعض أصحاب التاريخ: ونزلت مريم بولدها إلى مدينة بوبسط التى هى بسطة فى إقليم الشرقية فى رابع عشرى بشنس فلم يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها أياماً

ثم ساروا منهـا إلى مدينة سمنود وعبـروا النيل إلى إقليم الغربية وسـاروا إلى مدينة الأشمـونين فـدخلت به وهي لا تعلم لها مـأوى ، قـالوا وظهـرت على يده فى الأشمـونين آية وهى أن خمسـة رجال زاحمـتهم فى مرورهم فـصرخ فيـهم المسيح فصاروا حجـارة ثم أنهم ساروا من الأشمونيين وأقاموا بقـرية تسمى منليس أياماً ثم مضوا إلى القـوصية فطردهم أهلها فـمضوا إلى ناحيـة ميرة غربى القـوصية ونزلوا بالمكان الذى يعرف اليوم بدير المحـرق وأقاموا به ستة أشهـر وأياما فرأى يوسف فى منامـه قائلاً يقـول له: قم وخذ الـصبى وأمـه وأخرج من أرض مـصر فـقد مـات هيردوس فقام ومعه الصبى وأمـه من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف الآن بكنيسة أبو سرجه ثم خرجوا منها إلى عين شـمس فاستراحوا هناك من مشقة السفر بجانب ماء. قالوا وقد غسلت مـريم من ذلك الماء ثياب المسيح، وكانت قد اتسخت وصبت غـسالتهـا بتلك الأراضى فأنبـتت بلسانا، وكان إذ ذاك لا ينـبت البلسان إلا بأرض الأردن فانقطع من هـناك وبقى بهذا المكان وكثـر الماء بالبئر الـتى هناك حيث سال عليها الماء الذى غسلت منه مريم.

وقال بعض الكتـاب: إن من خواص مصـر عمل النيدة وهى عـسل القمح ولا يمكن اصطناعها إلا بديار مصر وقد ذكر بعض الحكماء أن السيدة مريم عليها أشرف السلام صنعت النيدة للمـسيح حين قل لبنها فألهـمها الله تعالى عملها وأكـثر اتخاذ النيدة فى منشأة أخميم. ولذلك يقال لها أيضاً منشأة النيدة ولم يزل عملها باقيا إلى الآن ولم يذكر جماعة المؤرخين أن السيدة مريم عليها السلام ذهبت بالمسيح إلى تلك الجهة من الصعـيد وإنما قال بعضهم إنها نزلت أيضاً بأهنـاس المدينة حتى قالوا أيضاً انها ولدت المسيح بها وأن فيها النخلة التى ذكرت فى القرآن فى آية: ﴿ **وهزى إليك بجذع النخلة تساقـط عليك رطبا جنيا** ﴾، وأن هذه النخلة تسمى نخلة مـريم وأنها لم تزل باقية باهناس المدينة إلى آخر أيام بنى أمية. **قلت**: وهذا ما لا يعتقد صحته جميع النصارى لمخالفتـه لما جاء به الإنجيل والتوراة والذى جاءت به الكتب المنزلة أن المسيح ولد فى بيت لحم اليهـودية وسارت به أمه إلى مصر وعمـره سنتان اثنتان وأنه أقام فى مصر أربع سنين ثم عادت به ومعها يوسف فنزلت به قرية الناصرة من جبل الجليل واستـوطنها ونشأ بها حـتى بلغ ثلاثين سنة وقيل اثنتـين وثلاثين ثم سار مع يوحنا المعمدان إلى نهـر الأردن فاعتمد وحلت عليه روح القدس فـمضى إلى البرية وأقام بهـا أربعين يومـا لا يتناول طعامـا ولا شرابا ثم طاف وأبرأ الأكـمه والأبرص والمقعد وأحيا الموتى وغيـر ذلك من العجائب والآيات البينة مما لا موضع هنا لإيراده بالتفصيل.

ومات أغسطس فى السنة الرابعة عشرة من ميلاد المسيح الموافقة لسنة ثمان وستمائة قبل الهجرة وعمره ست وسبعون سنة فكانت مدة حكمه مستقلاً ثلاثاً وأربعين سنة غير مدّة رئاسته للجمهورية فتولى بعده الملك طباريوس الأوّل.

(فى الملك طباريوس قيصر الأول)

ثم قام بالأمر بعده الملك طباريوس قيصر الأول فى سنة أربع عشرة للميلاد أى سنة ثمان وستمائة قبل الهجرة وهو ثانى امبراطرة الرومانيين ولما استقر به المنصب استعمل على مصر عاملا اسمه أميليوس اولوس فزاد أميليوس المذكور فى خراج البلاد زيادة كثيرة عما كان قرره أغسطس وبعث يستأذن طباريوس قيصر فى ذلك فكتب إليه يقول أما بعد فإنى لا أشتهى من الراعى إلا تسمين ما يرعاه ولا أرضى منه أن يذبحه فتأمل فعدل أميليوس عن ذلك وقد خلف أميليوس المذكور عدة ولاة تعاقبت على مصر فى أيام طباريوس الملك منهم اليوس سيان الذى طغى وتجبر وتعاظم وتكبر وسلك مسالك العسف والجور فى الرعية، وكان طباريوس الملك كذلك فإنه كان جبارا عنيدا ماكرا مخادعا يظهر خلاف ما يبطن فلما أن تولى المنصب الملوكى واستقام له الأمر أراد أن يخلع نفسه بدعوى أنه لا فضل له فى السياسة ولا هو يقوى على تدبير أمور المملكة مثل أغسطس قيصر وأظهر غاية العجز مع التواضع والانكسار فألح عليه رجال الدولة وشددوا فلم يقبل إلا كرها ثم سألهم أن لا يلقبوه بلقب امبراطور تواضعا وانكسارا ثم تم له الأمر فقبض على زمام الأحكام وسلك مسالك العنف والكبرياء وأورد الرعية موارد الذل والهلكة واستوزر على مصر اليوس سيان المذكور الذى هو على شاكلته فكان اليوس بطانة سوء فأشار على طباريوس قيصر بقتل جميع عائلة أغسطس سلفه فقتلهم واحدا بعد واحد ولم يبق منهم إلا طويل العمر وهولاء قليلون جدا وما زال اليوس يحسن له القبيح ويغريه على ارتكاب المعاصى وسفك الدماء حتى أحس طباريوس بأن اليوس يريد التغلب على الملك وسلب المنصب منه فقبض عليه وقتله وأمر بإلقاء جثته فى الميدان العام ففرح الناس بذلك فرحا لا يوصف وانقضوا على جثته فمزقوها كل ممزق ومثلوا بها.

واشتد عبث طباريوس بأمور الرعية وبغضه لأكابر الدولة وأعيانها فكرهته الرعية وازداد بغضها له وتمنوا هلاكه فاعتكف فى جزيرة قريبة من مدينة رومة وانزوى فيها

منكبا على المعاصى واللذات منغمسا فى الفسق والفجور مع بطانته ملوثا بالخبائث فأوى إليه أرباب الرذائل وأسافل الناس وجعل هذه الجزيرة ميدان قتل وانتهاك محارم فكان إذا أراد قتل أحد أحضره من رومة إلى هذا المكان وقتله وأغرق جثته فى ناحية أعد فيها آلة تكبس على الغرقى فتكسر عظامهم ولا تجعلها تطفو على وجه الماء، وكان له بهذه الجزيرة قصور فإذا أراد أن يتمشى حولها للنزهة سأل الساعى عن حال الطريق هل هى خالية من الناس أو لا فإن كانت خالية مشى وإلا رجع على عقبه وكان مع بطشه وشدة فتكه جبانا عظيم الارتياب كثير الخوف مترددا موسوسا ضعيف الرأى فاسد الذمة وكان كثير التمسك بالعرافة والكهانة كبير الاعتقاد بزجر الطير مشغوفاً بمعرفة عاقبة أمره وما بقى من أيام عمره.

ولما ظهرت عليه علامات الضعف وأخذت قوّته فى الانحطاط كان يظهر التجلد ويخفى الضعف وبينما هو ذات يوم خارج من وليمة كان أعدها إذ نظر إليه طبيبه فرأى من تغيير حاله ما دل على دنو حينه فأبلغ أهل الديوان ذلك. وقال لهم: إن القيصر يموت بعد يومين فأرسلوا على الفور سعاة لكبار الجند ليحضروا على عجل فكان أول قادم منهم الأمير فاليقود بن جرمانيقوس فأخذ بزمام الحكومة واستولى عليها وشرع فى تدبير الأمور فلم يشعروا إلا وقد رجعت للقيصر حواسه وعادت إليه بعض العافية فخاف الناس وهرب من حضر من الأمراء فرارا من بطشه فقام فى الحال كبير من الأبطال اسمه الأمير مقرون ودخل على القيصر بقلب قوى وأمسكه ولفه فى بروجة وثقل عليه بها حتى خرجت روحه وذلك فى سنة سبع وثلاثين بعد الميلاد أى نحو سنة خمس وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة وله من العمر نحو الثمانين فكانت مدّة حكمه ثلاثاً وعشرين سنة وقد اشتهر هذا القيصر بأنه هيكل المظالم وتمثال الجبروت ، قال بعض الكتاب: ومع ذلك فقد كانت له مزايا أخرى وهى معرفة أساليب السياسة وتدبير الأمور فكانت أيامه كلها صلحا وسلاما مع الأجانب ولم يحصل فى مملكته أدنى اختلال وكان بأسه وجبروته رادعا لتعدى الولاة على الرعية فكانت المساواة والعدالة عامة فى جميع الأقاليم والعمالات وكانت أموال الخزينة موفرة مدبرة فوجد فى بيت المال بعد موته خمسمائة وخمسون ألف ألف من الفرنكات وكان شديد الميل إلى العلوم والآداب فألف وصنف ونظم باليونانية واللاطينية إلا أنه قد اغتالت تآليفه يد الضياع بعد وفاته وإليه تنسب طبرية التى بأرض الشام فهى مأخوذة من اسمه وفى أيامه كان صلب السيد المسيح وقيامته كما جاء فى الكتب المنزلة وتولى بعده ابن عمه قاليغولا قيصر.

(فى الملك قاليغولا قيصر)

ثم قام بالأمر بعده ابن عمه الملك قاليغولا قيصر ولى الملك سنة تسع وثلاثين للميلاد أى سنة ست وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة فاستبشر الرومانيون بولايته فى طالعة أمره بعد الذى قاسوه من طغيان طيبروس عمه. وقاليغولا هذا هو ابن جرمانيقوس الذى كان من فحول الرجال المحبوبين عند الرومانيين وله على البلاد الأيادى البيضاء فلقبوه بقاليغولا لحبهم إياه تبعا لحبهم لأبيه جرمانيقوس المذكور، وكان فى مبدأ حكمه حسن السيرة كامل الاعتبار حازما كيسا ولبث على هذه الحال مدة ثم مرض مرضا شديد أشرف منه على التلف فلما عوفى تغيرت طباعه وانقلبت أحواله وتبدلت إلى عكس ما كانت عليه فتولت عليه الحماقة ومال إلى ارتكاب الكبائر والمآثم وسفك الدماء والغدر والاتصاف بسائر أنواع القبائح وجمع إليه أهل اللهو وأرباب اللعب والسخرية فكانوا يلعبون فى المحافل جهارا، وكان يدعو لذلك أرباب المجلس الرومانى فإذا حضروا ولم يظهر أحد منهم استحسانه لهذه الألعاب والإعجاب بها قتله حالا ومن رفع صوته فى ميدان اللعب أمر بأن يجلد جلداً عنيفاً وهلم جراً.

واتفق يوما وهم فى مجلس الألعاب أن قاليغولا المذكور كان يفاخر بالفضائل الرومانية ويفاضل بينها وبين المحاسن اليونانية ويجادل فى التفضيل بينهما فترك عامة الرومانيين مجلس اللعب وخرجوا مغضبين فصاح عليهم قائلاً ليته لم يكن للأمة الرومانية إلا رأس واحد ، يشير إلى أنه كان يسهل عليه حزه مرة واحدة ، وكان كثيراً ما يلقى بمن يقصر من اللاعبين إلى السباع فتمزقه بين المتفرجين وكان يقطع لسانه قبل أن يفعل به ذلك كى لا يصيح ولا يشوش على الحاضرين.

وارتكب غاية التبذير ونهاية الإسراف وأنفق جميع ما تركه طباريوس قيصر من الأموال الجزيلة فكان يأمر بإعمال الجسور والقناطر على المحيط فكان يأمر بالمحال مما تصوره له حالة الاختلال، ويعمل الحراقات والزوارق المرصعة بالأحجار الكريمة وصنوف الجواهر ويجعل فيها الحمامات الغريبة والغرف المزينة بأنواع الزينة والأشجار والأزهار وعمل اصطبلا بناه من المرمر لفرس كانت عليه عزيزة وعمل لها فى ذلك الاصطبل حوضا من العاج ورصع طقومها باللؤلؤ والمرجان. وقيد اسمها فى سجل القسيسين والأحبار ، وقال إن الفرس المذكورة ستصير يوما من الأيام حاكمة على الرومانيين ويكون لها عليهم الأمر والنهى وكان يسقيها الخمر فى أكواب من الذهب

الأحمر وغير ذلك من الأمور التى لا يقبلها العقل وأمر فصنعت صورته واتخذ منها تماثيل عدة فوضعت فى مصاف الأوثان والأصنام فى جميع الهياكل والمعابد الموجودة فى المدن الرومانية كافة ليكون من جملة الآلهة والأرباب وجعل لنفسه كهنة خصوصين يتقربون إلى تمثاله الذهب بذبائح الطواويس والسمانى وكل طير نادر الوجود وكان عظيم الجبروت على قدر جسامة حمقه فكان إذا أمر بقتل إنسان استحضر والديه وأقاربه ليشهدوا مقتله. فإذا اعتذر أحدهم عن الحضور لمرض مثلاً بعث بنعش وحمالين ليأتوا به كى يشهد قتله وكان لا يحلو له القتل أو التعذيب إلا وهو على مائدة الطعام.

واتفق أنه جلس يوماً فى وليمة حافلة، وكان فيها أرباب مجلس رومة متكاملين فلم يشعروا إلا والملك يغور فى الضحك وينجد بغير موجب ولا سبب فسأله من كان بجانبه من أرباب المجلس عن سبب ذلك. فقال إنما هو لأنى إذا أردت قتلكم عن آخركم الساعة قتلتكم ومع أنه كان طاغية جباراً وداهية غداراً فلم يكن شجاعاً ولا هماماً بل كان جباناً ضعيف القلب يكره الوقوف فى صفوف القتال . وقد سافر فى أيامه كلها فى غزوتين إحداهما إلى بلاد جرمانية. والثانية إلى بلاد بريطانية فلم يشتهر فيهما إلا بالجبن وضعف العزيمة ولم تر عينه يوما صفوف العدو ومع ذلك فقد كتب يوماً إلى أعضاء مجلس رومة يقول لهم بينما أنتم عاكفون على اللذات منبسطون على بساط الشهوات فأنا معرض نفسى للأخطار واقتحام العقبات.

وكان أشدّ جميع من سلفه ظلما بل أشد جميع قياصرة الرومانيين غدرا وعدواناً. وقد ألزم اليهود نصب تمثاله فى بيت المقدس فلم يقبلوا فضيق عليهم، وكذلك ضيق على النصارى الذين ببيت المقدس وزاد فى التشديد إلى حدّ الموت حتى ظهرت من بيته امرأة متمسكة بالديانة النصرانية فدافعت عنهم وردت أذاه فبقى اليهود يقاسون مضض البلوى . وقد كان رسم إلى والى مصر فى السنة الأولى من ملكه بغزوهم فغزاهم واستبعدهم سبع سنين وفى الرابعة من ملكه أمر عامله أيضاً على اليهود بفلسطين أن ينصب الأصنام بمحاريبهم فى بيت المقدس ففعل وكانت هذه الفعلة من أشد الضربات على اليهود فلما عظم فى الإساءة حاله وثقلت على جميع قلوب الرعية فعاله. قام عليه الأمير خرياس وقتله فى قصره فى سنة إحدى وأربعين للميلاد أى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة.

وكان عامله على مصر اوليوس قلاقوس فأساء السيرة وظلم الرعية فكانت أيام ولايته كلها فتناً وبلايا وإحنا وعلى الخصوص فى مدينة الإسكندرية إذ ضيق عليها

وبالغ فى تذليل أهلها وشدّد على من كان بها من اليهود فخرجوا عليه وشقوا عصا الطاعة وثابروا على قتاله حتى خلعوه وقتلوه فسكنت بقتله الفتنة واستقرت الأحوال.

ولما مات قاليغولا تولى الملك بعده قلودس الأوّل وسيأتى الكلام عليه.

(فى الإمبراطور قلودس الأول)

ثم قام بالأمر الإمبراطور قلودس سنة إحدى وأربعين للميلاد أى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة ولقب بلقب إمبراطور وكان أمر توليته المنصب الملوكى من الأمور العجيبة والصدف الغريبة وذلك أنه لما قتل خرياس قاليغولا هاجت العساكر والأجناد ودخلوا قصر الملك لينهبوا ما فيه من الأثاث والأمتعة فبينما كان أحدهم يفتش على شيء يأخذه إذ عثر على شخص طويل القامة أصلع الناصية مختف وراء الفراش مرتج الجوارح فاقد الحواس فأمسك به الجندى وصاح من الرجل فقال أنا قلودس من آل بيت جرما نيقوس فصاح الجندى على أصحابه هلم إلى قلودس فأحاطوا به وسلموا عليه بالقيصرية ولقبوه فى الحال بامبراطور الرومانيين وحملوه على هودج وساروا به إلى معسكرهم فوضعوه هناك فلما استقر به المكان أفاق وعادت إليه حواسه فبايعه الحرس الملوكى فأنعم على كل واحد منهم بخمسة وعشرين دينارا ليستميلهم إليه ووعد بقية الجنود بأحسن العطايا فصارت هذه الفعلة من ذلك الحين عادة مستمرة ورسماً من رسوم ابتداء التولية للخلافات وصارت سنة متبعة وكان قلودس المذكور مجرداً من المكر والحيلة منزها عن الغدر والأذى ولكنه كان فى غاية الحمق والغفلة ولذلك كانت تلقبه أمه فى طفوليته بأضحوكة العالم وبالصورة الخيالية فإنه كان وهو فى مهده أيضاً مبتلى بداء الهزال فأورثه نحافة الجسم وسخافة العقل ومع ذلك فقد كان ذا باع فى الإنشاء والتآليف فألف تاريخ رومة وقرطاجة وأحسن ضبطه وإحكامه ولما كان عاجزاً عن حمل أعباء الملك وتدبير الأمور سلم إدارة البلاد إلى المعاتيق والموالى وقلدهم أموره كلها مع ما هم عليه من الشرور والقبائح فنبغ منهم اثنان أحدهما اسمه بلاص والثانى اسمه نرجا فكانا أعز وزرائه وأعظم أمرائه وقد تملكا على عقله فكانا يغريانه على ارتكاب الفجور والعدوان وعلى قتل خيار الناس من الوجوه والأعيان وكان له زوجة خبيثة الطوية تسمى (مسالينه) وكانت ممن ينكرن العشير ويكفرن بالكثير واليسير وكانت تبغضه بغضاً شديداً وتميل إلى زواج شاب من الأمراء تحبه فعقدت يوما النيه على قتل زوجها لتولى محبوبها المنصب الملوكى فآنس منها ذلك فقام عليها وقتلها وتخلص

من شرها ومن هذا الحين صحا من سكرات غفلته وداخلته بعض الحماسة والفتوة وعدل عن طباعه الأصلية وتزوج بزوجة أخرى اسمها (اغربينه) وهى بنت جرما نيقوس من نسل أغسطس قيصر فلم تكن فى الخيانة دون الأولى بل تزيد عنها وكان لها من زوجها الأول ولد اسمه نيرون الجبار وكان للقيصر ولد آخر من ضرتها التى ماتت فكانت تغار منه جداً وتحقد عليه وتطمع فى تولية ولدها الملك فعقدت النية على أن تسم زوجها قلودس ودبرت له سماً بطيأً فشربه فلم يمت فى الحال فخافت من ظهوز أمرها واستدعت طبيباً اسمه زنفون وكاشفته بسرها فوافقها على ذلك وتقدم للملك فى أنه يسقيه علاجاً لاستفراغ ما فى جوفه وأدخل ريشة مسمومة فى حلقة فكانت سبباً فى تعجيل موته فمات لوقته وذلك سنة أربع وخمسين للميلاد أى سنة ثمان وستين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة كلها محن وشدائد.

وفى أيامه قامت فى مصر فتنة بين أهل الإسكندرية واليهود الذين بها وكانت عظيمة جداً اقتتل فيها الفريقان قتالاً عنيفاً فبادر إلى تسكين الفتنة بالتى هى أحسن ومنح لليهود أن ينتخبوا لهم نقيباً منهم يحكمهم على حسب مالهم من العهود والمواثيق فاستتب بذلك الأمن وحصلت الراحة، وفى أيامه أيضاً كتب متى أحد حوارى المسيح إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى إلى الرومية وكذلك كتب بطرس رأس الحواريين إنجيله بالرومية ونسبه إلى تلميذه مرقص وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض الأكابر من الروم تذكرة.

ولسبع خلت من ملك قلودس المذكور دخلت امرأة من كبيرات الروم فى الديانة المسيحية على يدى شمعون الصفاء فجاءت إلى بيت المقدس لتعزيز جانب الدين ثم عادت إلى رومة وكذلك اتسعت فى أيامه بمصر دائرة العلوم والمعارف وأنشئت فى مدينة الإسكندرية دار للعلوم وتحسنت بها حالة المدارس والمكاتب وعادت إلى ما كانت عليه من علو الشأن: قال بعض الكتاب: ولكن لم يكن اجتهاد العلماء والفضلاء فيها فى هذا الحين بقدر ما كانت الهيئة الحاكمة تجلهم وتحترمهم وبموت قلودس تولى الملك بعده نيرون قيصر.

(فى الملك نيرون قيصر)

ثم قام بالأمر نيرون قيصر تولى الملك سنة أربع وخمسين للميلاد أى سنة ثمان وستين وخمسمائة قبل الهجرة وهو ربيب قلودس الملك فتبناه وزوجه بنته المسماة

اقطاوه وكان أمر تولية نيرون المذكور المنصب الملوكى عجيبا فى بابه وذلك أنه لما احتضر قلودس وكان الطبيب يعالجه فى حالة النزاع أظهرت زوجته اغريبينة أم نيرون غاية الجزع وبالغت فى حزنها وتقدمت إلى ابنه من ضرتها المسمى ابريطانيقوس وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها وتقول وعيناها تذرف الدموع إنك يا بنى على صورة أبيك قلودس الذى لا صبر لى على فراقه ولا سلوان لى عنه إلا بك فلا تفارقنى أبداً ولا تتركنى وحيدة لهذه الهموم وأكثرت من عبارات الأسف والحزن فظن ابريطانيقوس أن الأمر صحيح فلما آنست منه ذلك منعته من الخروج من القصر وأمرت فأغلق الحراس جميع الأبواب والمنافذ وأشاعت بأن الملك قلودس متجه إلى الصحة فلما مات أخفت خبر موته أياما واست فيها الجنود بالهدايا وأتحفتهم بالتحف العظيمة وعملت على تولية ابنها نيرون تخت الملك ومازالت حتى تم له الأمر على ما أرادت ثم أمرت بفتح الأبواب بغتة وخرج نيرون فى وسط جند الحرس القيصرى فتلقوه بالترحيب وسلموا عليه بالقيصرية وبايعوه فى الحال فذهب إلى المعسكر الرومانى وتلا عليهم خطبة تتضمن تشويقهم وإحياء قلوبهم ووعدهم بالإنعامات العظيمة فسلموا عليه بالقيصرية والإمبراطورية الرومانية فلم ير أرباب المجلس بدا بعد هذا كله من مبايعته وكذلك فعل أهل الحل والعقد ثم جهزوا الملك قلودس وشيعوا جثته مع غاية الاحتفال والإكرام.

ولم يكن عمر نيرون إذ ذاك إلا خمس عشرة سنة فحكمت أمه بالنيابة عنه وكانت تظهر عليه علامات النجابة وعلو الهمة وكان لا يأتى أمراً فى صباه إلا بعد استشارة معلميه بوغوس وسناخس وقد استوزرهما فكان الأول منهما ممتازاً بالمعارف والفنون العسكرية مع الشهامة وحسن الاستقامة وكان الثانى يمتاز بذكاء القريحة وقوة الفطنة وحسن السير مع الرعية ومما يحكى عن نجابة نيرون المذكور أنهم عرضوا عليه يوما قضية حكموا فيها على أناس بالموت وطلبوا منه أن يوقع على الحكم فاغرورقت عيناه بالدموع وقال (ليتنى كنت أميا) ومدحه أرباب المجلس يوما فقال لهم (امسكوا عن المدح حتى أستحقه) وكان يظهر من حاله أنه يألف الحلم والعدل ولكنه لم يلبث أن تغيرت أحواله وانعكست أعماله وتبدلت أخلاقه إلى عكس ما كانت عليه فطغى وظلم وتجبر وتغشمر ولم يتدين بدين ما واضطهد النصرانية غاية الاضطهاد وصار يقتل كل من تمذهب بها ورسم بقتلهم فى جميع الإيالات التابعة لرومة فقتل منهم خلقاً كثيراً وقتل بطرس رأس الحواريين وقد كان يومئذ بطرك رومة ومضى على بطريكيته مدة خمس وعشرين سنة وأسباب قتله معلومة فلا داعى لذكرها هنا فقام بعده أريوس بطركا على رومة.

وفى الخامسة من ملك نيرون هذا يعنى فى التاسعة والخمسين للميلاد كانت بعثة مرقس الحوارى أحد السبعين للدعوة بالإسكندرية ومصر وبرقة وبلاد العرب فطاف فى هذه المدن ونادى بالإنجيل وحث وخطب ووعظ فتبعه خلق كثير وكانت ديانة المصريين يومئذ الوثنية وعبادتهم للنجوم والحيوانات كما تقدم بيان ذلك فى محله فدخلت النصرانية فى مصر وأرضها مشحونة بالأهالى عامرة بالسكان يبلغ عدد من فيها اثنى عشر ألف ألف عدا مختلطى الأنساب مابين قبطى بحت وحبشى ونوبى وإسرائيلى الأصل وغيره واتخذ مرقس الإسكندرية مقراً وأقام يدعو الناس فذاق من الشدائد أشكالا وألوانا ومازال يحض الناس ويعلمهم ويقربهم إلى الله تعالى وكان فصيح اللهجة وديعاً متواضعاً فنجحت تعاليمه وكثرت النصارى واتسع نطاق المسيحية وكادت تعم الديار المصرية والنوبة وكان له رفيق اسمه حنانيا ويقال له أيضا (اينايو) فأقامه بطركا بالإسكندرية وهو أول البطاركة بها وجعل معه اثنى عشر قسيسا وأمرهم أنه إذا مات حنانيا البطرك أن يجعلوا عوضه واحداً منهم ويقيموا بدل ذلك القسيس واحداً من الشعب المسيحى يختارونه حتى يكونو أبداً اثنى عشر قسيسا فنمت المسيحية وظهرت وتمذهب بها الكثير من أرباب المناصب العالية والأكابر والأعيان وبعض رجال الدولة فساء هذا كهنة المصريين وأهل العلم بمدينة الإسكندرية ووقعت بين الفريقين مناظرات ومجادلات دينية أياماً طويلة كان الظفر فيها لمرقس وأصحابه فلما كانت السنة الثانية عشرة من ملك نيرون قامت الكهنة وخدام الهياكل والمعابد المصرية وأهل الإسكندرية وأثاروا الفتنة على النصارى وأضرموا نارها وقبضوا على مرقس الحوارى وقتلوه وكان موته غاية فى الشناعة وطافوا بجثته فى جميع الطرق مسحوبة على الأرض ومثلوا بها أشنع تمثيل وتتبعوا النصارى وأفحشوا فى قتلهم والتنكيل بهم فملئوا بجثثهم أكثر الطرقات وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً.

وقتل أيضا نيرون قيصر رئيس كهونية اليهود ببيت المقدس فثار لذلك اليهود على من كان من النصارى ببيت المقدس وقتلوا أسقفهم هناك وهو يعقوب النجار وهدموا البيعة وأخذوا الصليب الذى صلب عليه المسيح والخشبتين اللتين كانتا معه ودفنوهما فى مزبلة إلى أن جاءت هيلانة أم قسطنطين الملك وأخرجتهما كما سيذكر فى محله فولى مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون ثم ثار عليهم اليهود ثانية وأخرجوهم من بيت المقدس لعشرين خلت من ملك نيرون فاجتازوا الأردن وأقاموا هناك فبعث نيرون قائده المسمى وسباسيانوس إلى بيت المقدس وأمره بقتل اليهود الذين كانوا هناك كافة وتخريب البيت فأوى اليهود إلى ثلاثة حصون بنوها

فحاصرهم وسباسيانوس وخرب حصونهم وأحرقها وأقام عليهم سنة كاملة يقاتلهم حتى أذلهم وكاد يفنيهم.

ونزع نيرون أمه من النيابة عنه وخالف مشورة وزيريه واتبع هوى نفسه فاستكبرا الأمر ولكنهما لم يريا بداً من موافقته على ما وطن نفسه على عمله وكانت أمه اغريبينة تحب أن تكون نافذة الكلمة مطاعة الأمر والنهى فى جميع الأحكام الجنائية وغيرها وكانت تخشى جداً أن يبقى ابريطانيقوس ابن ضرتها حيا فينتزع الملك من ولدها نيرون فشكت أمرها إلى رؤساء الجند وبالغت فى سوء تصرف ولدها وعجزه عن حفظ صولجان الملك فى يده مادام ابريطانيقوس حيا فوافقوها على ما رأت وصمموا من ذلك الحين على قتل ابريطانيقوس فبينما هو على المائدة يأكل مع نيرون وبعض الأقارب والحشم إذ سقط مغشيا عليه وذلك لأن نيرون وضع له السم فى كأس الشراب وسقاها له فلما رأى الحاضرون سقوطه تفرقوا مذعورين ومن بقى منهم صار مبهوتا ينظر إلى نيرون شزراً أما نيرون فإنه لم يبال بذلك بل اضطجع على فراشه ومد رجليه كأنه لا يعلم سبب موت أخيه وقال لا تعجبوا فإنه مريض من زمن وأن لاشىء فى موته ثم أمر فجهزوه ودفنوه ليلا بغير احتفال وقسم أمواله وأملاكه على الذى اتفقوا معه على قتله ومن هذا الحين أحاط بنيرون أرباب الفسق والعصيان وأصحاب اللهو واللعب والإلحان وقطاع الطريق وخوان الرفيق فكان يلبس فى الليل متنكرا فى زى المماليك ويطوف بأطراف المدينة صحبة هذه الزمرة الشريرة ينهبون الحوانيت ويؤذون المارة وأبناء السبيل فكانوا إذا أحس بهم أصحاب البيوت أو تلك الحوانيت قاموا عليهم وضربوهم فيقع الضرب بينهم ويصيب القيصر منه شىء كثير وربما شجوا رأسه أو أثخنوه جراحا ثم لم يلبث حتى انكشف حاله وعلم الناس بأنه هو الذى يطوف متنكراً ومعه أولئك الأشقياء فاقتدوا به وعملوا على شاكلته فكثر التعدى والسلب والنهب وصارت مدينة رومة فى الليل كأنما هى مدينة قد أخذت عنوة بعد قتال لا يمر فيها أحد إلا ويرجع إلى بيته عريانًا وقد جرح نيرون المذكور فى ليلة جراحاً كبيرة فى قتال اشتبك بينه وبين الأهالى فاحتاط من ذلك الوقت وصار لايطوف إلا ومعه بعض الجند المتنكرة وبعض المصارعين ولم يزل على هذه الحال زماناً طويلاً حتى ضاقت نفوس الرعية منه وتمنوا هلاكه.

ولم تطق أمه الصبر على ذلك ولا على سقوط نفوذها وذهاب كلمتها فأخذت تعمل على ارجاع ما كان لها من السلطة والنفوذ وتسعى خلف إيقاف ولدها نيرون عند حد الطاعة والرضوخ لكلمتها فلما آنس منها ذلك اشتد بغضه لها وصمم على

قتلها وكان من أشد أمرائه فتنة وفسادا الأمير انيقاطوس أمير البحر فكاشف انيقاطوس المذكور على ما فى خاطره من قتل أمه فوافقه ودبر له الأمر بأن أنشأ لها سفينة على شكل عجيب ينفصل منها جزء عن أجزائها الحقيقية ويتصل فى الظاهر بها بحيث لو سقط فى البحر تبقى السفينة بتمامها كاملة لا يخشى عليها من الغرق فلما تم بناء السفينة المذكورة على هذا الشكل أظهر القيصر رغبة زائدة فى عمل عيد هيكل عطارد بمدينة (بايس) التى هى ساحل نابولى وكان له فى هذه المدينة قصر وحمامات ومتنزهات فدعا أمه وأعلمها بذلك وطلب منها أن تصفح وتعفو عما فات فحضرت إليه راكبة على سفينة فاستقبلها فى كبكبة وزينة وأخذ بيدها وعانقها وضمها إلى صدره وبالغ فى ملاطفتها حتى رقت إليه وحنت عواطفها عليه ولبثت عنده اليوم بطوله فلما قصدت الرجوع إلى مستقرها قام معها إلى الساحل وكانت السفينة التى أعدها لركوبها هى التى صنعها انيقاطوس مزينة بأحسن الزينة فأنزلها فيها وعانقها فقبلته وودعته وسارت بها السفينة وهى لا تدرى ما نصبه لها من الشرك وكان المسير فى ليلة مقمرة تحسن فيها الملاحة فلما توغلت السفينة فى البحر انخسف فى الحال مجلسها وانفصل عن السفينة وسقطت الملكة ومن معها من أتباعها والتهمتهم الأمواج وظهرت على وجه الماء إحدى النساء المصاحبات للملكة فصاحت خذوا بيدى أنا اغريبينة أم الملك رجاء أن تتخلص من الغرق فضربها أحد الملاحين بمجذاف على أم ناصيتها فقتلها أما اغريبينة أم الملك فإنه لم يحصل لها من سقوطها فى البحر إلا جرح خفيف وكانت تحسن السباحة والعوم فسبحت وجاهدت حتى وصلت إلى بعض سفن للتجارة كانت راسية على مقربة واستغاثت فعرفوها وأخرجوها وذهبوا بها إلى قصرها سالمة وقد علمت بما كان دبره لها ولدها من الهلاك ووجدت أن كتمها لهذا السر أولى وأحسن وتدبرت فى أمرها وكتبت لولدها تقول كن مطمئنا يا بنى فقد نجوت بالألطاف الإلهية من الغرق وتخلصت من الموت فلا يشغلنك شاغل من جهتى فخاف نيرون من ذلك جداً وعلم أنه قد خاب أمله وخشى أنها إن عاشت أثارت عليه الفتن وأقامت الإحن وأغرت الجنود واستمالت القواد وأرباب الحلل والعقد فسعى فى طلب قتلها على أى حال كان وألح فى ذلك على كثير من أرباب الفساد فبرز له صاحب الحيلة الأولى وتعهد بقتلها فأقسم له الملك إنه إن فعل ذلك ليكافئنه أحسن مكافأة فقام انيقاطوس وغاب ليلة وعاد إلى نيرون فى الصباح وقد قتلها فلما بلغ نيرون خبر قتلها فرح فرحاً ما عليه من مزيد وأشاع أنها قتلت نفسها ومن ذلك الحين صفا الوقت لنيرون وخلا له الجو ففعل بالبلاد وأهلها ما لم يفعله غيره من قبل.

وكان له زوجة عـفيفة حسنة الأخلاق حـميدة السيرة اسـمها (أوقطاوية) قل أن يوجد مثلهـا فى الخلق والخُلق فلم ينظر نيرون إليها ولم يراع لها حـقا وتعلق بامرأة اسمـها بوبه كانت من العـاهرات وشغف بحـبها فـعقد عليـها وقصـد الخلاص من أوقطاويه وأمر بقتلها فسيقت إلى القتل وماتت شـهيدة الغدر والخيانة وكان فى ساعة قتلها عـاكفاً على اللهو مشغـولاً بما فى محافل اللعب والقصف وقد اتخـذ له ملعباً عظيما ضرب عليه من جميع الجهات الأسوار فكان يأوى إليه بالليل والنهار ويجرب نفسه فى اللعب والغناء والرقص وسوق العجلات ويجمع إليه خدمه وحشمه فيلعب أمامـهم بلا حياء ولا خـجل حتى برع وتفنن فى جـميع هذه الألعـاب وكان يركب الإبل ويعدو عليهـا ويجمع الحيوانات للهراش ويعمل الولائم ويدعـو إليها الخواص والعوام وينفق الأموال بلا حساب فأوى إلى ميدانه الغوغاء وسفلة الناس الذى لا هم لهم سوى الـكسل وكانت جدران هـذا اللعب مطلية بالذهب الإبريز مكسـوة بحلل السندس المطرز وعمل الأشراك والشباك التى كان يصطاد بها من القصب المصنوع من الذهب والفـضة وكان إذا ذهب إلـى اللعب سار بألف عـربة تجرها البـغال المطبـقة باللجين (الفضة) وكان يصحبه سـاسة الخيل والسعاة متحلين بالملابس مزدانين بأنواع القماش وكان إذ لعب أطلق فى ميدان اللعب أصناف البـخور الثمينة كالمسك والعنبر وغير ذلك من أنواع السرف والتبذير.

وبينما هو عاكف على اللهو فـى ذات يوم إذ وقع بمدينة رومة حريق هائل أخذ يدمر المدينة وسرى فى أطرافها أسرع من البرق فـأهلك خلقاً كثيراً جداً فضج الناس وخرجوا على وجـوههم هائمين وكان كل من اقترب لإطـفاء شىء من تلك النيران عاد خائفـاً مذعوراً إذ كان يسمع صوتاً هائلاً مـرجفا يتهدده ولايرى شخـصه وكان الناس يبـصرون شـعل النيران الملتـهبـة ترمى فى المدينة وبهـا أصوات تصـيح نحن مأمورون بذلك قـيل وكان نيرون فى هذا الحين ينظر الحريق على بعد ويتـفرج عليه مستحسناً ذلك المنظر الهائل وهو إذ ذاك بزى اللاعـبين عند نشد الأشعار التى قيلت فى رسوم ترواده ومعـالمها وأطلالها بعد خرابهـا وهو يتغنى بها متمـثلا فلما رأى أن الحـريق قد دمـر البيـوت وأهلك الأمـتعـة وأذهب الأمـوال وقد خـرج الناس على وجوههم هائمين لا مأوى لهم ولا زاد جمع فى مـيادين تعليم الجند وفى غيرها من المحال الأخـرى جمـيع الناس وأباح لهم سكنى بسـاتينه وبنى لهم الدور والمسـاكن بأسرع ما يمكن وفرشهـا لهم وفرق عليهم بعض الأثاثات والأدوات المنزلية وأرخص أثمان الحبوب والأقوات كل هذا ليستميلهم إليه فلم يجد نفعاً إذ اتهموه بفعل الحريق

وتدميـر البلد حيث شرع فى بناء قـصر مزين بالذهب والأشجـار النفيسة وكـان قد رسمه متسعاً وأدخل فيه البساتين والحدائق والمزارع والبرك والأنهر والغابات والرياض والحياض فلذلك اتهموه بفعل هذا الحـريق فلما آنس منهم ذلك وكان يكره النصرانية وأهلهـا كمـا تقـدم القول أشـاع أن هذا الحريق إنما هـو صادر من النصـارى الذين تظاهروا بدين المسيح فى رومـة وتتبعهم بالأذى وأنواع التعـذيب وبالغ فى ذلك جدا فكان يأمر بهم فيلبسون جلود البهائم ويطرحون للكلاب فتنهشهم وكان يأمر بصلب بعضهم ويأمر بدهن جلود بعضهم الآخر بالدهون والزيوت والنفط والقطران حتى إذا أظلم الليل أطلقوا فيهم النيران وأوقدوهم كالمشاعيل ليستصبحوا بهم والعياذ بالله.

وكانت هـذه الفعال الشنـيعة تفـعل فى حدائق نيـرون وبساتينه وقـت الألعاب الميدانية وكـان يشاهدها بعينى رأسه ويتدرج بـين الناس فى زى سائس أو فى صورة أخرى لـيعلم مـا يقولون وشـدد الوطأة على النصارى ومـات فى خلال هذه الفـتنة العظيمة بطرس رأس حوارى المسيح وبولس الحوارى قتلا بعد أن جاهدا فى دين الله ودعيا الناس وصنعا العجائب والآيات العظيمـة وقد استشهد بطرس مصلوبًا منكس الرأس كما طلب كى لا يتشبه بالمسيح وكان استشهاد بولس بضرب عنقه وقد تلطفوا فى قتله لكونه رومانيا ولم يزيدوا فى تعذيبه كما فعلوا ببطرس.

ولما عادت رومة إلى رونقهـا وبهجتها بعد الحريق الذى دمـرها قامت نار الفتنة فى داخليـتها وخـرجت الرعيـة على نيرون وطلبت إبطال الألعـاب والملاهى وهدم الميادين العـمومـيـة وقام أرباب المجلس والأمراء والأعـيان بل والنسـاء وتواثقوا على ذلك وتحالفوا عـلى كتمان الخبـر حتى يقوموا عليـه قومة واحدة فلم يلبـثوا أن ظهر سرهم وانحل عـقدهم فقام نيـرون وقبض على الأحزاب وبالغ فى تعـذيبهم بأنواع العذاب وكـان من أعيانهم رجل اسمــه (سوبريوس) فلما أتى به أمام نيـرون قال له بقلب ساكن تـرى أيها الملك من يصدق فى خـدمتك من هؤلاء الجنود إلا بقـدر ما تريه من المحبة وما تفعله معه من المعروف أما أنا فقد وطنت النفس على بغضك من اليوم الذى قـتلت فيـه أمك ومن وقت قتلك زوجتك ومـن يوم أن صرت عربجـيا ومصارعا ومغنيا ومحرقا لمدينة رومـة العظمى فقال نيرون خذوه عنى واقتلوه فقتلوه فى الحال بلا مهل.

وقد عـذب بعض من اتهمـهم بالفتنة من أهل الفـضل والآداب تعذيبـاً شديداً فقطع عروقهم وفـتح أوعية دمهم ولازال يستفرغه حـتى ماتوا واتخذ الغناء وضرب الألحان واللعب فى الأفراح العامـة حرفة فإنه لما بدأ بإنشاء الأشعار الحمـاسية وعزم

على الظهور بمظاهر أصحاب هذا الفن قام عليه أهل هذه الصناعة وطلبوا منه الامتحان فتقدم فى الميدان العام بزى لاعب وعلى هيئة مصارع وفى صورة مغن ووقف موقف الخاشع ثم جثا على ركبته بعد أن غنى وتنقل من طبقة إلى أخرى فهلل له المتفرجون وفرحوا به وتقيد اسمه فى دفتر أهل هذا الفن وكان كما تقدم القول شديد الحرص على أن يرى ميدان اللعب فى أوقات اللعب ساكنا مرتبا لا لغط فيه ولا تشويش فاتفق أن الأمير وسباسيانوس الذى ولى بعده حينا منصب الملك كان فى ميدان اللعب فتغلب عليه النعاس وظهر منه غطيط فغضب نيرون وأمر بقتله ولولا شفاعة من لا ترد شفاعته لقتل وكذلك (بوبه) زوجته التى كان يحبها كثيرا قالت له يوما على سبيل التهكم إنك لاعب من أمهر اللاعبين فغضب وضربها فى بطنها برجله ضربة أزهقت روحها وماتت فى الحال وهو لايتحرك من موقفه ولم يتأثر.

وقصد نيرون المذكور المسير إلى بلاد اليونان فسار من رومة يريد بلادها فخطر على باله أن يرى هل لرجالها وأرباب الفن بها براعة فى فن الألحان فنزل بمدينة قورنثية ومع أعوانه يحملون المزامير والعيدان وكان يونان هذه المدينة وضواحيها لهم شهرة عظيمة بهذه الفنون فانتصر عليهم نيرون نصرة عظيمة وأنزل تماثيل فحول رجالهم الذين كانوا اشتهروا فى سالف الأعصار بالسبق فى هذه الألعاب الأولامبيقية، والألعاب الأولامبيقية نسبة إلى أولامبيقة ، وهى بلدة ببلاد اليونان كان بها موسم يجتمع إليه الناس فى كل أربع سنين كسوق عكاظ عند العرب وفيه تكتسب الامتيازات اليونانية وبهذه المواسم المتكررة فى كل أربع سنوات يؤرخ اليونانيون وقائعهم فيقولون حادثة كذا وكذا وقعت فى الأولامبيق الأول عبارة عن أربع سنوات فكان تنزيل نيرون لتماثيل فحول اليونان تحقيراً لهم ولكنهم صانعوه وصفقوا له نفاقا وكانت هذه الواقعة بمدينة قورنثية بإقليم اخاما وكانت هذه المدينة إذ ذاك تحت استعباد الرومانيين ورقهم فأعتق لذلك إقليمهم وأعاد اليه حريته القديمة وذلك سنة سبع وستين للميلاد أى سنة خمس وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة ثم عاد إلى رومة وقد أخذ منه الطيش والإعجاب مأخذه فلما دنا من أسوارها أمر فهدموا له جانبا من الأسوار فدخلها من هذا النقب راكبا عجلة تجرها خيول بيض وهو متشح بحلة أرجوانية ملوكية وخوذة مرصعة بنجوم فضية وذهبية وعلى رأسه تاج النصرة اليونانية المصنوع من أغصان الزيتون البرى وفى يده إكليل آخر من شجر الغار وكل هذه علامات على الانتصار وأمامه جماعات حاملون ألف إكليل وثمانمائة

إكليل مكتوب عليها أسماء القدماء الذين نالوا هذه الأكاليل وامتازوا بها وحول عجلته المغنون وهم يشيدون بمدحه وأمامه المباخر والعطريات يعبق شذاها وأناس كثيرون ينثرون الأزهار واللآلئ فى هذا الموكب وأمر أن يصنعوا تماثيله ويصورروه على هيئة أرباب الطرب والألعاب وأن توضع هذه التماثيل فى الميادين العمومية وأن يرسم بهذا الوجه على النقود والسكة واشتد به الهوس إلى درجة أنه أمسك عن كثرة الكلام والتزم الصمت خوفاً على صوته من البحة وقلل الكلام مع جنده وخدامه وعبيده .

فلما كثرت شروره واشتدّت على الرعية مظالمه صمموا على قتله وكان من جملة الأقاليم الرومانية إقليم فرنسا القديم الذى كانت أهله تسمى الغالية وكان على هذا الإقليم نائب يسمى (ونديش) من ذرية ملوك الفرنسيس فحقد على نيرون وأبغضه بغضاً شديداً وناواه وقصده بالحرب وعرض تقليد مملكة رومة على نائبها أسبانيا المدعو (غلبا) فلما أحسن نيرون بذلك استعان بقائد جنود جرمانيا وركب على ونديش المذكور وقتله وتجهز بعد قتله إلى الركوب على غلبا نائب أسبانيا والبطش به أيضا فعاقه ما بلغه من مبايعة مجلس رومه لغلبا المذكور وتسلمه صولجان الملك فأحجم قائد جند جرمانيا المذكور عن معاونة نيرون وعن القيام إلى أسبانيا أما نيرون فإنه لما أيقن أنه لا محيص له عن الهلاك تقاعس عن الحظوظ وانكف عن الشهوات وهرب من رومة مع أربعة من عتقائه ونزل بقصر له فى الخلاء يبعد عن رومة بعض فراسخ فأشار عليه بعض أصحابه أن يقتل نفسه قبل أن تدهمه الأعداء فيقتلوه فلم يجسر على ذلك لأنه كان يكره الموت وكان لا يكف عن البكاء والنواح ويقول كيف يصح قتلى والعالم بأسره فى حاجة إلى . . . .

وبينما هو على هذا الحال من البكاء والنواح إذ سمع صهيل الخيل وصرير سنابكها وقد حضر الفرسان وأحاطوا بالقصر وضيقوا عليه فقال لأصحابه هيا بنا فقد أوجبت الشجاعة على أن أقتل نفسى حين لا حيلة لى فيما دون ذلك وهم بقتل نفسه وشجعها فلم يقدر وكان كلما رفع يده بالخنجر ارتعشت وعادت إلى جانبه فكان من بعض أصحابه أن أمسك يده وهى قابضة على الخنجر ووضعها على منحره ليشجعه فتجلد لذلك وطعن نفسه فأزهقها فكان موته فى سنة ثمان وستين للميلاد أى نحو سنة أربع وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وبموته وانقطاع حكمه انقطعت عائلة أوغسطس قيصر وتم الأمر للقيصر غلبا كما سيذكر فى محله.

قال بعض أهل التاريخ: ومع ما كان عليه نيرون من الفسق والطغيان وانغماسه

فى دناءة اللهو واللعب وغير ذلك من قبيح الفعال كان لا يختار نوابه وعماله فى البلاد التابعة لمملكته إلا من أهل الفضائل والكمالات فكانوا جميعاً يحسنون سياسة البلاد وتدبير الجمهور وكان حريصا على معرفة الحقائق وكشف تفاصيل الصغائر والكبائر وقد كان استعمل على مصر الأمير بلبيلوس فأحسن فيها الصنيع وأصلح أراضيها وأخصبها بتدبير النيل ووسع نطاقها فعمرت وزادت رونقاً وبهجة وعمت الراحة ربوعها وانكف أهلها عن المشاغبة وعلى الخصوص منهم يهود الإسكندرية وكان لنيرون المذكور اعتناء زائد بتحسين أحوال مملكة مصر ورغبة كبيرة فى طلب معرفة منبع النيل فبعث من الرومانيين جماعة لاستكشافه فساروا وخرقوا جوف السودان وعادوا بما عرفوه من أحوال تلك الأصقاع وموقعها الطبيعى ـ وحكى أن أحد نبلاء الرومانيين اجتمع باثنين من رجال هذه البعثة بعد رجوعهم فحدّثاه بهذه العبارة وصلنا بعد سياحة طويلة إلى ملك السودان فأعطانا الزاد والراحلة وأمدنا بالذخائر وأعاننا على هذا السفر الطويل بأن أوصى علينا الملوك المجاورة لبلاده فأباحوا له الجولان فى بلادهم فسرنا حتى انتهى بنا المسير إلى محل ذى بحيرات وبطائح وبرك يصعب السير فيها حيث هى مجهولة المعالم مملوءة بالأشجار المتكاثفة، قالا: وقد وجدنا هناك صخرتين عظيمتين تخرج عندهما المياه بغاية القوّة فما علمنا هل هما منابع النيل أو أن منابعه بعدهما أو أن هذين المنبعين هما فى طريقه ومنبعه الحقيقى بعيد عنا ا هـ.

وكان نيرون يحب مملكة مصر محبة عظيمة فقصد الحضور إليها وتجهز لذلك وكان إذ ذاك عامله عليها طقسوس أخاه من الرضاع فأرسل إليه يعلمه بقدومه وأرسل رسلا يجهزون ما يليق باستقباله فجهزوا ما لزم وعملوا له حمامات خصوصية لغسله فدخلها طقسوس ليتفرج عليها فأعجبته فاغتسل بها فلما علم نيرون بذلك أمر بقتله ولم يراع أخوة الرضاع ولا حقوق النيابة وحين أشرف نيرون على حد الارتحال إلى مصر حلت فى مدينة رومة الفتنة الداخلية وقامت على ساقها فقتل فيها كما تقدم القول فكانت مدة ملكه نحو ثلاث عشرة سنة وخلفه إسليقيوس غلبا المتقدّم ذكره.

(فى الملك إسليقيوس غلبا قيصر)

ثم قام بالأمر إسليقيوس غلبا قيصر بويع بالملك سنة ثمان وستين للميلاد أى سنة أربع وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة عقب موت نيرون وانقراض عائلة أوغسطس قيصر وكان غلبا المذكور من عائلة شهيرة بالحسب والنسب بين عائلات

إيطاليا وكـان شيخاً كـبيراً معـمراً نحو ثلاث وسـبعين سنة وكان سـبب ارتقائه هذا المنصب أن جميع الجنود الرومانية اجتمـعوا وتشاوروا بينهم فى أمر تولية ملك عليهم من غير مدينة رومة فـأجمعوا أمرهم سرا على انتخاب غلبـا هذا وكان موسرا بالمال بخيـلاً صعب الأخلاق مـدققا فى الإدارة والتدبيـر مشدّداً فى الصـرف والإنفاق لا يلائم طبعه طبع الرومانيين فى الكرم ولم تكن رغبة العـساكر فى توليته إلا ليعطيهم من العطايا والمرتبـات عوائدهم التى عودهم عليـها من سلف من ملوكهم فـصارت عندهم رزقا لا مقطوعا ولا ممنوعا فلما ارتقى المسند واستقر به أمسك عن الإنعامات المعتادة للعساكر المنتخبة وغيرهم فطالبوه بذلك فقال إنى أختار عسكرى أحسن اختيار ولا يجمل بى أن أشـترى خدمـتهم بدرهم ولا دينار فأسكتـهم ثم قبض على وزراء نيرون الملك وعاقبهم وخلعهم واستوزر غـيرهم وشدّد عليهم بالاقتصاد والتزام طرق الحزم وعدم الإسراف فى الأموال فـاعملوا فضيقوا على العساكـر وقتروا عليهم غاية التقتـير فشكوا من ذلك فلم يلتـفت إليهم فركبـوا عليه وقتلوه وقبـضوا على وزيره المدعو بسقون وقتلوه أيضاً وطافوا به فى شوارع المدينة ومثلوا به تمثيلا.

وكان بمدينة رومة رجل من عائلة قديمة ماجدة يبسط للكرم يده ويمد للشجاعة ساعده صـاحب اسمه مرقـوس أوطون وكان مشهـوراً بسعة الإنفاق مثـقلاً بالديون للبذل فى مواساة الرفاق فاتفق الأمراء والعساكر على توليته المنصب واتحدت كلمتهم على ذلك فولوه فكانت مدّة ملك غلبا المذكور سنة واحدة فقط.

(فـى الملك مرقـوس أوطـون قـيصـر)

ثم قام بالأمـر مرقوس أوطون قـيصر بويع بالملك سنة تسع وستين للـميلاد أى سنة ثلاث وخمسين وخمـسمائة قبل الهجرة وريثما استـقر به المنصب وبايعته رومة والديار المصرية كـانت جنود الرومانيين فى بلاد جـرمانيا قد بايعت أيضـا ويطليوس وهو إيطالس الذى هو قـائدهم فـانقسـمت لذلك الدولة وفـشل أمرها وقـامت بين الفريقـين حرب هائلة واجتـمع الجمعـان واصطف الفريقان فـانهزم جمـاعة أوطون وانتصر أصحاب إيطالس فلما علم أوطون بانهزام أصـحابه دخل مخدعه وقتل نفسه فكانت مدة حكمه ثلاثة أشهر لاغير واستقر المنصب للقائد إيطالس المذكور وفى أيام أوطون على قصرها ضربت السكة باسمـه فى ديار مصر إذ كانت هى أول من بايعه ونقشت اسمه على بعض المبانى العـمومية قال بعض الكتاب وهو باق إلى الآن دون سلفه غلبا قـيصر وخلفه إيطالس إذ لم يوجـد لهما اسم بها ولا رسم وقد استـعمل على مصر طبريوس إسكندر اليهودى فطالت مدّته وسيأتى الكلام على وسباسيانوس قيصر الذى مات فى أيامه اينانو ثانى بطاركة الإسكندرية.

(فى الملك إيطالس قيصر)

ثم قـام بالأمر إيطالس قـيصـر ارتقى المنصب الملوكى فى اليـوم الذى قتل فـيه أوطون الملك فى سنة تسع وستين للميلاد أى أواخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهـجرة فلمـا استقـر به المنصب ذهب إلى مقتل أوطـون الذى قتل فيـه وأظهر الشماتة والفرح وقال لقواد عساكـره إن جثة العدو المقتول هنا لا يزال يشم منها على طول الأزمان وتداول الأيـام رائحة طيبـة فدل ذلك على خـسته وقلـة مروءته ولؤم طبيـعته إذ قـصد بذلك أن هزيمة أوطون سـتكون سببـا فى تنعيمـه وتلذذه بالمطعم والمشرب والانهـماك فى اللذات والشهـوات الحيوانـية وكان إيطالس المذكـور نحيف البدن ضـاوى الجسم شره النفس يقـضى أكثر أوقاته فى الجـلوس على الطعام وباقى سـاعات يومـه فى الاشتـغال بجلب الأطعـمـة النادرة العزيزة الوجـود من الأقطار الشاسعة والبلاد البعيدة وقد أحـضر له أخوه فى يوم واحد ألفى سمكة وسبعة آلاف طائر من أغرب الطيـور وأندرها وجودا وطبخهـا له وأحضرها على مـائدته ليشكره على ذلك فاستـخف بها إيطالس وبالغ فى السعى حتى تسـنى له أن جلب أكثر من ذلك وأعظم إظهارا لاقتداره وعلو نفسه.

ولما لم يكن له هم سوى بطنه وقد ترك أمور البلاد وشئون المملكة غير ناظر إلا لإشباع جوفه قامت علـيه الرعية والوجهاء والأعيان ونادوا بخلعه فوافـقتهم العساكر الرومانية والإيالات المشرقية والديار المصرية وأجمعوا على مبايعة الأمير وسباسيانوس القائد الشـهير فلما أحس إيطـالس بذلك أمر قواده بقتـال وسباسيـانوس والأحزاب فالتقى الفـريقان واقتتلا قتـالاً عنيفاً فانهزم أصـحاب إيطالس وولوا مدبرين وأتى له الخبر بانكسار أصحـابه وهزيمتهم وكان نائماً تحت ظلال الأشجار كالبهـيمة السائمة فلم يتحرك ولم تأخذه آخذة من الغم فلم يشعـر إلا وجنود وسباسيانوس قد احتلت رومة فهرب عند ذلك واختفى فى بيت لأحد حجابه فهجموا عليه وأخذوه ثم ساقوه إلى أحد الميـادين العامة وضربوا عنقـه فى ليل ذلك اليوم فكانت مدة حكمه ثـمانية أشهر أنفق فـيها فى مطبخه مـا قيمته نحـو مائتى ألف ألف درهم ولم يأت فى هذه المدة بشىء غير التغالى فى جلب المآكل النادرة الوجود من البلاد البعيدة فسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله.

(فى الملك وسباسيانوس قيصر)

ثم قام بالأمـر الملك وسباسيـانوس قيصـر بويع بالملك فى اليوم الذى قتل فـيه

إيطالس قيصر سنة تسع وستين للميلاد أى نحو سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وكان سبب توليتـه هذا المنصب هو أنَ السلطة الرومانية منذ أن صارت ملكية إلى هذا الحين كان قد مـضى عليها خمسون سنة وهى محـافظة على ما كان لها من العز والفخر وبعد الكلمة ثم مالت بعد ذلك بتعاقب القياصرة الذين لا رأى لهم ولا حزم عندهم إلى الانحطاط والضعف وتنازلت عن درجتهـا القديمة وعن رفعة الشأن فتلاعب بها أخصامها داخلاً وخارجاً فكانت دولة فارس تغير على ملحقاتها المشرقية الكرة بعد الكرة وكان اليهود مَن رعـاياها فى فلسطين يعتقدون أن حكم دين المسيح قد آن وقته وأن لابد من زعزعة أركـان الدولة الرومانية عاجلاً أو آجلا فكانوا لذلك لا ينكفون عن القيام وإثارة الفتن ويرفعون راية العـصيان ويقاتلوَن ولاة الإمارة قصد التخلص وكانت الإيالات الأخـرى تحاول مثل ذلك وترغب فى الاستقـلال وقد قام الأمير قيووبليس الفلمنكى وتحزب مع إيالة جرمانيا وطالب الدولة الرومانية بانفصال الإيالة الغالية ومايتبعها وكـذلك قام غيره من بقية الإيالات حتى كادت الدولة تنحل وتتمزق وكان فيـها عائلتان شهيرتان بالمجد والبأس والكلمـة إحداهما تسمى العائلة الغلوية والثانية تسمى العائلة الأنطونونية فاجتهدتا فى رفع شأن الدولة وإحياء كلمتها وأعادتا ما كاد يذهب من رونقها وعقـدتا الخناصر على ذلك وكان وسباسيانوس هذا رأس العائلة الغـلاوية وكبيرها ولكنه لـم يكن صاحب مظهر بل كان يألف الخـمول ولذلك لم تكن شهرته واسعة ولا صيته بعيداً إذ كان جده من أحد ضباط الجنود فى خدمة بومبـيوس وكان أبوه صيرفيا وأمـا وسباسيانوس المذكور فـقد كان بطلا باسلا ومقداما فـاضلا له الحظ العظيم فى الفضائل العسكرية والنصـيب الوافر فى المعارف الملكية وكان عـصامياً لا عظاميـا ولكن كان فيه بعض الشح والبـخل وكان له مودة كبـيرة ومداخلة مع طبيـاروس الإسرائيلى نائب مصـر فلهذه الأسبـاب كلها وبغض الرعية فى إيطالس قيصر توسط طبياروس نائب مصر فى مبايعته وخلع بيعة إيطالس وحمل ديوان الإسكندرية على الاعتـراف بولاية وسباسيانوس المذكور وسـبق جميع دواوين الإيالات الرومانية فى ذلك فبايعه وتم لوسـباسيانوس الأمر ولكنه لم يحفظ هذه الفعلة لطبيـاروس بل أنكرها وجازاه عليها بقتله إذ لـم يمض على توليته الملك إلا سنتان حتى أمـر بقتله وولى مكانه على مصر لويوس وذلك سنة سبعـين للميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة.

ولما آل الأمر لوسباسيانوس المذكور ضاعف الخراج وزاد العوائد وجاوز الحد فى ضرائب الأمـوال وإحداث المكوس التى لم تكن قبل عـهده وبلغ من طمعـه أنه كان

لايستحى أن يقاسم خدمه وحشمه وأتباعه فى الأموال المستفادة لهم من الشفاعات وكان لا يقيم عماله إلا من المشهورين بالطمع والبخل والشح فإذا استغنى أحدهم مال عليه وصادره واستصفى ما عنده وكان يشبه عماله بالأسفنج ويقول أن الأسفنج إذا عصر خرج ما فيه من الماء فكذلك الولاة والعمال وكان مع ذلك حسن التدبير عظيم الرأى مسموع الكلمة قوى السلطان شديد البأس فى القبض على زمام الحكومة وسد أبواب خللها فأحبه الرومانيون كثيرا ومالوا إليه وفرحوا به فزاد همة وإقداما وأكثر من الإصلاحات النافعة والأعمال الجسيمة فازدانت به أيامه وافتخرت به أحكامه ثم نظر إلى الفتوحات والغزوات فغزا بيت المقدس وفتحه واستولى عليه بعد قتال مع اليهود عنيف جداً وكان أقام ولده طيطوس على حصاره وعاد هو إلى إيطاليا فضيق عليه وشدد حتى أخذه عنوة وهلك فى هذه الواقعة من اليهود مائة ألف نفس بالقحط والأسر فكانت هذه الحرب تمام تخريب بيت المقدس ونهايتها كما أنذر المسيح رسله حيث قال لايبقى من هذه المدينة حجر على حجر فهكذا كان ومن هذا المكان تفرق شمل اليهود فى الآفاق وتمزقوا كل ممزق وانتشروا فى الأقطار وتفرقوا أيدى سبأ شرقاً وغرباً وانقرض ملكهم ولم يقم لهم بعدها قائمة فى شام ولا مصر ولا عراق.

ولما افتتح طيطوس بيت المقدس وظفر باليهود وقهرهم عاد إليه جميع النصارى الذين كانوا عبروا الأردن وبنوا كنيسة به واستوطنوا فيه آمنين مطمئنين فكان الأسقف فيهم يومئذ سمعان ابن عم يوسف النجار خطيب مريم أم يسوع المسيح وهو الثانى من أساقفة القدس.

ومع ما اتصف به وسباسيانوس الملك من حسن السياسة واشتهر به من العدل فإن مصر لم تسلم فى أيامه من الجور والعسف بما جدده فيها من المغارم والمكوس التى لم تكن من قبل ووكل بجمعها أرباب الخيانة من أعوانه فكانوا لا يرعون للمصريين إلا ولا ذمة ولا يرحمون فيها ضعيفا فشكوا أمرهم لوسباسيانوس وتظلموا فلم يقبل منهم صرفا ولا عدلا فكانت شدة عظيمة للغاية.

ومرض وسباسيانوس مرضاً شديداً جداً فكان يتجلد ولا يتأوه من علته وطال مرضه مدة فلما احتضر دخل عليه كاهنه فقال له وسباسيانوس معرضا بمعتقد الرومانيين قد آن وقت تقديس نفسى بالروحانية ونظمى فى سلك الأرواح العلوية وكانت عادة الرومانيين أنهم إذا مات ملكهم روحنوه ونظموه فى سلك العلويات وعدّوه فى عداد الروحانيات فلما شعر بخروج روحه من ضلوعه تجلد وتوكأ على

يدى زوجته واستند وقام من فراشه على أقدامه وقال ويحك يازمان يجمل بالقيصر أن لا يموت إلا قائماً فخرجت روحه لوقته وله من العمر تسع وستون سنة وذلك سنة تسع وسبعين للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه عشر سنين وتولى بعده ابنه طيطوس وكان فى أيامه المتولى أمر البطريكة بمدينة الإسكندرية حنانيا ثانى بطاركتها بعد مرقس الحوارى كما تقدم الكلام عليه فى محله ولم يحصل فى أيامه للنصرانية أمر يذكر.

(فى الملك طيطوس قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه طيطوس قيصر بويع بالملك سنة تسع وسبعين للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة وكان قبل توليته لايعهد فيه إلا القسوة والجبروت والسفاهة والإسراف ووضع الأمور فى غير موضعها لاسيما ما بدا منه عند حصار بيت المقدس وما فعله من كثرة القتل وإراقة الدماء والأسر والنهب حتى قيل أنه عقل جميع الخوارج الذى كانوا فى نواحى بيت المقدس مع الأسرى وكان يلقى منهم كل يوم للسباع فريسة إلى أن أفناهم فلما صعد على سرير الملك سلك مسالك العدل والرشد وحسنت حاله وحمدت خصاله وحكم بالعدل والإحسان وقرب منه أهل الفضل وصلحاء الناس وكان عالماً عاملا فهامة عارفاً باليونانية واللاطينية وكان ملازماً دائما للخير مخالطاً للناس غير محتجب عن أصحاب الحوائج وطرد من ديوانه بطانة السوء وأهل السخرية وتنزه إلا عن معاشرة أرباب الفضائل فأحبته الرعية حباً شديداً ولقبوه بنعيم الدنيا.

ويحكى أنه مضى عليه يوم ولم يعمل فيه عملاً صالحاً لرعيته فصاح فى الليل قد مضى يومى هذا سدى فوا أسفى واحزنى، ووقعت فى أيامه حادثة انفجار بركان إيطاليا أى جبل النار المسمى (وزوف) وكان انفجاره عقب زلزال عظيم جداً وانفتحت منه فرجته فصارت تقذف المواد الملتهبة والرماد الغزير حتى غير الفضاء واغبر شكله وكان على مقربة منه مدينتان عظيمتان إحداهما تسمى (هرقولانوم) والثانية تسمى (بومبايس) فوصل إليهما ما قذفه هذا البركان من المواد الجمرية والرماد وتراكمت عليهما هذه المواد حتى أغرقتهما وغطتهما وكان فى هذا العهد (بلیابس) الأكبر الحكيم الطبيعى حيا فذهب ليستكشف حقيقة هذه المواد وأسباب هذا الحادث الغريب ودنا من البركان فهلك ولم يبق له من أثر قلت ومازال هذا البركان يهيج إلى يومنا الذى نحن فيه ويقذف ما فى جوفه من المواد النارية.

وبعد حدوث هذا الحادث بنحو السنتين مرض طيطوس الملك بالحمى فدخل

الحمام فمات فيه فجأة وذلك سنة إحدى وثمانين للميلاد أى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سنتين اثنتين وشهرين وكأنما كان ظهوره فى الدولة الرومانية ليتم ما أنذر به المسيح من خراب بيت المقدس وليكون قدوة للملوك الرومانيين فى التحبب إلى الرعية فقد كان عاقلاً متواضعاً لا يحب العظمة ولا يميل إلى التفاخر يذهب بنفسه بدون خدم ولا حشم إلى حيث أرباب المجلس ليستشيرهم فى أمور الدولة واحتياجات الرعية والبلاد ويذهب وحده إلى الميادين العامة بين الأهالى على اختلاف طبقاتهم لسماع المواعظ والخطب الأدبية وكان يحب رعيته جداً وهم يحبونه حباً شديداً فلما مات خلفه أخوه دوميطيانوس.

(فى الملك دوميطيانوس قيصر)

ثم قام بالأمر أخوه دوميطيانوس قيصر بويع بالملك يوم موت أخيه طيطوس سنة إحدى وثمانين للميلاد أى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة ولم يستقر به المنصب حتى ظهر للناس انه هو الذى قتل أخاه طيطوس بالسم مع أنه كان قبل توليته يظهر الأدب ويتظاهر بطيب الأخلاق وحسن السيرة والرفق ولين الجانب وغير ذلك من المظاهر الكاذبة فلما قبض على زمام الملك عاث وظلم وطغى وتجبر فكان أشبه بنيرون الطاغية فى الميل إلى اللهو واللعب والمصارعة والتولع بسفك الدماء والجراءة على قتل النفوس البريئة. قال بعض أهل التاريخ: وكان إذا لم يجد من يقتله من الناس اشتغل بنخس الذباب حتى لايخلو طرفة عين من إذاقة خلق الله طعم العذاب وكان شديد الجبروت يخترع للعقوبات طرائق متنوعة لم تخطر على قلب بشر وكان إذا أراد قتل إنسان فى غده أحضره عنده ليتناول معه الطعام وبالغ فى إكرامه، وكان له قائد ماهر فى الحروب اسمه إغريقولا فسيره لغزو الإبريطانيين الذين هم الإنكليز فحمل عليهم وغزاهم بعسكره وانتصر عليهم انتصاراً كبيراً وسخرهم للرومانيين وعاد إلى رومة ومعه ما لا يقدر من الغنائم وخلق كثير من الأسرى فلما دخل رومة وهو على هذا الحال من الأبهة والانتصار غار منه الملك وحقد عليه وخشى من عاقبة أمره فاستدعاه عنده يوما وسقاه كأساً مسموما فمات لوقته فحقد على الملك لذلك جميع الأمراء وأهل البلاد وأبغضوه بغضاً كبيراً وتمنوا موته وتحرك بعد هذه الغزوة إلى قتال ملك الفلاق والبغدان وجهز له الجند وساقهم لقتاله فلاقاه ملك الفلاق فلما احتدم بينهما القتال ترك دوميطيانوس عساكره وأهمل أمرهم ولم يمدهم بالميرة ولا الزاد ولم يسعفهم بشىء من معدات الحرب فانخذلوا وانكسروا وانتصرت عساكر الفلاق عليهم وأسرت الكثير منهم وتعقبتهم حتى كادت تصل إلى

أسوار رومة فشق هذا الأمر على الرومانيين وهاجوا ولم تتخلص المدينة من مضض التضييق إلا بدفع الخراج لملك الفلاق والبغدان فأغرى الأهالى أميراً اسمه إصطفانوس بقتل دوميطيانوس والتخلص منه فقام إصطفانوس المذكور ودخل على الملك بوسيلة كتاب حضر به لديه وناوله الكتاب ففضه وبينما هو يقرؤه انقض عليه وطعنه بخنجر فأزهق روحه وكان ذلك سنة ست وتسعين للميلاد أى سنة ست وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وبموته انقرضت العائلة الغلاوية وقامت بعدها العائلة الإنطونونية وسنأتى على ذكر ملوكها واحدا فواحدا.

وفى أيام دوميطيانوس هذا مات حنانيا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام فى وظيفته اثنتين وعشرين سنة وكان موته فى العاشر من هاتور سنة سبع وثمانين لظهور المسيح.

وأقيم بعده ميليو وهو ثالث بطاركة الإسكندرية وقد كثر النصارى فى أيام ميليو المذكور ونموا وعاد الكثير منهم إلى بيت المقدس بعد خرابه على يدى طيطوس بن وسباسيانوس كما تقدم بيانه فى محله واستوطنوه وعمروا ربوعه التى كانت اندرست معالمها وانمحت آثارها قال بعض أهل التاريخ وكان يقال بأن دوميطيانوس هذا هو ابن أخت نيرون قيصر ولذلك كان غشوما كافرا مثله وقد كان أمر بقتل جميع النصارى كما فعل خاله نيرون وحبس يوحنا الرسول مكبلا بالحديد وأمر بقتل جميع اليهود الذين من نسل داود حذرا من أن يقوم منهم ملك وكان يشدد عليهم الوطأة وقتل أبناء ملوكهم كافة ولم يبق منهم أحد وكان يتعقب النصارى ويفتك بهم لأنه علم بأنهم يقولون أن المسيح يأتى ثانية فيملك جميع العالم وبحث عن أولاد يهوذا ابن يوسف أحد الحواريين وحملهم إلى رومة مقيدين بالأغلال وسألهم عن مجئ المسيح فقالوا إنما يأتى عند انقضاء العالم فخلى عنهم وفى الثالثة من ملكه طرد ميليو بطرك الإسكندرية وأقام غيره. قلت: وهذه الرواية لم يقم على صحتها دليل ولم تتناقلها أقلام الكتاب ونفى من رومة جميع الفلاسفة والمنجمين وأمر أن لايغرس بها كرم ولما مات تولى بعده الملك (نيرو) قيصر وهو رأس العائلة الانطونونية.

(فى الملك نيرو قيصر)

ثم قام بالأمر بعده نيرو قيصر وهو رأس العائلة الإنطونونية بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه دوميطيانوس سنة ست وتسعين للميلاد أى سنة ست وعشرين

وخمسمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه لما تحزب جمهور الرومانين على قتل دوميطيانوس انضم المجلس الرومانى إلى المتحزبين بعد هلاكه ليولوا غيره فاجتمعت كلمتهم على تولية نيرو هذا وكان شيخاً إيطالى المولد كريدى الأصل والجنس يبلغ من العمر سبعين سنة وكان فى السياسة جليل المذهب حميد الرأى يميز الغث من السمين ولكنه كان ضعيف القلب فاتر الهمة لايقوى على تنفيذ الأعمال فلم يستقر به المنصب حتى قامت عليه الرعية وكادت تخلعه حيث لم يكن من بيت الملك فتدبر أمره واستمال إليه (أوليوس طريانوس) حاكم بلاد جرمانيا السفلى ثم تبناه وأشركه معه فى الملك فركب الأمير أولبيوس طريانوس المذكور على الأحزاب ومزق شملهم وقتل كبارهم ومحا أثرهم فتمكنت شوكة نيرو وعلت كلمته وهابه الناس فأحسن السيرة وعدل وأمر برد من كان منفيا من المسيحيين وأباح لهم التمسك بدينهم وأرجع يوحنا الإنجيلى إلى مدينة أفسوس بعد سجنه ست سنين ومحا نيرو آية الظلم والجور وسلك سبل العدل والسداد فكان يصفح عن الجانى وعفا عن قتل الذين اتهموا بالعصيان والخروج عن الطاعة وعاقبهم بالنفى وأجلاهم عن البلاد لدفع الريبة ثم قتل العبيد والعتقاء الذى وشوا بساداتهم إضرارا بهم جزاء ارتكابهم النميمة فى حق مواليهم.

ولما تمكن من الملك واستقر به المنصب ودانت له الأمور وعلت كلمته لم يمض عليه بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر حتى مات حتف أنفه فى سنة ثمان وتسعين للميلاد أى سنة أربع وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سنتين اثنتين وتولى بعده شريكه أوليوس طريانوس.

(فى الملك أولبيوس طريانوس قيصر)

ثم قام بالأمر بعده أولبيوس طريانوس قيصر سنة ثمان وتسعين للميلاد أى سنة أربع وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة وكان يوم وفاة (نيرو) قيصر متغيباً فى الأقاليم الفرنجية التى على نهر الرين فأخذ له البيعة أرباب مجلس رومة وبعثوا إليه فتأخر عن الحضور وبالنسبة لما كان له فى قلوب الرعية من الهيبة والوقار وعظم الصولة لم تقم فى غيبته عن تخت الملك فتنة ولا حصل خلاف فى بيعته.

وكان مولد طريانوس المذكور بمدينة مالقه ببلاد الأندلس وقد اشتهر بترفع النفس والأفضلية على جميع أمراء الدولة الرومانية وكانت جميع الرعية تشهد بعلو درجته فى المزايا العسكرية فلما قدم إلى مدينة رومة عقدوا له موكباً مجرداً من الأبهة

والطنطنة فدخل المدينة غير مختال ولا معجب بمنصب السلطنة بل ماشيا على الأقدام وكان يبش فى وجه كل من يراه مقبلاً للتهنئة باسطا يده لمن أراد تقبيلها شاكراً لأرباب الأدعية والأثنية ومازال حتى استقر به الجلوس فأقبل إلى الحاضرين بوجه باش وقال أحب أن أصنع مع جميع الناس ما كنت أحب أن يصنعه معى قيصر رومة لو بقيت فى أيامه معدوداً من آحاد الناس فما أحبه لنفسى أحبه لأهل وطنى وأبناء جنسى.

ولما استقر به المنصب بذل الهمة والجهد فى إصلاح شئون البلاد حتى أعاد لها فخرها القديم وأرجع ما فقدته من المزايا والحقوق التى كانت لها على عهد الجمهورية وأباح لمجلس الأحكام التصرف بما تقتضيه مصلحة البلاد ورخص للقضاة والحكام السلطة غير المحدودة كل بحسب وظيفته ونهى عن أن يحكم القضاة على الغائب فى المواد الجنائية لأن القضاء على الغائب الذى لايدفع عن نفسه يعتبر فصل نزاع بدون إثبات ولذلك قال طريانوس فى هذا الشأن أن أصول الاحتياط ترجح جانب البراءة على جانب الجناية فلا يصح أن يحكم بعقوبة على متهم غائب لأن الأصل عدم الجناية يعنى أن الغائب المتهم الذى يراد الحكم عليه بالجزاء يحتمل أن يكون مذنبا كما يحتمل أن يكون بريئاً ولكن المرجح جانب البراءة لأنها الأصل.

وكان طريانوس المذكور حسن التدبير والإدارة متبصراً فى عواقب الأمور فخفف المكوس والعوائد وأنشأ القناطر والجسور ومهد الطرق والعقبات وجدد المين وأحسن مواقعها ومنها مينا انكونة على جون البنادقة بإيطاليا لتكثير التجارات والمعاملات وأنجز هذا العمل الجسيم فى سنة لا غير فقام له أرباب ديوان رومة والأهالى ببناء هيكل بمدينة أنكونة لتخليد ذكره وبقاء اسمه وجدد طريانوس كثيراً من المبانى النافعة وأنشأ مكتبة عظيمة للغاية وأقام فى مدينة رومة العمود المشهور المسمى (الطريانوس) وهو من الرخام الأبيض ورسم عليه الحروب التى وقعت بين الرومانيين والفلاق والبغدان وجميع ما جرى من نصرة الرومانيين عليهم فى تلك الأزمان.

وكان لايخالط إلا أهل الأدب وذوى الفضائل ولايحضر مجلسه إلا مشاهير الرجال وأكابر أهل الفضل والامتياز من الأبطال وكان لأرباب القضاء عنده منزلة عظيمة كما أنه كان يجل كثيراً أرباب الحكمة والفلسفة ومن المقربين إليه الحكيم بليناس الأصغر وكان هذا الحكيم من فحول الكتاب فجمع مناقب طريانوس قيصر هذا تذكرة للمتأخرين.

وغزا طريانوس بلاد الفلاق والبغدان وتغلب عليها وضمها إلى الممالك الرومانية

فاشتهر أمره وبعد ذكره فى الآفاق فبعث إليه ملوك الهند سفراء يهنئونه بهذا الانتصار ثم استعمل على الأفلاق والبغدان بلنياس الحكيم المذكور فأحسن تدبيرها ووردت إلى طريانوس الأخبار بخروج عرب الحجاز لشن الغارة على أملاك رومة المشرقية لقصد النهب وسبى النساء والأطفال وأنهم قد تحركوا لذلك فسار إلى آسية فى كثير من عساكره وركب عليهم وقاتلهم فوقع بين الفريقين قتال عنيف وبذل العرب الجهد وأظهروا الشجاعة فهزمهم طريانوس شر هزيمة وملك الأقطار الحجازية وضمها إلى أملاك رومة وذلك سنة عشر ومائة للميلاد أى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة قبل الهجرة وقام بعساكره بعد هذه الغزوة بسنة إلى بلاد فارس وغالبهم على ملكهم وأخذ أرمينة والجزيرة وبلاد الأكراد والعراق واليمن فزادت شهرته وعلت كلمته وهابته الملوك واجتمعت قلوب رعيته على محبته فسموه (إفطينوس) ومعناه القيصر الكامل ولم تتحد كلمة جماعة المؤرخين على ذمه فى شيء ما إلا باضطهاده للمسيحيين وتبديد شملهم فى الآفاق وقتله لسمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس وأغناطيوس بطرك أنطاكية فلقى المسيحيون فى أيامه شدة عظيمة للغاية وتتبع أحبارهم بالقتل واستعبد عامتهم وسامهم الخسف وأذاقهم مر العذاب وكان كثير الفتوحات والغزوات فجاء فى فتوحاته بالمشرق حتى دنا من البحر المحيط الهندى فلما قفل راجعاً إلى رومة أدركته المنية فى طريقه فمات حتف أنفه سنة سبع عشرة ومائة للميلاد أى سنة خمس وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه تسع عشرة سنة وكان له آثار عظيمة جداً بالديار المصرية فحزن عليه جميع الرومانيين وغيرهم ممن سخر بلادهم كما حزنوا على طيطس من قبله.

وفى عهده كتب يوحنا إنجيله ببعض الجزائر فى السنة السادسة من حكمه، وكان قد رجع اليهود إلى بيت المقدس وكثروا فيه وصمموا على الانتقاض على طريانوس والخروج عن طاعته فبعث عساكره لحربهم فطالت الحرب بينهم وقاموا على كثير من المدن التابعة لرومة وحاربوها أيضاً وزحفوا على مصر والإسكندرية وحاربوا من فيهما من العساكر الرومانية وقهروهم وأخرجوا من الإسكندرية لويوس نائب مصر فأرسل إليهم طريانوس بدله مرطيوس مع جيش عظيم جداً فاشتدت الحرب بين الفريقين لاستمرار الفتن الداخلية المترتبة على المنازعات الواقعة بين يونان ويهود الإسكندرية وذلك لما بين الفريقين من العداوة واستمرت الحرب سجالا إلى أن ملك أدريانوس قيصر وفى أيامه مات ميليو ثالث بطاركة الإسكندرية بعد أن أقام بطركا اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر على المشهور وهذا يدل على عدم تغييره فأقيم بعده

كـريتانو وهو رابعـهم وكـان من الحوادث فى أيامـه ما سـيـذكر فى مـحله وبموت طريانوس قيصر المذكور خلفه ابن عمه إدريانوس قيصر.

(فى الملك إدريانوس قيصر)

ثم قام بالأمـر ابن عمه إدريانوس قـيصر بويع بالملك بعـد موت طريانوس سنة سبع عشرة ومائة للميلاد أى سنة خمس وخمسمائة قبل الهجرة، وتحرير الخبر أنه لما مات طريانوس ولم يعقب ولـدا استخلف العسكر بعده ابن عـمه إدريانوس المذكور وبايعوه بالملك وكان يومئذ قائد جيوش الديار الشامية فلما بايعته العساكر بايعه أيضا أرباب المجلس والوجهاء والأعيان واستقـر به المنصب فكان متباين الأحوال متناقض الخصـال إذ تارة يكون حليمـا وأخرى غضـوبا وطورا يميل إلى الفـضائل وآونة إلى القبائح والرذائل وكان لايحب الحروب ولا يمـيل إلى الغزو وتوسيع نطاق البلاد بل يؤثر السلم والدعة والمحافظة على حدود بلاده وكان فى أكثر أيام ولايته جوابا يتنقل من ناحيـة إلى أخرى وأكثـر من الزيادة فى الضرائب والمكوس وضرب على جـميع الأشيـاء مغـارم أخرى فـادحة ولم يساوه أحـد من أسلافـه فى الإكثـار من تشيـيد العمـارات والمبانى الجسيـمة وكان يحب المعـارف والآداب وله فيهـا مشاركة كـبرى وكانت عيشته فى قصره عيشـة هنيئة جداً وأشرك معه فى حكم البلاد رجلا يقال له قـومودوس ويروس من أسـافل الخلق فـوسمـه لذلك الناس بخلل العـقل والطيش وغضـبوا عليه وقـالوا إنما أشركـه معه لأنه اخـترع له صنفا من الفطيـر لذيذ الطعم يستطيبه الفم ونوعا من الفـراش يمتد على بساط من الورد فى وسط الروائح المعطرة فوقع هذا الاختراع لديه موقعاً عظيماً فكافأه بهذا الإحسان الجسيم.

وكان ويروس المذكور أشبه بالنساء فى المحادثة وقـد اخترمته المنية قبل إدريانوس الملك بقليل من الزمن فأشرك بعـده طيطوس إنطونين وقد فرح الناس بموت ويروس المذكور وخلاص البلاد منه.

وكانت أيام إدريانوس كثيرة الخير والبركة على الديار المصرية إلا أنه قد وقع فى خلالها بالإسكندرية فتنة عظـيمة جداً بعد إخماد نار فتنة اليـهود بها وذلك أنه ظهر فى ذلك الحين بديار مصـر عجل جديد على شكل العجل (ابيس) معـبود المصريين وكان المصريون إذا مات عجلهم اجـتمع الكهنة منهم وغير الكهنة وتداولوا بينهم فى أمر المكان الذى يوضع فيـه هذا العجل لتربيته ورضاعـته حتى يتحققـوا من ألوهيته وماهيته فكثر لذلك الجدال والخلاف فى تعـيين المدينة أو القرية التى يقيم بها العجل

المذكور وقامت لذلك الحرب بينهم على ساق واشتد ضرام الفتنة وعلا لهيبها فى جميع البلاد لأهمية هذا الأمر لديهم.

فلما طرقت مسامع إدريانوس هذه الأخبار وكان يومئذ بإقليم فرنسا سار مسرعاً إلى مصر ودخلها بعسكره وأخمد نار الفتنة وأزال الجفوة من بين المصريين واليونان واتخذ مدينة الفرما مقره وأصلح بناء تربة بومبيوس وزينها بأجمل زينة ثم ساح فى أرجاء مصر ففرح الأهالى به وضربوا السكة باسمه تخليدا لذكره وكانت هذه السكة من الحديد والرصاص فنقشوا عليها تاريخ سفره وصورة مدينة الإسكندرية على شكل إنسان يستقبل الملك وهو قادم فى سفينة وصوروا القيصر يستقبل الزائرين من أهالى الإسكندرية كأنه يمد يده للإسكندرية وتمد يدها إليه على سبيل المصافحة وصوروا على تلك النقود موكب القيصر وتقريبه للقربان وكذلك رسموا عليها من الجهة الأخرى سير القيصر على النيل وهو فى سفينة مقدمها على شكل قرن الخصب واليمن وضربوا سكة أخرى عليها صورته وصورة زوجته (سابينه) وعليها تاريخ ابتداء ملكه على المملكة الرومانية.

ويحكى أنه أثناء سفره فى النيل ميمما الصعيد مات ولده أنطنيوس فحزن عليه حزناً شديداً جداً ودفنه هناك، وقد ساعد مملكة مصر على توسيع نطاق المعارف وتكثير العلوم وأنشأ فيها بعض العمائر إيذانا بقدومه إلى مصر وكتب وهو يتجول فى أنحاء البلاد رسالة إلى صاحب له اسمه سريانوس من عظماء الرومانيين يقول قد استقصيت أحوال مصر واستقريت عوائدها واطلعت عليها اطلاعاً كلياً وكنت فى بادئ أمرى أخصها بالمدح وأتحاشى ذمها فتبين لى بعد التأمل والنظر أنها عبرة لمن اعتبر فهى طائشة لاتدوم على حال ولاتنكف عن المشاغبة والمنافرة لاسيما فى أمور الدين ومايتولد منها على أن من لم يعبد منهم الشمس والعجل أبيس عدّ نصرانياً مع أنه ليس كذلك بل الذين يزعمون منهم أنهم أساقفة على دين المسيح هم كغيرهم من المصريين الذين يحترمون الشمس والعجل ولا فرق في ذلك بين الأسقف وحاخام اليهود وكل قسيس أو راهب أو عامى له في الشمس والعجل احترام كبير قال وقد يغلب على فكرى أنه لو أتى بطرك من بطاركة النصارى الخارجين عن ديار مصر ودخل مصر ليشارك أهلها فى التمسك بهذه الاحترامات الدينية وربما اعتقدوا أن العجل والشمس (والمسيح) إنما هم أسماء مترادفة وأنها فى الحقيقة شيء واحد.

واعلم أن أهل مصر دون غيرهم يميلون إلى اختلاف الكلمة ويسرعون إلى الغضب لأقل سبب أما مدينة الإسكندرية التى هى دار الحكومة ومقرها فهى بلدة

مثرية غنية كثيرة الخير والبركات وليس أهلها أهل بطالة وكسل وأغلبهم حاكة الكتان وهم ميالون إلى الصناعة لايستثنى منهم الأعرج والأعمى ولا المصاب بأشد الأمراض فلا يهملون الصناعة ولا يضيعون أوقاتهم إلا فى الكسب وكلهم عارفون بوحدانية المعبود حتى العامة منهم والحرافيش ولو كانت مدينة رفيعة الدرجة فى التربية والمدنية زيادة عما هى الآن لسادت على جميع المدن ومع ذلك فهى بكثرة أهلها وزيادة مبانيها واتساع أراضيها تستحق بأن تكون كما هى عاصمة الديار المصرية ولذا لم أمنعها شيئًا من حقوقها بل منحتها جميع مزاياها القديمة وزيادة لتكون آمنة مطمئنة ولم أخرج منها إلا وقد صار أهلها يسخرون بابنى ويروس ولا يخفاك ما يصدر عنهم من المقال لمناسبة موت ابنى أنطينوس فأنا لا أتمنى لهم إلا التخمة بما عندهم من الدجاج ليكسبهم كثرة الباه الموجب لقوة التوليد قال والإفصاح عن ذلك بأكثر مما قلته يخل بالأدب والحياء والواصل لكم بعض كئوس وأكواب مختلفة الألوان قد أهدانيها كهان الهياكل فوهبتها لك ولأختى ليطوف بها السقاة فى المواسم والمحافل وإنما يجب على صاحبنا افريقانوس أن يحترس من أن يكثر من الشراب بها فيعربد فلا يدع هوى نفسه يستولى عليه ويستعبده. انتهى.

وقد اضطهد إدريانوس اليهود وأباد منهم خلقاً كثيرا جداً وبنى بيت المقدس وسماه مدينة إيليا وكان شديداً على المسيحيين فقتل منهم خلقاً كثيراً وأمر بعبادة الأوثان وألزم أهل مصر على ما يقال بحفر خليج من مجرى النيل إلى مجرى القلزم أجرى فيه الماء الحلو ثم ارتدم بعد ذلك وهذا الخليج هو الذى ألزمهم عمرو بن العاص أيضاً بحفره حتى جرى فيه الماء ثم ارتدم ثانية فلما بنى مدينة القدس رجع إليها اليهود واستوطنوها فبلغه أنهم على عزم الانتقاض وأنهم أقاموا عليهم زكريا أحد ذرية ملوكهم فبعث إليهم جيشاً وتتبعهم بالقتل وخرب المدينة حتى عادت صحراء وأمر أن لايسكنها يهودى وأسكن اليونان ببيت المقدس فكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطوس وهو الجلوة الكبرى وامتلأ بيت المقدس من اليونان فكان المسيحيون يترددون إلى موضع القبر والصليب يصلون فيه فكان اليهود يرمون على هذا الموضع الزبل والكناسة ومنعهم اليونان أيضًا من الصلاة فيه وبنوا هناك هيكلاً على اسم الزهرة.

ثم مات إدريانوس الملك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة للميلاد أى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قبل الهجرة حتف أنفه.

ومات فى أيامه كردونوس بطرك الإسكندرية فى حادى عشر برموده بعد ما دبر

الكرسى عشر سنين وكان حميد السيرة صافى السريرة ورعا تقيا ناسكا متعبداً محبا للفقراء والغرباء فخلا الكرسى بعده ثلاث سنين وقدم بعده ابريمو وهو خامسهم فأقام اثنتى عشرة سنة ومات فى ثالث مسرى وفى أيامه اشتد الأمر على النصارى وضيق عليهم إدريانوس قيصر تضييقا عظيما وبالغ فى التنكيل بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وقدم إلى مصر وأفنى من بها من النصارى كما تقدم بيانه فى محله ولما مات إبريمو أقيم بعده يسطس وهو سادسهم وكان حكيماً فاضلاً محبا للخير وفعل البر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى

ولما مات إدريانوس الملك خلفه فى الملك شريكه طيطوس أنطينينوس قيصر.

(فى الملك طيطوس أنطينينوس قيصر)

ثم قام بالأمر القيصر طيطوس أنطينينوس شريكه بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه إدريانوس سنة ثمان وثلاثين ومائة قبل الميلاد أي سنة أربع وثمانين وأربعمائة قبل الهجرة وكانت العائلة الإنطونونية التى منها طيطوس هذا من أمة الغالية الذين هم أسلاف الفرنسيس من أهالى مدينة نيمة وكانت هذه العائلة مصاهرة لأعيان إيطاليا وكان طيطوس مشهورا بكرم النفس وحسن التربية ذكيا حاذقا مطبوعا على مكارم الأخلاق محافظا على أسباب الراحة فى البلاد وإذاعة الأمن بين صنوف الرعية فلما استقر به المنصب بذل النفيس فى تقدم أسباب التجارة والصناعة والأعمال المهمة وكان يدقق النظر فى حسن الإدارة والاقتصاد فى مصروفات المملكة فكانت فى أيامه الأموال مدبرة على وجه لم يسبق له مثيل وكان يسلك فى تدبير المملكة طريقة بسيطة خالية من كل زينة وبلغ الاقتصاد منه مبلغاً عظيماً حتى قيل أنه لو تكفل بالإنفاق على جميع الرعية على وجه السعة وعدم التقتير لأمكنه ذلك ثم أنه أنشأ العمارات العظيمة والأبنية الجسيمة النافعة للبلاد فكانت له هيبة عظيمة فى أعين جميع ملوك الأمم ولم يكن فى وقته منهم من يساويه فى حسن السياسة والتدبير وظهر فى أيامه ببلاد الصين ملك اشتهر بالسياسة وحسن التدبير والحكمة اسمه (هياكنغ تى) فكان هذا الملك يضارع طيطوس فى حب الرعية والميل إلى عمارة البلاد فكان كثير الاهتمام بأمور الرعية وتحسين أحوالهم حتى حفظ له التاريخ ذكراً حسناً وظهر فى أيامه أيضا بديار مصر بطليموس المنجم صاحب الفلك.

قلت: وبعضهم يجعل ظهوره فى أيام البطالسة كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عليهم، وكانت أيام طيطوس قيصر هينة لينة لاسيما فى ديار مصر إذ

نالها منه ما لا مزيد عليه من العدل فكثرت بها فى أيامه العمارات الأهلية والمعابد إلا أن يونان الإسكندرية كانوا كثيرى الفتن والعصيان والخروج على الولاة والعمال وقد خرجوا على نائب القيصر يوما فقتلوه وبالغوا فى الفتنة إلى حدّ لم يسبق له مثيل فقدم عليهم طيطوس فى جيش جرار جداً ودخل الإسكندرية منصوراً مؤيداً فقمع العصاة وقتل الأحزاب وأعاد الأمور إلى سابق مجراها فهابه الناس وخافوا من بأسه وجبروته.

ثم مات طيطوس حتف أنفه سنة إحدى وستين ومائة للميلاد أى سنة إحدى وستين وأربعمائة قبل الهجرة فأسف على موته جميع الرعية لما له عليهم من الأيادى البيضاء لاسيما أقاربه من بلاد الفرنسيس لأنها كانت مسقط رأسه فخلفه صهره مرقوريلس قيصر.

وفى أيامه مات يسطس بطرك الإسكندرية فى ثانى عشرى بؤنة بعد أن أقام عشر سنين ولم يحدث من الحوادث الدينية ما يستحق الذكر فخلفه (أوميانو) وهو سابعهم وكان عطوفاً ونصيراً للفقراء وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(فى الملك مرقوريلس قيصر)

ثم قام بالأمر مرقوريلس قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه طيطوس أى سنة إحدى وستين ومائة للميلاد الموافقة لسنة إحدى وستين وأربعمائة قبل الهجرة وكان متمسكاً بمذهب زينون الحكيم الفيلسوف المتقشف فكان من شبيبته زاهداً ورعاً متقشفاً لا ينام إلا على الفراش الخشن مداوما على الأعمال الشاقة وكان قبل توليته قد اشتغل بالآداب والعلوم الفلسفية فاتسعت دائرة عمله واشتهر بالمعارف شهرة عظيمة فلما أتم علومه وتمكن منها دعى للملك ولما استقر به المنصب بنى على ما أسسه أسلافه الثلاثة من حسن السياسة والتدبير وتمم ما شرعوا فيه من المقاصد النافعة وزاد عنهم فى اتباع القوانين والتمسك بها وشدّد فى إجرائها وأكد على العمل بموجبها.

وأشرك معه بغير فكر ولا تأمل فى إدارة أمور المملكة (لوقيوس ويروس) بن (ويروس) الذى كان شريكا مع (إدريانوس) فنجم عن ذلك أمور كثيرة سنأتى على ذكرها فى محلها.

وكانت أيام مرقوريلس المذكور وأحكامه حسنة ولولا ما وقع فى خلالها من الحوادث القضائية لعدّت كلها من أسعد الأيام على البلاد وأحلاها فقد وقع فى أيامه

وباء عظيم جداً هلك به ما لايحصى من الخلق فكان لايوجد من الأحياء من يدفن جثث الموتى وفاض فى أيامه نهر رومة فأغرق جميع الأقاليم الوسطى بإيطاليا وأقحط الناس سنتين كاملتين واستسقى لهم المسيحيون يومئذ فاستجاب الله سبحانه لهم وأنقذهم وكذلك تضرعوا وصلوا وصاموا فاستجاب لهم وارتفع الوباء والقحط وكان المسيحيون فى هذا الحين فى شدة زائدة جداً من مرقوريلس إذ كان قد تتبعهم بالقتل وأفنى منهم خلقا وهى الشدة الرابعة التى حلت بهم بعد نيرون الملك كما سيأتى الكلام عليها فى محله، وحصل أيضاً فى أيامه زلزلة شديدة جداً اضطرب منها العالم بأسره وكادت تدمر المسكونة وأغار ملك العجم على أملاك رومة المشرقية وكذلك أغار الجرمانيون الساكنون بسواحل طونة على الأملاك المغربية وأكثروا من الكرّ والهجوم المتتابع حتى كادا يقتسمان المملكة ويأخذانها، وكانت مدينة رومة فى هذا الحين يحكمها حاكمان مختلفان فى الأمر والنهى فى سائر أملاك رومة وتحرير الخبر أنه لما كان مرقوريلس الملك قليل الحزم حريصا بقدر الاستطاعة على شئون البلاد أشرك معه فى تدبير أمور المملكة لوقيوس ويروس بن شريك الملك إدريانوس فكان لوقيوس المذكور في خسة أبيه ويروس ودناءته مجردة من كل صبغة حميدة وخصلة طيبة حيث قضى عمره فى الحانات ومحال اللهو واللعب فكان قلما يخلو من السكر والعربدة ومخالطة الأوباش فلما أغار العجم على ما جاورهم من أملاك رومة المشرقية فوّض إليه الملك أمر دفعهم وطردهم وأناط به إيقافهم عند حدهم فقام ومعه قائد من القواد اسمه أويدوس قسيوس وكان من أشجع القواد وأكبرهم معرفة بفنون الحرب فسلم لوقيوس الأمر إليه فركب أويدوس على الأعداء بجيوشه وهزمهم وطردهم وتتبعهم بالقتل حتى لجئوا إلى حدودهم وحاز فخر الانتصار وشرف الغلبة وقد كان لوقيوس فى أثناء القتال يلعب مع أرباب الهزء والسخرية لايفكر فيما عسى أن يحل بالجيوش ولم يقترب قط من ساحة الحرب ولا علم بما جرى حتى أتاه أويدوس القائد وبشره بالنصر على الأعداء وكان أويدوس المذكور أميراً ماهراً حازماً مشدداً على جنوده قوىّ البطش متمسكا بالأصول العسكرية وكانت جنود المشرق المقيمون من قبل رومة فى الأقاليم قد ألفوا العوائد المشرقية من الخمول وفتور الهمة والكسل فكان قدوم أويدوس عليهم غاية فى الأهمية حيث أحكم سياستهم ودبر أمورهم وشدّد عليهم فحسنت حالهم جداً.

ـ وكما أن لوقيوس ويروس قد أنيطت به حماية البلاد المشرقية ودفع العدوّ عنها فكذلك قام مرقوريلس شريكه لحماية البلاد المغربية والذب عنها من غارات القبائل

الشمالية فوصل إليهم فى وقت الحاجة وذلك أن قبيلة (المرقومان) التى هى إحدى القبائل المتبربرة كانت قد اجتازت جبال (ألبة) كأنها حمر مستنفرة تريد الإغارة على بلاد إيطاليا فسار إليها مرقوريلس وطردها وبدد شملها ومزقها كل ممزق فاستتب الأمن وتوطدت الراحة غير أنه لم يمض على ذلك إلا ثلاث سنوات حتى قامت ثانية أمة الجرمان وانضمت إلى قبائل أخرى متوحشة كقبائل (البدوان) وهم قبائل الأندلسيين والسريرة واللان وسارت إلى إيطاليا للفتك بجيوش الرومانيين والتغلب على البلاد فبادر الملك مرقوريلس إلى جمع الإرقاء والمصارعين وجميع أهل الكسل والبطالة ونظمهم فى سلك العسكرية وباع جميع الأمتعة التى فى دار الملك لنفقة الجنود وسار إلى الأعداء بجيش جرار والتقى الجمعان فحاصرته القبائل هو وعساكره وأحدقوا به من كل جانب وقطعوا عنه الإمداد والميرة وسدوا عليه المسالك وكاد يهلك هو وجيوشه عطشاً وحراً وبينما هم على هذا الحال من الضيق والموت إذ هبطت الأمطار وانهمل الغيث وأغاثهم المولى سبحانه فشربوا وارتووا وزال عنهم البأس وقاموا على الأعداء قومة رجل واحد فانتصروا عليهم وفازوا فوزاً عظيماً وأعملوا فيهم القتل حتى مزقوا شملهم وكان المسيحيون منهم قد استسقوا لهم بصفاء نية فاعتقدوا جميعا أنه لم تحصل لهم السقيا إلا بدعاء القسوس والأحبار وقد آمن القيصر بذلك واعتقد صدقه وعدّه من كرامات الديانة المسيحية وقد كانت هذه الديانة عنده من أكبر الكبائر فكتب فى الحال إلى مجلس رومة يوصيه خيرا بالملة المسيحية وأن لا يحصل للنصارى من الآن شيء من التعدى والأذى وندم على ما فرط منه فى حقهم وأباح دخول الدين النصرانى فى جيشه فكثرت النصارى فى معسكره وانكف الأذى عنهم زمناً.

ثم عاد الولاة والعمال فتعرضوا لهم فى غيبة الملك ومدت لهم يد العدوان وعلى الخصوص فى بلاد الغلية وكان المسيحيون قد كثروا فيها كثرة بالغة فأضعفوا قوّة ظهورهم ودكوا شوكتهم غيرة وحسداً.

وقد نقش المصريون على كثير من المبانى اسم مرقوريلس ولوقيوس تخليدا لذكرهما على ممر الأيام وقام منهم فى أيام مرقوريلس ولوقيوس المذكورين عدة أحزاب قد شقوا عصا الطاعة وخرجوا على النائب يومئذ وكان يرأسهم رجل اسمه (أزيدور) بإغراء أحد الكهان المصريين فقاتل (أزيدور) وأصحابه عساكر الرومانيين فى جميع البلاد المصرية وهجم على مدينة الإسكندرية وقاتلها قتالاً عنيفاً جداً فركب النائب وهو أوديوس قسيوس وقاتلهم وأجلاهم عن المدينة وسار خلفهم حتى ظفر

بهم وبدد شملهم تبديداً وتتبعهم بالقتل أينما حلوا حتى أوشكوا أن يفنوا عن آخرهم ولما رجع إلى الإسكندرية مظفراً منصوراً أخذته خمرة الانتصار وتاقت نفسه إلى الخروج والاستقلال بملك البلاد فسعى في طلب الملك واستمال إليه الجنود فبايعه العسكر المصرى قيل وأعانته على ذلك زوجة مرقوريلس الملك حيث كانت تميل إلى زوجها لغرض من الأغراض.

وكان لأوديوس قسيوس النائب المذكور ولد اسمه ميطانوس وكان نائباً على الإسكندرية فسعى فى أخذ البيعة لأبيه فأخذها ولم يتمكن أوديوس من المنصب الملوكى حتى قامت عليه العساكر وقتلته هو وولده ميطانوس فكفى الله مرقوريلس الملك شر القتال واستتب له الأمر.

وكان مرقوريلس كريم النفس رفيع الهمة يعفو عن المذنب ويصفح عن الجانى وقام إلى ديار مصر ليصلح ما أفسدته الفتنة من أحوالها فوصلها وقبض على رئيسى الخوارج الاثنين ونفاهما وعفا عن بقية الأحزاب واستجلب قلوب الأهالى واستمال نفوس الرعية وعامل الجميع بحسن المعاملة فارتكز فى قلوبهم أمر مجده وعلو همته وأحبوه محبة عظيمة جداً ثم رجع إلى غزو القبائل الشمالية ثالثة إذ كان قد غزاهم غزوتين فلم تتم له الثالثة حتى مات بالوباء فى سنة ثمانين ومائة للميلاد أى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة.

وكانت أيامه كأيام بقية العائلة الأنطونية أزمان صلح وسعادة على الأمة المصرية ولكنها لم تتمع بهذه السعادة صافية بلا كدر بأسباب الفتنة العظيمة التى قامت فيها وطالت أيامها فأريق فيها من الدماء شيء كثير جداً وفى أيامه مات (أومانيو) بطرك الإسكندرية بعد أن أقام عشر سنين فأقيم بعده (مركيانو) وهو ثامنهم فلبث تسع سنين وستة أشهر ومات فى السادس من طوبة سنة خمس وخمسين ومائة للميلاد وكان عالما حبراً فهامة ورعاً تقياً محباً للخير وأهله فأقيم بعده (كالاتيانو) وهو تاسع بطاركة الإسكندرية وكان من أمره ما سيذكر فى محله.

ولما مات مرقوريلس الملك كما تقدم تولى الملك بعده ابنه قومودس.

(فى الملك قومودس قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه قومودس قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى توفى فيه والده سنة ثمانين ومائة للميلاد أى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة قبل الهجرة فكان لا يؤمل من ظاهر حاله فعل شيء من الحسنات ولا يرجى خيره لما ظهر منه من أيام

صباه من الخشونة والجفاء وذلك أنه طلب فى يوم من رئيس الحمام أن يهيئه له ففعل فدخل فوجد الماء بالغا من الحرارة حدّ الزيادة فغضب وأمر بإلقاء رئيس الحمام فى نار المستوقد ويضاف إلى هذا الفعل الشنيع أيضا كراهة الأهالى له واعتقادهم فيه العقوق والخشونة فإنه لما كان مع أبيه فى غزوة النمسا ومات أبوه هناك اتهموه بقتله وقالوا إنه دس له السم فى الدسم فكان لذلك ولغير ذلك من الأسباب مغضوبا عليه وقد بويع له بالملك بمدينة فينا ببلاد النمسا فى وسط معسكر أبيه حيث كانت الحرب قائمة يومئذ هناك كما تقدم وكان أبوه قد بنى بتلك الجهات قلاعا وحصونا وأعدّها للتترس والدفاع فترك قومودس تلك القلاع وعاد من تلك البلاد وعاد إلى رومة يختال بنفسه وبيده مرآة ينظر فيها إلى حسنه ودخل المدينة بموكب عسكرى على هذه الحالة وهو فى وسط الموكب كأنه المؤيد المنصور وكانت أيامه محفوفة بالمكاره فإنه لعظم قامته وجليل هامته تعلق بصنعة البهلوانية ومال إلى مصارعة أصحاب القوة والبأس فبرع فى هذا الفن وحارب يوما فيلاً عظيماً فضربه فألقاه على الأرض قتيلاً وقتل أيضا فى يوم واحد خمسة أفراس بحربة وفى هذا اليوم بعينه طعن أيضاً مائة أسد بمائة سهم فقتلهم فزادت نفسه كبرا وعتوا وسمى نفسه (هرقول الرومانيين) تشبها بهرقول اليونان الذى تحكى عنه العجائب والغرائب فى قتل الغيلان وتنظيف البقاع من الأسود ولذلك شوهد اسمه معنونا فى بعض التواريخ بعنوان (هرقليانوس).

وكانت لا تهمه مصالح البلاد ولا حاجات خلق الله ولا يأنس إلا بمجانسة المصارعين وأهل المحاطبة والمغالبة وكان يظهر معهم بمظهرهم فى المحافل بلا احتشام ولا كلفة وينازلهم ويصارعهم وهو متزى بزيهم، وكان فى مدينة رومة تمثال للشمس على صورة جسيمة للغاية فرفع قومودس رأس هذا التمثال ووضع مكان الرأس صورة شخصه وكتب على أسفل التمثال ما معناه :

(قد انتصر قومودس على ألف مصارع ليخلد ذكر مهارته فى المصارعة)

ولم يعتكف أحد على هذه المثالب اعتكافه وكان إذا خلا بنفسه فى قصره قتل الناس بغير ذنب وأراق الدماء وكان مغرى بسلب الأموال والأرواح مغرما بأطماع نفسه واتباع هواه وكان يسلى نفسه ويروّحها بتعذيب من يريد قتله من خلق الله فيخترع فى كل يوم نوعا من العذاب جديدًا فلما ضاق الأهالى منه ذرعًا قاموا عليه وخرجت العساكر عن طاعته ودسوا إلى معشوقته (مرقيا) فسقته سمًا فلم يؤثر فيه فلما شاع الخبر بذلك قام عليه أحد المصارعين وهو من أشدّهم واسمه (نزجس)

وطرح نفسه عليه وضمه بين ذراعيه وقدميه فتصارعا حتى صرعه وخنقه وتم مصرعه ففرح الناس بموته وبموته انقطعت العائلة الأنطونية وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وتولى بعده برطيناش قيصر الذى يقال له أيضاً غرديانوس، ولم تكن ديار مصر فى أيام هذه العائلة فى حالة هناء وسعادة كما كانت من قبل فقد قامت فيها الفتن وتتابعت وغمت الإحن وخرجت الرعية على الولاة والعمال فقتلتهم وقتلت الكثير من الجند وفعلت ما لايدخل تحت حصر، وكانت الديانة المسيحية فى أيام هذه الدولة آخذة فى النموّ والانتشار وكان ملوكها يبيحون التمسك بها بغير تهديد ولا تشديد ومع ذلك فقد كان الدين المصرى القديم لم يزل مستغصماً به وهو الكثير والغالب فكانت عبادة الشمس والقمر منتشرة فى البلاد يتبعها اليونان والروم والغرباء المتوطنون بلا فرق ولا خلاف.

وفى أيامه مات (كادتينو) بطرك الإسكندرية فى التاسع من أبيب بعد أن أقام أربع عشرة سنة وكانت أيامه هادئة مطمئنة لم يحصل فيها للنصرانية ما يكدر صفو راحتها فقدم بعده (اغريبو) وهو عاشرهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(فى الملك برطيناش قيصر)
أو (غرديانوس قيصر)

ثم قام بالأمر برطيناش قيصر سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وكانت مدته قصيرة جداً وتحرير الخبر أنه لما مات قودموس الملك اجتمع الأحزاب وبايعوا برطيناش هذا بالملك وله من العمر يومئذ ستون سنة وكان أبوه تجاراً رومانياً من الموالى فرباه وأحسن تربيته فصار فى أول الأمر معلما للغة اللاطينية وكان ذا همة عالية فلم يقنع بهذا العيش وانتظم فى جند أنطنيوس قيصر واستخدم فى عسكر الشام ثم خدم ويروس الملك ففاق أقرانه واشتهر فى حروب العجم وغيرها من بقية الغزوات فلما تولى مرقوديس الملك كان يبغضه فى أول أمره ثم لم يلبث أن مال إليه وأحبه وجعله من أخصائه وأدخله فى أعضاء مجلس رومة ثم قلده قيادة فرقة من الجنود فهابه أعداء الرومانيين وصار له شهرة كبيرة بحسن السياسة فلقبه مرقوديس بلقب قنصل الرومانيين فلما استقرّ به المنصب ظهرت عليه علائم الحلم والدعة والتحبب للناس والميل إلى العدل ولم يلبث أن أخذ

يصلح شأن الدولة ويرتب أمور المملكة مع الحزم والتدبير فى الأموال وشيد أركان المعارف والعلوم بقدر ماتقتضيه مصلحة البلاد وقلل المصاريف إلا بقدر الحاجة فكان ذلك باعثا لإثارة خواطر الأمراء عليه وعقدهم النية على قتله حيث سدّ عليهم أبواب الصرف والإنفاق فاجتمع من الأحزاب المقاتلين ثلثمائة تحت رياسة أمير اسمه لوطوس واصطفوا صفوفاً منتظمة وأحاطوا بقصره من جميع الجهات وقبضوا عليه وذبحوه فكانت مدة حكمه ثلاثة شهور ليس إلا وتولى بعده ديديوس يوليانوس فى نفس هذه السنة فكان حظه من الملك كحظ سلفه كما سيأتى.

(فى الملك ديديوس يوليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر ديديوس يوليانوس بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه برطيناش سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه لما قتل الأحزاب برطيناش الملك وخلا المنصب من ملك وولى عهد اجتمعت كلمة الأمراء والأعيان وقوّاد الجنود على أن يضعوا المنصب الملوكى فى المزايدة وأن يلتزم به من يشتريه فيكون نوعا من المقاطعات الالتزامية يستفيده من يكثر فى العطاء ولما استقرت القاعدة بينهم على ذلك صعد على أسوار الرباطات العسكرية فى الشوارع والمسالك عدّة أشخاص وأخذوا يصيحون على العامة وأبناء السبيل بالنداء أن المملكة الرومانية فى المزاد لمن يسوم فمن تغالى فى الأموال تولى منصبها فحضر اثنان من السوّام فى محفل المزايدة أحدهما سوليقيانوس صهر برطيناش الملك والثانى ديوديوس يوليانوس فسام الأوّل المنصب بخمسة آلاف من الدراهم على كل رأس رومانية وجعل العمدة فى ذلك على الفرز والإحصاء وأبلغه الثانى على كل رأس ستة آلاف ومائتين وخمسين فاستقر البيع للثانى فبايعوه فى الحال على التزام هذا الثمن وبايعه كذلك مجلس الأعيان رغما عما يعلمه من فساد هذا الأمر ومغايرته للآداب والناموس.

فلما استقر المنصب بديوديوس على هذا الوجه عقدوا له موكبا وساروا به إلى قصر الملك فقام عليه العامة واجتمعوا وصاروا يسبونه ويرجمونه ثم بعد قليل من الأيام اجتمع العسكر المرابطون فى الحدود وانتقضوا على أمراء رومة وأعيانها وقوادها وبايع عسكر كل إقليم ملكا اختاره من قوادهم وكادت تتمزق السلطة كل ممزق فقد بايع العسكر الشامى قائده بالملك وبايع العسكر الإبريطانى قائده كذلك وبايع العسكر الإيطالى أميرهم سبطيمس سويرس ملكا على سائر الرومان وتفرقت الكلمة وتباينت

الأغـراض وكثـرت المطامع وباتت أمـور البـلاد فى خلل وارتبـاك عظيـمين وكـان ديوديوس الملك فى هذا الوقت مستقراً برومة يـتمتع بزهوة المنصب ويتصرف فى أمر الحكومة غير مـبال بما يتهدده من الفتنة، وبينما هو على هذا الحال قـام عليه أعضاء المجلس الرومانى واتهموه بالخـيانة وبفساد الأمر وعجلوا بالحكم عليـه بالقتل فقتلوه فكانت مدة حكمه شهرين اثنين وقد اجـتمعت الكلمة فى خلال هذه الحوادث على تولية سبطيمس سويرس أمير العسكر الإيطالى وقد ساعده الحظ بقرب معسكره لمدينة رومة وكـان موصوفاً بحـسن التدبير وسداد الرأى فـسار صوب رومة ليـتم له الأمر فبايعوه.

(فـي الملك سبطيمس سويرس قيصر)

ثم قام بالأمـر سبطيمس سويرس قـيصر بويع له بالملك عـقب موت ديوديوس الملك سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعـشرين وأربعمائة قبل الهجرة وكان من بلاد المغرب من مـدينة (لمبوده) إحدى مدن إفريقيـة وكان قد تزوج بزوجة شامية قد اشتهر بها، ولذلك قال جماعة المؤرخين: إنه أول سلسلة القياصرة الشامية وكـان طاغيـة من طواغى ملوك الروم وكـان فى أيام صـباه يحب الـلعب بمحاكـاة حركات القضاة والحكام ويقلدهم فى ألعابه وهـزلياته فكان يجمع أنداده من الصبيان ويجعل نفسه رئيساً عليهم ثم يوزع عليـهم مصالح المحكمة ووظائفها ويصفهم على هيئة مجلس قضائى ويصعد على منبر القضاء ويصفهم أيضاً حوله ويتذاكر معهم فى قضية يخـترعها ثم يقول حكمت بذلك فلما تولى المنصب وكان يومـئذ خارج مدينة رومة بادر بالمسير إليـها ومعه جيش جرار يبلغ الستين ألف مـقاتل فلما أشرف على المدينة خـافه أعضـاء المجلس وأرسلوا إليه من قـبلهم رسلاً ليـهنئوه بالمنصـب فلما وصلوا إليه وهـم منهم وخشى أن يكونوا جـاءوا لمكيدة وارتاب فى إخلاصـهم نظرا لأخذه المنصب بغير استحقاق فأمر بهم ففتشوهم فلم يجدوا معهم شيئًا فأمر بمثولهم بين يديه وأجزل إنعـامهم وبالغ فى إكـرامهم فقبـلوا أنعامه خـوفا منه ودخل المدينة بجيوشه غـير مبال بما للمجلس من الحـرمة والوقار وتكلم فى وسط أرباب المجلس بأنه لا يحكم إلا بالعدل ولا يسلك إلا سبل الإنصاف فقـبلوا كلامه ولكن على غير إخلاص وهيئوا له موكبا فسار حتى دخل القصر فى كبكبة وأصبح فجلس للنظر فى القـضايا فكان أول شىء بدا منه هو إبطال جـند الحرس الذى قـتلوا برطيناش الملك وصرفهـم إلى أوطانهم وعاقب رؤساء تلك الفتنة ومـهد أسباب الراحـة ثم أخذ فى

تنظيم أمور البلاد وترتيب أحوال الرعية وشدد على خروج جند الحرس وأمر بقتل من يتخلف منهم فى المدينة وانتخب خمسين ألفا من الأبطال لحراسة تخته ورتب لهم أصولاً جديدة.

ولما كان لابد له من الخروج لقتال بسقنيوس نيجر قائد عساكر الشام ومصر والبلاد المشرقية (وقلوديوس البينوس) قائد العسكر الإبريطانى اللذين كانا خرجا طلبا للملك ولم يتم لأحدهما أمر وكان لا يتأتى له مقاتلة الاثنين فى وقت واحد مع استدعاء الحال لذلك رأى ضرورة مشاركة أحدهما له فى سياسة البلاد فأشرك معه (قلوديوس البينوس) قائد العسكر الإبريطانى ولم يشرك بسقنيوس نيجر حيث كان عدوا ألد وخصما لايرد وجدّه وكيل على الإيوان القيصرى برومة وكان بسقنيوس المذكور قد تربى في العسكرية فى أيام الملك مرقوريلس فكان الجنود يحبونه جدا مع شدّته وحدّته وكانت جميع الديار المصرية قائمة معه على ساق وقدم وقد بايعته بالملك عليها وعلى جميع المشرق وكتب ديوان الإسكندرية على باب مدينة الإسكندرية (نيجر سيد هذه المدينة وصاحبها) فسار سبطيمس لقتاله سيرا حثيثا ليأخذه غيلة فلما قدم إلى مصر بجيوشه تمثل بين يديه أهل الإسكندرية وازدحم على بابه عامة الناس ورعاعهم وأظهروا مزيد الفرح بإقباله وصاحوا (نيجر سيد هذه المدينة وأنت ياملك سيد نيجر) فاستعمل على مصر عاملاً من أرباب مجلس رومة وكذلك على مدينة الإسكندرية نائباً من أعضاء المجلس المشار إليه وخالف فى ذلك قانون أغسطس قيصر الذى لايبيح أن يكون أرباب هذا المجلس نواباً فى الولايات أبداً.

وكان نيجر لما أحس بقدوم سويرس إلى الإسكندرية فرّ هارباً فتبعه سويرس وصار يهاجمه أينما لحقه وهو يصدّ عن نفسه وعن البلدة التى يحتلها فلم تساعده الأقدار وقد أظهر من البسالة والإقدام فنونا وأساليب وقامت عليه أنواء شديدة ترتب عليها انهزام جيشه عند رأس بالبحر فأخذ نيجر فى الفرار إلى بلاد العجم فقبض عليه فى الطريق وقتل وذلك فى سنة خمس ومائتين للميلاد أى سنة سبع عشرة وأربعمائة قبل الهجرة وصفا لسويرس ملك البلاد المشرقية بعد قتل نيجر ولم يبق لسويرس بعد ذلك إلا خصم واحد وهو قلوديوس البينيوس الذى سبق الكلام عليه وكان مجلس رومة يميل فى الباطن إلى تقليد قلوديوس المذكور المنصب الملوكى والى نصرته على سويرس وقد كان معدوداً من فحول الرجال وكان جنوده من أبسل الجنود وأشدها إقداما على اقتحام المهالك وكان فى خلال هذه الفطرة قد لقب نفسه

بأغسطس فسار سويرس لقتاله والتخلص منه بعد أن كان قد أشركه معه فى حكم البلاد وإدارتها كما تقدم القول فلما تلاقى الجمعان عند مدينة (ليون) من بلاد الفرنسيس تقاتلا قتالا عنيفاً فانهزمت جيوش البنيوس شر هزيمة فمال البنيوس عن فرسه وقتل نفسه خوفا من الوقوع بين يدى عدوّه فأمر سويرس بحز رأسه وأرسله إلى أرباب مجلس رومة مع خطاب يعنفهم فيه على ممالأتهم لألبينوس وتعصبهم له فى السر ويعلمهم بشديد غضبه عليهم وما سيحل بهم عند رجوعه إلى رومة ثم عاد إلى رومة فقتل وفتك وأجرى فيها الدماء كالسيول ونفى منها من نفى من أكابرها وأعيانها وضرب أعناق مشاهيرها وأصحاب المظاهر فيها فعم الخوف وانكمش الناس ومهدت الأمور وصفا له الوقت ونام على وسادة الاطمئنان ثم سار بجيوشه إلى قتال العجم والإنكليز ليدخلهم تحت الطاعة وبعث بجيش جرار إلى الجهات المشرقية فحاربها وحاصر مدينة (بوزنيطا) التى هى القسطنطينية وجعل على حصارها أمهر قوّاده فدافعت ثلاث سنين متوالية ثم فتحوها عنوة ونهبوا ما فيها من الأموال ودمروها تدميراً.

وبعد أن تغلب على العجم والبلاد المشرقية جاءته الأخبار بأن الإنجليز غالبون على جنوده فقدم عليهم من حيث لا يشعرون وغزاهم غزوتين خسر فيهما خمسين ألف مقاتل وكان قد أشرك ولديه معه فى الملك وبعث أكبرهما وهو (بسيانوس) مع الجنود المحاربة للإنجليز فلما انهزمت جنود أبيه ووقعت الفتنة فى الجند وحصل الفشل بين الرؤساء وتعصب كبارهم ضدّ الملك قام بسيانوس المذكور على أبيه سويرس واخترط سيفه وهمّ به على أبيه فلم يتمكن من قتله فخنق سويرس والتهب قلبه بنار الغيظ واشتد به الأمر اشتداداً عظيماً فمات لساعته وذلك سنة إحدى عشرة ومائتين للميلاد أى سنة إحدى عشرة وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة.

وفى أيامه مات (إغريبو) بطرك الإسكندرية بعد أن أقام إحدى عشرة سنة وفى أيام (إغريبو) المذكور اتفق رأى بطاركة جميع الأمصار على حساب عيد الفصح للنصارى وصومهم ورتبوا كيف يستخرج ووضعوا حساب الإبقطى وبه يستخرجون معرفة وقت الصوم والفصح واستمر الأمر على مارتبوه إلى يومنا الذى نحن فيه وكانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوما كما صام المسيح ويفطرون وفى عيد الفصح يعملون الفصح مع اليهود فنقل هؤلاء البطاركة الصوم وأجلوه بعد الفصح لأن عيد الفصح كانت فيه قيامة المسيح من الأموات وكان الحواريون قد أمروا

أن لا يغير عن وقته وأن يعملوه فى كل سنة فى ذلك الوقت ولما مات (إغريبو) قدم بعده (يوليانوس) وهو حادى عشرهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

وخلف سويرس على سرير الملك بعد موته ابنه بسيانوس فتوسم فيه الناس الخير وأملوا فيه العدل والرفق بالرعيه بعد الذى قاسوه من أبيه.

(فى الملك بسيانوس قراقله قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه بسيانوس قراقله بعهد من أبيه فبويع له بالملك هو وأخوه (سبطيموس جيكا) معا حيث كان أبوهما قد عهد لهما به فى حياته فاشتركا فى الملك بعده وذلك سنة إحدى عشرة ومائتين للميلاد أى سنة إحدى عشرة وأربعمائة قبل الهجرة وكان الناس يعتقدون فى بسيانوس المذكور الشفقة والرفق بالرعية والاعتدال فى السياسة إذ كان كثيرا ما يقبح فعال أبيه بلا تحاش ولا اكتراث عندما كان يعاقب الناس بإلقائهم للحيوانات الضارية وكان يبكى لذلك بكاء شديداً فلما تولى واستقر به المنصب تغيرت طباعه وانقلبت أحواله وهم أن يقتل أخاه بالسم واحتال على ذلك بكل ما وصلت إليه قدرته فلما لم يتمكن منه أغرى به أعوانه فقتلوه بين ذراعى أمه وتجهل العلم بما جرى وهرب من قصره تمويها بأنه يخاف على نفسه من قاتلى أخيه أيضا وذهب إلى حيث جند الحرس وأعلمهم بقتل أخيه فأنكر الجند عليه ذلك وأسفوا وحزنوا على ذلك الطفل فسايرهم وأجزل إنعامهم تخلصا ولما كان لأخيه المذكور حزب قوي قام ذلك الحزب وأثار على بسيانوس الفتنة وكاد يخرج عليه خروجا تاما فأشار عليه كبار جند الحرس أن يضع لأخيه تمثالا وينظمه فى سلك المعبودات على عادة الرومانيين ليقمع الفتنة بالتى هى أحسن ففعل وطلب من وزير أبيه المسمى (باينياس) مقالة يتلوها على الناس يعتذر فيها عما جرى لأخيه فقال باينياس قد كان عدم قتل أخيك خيرا من الاعتذار عنه فغضب من ذلك وأمر بقتله من ساعته وكان قتل باينياس الوزير حاملا لبسيانوس الملك على ركوب متن العتوّ والطغيان والإكثار من سفك الدماء وضرب الرقاب والفتك بالأكابر والأعيان فكان عدد من قتلهم من هؤلاء نيفا وعشرين ألف نفس ثم تخوّف ولازمه الوهم فكان يخيل له دائماً فى عالم المنام أن أباه وأخاه يجردان عليه حسام الانتقام فيقوم خائفاً منزعجاً فلم يستقم له بعد ذلك حال ولم ينعم له بال فكان يسلى نفسه بالذهاب إلى الولائم والألعاب ويلعب مع اللاعبين ويلبس ملابسهم أو يتزيا بزى

العربجية وفي عنقه ياقة زرقاء كـالزنار وهي علامة أهل هذا الفن وكان كثير المداهنة والتدليس فكان غـشه مستـوعبا لجمـيع أحواله وأطواره حتى كـانت السكة المضروبة باسمه من دراهم ودنانير مغشوشة وقد قال بعض رعيته ما نصه: كان القيصر يعطينا النقود المتخذة من الرصاص مطلية بالفضة على أنهـا فضة خالصة والنقود المتخذة من النحاس مطلية بالذهب على أنها ذهب خالص اهـ.

وكان يحتكر النـقود الخالصة ويكنزها لنفسـه ولا يخرج منها إلا ما كـان يدفعه للقبائل الأجنبية المتبربرة في عقـود الصلح معهم لكى يتجنبوا حربه ويكونوا له عونا على الرعية. واشتدّ به الهوس حتى ولع بتقـليد الإسكندر الأكبر المقدونى والتشبه به فى جـمـيع أحـواله فكان يقلده فى أمـوره وأطواره وينسج على مـنواله فى الملبس والمطعم وكان يتكلف التخلق بأخلاقه فى جميع ما يحكى له عنه وجعل جند حرسه الخاص ستة آلاف كلهم مقـدونيون تقليدا لجند الإسكندر وعلق تمثال الإسكندر على جميع الميادين والهياكل والمعابد وسـمى نفسه الإسكندر لتكون هذه التماثيل رموزا له معنونة بعنوانه ومـال إلى الغزو على منوال ما فعله الإسكندر فنزل علـى بلاد الغالية وأهلك فيهـا الحرث والنسل وأفنى فى محاربتها الجنود وسـار فى البرارى حتى نزل على بلاد جرمانيا فلم يقدر على الجرمانيين إذ تأهبوا لصده وعبروا نهر الرين ليهزموه شر هزيمة ويخلعوه من الملك فلما أحس منهم بذلك واساهم ورشاهم بالمال فرجعوا عنه فدخل بلاد المجر والفلاق وبلاد الإردل المجاورة لبلاد الجرمـان فوجدها جميعها خاضعة للغوطية وكادوا يبطشون به فرجع عنهم ولم يظفر إلا بمملكتين صغيرتين لا يفيان بما أهلكه من الرجال ونزل على بلاد فارس فخاب منه الأمل وركن إلى الصلح بعد الهزيمة ثم وثب على ديار مصر وأعمل السيف فى أهل الإسكندرية بلا موجب ولا سبب سـوى ما بلغه من أنهم يسـمونه بالهوس ويصـفونه بالخفـة والطيش وقد أباحهم للعـسكر فأعملوا فيـهم الذبح يوما وليلة لم يرحمـوا طفلا ولم يحنوا على عاجز وانتـهت غزواته بالخيبة والفـشل والعجز عن العمل وقام عـليه العجم يريدون أخذ الثـأر فلما رأى جنوده مـا سيلحق بهم من العار ومـا يزايل ملكهم من الخيـبة والبوار أجمـعوا الكلمة على قتله فقـتلوه وهو راجع من هذه الغزوة وذلك سنة تسع عشرة ومائتـين للميلاد أى سنة خمس وأربعمائة قبل الهـجرة فكان مدة حكمه ست سنوات ليس فيها غير المذلة والانحطاط للدولة.

وكان يلبس على رأسـه فى جميع غزواتـه مغفرًا على زى بلاد الفـرنسيس من النوع المسمى قراقله فاشتهر بهذا الاسم فى كـتب التاريخ وكان حين اشترك مع أخيه

جيكا فى الملك رسم العلامات الملوكية والطغراء فى جميع البلاد باسمه واسم أخيه معا ورسمها أيضا على المبانى فى سائر الجهات فلما مات أخوه قتيلا على ما تقدم ذكره أمر بمحو اسمه من سائر الأنحاء وإنما بقى فى مصر دون غيرها آثار محو على بعض الأحجار يمكن المتأمل قراءتها وكان بسيانوس آخر قيصر بقيت آثاره على مبانى الديار المصرية ولم يكن لقيصر بعده فيها اسم ولا رسم ولما مات تولى الملك بعده (مقرينوس) رئيس جند الحرس الملوكى.

(فى الملك أوبليوس مقرينوس قيصر)

ثم قام بالأمر أوبليوس مقرينوس بويع له بالملك فى ساحة الحرب فى نفس اليوم الذى قتل فيه بسيانوس بايعه الجند ونادوا بملكه سنة سبع عشرة ومائتين للميلاد أى سنة خمس وأربعمائة قبل الهجرة قيل وهو الذى أغرى الجنود وجعل لهم جعلاً جسيما فقتلوا الملك وكان الحامل له على ذلك أن كاهنا من أهل العرافة أخبر أوبليوس المذكور أنه سيكون يوما ملكا على جميع الرومانيين ففعل ما فعل استمساكا بقول ذلك الكاهن.

وكان مولد أوبليوس المذكور بمدينة الجزائر بالغرب وكانت تسمى قصيرة وكان مثقوب الأذن فلذلك سموه (مقرينوس) وسمى أيضا (مقرين) ومعنى مقرين فى لغة برابرة المغاربة مثقوب الأذن وكان سعيد الطالع ميمون الطلعة فارتقى المناصب العالية فى زمن يسير جدا وكان صاحب علوم ومعارف متضلعاً من الفنون العالية فقد خدم خطيباً فى المجالس فكان له فى الخطابة الباع الطويل وانتدب عدلا فى المحاكم ورئيس محكمة وغير ذلك من المناصب العالية والرتب السامية.

وكان أوبليوس فى أيام (قراقله) الملك قاضيا فأخذه وسلمه منصب إمارة الجنود ورياسة الجيوش واستخدمه فى بطانته ثم رقاه إلى أعلى المناصب وجعله أميراً على جند الحرس الخصوصى فتمكن بذلك من فعل ما فعله بقراقله.

وقد كان فريق من جند الحرس نكص عن مبايعته فاستعمل معه الحيلة فلم ينجح فتركه واشتغل بأمور المملكة فبدت منه دلائل الجفاء والشدّة على الرعية فشكى جميع الناس منه وتمكنت من قلوبهم الوحشة فلم يلتفت إليهم وسار لمحاربة (إردوان) ملك فارس إذ كان قد هجم على الحدود وكاد يدوّخها فلما التقى الجمعان انهزم أوبليوس هزيمتين متواليتين مات فيهما كثير من جنده فطلب الصلح مع (إردوان) ملك فارس فاستقرت قاعدته بينهما على أن يدفع أوبليوس ثمانين ألف

ألف من دراهم الفضــة فحملها إلى (إردوان) من يومـه فنقمت عليه الرعيـة وكرهه لذلك أهل البلاد ووسـموه بالجبن والخيانة وتـقوّى عليه الفريق الذى كـان قد نكص عن مبايعتـه، ومحا وأثبت فى قوانين المملكة وقواعد العسكرية واسـتعمل الشدة فى انتخاب شـبان الجندية المستجدّة وأهمل تسريـح العساكر المتمرّنة على القـتال ونبذهم فحقد عليه الجنود وأبغضوه وصمموا على الانتقام منه ولبثوا يراقبون الفرص.

واتفق أن نزل بقرب مـدينة حمص فـريق من الجنود الرومانيـة رباطا وكان أهل حمص يومئـذ صابئين يعبـدون الشمس وكان لهم كهان لخـدمة هيكلهم ومن هؤلاء الكهان شماس له من العمر ثلاث عشرة سنـة اسمه (بسيانوس) جميل الشكل حسن الصورة إذا لبس مـلابس الكنهوتيـة المكللة باللؤلؤ والمرجان شـخصت إليـه الأبصار ومالت إليـه القلوب فكانوا يشبهـونه بالقمر المنـير ويحفلون به وقت تقـديم القربان ويرقصـون حوله ويغنون بالألحان وكـان لهذا الغلام جدّة اسـمها (يوليـه موزه) هى أخت (يوليه رومنا) زوجة سويرس قراقله قيصر وكانت جدته من العجائز ربات المكر والدهاء فكانت تدّعى أن هذا الغلام ابن قـراقله الملك كى تستميل إليـه الجنود الحالة هناك وقد كـان مجهـول الأب فكان يسمى بسيـانوس هيلوغياله يـعنى الشمس وهو مشهـور فى كتب التاريخ بهـذا الاسم فلما تمكن حبه من قلوب الجنود أخـذته يوما وذهبت به إلى المعسكر وكلمت الجـنود فى أمر أبيه قراقله الملك وأن يبـايعوه بالملك فأجـابها الجنود إلى ذلك وبايعوه ولقـبوه (أغسطس) فلما وردت الأخـبار بذلك إلى مقرينوس الملك جمع أحزابه وسار بهم عاجلاً لمقاتلة أغسطس المذكور على مقربة من انطاكية فكان الحرب بينهما سجالاً وبقى الحال هكذا مدة حتى كلت عزيمة مقرينوس واستولى عى جـيوشه الجبن فهرب هو وأصحـابه ولم يقف إلا عند قاضى كوى فى إيالة بروسه حيث لحقـته جيوش أغسطس وفتكوا بأصحـابه فتكا وقتلوه فى وسطهم وذلك فى سنة ثمان عـشرة وأربعمـائة للميلاد أى سنة أربع وأربعـمائة قبل الهـجرة وخلا الجوّ لأغسطس بسـيانوس هيلوغياله فتمكن من المنـصب وكانت مدة أوبليوس مقرينوس المذكور سنة واحدة وأياما.

(فى الملك بسيانوس هيلوغياله قيصر)

ثم قام بالأمر بسيـانوس هيلوغياله بويع له بالملك بين عساكـر حمص ثم بايعته بقيـة العساكـر وصدّق على ذلك مـجلس رومة وذلك سنة ثمـان عشرة وأربعـمائة للميلاد أى سنة أربـع وأربعمائـة قبـل الهجـرة فلمـا استقـر به المنصـب أمـر بأقـارب

مقرينوس الملك فقتلوا جميعاً وتتبع أحزابه وكثيرا من الأمراء والأعيان بالقتل حتى انقرضوا ولم يتنازل عن رياسة هيكل الشمس وأبقاها لنفسه كالخلافة فكان جامعا بين الملك والكنهوتية وقد صنع لولايته على الملك مواسم وأعيادا بقيت ستة أشهر وأمر بأن يكون أجلّ المعبودات وأكبرها فى جميع البلاد صنم الشمس ورتب ذلك برومة ومصر فكان هذا الصنم عبارة عن حجر أسود لا صورة به ولا شكل وبنى له برومة هيكلاً عظيماً وجعله سيد الأصنام وكبيرهم ثم زوّجه لصنمة الزهرة التى هى أكبر معبودات بلاد إفريقية ورتب لها عرساً عظيماً ومواسم وأعيادا سنوية وجعل مصرف هذه الأفراح على جميع الأهالى يوزع عليهم وكان هذا الصنم فى بلاد الشام أصل الزيغ والبدع فنقله إلى رومة.

ودخل بسيانوس المذكور إلى رومة وهو فى سن الرابعة عشرة لابسا حلة كهنوتية من الحرير المقصب المنقوش بأفخر النقوش فكان أوّل من لبس الحرير من الملوك فى رومة وكان فى يده أساور من ذهب وفى عنقه أطواق من ذهب أيضاً وكان مزجج الحواجب مكحول العينين يتزيا بزى العذارى تارة وبزى المردان اخرى وليس فيه من صفات الرجولية شيء وكان ينشر فى قصره دائماً أنواع الزهور والرياحين وينثر تحت رجليه الذهب والفضة فكان فى التكسر أقرب شبها إلى النساء منه بالرجال ولم توجد أخلاقه الذميمة فى أحد من القياصرة الذين قبله فكان إذا أراد النزاهة وترويح النفس دعا إلى مائدته ثمانية أشخاص من العور ومثلهم من العرج ومثلهم من الصنم ويسخر بهم ما شاء وكان فى كثير من الأحيان فى وقت انتظام الديوان واحتفال الجلساء يطلق بغتة الأسود والنمور وقد كانت مقلمة الأظفار مخلوعة الأنياب فيضطرب الحاضرون من منظرها الهائل وينسرّ هو وكان يزعج خواصه وأتباعه على الدوام بهدايا وتحف مملوءة من الهوام والحشرات حتى إذا فرحوا بها وفتحوها أرهبتهم وأورثتهم المضار وكان إذا اجتمع الأهالى فى ميادين الألعاب أمر أعوانه فيطلقون الثعابين فتضطرب الناس وتتفرق ، وقد تقدم القول على أن بسيانوس المذكور ابن دعيّ منسوب إلى سويرس قراقله نسبة كاذبة وأن قراقله كان زوج خالته وكان لخالته بنت لها ولد يسمى الإكسندرسويرس فلما كثرت قبائح بسيانوس وعم ظلمه جميع الرعية وزاد طغيانه طلبوا منه أن يشرك معه الإكسندرسويرس فى حكم البلاد وتدبير أمورها فقبل ذلك كرها فرأى من الإكسندر خصمًا عنيداً فدبر لقتله فانكشف سره وفشا أمره فقام الأهالى على ساق وقد وهموا بقتل بسيانوس فاختفى فى مكان خفى ففتشوا عليه وأمسكوه وذبحوه وألقوا جثته بعد تثقيلها بحجر فى نهر رومة وذلك

سنة اثنتين وعشرين ومائتين للميلاد أى سنة أربعمائة قبل الهجرة، فتولى بعده ابن خالته الإسكندرسويرس الثانى وكانت مدة بسيانوس أربع سنين تقريبًا.

(فى الملك الإسكندر سويرس)
(قيصر الثانى)

ثم قام بالأمر ابن خالته الإسكندر سويرس الثانى بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه بسيانوس وكان أول من بايعه أرباب مجلس رومة لا طوائف الجنود كأسلافه وذلك سنة اثنتين وعشرين ومائتين للميلاد أى سنة أربعمائة قبل الهجرة وكان حسن السيرة والسياسة كامل التدبير موفقا فى جميع أقواله وأفعاله وكانت أمه نصرانية اسمها (مامه) فكان يستشيرها فى جميع أطواره وأحواله ويستنصحها فى جميع مشروعاته وأفعاله ويعمل برأيها فأبطل جميع الأمور المغايرة للآداب التى كان بسيانوس قد أحدثها وأعاد صنم الشمس إلى حمص وأخرج جميع الأصنام الأجنبية من رومة ومنع إباحة التعبد بها فى غير محالها ولم يرض أن تتمسك رومة من الأديان الأجنبية عنها بغير دين المسيحية يعنى أنه يباح لهم التمسك بدين جاهليتهم القديم ولا يباح لهم غيره من الأديان إلا الديانة المسيحية وأصدر بذلك أمراً رغما عن معارضة كهنة الأوثان الرومانية.

ثم سنّ القوانين النافعة بالنسبة للأخلاق والعوائد ونظم أحوال بيت المال وسياسة البلاد على أحسن ترتيب وسلك فى أحسن المسالك مستمسكا بالأحكام المتينة مراعياً لجانب القوانين فاقتدى به رعاياه وسلكوا سبل العدل والإنصاف وطرد من ديوانه أهل السخرية وأرباب اللهو والمغنين ولم يقرب من مجلسه إلا أهل المعارف وأصحاب الحكمة وكان لايضيع أوقاته إلا فى مطالعة كتب الآداب أو التمرينات الحربية وكان لا يجسر أحد على التكلم فى مجلسه بشىء من العوائد القديمة ولا إحداث شىء من البدع الذميمة وكان يعظ الناس جهاراً بالخطابات والمقالات كما كان يفعل عظماء الدولة الرومانية أيام انتظام دولتهم وكان يستشير مجلس رومة فى كافة أمور البلاد ويسترشده فى جميع مصالح الرعية وخفف عن الأهالى العوائد والمكوس والجبايات وكان يحيى قلوب أهل الصنائع والفنون بالجوائز تشويقاً لهم وترغيبا وكان يقظاً نشطاً ساهراً على تدارك ما ينجم عن أعمال العمال والولاة كثير الاعتناء بأمور الجند والعساكر وصرف جوامكهم وعلوفاتهم فى أوقاتها وكان يزور المرضى منهم فى خيامهم وكان يقول:

يجب على الجندى كمال الطاعة بقدر الاستطاعة ويجب له أيضا على الدولة أن يكون حسن اللباس جيد السلاح مستور القدم حاصلا على قوته على الوجه الأتم وأن يكون في جيبه شيء من الدراهم لحاجة نفسه، فكانت العساكر فى أيامه مستحوذة على جميع ما قاله وكان لذلك إذا صدر من أحدهم هفوة شدد فى جزائه وعقابه بما يقتضيه جرمه من جلد أو قتل.

وبينما كان الإسكندر سويرس مشتغلاً بأمور البلاد وتهذيب أخلاق الرعية وترويج سوق التجارة وتحسين أحوال الصناعة وتقديم القوانين وتوطيد أركان الشريعة إذ وقع من الانقلاب السريع فى البلاد المشرقية ما لم يكن فى حساب وذلك أن أزدشير بن بابك رأس الدولة الساسانية قام على أمة (البرث) وهى أمة قديمة العهد تنسب إلى فارس أو هى الفرس الأول واستولى عليها وأزال دولتها وأخضعها إليه وكان أزدشير هذا قبل وثوبه عاملاً على إقليم من أقاليم اصطخر وكان قد أخبره بعض المنجمين أن ملك فارس سيصير إليه يوما فاستمسك بهذا النبأ ووثب على ملوك الطوائف وأخذ منهم بلادهم فملك اصطخر وهمذان والجيل وأذربيجان وأرمينية والموصل والسواد وبنى مدينة على شاطئ دجلة شرقى المدائن ثم رجع إلى اصطخر ففتح سجستان ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوارزم إلى تخوم خراسان ثم رجع إلى فارس ونزل صول وأطاعه ملك كوستان ومكران ثم ملك مدينة البحرين بعد حصار طويل ألقى فيه ملكها بنفسه فى البحر ولم يزل مظفراً قاهراً لجميع الملوك الذين حوله ، وقد مدّن المدن واستكثر من العمارة وقتل أردوان الإشفانى وغيره من الأردوانيين واستولى على جميع ملك الأردوانيين الذين هم أنباط السواد يعنى السريانيين وكان على طوائف الأرمن ملك اسمه (بابا) والأرمن هم أنباط من نبط الشام وكان بين أردوان وبابا حروب مستمرة فاتحدا على قتال أزدشير المذكور فحارباه مناوبة فكانت الحرب بينهم سجالا فبعث أزدشير إلى بابا فى طلب الصلح على أن يدعه فى الملك ويخلى بابا المذكور بينه وبين أردوان واستقرّت القاعدة بينهما على ذلك ثم جرد أزدشير على اردوان فقتله واستولى على السواد فأطاعه بابا بالشام وانقاد له بعد أن كان تحت طاعة الرومانيين ودان له سائر الملوك وقهرهم قهرًا. قال أهل التاريخ: ثم انقلب على أمراء العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق إلى الحيرة وكانوا ينقسمون فى هذا الحين إلى ثلاث فرق متمايزة الأولى قبائل ترأسهم قضاعة وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربى الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها وكانوا واسعى الحرّية جداً فلما ملك أزدشير هذه الأصقاع أنفوا من الإقامة

تحت قبضته فخرجوا من البرية هائمين، الثانية العباد وكانوا يسكنون الحيرة متوطنين فيها، الثالثة الأحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم ولم يكونوا من تنوخ الناكصين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا لهم فملك الأحلاف المذكورون الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عدى وقومه فنزلوا بها وخربوها وكانت من بناء العرب من عهد بختنصر ثم عمرها بنو عمرو بن عدى لما صيروها دارا لملكهم إلى أن صبحهم الإسلام واختط الخلفاء مدينة الكوفة فدثرت الحيرة كما سيأتى الكلام على ذلك فى محله.

ولما زحف أزدشير على ممالك الرومانيين كمملكة الأرمن وغيرها وعظم أمره وساعدته الأقدار على اتساع ملكه وأسس دولة الفرس الساسانية الجديدة ولقب نفسه (بالملك الأكبر) وعظمت صولته فى البلاد المشرقية وهابه جميع مجاوريه وخشى الإسكندر سويرس بأسه وخاف أن يتسلط على ملكه فسار إلى بلاد المشرق مسرعاً لإيقاف أزدشير عند حده فلم يستقر به المقام حتى أرسل إليه أزدشير سفراء يطلبون منه إعادة جميع بلاد فارس التى كانت ملحقة بها إلى زمن كورش وهى الممتدة إلى جزائر الروم فتعجب سويرس من قحة أزدشير وجراءته وجدّ فى السير لقتاله واتفق وهو فى الطريق أن بعض العساكر خالفوا الأصول والنظامات الجندية فعقد سويرس لذلك مجلساً للحكم عليهم وأحضرهم أمام المجلس فى السلاسل والقيود وقام فى وسط المجلس وقال إن السكوت عن إهمال الجنود وواجباتهم يزرى بشرف المملكة ويهدم ناموس الأمة وكان العامة فى ذلك اليوم قد اجتمعوا ليروا ما سيكون من أمر المخالفين فلما سمع الناس ما قاله الملك ارتفعت أصواتهم بالصياح وعلت الضوضاء وقالوا لاتحل لك هذه الفعال فأشار أرباب المجلس إلى الجنود أن اضبطوا هؤلاء الصائحين ووجهوا بهم صوب الأعداء لقتالهم عوضاً عن أن يعارضوا الملك ويقاوموه فاشتد غضب الأهالى وتمادوا على غيهم واستطالوا على الملك وأقاموا فى وجهه السلاح فبرز لهم ووقف فى وسط الضوضاء وقال اغمدوا سلاحكم فإنى لا أرهب التهديد ولا أخشى الوعيد فلما رأوه على هذا الحال ألقوا سلاحهم وسكنت الفتنة وحصل الهدوء والراحة واستقرت هيبته فى قلوبهم ثم سار بعيد ذلك بجيوشه إلى العجم يريد قتالهم فتلاقى معهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة وهرب أزدشير ونكص على أعقابه ولبث لايحرّك ساكنا ولا يطلب ثأراً ورجع الإسكندر سويرس إلى رومة مؤيداً منصوراً فتلقاه أهلها بالأفراح ودخل المجلس الأعلى بغتة ووقف بين رجاله خطيباً فقال يا أعضاء مجلس رومة قد هزمت لكم الفرس شر

هزيمة ولا حاجة لبسط الكلام فى هذا المعنى بل أقتصر على أن أذكر لكم قوة العدوّ وجنوده وما ظفرنا به عند ما أتاح الله لنا النصر عليه والظفر به فقد كان للفرس فى هذه الوقعة سبعمائة من الأفيال يقاتلوننا بها فقتلنا منهم مائتى فيل وسلبنا ثلثمائة وقد أحضرنا منهم إلى رومة ثمانية عشر وكان معهم ألف عربة مسلحة بالمناجل مطقمة بالعساكر المقاتلين بهذه الآلات فهزمناهم وأخذنا منهم مائتين ولم أحضرهم إلى هنا إذ لا فائدة فى ذلك وقد هزمنا أيضا فرسانهم وكانوا مائة وعشرين ألفا فبددنا جموعهم وقتلنا منهم عشرة آلاف مدرعين وسلبنا منهم دروعهم وجعلناها عدّة لعساكرنا وأسرنا من عسكرهم رجالاً كثيرين بعناهم عبيداً وقد أعدنا ولله الحمد لدولتنا بلاد الجزيرة الفراتية التى أخذت على عهد القيصر سلفنا وقد بددنا شمل أزدشير مع ما اشتهر به فى المشرق باسم (الملك الأكبر) وقد ولى الأدبار ذليلاً حقيراً وقد رفعنا أعلامنا وبنودنا على جميع البلاد التى كانت تحت سلطاننا واستولينا على جميع أعلام أزدشير فهذه بضاعتنا ردّت إلينا وقد أنسى عسكرنا المظفر هذا الانتصار ما كابده من المشاق والأخطار فعلى المجلس أن يأمر فى المعابد والمشاهد بنشر أنواع الشكر والمحامد فى مقابلة هذه النعمة التى لا ينكرها إلا جاحد معاند. فأجاب أرباب المجلس عن هذه المقالة بقولهم أيها القيصر قد استحقيت الامتياز بلقب الفارس الأول والاختصاص بهذه المزية حيث انتصرت على الفرس نصرة حقيقية والفضل فى ذلك لحسن تدبيرك.

ثم خرج من قاعة المجلس وذهب إلى الميدان العام وارتقى منبر الخطابة فاحتفل به الناس وصاحوا صيحة الفرح وعلت الأصوات فقال : يا أيها الناس، قد هزمنا جند فارس ورجعنا بقومنا سالمين، فنعدكم بالإنعام والإكرام وستشاهدون غدا الأفراح بهذه النصرة العظيمة فصاح الناس قائلين بالسعادة رومة بطول عمر ملكها المنصور.

ثم بعد هذه الغزوة جرد عساكره أيضاً لغزو جرمانيا وسيرهم إليها جنداً بعد جند وكانت قد شقت عليه عصا الطاعة مرة واحدة فلم ينل منهم مراما بل كانت الدائرة عليه وعلى جنوده وذلك أنه لما وصل إلى مدينة ميانة من بلاد الفرنسيس وقعت الفتنة بين جنوده فى المعسكر وقام بعضهم على بعض وهاجوا وعصوا ودخلوا على الملك فى خيمته وذبحوه ذبح الشاة وكان مقتله فى سنة تسع وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وبموته انقرضت سلسلة القياصرة الشامية الذين هم فى الحقيقة من بلاد

أفريقية لا من الديار الشامية كما اشتهروا بذلك.

وفى أيامه حصلت مصر على نوع من العمارية والتقدّم فى المعارف والعلوم من أدبيات وفلسفة وغيرها واكتسبت من النجاح والتمدن أكثر مما اكتسبته رومة وغيرها من المدن الداخلة فى حكم الدولة الرومانية وكذلك حصل فى بقية البلاد التى كانت تابعة لها.

وفى أيامه مات يوليانوس بطرك الإسكندرية فى ثامن شهر برمهات فكانت مدته عشر سنين فأقيم بعده ديمتريوس وهو ثانى عشرهم وكان فلاحاً أميًا وله زوجة ذكر أنه لم يقترب منها قط وهو الذى رتب حساب الكرمة وقد وقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

ولما قتل الملك الإسكندر سويرس تولى بعده مقسيمينوس قيصر الأول.

(فى الملك مقسيمينوس قيصر الأول
ويسمى أيضاً
(مخشيميان قيصر)

ثم قام بالأمر مقسيمينوس الأول بويع له بالملك سنة تسع وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكان عاتياً فظاً غليظاً خارجاً فى ضخامة الجسم عن حد العادة جافى الطبع والعقل والجسم فكان إذا تختم فى إصبعه تختم بأساور زوجته وإذا ضرب فرساً بقبضة يده أطار أسنانها وكان يسحق بيده الأحجار ويفلق الشجرة فلقتين بيديه وكان يسحب العربة الكثيرة الأحمال بيد واحدة وكان يأكل فى اليوم أربعين رطلاً من اللحم ويشرب جرة من الخمر زنتها خمس وعشرون أقة.

قال بعض أهل التاريخ: فهذه الأوصاف وإن كانت تشم منها رائحة الإطراء والمبالغة ولكنها لا تخلو من الصحة.

وكان أبوه من الغوطيين وأمه من اللانيين وكان عمليقى الهيئة وارتقى منصب الملك بنادرة عجيبة جداً وذلك أن سويرس الملك كان قد أقام عيداً مشهوراً على ساحل الطونة لولادة ابنه جيطا وكان مقسيمينوس هذا يرعى الماشية بهذا الساحل فحضر يوما إلى معسكر الملك وطلب قبوله فى عداد اللاعبين فى تلك الولائم فلما رآه الملك عجب جداً من ضخامة بنيته ومنظره الهائل ورأى أن مثله يليق للمنازلات

والحروب فأمر أن يتصارع مع أقوياء الجند ليجربّه فطرح ممن بارزهم على الأرض ستة عشر صنديداً واحدا بعد واحد وغلبهم من غير تخلل زمن للاستراحة فأعجب الملك ذلك جداً وأمر بقيد اسمه فى سجل الجنود فبقى فى أفراد العسكرية إلى أيام الإسكندر سويرس فسلمه الإسكندر المذكور رياسة أحد الجيوش ليعلمه وينظمه ويربيه التربية العسكرية فرباه أحسن تربية ونظمه أحسن نظام وضبطه ضبطاً كاملاً وعلم رجاله الحركات العسكرية وتدبيرات الحيل الحربية وكان يناضل الشبان منهم بنفسه فلما مات القيصر الإسكندر سويرس المذكور بايع مقسيمينوس هذا جنوده فى اليوم الذى مات فيه سويرس عند شطوط نهر الرين ثم بايعه الجنود والأعيان وأرباب المجلس طرا.

فلما استقر به المنصب عبر نهر الراين وأمر بإحراق القرى والبلدان فى طريقه إلى إيطاليا وجعل معسكره فى النمسا وأمر أن يرسلوا إليه على جناح السرعة جميع أعيان ووجهاء إيطاليا فحضروا إليه فى المعسكر فأمر بصلب البعض وإلقاء البعض الآخر للوحوش المفترسة بغير موجب ولا سبب ظاهر ثم اقتفى أثر النصرانية فقتل خلقاً كثيراً جداً وكان معظم القتلى من القسيسين والأساقفة فقد كان يلقى بهم للوحوش المفترسة وكان يحتقر النوع البشرى ولا يقدره قدره فكان الإنسان عنده كالبعوضة أو أدنى وكان ظلوماً غشوماً بغيضاً للعدل فهو أشد القياصرة لؤما وخسة وأقلهم مروءة فقد قال يوماً لبعض الأعيان (إنى أحب أن لا أحكم إلا على رعية مستعبدة ذليلة أسومها الخسف).

فلما اشتدت وطأته على الرعية قاموا عليه ومعهم الجنود وطلبوا خلعه فخلعوه وذلك سنة خمس وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع سنين لا غير وولوا مكانه اثنين وهما غرديانوس الأكبر وغرديانوس الأصغر.

(فى الملك غرديانوس الأب)
(والملك غرديانوس الابن)

ثم قام بالأمر غرديانوس الأب وابنه غرديانوس الأصغر بويع لهما بالملك عقب خلع مقسيمينوس الأول سنة خمس وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه كان فى أفريقية بمملكة قرطاجة من قبل الرومانيين شيخ هرم من وجوه العائلات وأعيانها اسمه غرديانوس وكان له ابن اسمه

غرديانوس الأصغر وكانا حسنى السيرة بين أهل رومة فاستقر رأى مجلس رومة عقب خلع مقسيمينوس الأول على توليتهما معاً المنصب الملوكى وإشراكهما فى حكم البلاد فوليا وبويعا معا وسميت مدتهما بالمدة الغرديانوسية وكان على قرطاجة نائب للرومانيين اسمه قابليانوس وكان هذا النائب طاغية من دهاة الرجال فخرج عليهما وشق عصا الطاعة فسار لقتاله فقاتلهما وهزمهما شر هزيمة ثم أوقع الافتتان بينهما حتى اقتتلا وقامت بينهما الفتنة على ساق وقدم واشتد الخلاف واستحكم البغض فقتل كل منهما صاحبه وكانت أيامهما كلها حروبا وكروباً وخطوبا وكان لمقسيمينوس الأول اليد الطولى فى إضرام نار هذه الفتنة ليعود هو إلى منصب الملك فلما قتل غرديانوس وابنه خلا المنصب اتفقت كلمة أرباب مجلس رومة على مبايعة بوبيانوس وقلودس بلبينوس بالملك وتشريكهما معا فى حكم البلاد فوليا المنصب وبايعهما الوجهاء والأعيان وكلاهما من عائلة خاملة دنيئة الأصل فقد كان والد بوبيانوس إقفاليا يصنع أقفال الأبواب ونحوها وكان والد بلبينوس من أولاد الموالى قال بعض أهل التاريخ فلما بلغ مقسيمينوس خبر مبايعتهما وخيبة آماله صاح ومزق ثيابه ولطم وجهه حتى اختبل عقله ثم أفاق وجدّ فى السير مع من بقى معه من العساكر لقتال بوبيانوس وبلبنيوس فافتتن فى الطريق جيشه وعظمت الفتنة بين الجند فقاموا على مقسيمينوس وقتلوه وألقوا جثته فى الطريق وذلك سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فتم الأمر لبوبيانوس وبلبنيوس.

ولما استقر بهما المنصب وشرعا فى نظر مصالح البلاد تحركت العساكر وطلبوا خلعهما حيث لم يتوليا الملك إلا بمبايعة أرباب المجلس وأعيان البلاد ولم تبايعهما العساكر ولذلك أبوا إقرارهما وطلبوا خلعهما ووسموا المجلس بالاستبداد والخروج عن الحدود واتفق فى هذه الأثناء أن دخل أميران من أمراء الجنود على أعضاء المجلس بغير إذن فغضب أرباب المجلس لذلك وعدّوه إهانة وتحقيرا وحكموا على الأميرين المذكورين بالقتل فوصل الخبر لجميع أمراء الجيوش فقامت الفتنة فى الحرس الملوكى ودخل بعض العساكر على بوبيانوس وبلبنيوس وقتلوهما وذلك فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة ونادوا فى الحال بولاية غورديانوس الثالث ابن حفيد غرديانوس الأكبر فكانت مدة بوبيانوس وبلبنيوس أياما لم تذكر ولم تعتبرها جماعة المؤرخين مدة صحيحة.

(فى الملك غورديانوس قيصر الثالث)

ثم قام بالأمر غـورديانوس الثالث ابن حفـيد غورديانوس الأكبر وله مـن العمر خمس عشرة سنة بايعه الجند فى اليوم الذى قـتل فيه بوبيانوس وبلبنيوس سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فبايعه بعد ذلك أرباب المجلس وأعـيان الأهالى ولما كان شـاباً قاصـراً لم يبلغ رشده اسـتوزر له فى المجلس وزيراً حسن التدبير فصيح اللسان كامل المعـارف اسمه ميسوطش ليعينه على تدبير الملك وسياسة البلاد فسار هذا الوزير سيرة حسنة وانتظم فى أيامه حال المملكة وارتفع شأنهـا وقويت شوكـتها وهابهـا العدو وعادت إلـى ما كانت عليـه من بعد الصيت وفى أيامـه قامت الفرنجة وهم الأمم المتـبربرة التى جاءت من البلاد البـعيدة وأغارت على بلاد الفرنسيس ونزلت بها فهجموا على إقليم جرمانيا الرومى وقصدوا التغلب عليه فسيـر لهم غورديانوس جيشا تحت قيادة الأمير أورليـانوس فهزمهم شر هزيمة وردّوا على أعـقابهم خاسرين ثـم تجهز أيضاً بنفـسه لغزو سابور بن أزدشـير كسرى فارس وسـار فى جيش عظيم جداً فانتصر على سابور المذكـور نصرة عظيمة وحارب كذلك أمم السـرماطية والغوطية الذين قامـوا على بلاد الروم إيلى مع قبيلة اللان فقهـرهم وظفر بهم وبدد شملهم ثم سار إلى الشـام وأخذها من الفرس وطرد عمال الفرس عنها واقتفى أثرهم فاسترد منهم أيضا الجزيرة وعدة مدن أخرى عظيمة وعاد إلى رومة يجـر أذيال الفخر ففرحت به الـرعية وقابلوه بغاية السـرور وكان قد تزوج بابنة ميسوطش وزيره فبقى نفوذ الوزير المذكور على ما هو عليه بل زادت عند غـورديانوس منزلته وكـان من أمراء الجـيـوش الذين شهـدوا مع الملك جمـيع هذه الغزوات أمـير اسمـه فليبش أصله من العرب فـكان هذا الأمير يـبغض الوزير جداً ويعمـل على موته وخلع الملك واخـتلاس المنصب الملوكى لـنفسه وكـان هذا الأمل يتقوى فيه يوما عـن يوم ومازال كذلك حتى دس للوزير السم فى الدسم وكان ذلك فى مأدبة فمات ثم أخذ يعمل على خلع غورديانوس وبالغ فى الدأب والاجتهاد فى ذلك حتى أوقع الفـتنة بين عساكره ومـازال يقوّى ضرامها حـتى افتتنوا فتنة عـظيمة فأغـراهم على قتل الملك فقـاموا عليه وقـتلوه وذلك سنة ثمان وخـمسين ومـائتين للميلاد أى سنة ثـمان وسبعين وثلثـمائة قبل الهجرة فكانـت مدة حكم غورديانوس الثالث المذكور ست سنوات.

فلما مـات حمل فليبش الجنود على أن يـبايعوه قهـرا وتولى المنصب فى نفس اليوم الذى قتل فيه غورديانوس.

(فى الملك فليبش قيصر)

ثم قام بالأمر فليبش بويع له من الجنود فى اليوم الذى مات فيه غورديانوس سنة ثمان وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة وكان فليبش المذكور عربى الأصل وكانت ولايته ضربة من ضربات الدهر وداعية إلى تثبيت أركان الاختلال وسنة سيئة لكل من أراد اغتصاب المنصب الملوكى من ذوى الاقتدار حيث صار المنصب الملوكى منذ ذلك العهد غنيمة يستلبها رؤساء الجنود وقواد العساكر بلا حق ولا اكتراث بحقوق الأمة وأهل البلاد فكان يتولى المنصب منهم من غلب ويتصرف فى الملك من قدر على التصرف ولم يستقر بفليبش المنصب حتى ظهر له خصمان معاندان ينازعانه وهما بطيبانوس ودوقيوس أما الأول فإنه لم تطل مدته ولم يتم ظهور أمره إذ قام عليه جنده وقتلوه لأسباب لم يذكرها أصحاب التاريخ وأما الثانى وهو دوقيوس وقد كان من أعضاء مجلس رومة فإنه استظهر على فليبش بجنود الرومانيين المرابطين فى بلاد البوشناق والصرب والبلغار وكانوا ميالين إليه متحزبين له فقامت الحرب بين الفريقين على قدم وساق وطالت أيامها فعمت الفتنة وسرى عرق الخلل فى أحوال البلاد واستفحل الخطب ومازالت الحرب بينهم حتى مات فليبش فى واقعة على مقربة من مدينة ويرونه من مملكة البنادقة وسقط تحت سنابك الخيل وذلك سنة ثلاث وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة.

وكان قبل موته قد عقد الصلح مع سابور بن أزدشير ببلاد الفرس وعاد بعد عقد الصلح إلى رومة وسلك سبل التحبب مع كبارها وأعيانها رجاء ميلهم إليه وقد أعطى فى أيامه المناصب العالية لأقاربه وأصحابه ليعضدوه ويكونوا له عوناً فلم يفز ولم ينجح له عمل ومات قبل أن يستقر به المنصب فكانت مدة حكمه خمس سنين غير كوامل وتولى بعده دوقيوس المذكور.

(فى الملك دوقيوس قيصر)

ثم قام بالأمر دوقيوس بويع له بالملك فى نفس اليوم الذى قتل فيه فليبش سنة ثلاث وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة وأصله من بلاد أوستريا من أعمال النمسا وكان من عائلة خاملة الظهور فتولى منصب القنصلية يعنى الحاكم الأكبر بمعارفه وآدابه لا بحسبه وكان سفاكا للدم غادراً خائناً غشوماً لا يبالى بشىء ولا يرعوى من شىء وكثرت فى أيامه الحوادث وعظم أمر الخوارج حتى

كادت تتخلخل أركان الدولة وقامت أمم الغوطية والهيرولية والبرغولية وخرجوا من بلادهم ناحية الشمال واجتازوا نهر الطونة مع مقدمهم اقليوه فأهلكوا الحرث والنسل فسار دوقيوس بجيشه لقتالهم وردهم عن البلاد فالتقى الفريقان عند روم إيلى واشتبك بينهما القتال فانتصرت جنود دوقيوس عليهم نصرة عظيمة وهزمتهم وظهرت عليهم كمال الظهور فطلبوا الصلح فلم يرض دوقيوس وأصحابه وأبو إلا قتالهم فاقتتلوا فعادت الهزيمة على أصحاب دوقيوس وكانت شر هزيمة هلك فيها دوقيوس ومعظم جيوشه وتشتت من بقى منهم وتفرق أيدى سبأ وكانت أيامه كلها محنا ورزايا وفتنا واضطرابات وشقاقا أراق فيها من الدماء شيئًا كثيراً واشتد على النصرانية شدة عظيمة جداً فأعمل فى جميع النصارى القتل والصلب وتقطيع الأعضاء والسلب حيث رأى منهم ميلا لذكر فليبش وحفظاً لاسمه بعد موته فقد ذاقوا فى أيامه من الرحمة والعدالة ما أنساهم الشدة التى كانوا فيها قبله وكان قد منحهم الحرية المطلقة فى إقامة شعائر دينهم وسهل لهم الأمور وخفف عنهم الأثقال فكانت أيام دوقيوس على عكس ذلك فلم يذق النصارى من النكبات شدة أعظم مما ذاقوه فى أيامه ولا ضيقاً أشد مما عانوه فى سلطانه حتى كادوا يفنون لولا رحمة الله بهم.

وكان المصريون فى هذا الحين شديدى التمسك بعقائدهم القديمة وعوائدهم الدينية لايبغون بها بديلا وكان دعاة الدين المسيحى يعملون على استمالة المصريين إلى التمسك بالديانة المسيحية وكان لهم فى مصر أحزاب يدعون إلى الإنجيل وكانت أعمالهم ناجحة نامية فظهر فى هذه الأثناء من بين ظهرانى المصريين داع لإحياء الدين القديم فسعى وأجهد النفس وبالغ فى الدأب واستمال الكثير من أهالى البلاد على ترك الديانة المسيحية ودعاهم إلى الردة فاستفحل أمره واستحكم بسببه الخلاف بين النصارى والوثنيين وقامت قائمة الفتنة فخرج الوثنيون على النصارى ونهبوا بيوتهم وكثر النهب بمدينة الإسكندرية حيث كانت يومئذ مأوى المتنصرين وكان نظام الإسكندرية قد اختل قبل عهد دوقيوس المذكور وعظمت الفتنة إلى أن صار أمر إراقة دماء المسيحيين من الواجبات الدينية وتتبعوا أمرهم وكثر الفحص عنهم فخرجوا على وجوههم فى صحارى الصعيد الأعلى وانزووا فى أقطارها وانكمشوا أياماً.

ويقال إن الذين أثاروا الفتنة وأوقدوا نارها علي المسيحيين هم اليهود والمصريون عباد الأوثان وكانت الحكومة الرومانية بديار مصر تسرّ جداً باستمرار الشقاق بين صنوف الأهالى بمصر وتأكيد العداوة بين أهل الأديان لتدوم شوكتها وتتأيد دولتها

فتقبض على سياسة البلاد بيد من حديد وكان هذا دأبها في كل بلد ومملكة دوّختها وفي خلال هذه الشدائد والمحن ظهر الراهب أنطانيوس المصرى وهو أول من ابتدأ بلبس الصوف وعمارة الديارات بالبرارى وابتدع زى الرهبنة وأنزل بدياراته الفرق الهاربة من أهالى مصر ولم تكن الرهبانية إذ ذاك مشروعة ولا معروفة ، واشتد البلاء على النصارى اشتداداً لم يسبق له مثال قال بعض أهل التاريخ وفرّ فى هذه الأيام الفتية أصحاب الكهف من مدينة افسس واختفوا فى مغارة شرقى المدينة وناموا فضرب الله على آذانهم فلم يزالوا نائمين ثلثمائة سنة وازدادوا تسعاً ، قلت ولم أر فى كتب النصرانية لهذا الحادث الغريب ذكر ألبتة.

وفى أيامه أبدل صورة الحكومة المصرية بصورة أخرى فأقام أميرا على العساكر يكون من وظيفته تدبير الجيوش والقيام بأمورهم بدون تداخل فى أمور البلاد السياسية وأقام أميرا آخر مصرى الأصل فى منصب الملوكية يأمر وينهى فى الشئون الملكية بدون تحرش لما يختص بأمور العساكر وهذان الأميران كانا علاوة على النائب العمومى عن ذات القيصر فى بلاد مصر ولكنه أصبح مع إقامة هذين الأميرين ضعيف الكلمة خامل الشهرة والذكر ليس له من النيابة إلا الاسم.

وقد كانت عبادة الشمس والقمر بديار مصر إلى هذا الحين شديدة الانتشار لم يعترها ضعف ولا وهن لاسيما في عهد غورديانوس الثالث وفليبش ومن بعدهما أيضاً وكان التمسك بها لم يذهب من هياكل مصر والنوبة فكانت هذه العادة من أكبر الأسباب الدافعة بأمم المصريين إلى إثارة الفتن وتعميم المحن والباعثة لهم على القيام على كل من خالف دينهم وشق عصا طاعة الهيئة الحاكمة والخروج عليها من وقت إلى آخر وكانوا لا يألون جهداً فى تعضيد كل من خرج على الحكومة من أمراء البلاد أو الأغراب ويعاونون كل من أراد اغتصاب المنصب الملوكى وينصرونه على ذلك بالنفس والنفيس قيل والغالب أن أصحاب هذا الافتيات إنما هم الأغراب المستوطنون للبلاد فكانت لذلك لا تنقطع من ديار مصر الحروب الداخلية والاضطرابات العمومية ولا ما يترتب على ذلك من القحط والوباء حتى أهلك أهلها وقلل عددهم وكان الباعث على ذلك أيضاً خسة الملوك ودناءة أصولهم واغتصابهم المنصب بغير أهلية ولا استحقاق وسيرد عليك من قبح سيرة مثل هؤلاء الملوك شيء كثير عند الكلام على زنوبية ملكة تدمر عند ذكر أوليانوس قيصر.

وكان موت دوقيوس الملك سنة خمس وستين ومائتين للميلاد أى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه نحو السنتين وخلفه فى الملك غالوس.

(فى الملك غالوس قيصر
ويقال له أيضا (والوس)

ثم قام بالأمر غالوس واسمه أيضاً والوس بويع بالملك فى اليوم الذى قتل فيه دوقيوس سنة خمس وستين ومائتين للميلاد أى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة. وتحرير الخبر أنه لما انتصر اقليوه مقدم القبائل الشمالية على دوقيوس وأصحابه وهلك دوقيوس على ما تقدم بيانه خجلت العساكر مما لحقها من العار ولم تسرع بمبايعة أحد من قوادها وانتظرت ما سيكون من أرباب مجلس رومة وكان غالوس هذا معدودا من قواد الجنود الرومانية وقد ارتقى بغيرته واجتهاده إلى درجة سامية فى المملكة فحمل من معه من العساكر على مبايعته فبايعوه فأشرك معه هوسطليانوس بن دوقيوس فى إدارة أمور المملكة وعهد لابنه ولسيانوس بالملك من بعده وحلفت له العساكر بذلك وقد تم هذا كله فى معسكر بلاد النمسا ثم سار من هناك واستصحب معه شريكه هوسطليانوس إلى رومة ليأخذ البيعة لنفسه من أرباب مجلسها.

وكان إذ ذاك فى البلاد الرومانية وباء عظيم جداً فبينما غالوس وشريكه هوسطليانوس سائران إذ وسوس الشيطان فى صدر غالوس بقتل هوسطليانوس فقام عليه وخنقه وأشاع خبر موته بين الناس بالوباء ثم دخل مدينة رومة فبايعه أرباب المجلس بيعة صحيحة وكانوا يؤملون فيه إنقاذ البلاد من أيدى الأعداء فخاب فيه الأمل.

ولما استقر به المنصب أمر بقتل البابا (مارقورنيليوس) ولم تذكر جماعة المؤرخين لذلك سبباً مع أن قتل البابا فى تلك الظروف لم يكن بالأمر اليسير وعقد مع الغوطية صلحا ذهب بشرف الأمة أدراج الرياح حيث ضرب للغوطية على الرومانيين خراجاً يحمل إليهم فى كل عام كيلا تحصل منهم الإغارة على بلاد رومة ورجع غالوس بعد عقده هذا الصلح إلى رومة مذموماً مدحوراً فكان فى هذا الصلح كمال الصغار للرومانيين وحصل لهم كمال الخزى والعار وقد قصد غالوس بتعجيله الصلح مع الغوطية على هذا الوجه التفرغ لحظوظه وشهواته ولم يراع حاجات الوطن والأمة ومع ذلك فإن الغوطيين لم يحفظوا لهذا الصلح شأنا ولم يحترموا له حرمة بل نقضوه وأغاروا على بلاد البوشناق والصرب والبلغار وكان أمير الجيوش بتلك الجهات يومئذ الأمير (أمليانوس) المغربى فذب ودافع عنها خير دفاع وضرب

الغوطيين فهزمهم شر هزيمة وفرحت جنوده بالنصر واستبشروا بطالع قائدهم أمليانوس المذكور فبايعوه بالملك فى ميدان الحرب الذى انتصر فيه على أعدائه ونادوا بملكه فلما وردت الأخبار بذلك إلى غالوس الملك سار إليه بجيوشه ليؤدبه على اعتدائه وتهافته على المنصب بغير استحقاق وبينما هو فى الطريق وقعت الفتنة بين جيوشه فافتتنوا وقاموا على غالوس وابنه فقتلوهما بطعن الخناجر وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه سنتين لا غير وتولى بعده الأمير أمليانوس المذكور.

(فى الملك أمليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر أمليانوس سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة ولم يبايعه سوى جنوده الذين كانوا مه فى غزوة الغوطيين فلم يستقر به المنصب حتى سار لقتاله (والريانوس) قائد العساكر الرومانية ببلاد الغلية بجيشه المرابط فى تلك البلاد فخرج أمليانوس لقتاله ومعه جنوده وابنه فلما التقى الفريقان واقتتلا انتصر عليه والريانوس القائد نصرة عظيمة وقتله هو وولده فى ميدان القتال وداست جثتهما سنابك الخيل فى السنة التى تولى فيها فكانت مدة حكمه أربعة أشهر فقط وتولى بعده القائد والريانوس المذكور.

(فى الملك والريانوس قيصر)

ثم قام بالأمر والريانوس بايعه عساكره بالملك فى اليوم الذى قتل فيه أمليانوس وابنه سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما قتل أمليانوس ورأت جيوش والريانوس منه بطلاً شجاعاً فى الحروب واقتحام المعارك والخطوب فضلاً عن أنه شيخ معمر حنكته التجارب توسموا فيه المقدرة على توطيد دعائم المملكة وتمكين شوكتها وتخليصها من غوائل الفتن المتراكمة والخطوب المتوالية فأقاموا له البيعة ونادوا بملكه وسار من ميدان الحرب إلى رومة بجيشه فبايعه الأهالى وأرباب المجلس وتم له الأمر وارتقى سرير الملك بين مظاهر التعظيم.

فلما استقر به المنصب جهز جيشاً عظيماً وسار لغزوة سابور ملك فارس ابن أردشير فكانت هذه الغزوة من شر الغزوات وأتعسها على الدولة الرومانية ، وتحرير الخبر أنه لما تقلد سابور الملك بعد أبيه اردشير ورأى اختلاف كلمة الدولة الرومانية وتسلط قواد الجيوش على منصبها الملوكى وزعزعة أركان سياستها الداخلية والخارجية

سار بجيوشه إلى بلاد أناطلى على مهل وكان كلما مر ببلد أو مدينة قتل ونهب وأحرق وأهلك الحرث والنسل حتى نزل بأنطاكية فدمرها وسار منها إلى حمص ليخربها أيضاً فلما وردت الأخبار بذلك إلى رومة قام الملك والريانوس بجيشه مسرعاً إلى حمص ليدفع سابور عنها فأظهر سابور الخوف والقهقرى ووالريانوس يتبعه بجيوشه حتى دخل والريانوس بجنوده فى موضع حرج للغاية فهجم عليه سابور بعسكره وهزمه شر هزيمة وأخذه أسيرا فعامله معاملة سيئة للغاية وضرب عليه ضروب الذل والصغار فكان يصحبه أينما حل وحيثما ارتحل وكان يلبسه أفخر ثيابه الملوكية وكان إذا أراد ركوب عربته أو جواده استحضره وطرحه على الأرض وجعله سلم ركوب فكان يدوسه عند الركوب بقدمه ولا ينظر إلى شيخوخته ولبث على هذه الحال من الإهانة والتعذيب ثمان سنين كاملة وكان أسره ووقوعه فى يدى سابور فى سنة أربع وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة اثنتين وستين وثلثمائة قبل الهجرة.

قال بعض أهل التاريخ: ومن غرائب الاتفاق أن والريانوس كان أمر بتتبع النصارى وتعذيبهم وإذلالهم فقتل منهم خلق كثير وذلك فى السنة الرابعة من ملكه ولم يمض على هذا الفعل إلا القليل حتى سار لحرب سابور ووقع فى الأسر والتعذيب فكان صبورا على تحمل هذه البلوى لا يتململ ولما مات أمر به سابور فسلخ ودبغ جلده وصبغ باللون الأحمر الأرجوانى الذى هو لون لباس الملوك وحشوه بالتبن ليكون دائماً على شكله لايتغير تمثيلاً به وعبرة لمن يأتى بعده من ملوك الرومان.

وفى أيامه ظهرت قبائل الفرنجة وسارت لغزو وتخريب البلاد فوصلوا بعد أسره إلى بلاد الغلية وأسبانيا وأفريقية وانقسموا إلى عدّة طوائف لكل طائفة منهم ملك وكان كل ملك من ملوكهم يمتاز عن رعيته وقومه بهنداسة فى يده يقبض عليها دائماً وكانت وظيفته أن يمشى بهذه الهنداسة أمام جنوده وأن يقضى بين الأخصام على دكة وبيده هذه الهنداسة فيشير بها إلى صاحب الحق عند الحكم له.

وكان لوالريانوس ولد اسمه (غليانوس) واليا على بلاد الغلية فلما يئس الرومان من خلاص والريانوس من أسر سابور ملك فارس سيروا فى طلب غليانوس المذكور ليولوه بدل أبيه فجاء مسرعاً إلى رومة ودخلها فى موكب حافل للغاية فكانت مدة حكم والريانوس إلى يوم أسره خمس سنوات.

(فى الملك غليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه غليانوس بويع له بالملك سنة خمس وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة إحدى وستين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان قبل ولايته عاملا للرومانيين على بلاد الغلية فسار منها إلى رومة فى موكب حافل جداً فلما دخلها بايعه أرباب المجلس والوجهاء وأهل البلاد واستقر به المنصب فعكف على ما لا خير فيه وألهته خمرة المنصب عن غيرها قال بعض أصحاب التاريخ :

وبينما كان والريانوس الشيخ الكبير أبو غليانوس هذا يكابد ما يكابد من ذل الأسر ومضض الإهانة والضيق ببلاد فارس كان غليانوس ابنه منهمكاً فى الألعاب مولعاً بالولائم والاحتفالات يدعو إليها جميع ندمائه وجلسائه لاقتسام اللذات والشهوات وكان يقضى يومه وليلته فى السكر والعربدة ويتسلى ببناء القصور من باقات الزهور والرياحين ويزرع البطيخ فى الشتاء حيث تشتهيه نفسه فى ذلك الفصل وقد كانت فى هذه الأثناء تنصب على هامة المملكة أنواع المصائب والنكبات من كل صوب وحدب حتى كادت تشرف على الدمار فقد انتشر بها القحط وطغيان الأنهار والوباء والفتن الداخلية فكان يهلك بالطاعون فى مدينة رومة وحدها كل يوم خمسة آلاف نفس ومع هذه الخطوب والكروب والمصائب العظيمة كان غليانوس الملك لا ينفك عن ملاذه وشهواته متغاضيا عن إغارة الأعداء على بلاده حتى مزقوا المملكة وكادوا يبتلعونها فكان إذا كلمه أرباب الدولة وكبار الجند فى ذلك وحببوا إليه كبح جماح الأعداء وردّهم عن البلاد قال لهم لاتكثروا العتب واللوم فإنى لا أهتم إلا بإقليم إيطاليا دون غيره فكانت أيامه شديدة الأزمة على البلاد الرومانية بأسرها كثيرة الرزايا والإحن وسار غليانوس للحرب مع أفرنج الغلية لشنهم الغارة على حدود المملكة الرومانية فانتهز أمليانوس أمير الجنود الرومانية المرابطة بمصر هذه الفرصة فخرج على غليانوس وشق عصا طاعة الدولة فكاتبه غليانوس فى الرجوع إلى الطاعة فلم يرجع وأصر على العناد فأرسل إليه طيودوطس القائد فى جيش عظيم فهزمه وقبض عليه وأرسله إلى رومة فسجن فيها ثم قتله غليانوس وهو بالحبس صبراً، ومنح ادنياطوس ملك تدمر لقب أغسطس حيث كان محالفا للرومانيين وهو الذى هزم العجم الذين كانوا قد أغاروا على أملاك الدولة الرومانية وطردهم حتى أرجعهم إلى بلادهم وكفى الرومانيين شرهم فانتقل هذا اللقب أيضا إلى زوجته (زنوبية) وأولاده إذ كان متوارثا فيهم بعد موت ادنياطوس فصار كل من يتولى ملك

تدمر يلقب بلقب أغسطس فبدأت من هذا الحين مدينة تدمر فى التقدم ورفعة الشأن واتساع نطاق التجارة ولاسيما فى عهد زنوبيه كما سيأتى الكلام عليها مفصلا.

وقام عليه فى خلال ملكه كثير من أمراء الجنود الرومانية واغتصبوا منه الملك فكان منهم من قبض عليه وقتل ومنهم من قتله جنوده قبل أن يصل إلى رومة ولما اشتد بالرومانيين الخطب وتولاهم الذل والعار بسبب فعال غليانوس المذكور وسوء تدبيره وفساد رأيه أغروا طوائف الجند على الخروج عليه وقتله فقاموا عليه وقتلوه وألقوا بجثته أمام قصره وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وخمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدته سبع سنين.

وفى أيامه مات ديمتريوس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنتين وثلاثين سنة وفى أيامه طارت الأخبار بقتل جميع النصارى الذين فى ممالك رومة فوقعت فيهم مذبحة عظيمة جداً وكانت هى الشدة الخامسة وقد ابتدأت أولا من بلاد مصر حيث قتل جميع من فيها من النصارى حتى لم يبق إلا من لجأ إلى الجبال واختفى فى المقابر والكهوف ثم سرت إلى بلاد الغلية وإلى أفريقية فقتل فى تلك البلاد ما لا يحصى عدداً ولاسيما فى مدينة ليون إحدى بلاد الفرنسيس وفى قرطاجة ببلاد المغرب فكانت شدة عظيمة للغاية فلما مات ديمتريوس أقيم بعده (بادكالوس) أو (بادكالاس) وهو ثالث عشرهم وأصله من مدينة الإسكندرية وهو أول من سمى بابا على المشهور وكان ورعاً تقياً ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

ولما مات غليانوس الملك كما تقدم تولى بعده قلودس الثانى.

(فى الملك قلودس قيصر الثانى)

ثم قام بالأمر قلودس الثانى بويع بالملك بعد قتل غليانوس سنة أربع وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكان أول سلسلة القياصرة (الليرية) يعنى القياصرة السواحلية وكان أصله من إقليم دلماشيا وكان معدوداً من فحول رؤساء الجيوش الرومانية وهو الذى حارب الغوطية وقهرهم وبدد شملهم فكان أول من بايعه بالملك العساكر ثم حضر إلى رومة فى عسكره فأقرّه أرباب المجلس وبايعوه وفرحوا به واستبشروا بولايته ولم يستقرّ به المنصب حتى جمع الغوطيون جيشاً جراراً عند نهر آق كرمان ونزلوا عند سواحل البحر الأسود وأغاروا على المدن الرومانية القريبة منها وزحفوا على بلاد اليونان التابعة لرومة وأغاروا عليها أيضاً فسار قلودس الملك مسرعاً لقتالهم فانتصر عليهم نصرة عظيمة

سميت نصرة (نسيا) وهى مدينة ببلاد الصرب وقد كثر فيها إراقة الدم عند اشتباك القتال بين الفريقين إلى حد تولد عنه وباء عظيم جداً فأصاب قلودس الملك فمرض ومات به فى مدينة سرمش جهة بلاد الصقالبة وذلك سنة اثنتين وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدّته سنتين وتولى بعده أورليانوس قيصر.

(فى الملك أورليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر أورليانوس بايعه العسكر فى اليوم الذى مات فيه قلودس سنة اثنتين وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة. وتحرير خبره أنه لما كان قائدًا من قوّاد الجنود العارفين بأساليب الحروب وكان مقاتلا مهيباً تخشى سطوته ويخاف بأسه طار صيته فى الآفاق فتعلقت به الآمال واجتمعت الكلمة على مبايعته فبايعوه وكان شديد المراس على طوائف الجنود يخافه القريب منه والبعيد.

فلما استقر به المنصب أغارت طوائف الألمان على إيطاليا وظفروا بجيش عظيم من جيوش الرومانيين وبددوا شمله وأعملوا النهب والسلب فى جميع مدن إيطاليا فانتهز أورليانوس اشتغالهم بالنهب وجمع ما تفرق من عساكره وانقض عليهم ولا انقضاض الباز الأشهب وبدد شملهم وأعمل فيهم السيف حتى ركنوا إلى الفرار وعادوا يعبرون نهر طونة كما حضروا فسلمت البلاد من شرهم.

وكان غليانوس قبل موته بنحو سنة اتفق غليانوس مع زنوبيه ملكة تدمر وتحابا حيث كان زوجها محالفا للرومانيين ومظاهراً لهم على الفرس فظهر زنوبية المذكورة بعد موت زوجها ظهوراً عجيباً فى البلاد المشرقية وقويت شوكتها واستفحل أمرها وانتظم ملكها وصارت مدينتها التى هى تخت ملكها فى صحارى الشام الرومانية عامرة آهلة زاهرة بهية، حتى كأنها جنة من جنان الدنيا، واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد صور والشام إلى نهر الفرات والعراق براً وبحراً واهتمت بإعانة التجارات واتساع دائرة المعاملات فأحرزت بلادها ما لا مزيد عليه من الرونق والبهجة واكتسبت مدينة تدمر فى أيامها من الفخر والزينة ما لم تكتسبه فى أيام سليمان عليه السلام وكانت زنوبية قد تزوجت بالملك ادنياطوس الذى هزم سابور ملك فارس وانتصر عليه فى عهد الملك غليانوس كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى محله. فلما مات زوجها سلكت مسالك الجد وتقوت عزيمتها واتصفت بصفات الرجولية، وحلت محل زوجها فى الحماسة والشجاعة والبأس والشوكة، حتى أحرزت بلادها

كمال الشهرة وبعد الصيت، وثبتت دعائم ملكها بتلقيبها بلقب قيصرة . وكانت تزعم أنها ما تولت الملك إلا باستحقاق وأنها صاحبة أصل ينتهى إلى فراعنة مصر وملوكها، فكانت فى زمانها نادرة تخطب فى العساكر بأبلغ خطابة وأفصح لسان وتحثهم على اقتحام الخطوب وتضمن لهم الفوز والغلبة شأن القائد الحازم، وكانت تضع على رأسها خوذة الحرب كالأبطال حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال وكانت قوية الجأش ثابتة الجنان لها فى السياسة اليد الطولى وكانت شديدة الأمل كثيرة الطمع فى أن تحكم يوما ما جميع الممالك الرومية وكانت بلاد مصر فى هذا الحين تحاول الخروج عن طاعة الرومانيين وتزاول الاستقلال بنفسها فلما علمت زنوبية بذلك وجهت أطماعها نحو ديار مصر وأخذت تبذل الأموال الكثيرة والرشا التى لا تدخل تحت حصر رجاء أخذها بالتى هى أحسن فلم تنجح فاستعملت القوة وسيرت جيشاً جرارا لغزوها فانتصرت عساكرها على العساكر المصرية واستولت على سرير الإسكندرية فلم يستقر بها المقام حتى عادت الجنود المصرية إلى مقام الاقتتال وطردتها من مدينة الإسكندرية وزحزحتها عنها فعادت إليها بعد قليل حيث جاءها من تدمر المدد من الرجال والذخيرة ومعدات القتال وتغلبت عليها واستولت على تخت الملك وذلك كله فى عهد أورليانوس الملك فقام أورليانوس من رومة وسار إلى الشام وحارب زنوبية واقتتلا قتالاً شديداً جداً فانتصر أورليانوس عليها نصرة عظيمة فهربت من حمص إلى تدمر وتترست عساكرها وراء حصونها فضيق أورليانوس حصارها ومنع عنها الميرة فنفد ما فى المدينة من الزاد وأيست من الذخيرة والإمداد فحاولت الخروج والفرار فأحس بها وقبض عليها وهى هاربة فلما مثلت بين يديه قالت له قد ساعدتك بالنصر علينا الأقدار أيها الملك فها أنا معترفة لك بالولاء ولقد كان الخروج على أسلافك من الأمور اللازمة إذ هم لم يبلغوا ما وصلت أنت إليه من النجابة والبسالة وكانت فى هذه الأثناء تحدق بها العسكر من كل جانب فصاحوا جميعاً اقتلوها اقتلوها، فما هى إلا ساحرة ماكرة. فأشار أورليانوس أن اسكتوا وقال إنى لا أحب إلا بقائها فاستبقاها ولكنه أذلها وأدخلها رومة فى موكبه ضمن الغنائم ثم أنزلها فى قصر فى رومة ولبثت هناك إلى أن ماتت وبقيت ذريتها من بعدها إلى أن أوشك الإسلام أن يفتتح الشام.

وكان أسر زنوبيه وزوال ملكها جميعه فى سنة أربع وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة.

وبعد هذا الحادث بقليل ظهر تاجر من تجار الإسكندرية وقصد الاستبداد بحكم البلاد وكان صاحب ظهور وخروج عالى الكلمة فنادى لنفسه بالرياسة وعمل على

حكم البلاد فانتهى إليه من ديوان مصر الأمر والنهى فى جميع الأمور وخضع له من أهل البلاد السواد الأعظم وقام يدفع جوامك جـميع الجنود وزعم أنه يتكفل بجميع ذلك من ربح صناعـة ورق الكتابة المتـخـذ يومئـذ من البردى فلبى دعـوته جمـيع المصـريين وعقـد المعاهدات مع المجـاورين من ملوك العرب وضـرب السكة باسـمه واستـعان بروم الإسكندرية فأطاعوه وانتـصروا له تخلصاً من حكم الدولة الرومـانية فحارب الدولة وتـلاقى مع جندها فى ثلاث مواقع فظهر عليهم فى نـصرة ثم انهزم شر هزيـمة ووقع فى يد قـائد الجيوش الرومـانية فـقتله وعـادت مصـر إلى قبـضة الرومانيين وتقلد نيابتها أمير من قبل أورليانوس اسمه (أورليوس بروبوس) فأصلح ما أفسدته الحـروب والوقائع وعمر المبانـى بالتجديد والترميم وأصلح النيـل بالعمليات الهندسية وشغل فـيها الجنود فسارت السفن وانتظمت أحـوال الملاحة بعد أن تعطلت أو كادت زمنا ليس بقليل وكانت سيرة أورليـانوس الملك أحسن سيرة وقد دبر البلاد أحسن تدبيـر فحازت فى أيامـه الصيت وكـمال الشهـرة وسار فى آخر أيامـه لغزوة الفرس بعد انتـصاره على عصاة مصر والشام فـبينما هو يسير بجيـوشه إذ أثار عليه منسيطس كـاتب سره فتنة من جنوده فـقام الجند على أورليـانوس وقتلوه وذلك سنة ثمان وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع سنين لاغير.

وفى السنة الأخيرة من ملكه كان تعذيب النصـارى بالشدة السابعة التى سفكت فيها الدماء الهائلة وقتل فيـها ساندنيس رئيس أساقفة باريز وكانت من أعظم الشدائد وأنكاها بالنصرانية.

ولما مات أورلیانوس على ما تقدم بيانه تولى بعده طاقيطوس أحد أرباب مجلس رومة بعد أن لبثت البلاد بلا ملك مدة ثمانية أشهر.

(فى الملك طاقيطوس قيصر)

ثم قام بالأمر طاقيطوس بويع له بالملك بعد فترة ثمانية أشهر فكان ذلك فى سنة سبع وثمانين ومـائتين للميلاد أى سنة سـبع وأربعين وثلثمائة قبل الهـجرة. وتحرير الخـبر أنه لـما قتل الجنود أورلـيانوس عند ذهـابه لغزوة فـارس وردّهم عن الأمـلاك المشرقية التى كانوا قد أغاروا عليها لم يـستطع أحد مبايعة أحد بالملك خوفاً وخجلاً فبقـى سرير رومة خالـياً وهذه أول مرة خلا فيـها سرير الملك ممن يشغلـه وكان مدة خلوه ثمانية أشهر فاعتبرت عند جماعة المؤرخين فترة.

وقد حدث فى خلال هذه الفترة أن ظهرت طوائف الفرنج وعبروا نهر الرين للتغلب على بلاد إيطاليا واغتيالها فلما أحس أعضاء مجلس رومة بهم اجتمعوا برؤساء الجنود وتشاوروا فى الأمر فاتحدت كلمتهم على مبايعة طاقيطوس بالملك وقد كان من أعضاء المجلس فبايعوه وكان حكيماً عاقلاً كيساً حسن المقاصد سليم النية خالص الطوية يفخر على غيره من جهة أنه من ذرية طاقيطوس المؤرخ وكان هرماً بلغ من العمر خمسا وسبعين سنة ولم يكن مجرباً للحروب ولا مارس الخطوب وكان له معرفة تامة بالإنشاء والمحاضرات والأدبيات والخطابات فكانت لذلك نفوس العساكر غير مائلة إليه ولم يلبث أن وقعت بينه وبينهم الوحشة والنفور فكانوا لا يهابونه ولا ينظرون إليه إلا بعين المقت والاحتقار ثم لم يمض إلا قليلاً من ولايته حتى أضرموا نار الفتنة وبسطوا راية العصيان فوقف رئيسهم بينهم موقف الخطيب وصار يحضهم على السكون ويستميلهم إلى الطاعة ويقول كيف ترضون طاقيطوس ملكاً عليكم بالأمس واليوم تطلبون خلعه وهو يعدكم بالعطايا والنعم الجزيلة فلم تؤثر فيهم خطابته ولم يقدر على تسكين الفتنة ثم دخل على طاقيطوس فريق منهم وقتله بالقصر وألقوا جثته على باب حجرته فنقل ودفن وذلك سنة ست وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت أيام ملكه سنة غير كاملة وتولى بعده بروبوس.

(فى الملك بروبوس قيصر)

ثم قام بالأمر بروبوس بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه طاقيطوس سنة ست وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان أبوه بستانيا فدخل فى خدمة الجندية الرومانية وأقبل على تلقى فنونها وضروبها فارتقى درجاتها واحدة بعد واحدة وسمى فيها باسم بروبوس يعنى الصالح وكان مستقيم الحال حسن الفعال جديراً بذلك العنوان وقد تحققت شجاعته لدى جميع الجنود بحصاره المدائن والثغور وحروبه وفتوحاته العظيمة فكان مهيباً محترماً محبوباً.

ولما أحضروا له الحلة الملوكية ليلبسها يوم بويع بالملك امتنع وقال هى أكبر منى فألحوا عليه فى ذلك فأخذها وقال لعلكم قلدتمونى المنصب قبل أن تعرفوا أحوالى وتختبرونى وقد أرى أنكم ستندمون على ذلك فأنى لا أراعى أحداً منكم فى الأحكام ولا تأخذنى فى الله لومة لائم.

فلما استقر به المنصب شرع فى تحصين الحدود وحماية الثغور والعناية بها ودفع الأعداء ومنعهم من الإغارة عليها ثم تجهز بعد ذلك لحرب الغوطية والصقالبة والإفرنجة والألمان وزحف بجيوشه عليهم مرة واحدة فانتصر على الجميع وأرسل كثيراً من القبائل الرومانية إلى ما وراء نهر الرين ليتوطنوا بالبلاد التى وراء ذلك وأرسل قبائل أخرى ألمانية إلى الأقاليم الشرقية الرومانية وأذل الفرس وقهرهم وأهانهم إهانة عظيمة وقاتل أهالى صعيد مصر حتى أدخلهم تحت الطاعة وقد كان خروجهم من عهد أورلياس قيصر وعاقبهم أشد العقاب ولاسيما أهل مدينة قفط وأخميم ومنشأة أخميم ثم عاد إلى رومة مؤيدا منصورا ودخلها فى موكب عظيم للغاية سار فيه أمام عربته أسرى الأمم وغنائم الدول التى هزمها بسيفه وكان بعد انتصاره على أهل مصر قد ولى عليهم واليا اسمه الأمير (ساطرنيوس) فاستعان ساطرنيوس المذكور بمن استماله لنفسه من أروام الإسكندرية على الخروج عن طاعة الملك والاستقلال بملك البلاد ولكنه لم يلبث أن قامت عليه فتنة عاجلة فقتل فيها وعادت الكلمة فى البلاد للقيصر فاستعمل مكانه أميراً آخر اسمه (أخليس) فلم يستقر بأخليس هذا أيضاً المنصب حتى حدثته نفسه بطلب الاستقلال والخروج عن الطاعة وعمل على ذلك واستمال إليه أرباب المظاهر فى البلاد فبايعوه على ذلك بمصر ثم قامت عليه فتنة فقتل فيها أيضاً وعادت كلمة القيصر إلى مقامها الأول فهابته الدول وخافه سائر الرعية وعلت كلمته وانبسطت يده على جميع أمور الدولة فاستتب الأمن فى داخل البلاد الرومانية واستولت الطمأنينة على جميع الآهلين وانتظم حال التجارة والصناعة والفلاحة وكثر غرس الكروم لاسيما فى بلاد الغلية والجرمانية والبلاد الأندلسية وزادت محاصيل العنب زيادة عظيمة للغاية وكان لايترك الجنود فى البطالة والكسل بل كان يستعملهم فى الخدم العمومية كتنشيف البرك وردم المستنقعات وعمارة القناطر والجسور وفتح الترع والخلجان وتطهير الأنهر وتحسين مجاريها وكان لايدعهم للاستراحة طرفة عين وقد كان أنذرهم قبل مبايعته بجميع ذلك إذ قال لهم: ولعلكم قلدتمونى المنصب بدون روية. فسئم الجند من استدامة الخدمة وأغضبهم استمرارهم على هذا الحال وامتلأت صدورهم حقداً عليه وكرها له فذهب يوماً ليرى عملية تطهير بعض البحيرات فقام عليه الجند وقتلوه. قيل: وكان مما حمل الجند على قتله أنه قال لقوّادهم فى محفل (سيأتى علىّ يوم لا أحتاج فيه إلى جندى منكم ولا جنود) يريد بذلك أنه بالعدل تقل حاجة الملك إلى العساكر مصداقاً لقول القائل :

«لو أنصف الناس استراح القاضى .·. وبات كل عن أخيه راضى»

وكان قتله فى سنة ست وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربعين وثلثمائة قبل الهجرة وهو من الحوادث المشئومة على الدولة الرومانية وكانت مدة ملكه سبع سنين وتولى بعده قاروس.

(فى الملك قاروس قيصر)

ثم قام بالأمر قاروس بايعه جند الحرس الملوكى عقب قتل بروبوس سنة ست وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربعين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان رئيس جند الحرس المذكور فسار إلى رومة بعسكره وطلب من أرباب المجلس البيعة له فبايعوه عن إخلاص وقد كان مولده فى مدينة أربونة بمملكة الغلية ولم يكن ذا بيت عريق فى المجد وكان له ولدان أحدهما اسمه قارينوس والثانى اسمه نومريانوس فلما استقر به المنصب قلد ولديه منصب الأغسطوسية ونادى لهما بذلك.

وعاد الفرس والصقالبة فى السنة الأولى من ملكه إلى الإغارات على البلاد الرومانية فسار بنفسه إلى بلاد آسية وقاتلهم قتالاً عنيفاً فهزمهم وأخذ بعض مدنهم وعاد إلى رومة فقام عليه بعض الجنود فى الطريق وأخذوه غيلة وقتلوه وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبعة عشر شهراً فتولى الملك بعده ولداه قارينوس ونومريانوس.

(فى الملك قارينوس قيصر)
(والملك نومريانوس قيصر)

ثم قام بالأمر ولداه قارينوس ونومريانوس بويع لهما بالملك عقب قتل أبيهما فى أثناء سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان نومريانوس معتدل المزاج لين العريكة سهل الأخلاق فصيح المنطق بليغ المقال الى حد أكسبه شهادة مجلس رومة بأنه خطيب عصره ونادرة مصره وقد كانت الخطابة عند اليونان والرومان فى ذاك الحين أصلاً عظيماً من أصول الدولة يعين على التحسين والتمكين وقد خلد التاريخ فصاحة نومريانوس وبيانه وجعل شهادة المجلس له بذلك دليله وبرهانه.

وأما قارينوس فقد كانت أوصافه على خلاف أوصاف أخيه فكان منهمكاً على القبيح فاسد الأخلاق مخالطا لأهل السخرية والأغانى لايصحب إلا من لا خلاق له وكان يتزيا بزى النساء فيلبس اللآلئ النفيسة والجواهر الكريمة ولا ينام إلا على بساط

الزهور والرياحين وكان يتحبب إلى الجند وأهل البلاد بالإكثار من الولائم والضيافات فكانوا لذلك يتغاضون أحيانا عن معايبه.

ولما استقر المنصب بنومريانوس سار الى بلاد فارس حيث كان أهلها قد قاموا على البلاد الرومانية وأخذ معه آبروس أبا زوجته فلما رأى آبروس المذكور ما عليه نومريانوس من أبهة السلطنة وعزة الملك تاقت نفسه الى ذلك وسولت له الفتك بنومريانوس فقام عليه وهو فى طريقه الى فارس وفتك به وكان مع نومريانوس فى هذه الغزوة دقليانوس رئيس غلمانه فلما علم بما فعله آبروس قام عليه وقطع عنقه انتقاماً منه وأخذاً بثأر سيده وفى رواية أنه لم يكن ضربه عنق آبروس محض انتقام لسيده بل إن الأصل فى ذلك أن كاهنة من بلاد الغلية بشرته بأنه سيملك على بلاد عظيمة جداً إذا يسر له القدر قتل الخنزير فكانت كلمة آبروس باللغة اللاتينية معناها خنزير ونقلت إلى العلمية من معناها الأصلى فكان قتله لآبروس المذكور تحقيقاً لما قالته وبشرته به الكاهنة وقد تولى الملك بعيد ذلك ولكن على بلاد الغلية فقط قيل ولم يقصد الاستيلاء على رومة ولا بسط يده على جميع البلاد الرومانية كما كان الناس يظنون.

ولما تمكن دقليانوس من الجند وكبارهم سار بهم الى قارينوس ودنا من مقره وأصر له السوء فأحس قارينوس وصحا من سكر الغفلة وأقلع عما كان عليه من الخسة واللهو والاشتغال بالدنايا وبرز لمحاربة دقليانوس واستعمل البأس والشدّة فكانت الحرب بين الفريقين سجالاً ثم ظهر على دقليانوس وهزمه وكسر عساكره، وبينما هو يطارد دقليانوس وعساكره قامت فتنة بين جنوده فقتلوه فى الطريق وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكهما أشهر قلائل وتولى بعدهما دقليانوس واستقل بحكم البلاد

(فى الملك دقليانوس قيصر)

ويقال له أيضا

(دقلطيانوس ودقله والملك مقسيميانوس هرقل أغسطس)

ثم قام بالأمر دقلطيانوس بويع له البيعة العامة بعد قتل قارينوس سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وكان مولده بمدينة دقليادلماجيا ببلاد النمسا من عائلة خاملة الذكر عاطلة من حلية المجد والحسب فدخل فى خدمة العسكرية من زمن صباه واشتهر بالبراعة فى الفنون الحربية والسياسة

الملكية ولكنه لم يشتهر بالشجاعة فى المواقع المهمة ولا عرف فضله بالفتك بالأعداء فكانت سياسته كسياسة أغسطس أول قياصرة الروم يميل إلى حسن التنظيم وإحكام الأمور والتمسك بالحزم والتبصر فى العواقب وكان ميالاً إلى السلم والصلح وتنسيق الأحوال فكان معدوداً لذلك من أكابر مدبرى الدولة الرومانية ولم يسبق له مثيل بين رجالها وكان عمره حين تولى الملك أربعين سنة وقد أحس باحتياجه مع ذلك إلى عضد يقوى ساعده وظهر يقتسم معه حمل أعباء المملكة وكان من أمراء شجعان المعسكر الرومانى أمير اسمه مقسيميانوس هرقل من أبناء بلد دقلطيانوس ولكنه كان فظاً غليظاً دنئ الأصل لأن أباه كان من رعاة الماشية فتربى مقسيميانوس المذكور فى الجندية ومازال حتى انتظم فى سلك الشجعان فأدناه دقلطيانوس منه وقاسمه الملك قسمة مهايأة وتراض فأبقى دقلطيانوس لنفسه الأقطار المشرقية وترك لمقسيميانوس تدبير الأقطار المغربية وجعل مقر حكومة مقسيميانوس مدينة ميلان من أعمال إيطاليا.

وامتاز دقلطيانوس عن مقسيميانوس بملاحظة عموم المصالح وأمور كافة البلاد الرومانية مشرقية كانت أو مغربية وجعل دار إقامته مدينة أزمير من أعمال برسه فهجرت عندئذ مدينة رومة وانسلخ عنها كونها دار الملك ومقر السلطنة الرومانية فى عهد هذه المقاسمة وكان ذلك فى سنة ثلاث وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وكان كل من دقلطيانوس ومقسيميانوس فى تدبير أمور المملكة وقضاء مصالح خلق الله على وفاق عام وتواطؤ فى الرأى تام فكان دقلطيانوس يومئذ رأس الدولة ومقسيميانوس عضدها.

ولما ذهب مقسيميانوس الى مقر حكومته بالأقطار المغربية رأى من خروج فلاحى بلاد الغلية وعصيانهم وإثارتهم للفتن ما ألجأه إلى تجهيز الجيوش وإعداد معدّات الحرب لقتالهم فضربهم وانتصر عليهم وأدخلهم تحت الطاعة ثم سار إلى قتال فارسيوس الخارجى ببلاد الإنجليز حيث استفحل أمره واجتمع معه عصب الأشقياء من أهل الصيال وقطاع الطرق وتعدى معهم للإيذاء والسلب رجاء أن يكثر قومه ويستقل بملك البلاد وفصلها من حكم الرومانيين فحاربه مقسيميانوس وأجهد النفس فى قتاله فلم يقدر على إدخاله ومن معه من الفرنج تحت الطاعة فاضطر أن يشرك معه فى الملك شريكين آخرين أحدهما قسطنقيوس خيورس من أهالى سواحل إيطاليا من بيت مجد وشرف وثانيهما اسمه والبرس الراعى ويقال له أيضاً غاليرس وألبسهما حلة الملك ليكونا عوناً على الأعداء وكانت هذه المقاسمة والتشريك فى

سنة ست وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فاجتمع على حكومة الدولة الرومانية فى هذا الحين أربعة ملوك ملكان كبيران يلقب كل منهما بلقب أغسطس وهما مقسيميانوس ودقلطيانوس وملكان دونهما فى الرتبة يلقب كل منهما قيصرا وهما قسطنقينوس وغاليرس وكانت تسمى هذه الحكومة إذ ذاك بالدولة الرباعية فكان هذا الترتيب المشتمل على قسمة المهايأة تمهيداً لانفصال رومة وقسطنطينة وامتياز كل منهما بعد ذلك بملك مستقل قائم بنفسه كما سنرى ذلك فى محله.

وكان لهذه الشركة الرباعية أثر مهم جداً إذ تقوّت بها الدولة وعظم شأنها وامتدت كلمتها وهابها العدو وصارت فى مأمن من الغارات الخارجية فقهر قسطنقيوس الفرنج وهزمهم ودفع غاليرس الفرس وغلبهم وبدد شملهم وأعاد للدولة مجدها ورونقها القديم وقد كان دقلطيانوس فى هذه الأثناء يعمل على تحسين أحوال الإدارة الملكية وإدخال الجند تحت القوانين الرابطة ونشر بنود الضبط والعمارية وعمل أيضاً على تحسين أحوال مدينة أزمير وأنطاكية وحمص وقرطاجة وأدخل فى الديوان الرسوم والآداب المشرقية وأبهة الملك على عادة سلاطين المشرق من الفرس وغيرهم ولم تكن هذه الآداب معهودة من قبل فى دواوينهم.

ووقعت مصر فى هذه المقاسمة الرباعية من نصيب دقلطيانوس حيث صارت من ضمن بلاد المشرق وكان العامل عليها يومئذ رجل اسمه أخليوس ويقال له أيضاً آجله وكان فى خلال هذه الحوادث قد تغلب عليها لنفسه واستبد بحكمها فسار دقلطيانوس لقتاله وحاصر مدينة الإسكندرية وضيق عليها تضييقاً شديداً فقطع خلجان النيل لتصريف مياه النيل التى تجرى فيها السفن ليمنع المياه والذخيرة عن المدينة واستولى عليها بعد حصار ثمانية أشهر فلما فتحها استعمل الظلم والعسف وتجاوز الحدود فى ذلك وارتكب ما لا يخطر لأحد على بال من المآثم والمظالم وأحرق المدينة وسبى أهلها سبياً وأباحها لجنوده ليفعلوا ما يشاءون فعاثوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل وقتلوا وفتكوا وسبوا ونهبوا وأراقوا الدماء أنهراً واشتدوا شدّة لم يسبق لها مثيل، وحكى بعض أحبار مسيحى مصر أن دقلطيانوس ركب ظهر فرسه وأمر جنده أن لا يتركوا القتل حتى تسيل الدماء على الأرض وتعلو حتى تصل إلى ركبة فرسة. قال بعض المؤرخين: فكان من الألطاف الإلهية أن سقط به فرسه على الأرض فتلوثت ركبتاه بالدم فتم قوله معنى وأبطلوا القتل.

واعتبر قبط مصر حكم دقلطيانوس على الدولة الرومانية تاريخاً تؤرخ به الوقائع

ويسمونه تاريخ الشهداء لكثرة ما سفك فيه من الدماء ولاسيما دماء المسيحيين وهذا التاريخ يوافق تسعاً وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وتسعا وثلاثين يوما. قال بعض الكتاب: وكانت نصرة دقلطيانوس على آجله عامل مصر فتوحاً جديدة للبلاد ومفتاحاً لخير أهلها فإنه بعد أن أجرى ما أجراه من الجور والعسف عاد إلى سبل الاستقامة والرفق بالرعية فعمل لهم قوانين خصوصية وصالح أهل الصعيد وترك لهم من جنوب أسوان جهة الشلالات يستبدّون بحكمه ويرابطون فى الثغور والحدود يحفظونها ورتب لهم الجوامك والعلوفات فى مقابلة ذلك.

وأما واليروس فقد كان فظاً غليظاً جهورىّ الصوت مزعجاً فى حركاته وسكناته وكان يحسد دقلطيانوس على ما أحرزه من لقب أغسطس فسعى ليحرز هذا اللقب أيضاً وقد كان هو علة تعذيب النصارى وتنكيلهم فى الشدة العاشرة التى هى أعظم الشدائد وأفظعها وآخرها فعذبهم بأنواع العذاب ما لم يسبق له قط مثال وكان يحملهم على الردة عن دين المسيح والرجوع لعبادة الأصنام وأحرق القصر الملوكى مرتين وأتهم أهل الديوان بتحريض أهالى البلاد على قتاله وأكثر من سفك الدماء فى سائر الأقاليم ثم إن الشدّة على النصارى بديار مصر فى أيام دقلطيانوس وإن كانت لنكبة المسيحيين دون غيرهم وتمزيق شملهم غير أنه قد عم جورها جميع أهل البلاد وحلت بسائر أرباب العقائد النكبات ونزلت النقمة بالجميع بلا استثناء فكان ذلك باعثاً على تقارب المسيحيين والوثنيين من بعضهم وتودد بعضهم لبعض وعدواتهم للحكومة الرومانية وقد طالت شدتهم زهاء عشر سنين فدل هذا الحادث على شدّة ارتباط الفريقين وإخلاصهما لبعض فقد أنقذ الوثنيون يومئذ طائفة المسيحيين الذين ركنوا إليهم ولجئوا إلى حماهم ولم يمكروا قط بهم كما كان يؤمل ولم تكن هذه الشدائد مانعة لانتشار دين المسيحية فى الأقطار بل بالعكس فقد كان كلما اشتد الضيق وعم الويل وتطاولت على النصارى يد الإيذاء كان الدِّين ينتشر انتشاراً عظيماً جداً ولم يكن الدين موجباً لضعف الدولة الرومانية ورجوعها إلى الوراء إلا تبعاً وإنما الذى أضعف بالأصالة هذه الدولة على التدريج هو تقسيم المملكة بين ملوكها الأربعة كإشارة دقلطيانوس ثم إن تقسيمها على ذلك الوجه وإن كان سبباً فى رفعة شأنها واتساع نطاق كلمتها وإزاحة العدو عنها إلا أنه قد ترتب عليه طمع رؤساء الأقاليم وعمال البلاد فى الاستقلال والخروج عن طاعة الدولة وقد حدث عنه أيضاً ما لا يطاق من الحروب الداخلية والخارجية فضلاً عما كان فيه من المصائب الخصوصية فكان ارتقاء هؤلاء الملوك الأربعة على سرير الملك ضرباً من

ضروب المصائب على الحكومة وبقى الأمر على هذا الحال من أيام دقلطيانوس إلى أيام قسطنطين الملك.

ولما كان دقلطيانوس الملك حين حقد غاليرس عليه وناوشه الخصام قد كبر سنه ووهن عظمه وكان لا يمكنه مقاومته ولا صدّه عن مقاصده ولا أن يجيبه إلى مطالبه الطويلة العريضة ولا يستطيع مخالفته خلع نفسه من الملك طوعاً فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة وانزوى فى إقطاعاته واشتغل بالزراعة والفلاحة فاقتدى به شريكه الثانى مقسيميانوس وخلع نفسه وانزوى فى أملاكه أيضاً فلم يبق بعدهما من الشركة الرباعية إلا غاليرس وقسطنقيوس خيورس فصفا الوقت لغاليرس وتصرف فى الأمور واستبد كما شاء.

قلت: وقد قال المقريزى فى خططه عن دقلطيانوس المشار إليه ما محصله: إن دقلطيانوس أحد ملوك الروم كان من غير بيت الملك فلما مات ملك تجبر وامتد ملكه إلى مدائن الأكاسرة ومدينة بابل واتخذ تخت ملكه مدينة أنطاكية واستخلف على مدينة رومة وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر إلى أقصى المغرب وخالف عليه أهل مصر والإسكندرية فبعث إليهم جيشاً جراراً وقتل منهم خلقاً كثيراً جداً وأوقع بالنصارى فأسال دماءهم وغلّق كنائسهم ومنع من دين النصارى وحمل الناس على الردة وعبادة الأصنام وأسرف جداً فى قتل النصارى وهو آخر من عبد الأصنام من ملوك الروم ويقال: إن رجلا اسمه آجله ثار بمصر وخرج عن طاعة الروم فسار إليه دقلطيانوس وحاصر الإسكندرية ثمانية أشهر حتى أخذ آجله وقتله وعم أرض مصر كلها بالسبى والقتل، وكانت أيامه كلها شنيعة للغاية قتل فيها من أصناف الأمم وهدم من بيوت العبادة ما لا يدخل تحت حصر وكانت واقعته بالنصارى هى الشدة العاشرة وهى أشنع شدائدهم وأطولها لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين لا يفتر يومًا واحدًا يحرق فيها كنائسهم ويعذب رجالهم ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتله يزيد بذلك قطع دابرهم وإبطال دين النصرانية من الأرض فارتد خلائق كثيرة جداً وصار قتل دقلطيانوس لنصارى مصر تاريخاً تؤرخ به قبط مصر إلى يومنا الذى نحن فيه. وبين تاريخ دقلطيانوس يعنى أول يوم منه وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة ثلثمائة وثمان وثلاثون سنة قمرية وتسعة وثلاثون يوما. أ. هـ.

وبعد خلع دقلطيانوس لنفسه وانصرافه عن الملك وتركه الحكومة لغاليرس خصمه كما تقدّم وانعكافه على الفلاحة والزراعة أعاده مجلس رومة ودعاه إلى العود للمنصب فتنصل وتنزه وأظهر الأنفة عنه والعزة وأبان أنه لم يكن ترك المنصب

وفى نفسه حاجة إليه وأنه ما هجره إلا حليماً لا سفيها فحسبت له هذه الفعلة من المفاخر عند جماعة المؤرخين وكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة. وفى أيامه مات بادكلاس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ست عشرة سنة فخلا الكرسى بعده سنة وأقيم ديونيسيوس وهو رابع عشرهم وكان وثنيًا ثم اعتنق الديانة المسيحية وتعبد وتزهد وعمل صالحاً حتى اختاروه لهذا المنصب وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى حينه.

قلت: وعلى ما رواه صاحب الخطط عند تتبعه سير بطاركه الإسكندرية يكون البطرك الذى مات فى أيام دقلطيانوس هو بطرس خاتم الشهداء وهو ثامن عشرهم لا بادكلاس مع أننا إذا تتبعنا سنى كل ملك أى مدة حكمه من تاريخ دخول مرقس الحوارى مدينة الإسكندرية ومناداته بالديانة المسيحية إلى جلوس دقلطيانوس على سرير الملك يتضح أن موت بادكلاس كان فى أيام دقلطيانوس لا فى أيام أورليانوس كما جاء فى كتب الكنيسة القبطية والله سبحانه أعلم بالحقائق.

(فى الملك غاليرس قيصر)

(والملك قسطنقيوس خيورس قيصر)

استقل هذان الملكان بالمنصب عقب خلع دقلطيانوس ومقسيميانوس لأنفسهما من الملك وذلك فى سنة خمس عشرة وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة ولما استقر بغاليرس المنصب ورأى من أعباء الملك ومشاق المنصب ما لا يمكن معه الاستقلال بالرياسة أشرك معه قسطنقيوس خيورس الذى كان يومئذ ملكاً على بلاد الغلية شركة تامة له ماله وعليه ماعليه فى حكم البلاد ثم انتخب أيضاً شريكين آخرين أحدهما اسمه سويرس أوسوريانوس وكان جنديًا ولكنه مجرد من الفضل والشجاعة، والثانى مقسيمينوس وكان من رعاة الغنم انقطع عن الرعاية منذ عهد ليس ببعيد وانتظم فى سلك العسكرية بلا فضل ولا مزية فعادت إذ ذاك الدولة الرومانية رباعية كما كانت وكان غاليرس كبيرها ورأسها المشار إليه فى مهامّ الأمور.

ولما تم لغاليرس الأمر على ما أراد أحصى أهالى البلاد كلاً باسمه وصفاته وضرب عليهم المغارم وصادر فى أموالهم فكانت هذه البدعة فى البلاد تعدّ من الغرائب وتحسب من أشد المصائب ومسح جميع الأراضى والمزارع وضرب عليها المغارم الجسيمة وقاس كرم العنب وضرب عليها كذلك المغارم وأحصى الأشجار

والمواشي وغير ذلك ورسم بأن كل رب عـائلة وكبير بيت يحرر سـجلاً بعدد أولاده وعبيده وخدمه وتقييد ما يمتلكه من العقار والمتاع في سجلات بيت مال الدولة وكان يستنطق الأولاد والخـدم والعبيد على مـا يمتلكه آباؤهم وساداتهم عـسى أن يخالف قولهم قولهم، ويظهر المخبأ بل ربما أغراهم المغرون على عدم المطابقة لعلهم يصيبون أكثـر وقد عين لذلك كله محـال معدودة يحـضرون فيهـا المرضى وأرباب الأمراض المزمنة والعواجيـز لتقييدهم في دفـتر العوائد وتمويلهم وكانت المغـارم مضروبة على المولودين والأمـوات فلم يكن أحد في تلك الأيام مـستثنى من المغارم والمـصادرات وكان إذا مات أحد من المسجلين بسجل هاته المغارم أو نفق حيوان من الحيوانات التي عليها عـوائد وزع ما يخصه على الأحياء بدون ترك شيء من المتـأخر منها فلم يخل انسان ولا حـيوان من ظلمه وعـسفه حـتى شمل جـوره جميع طوائف الشـحاذين والمعوزين والفـقراء والمسـاكين وكان إذا عـجز أحـد عن أداء المطالب وأظهر الفـقر والمسكنة وسـأل الناس ما في أيديهم أمـر بجمـعه وجمع أمـثاله وأنزلهم فـي سفن وأغرقهم في البـحر ليجتنب الناس التـخلق بالمسكنة والفقر لكيلا يـتخلص أحد من المغارم ودفع ما ضرب عليه واشتد بالناس عـسفه وجوره إلى حدّ لايطاق ولا يحتمل قال أهل التاريخ: أما قسطنقيوس خيورس شريكه فقد كان على عكس ذلك فإنه كان عادلاً يحب رعـيته ويرفق بهم ويشفق عليـهم ويوردهم موارد السعادة في الـرفاهية ومازال على هذا الحال من الرفق برعـيته حتى مات في مـدينة بورك من أعمال بلاد الإنجليز بعد أن عاش عيشة مرضية فخلفه ابنه قسطنطين الملقب بالأكبر.

واتفق في هذا الحين أن ثـارت فتنة عظيمـة في إيطاليا قتل فـيها سـويرس أحد الشركاء في المنصب الملوكي فتولى بعده مقسنقوس بن مقسيميانوس الذي كان شريكًا لدقلطيانوس فـاغتاظ غاليـرس من ذلك غيظاً عظيمـاً واستغاث بدقلطيـانوس وكان دقلطيانوس مقيـماً في مدينة سالونه منزوياً مشتغـلاً بالحرث والغرس وهو في عيش هنيّ فكتب إليه يسـتقدمه ويعرض عليـه المنصب الملوكي بالمشاركة فـردّ عليه يقول: أحب أن تحضر إليّ أيها الملك لترى الخس المورق المخـضر الذي غرسته بمدينة سالونه فلعلك لو سرّحت الطرف في هذا الـغرس النضير لا تخـاطبني أبداً في شأن الملك. فلما رأى منه الامتناع والإصرار على الإباء اختار شخصاً اسمه ليقينوس ولقبه بعنوان أغسطس فوافـته المنية بعد ذلك حـيث مرض مرضاً شديداً على حـين غفلة واندمل جسـمه وتقرح وقـاسى ما قاسى من شـدة الألم الذي اشتـد به ومات ولم ينل من اختياره لليقينوس المذكور أرباً ولا مغنماً وذلك في سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد

أى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة وتـولى بعده مقسيمينوس الثانى شريكه واستولى على الرياسة العليا فكانت مدة حكمه نحو ثلاث وعشرين سنة.

وفى أيامه مات ديونيـسيوس بطرك الإسكندرية وكان مـوته فى الثالث من توت بعد أن أقام تسع عشرة سنة كابد فيـها من الأهوال والشدائد ما لا يدخل تحت حصر وظهر فى أيامـه بولا الخارج فكتب ديونيسيـوس إلى مجمع أنطاكيـة رسالة يدحض فيـها اعـتقاد بولا ويـفنده ويبطله فكان لهذه الرسـالة وقع حسن جـداً فأقـيم بعده مكسيـموس وهو خامس عـشرهم وظهر فـى أيامه رجل قال عن نفسه: إنه الروح البارقليط أى الروح المعـزى فتبعـه خلق كثير وكـادت بدعته تعم وتعاليـمه تؤثر فى الكثير من المعترضين ولكنه لم يلبث أن هلك وامحت آثاره بالكلية.

(فى الملك مقسيمينوس الثانى وقسطنطين الأكبر ومقسنقوس وليقينوس)

ثم قام بالأمـر أربعة هم مـقسيـمينوس الثـانى وقسطنطين الأكبـر ومقـسنقوس وليقينوس فكانوا شركـاء فى حكم البلاد وسياسة الجمهـوز وكان ابتداء حكمهم فى سنة خمس عـشرة وثلثمائة للمـيلاد أى سنة إحدى وعشـرين وثلثمائة قبل الـهجرة ولكنهم لم يثبـتوا على حسن الموالاة طويلاً حـتى اتحد أحدهم قسـطنطين مع ثانيهم ليقينوس واتحد ثالثهم مقسنقوس مع رابعـهم مقسيمينوس فحدث من هذا الاتحاد أن صاروا حزبين متخـالفين قلبا وقالباً وكان مقسنقوس قـابضاً على زمام إيطاليا فسلك فى الإيطاليين مـسلك الجـور والظلم واشـتد عـليهم وأنشـب فيـهم أظفـار نكاياته فاستـغاثوا بقسطنطين ليـخلصهم من ظلمه وكان قـسطنطين مشهوراً بالرأفـة وكمال الشفـقة وغاية الشجـاعة والبسـالة وكان محبـاً للملة النصرانية مـحاميـاً عنها ولكن جيوشه كـانت قليلة فلم يكن عنده يومئذ سوى أربعين ألف مـقاتل وكان عدد جند مقسنقوس نيفاً ومائة وستين ألف جندى، فلما رأى من كثرة عدد جنود خصمه تردد فى الأمر وخـشى عاقبـة إغاثة الإيطاليين ولكـنه عاد بعد ذلك وصـمم على الأخذ بناصـرهم. قال بعض الكتاب: ومما حبب إليه القتـال أنه رأى يومئذ هو وكثير من عساكـره شكل صليب على دائرة كوكب الشمس مكتوباً عليـه بالرومية (أنت تغلب عداك) ثم رأى فى المـنام أيضاً حبـرًا من أحبـار المسيحـيين يأمـره بأن يتخـذ صورة الصليب شعار الملك على سـلاح جنوده وعلى أعلامه وبنوده فتقوّت عزيمـته واشتدّ أمله بالنصر والغلبة وأمـر فجعلوا شعائر الصليب على جـميع الأسلحة والرايات فى

المملكة الرومانية وقد كان قبل هذا شعار القياصرة عبارة عن صورة صنمية فاتخذ قسطنطين لنفسه بيرقاً مطرزاً بالقصب ومكللاً بالجواهر على شكل صليبي ورقم عليه اسم المسيح بالحروف الرومية وصوّر المسيح متوّجاً بتاج من الذهب وأمر جميع جنوده أن يرسم كل منهم صورة المسيح على كنانته وسلاحه ففعلوا جميعاً وسار بهم حتى اجتازوا جبال ألبة بإيطاليا فالتقى بجيوش عدوه فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم جيش مقسنقوس شر هزيمة فساق قسطنطين خلفه يطارده ويعمل القتل حتى وصل جبلاً تحت أسوار مدينة رومة اسمه جبل ميلوس وكان مقسنقوس قد صف هناك جميع عساكره وأجناده ليتقوى بهم على عساكر قسطنطين فحمل عليه قسطنطين حملة واحدة فهزمهم وانتصرت عساكره عليهم نصرة عظيمة فلما كان صبح اليوم الثانى شوهد مقسنقوس غريقاً مع كثير من جنوده وكان ذلك سنة خمس وعشرين وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى عشرة وثلثمائة قبل الهجرة.

قال أصحاب التاريخ: وبعد مضى نحو السنة من هذا الحادث المهم قام مقسيمينوس يريد البطش بليقينوس رفيق قسطنطين انتقاماً وأخذاً بثأر رفيقه مقسنقوس فسار إليه ليقينوس وقاتله وقبض عليه وسجنه وشدد عليه فقتل نفسه فارتفع من هذا الحين شأن قسطنطين واستفحل أمره وقويت شوكته وعظم قدره فغار منه رفيقه ليقينوس وحسده وحقد عليه وناواه الشر وقصد صدّه ومنعه من الغزو والفتوح فقامت الحرب بينهما واشتدّ القتال فانهزم ليقينوس وقتل بين جنوده فى ساحة الحرب فبقى قسطنطين منفرداً بالملك وذلك سنة سبع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين ومائتين قبل الهجرة فجمع عند ذلك جنوده ودخل مدينة رومة فى موكب عظيم جداً وجعل الصليب زينة موكبه وعلامة طالع كوكبه حيث انتصر به على أعدائه وفاز وعقد النية من هذا الحين على اتخاذ النصرانية دينا له فصوّر صورة نفسه فى شكل تمثال قابضاً بيده على صليب فعدّ أهل رومة ذلك من أعجب العجائب إذ كانت العادة عندهم أنه إذا دخل الملك رومة منصوراً لايقبض بيده إلا على رمح فلم تبطل هذه العادة عندهم إلى أن أحدث قسطنطين عادة استعمال الصليب مع أنه إلى ذاك الحين لم يكن قد تنصر.

وفى هذه الايام مات مكسيموس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنتى عشرة سنة فأقيم بعده ثاونا وهو سادس عشرهم وكان ورعاً صائب الرأى محبوباً مطاع الكلمة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(وصل فى انفراد الملك قسطنطين الأكبر بملك الدولة الرومانية)

وانفرد قسطنطين بملك الدولة الرومانية بعد قتال وحروب تقدم بيانها وذلك سنة سبع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين ومائتين قبل الهجرة ودخل مدينة رومة بجيوشه فلم يلق من أهلها بشاشة ولا ترحابًا بل كانوا يسخرون منه ويقدحون فيه ويطعنون فى عرضه بلا موجب ولا سبب سوى ما رأوه من محاماته عن النصرانية فغضب من وقوعهم فيه ورغبت نفسه عن رومة وصمم على أن يبنى مدينة أخرى عظيمة ويجعلها مقر حكومته ودار ملكه فطمح نظره على مدينة بيزنطا لحسن موقعها بين قارتى أوروبا وآسيا ولكونها فى منتزه عظيم البقعة واسع الأنحاء مطلة على أبحر ثلاثة فرسمها وأسرع فى بناء أسوارها وهياكلها وقصورها وحماماتها وسقاياتها وقصباتها وأتمها على أحسن ما يوصف فرغب الأهالى فى سكناها وهرع إليها الناس من جميع الأقطار واشتهرت باسم القسطنطينية وكان إتمامها سنة أربع وخمسين وثلثمائة للميلاد أى سنة اثنتين وثمانين قبل الهجرة فتحوّل إليها تخت الدولة الرومانية وعظمت عمارتها واتسعت حتى صارت من أعظم مدن العالم رونقاً وبهجة.

وكان قسطنطين الملك فى هذه الأثناء يعمل على إصلاح شأن الحكومة وترتيب أمور البلاد التابعة له فاعتنى بإصلاح شأن مصر وهذب حكومتها وأحسن حالها وبذل الجهد فى إصلاح أخلاق أهلها وكذلك أخلاق الرومانيين وأقام للبلاد المشرقية كافة رئيساً عاما يسوسها وينظر فى جميع مصالحها فكانت مصر بمقتضى هذه الحدود المرعية يومئذ داخلة تحت كلمة الرئيس المذكور وحكمه إلا عسكرها فإنهم كانوا تحت تصرف قائد مخصوص تابع مباشرة لرئيس عموم الدولة الرومانية لا علاقة له بغيره قال بعض الكتاب: وذلك لأن بلاد مصر كانت مأخوذة من البطالسة كما تقدّم فعدّها الرومانيون من الحدود والثغور التابعة لممالك رومة وكان للحدود والثغور والرباطات يومئذ أمير مخصوص مرابط من جانب رومة وكان منوط بتحصيل العوائد وجباية الأموال من الحدود والثغور ليتوزع بعضها على الخزينة الرومانية يعنى بيت مال المملكة وعلى خزينة الملك الخصوصية.

وكان لمصر فى هذا الحين أيضاً نائب ملكى كالملك على البلاد وعليه جل أشغال العمليات الهندسية مما فيه إصلاح أحوال النيل وعليه ملاحظة رىّ الأراضى والزراعة

والأسفار فى النيل ونقل الغلال من مصر إلى القسطنطينية فكان رؤساء الأقاليم المصرية وحكامها وعمالها لاينقادون لهذا النائب فى كثير من الأحيان بل كانوا مولعين بمخالفته وكان حاكم الصعيد يرى نفسه أعظم قدراً وأجل شأنا من النائب المذكور فكان هذا الحال داعيا لخلل نظام البلاد وعدم استقرار أمورها على قاعدة منتظمة فكانت الدولة الرومانية لذلك تعمل دائماً على تغيير أسماء الأقاليم المصرية وتقسيمها إلى أقسام صغيرة وتكثير العمالات لتتمكن دولتها وتتسع كلمتها ويسهل عليها ضبطها وحكمها كما تشاء فترتب على تكثير العمالات والعمال كثرة الظلم فى الرعية وانتشار الجور والعسف بهم فضلاً عن كره المصريين للحكومة الرومانية وما يضاف إلى ذلك أيضاً من اختلاف المذاهب النصرانية وتشعبها الى شعب كثيرة متعادية متخالفة كما سيأتى الكلام عليها.

وكان قسطنطين الملك ولعاً بتتميم ما كان قد شرع فيه دقلطيانوس قبل موته من جعل المملكة الرومانية دولة ملوكية يستوى فى قوانينها وأحكامها جميع الرعايا فلا يكون هناك حكومة أشراف ولا قضاة ولا ملتزمون وإنما تكون الحكام أمراء من طرف القيصر يوليهم ويعزلهم إن شاء فقسم المملكة أقساماً إدارية بين أولاده الثلاثة وهم قسطنطين وقسطنطوس وقسطنطقوس وابن عمه دلماقوس وجعل لنفسه الرياسة الكبرى على هؤلاء الأربعة فانصلح حال الدولة وانتظمت أمورها على قاعدة مقررة ثم أصلح حال الجيوش والعساكر بأن قسمها الى فرق وجعل كل فرقة منها ألفا وخمسمائة عسكرى وجعل على كل فرقة أمير فصار كل أمير فرقة على حدته لا يخشى منه على الملك لانحصار امارته فى هذا القدر من العساكر خلافا لما كانت عليه قبلا فكان هذا الترتيب داعيا لادخال كثير من الغرباء فى مصاف العساكر فقد تناقص عدد أهالى البلاد بالحروب الداخلية والخارجية ووصل إلى حدّ لم يمكن معه تجنيد الجنود اللازمة للدفاع والحرب عند الحاجة. قال أهل التاريخ: وكان إدخال هؤلاء الغرباء فى صفوف العسكرية الرومانية غاية الضرر على البلاد وأهلها.

وفى آخر أيام قسطنطين تحرّكت دولة فارس لغزو الإيالات المشرقية فتهيأ قسطنطين لقتالها فجيش الجيوش وجمع الجموع ومعدّات القتال وقبل أن يسير بهم الى العدّو سار الى قرب مدينة أزمير واستقدم أسقفها وتدين بالديانة النصرانية على يديه فعمده بماء المعمودية وقد كان أصدر قبل عماده وهو فى مدينة ميلان سنة سبع وعشرين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وثلثمائة قبل الهجرة مرسوماً يبيح التدين بالدين المسيحى وبأن النصارى جميعاً يكونون تحت حمايته الذاتية فانتشر من هذا

الحين دين المسيح وصار دين الحكومة والهيئة الحاكمة ومعتقد أهل الحل والعقد وقد كانوا جميعاً قبل ذلك عبدة أوثان ولازال الحال على ذلك إلى أن جمع فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وثمانين ومائتين قبل الهجرة فى مدينة نيقة بإيالة بروسه المجمع الأول الذى تهذبت فيه علامة الامة المسيحية الباقية إلى يومنا الذى نحن فيه ولم ير فى القياصرة أشدّ من قسطنطين حمية على النصرانية لاسيما بعد دخوله فى مصاف أبنائها فكان يعظم الأساقفة ويجلهم ويجمعهم على خوانه ورسم بصلاة يوم الأحد فى جميع أطراف المملكة وجعل هذا اليوم عيداً فى الأسبوع تتعطل فيه جميع الأشغال فصار العمل على ذلك سنة متبعة إلى يومنا هذا عند سائر المسيحيين. وأبطل المصارعة وعيد الزهرة وهدم هياكلها لما فى ذلك من العوائد الذميمة فجعل عباد الأوثان يتزاحمون على الدخول فى النصرانية وأقام فى جميع أنحاء المملكة المرابطين والمحافظين من الأمراء وأقطعهم الأراضى نظير ذلك وجعلها وراثة لمن بعدهم فى أعقابهم، ومنع جميع ما فيه مفاسد الأخلاق وخفف العوائد والأموال وعدّلها ولطف أمور المصادرات والاسر والاسترقاق وأبطل الربا، وكان محباً جداً للعلوم والفنون فكان يعمل على تقدمها وترقيها وعافى أهلها من جميع الرسوم والعوائد وخصهم بالمزايا العسكرية وأن يسكنوا فى خطط العسكر ومنازلهم وجعل هذه المزية لنسائهم وأولادهم أيضاً وأخرج اليهود من بيت المقدس وأكرههم على التدين بالديانة المسيحية وقتل من امتنع منهم فأبى أكثرهم وقتل قيل: ومن تنصر منهم لم يخل من النكبة أيضاً حيث جمعهم وحشرهم فى كنيسة فى يوم عيد الفصح وأمرهم بأكل لحم الخنزير فامتنع أكثرهم فأمر بقتلهم فقتل الجم الغفير منهم فى هذه المحنة. **قلت**: وهذه فرية من أهل الافتيات لأن شدة تدينه بالنصرانية تحول بينه وبين هذه الفعال.

قال بعض الكتاب عند الكلام على قسطنطين المشار إليه: وكانت أم قسطنطين هيلانه من أهل قرى مدينة الرها قد تنصرت على يد أسقف الرها وتعلمت الكتب فلما مر بقريتها أغسطس صاحب شرطة دقلطيانوس رآها فأعجبته فتزوج بها وحملها إلى بيزنطا مدينته فولدت له قسطنطين وكان جميلاً فأنذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم ويبدّل دينهم فأراد قتله ففرّ منه إلى الرها وتعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس فعاد إلى بيزنطة فسلمها له أبوه أغسطس ومات فقام بأمرها بعد أبيه إلى أن استدعاه أهل رومة فأخذ يدبر فى مسيره فرأى فى منامه كوكبًا فى السماء على هيئة صليب وصوت من السماء يقول: احمل هذه

العلامة تنتصر على عدوك فقص رؤياه على أعوانه وعمل شكل الصليب على أعلامه وجنوده وسار لحرب مقسيميانوس برومة فبرز إليه وحاربه فانتصر قسطنطين عليه وملك رومة وتحوّل منها فجعل دار ملكه القسطنطينية فكان هذا ابتداء رفع الصليب وظهوره فى الناس فاتخذه النصارى من حينئذ وعظموه.

وأكرم قسطنطين النصارى ودخل فى دينهم بمدينة نيقوميديا فى السنة الثانية عشرة من ملكه على الروم وأمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه وكسر الأصنام وهدم بيوتها وعمل المجمع بمدينة نيقيه وسببه أن الإكسندورس بطرك الإسكندرية منع أريوس من دخول الكنيسة وحرمه لمقالته ونقل عن بطرس الشهيد بطرك الإسكندرية أنه قال عن أريوس إن إيمانه فاسد وكتب بذلك إلى جميع البطاركة فمضى أريوس إلى الملك قسطنطين ومعه أسقفان واستغاث به وشكى الإكسندروس فأمر بإحضاره من الإسكندرية فحضر هو وأريوس وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه فقال أريوس: كان الأب إذا لم يكن الابن ثم حدث الابن فصارت كلمة له فهو محدث مخلوق ففوّض إليه الأب كل شيء فخلق الابن المسمى بالكلمة كل شيء من السموات والأرض وما فيهما فكان هو الخالق بما أعطاه الأب ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس فصار ذلك (مسيحا) فإذن المسيح معنيان كلمة وجسد وهما جميعا مخلوقان.

فقال الاكسندروس أيما أوجب أعبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا فقال أريوس بل عبادة من خلقنا أوجب فقال الاكسندروس فإن كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق بل تكون عبادة الخالق كفراً وعبادة المخلوق إيماناً وهذا أقبح القبيح.

فاستحسن الملك قسطنطين كلام الاكسندروس وأمره أن يحرم أريوس فحرمه وسأل الاكسندروس الملك أن يحضر الاساقفة فأمر بهم فأتوه من جميع ممالكه واجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية وعدّتهم ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفاً يختلفون فى المسيح فمنهم من يقول الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها وهذه مقالة سليوس الصعيدى ومن تبعه. ومنهم من قال: إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر بل مر بأحشائها كمرور الماء بالميزاب وهذا قول إليان ومنه تبعه. ومنهم من قال إن المسيح بشر مخلوق وأن ابتداء الابن من مريم ثم إنه اصطفى فصحبته النعمة الإلهية بالمحبة والمشيئة ولذلك سمى ابن الله قال ومع ذلك فالله واحد قيوم وأنكر هؤلاء الكلمة الروح فلم يؤمنوا بهما

وهذا قول بولس السيماطئ بـطرك أنطاكية وأصحابه. ومنهم من قـال: الآلهة ثلاثة صالح وطالح وعدل بينهما وهذا قـول مرقيون وأتباعه ومنهم من قال: المسـيح وأمه إلهان من دون الله وهذا قول المرايمة من فرق النصارى. (قلـت) لا ندرى أين هذه الفرقـة من فرق النصارى وأين مـوطنها. ومنهم من قـال: بل الله خلق الابن وهو الكلمة في الأزل كمـا خلق الملائكة روحاً طاهرة مقدسة بسـيطة مجردة عن المادة ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مـريم البتول الطاهرة فاتحد الابن المخلوق فى الأزل بإنسان المسيح فصارا واحدا. ومنهم من قال: الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غيـر مخلوق وهو جوهر من جوهره ونور من نوره وأن الابن اتحـد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحداً وهو المسيح وهو قـول الثلثمائة وثمانية وعشر. قـال الراوى: فتحير قـسطنطين من اختلافهم وكثر تعجبـه من ذلك وأمر بهم فأنزلوا فى أماكن وأجرى لهم الأرزاق وأمرهم أن ينتظروا حتى يـتبين لهم صوابهم من خطئهم فثبت الثلثمـائة وثمانية عشر على قولهم المذكور واختلف باقـيهم قال قسطنطين إلى قول الأكثرين وأعرض عما سواه وأقبل على الثلثمائة وثمانية عشر وأمر لهم بكراسى وأجلسهم عليهـا وسلم إليهم سيفه وخـاتمه وبسط أيديهم فى جميع مملكته فـباركوا عليه ووضـعوا كتـاب قوانين الملوك وقـوانين الكنيسة وفـيه ما يـتعلق بالمحاكـمات والمعامـلات والمناكحـات وكتـبوا بذلك الى سائـر الممالك وكان رئيـس هذا المجمع الإكسندروس بطرك الإسكندرية وأسطاوس بطرك أنطاكيـة ومقاريوس أسقف القدس فوجه ساطوس بطرك رومة بقسيسين اتفق مـعهما على حرمان أريوس فحرموه ونفوه ووضع الثلثمائة وثمانية عشرة الأمانة المشـهورة وأوصوا أن يكون الصوم متصلاً بعيد الفـصح على ما رتبـه البطاركـة فى أيام الملك أورليانـوس قيـصر ومنعـوا أن يكون للأسقف زوجة وكانت الأساقفة قبل ذلك إذا كان مع أحدهم زوجة لا يمنع منها إذا جـعل أسقـفاً بخـلاف البطرك فإنه لا يكـون له امرأة ألبـتة وانصـرفوا من مـجلس قسطنطين بكرامة جليلة.

ويقال: إن الإكسندروس هذا هو الذى كسر الصنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالاسكندرية وكانوا يعبدونه ويجعلون له عيداً فى ثانى عشر هاتور ويذبحون له الذبائح الكثيرة فـأراد الاكسندروس كسر هذا الصنم فمنعه أهل الإسكنـدرية فاحتال عليهـم وتلطف فى الحيلة إلى أن قـرب العيد فـجمع الناس ووعظهم وقـبح عندهم عبادة الصنم وحـثهم على تركه وأن يعمل هذا لميكائيل رئيس الملائكة فـإن هذا خير من عمل العيد للصنم فلا يتغير عـمل العيد الذى جرت عادة أهل البلاد على عمله

ولا تبطل ذبائحهم فيه فرضي الناس بهذا ووافقوه على كسر الصنم فكسروه وأحرقه وعمل بيته كنيسة على اسم ميخائيل الملك فلم تزل هذه الكنيسة بالإسكندرية إلى أن أحرقتها جيوش المعز لدين الله أبي تميم معدّ لما قدموا فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة للهجرة واستمر عيد ميخائيل عند النصارى بديار مصر باقيًا يعمل فى كل سنة إلى يومنا هذا.

وفى السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين سارت أمه هيلانة إلى بيت المقدس وبنت به عدة كنائس فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب وعرفها ما عملته اليهود به فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع فحفرته فإذا به ثلاث خشبات فلم يعرفوا الصليب قبل فوضعت الثلاث خشبات كل واحدة على ميت قد بلى فقام أحدهم حياً عندما وضعت عليه إحداها فعملوا لذلك عيداً مدة ثلاثة أيام عرف بعيد الصليب وهو يعمل إلى يومنا هذا وعملت له هيلانة غلافًا من الذهب الخالص وبنت كنيسة القيامة التى تعرف بكنيسة قامة وأقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس وعادت إلى مملكتها فكانت مدة ما بين ولادة المسيح وظهور الصليب ثلثمائة وثمانية وعشرين سنة على المشهور ا هـ.

ومات فى أيام قسطنطين الملك ثاونا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام تسع سنين بطركاً وفى رواية سبع سنين وهو أول من بنى الكنائس بمدينة الإسكندرية وكانت النصارى قبله تصلى بالإسكندرية فى المغارات والسرادب خوفاً من القتل وسفك الدماء فلاطف ثاونا المذكور جماعة الروم وبالغ فى ملاطفتهم وأهدى لهم تحفاً جليلة حتى بنى كنيسة السيدة مريم بالاسكندرية فصلى فيها القبط جهاراً. وقد ذكر عنه أنه كان يصنع بعض العجائب وكان صاحب عزم وتدبير وحسن سياسة ومعرفة بالامور وطرد فى أيامه أهل الزيغ وأصحاب البدع وله مناقب كثيرة. فأقيم بعده بطرس المعروف بالأول خاتم الشهداء وهو سابع عشرهم فأقام عشر سنين ومات قتيلاً وكانت أيامه كلها شدائد وكروباً وفتناً وخطوباً مات فيها من النصارى خلق كثير على قول بعض المؤرخين.

فأقيم بعده ارخلاوس وهو ثامن عشرهم وقيل: إنه كان تلميذ بطرس فأقام ستة أشهر ومات وكان ورعاً تقياً محباً للفقراء.

فأقيم بعده الاكسندروس وهو تاسع عشرهم وكان تلميذ بطرس أيضاً على المشهور وكان من الحوادث فى أيامه ما قد مرّ بك عند الكلام على قسطنطين الأول وأمه هيلانة.

فى الملك قسطنطين الثانى والملك قسطنطوس الاول والملك قسطنقوس

ثم قام بالأمر أولاده الثلاثة قسطنطين الثانى، وقسطنطوس الأول، وقسطنقوس بعهد من أبيهم وذلك سنة إحدى وخمسين وثلثمائة للميلاد أى سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الهجرة. وتحرير الخبر أنه لما مات قسطنطين تقاسم أولاده المذكورون الممالك الرومانية بينهم مساهمة ومحاصة وصار كل منهم ملكاً على جهة مستقلاً بها فأصاب قسطنطوس الإيالات المغربية وخص قسطنقوس الإيالات المشرقية وأقيم قسطنطين رئيساً على الأقطار المشرقية والمغربية معاً فصار بذلك صاحب الكلمة على أخويه قسطنطوس وقسطنقوس.

ولما استقرّ بكل منهم المنصب على هذا الوجه خافوا من بقية عائلة قسطنطين أبيهم وخروجهم فى طلب الملك فقتلوهم جميعاً حتى لم يبق منهم إلا إثنان من الأقارب هما والوس ويوليانوس الملقب المرتد إذ تشفع مرقص أحد الأساقفة فى ابقائهما وخلاصهما من القتل، وتلقب بعد ذلك كل من هؤلاء الأخوة بلقب أغسطس ولكنهم ولم يلبثوا طويلاً حتى وقع بينهم الخلاف وتفاقم حيث لم يرض قسطنطين بنصيبه من المملكة وتأهب لقتال أخيه قسطنطوس وجرّد عليه وسار إليه بخيله ورجله وقاتله قتالاً هائلاً فمات قسطنطين فى حومة القتال وتم التمكين لقسطنطوس ولكن لم يخل له الجوّ حتى خرج عليه خارجى من إيالته المغربية اسمه منيقوس وأصله من الأسارى من سبى جرمانيا وتربى عند الرومانيين وترقى فى العسكرية وتقلب فى درجاتها العلية وادّعى لنفسه بملك البلاد المغربية فتبعه خلق كثير فسار إليه قسطنطوس وحاربه واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً فمات قسطنطوس فى الحرب سنة أربع وستين وثلثمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائتين للهجرة.

فلما أحس أخوه قسطنقوس بذلك تأهب للأخذ بثأر أخيه وبلاده بقتل منيقوس فسار إليه فى عسكر جرار وركب عليه حتى قتله وانفرد بالملك بعد حرب هائلة ولكنه عاد فاشرك معه أحد أقاربه وهو والوس ولقبه بلقب قيصر وسلمه المحافظة على المشرق جميعه وأبقى لنفسه المغرب وسياسة البلاد كافة وتدبير أمور الدولة بتمامها فلم يفلح والوس المذكور حيث كان حديث نعمة فاسد الأخلاق وكان شره النفس سيىء التدبير فقام عليه قسطنقوس وقتله وذلك سنة ثمان وستين وثلثمائة للميلاد أى سنة ثمان وستين ومائتين قبل الهجرة. قال بعض أهل التاريخ: وصارت

الدولة فى هذا الحين على خطر عظيم يخشى عليها من التلف والانحلال بتحويل هذه الأحوال وكانت أمة الإفرنجة تكرّ عليها من المغرب وأكاسرة الفرس تتهددها من المشرق وكان الملك قسطنقوس وحده لايستطيع الذب عنها فرأى أنه لابد له من شريك فى الملك يشد به أزره ويصلح به أمره وكان قد بقى من أقارب قسطنطين الأول يوليانوس أخو والوس وكان فى مدرسة مدينة أزمير يتلقى العلوم وكان شاباً متديناً بالدين المسيحى مشتغلاً بالفلسفة والحكمة وقد حصل على ما يمتاز به أبناء الاكابر من العلوم والمعارف والآداب فاستقدمه قسطنقوس وجعله قائداً لجنوده المنتخبة لقتال الفرنجة ورسم له بقتالهم فسار اليهم وقاتلهم قتالاً شديداً وظهر عليهم ظهوراً عجيباً وظفر بهم وأعمل فيهم القتل والسلب والنهب فحسده قسطنقوس على ذلك وحقد عليه وناواه وقصد أن يقلل جنده ليضعف بذلك شوكته وكان إذ ذاك سابور ذو الأكتاف قد زحف فى ممالك الرومانيين بآسيه وأخذ مدينة (آمد) بالجزيرة وكان قسطنقوس يمانع عن هذه البلاد ويحميها فاغتنم هذه الفرصة مناسبة لما فى نيته وطلب من يوليانوس أن يبعث اليه بفريق من عساكره فلم تقبل العساكر ذلك ولم ترض الانفصال عن رئيسهم يوليانوس لمكانته من قلوبهم وخالفوا الملك وأحدقوا برئيسهم وعانقوه ولقبوه بلقب أغسطس وبايعوه على ذلك فتمنع من قبول هذا المنصب وتضرع إليهم أن يعفوه وبكى وناح فلم يقبلوا منه وجبروه على الرضا وحملوه عى أن يسير بهم إلى المشرق عاجلاً لقتال خصمه قسطنقوس والانتقام منه فسار إليه على كره والتقى الفريقان ووقع بينهما قتال عنيف للغاية فمات قسطنقوس بمدينة المصيصة وذلك سنة خمس وسبعين وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى وستين وثلثمائة قبل الهجرة فتم الأمر ليوليانوس واستقل بالملك فى هذه السنة وقد كان يوليانوس حين غزوة الإفرنجة فى بلاد الغلية وما جاورها جعل مقر إقامته وتخت مملكته فى مدينة لوطيقة التى هى الآن مدينة باريس واشتغل مدة الغزو بتحسين حال هذه المدينة وإصلاحها وتوسيع العمارة فيها فهى من مآثرة الباقية إلى يومنا الذى نحن فيه فكانت أحب البلاد إليه وقد بسط يده على ملك المشرق والمغرب وتصرف فى الحكم بلا معارض ولا منازع فكانت مدة حكم أولاد قسطنطين الأول إلى انفراد يوليانوس بها نحو أربع وعشرين سنة.

وفى أيامهم مات الإكسندروس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنين وعشرين سنة فأقيم بعده اثناسيوس وهو عشريهم وأصله من مدينة الإسكندرية وكان وثنياً متنطعاً فى الدين الوثنى ثم تنصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(فى الملك يوليانوس قيصر المرتد)

ثم قام بالأمر يوليانوس المرتد بايعه العساكر ونادوا بملكه فانفرد بعد موت قسطنقوس بحكم الدولة الرومانية سنة سبع وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقد فرح به جميع الناس واستبشروا بولايته لرسوخ قدمه فى الفضل وتمسكه بشعار العدل فلما استقر به المنصب أبعد عن ديوانه أهل السخرية وبطانة السوء وأدنى منه أهل الفصاحة وأرباب البلاغة وأصحاب الفلسفة والحكمة فصارت تأوى إليه أرباب المعارف ويتقرب منه أهل الفضل ويأتون إليه من كل فج فكان يؤاكلهم ويبالغ فى تقريبهم منه والحفاوة بهم وكان قبل ارتقائه سدّة الملك مظهراً للتمسك بالدين النصرانى فلما ملك استبدّ بالأحكام ارتد ورفض الدين المسيحى وعاد إلى الوثنية ففرح عباد الأوثان بارتداده وانحاز إليه منهم من لاخلاق له فامتلأ ديوانه إذ ذاك من المنجمين وأرباب العيافة والعرافين حتى تقلد بنفسه الكهانة وصار رئيس هذا الدّين وكان يفتخر بهذا المنصب ويحن إليه جداً ثم مال عن النصرانية وبالغ فى عداوته لها وبغضه لأهلها ولكنه لم يبطل شيئاً من عوائدها وطقوسها وبذل الهمة فى إعلاء دَين الأصنام وتعميمه فلم يبلغ مقصوده ولم يتمكن من نيل مراده لأسباب كثيرة.

وسار لقتال فارس لشنهم الغارة على الأملاك الرومانية وجهز لذلك جيشاً عظيماً فرأى فى طريقه بمدينة قيصرية من أقليم قبادوقية هيكلاً للأصنام خربا ورأى من أهالى أنطاكية احتقاراً للديانة الوثنية فهاله هذا الأمر وأغضبه جداً وحقد على النصارى فأمر بهم فتتبعوهم بالأذى والقتل والسلب واشتدّوا عليهم شدّة بالغة ثم دخل أرض فارس وجال فيها وأوغل كل الإيغال فلاقته جيوش فارس وصدمته فانهزم ورجع القهقرى فتبعه ساور ذو الأكتاف فتشجع يوليانوس وأرجعه على أعقابه ببسالة وإقدام فشهدت له الأعداء وقد كان جرح جرحاً بليغاً وعلم بذلك سابور فأعاد الكرّة على جيوش يوليانوس واشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السيوف بالسيوف فقتل يوليانوس فى ساحة الحرب وانفشل جيشه وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين ومائتين قبل الهجرة. فكانت مدة حكمه واستبداده بالولاية العمومية سنتين لاغير.

وكان مدته فيها رحمة على من لم يكن تنصر من المصريين ممن بقى على دين آبائه فاستمر المصريون الذين لم يتنصروا على عبادة الأوثان بلا معارض ولا منازع وكان يوليانوس يحترم العجل أبيس الذى هو معبود المصريين احتراماً عظيماً للغاية

فإنه لما كـان على أهبة الركوب لقتـال سابور ملك فارس وبعث إليه أوقـديقس نائبه على مصر يخبـره بأن المصريين عثروا على شكل العجل أبيس مـعبودهم الذى مات وأنه تبين لهم أنه معبودهم بعينه فرح بذلك فرحاً شديداً واستبشر بالنصر على سابور إذ كان يحب العجل المذكور حباً كثيـراً، وقد دل على ذلك ما كتبه إلى نائبه المذكور فى شأن اثناسيوس بطرك الإسكندرية الذى كان نُفى منهـا وعاد إليها ما نصه: وحق العـجل أبيس إن لم يخـرج هذا البطرك من المديـنة عـاجـلاً لأضربن على عـسكرك مائـة رطل من الذهب غرامة وعقابا لهم أ. هـ.

وكان فى عهده قد رجع دين النصرانية القهقرى وبقى على هذا الحال إلى عصر طيودوسـيس قيصـر كما سـيأتى بيـانه فى موضعـه ولما مات يوليـانوس تولى بعده يويانوس.

(فى الملك يويانوس قيصر)

ثم قام بالأمر يويانوس بايعه أولاً الجنود الرومـانية كافة وذلك سنة تسع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وخمـسين ومائتين قبل الهجرة. وتحـرير الخبـر أنه لما مات يوليانوس فى ساحة الحرب حصل بموته فزع لجميع العساكر وكرب شديد للغاية وكانت العـساكـر المنصورة على جيـوش سابور ذى الأكـتاب يومئـذ فى منقطع من الأرض ليس عـندهم شىء من الميـرة ولا الزاد ولم يـبق من العـائلة الملـوكيـة القوسـطنقوسيـة فى هذا الحين وارث يتـولى الملك فاخـتاروا سلطوس والـى البلاد المشرقية للمنصب الملوكى فامتنع ولم يقبل فألحوا عليه فشدد فى الامتناع فوقع اختيار الجنود على يويانوس المذكـور وقد كـان يومئـذ رئيس الحرس الملوكى وبايعـوه على اتفاق تام وأخلصـوا له فى البيعة فلما اسـتقر به المنصب أسرع فى عـقد الصلح مع سابور ملك فارس ولكن علـى شروط مخلة بناموس الدولة وشرف الأمـة الرومانية ومحا جميع أوامر يوليانوس فى كل ما يتعلق بعبادة الأصنام وفيما يتعلق بإضرار دين النصرانيـة ونهى اليهـود عن أن يشهـروا شعائر دينهم وكـان ضعـيف العزم والرأى فقامت فى أيامه قبائل المغاربة فى بلاد برقـة ونهبوا مدن طرابلس الغرب فلم يتمكن من منع إغارة هذه القبـائل ولا ردهم عن البلاد ولا بدا من يويانوس الملك أيضاً فى هذا الأمر مـا تطمئن به قلوب أهالى تلـك الأنحاء فأبغـضوه ونقمـوا عليه واشـتدّ بالأهالى الغيظ منه إلى حـد عظيم جداً فلما كـان فى أحد الأيام دخل عليه خـدمه فوجدوه قتيلاً على فراشـه وخفى أمر قاتله ولم يوقف له على أثر وذلك سنة أربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة ست وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقيل: إن سبب قتله هو

عقده الصلح مع سابور كسرى فارس فكانت مدة حكمه سنة واحدة لاغير وتولى بعده ولنطنيانوس وأخوه (ولنسوس).

(فى الملك ولنطنيانوس الأول والملك ولنسوس أخيه)

ثم قام بالأمر ولنطنيانوس الأول وأخوه ولنسوس بويع الأول بالملك سنة أربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة ست وخمسين ومائتين قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما قتل يويانوس الملك على ما تقدم بيانه اجتمع أعيان الرومانيين فى مدينة نيقه وبايعوا ولنطنيانوس المذكور بالملك وهو من الأمراء وقد كان مولده ببلاد المجار وليس له من الصفات من يحمد فإنه كان فظاً غليظاً شديداً طويل القامة عجيب الخلقة فلما استقر به المنصب ورأى عدم قدرته على حمل أعباء الملك أشرك معه أخاه ولنسوس وخصه بملك البلاد المشرقية وأبقى لنفسه ملك البلاد المغربية وأتخذ مقر حكومته وتختها مدينة لوطيقه التى هى الأن مدينة باريس وبعث من هذه المدينة أمراء وقواد لحفظ حدود المملكة من غارات قبائل الفرنجة والإنجليز والمغاربة وكان ممن بعث بهم الأمير طيودوسيس فقاتل هذا الأمير قتال الأبطال واكتسب فى قتاله مع هؤلاء الأمم منزلة رفيعة واتفق أن صدرت فى هذا الحين من ديوان باريس الأوامر مشددة بأن كل من اتهم بخيانة وطنه وقاتل مع الأعداء يعاقب أشد عقاب فصار التشديد فى الحث عن ذلك وكثر التجسس وبثت العيون وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب ولنطنيانوس وعمت البلوى البرئ والمتهم وبالغ ولنطنيانوس فى عقاب كل من رمى بالخيانة بلا إثبات بما لا مزيد عليه من العقاب مما لم يخطر على بال بشر فمن ذلك أنه حبس دبين عظيمين مفترسين فى قفص وأجاعهما حتى إذا أراد قتل أحد من المتهمين أطلقهما عليه لافتراسه فيمزقانه تمزيقاً وكان ظلوماً غشوماً ميالاً لسفك الدماء شديداً على الرعية سريع الغضب حاد الخلق وقد غضب يوماً واشتدت به حدة الغضب فمات فى الحال وذلك فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وأربعين ومائتين قبل الهجرة.

وأما أخوه ولنسوس فقد كان على خلاف ذلك يحب رعيته ميالاً إلى خيرها وإيرادها موارد السعادة والرفاهية يسوسها بحسن السياسة حتى كان يقال أنه لم يتول الشرق قيصر خير منه وقد خفف عن رعاياه المكوس والعوائد والخراج وأنقصه قدر الربع شفقة منه فتعلقت به قلوب الرعية وأحبته حباً شديداً.

ولما كانت سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائتين قبل الهجرة ظهرت أمة جديدة لم تكن الرومانيون تعرفها قبل الآن وهى أمة تتارية تسمى أمة الهونية خرجت من آسية خروج الجراد المنتشر فنزلت على قبائل الغوطية بسواحل نهر طونة وطردتهم فهرب الغوطيون منها واجتازوا الطونة وأتوا إلى بلاد المشرق وزحفوا إلى أملاك الرومانيين وأراضيهم وطلبوا منهم أن يقطعوهم أرضاً ليعيشوا فيها لم يقبلوا فساء الغوطية ذلك فقام رئيسهم المدعو افريطيجرن وسار بهم إلى جهة أدرنه وأوقع بعسكر الرومانيين فسار ولنسوس الملك لقتاله ورده فأوقع افريطيجرن بولنسوس عند أسوار أدرنه وانتصر عليه نصرة عظيمة هلكت فيها العساكر الرومانية وجرح ولنسوس جراحا بليغة فنقله عساكره من ساحة القتال الى وكر وضعوه فيه فعلم بخبره الغوطية فقاتلوا حتى وصلوا الى ذلك الوكر وأضرموا فيه النار فهلك ولنسوس حرقاً وذلك سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائتين قبل الهجرة فكان مدة حكم الأخوين المذكورين نحو أربع عشرة سنة وعادت بموتهما الدولة الرومانية إلى شركة رباعية كما كانت من قبل.

(فى الملك غرثيانوس والملك ولنطنيانوس الثانى والملك طيودوسيس الاكبر والملك مقسيموس)

ثم قام بالأمر غرثيانوس بن ولنطنيانوس الأول، وولنطنيانوس الثانى، وطيودوسيس الأكبر ومقسيموس، وذلك سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائتين قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما مات ولنطنيانوس الأول سنة سبع وأربعين ومائتين قبل الهجرة خلفه ولده غرثيانوس المذكور على ملك الأقاليم المغربية وقد كان عمره يومئذ سبع عشرة سنة فكان أخوه المدعو ولنطنيانوس الثانى ينازعه الملك فتنازل له عن إيطاليا وبلاد السواحل الإيطالية المخصبة ولم يستقر بغرثيانوس المنصب بعد أبيه حتى سار لقتال الغوطية إذ كانت الحرب لاتزال قائمة معهم على ساقها فكانوا دائماً ظاهرين عليه لم يتنصر قط يوما فلما أحس بضعفه عن قتالهم اختار معه طيودوسيس ابن الأمير طيودوسيس ولقبه بأغسطس المشرق وقلده الجهات المشرقية سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين ومائتين قبل الهجرة. قال بعض الكتاب: فكان هذا الاختيار من حسنات الدهر على الرومانيين عموماً وعلى المسيحيين منهم خصوصاً إذ كان طيودوسيس هذا كأبيه طيودوسيس الأول هماماً مقداماً فى الخطوب على أن أباه كان من أمهر قواد الرومانيين وأشجعهم وله غزوات كثيرة فى بلاد إفريقية وحروب هائلة حيث أدخل

عصاة إفريقية فى الطاعة وقتل غيلة فى مدينة قرطاجة وكان ولده طيودوسيس هذا قد ولد فى بلاد الأندلس وتربى فيها وخدم تحت راية والده وحارب معه وحضر المشاهد العظيمـة فى الحروب والوقائع فلمـا مات والده عاد هو إلى مـوطنه بالأندلس حتى استقدمه غرثيانوس ليشركه معه فى الملك.

وكان طـيودوسيـس المشار إليـه على جانب عظيم من البسـالة والـشجاعـة فى الحروب واقتـحام الخطوب وكان يحب الدين المسيحى ويغـار عليه ويجله حتى لقب (بالأكبر) فلما استقر به المنصب سار لقتال الغوطية فهزمهم شر هزيمة فى وقت يسير جداً وأجلاهم عن المملكة وعكس آمالهم وأفسد ما كانوا يدبرونه فعادوا إلى المسايرة وانكفوا عن الغارات ورغبوا فى معاهدة الدولة الرومانية وعقدوا عقد المحبة والوصلة معها ليكونوا يداً واحدة مع الجماعة.

أما غرثيانوس فإنه سار أيضاً للقـتال بعسكره فى مدينة ليون من بلاد الفرنسيس فقتل فـيها وذلك سنة سبع وتسعـين وثلثمائة للميلاد أى سنة تـسع وثلاثين ومائتين قبل الهجـرة فقام طيودوسيس باعـباء الملك وكاد أن يستبـد بالملك هو وولنطنيانوس الثانى وكان القائد لـلعساكر الرومانية المرابطة فى بلاد الإنكليـز فى هذا الحين الأمير مقـسيمـوس فلما وصل إليه خـبر موت غـرثيانوس وأنه لم يبق سوى طيـودوسيس وولنطنيانوس تاقت نفسه إلى الملك فبايعه العساكر بدلاً من غرثيانوس ونادوا به ملكا فشارك طيودوسيس وولـنطنيانوس فى حكم البلاد وتدبير الدولة. قـــال بعض أهل التاريخ: وبقى على هذا الحال أكثر من خمسـين سنة ثم سار إليه طيودسيس بجيش جرار وقاتله فانهزم مقسيموس فتبعه طيودوسيس حتى قتله وكان ذلك فى سنة اثنتين وأربعمـائة للميلاد أى سنة أربع وثلاثـين ومائتين قـبل الهجرة فلم يبق من شـركاء طيـودوسيس إلاّ ولنطنيـانوس الثانى وحـده مالكاً لبـلاد المغرب الـرومانيـة ومازال ولنطنيانوس يدبر الملك ويتصرف فى الأمور ويغزو ويحارب ويصده الأعداء حتى قام عليه فى سنة أوربع وأربعـمائة للميلاد أى سنة اثنتـين وثلاثين ومائتين قبـل الهجرة رجل اسمـه اربوغست الإفـرنجى وقتله بخنجـره فتولى بعـده أوجينوس كـاتب سر الديوان القيـصرى على غـير رضا من طيـودوسيس فنوى طيـودوسيس الانتـقام من أوجينوس لتهافـته على المنصب فجمع جيوشه وسـار إليه وتلاقى به فى بلاد النمسا فقـاتله وانتصر عليـه نصرة عظيمـة وأخذه أسيـراً فتم له الانفراد بـالملك سنة ثمان وأربعمائة للمـيلاد أى سنة ثمان وعشريـن ومائتين قبل الهجـرة. قال أهل التاريخ: وهو آخر قيصر تملك على الدولة الرومانية شرقاً وغرباً.

وكان طيودوسيس المذكور محباً للعدل شديد التمسك بالدين النصرانى محبوباً عند أحباره وقد اتحد بالبابا سنت سيريقوس على إبطال عبادة الأوثان فى جميع الأقطار الرومانية ورغب إلى مجلس رومة أن يصدر مرسوماً فى هذا الشأن فأبى عليه ذلك فأبطل طيودوسيس المجلس وألغاه وخلع أربابه ورسم بهدم جميع معابد الأوثان وهياكلهم ونهى عن تقريب القربان لهم فى البيوت وعن أن تقام فيها شعائر دينية وأن تكون الديانة المسيحية الديانة الرسمية فى سائر الأقطار الرومانية ونهى عن التفرق فى الدين وسلوك مذهب الاعتزال ونصب جواسيس وعيوناً تنقل له الأخبار فمن وجدوه متصفا بالتشيع والهرطقة أخرجوه من رومة وصادروه فى أمواله وعقاره ونهى البابا أيضاً جميع القسوس أن يتزوجوا وجعل شعارهم الرهبنة على طريقة انطونيوس المصرى.

ورسم طيودوسيس فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة للميلاد أيضاً أى سنة أحدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة بمحو الديانة المصرية وأن لايباح فى بلاد مصر إلا التمسك بالدين النصرانى فأغلقت الهياكل والمعابد المصرية وانعدمت شعائر الجاهلية وامحت آثارها. قال بعض الكتاب: وكان للمصريين يومئذ أربعون ألف صنم للعبادة فحل محلها دين المسيح الآمر بالتوحيد ومع ذلك فقد بقى من العاكفين على دين الجاهلية كثير بصعيد مصر ولم يمح هذا الدين إلا بتوالى الأيام وكرور الأعوام وكان طيودوسيس عادلاً محباً للرعية حائزاً لجميع الصفات الفاضلة والخصال الكاملة فتقدمت فى أيامه الديار المصرية وحسن حالها إلى حد زالت معه الفتن واستتبت الراحة وعمت الطمأنينة واتسع نطاق العمار وعاد لها رونقها القديم وراجت تجارتها وعظمت ثروتها، ولم يتم على انفراد طيودوسيس بالملك سوى سنة واحدة حتى فاجأته المنية فمات حتف أنفه سنة تسع وأربعمائة للميلاد أى سنة سبع وعشرين ومائتين قبل الهجرة فكانت مدة حكم هؤلاء الملوك الأربعة نحو سبع وعشرين سنة.

وأعقب طيودوسيس ولدين أحدهما اسمه أرقاديوس والآخر اسمه (نوريوس) فأورثهما ملك الدنيا بأسرها أى بملك الدولة الرومانية شرقاً وغرباً ومن هذا العهد لم يتول على المملكة الرومانية ملك واحد ولم تصر فيها وحدة الحكومة بل صارت مملكتين مستقلتين إحدهما قيصرية المشرق وتختها القسطنطينية والثانية قيصرية المغرب وتختها رومة كما كانت وقد تم التقسيم على هذا الوجه فى السنة التى مات فيها طيودوسيس فكانت هاته السنة ختام حياة الدولة الرومانية الحقيقية. قال بعض أهل التاريخ: وقد قسمت الدولة التى كانت على رأس القرون الوسطى بعد صدور مرسوم طيودوسيس بإبطال الديانة الوثنية ومحو آثارها بالدولة الطيودوسيسية وأول قياصرتها

فى المغرب هو لوريوس بن طيودوسيس. **قلت**: ولا حاجة لنا بالكلام عليه فإنه ليس ممن ملك الديار المصرية ولا هى مما دخل فى حكمه من الممالك. أما أول ملوكها فى المشرق فهو الملك أرقاديوس بن طيودوسيس فصارت مصر فى قبضة قياصرة المشرق الذين عرفوا بقياصرة الروم وسميت دولتهم بالدولة الطيودوسيسية المشرقية وهى بالنسبة لمصر عبارة عن الدولة الخامسة والثلاثين وسيأتى الكلام عليها مفصلاً.

وفى نحو السنة السابعة من حكم هؤلاء الملوك الأربعة مات اثناسيوس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ستا وأربعين سنة وفى أيامه جرت مناظرات طويلة مع ارسيانوس الأسقف أفضت إلى ضربه وفراره جزاء تعصبه وقال إنه لم يقل إن المسيح خلق الأشياء وإنما قال به خلق كل شئ لأنه كلمة الله التى بها خلق السموات والأرض وإنما خلق الله تعالى جميع الأشياء بكلمته فالأشياء به كونت لا أنه كونها وأما الثلثمائة وثمانية عشر فقد تعدوا عليه.

وتنصر فى أيامه جماعة من اليهود وطعن بعضهم فى التوراة المتداولة بينهم وقال إنهم نقصوا منها وأن الصحيحة هى التى نشرها السبعون عالماً فأمر الملك بإحضارها والملك يومئذ قسطنطين وعاقبهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر فرسم بإحضارها فحملت إليه فإذا بينها وبين توراة اليهود نقص ألف سنة وثلثمائة وتسع وستين سنة زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكر فيها لأجل المسيح.

وغلبت فى أيامه مقالة أريوس على القسطنطينية والأنطاكية والإسكندرية وصار أهل الإسكندرية وأهل مصر أريوسيين ومنانيين واستولوا على ما بها من الكنائس ومال الملك لرأيهم والملك يومئذ قسطنطين الأول وحمل الناس عليه ثم رجعوا عنه وكتب ابرسيس أسقف بيت المقدس أنه ظهر من السماء على القبر الذى بكنيسة القيامة شبه صليب من نور يوم عيد القبر لعشرة أيام خلت من أيار فى الساعة الثالثة من النهار حتى غلب نور الشمس ورآه جميع أهل بيت المقدس عيانا فأقام فوق القبر عدة ساعات والناس تشاهده فآمن يومئذ من اليهود وغيرهم ألوف من الناس.

ولما ملك يوليانوس ابن عم قسطنطين اشتد اضطهاده للنصارى وقتل منهم خلقاً كثيراً جداً ومنعهم من النظر فى الكتب وأخذ أوانى الكنائس والديارات ونصب مائدة كبيرة عليها أطعمة مما ذبحه لأصنامه ونادى من أراد المال فليضع البخور على النار ويأكل من ذبائح الحنفاء ويأخذ ما يريد من المال فامتنع كثير من الروم وقالوا: نحن مسيحيون فقتل منهم خلائق ومحا الصليب من أعلامه وبنوده.

وفى أيامه أيضاً خرج القديس إياونوس الى برية الأردن وسكن فيها وبنى بها الديارات وهو أول من سكن برية الأردن من النصارى فلما ملك طيودوسيس وكان

نصرانياً عاد كل من كان قد فرّ من الأسقافة وكتب إلى اثناسيوس بطرك الإسكندرية أن يشرح له الأمانة الصحيحة فجمع جميع الأساقفة وكتب له أن يلزم أمانة الثلثمائة وثمانية عشر فثار لذلك أهل الإسكندرية على اثناسيوس ليقتلوه ففرّ فأقاموا بدله لوقيوس وهو أريوسى أى على مذهب أريوس فأقام خمسة أشهر ثم اجتمع جميع الأساقفة وقاموا على لوقيوس المذكور وحرموه ونفوه وأعادوا اثناسيوس فأقام إلى أن مات فخلفه بطرس الثانى وهو حادى عشريهم فوثب الأريوسيون عليه بعد سنتين ففر منهم فردّوا بطرس فى نحو العشرين من أمشير فأقام سنة.

وقدم أريوس أسقف أنطاكية إلى الإسكندرية بمرسوم من الملك فأخرج منها جماعة من الروم وحبس بطرس بطركها ونصب بدله أريوس المعروف بالسيمسياطى ففرّ بطرس البطرك من الحبس إلى رومة واستجار ببطركها ثم مات فكانت مدته خمس سنين قضاها فى كيد وشدة.

فأقيم بعده ثيموناوس وهو ثانى عشريهم وكان من الحوادث فى أيام ما سيذكر فى محله.

(وصل فيما كانت على مصر أيام الدولة الرومانية)

لما صارت ديار مصر فى قبضة الدولة الرومانية على ما تقدم بيانه بذل الرومانيون الجهد فى بقائها تابعة لهم ونظروا إلى أنجح الوسائل الممكنة من ذلك فلم يروا خيراً من أن لا يتعرضوا لأمورها الدينية وأن يتركوها على عوائدها القديمة وفنونها وصنائعها وطريقة كتابتها ولغتها وأن لا يعاملوها بما عاملتها به الفرس من الحظر والمنع والتضييق عليها فى أمورها وعلى ذلك بنوا قاعدة سياستهم فأصلحوا ما كان اندرس من معالم الديانات وهياكل العبادات وزادوا عددها ومحوا ما كان من مشروعات الدولة البطليموسية ولم يقتصروا على العمائر بمصر فقط بل جددوا عمائر أخرى مهمة فى ديار النوبة من بلاد السودان رجاء استمالة المصريين إليهم وبسط ألوية السلطان عليهم وعلى النوبة فتم لهم بذلك الأمر ورسخت قدم الدولة الرومانية بمصر رسوخ الأطواد وانبسطت يدها شرقاً وغرباً وقبضت على زمام الأمور داخلاً وخارجاً وتصرفت تصرف المالك المطلق.

وكان جنود مصر وأمراؤها هم القائمين بحراسة قلاعها وحصونها وثغورها وزمام المملكة بين أيدى جمهورها فلما أمنت الدولة الرومانية من أهل مصر غوائل العصيان بمسايرتهم على مذاهبهم وعقائدهم ولم يبق للمصريين من سبب لإثارة الفتن رسمت بجعل محافظى القلاع والثغور من عساكرها وأن لا يتولى حكم البلاد إلا نائب رومانى ينتخبه مجلس رومة وأن يكون النائب المذكور متصرفاً فى حكم

البلاد تصرف القيصر مرخصاً له فى الملكية والعسكرية ليكون شأنه بين المصريين شأن ملكهم القديم فكان كل من ارتكب من هؤلاء الولاة هفوة عاقبه مجلس رومة بالعزل فلأجل ذلك لم تطل مدة ولاية الولاة المذكورين وكان النصب والعزل فيهم سريعاً جداً لأقل سبب استرضاء للمصريين وكان من قواعد الدولة الرومانية المقررة عندها أن لا يتولى على مصر أحد من أعضاء مجلس رومة ولا من عائلات المجد الأولية خشية أن يستبد بملكها ويطمع فى الاستقلال بها فلذلك لم تكن البلاد فى أيام هذه الدولة ذات رونق سياسى ولم تكن متمتعة بالثمرات الوطنية ولا حائزة على شيء من الحرية بل كانت على حالة من الاسترقاق والاستعباد فلم تلبث أن اندرست مفاخرها القديمة ونسيت أنها كانت سيدة جميع المدن والبلاد. قال بعض الكتاب: ولم يبق لها من رمق الحياة الأهلية إلا بعض لمحات روحانية إذ كان لمدارس الإسكندرية فى هذه المدة شهرة لاسيما فى المذاهب الفلسفية وكان لها على رومة ومملكة اليونان سلطة القوة العلمية وسطوة الحكمة على حين كانت حالتها الداخلية فى اختلال واعتلال ملازمين وخراب لا مثيل له إذ كنت لا ترى فى هذا الحين مدينة طيوة والعرابة المدفونة ولا منف ولا عين شمس إلا آثاراً خربة وأطلالاً بالية ولم يبق من هاتيك العمائر العظيمة إلا الرسوم من جميع المدن حتى من مدينة الإسكندرية التى كانت تخت السلطنة وصار لا عناية لأهل البلاد إلا بالفلاحة والزراعة تخدم وتشقى لمدينة رومة فتميرها بالميرة وتعينها بالذخيرة كأنها مخازن للغلال ومستودع للأقوات، ولم تفز مصر فى أيام هذه الدولة قط بفائدة تذكر غير أنها فى آخر الأمر دانت بالديانة النصرانية وقاست بأسبابها من الشدائد ما لا يدخل تحت حصر كما سيتلى عليك فى محله.

وكان أول ملوك هذه الدولة أغسطس قيصر وآخرهم طيودوسيس وعددهم ست وستون قيصراً منهم من حكم على انفراد مستبداً بالملك ومنهم من كان له شريك ومنهم من كان له شركاء وكانت سنو ملكهم نحو أربعمائة وإحدى عشرة سنة تقريباً باعتبار أن مصر إيالة تابعة مثل بقية الإيالات المشرقية الداخلة فى حكم دولة الرومان. وإلى هذا الحين زالت الجاهلية وقامت بدلها المسيحية بصدور أمر الملك طيودوسيس قيصر بالتمذهب بهذا الدين وتعميمه فى جميع أنحاء مملكته فعم من ذلك اليوم وانتشر انتشاراً سريعاً للغاية واشتهر أهل مصر من هذا التاريخ باسم (قبطة مصر) فطائفة الأقباط من أهالى مصر الآن هم المتنصرون من ذرية الأمة المصرية القديمة وهم بقية ذلك الشعب الذى قدر واقتدر وفاز واشتهر واستمر الدين المسيحى متسلطناً بمصر مدة المائتين وتسع وخمسين سنة التى هى عبارة عن سنى ملك دولة الروم المسيحية المعروفة عند أصحاب التاريخ العائلة الخامسة والثلاثون.

(الباب السادس)
(فـى دولــة الــروم المسيحيــة التى قامت بالإسكندرية وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى العائلة الخامسة والثلاثين)

كان ابتـداء هذه الدولة التى هى دولة الروم المسيحيـة فى سنة خمس وتسـعين وثلثمائة للمـيلاد أى سنة إحدى وأربعين ومائتـين قبل الهجرة وكان انتهـاؤها بفتوح الإسلام لديار مصر سنة تسع وثـلاثين وستمائة للميلاد أى سنة ثمان عـشرة للهجرة فكانت مدة سلطنتها مائتى سنة وتسعا وخمسين سنة كما قاله جماعة المؤرخين وأول ملوكها الملك أرقاديوس بن الملك طيودوسيس قيصر مؤسسها.

(فى الملك أرقاديوس قيصر)

تولى أرقاديـوس قيصـر الملك بعهـد من أبيه طيـودوسيس سنة تسع وأربعـمائة للميلاد أى سنة سبع وعشرين ومائتين قبل الهجرة وقد اعتبره أهل التاريخ رأس هذه الدولة واعتبـره آخرون ثانى ملوكها بعـد أبيه طيودوسيس الذى شيـد أركانها ووطد دعائم بنيانها وكان أرقاديوس هذا ضعيف العقل خامل الفكر فكانت المملكة فى أيامه ضعيفة كأنما ارتسـمت فيها مرآة طبعه وقد فوض سياستـها وتدبير أمورها إلى أحبابه وأمراء عـسكره وقواده وكانوا من غـير الرومانيـين فوقعت بينهم لذلك الفـتنة وكان بعضهم عدواً للبعض الآخر فاختل النظام وعز الوئام ثم تسلم زمام الدولة بعد ذلك حلا وعـقداً رجلان أحـدهما اسمـه (روفين) ويلقب برئيس الدولة وثانيـهما اسـمه (أطرويس) صاحب ديوان الملك ولم يكن يعلو عليهما فـى نفوذ الكلمة إلا أروقسية زوجة أرقاديوس الملك وكـان لاروقسية هذه شـهرة كبيرة فى القـسوة وغلظة القلب وهى التى عذبت القديس خروصوصطومس الذى سيأتى الكلام عليه.

ولما عهد طيودوسيس لولده أرقاديوس المذكور بالملك كتب له وصية يقول فيها :

لو كنت يابنى من أبناء ملوك فارس وعهد إلـيك بملكها وآلت إليك دولتها لكان

عنوانك الكسروى كافيا فى حفظ سرير ملكك وصيانة تاج دولتك ولكن منبتك أرض الروم وحال أهلها يابنى معلوم فكن حازما فالحزم ينفع فاعله وإن كنت ممن يجهل الأمر فاسأل فإذا أردت أن تكون أهلا لأن تحكم الأمة وتسوسها فابدأ بنفسك واحكمها وأحسن سياستها قبل ذلك لتعلم كيف تغلبها فالعاقل من هذب نفسه وغلب عقله على هواه.

والناس يا بنى صنفان، سوقة وملوك، فالسوقة لا هم لهم إلا إسعاد أنفسهم وأما الملوك أمثالك فهمهم إسعاد الرعايا فإن سعادة الرعايا هى سعادة الملك فإذا تغلبت عليك يابنى الذنوب وجرّت بك إلى ارتكاب العيوب فأنت عبد هوى ولو تحليت بتاج القياصرة فاحترس من تغلب الشهوات النفسانية وخلها للرعاع من الرعية فإن الشهوات الدنيوية تعرض للأمراء والملوك وتكون فى كل حال نصب أعينهم فتغلبهم فإذا أردت أن تتخلق بأخلاق ملك الملوك وسلطان السلاطين فتخلق برحمته وحلمه واتبع دائماً طرق العدل والإحسان ولا تلتفت إلى فعل الخير لمجرّد المدح أو القدح من إنسان فإن العامة لايتحاشون من مدح الملوك أو القدح فيهم فكن باستكمال الفضائل ومكارم الأخلاق صورة للعدل والإحسان وتخلق بأخلاق الملك الخلاق لكى تكون ذا سلطان على قلوب الرعية تستغنى به عن الإرهاب بالسيف وشدّة البأس فقد جرت عادة الرومانيين أنهم لا ينقادون لذى كبرياء فخل أبهة الملك لملوك آسية والبلاد المشرقية وتحل بحلية عظماء القياصرة الرومانية وأوصيك إذا عاديت ملكاً من الملوك فأحكم قيادة جنودك وأحسن فى الأمرة والسلوك لتطاع منهم وينفذ أمرك فيهم واقتسم اقتحام الأخطار مع الجند فإنهم بك يقتدون ويستسهلون المهالك ولا يبالون باقتحامها.

ومما تتأكد به الوصية وتجب فيه النصيحة أن تواظب على قراءة تاريخ من سبقك من القياصرة لتعرف ما أصابهم من النصرة والهزيمة وتقف على أسباب العزة والهوان لتفقه من ذلك ما يجب فعله وتتفطن لما ينبغى عليك اجتنابه أ هـ.

فلم يعمل أرقاديوس بهذه الوصية لسخافة عقله فكان مبغوضاً عند سائر الرعية ممقوتاً مذموماً لايذكر اسمه إلا باللعنات والتقبيح، وقد سبق الكلام على أن الذى كان قابضاً على زمام الدولة هو الوزير روفين وأن الحل والعقد كان باستشارة الملكة أورقسية فكان الوزير المذكور يخشاها ويخاف منها جداً وكانت نفسه تحدثه دائماً بأن يسلب الملك من زوجها أرقاديوس فكان يمنعه من ذلك شدة بأسها وحرصها ولكنه مع ذلك أخذ يمهد لهذا الأمر الأسباب ويعمل سراً على إخراجه من حيز الخفاء إلى

عالم الظهور فصاغ النياشين باسمه ونقش عليها رسمه كأنه لابس التاج القيصرى وأعدها لوقت استقلاله بعد ظفره بخلع أرقاديوس والكفران بنعمته.

وكان لطيودوسيس والد أرقاديوس الملك قائد عسكر اسمه اسطيليقوس أقامه فى حياته كفيلاً على ولديه عندما قسم الملك بينهما شرقاً وغرباً فلما توليا الملك بعد أبيهما كان أسطيليقوس مشغولاً بقسمة الأموال والعساكر بينهما وكان يسمع بما يفعله روفين الوزير من الاستبداد والجور والعسف بالرعية ويحقد عليه كثيراً ويراقب الفرص للوقيعة به والانتقام منه.

واتفق فى هذا الحين أن طائفة الغوطية اجتازت نهر طونة لحرب أرقاديوس وقتاله وسارت قاصدة بلاد القسطنطينية واقتربت منها ولم يمنعها فى الطريق مانع فرأى الأمير أسطيليقوس هذه الفرصة موافقة لما فى نفسه من الانتقام من روفين الوزير فقام من إيطاليا فى جيش عظيم وسار إلى مدينة القسطنطينية للانتقام منه فدفع الغوطيين عن البلاد وأذاع أنه قادم لرد الغوطيين وما زال سائراً حتى وصل إلى مدينة سلانيك ثم انعطف بسرعة غريبة وهجم بحركة عجيبة على الغوطيين وحصرهم ومازال بهم حتى هزمهم شر هزيمة فلما تم له النصر أشاع الناس بأنه يريد القسطنطينية بجيوشه فأحس الوزير روفين بأنه إنما يريد الحضور لقتله واغتياله وعلم ما فى نيته فخاف وتقدم إلى أرقاديوس الملك فى أن يرسم إلى أسطيليقوس بسرعة إرسال الجنود إلى القسطنطينية وأن لا يحضر هو معهم فرسم له الملك بذلك فامتثل أسطيليقوس أمره وبعث بجميع العساكر الذين كانوا معه إلى القسطنطينية ولكنه كاشف كبارهم بما فى نفسه من نحو روفين الوزير وأسر إلى غيناس قائدهم أن يقتل الوزير المذكور فعاهدوه على ذلك وعلى كتمان الخبر حتى يتم له الأمر ويبطشوا به عاجلاً وكتموا ما عاهدوه عليه بحزم شديد ولم يوحوا به لأحد حتى دخلوا القسطنطينية فحضر الوزير إليهم فاظهروا له غاية الطاعة وقابلوه بغاية الحفاوة والولاء فاغتر بظاهرهم واعتمد عليهم واتخذهم عوناً على درك مقاصده من قتل زوجة الملك ومبايعته بالملك وكاشف كبارهم بذلك فوافقوه وأظهروا أنهم أعوانه على جميع ما يرغب وكتموا هذا الخبر أيضا عن أرقاديوس الملك لما علموه من خفته وطيشه فلما استقر بالعساكر المقام دخل قائدهم الأمير غليان على الوزير المذكور وتمثل بين يديه وطلب منه أن يرسم بعرض العساكر على الملك وأن يسير بهم أمامه ليرى فى نظامهم فسر الوزير من ذلك ودخل على الملك وكلمه فى عرض الجنود فقام الملك وحضر إلى الميدان ومعه الوزير وسلم كالعادة على جميع البيرقدارية ثم صار يمر بين

صفوف العساكر وينظر فى نظافة آلاتهم ونظام معداتهم والوزير ينظر لهم بعين التعاظم كأنهم صاروا أعوانه المقيدين بأمره فلما توغلوا إلى قلب الصفوف أحاطت بهم العساكر إحاطة السوار بالمعصم وبرز من بينهم فتى وانقض على الوزير فطعنه فى صدره فوقع صريعاً تحت أقدام الملك ، وشاع خبر قتله ففرح الناس فرحاً عظيماً وعلت الضوضاء فى ذلك الميدان ثم انعطف الأمير غيناس ومعه طائفة من الجند إلى أعوان الوزير فأوقع بهم وأعمل فيهم القتل والسلب وقامت الغوغاء على من بقى منهم ففتكوا بهم عن آخرهم وأخذوا جثة الوزير وطافوا بها سحباً على الأرض فى الأسواق والشوارع ورفعوا رأسه على سنان رمح وطافوا بها وقطعوا يده اليمنى ليمثلوا به وجعلوا كفه ممدودة مبسوطة كأنه يسأل الناس المغارم والمطالب كما كان يفعل قبل موته ، وهربت زوجته وابنه إلى دير بيت المقدس فراراً من القتل فضبطت أمواله وأحصيت مقتنياته فكانت شيئاً كثيراً وبعد قتله ولى الملك مكانه أطروبس الطواشى وكان قبل ذلك حاجب الدولة وكان أسطيليقوس زعيم الدولتين يرى أن له حق كفالة قيصر المشرق ويدعيها مستنداً على وصاية طيودوسيس والده ثم رأى بعد ذلك أن فى تمسكه بهذا العزم ما يوقع العداوة بين الأخوين ويثير نار الحرب بين الدولتين فترك أرقاديوس وشأنه مع وزرائه وزوجته ولم يتحرش قط للسياسة ولا للتدبير فكانت كل دولة من الدولتين ليس لها على الأخرى أمر ولا نهى فلم يكن لذلك بينهما جامعة قوية ولا رابطة تذكر، وكان آلاريق ملك الغوطية يترقب الفرص للانتقام من الدولة المغربية فلما رأى من ابتعاد أرقاديوس عن أخيه تحبب إلى أرقاديوس واصطلح معه وانتظم فى سلك جنوده وحسب نفسه من أتباعه فجعله أرقاديوس رئيس عموم عساكره الرومانية المرابطة بسواحل إيطاليا المشرقية وكانت يومئذ تابعة للقسطنطينية قال بعض أهل التاريخ: فأظهر الفرح بذلك وكمال المحبة لأرقاديوس وهو فى الحقيقة عدو للطرفين حاقد عليهما ماكر مخادع ومازال حتى تقوى أمره وتمكن من قلوب عساكره وقوى جأشه على القتال فسار إلى رومة فى جيش عظيم لقتال قيصرها وظهر عليه وهزمه شر هزيمة وكاد يأخذ ملكه فشق هذا الأمر على الأمير أسطيليقوس وخشى ضياع الملك من يد القيصر وسقوطه فى يدى آلاريق فقام ومعه بعض الجنود وركب على آلاريق ومن معه وصدمه صدمة قوية وهزمه فى واقعة شر هزيمة وأخذ زوجته أسيرة وفر آلاريق ونجا بنفسه وتفرق من كان معه من الجنود أيدى سبأ وزال البأس عن القيصر.

قال أهل التاريخ: وكانت أيام أرقاديوس كلها متاعب ومصاعب وفساد أخلاق وظلماً فى الرعية وكان العمال فى جميع جهات المملكة أرباب ظلم وخيانة منهمكين على اللذات والشهوات غافلين عن أمور البلاد وشئون الرعية وكان الأمر كله فى يد أطروبس الطواشى الوزير فكان هو رئيس المجالس والمحاكم وأمير الجيوش كافة وكان يكره الغوطية جداً ففرح الناس بتقلده منصب الوزارة ليأمنوا بتدبيره شر أعدائهم إذ كانوا لا يرون من أرقاديوس قدرة على ذلك ومع فرحهم به فقد تكدّر خيار الناس وأهل الاستقامة من طوائف الجنود والعساكر والرعية من تقليده هذا المنصب لما يعلمونه فيه من أخذه للرشاوى والبراطيل وضياع حقوق الأمة والوطن بل حقوق المملكة نفسها بان يبيع للأعداء من البلاد كل ما يقدر على بيعه وكان من خصاله الإصغاء لوشى الوشاة وأهل السعاية بالنميمة ميالاً إلى أخذ المغارم غنيمة لنفسه وكان كثير السعى خلف الايقاع بكل من امتاز من أمراء الجنود فى أيام طيودوسيس بالاستقامة وشرف النفس والتمسك بالأصول والفتك بهم خوفاً على نفسه منهم.

وكان يعلم ما فى صدور العامة وأهل البلاد من بغضه والحقد عليه ويخشى القدح فى عرضه كما هو مذهب الكثير من الحكام فاسدى الأخلاق فكان لذلك يجاوز فى غدره ويحترس من الملامة ونشر مرسوما يقول فيه إن كل من طعن فى ذات الملك أو فى أهل ديوانه فجزاؤه القتل وأن من سعى بالشفاعة فى مذنب فجزاؤه الفضيحة وأذاع هذا المنشور وشدد على الحكام فى العمل بموجبه فلما علم الناس بما فيه غضبوا كثيراً وقاموا قومة واحدة وأضرموا نار الفتنة فسرى لهيبها فى جميع العمالات والأقاليم الرومانية وانحاز رؤساء الأحزاب إلى زوجة الملك وطلبوا من القيصر أن يرسم بضرب عنق الوزير المذكور وأن لا تسكن نار الفتنة إلا بقتله فلم يقبل فانكبت زوجته على أقدامه وبكت وشكت أيضاً من أنه أى الوزير المذكور أساءها وخاض فى عرضها فحن الملك لها ورسم بقتله.

وما ظهر الأمر بقتله حتى أظهر له الشماتة كل من كان يتزلف إليه من أهل البلاد وأهل الديوان ولم يبق أحد إلا وكان يوسعه سباً وطعناً وضرباً وخرجوا به إلى الميدان ليقتلوه وعلت الضوضاء وتزاحم الناس وأتوا للتفرج عليه من كل صوب وحدب فبينما هم على هذا الحال والوزير بين أيديهم إذ برز القديس خروصوصطومس وانكب عليه وحال بينه وبين الجموع المتزاحمة على قتله ونادى قائلاً تنحوا عنه أيها الناس فإن الدنيا لاتدوم على حال وأن الطبيعة البشرية ليست معصومة من النقائص الدنيوية وسوء المقاصد إلى آخر ما قاله من المواعظ فى هذا

المعنى فانكف الناس عنه وبرز الأمر بعد ذلك بتغريبه وإبعاده إلى جزيرة قبرص ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حتى قام عليه واليها وأهدر دمه وأراح العباد منه.

فاستوزر الملك بعده الوزراء من الأجانب والأغراب وسلمهم قيادة المملكة كما كان يفعل مع غيرهم من قبل ثم أفضى الحال بعد ذلك إلى أن سلم زمام المملكة لزوجته فحكمت واستبدت وأمرت ونهت وتصرفت فى جميع الأمور وكانت تكره الأسقف خروصوصطومس وتعاديه فرسمت يوماً بنفيه وتغريبه فنفوه وكان معظماً محبوباً من الناس موقراً عندهم فقاموا لذلك جميعاً واجتمعت الأهالى أحزاباً وأشهروا السلاح وأحاطوا بقصر الملك وعلت الضوضاء فخافت الملكة من ذلك وخشيت عاقبة هذه الفتنة وتمثلت بين يدي الملك وأشهدت على نفسها أنها أخطأت فيما فعلت وندمت وأمرت بعودته عاجلاً إلى القسطنطينية فرجع فزين الأهالى لقدومه سواحل القسطنطينية شرقاً وغرباً فلما دخل المدينة ارتقى منبر الخطابة وخطب يعظ الناس بالصلح والسلم ، قال بعض الكتاب: ولكن أنساه تعاظمه الدنيوى ذل حرفته وأذهله عن حقوق خرقته ولم يعمل بما جاء فى الإنجيل حيث عرض بذم النساء كافة وذكر معايبهن وتطرف للخوض فى عرض الملكة وقذفها فقال إنها محبوبة لبعض اللئام وإن عشاقها عبدوها عبادة الأصنام قالوا ومع أن ذكر هذا لا يليق من مثل هذا الأسقف فقد أصغى الناس إليه بآذان واعية ولكنهم عادوا بعد ذلك فجمعوا مجمعاً آخر وحكموا عليه بالنفى وساعد على نفيه جماعة الأريوسية التابعون لمذهب أريوس إذ كانوا من حزب الملكة ومن أعوانها فاتفق بعد نفيه أن انتابت على البلاد المصائب وأتلف الجراد المزروعات وكثرت بها الزلازل فاعتقد الناس أنها إنما حلت بالبلاد بسبب نفى هذا الأسقف.

وقد ذكرنا فيما تقدم أن طيودوسيس الملك كان قد خفف فى أيامه عن مصر المحن وقطع أسباب الإحن وأعاد لها رونقها القديم بما منحها من المزايا وما جدده فيها من العمائر فلما تولى أرقاديوس منصب أبيه سار على سيرته وأمر بأن تغلق جميع هياكل الأصنام فى ديار مصر ومنع من التدين إلا بالدين المسيحى فاستدعى أهل البلاد أن يتولى عليهم ملك من قبل الرومانيين يسوسهم بما فيه المصلحة وحسم الفتن فبعث لهم الملك قانوناً شديداً وحث الأهالى على الطاعة تحت حكم عماله ونوابه وأباح لهم بعض إباحات دينية لابد منها ورخص لهم أن يتخذوا كهاناً لعبادة الشمس والبقر وأقام على المسيحيين منهم (ثوفيلس) بطركا بالاسكندرية قال بعض أصحاب التاريخ فكان ثوفيلس هذا كثير الحمية الدينية قليل الفضل والمعرفة فأظهر

العداوة لأصحاب الدين الوثنى وتعرض لرخصتهم فى دينهم وتحصل على مرسوم آخر من الملك بكسر الأصنام وهدم المعابد والهياكل فعادت الشدة على الوثنيين من المصريين وكان البطريرك ثوقيلس هو المأمور بذلك وكان تحت أمره متوليها وأميرها فبلغ ثوقيلس ما تمناه وبالغ فى هدم الهياكل وتخريب المعابد وتبعه فى ذلك كافة أساقفة مصر وقراها فحصل لدين الجاهلية بمصر مذلة وشدة وصار الفخر للبطريرك والأساقفة وفوّض لهم الحكم فى الرعية وقد كانوا قبل ذلك من أيام قسطنطين الأول مفوّضين فى التعليم والتربية وتهذيب الأخلاق وتحسين العوائد دون تنفيذ الأحكام وكان القضاة مأمورين أن ينفذوا ما تحكم به طائفة القسيسين فتم لهم النفوذ فى حكومة البلاد وكمل لهم التداخل فى المصالح كافة وصار الأمر منهم وإليهم ولم تبق فوق يدهم يد.

قال بعض الكتاب وباضمحلال الديانة الوثنية على التدريج صار يلمح بطرف خفى قرب زوال التمدن القديم وهو تمدن أزمان الجاهلية وقد عم ذلك جميع البلاد الرومانية وأخذت الأمة القديمة على التدريج فى استبدال دينها القديم وقد زادها ضرراً كثرة تداخل الأجانب فى أهلها لاسيما المتبربرون وتقلدهم المناصب الملكية والوظائف العسكرية فضلاً عمن احتل البلاد من الفرنجة والغوطية وانتشارهم فيها من نهر الرين إلى حد الفرات بالمشرق وشنهم الغارة على جميع إيالات المملكة من وقت إلى آخر وتتبعهم النهب والسلب فيها حتى عمها الخلل ولازمها الارتباك وسرى فيها عرق الفساد إلى حد أن تطاولت أيدى الرعية إلى معاقبة الملوك والقياصرة تخلصاً من تعديهم وظلمهم للأهالى ثم طردهم واستقدامهم للأغراب ليدخلوا بلادهم فإنهم اختاروا أن يكونوا مستعبدين للإفرنجة والغوطية ورضوا بذلك وآثروه على أن يكونوا أحراراً تحت أحكام ملوكهم الجائرين لاسيما وقد أثقلتهم الضرائب والمغارم بما لايطاق فضلاً عن تعرضهم لمذلة عبادة الأوثان وقتل من يتمسك بهذا الدين وقد كسر أحد العساكر يوماً صنم الشمس وكانوا يعتقدون أنه إله الدنيا بأسرها وأخرج منه جملة من الفيران مع ما رسب فيه من فضلاتها فلم يترتب على كسره يومئذ فتنة لضعف أهل هذا الدين وفشلهم وقد أسودّ هيكل رومة العظيم المحلى بالذهب الخالص وعلاه التراب وصار مهجوراً لا يدخله عابد ولا يواليه بالإشارة راكع ولا ساجد وكذلك بقية هياكل الأصنام وتأيد دين المسيح بقدر ما قاساه من الشدة والمذلة وصار الناس يدخلون فيه أفواجاً لاسيما فى أيام أرقاديوس على مافيها من العسف والجور.

ومات أرقاديوس الملك حتف أنفه في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة للميلاد أي سنة أربع عشرة ومائتين قبل الهجـرة وكانت مدته ثلاث عشرة سنة ويضاف إلى هذه المدة أيضاً مدة الأربع عشرة سنة التي هي من تاريخ مرسوم طيودوسيس الملك باتباع الملة النصرانية وهي المدة التـي حكمها طيودوسيس أبوه في القـسطنطينية وقد أوصى قبل موته أن يكون يزدجـرد بن بهرام المعروف بالأثيم كفيـلا على ولده طيودوسيس الثاني ولعله قصد بذلك تداخل أهل فارس في مصالح الروم والقسطنطينية تشفيا غير أن بعض المؤرخين أنكر هذه الوصية وقال أنـها لم تصدر منه واستدل على ذلك بأن كسرى فارس المذكـور لم يطالب بالكفالة ولم يتداخل في مصلحة الـبلاد مع ما كان عليه من الفـظاظة والغلظة ولؤم الأخلاق قال: ولو كـان لهذه الوصـية أثر لما تنازل عنها كسرى المذكور ولدافع عنها ببذل النفس والنفيس.

ومات في أيام أرقـاديوس (ثموثاوس) بطريرك الاسكندرية بعد أن أقـام خمس سنين أو سبعـاً وفي أيام ثموثاوس المذكور كان المجمع الثاني بـالقسطنطينية في سنة اثنتي عشرة ومائة لدقلطيانوس فـاجتمع فيه مائة وخمسون أسقفـاً وحرموا مقدونيون عـدوّ روح القدس وكل من قـال بقولـه وكان سـبب ذلك أنه قال أن روح القـدس مخلوق وحرموا مـعه أيضاً أناساً آخرين لعقائد أخرى شنيـعة تظاهروا بها في المسيح وكان رئيس هذا المجمع ثموثاوس بطريرك الاسكندرية.

وزاد الأساقفة يومئذ في الأمانة التي رتبها الثلثمائة وثمانية عشر، ونؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب، وحرموا أن يزاد فيها شيء بعد ذلك أو ينقص منها شيء وكان هذا المجمع بعد مجمع (نقية) بثمان وخمسين سنة وبعد مولد المسيح بمائة وثلاث وسبعين سنة.

وفي أيام ثموثاوس بنيت عدة كنائس بالاسـكندرية واستتيب جماعـة كثيرة من مقـالة أريوس وأطلق للأساقفـة والرهبان أكل اللحم يوم الفـصح ليخالفـوا الطائفة المنانيـة فإنهم كـانوا يحرمـون أكل اللحم مطلقـاً وردّ أرقاديوس كل من نفـاه الملك وأليس من الأساقـفة وأمر أن يلزم كل واحد منهـم دينه ما خلا المنانية ثم أقـيم بعد ثموثاوس ثاوفـيلوس وهو ثالث عشـريهم وأخو بطرس الثاني ويـعرف بابن الخطاب وكان في أيامه من الحوادث ما سيذكر بعد.

(في الملك طيودوسيس ـ قيصر الثاني)

ثم قام بالأمر ابنه طيودوسيس الثاني بعـهد من أبيه أرقاديوس وذلك سنة اثنتين

وعشرين وأربعـمائة للميلاد أى سنة أربع عـشرة ومائتين قبل الـهجرة بويع وله من العمر تسع سنين وقد كـان بحسب الشريعة الرومانية لعمه أرنوريـوس قيصر المغرب حق الكفالة عليـه فلم يرض أعيان مملكة القـسطنطينية بذلك ، وكـان من الأغنيـاء الملتزمـين أصحـاب الجاه والبأس بمدينة القـسطنطينية رجل اسـمه أنطيـمس وكان ذا معرفة وخبرة بالأمور واستقامـة وشهرة بالمعارف وكان قد تقلد نيابة المشرق ثم تخلى عنها فولاه وجوه القسطنطينية كفـالة طيودوسيس ولكن لم تطل مدته حيث مال إلى العزلة واختار الراحة والاشتغال بأموره الخصوصية وآثر ذلك على نيابة الدولة فتنازل لبولخارية أخت الملك عنها حيث رغبت فى ذلك فاستولت بولخارية على سرير الملك ولم يكن عمـرها إذ ذاك إلا ست عشرة سنة فقـامت بأعبائه خيـر قيام مع الشـهامة والحمـاسة ولازمت جادة العدل وسـاست الأمور ودبرتها فأحـسنت تدبيرها فلقبـها المجلس بلقب (أغسطسة) وحكمت بالنيابة عن أخـيها مع الوزراء نحو الأربعين سنة قال بعض المؤرخـين: فكأنها ورثت فـضائل جدها طيـودوسيس الأكـبر ونالت من مكارم أخلاقه الحظ الأوفر كما ورثت عنه الشجاعة والبسالة فبلغت فى حسن التدبير درجة البراعة.

وكان الناس يتوسمون فى طيودوسيس الملك سمة النجابة والخير للبلاد فلما بلغ رشده رأوا أن حاله كحـال أبيه فى عدم الثبات وضعف العقل وقلة الإدراك والتـمييز فكانت بولخارية تجهد نفسها فى تهذيب أخلاقه وإصلاح شأنه وتقويم أوده لعله يقوم بأمر الملك ويحـسن تدبير الدولة فلم تنجح وكانت ذات عدل تكـره الجور والعسف فأسكنت بعزمهـا جميع الفتن وأزالت كافة المحن فاطمأنت بهـا نفوس الرعية وانتظم حال الملك وانقطعت المنازعات واستقامت الأمور فـتعلقت بها قلوب الرعية وأحبوها حباً جماً ، ولم يشغلها عن الحوادث الخارجية إلا إغارة طائفة الهونية من قبائل التتار وزحفهم من بلاد المجـار على ممالك القسطنطينية تحت راية ملكهم آطيلا فصـالحتهم بولخارية بتقرير خـراج حتى تمكنت من ردهم وأبعادهم عن البلاد، وكان من همـها تقدم العلوم والفنون والصنائع وكانت تحسن اللغة اليـونانية واللاطينية فشغلت أخاها بتلقى العلوم والمعـارف والفنون لتكون الحاكـمة عليـه زمناً طويلاً وجلبت إليه كـبار العلماء ومـشاهير الحكماء ممن لهم شـهرة فى العلوم وكان أرقـاديوس مع قلة فطنته مهـيباً سالكاً سـبل الجد بعيداً عن المزاح حـافظاً لناموسه قـابلاً للتعليم وإن لم يكن مستجمعاً لصفات الرجال الراسخين فى صفات الكمال فكان ممدوحاً بالعفة والقناعة والرفق والرأفة والحلم غير أن هذه الصفات لم تكن فيه غريزية بل اكتسابية فكان فى

حياته كالطفل تحيط به الطواشية والخادمات من كل جانب وكان شغله فى كل يوم النقش والرسم والصيد وماشابه كل ذلك وقد لقب بالخطاط لحسن خطه ولطافته وكان فاتر الهمة فى قضاء المصالح العمومية ميالاً للكسل والدعة حتى كانوا إذا أحضروا إليه الأوراق ليوقع عليها أهمل قراءتها ووقع عليها بدون التفات ولا اكتراث فدست له أخته بولخارية يوماً خطاباً عن لسانه وأظهرت أن فيه مصلحة للبلاد مضمونة، أنى خلعت نفسى عن المملكة وخلعت بيعتى من أعناق أهل البلاد ، فوقع عليه ولم يقرأه ثم أطلعته عليه ومزقته أمامه ليقف على عيبه ويحاذر فى أموره ، وكان ابتداء ملكه يبشر بنصر الروم ونجاحهم فإنه غلب الهونية فى بلاد الروم ايلى وقهر ملكهم هولدين وضيق عليهم تضييقاً كثيراً وحصرهم وقد كان هولدين المذكور أقسم أن لايدع الفتوحات ولا يكف عن الغزو إلا إذا بلغت فتوحاته مغرب الشمس فحنثه القيصر فى يمينه إذ أوقفه وطرده من الروم إيلى فجاز نهرطونة وهرب راجعاً لبلاده وقد هلك جميع عسكره ومزق فى هذه الواقعة كل ممزق.

فلما رأت بولخارية أن أخاها قد نجح فى أموره واستحق الزواج بحثت له عن زوجة مشهورة بالفضل لا بالنسب وكان فى مدينة أثينا فيلسوف اسمه ديونقوس وله ابنة من أجمل بنات اليونان اسمها آطنايس ذات علم وفصاحة كأبيها وتمتاز فى الخطابة بقوة البرهان وكان لابيها من الذكور ولدان فتبرع لهما بجميع أمواله ولم يورثها شيئاً اكتفاء بجمالها ولكنها بعد موت أبيها المذكور وضيق ذات يدها طالبت أخويها بحقوقها وشكت للملكة بولخارية فلما رأتها تعجبت من لطفها وحسنها ووفور عقلها ووجدتها أهلاً لأن تكون زوجة لأخيها فلما بلغ الملك أمرها ولع برؤيتها فأتى متنكراً عند أخته فما وقع بصره عليها وسمع خطابها حتى أخذت بمجامع قلبه فعقد عليها وعمدها وسميت من هذا اليوم (أودقسيه) فلما علم أخواها بأنها صارت زوجة الملك خشيا صولتها فاختفيا فبحثت عنهما وأرسلت من كشف عن حالهما فوجدا وتمثلا بين يديها فلاقتهما بالبشاشة والطلاقة وقلدتهما المناصب العالية وكانت عاقلة واسعة الفكر مواظبة على ما تعودت عليه أيام فراغها من مطالعة ودراسة فنظمت ما فى التوراة وألفت تآليف جديدة مفيدة جداً وسارت إلى بيت المقدس فحجت وذهبت إلى انطاكية وخطبت بمجلسها خطبة بليغة أثرت مواعظها ونصائحها فى القلوب والنفوس حتى أعجب كبار الأساقفة بمقالها وأصحبت معها من بيت المقدس إلى القسطنطينية ما يتبرك به من آثار الصلحاء والقديسين.

وتاقت نفس أودقسيه بعيد ذلك أن يكون لها الأمر والنهى على زوجها وعلى

الدولة بتمامهـا وقد كان الحل والعقد وتدبير الأمور فى يد الملكة بولخـارية كما تقدم القول فلم ترض بالتنازل لادوقـسية وظلت ممسكة زمام الحكومة فـوقع بأسباب ذلك الفشل والخـلف بين الاثنتين وترتب على اختلافـهما اخـتلاف الأمـراء والأحزاب فانقسم الـديوان الملوكى إلى حزبين أحدهما مـتعصب لزوجة الملك والآخـر منتصر لأخته فغلب حزب الأخت على حزب الزوجـة وتم لها النصر وصار لها تمام النفوذ فاتهمت الملكة مع أخصائها المتعصبين معها من أهل الديوان بالعشق والميل عن العفة وأغرت الملك بنفـيهم وتغريبهم إلى أقـصى البلاد فنفوا وغضب على زوجـته وأساء الظن بها فـاستأذنت بأن تخرج من قـصر الملك وتعتكف فى بيت المقـدس فأذن لها فذهبت واعتكفت هناك فلم يتركها أخصامهـا وشأنها بل كانوا لها بالمرصاد فاتهموها أيضاً بالزنا مع اثنين من القسيسين فرسم الملك بقتلهما فقتلا فغضبت وسعت فى قتل قاتلهما حيث كانت بريئة من هذه التهمة فقويت التهمة بذلك وبلغت مبلغ التحقيق، ومكثت ست عشرة سنة معتكفـة منزوية فى زوايا الإهمال وهى تشكو مما دهمها من الظلم والجور بلا ذنب ولا خطيئة.

وقامت عـلى طيودوسـيس فى هذا الحين قـائمة الحرب مـن كل الجهات مـنها الحرب مع بهرام جور بن يزدجرد الأثيم والحرب من آطيلا ملك قبائل الهونية. قال بعض أهل التاريخ: وقد كـان من أمر بهرام جور المذكور أن أباه سلمـه إلى النعمان ابن امرئ القـيس أحد ملوك اليمن من العـرب وهو صاحب الخورنق ليربيـه ويعلمه الفروسية فلما مات أبوه وكان هو غائباً تولى الملك كسرى خسرويه من ولد أرزدشير فلما بلغ ذلك بهرام جور انتـصر بالنعمان ووقع بين بهرام وخصمه مـراسلات كثيرة ثم اصطلحوا عـلى أن يجعل تاج الملك بين أسـدين شبلين فمن تناولـه منهما فـهو الملك فوثب بهرام على الشبلين فقتلهمـا ولبس التاج واستقر على سرير الملك وكان عاقلاً شديد البطش على أعدائه وكان يتقن نظم الشعر بالعربية.

وكانت مدينة القسطنطينية فى تهديد دائم من قبائل الهونية فكانوا لا ينكفون عن الإغارة على بلادها وتكدير صـفو راحتهـا وقيامهم على قـدم الإرهاب وكان رئيس هذه القـبائل يومـئذ أميـراً اسمــه روجلاس وكـان مقره بـبلاد الألمان وكان يـبغض طيودوسيس ويتـوعده بالإغارة وتخريب ممالكه فـخافه طيودوسيـس جداً وبعث إليه سفـراء يسترضـونه ويصدونه عن شن الغـارة فلما وصل السـفراء وجدوه قـد مات وورث الرياسة بعده اثنان من بنى عـمه هما آطيلا وايليد فلبثت السـفارة أياماً تطلب الأذن بمقابلتهما فقابلاهم وهما على ظهـور الخيل كعادة ملوك هذه القبائل فلما تمثل

السفراء بين أيديهما اشترطا عليهم زيادة الجزية المقررة التى كانت تدفعها القسطنطينية من قبل للهونية وأن يتنازل لهما القيصر عن أحد المينات الواقعة على نهر طونة لتكون خالصة حرة لا سيادة للرومانيين عليها وأن لا تعقد دولة القسطنطينية أى معاهدة مع أحد من أعداء الهونية فرضى القيصر بهذه الشروط مع ما هى عليه من المذلة والحيف بناموس الدولة قالوا فكانت هذه أول مرة رأى فيها الرومانيون آطيلا المذكور وقد كان بلغهم قبل الاجتماع به أنه فظ غليظ جبار عنيد مولع بالحروب يحسن سياسة الجنود ورياستهم فلما تأملوه وجدوه على صورة أهالى القلموق الذين يقال لهم الكيماكية عريض الرأس أصفر اللون أفطس الأنف قصير القامة مربع القدّ يكاد الشرر يقدح من عينيه ولم يمض على آطيلا وأخيه فى تدبير أمور قبائل الهونية إلا زمن يسير حتى قام آطيلا على أخيه وقتله واستبدّ بالحكم فانقادت له جميع قبائل الهونية وغيرها من القبائل التترية ثم تغلب بعد ذلك على سائر القبائل الچرمانية المعروفين بالألمان واستولى على كافة الأمم الشمالية كالاسوج والتروج والدينمارقة وتهيبت منه أمم الغلية والرغونية القاطنون فى بلاد الفرنسيس وزحف على هذه البلاد بجيش جرار وتوغل فيها حتى وصل إلى مدينة أورليان فاتحد أبطيوس قائد عساكر رومة ومرويه ملك الفرنسيس وطيودويراق ملك الغوطية معاً وحملوا عليه حملة رجل واحد فقهروه وأخرجوه عنوة وأوقعوا به بقرب شالون من بلاد شامبانيا مات فيها ربع جنوده ورجع القهقرى إلى بلاد إيطاليا ومع ذلك فقد انبسطت يده على جميع الأمم المتبربرة حتى تملك جهة نهرى الأتل وطونة وبحر الشمال ونهر الرين وجبال إلبه بإيطاليا وزادت هيبته فى جميع الممالك وكانوا يعتقدون أنه صاحب خروج وأن له معرفة بالسحر والشعبذة وأنه متى قصد مملكة لا يصدّه عن التغلب عليها أحد، قال أصحاب التاريخ: وكان إذا قدم مملكة من الممالك شرقاً أو غرباً سجدت ملوكها بين يديه حتى تصل تيجانهم إلى الأرض وكانوا يفتخرون بحضورهم فى مجلس مشورته ويحسبون أنفسهم من وزرائه وأمرائه فكان الرؤساء والأمراء من جميع القبائل يحدقون بقصره ويتباهون بالمحافظة على ذاته الملوكية وكانت قبائلهم وطوائفهم منظومة فى سلك جنوده داخلة تحت أعلامه وبنوده وكانت عساكره نحو ثلثمائة ألف مقاتل وغزا فارس وأغار على بلادهم فامتدّت غزواته فى المشرق حتى وصلت إلى الشام ولكنها كانت مجرد إغارات لا فتوحات وكان قد وقع بينه وبين طيودوسيس الملك عقد مصالحة على قاعدة تقررت بينهما كما تقدم فعاد وادّعى أن العهد انتفى بعدم وفاء القسطنطينية بشروطه وزعم الهونية أن الروم سرقوا

منهم فى إحدى موانى طونة الحرة خزينة أحد امرائهم وطالبوا القيصر بهذا القدر من المال وأن يسلم لهم أحـد أساقفـة النصارى ليصنعـوا فيه كـيف شاؤا فـامتنع ديوان القسطنطينية من الاجابة إلى شيء من ذلك فـأشهروا الحرب وأغاروا على بلاد الروم ودخلوا المدن القـريبة من القـسطنطينية وسلبـوا فى طريقهم ونهـبوا وقـتلوا وأسروا وهدموا القلاع والقصور وسبـوا النساء والأولاد ودمروا المدن التى بين البحر الأسود وخليج البنادقة فكـانت جميع هذه النكبـات لا تبعث همة طيـودوسيس الملك على التحرك من ديوانه والخـروج مع عساكره للذب والدفاع لخوفـه وجبنه بل اناط أمراءه وقواده بذلك فكانوا إذ ذاك لا يستطـيعون جمع العساكـر ولا يحسنون تنظيم الجنود ولا ترتيب الصفوف للقتال فكانت هزيمتهم متتابعة وقد انهزموا فى واقعة بقرب نهر طونة وفى أخرى بسفح جـبال البلقان وفى أخرى بسـواحل روم ايلى وكانت هزيمة عظيمة جداً دمرت عساكرهم تدميراً فلم تبق منهم بقية.

وعاث آطيلا فى أرض مقدونيا وأهلك الحرث والنسل وأحرق نحو سبعين مدينة وجال فى أرض روم ايلى حتى وصل إلى رساتيق القسطنطينية وضواحيها فلم يمنعه عن دخول المديـنة إلا أسوارها لأنه كان لايحـسن الحرب إلا فى السـهول والفـضاء وكان يجهل مـحاصرة المدن والقلاع وكانت محاربـته تعدّ من العجائب عادة يعـقبها خراب البلاد وهلاك العباد ولذلك تهيبت منه جميع أمم أوروبا وآسية وكان إذا انتصر على قبيلة أو أمة أخرى أباح لقومه أسر أهلها وأدخل فى عسكره كل من كان يصلح للخدمة العـسكرية وضرب الرق على الشيوخ والنساء إذا لم يقتلوهـم بلا شفقة ولا رحمة وكان الهونية إذا كـثرت عندهم الأسرى وزاحموهم على الزاد والراحلة ذبحوا القدر الزائد ومع ذلك كله فقد اتحد بعسكر الهونية كثير من الرومانيين وامتزجوا بهم امتزاج الراح بالماء.

وبعد توالى انهزام أصحاب طيودوسيس الملك بات ولم يبق عنده من العساكر ما يدفع به عـدوه وكان أضعف مـن أن يحيى قلوب رعـيته وينـعش نفوسهـم ويقوى عزمهم ويحرضهم على قتال الأعداء ويجعلهم جميعاً عسكراً يحامى عن الوطن فلما لم يستطع أن يفعل ذلك اعتكف فى قصـره كالراهب ولم يخرج منه إلا للكنيسة ثم عقد بعد ذلك مع آطيلا صلحاً يشين بشرفه وشرف دولته وترك لدولة الهونية الأرض التى فى جنوب نهـر الطونة من مـدينة بلغـراد إلى داخل ترخـالة من بلاد روم ايلى وتعـهد بأن يدفع في كل سنة ألفـين ومـائتى رطل من الذهب وستـة آلاف معـجلة وذلك غير نـفقات الحرب وكان قـد ذهب ما فى أيدى الأهالى واشتدت بهـم الفاقة

لاسيما مـن فعال جباة الأموال والعوائـد والمكوس فلذلك تأخر دفع هذه المغارم عن مواعيدها وتعذر على طيودوسيس دفعها.

وكان ما بقى من العساكر الرومانيـة أيضاً قد داخله الجبن ولازمه الفتور وارتبك الحال على أهل الديوان فانعكست أحوال الدولة وفـشلت أمورها وذهب رونقها ولم تقم لهم من هذا الحين قـائمة إلا أن أهالى مدينة (اسومـدوس) من أعمال روم ايلى دبت فيهم النخـوة الجاهلية وتمسكوا بعروة الاتحاد الوثـقى ولم يرضوا بالدخول تحت شروط هذا الصلح وأبوا أن يسلمـوا للهونية إلا بحـرب ثم خرجوا ووقف جمـعهم خارج الأسوار وطلبوا النزال فـاجتمع عليهم كثير من العساكـر الرومانية الفارّين من ساحة الحرب ومن الأسرى الهـاربين فعظم جمعهم وضخم جيشـهم والتقى بالهونية وأوقع بهم فى واقعة هائلة ولا هول القـيامة فهزمهم شـر هزيمة وطردهم عن البلاد فشكا آطيلا ملك الهـونية للقيصر من خـروج أهالى هذه المدينة وطلب منه إكراههم على الانقياد وتسليم المدينة على أصول ما هو فى العقـد فأمرهم القيصر بالوفاء فلم ينقادوا وأظهروا الجفـاء وعصوه وأجابوا أن الصلح المبنى على الذل والعار والتـحقير والصغار لا يعدّ من القـوانين الواجبة الامتثال فتركوهم ولم يتـعرضوا لهم بعد ذلك بمكروه.

وكان من شروط هذا الصلح أن طيودوسيس التزم لآطيلا ملك الهونية أن يسلم له كل من فر عنده من الألمان والغـوطية والطوائف التترية وكل من هرب من جـيشه ودخل فى خدمـة جيش طيودوسـيس فلم يستطع الروم أن ينجـزوا هذا الشرط لأنه يترتب عليه هلاك كـثير من ضباط الهونية الكبـار الذين أبلوا بلاء حسناً فى حروب الروم وساعـدوهم على النصرة على الهـونية وامـتازوا فى ميـادين الحرب بالبـسالة والإقدام فألح آطيلا يطلبهم قـياماً بالعهد فأرسل إليه طيودوسيس سـفراء يستعطفونه ويستـميلونه إلى الأغـضاء ودس لبـعض وزراء آطيلا ورشـاهم بالمال ليقتـلوا آطيلا المذكور فلمـا وصل السفراء إلى آطيـلا قابلهم بغاية الإزدراء والتـحقيـر وأذلهم غاية الإذلال ووضع مقـامهم كمـا كانت الروم تفعل بسـفراء الملوك الأجنبيـة أيام عزهم وأبقاهم أيامـاً خارجاً عن مقر الحكومـة قبل أن يمتثلوا بين يديـه حتى أدركوا دلائل الإهانة وداعى هذا التذليل وبعد عدة أيام دعاهم فساروا إليه يشقون صفوف العساكر حتى وصلوا ديوانه فـوجدوه لابسا مـلابس الآحاد من التتـر ولم يكن سريره الملكى إلاكرسيا بسـيطاً فسجدوا أمامه وخـضعوا له وقبلوا الأرض وعرضوا عليـه رسالتهم وخاطبوه بألفاظ العظمة والكبرياء على العادة الرومـية القديمة فلم يجبهم إلا بألفاظ

الوعيد والتهديد وقال لهم وهو مغضب أتظنون إذا أردت النكاية هل أبقى لكم مدينة من مدنكم على وجه البسيطة فإذا أردتم لمدنكم التدمير ولسلطانكم السقوط فافعلوا ما تريدون فألانوا له القول وتلطفوا معه فى الخطاب فانطبع ورق فتعشموا الخير ودعاهم إلى مائدته فاستبشروا بذلك قيل ومن صدف الاتفاق أنه كان بديوانه أيضاً يومئذ سفراء من رومة فأجلس سفراء الدولتين فى المجلس بعد أمراء الهونية تحقيراً لهم وتصغيراً وكان الندماء مدة تناول الطعام يطوفون بالشراب على عادة ملوك البلاد الشمالية وكان أصناف اللاعبين وأرباب الهزل والمزاح يكثرون من ألعابهم وحضر أيضاً أسرى البلاد المغربية أمام أهل المائدة للمصارعة وعساكر التتار تعمل شكل محاربة والأغانى تتغنى بحروب طوائف الهونية وانتصار ملكهم آطيلا وتغلبه على سائر البلاد وكانت نساء الهونية جالسات على المائدة أيضاً مع الرجال يتكلمن مع أهل المشرق بدون استحياء ولا احتفال واختلطن معهم ولا اختلاط الرجال مع الرجال.

ثم أجاز لسفراء طيودوسيس بالانصراف وبعث من قبله سفراء إلى القسطنطينية كلهم مميزون بعلو المناصب والمراتب وعليهم رئيس اسمه أيديقون وكان فى هذا الحين قد انكسرت شوكة الملكة بولخارية أخت طيودوسيس وضعف نفوذها فى الديوان وصار الأمر والنهى بيد خروساف الخصى وكان الملك فى قبضة يده فاتحد خروساف المذكور مع بعض رجال الديوان والمقدم وبجلوس على أن يرشوا أيديقون رئيس السفارة المذكورة بالمال كى يثير فتنة على آطيلا الملك ويقتله ويخلص الروم من شره وأخبر طيودوسيس بما اتفقوا عليه فوافقهم رغما عما جبلت عليه طباعة من المسالمة وبغض الباطل وأهله فعلم آطيلا الملك بمكرهم ولكنه كان أكرم نفساً حيث وقعوا فى يده وعفا عنهم وأعادهم إلى القسطنطينية وصفح عن طيودوسيس ليريه أنه أشرف نفساً وأعلى همة وذلك أنه لما انكشف سر الطواشى وقومه واتضح أمرهم بعث طيودوسيس المقدم ديجلون إلى آطيلا ومعه ثلثمائة رطل ذهب فدية المتعصبين على قتل الملك ولما كان ديجلون المذكور ممن اتفق مع الطواشى على هذه الفعلة قبض عليه آطيلا وسأله فى شأن ذلك وقرره فاعترف فعفا عنه وبعث سفارة أخرى إلى القسطنطينية كان فيها الأمير إسلار وآخر اسمه أغسطة فلما تمثلا بين يدى طيودوسيس تكلم إسلار يقول إنى مأمور من طرف ملك الهونية أن أقول لكم أن القيصر طيودوسيس والملك آطيلا كلاهما من سلالة ماجدة ذات نسب رفيع وحسب منيع غير أن آطيلا قد أظهر مقام أجداده فى حروبه وغزواته وأبان مجدهم فى صولاته وغاراته وأثبت فخره بدليل العمل أما طيودوسيس فإنه لطيشه وعدم تبصره

فى عـواقب الأمور قـد أبان أنه ليس أهلا لحيازة شـرفه ونـيله وإنه لم يخلف آباءه الكرام بل بخس بنفســه وأخل بنامـوسه ونامـوس أهل مملكتـه حـيث رضى بالذل والهوان وأن يدفع لملك الهـونية جزية توجب الصغـار فكأنه بدفعها قـد أشهد على نفســه أنه عبد رق لملك الهـونية الذى رفع الدهر مقـداره وأيد مجده وفـخاره فكان يجب على القيصر حـينئذ أن يسلك أمام أعين سيدنا مسـالك آحاد الناس من الرعية ويتمسك بالصداقة وحق العبودية ويظهر لسـيده (آطيلا) كمال الطاعة والاحترام ولا يليق به الكفران بنعمـة وليه ويعمل على قتله فإنـه سار بهذا الفعل الذميم سيـر عبد السوء اللئيم.

وكان طيودوسيس عنـد سماعه هذا الكلام جالساً على سـرير جده طيودوسيس الأكـبر المصـوغ من الذهب صـامتـاً ولم يكن قبل ذلـك قد طرق أذنيـه غيـر المدح والإطراء من قومـه فلما أسمـعه إسلار كـبير السـفارة هذا الكلام ثبت نفســه وقوّى جاشه وأفرغ أذنه للســماع مع ما كان فيه من الخجل ومـزيد الوجل ولم يظهر سآمة ولا ملالة ثم رسم بتـسليم وزيره خروساف الطواشى لأرباب السفـارة وانتخب عدة من أمـراء ديوانه منهم ليـونيـوس خـازندار المملكة وأنطنيـوس رئيس جند الحـرس القيصرى وأرسلهم سفارة من عنده إلى الملك آطيلا لتسكين غضبه واستجلاب رضاه قيل وكان لم يزل فى الدولة المشرقية رمق الفخـار وبقية من المجد القديم فكان لبعثة هذه السفـارة وقع حسن عند ملك الهونيـة إذ رأى فى ذلك غاية التعظيم له فـسعى إليهم وسامـح القيصر وعفـا عنه وعن الطواشى والمقدم وجميع مـن اشترك فى هذه الفعلة وأحسن على طيـودوسيس برد عدة مدن مما كان قد أخذه مـنه وفك كثيرا من الأسرى الرومـانيين عـدا ما كـان قد طلبـه من الهاربين من عـساكره إلى العـسكر القيصرى وجـدد عقد الصلح ولكنه طلب كثيـراً من المال فدية عن قتل الطواشى لا تقـدر الدولة على دفعـه يومئـذ ، واتفق بعـد عقـد شروط هذا الصلح أن خـرج طيودوسـيس على جواد للنزهة فكبـا به الجواد فسـقط على الأرض فانكسرت فـقار ظهره وفارق الدنيا وذلك سنة أربع وستين وأربعمـائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائة قبل الهجـرة وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مـدة حكمه نحو ست وأربعـين سنة قال بعض الكتـاب وفى السنة الخـامسـة عشـرة من ملكه كان ايقـاظ أصحاب الكهف من رقدتهم واختلف فى حكايتهم المفسرون وأرباب السير والأخبار وتلخـــيص ذلك ، أن بعض القيـاصرة الرومانيـين شدّد وطأة الجـور على رعاياه واضطرهم إلى عبادة الأوثان والذبح للطواغيت وكـان فى الروم كثير من الناس على

دين المسيح ومن أولئك القياصرة دوقيوس الملك وهو المسمى أيضاً دقليانوس زاد فى العتوّ والشدّة على النصارى وأمر بعبادة الأوثان وقتل كل من خالفه وكان ينزل بلاد الروم ليكره الناس على ذلك فنزل على مدينة أفسس التى هى الآن أياصولوق أو مدينة منبج ببلاد أناطلى بقصد إكراه أهلها على ذلك فكبر هذا الأمر على أهل الإيمان فهربوا منه فى كل جهة فجعل الوثنيون من أهل المدينة يبحثون عن المختفين ليدلوا عليهم دقليانوس فيخيرهم بين القتل والذبح للطواغيت فمن اختار عبادة الله قتله ومن أطاعه فى ذلك تركه.

فلما رأى ذلك الفتية الثمانية وكانوا من أبناء أشراف الروم وعظماؤهم حزنوا حزناً شديداً واشتغلوا بالعبادة والتضرع إلى الله تعالى فبينما هم يصلون فى مكان لهم إذ دخل عليهم أعوان الملك فوجدوهم سجداً يتضرعون فرفعوا أمرهم إلى دقليانوس فأمر باحضارهم فحضروا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً فقال لهم ما بالكم لا تقتدون بغيركم من حيث الذبح للآلهة فإما أن تذبحوا لآلهتنا كما يذبح الناس وإما أن أقتلكم فقال له كبيرهم مكسليمنا أما الطواغيت فلا نعبدها فاصنع ما بدالك وقال بقية الفتية مثل ذلك فجردهم من ملابسهم ومن حلى الذهب والفضة وقال: إنى أراكم شبابا فلا أحب أن أهلككم قبل أن أجعل لكم أجلاً تراجعون فيه عقولكم.

وانطلق دقليانوس بعد ذلك إلى مدينة أخرى قريبة لبعض أمور فلما علم الفتية بخروجه وأنه إن رجع يذكرهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه يتصدق منها ثم يتزود بالباقى ثم ينطلقون إلى كهف قريب بالمدينة يقال له منخلوس يعتكفون فيه لعبادة الله حتى إذا جاء دقليانوس الملك أتوه ليصنع بهم ما شاء ففعلوا ذلك وانطلقوا بنفقتهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا العبادة وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم اسمه تمليخا كان من أجملهم وأجلدهم فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً ويذهب متنكراً ويتجسس لهم الخبر فلبثوا على ذلك مدة.

وقدم دقليانوس الملك المدينة فأمر بالمسيحيين فذبحوا للطواغيت وكان تمليخا يومئذ فى المدينة فرجع مسرعاً إلى أصحابه وهو يبكى وأخبرهم بالخبر فحصل لهم الفزع من ذلك ووقعوا سجداً يتضرعون ويتعوذون بالله من الفتنة وكان تمليخا قد جاءهم بيسير من الطعام فقال لهم ارفعوا رؤسكم وكلوا وتوكلوا على الله تعالى ففعلوا وكان ذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون فبينما هم على هذه الحال

إذ ضـرب الله على آذانهم فى الكهف وكلـبهم باسـط ذراعيـه بالوصـيـد وهو باب الكهف فأصابه ما أصابهم.

فلما كـان من الغد تفـقدهم دقليـانوس والتمـسهم فلم يجـدهم فقـال لبعض أصحابه قـد ساءنى هؤلاء الفتيـة الذين ذهبوا ولو جاءوا فى الأجل المسـمى وعبدوا إلهى ما كنت لأجهل على أحد منهم ثم أرسل إلى آبائهم وتوعـدهم بالقتل فأخبروه بأنهم انطلقوا إلى الكهف فـخلى سبيلهم فألقى الله تعالى فى نفس هذا القـيصر أن يأمر بسد الكهف عليهم ليموتوا جوعاً وأراد الله أن يجعلهم آية لمن بعدهم وأن يبين للناس أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور، وكان فى بيت الملك دقليانوس رجلان مؤمنان اسم أحدهما مندروس والثانى دوماس فأتمرا أن يكتبا أسماء الفتـية وأنسابهـم وخبرهم فى لوح من رصـاص ويجعلاه فى تـابوت من نحاس ثم يجعلا التابوت فى البنيـان قالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قومـا مؤمنين فيعلم من يفتح عليهم خبرهم.

وبقى دقليانوس ما بقى ثم مات هو وقومه ومـضت علة أجيال وخلفه عدة من القياصـرة إلى أن ملك على أهل تلك المدينة ملك صالح اسـمه طيودوسيس قـيصر الثانى وكان مـتمسكاً بدين المسيح فـفى أيامه ألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلك الجبل الذى فيـه الكهف أن يبنى فيه حظيـرة لغنمه فاستـأجر عاملين فجـعلا ينزعان الأحجـار التى على باب الكهف ويبنـيان بهـا تلك الحظيرة حـتى فرغ مـا على فم الكهف من السدّ وفتح عليهم باب الكهف أذن الله أن يستيقظوا من رقدتهم ويجلسوا فى الكهف فجلسوا فرحين مستبشرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنهم استيقظوا من ساعتهم التى يستيقظون فيها على عادتهم إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون فيهـا ثم صلوا صلاتهم على عادتهم ولم يروا على وجوههم ولا ألوانهم شيئاً يكرهونه بل هم كهيئتهم حين رقدوا وهم يظنون أن ملكهم هو دقليانوس.

فلما فرغوا من صـلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقـتهم ائتنا يا أخى بالذى قاله الناس فى شأننا عشية أمس عند الجبـار دقليانوس ظناً منهم أنهم رقدوا كعادتهم وإنما خيل لهم أنهـم طالت مدة نومهم عن العـادة ثم قال مكسلمـينا لتمليـخا انطلق إلى المدينة لتـسمع مـا يقال فى شـأننا بها هـذا اليوم ومـا الذى نذكر به عند دقليـانوس وتلطف ولا تشعـر بنا أحدا وابتع لنا طعامـاً وائتنا به فإنه قـد نالنا الجوع وزدنا على الطعام الذى جئتنا به على العادة فإنه كان قليلاً وقد أصبحنا جياعاً فأخذ تمليخا ورقًا من نفقـتهم التى كانت مـعهم مما ضرب بطابع دقليـانوس الملك وانطلق خارج باب

الكهف فلما مر بالباب رأى الحجارة بعيدة عنه فعجب منها ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة متنكراً لئلاً يراه أحد من أهلها فيعرفه فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع رأسه فرأى فوق ظهر الباب علامة الصليب فجعل ينظر إليها متعجباً ونظر يمينا وشمالاً فلم ير أحدًا ممن يعرفه فترك ذلك الباب وتحوّل إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل له أن المدينة ليست بالتى كان يعرفها ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول ياليت شعرى أما هذه عشية أمس وقد كان المؤمنون بالمسيح يخفون هذه العلامة ويستخفون بها ثم دخل المدينة فجعل يمشى فى سوقها فيسمع كثيراً يحلفون بالله ثم بالمسيح فزاده ذلك عجباً ورأى كأنه حيران ولقى فتى من أهل المدينة فقال ما اسم هذه المدينة فقال أفسس فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال له يا عبد الله بعنى بهذه الورق طعاماً فأخذها الرجل ونظر إلى نقشها وعجب منها ثم طرحها إلى آخر فنظر إليها وهكذا فجعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل وهم يعجبون منها ثم جعلوا يتسارون ويقول بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد أصاب كنزا فلما رآهم يتسارون من أجله ظن أنهم فطنوا به وعرفوه وأنهم يريدون أن يحملوه إلى دقليانوس الجبار فارتعدت مفاصله وقال لهم أقضونى حاجتى فقد أخذتم ورقى وإلا فأمسكوا طعامكم فلا حاجة لى به فقالوا من أنت يافتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين وتريد أن تخفيه عنا فانطلق معنا وشاركنا فيه وإلا أتينا بك إلى السلطان فنسلمك إليه فلما سمع قولهم عجب فى نفسه وصار لايدرى ما يقول فلما رأوه لا يتكلم طوقوه بكسائه فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلاً فاجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم وهم محدقون به ثم اختطفوه وانطلقوا به إلى رؤساء المدينة ، وكان للمدينة رئيسان صالحان يدبران أمرها اسم أحدهما أرسوس والثانى اصطفوس فلما انطلق به إليهما ظن تمليخا أنهم إنما انطلقوا به إلى دقليانوس فجعل يلتفت يميناً وشمالاً والناس يسخرون به فلما تمثل بين يدى أرسوس واصطفوس ورأى أنه لم يذهب به إلى دقليانوس كما كان يظن أفاق لنفسه فأخذ كل من أرسوس واصطفوس الورق ونظرا إليها وعجبا منها ثم قال له أحدهما أين يا فتى الكنز الذى وجدته إن هذا الورق يشهد عليك أنك قد وجدت كنزاً فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى من نفس هذه المدينة ووالله ما أدرى ما شأنى ولا ماذا أقول لكم فقال أحدهما من أنت فقال تمليخا أنا من أهل هذه المدينة فقال له من أبوك ومن

يعرفك بهـا فأنبأهم باسم أبيـه فلم يجد أحدا يعـرفه ولا أباه فقال له أحـدهما أنت رجل مفـتر لا تخبر بالحق فنكس تمليـخا رأسه إلى الأرض فـمنهم من قال أنه رجل مجنون ومنهم من قال أنه يتغابى ليخلص مـنكم فنظر إليه أحد الرئيسين نظراً شديداً وقال أتظن أننا نرسلك ونصدقك فى قولك أن هذا مال أبيك ونقش هذا الورق قديم وأنت غلام شاب تظن أنك تسخر بنا ونحن ولاة المدينة وخزائنها بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار فلابد من أن تعذب عـذاباً شديداً أو توثق حتى تقر بالكنز الذى وجدته ، فقال تمليخا أنبئونى عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم ما عندى فقـالوا سل لا نكتمك شيئاً قـال ما فعل الملك دقليانوس فـقالوا لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً بهذا الاسم وإنما كان وهلك من دهر طويل فقال تمليخا فوالله لم يصدقنى أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية الملك دقليانوس وأكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا من عـشية أمس فى الكهف فنمنا فلما انتبهنا خرجت لاشترى لأصحابى طعاماً واتحسس لهم الخبر فإذا أنا كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى ، فلما سمع أرسوس وأصطفوس قوله قالا يا قوم لعل هذه آية من آيات الله سبحانه جلعها لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق مـعه أرسوس وأصطفوس وانطلق معهمـا أهل المدينة نحو أصحاب الكهـف لينظـروهم ، ولما رأى أصحاب الكهـف أن تمليخا احتبس عنهـم بطعامهم وشرابهم عن الوقت الذى كان يأتيهم فيـه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى دقليانوس فبـينما هم يظنون ذلـك ويتخوفـونه إذ سمـعوا الأصـوات وصهيل الخـيل فظنوا أن القادمين هم رسل دقليانوس بعثهم إليهم ليأتوا بهـم فقاموا حين سمعوا ذلك وقالوا انطلقوا بنا إلى أخينا تمليـخا فإنه الآن بين يدى الجبار دقليـانوس ينتظر حتى نأتيه مع الرسل فبينما هم على هذه الحال إذ وفد عليـهم ارسوس وأصحابه ووقفوا على باب الكهف وقد سبـقهم تمليخا ليطمنهم فدخل عليـهم وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن شـأنه فأخبرهم بخبره فعرفـوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بإذن الله ذلك الزمن وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث وليـعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور.

ثم دخل على أثر تمليخا أرسوس فرأى عندهم تابوتاً من نحـاس مختوماً بخاتم فضة فقام بباب الكهف ودعا رجلا من عظماء أهل المدينة وفتح التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مـكتوباً عليهما أسـماء الفتيـة وأنهم هربوا من ملكهم دقليانوس الجبـار مخافة أن يفـتنهم عن دينهم فدخلوا فى هذا الكهف وأن دقليانوس لما أخـبر

بمكانهم أمر بسد الكهف عليهم بالحجارة وأنا كتبنا شأنهم ليعلمه من بعدهم أن عثر عليـــهم ، فلما قرأوه عجـبوا جداً ثم دخلوا على الفتية الكهـف فوجدوهم جلوساً ووجوههم مشـرقة ولم تبل ثيابهم فخر ارسـوس ومن معه سجداً لله تعـالى فأنبأهم الفتية عن الذى لقوه من ملكهم دقليـانوس فبعث ارسوس وأصحابه بريداً إلى الملك طيودوسيس أن عجل بالحضور لعلك تنظر آية فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ دهر طويل فلما اتصل الخبر بالملك قام لساعـته ومعه أهل المدينة حـتى صعدوا نحو الكهف وأتوه فلما رأى الفـتية طيودوسيس الملك فرحـوا به وخروا سجداً على وجهـوهم وقام طيودوسيس أمـامهم ثم اعتنقـهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض ثم قالوا له نسـتودعك الله ونقرئك السلام حـفظك الله وأمدّ فى أيام ملكك وبينما الملك قـائم إذ رجعوا إلى مضاجـعهم فناموا وتوفى الله أرواحهـم فقام الملك وجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل واحد تابوت من ذهب فلما أمسى المساء ونام أتوه فى المنام وقـالوا له لم نخلق من ذهب ولا من فـضة ولكن خلقنا من الـتراب وإلى التراب نعود فـاتركنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله فأمـر الملك حينئذ بتابوت من سـاج فجعلوا فـيه وأمر أن يجعل على باب الكـهف مسجد يصلى فـيه وجعل لـهم عيداً كـل سنة فهـذا حديث أهل الكهف على تعـدد رواياته وذلك من نومتهم الأولى فى أيام الملك دقليانوس إلى يـقظتهم فى أيام الملك طيودوسيس وهو المسمى تاودوسيس أيضـاً وقد اشتهرت أيام طيودوسيـوس هذه بهذا الحادثة التى هى عبرة من العبر.

وفى أيامه مات ثاوفيلوس بطرك الإسكندرية فى ثامن عشـر بابه وقد أقام سبعا وعشرين سنة وكان صاحب حمية وشدة فى الدين قد خرجت به عن جادة الاعتدال فخـرب هياكل الوثنيين بديار مصـر وكسر أصنامـهم كما تقدم بيـانه ونفى فى أيامه يوحنا فم الذهب واشتد الملـك أرقاديوس على الأريوسيين وضيق عليـهم وأمر بأخذ الكنائس بعد أن حكموها نحو أربعين سنة وأسقط مـن جيشه من كان اريوسيا وطرد من كان فى ديوانه وخدمه منهم وقتل من الحنفاء خلقاً كثيراً وهدم بيوت الأصنام فى كل مـوضع ، وفى أيامه بنيت كنيسة مـريم ببيت المقدس وبنى أرقاديوس الملك دير القصـر الذى سمى بعـد ذلك بدير البغل فى جـبل المقطم شرقى طرا خـارج مدينة فسطاط مصر وقـد عفت آثاره الآن فلما مات أقيم بعده كـيرلس وهو رابع عشريهم وهو أول من أقـام القومـة فى كنائس الاسكندرية وأرض مصـر وكان فى أيامـه من الحوادث ما سيذكر فى حينه.

ولما مات طيودوسيس الملك على ما تقدم بيانه تولت الملك بعده أخته بولخارية وزوجها مرقانوس.

(فى الملكة بولخارية والملك مرقانوس زوجها)

ثم قامت بالأمر الملكة بولخارية بويع لها بالملك بعد موت أخيها طيودوسيس وذلك سنة أربع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائة قبل الهجرة فلما استقر بها المنصب تزوجت بالأمير مرقانوس وأشركته معها فى الملك وذلك سنة سبع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة تسع وستين ومائة قبل الهجرة ، وتحرير الخبر أنه لما كانت دولة القسطنطينية قد تقهقرت وانحط شأنها على عهد الملك طيودوسيس أخى بولخارية وكان قد طمع فيها العدو وصارت على شفا جرف كما تقدم اتحدت كلمة وجوهها وأعيانها وأمراء عساكرها وأرباب مجلسها وكافة الرعية على مبايعة بولخارية عسى أن تقوى بسياستها شوكة البلاد ويعود لها رونقها ومجدها القديم وقد كانت بولخارية من الحزم وحسن السياسة على جانب عظيم وفى تدبير الأمور وضبط مصالح الرعية آية فكانت أول أنثى جلست على سرير ملك الرومانيين فلما قبضت على زمام الملك نظرت فى أمور أعداء الدولة العاملين على تخريبها فأمرت فضرب عنق خروساف الوزير على باب الديوان بدون إقامة دعوى ولا عمل تحقيق ونظرت فى أمور غيره منهم فانطبعت لذلك هيبتها فى قلوب الرعية وخافها أصحاب الغايات وسارت كلمتها فى أرجاء الحكومة ونفذت ومالت إليها قلوب الرعية واستبشروا بإيامها وعظموا قدرها وظلت على هذا مدة ، قال بعض أهل التاريخ: ولكن لما كانت تعلم أن حكم الأنثى على الروم هو على خلاف الأصول والعوائد وكانت تخشى أنه ربما يترتب على استمزار حكمها انفصام عروة الاتحاد التى بين الرعية وانحلال رابطة كلمتهم وكانت لا تنظر إلا لخير البلاد وسعادتها تزوجت بأحد أكابر المجلس وأعظمهم قدرا وهو الأمير مرقيانوس وكان عمره إذ ذاك ستين سنة وألبسته الحلة الملوكية وعاهدته على أن يحترم على الدوام ناموس نفوذها وأن يحافظ على حقوقها الاشتراكية ولا يعمل إلا على تأييدها فى السياسة والتدبير وأن يتجاوز لها عن حقوق المباضعة التى تقتضيها الزوجية لأنها كانت نذرت أن لا تمكن أحداً من أن يفتضها وأن تترهب مدة عمرها فعاهدها مرقيانوس على ذلك ووعدها أن لا يمسها ووفى بوعده.

وكان لبولخارية أختان وهما مرينة وأرقادية فكانتا مثلها فى الرهبانية وقد كتبن صورة تنذر بحفظ توليتهن على لوح مصفح بالجوهر وبعثن به إلى كنيسة أيا صوفية

كأنه قربان لمريم العذراء أم المسيح عليهما السلام وكن لا يحضرن مجلس الرجال أبداً وكان قصرهن أقرب شبها بالدير وديوانهن عبارة عن معبد المترهبات وهن على غاية من النسك والتعبد مع العفة والتواضع ، فلما استقر بمرقيانوس المنصب أجرى السياسة فى البلاد على ما تشتهى بولخارية من الحزم وحسن السلوك ورتب من القوانين ما محا به الظلم وصرف به وجه العدوان عن الرعية وتحبب إليهم ونظر إليهم نظر الأب الحنون على ولده فعلقت به قلوبهم وأحبوه حباً جماً.

وبعث إليه آطيلا ملك الهونية يطالبه بالخراج المقرر الذى كان يدفعه الملك طيودوسيس وشدد فى الطلب مع العظمة والكبرياء فرد عليه يقول قد انجلى الزمن الذى كانت تنتهك فيه حرمة الدولة الرومانية وخلا الدهر الذى كان بخل بناموس المملكة القيصرية وأما فى عهدى هذا فاعلم أنى لا أعطى شيئاً إلا بالطوع والاختيار وأن لا يكون إلا إمداداً وإعانة على صيانة بلادك كما هى القاعدة بين الملوك المتعاهدين معى الخادمين لحكومتى وليس عندى لغيرهم ممن يهددنى من الأعداء جواب إلا أن أرسل عليهم جنوداً من الصناديد قلوبهم كالجلاميد وأجسامهم من حديد وأى حديد ، وبعث له أيضاً سفراء يشافهونه بهذا الكلام فاغتاظ آطيلا وكاد يتميز غضباً وأقسمت قبائل الهونية وتعاهدت على تدمير الدولة الرومانية وتخريبها ومحو اسمها ورسمها من الدنيا، قال أهل التاريخ وكتب آطيلا لملك القسطنطينية وملك رومة يقول :

إن آطيلا مولاك وسيدك يأمرك أن تجهز له قصرك عاجلاً لتلقاه فيه فهو حاضر ليأمرك بما تقتضيه المصلحة.

ثم بعد أن بعث الجواب أتته الأخبار بما عليه ملك القسطنطينية من المنعة وما صارت عليه جنوده من الشدة والبأس فخافه وعاد إلى مسايرته وأبقى معه شروط الصلح على ما كانت عليه وعقد النية على أن لا يغير على دولة المشرق إلا بعد الاستيلاء على مملكة المغرب فسار صوب المغرب وتبعه كثير من ملوك الأمم المتبربرة وأمرائهم ورؤسائهم يريدون الحرب مع رومة وجرمانيا فقامت بينهم الحرب على ساق وحمى وطيسها فى ميدان شالون من أعمال بلاد الفرنسيس وبعد واقعة هائلة جداً بذلك الميدان وقف جند الملك آطيلا وجند أعدائه متقابلين فخرج آطيلا من مكانه وبرز فى وسط الصفوف وعليه الهيبة والوقار وخاطب رؤساء عساكره وقد كانوا مختلفى الأجناس فقال لهم لا تخافوا شيئاً فإنى رئيسكم وقائدكم وصنم الحرب حاميكم وقد تعودت النصر فيما مضى فلا أحرم النصر فيما بقى وقد كفل لكم أيضاً

النصر والتأييد جبن الروم وفتور همتهم فهزيمتهم لدينا محققة فمن يصادمنا من الأعداء فى حومة الميدان أو يطاردنا فى حلبة الرهان فإن كانت الخشية من طائفة الإفرنجة فبينهم الشقاق والاختلاس وسترون عن قريب أكثرهم منتظماً فى سلك جنودنا داخلاً تحت ظل أعلامنا وبنودنا وإن خشيتم الغوطية والبرغونية فإن شوكتهم قد ضعفت وطالما هربوا خوفاً من أصحابنا عند الالتحام فإن قلتم أنهم نزلوا هنا وهم مصممون على قتالنا فلا وما نزولهم إلا محض الاستراحة من التعب وليس لهم قصد من حرب وقد اضطرمت بينهم نيران الفتن وظهرت علامات الخلل والمحن ولم يبادروا بإطفاء ذلك ولم يعولوا على ما هنالك فسيروا أيها الشجعان على أعدائكم ثقة بالنصر والظفر واعتماداً على التأييد ولامفر فليس فوق قوتكم قوة بشرية إلى أن قال وقد أنطقنى من أنطق كل شيء أن أقول هذه الكلمة إنى أطعن العدو برمحى قبل أن تقاتلوه وأقتل كل جبان شر قتلة.

فلما فرغ من مقالته اتقدت نار الحمية فى صدور الأبطال والتحم الصفان فهجم الرومانيون على الهونية من كل جانب فأذاقوهم عذاب الهون وصبوا عليهم صيب المصائب ومزقوهم كل ممزق فخرج آطيلا الملك وسط الجنود وصار يزأر كالأسد وينادى على عسكره بأن يحملوا على العدو حملة رجل واحد فلم يفعلوا وعصوه ولم يصغوا لصوت ندائه وخاب منه الأمل وكلت منه العزائم فكانت هذه أول مرة حرم فيها الطاعة من قومه ثم ولوا مدبرين فتتبعهم العدو وأعمل فيهم القتل حتى خرجوا عن البلاد وعادوا من حيث أتوا وجعل الروم يقتلون ويأسرون ويذبحون الأسرى صغارا وكباراً ذكوراً وإناثا ويسلبون ما شاءوا حتى قتلوا من النساء مائة صبية تحت سنابك الخيل وهذا كله من جهة بلاد الفرنسيس وما جاورها من الأقاليم، ولم تضعف الهزيمة عزم آطيلا بل سار إلى إيطاليا قاصداً حربها واجتاز الألب وركب على المدينة المنجنيقات وكانت هذه أول مرة أغار فيها الهونية على إيطاليا بقصد فناء الرومانيين وكان قيصر رومة إذ ذاك ضعيف الشوكة والبأس لفتور همة الرومانيين وخمولهم بعد العز حتى صاروا لا يستطيعون أن يقاتلوا الهونية بغير الاستعانة بعساكر أجنبية، فاستغاثوا بالملك آلاريق الغوطى ملك الغوطية واستنجدوا بجنوده فأمدهم فقويت عساكر الرومانيين واشتدت عزائمهم وهاجموا الهونية مهاجمة الأبطال ولازالت الحرب سجالاً ثلاثة أشهر لم يحصل منها للهونية فائدة فقام العساكر على آطيلا وطلبوا منه أن يرفع الحصار عن المدينة ويرجعوا إلى أوطانهم فراجعهم فلم يقبلوا وبينما هم على أهبة الرحيل إذ لمح آطيلا طائراً أهليا يحوم على

أبراج المدينة ويبعد عنها ثم يعود فقال لكبار عساكره انظروا إن طيران هذا الطير هو فأل السعادة والخير يبشرنا بقرب النصر والنجاح ويعدنا باليمن والفلاح فكأنه ألهم أن هذه البلاد قريبة الدمار سريعة البوار فلتقو عزائمنا ونحمل عليها حملة رجل واحد والنصر يحادينا ، فصدق الجند مقالة واعتقدوا يمن الطائر وفاله وقوى عزمهم وهجموا على مدينة آكيلة وكان الملك محصورا بها فأخذوها عنوة ونهبوا وسلبوا وأسروا أهل المدينة ودمروها بالنيران فسهل بذلك الأمر على آطيلا وصار يتغلب على جميع مدن إيطاليا ويفتحها قوة واقتداراً حتى وصل بعسكره إلى مدينة ميلان فألقت إليه مقاليدها ولم ترفع في وجه قومه سلاحاً ، قال بعض أهل التاريخ ، فلما دخلها وجد فيها لوحاً منقوشاً عليه صورة القيصر على سريره وأمامه ملوك التتار يسجدون له فغضب وأحرق هذه الصورة وأمر أن يضعوا مكانها صورته على كرسيه حين يستقبل وفادة القيصريين عند دفعهم الجزية التى تقررت عليهم ، ولم تكتف الهونية ومن صحبهم من القبائل المتبربرة بالسلب والنهب والقتل بل أهلكوا الحرث والنسل وخربوا الديار وقطعوا الأشجار وأحرقوا القرى والأمصار وكان ملكهم آطيلا يحرضهم على العتو والفساد ويقول لهم أنه لاينبت زرع فى مكان وضع فيه جوادى قدمه فكان أهل إيطاليا يهاجرون من بلادهم وهاجر كذلك أهل البنادقة إلى جزائر خليجهم وأسسوا بها مدينة البندقية التى يقال لها وندنق وبنوا مساكنهم على سدود وقناطر وعمروا البحر بالمدائن والعمائر واجتمع عليهم من ألجأته الضرورة فصاروا شعباً وتألفت حكومة بلادهم من جمهورية مؤلفة من عشرين جزيرة متحدة وكل جزيرة محكومة بحاكم وكثرت عندهم الصنائع والزراعة واتسع نطاقها ثم قويت تلك الجمهورية وصارت غنية مثرية تسير بذكرها الركبان.

وبعد انتصار الهونية هذه النصرة العظيمة على بلاد الرومانيين بعث قيصر رومة إلى آطيلا ملك الهونية سفراء يلتمسون منه الصلح على قاعدة تتقرر بينهما فأجابه إلى ذلك وعقد صلحاً كان من شروطه أن يتزوج آطيلا ببنت من بنات قيصر رومة اسمها الأميرة هونورية وكان قد سبق له أن خطبها من أبيها ورده فتزوجها فى هذه الدفعة ومادرى أن السم فى الدسم ، قال أهل التاريخ :إذ كانت علة موته وسبب هلاكه ، فلما حملت إليه عمل لها الأفراح يوما وليلة وأكثر فيها من الشراب ولم يزل يشرب ويتفكه حتى سكر وأخذت منه الخمرة مأخذها ثم قام وأخذ بيدها إلى محل فراشه وقد كانت تبغضه جداً وتنفر منه فبات ليلته تلك معها وفى الصباح قام الخدم ينتظرونه فلم يخرج على عادته فلما أبطأ وعلم قومه بإبطائه دخل بعضهم

خيمتـه فوجدوه مضرجاً بدمـائه فقالت عشيرته أنه مـات بالسكته، وقال الروم: أنه مات قتيلاً . قال بعض أهل التاريخ: ولو بقيت دولته لكانت أشبه بدولة الإسكندر فى الغزوات والفتـوحات ولكنها شابهتهـا فى الانقراض المترتب على مقاسمـتها بين أولاده وأمرائه إذ ضاع بينهم الملك وذهبت شـهرته فارتاحت لذلك خواطر الروم فى المشرق والمغرب وزال عنهم البأس بموته وزوال ملكه.

وقد كانت دولة القـسطنطينية فى أيام مرقيانوس غاية فى الأمـن والراحة وصفو العيش وكانت الديانة المسيحية منصورة مـؤيدة فلما كانت سنة سبع وستين وأربعمائة للميـلاد أى سنة تسع وستين ومـائة قبل الهجـرة ماتت بولخارية فكانت مـدة ملكها منفردة ومتحدة مع مرقيانوس زوجـها ثلاث سنين فانفرد مرقيانوس بالملك سنة سبع وسـتين وأربعمائة للميـلاد أى سنة تسع وستين ومـائة قبل الهجـرة إلى سنة خمس وستين ومائة ثم مات فى هذه السنة فكانت مدة حكمه منفرداً أربع سنين وكانت مدة حكمه وحكم زوجته نـحو سبع سنين وكان موته بعد زوجتـه بثلاث سنين وهو آخر قيـاصرة عائلة المشرق الأولى التى أولهـا أرقاديوس، وفى أيامـه وأيام زوجته ظـهر مذهب أوطاخى أحد القنوميين بمدينة القسطنطينـية وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لاجسادنا وأن الابن لم يأخـذ من مريم شيئاً فاجتمع عليـه مائة وثلاثون أسقفا وحرموه وزيفوا مقالته.

واجتـمع فى هذه الأيام بالاسكندرية كثـير من اليـهود فى يوم الفـصح وصلبوا جسما على مـثال المسيح وعبثوا به فـثار عليهم النصارى واقتتلوا فقـتل بين الفريقين خلق كثير فـبعث مرقيانوس الملك جيـشاً عظيماً فقتل أكثـر يهود الاسكندرية ومزق شملهم وأذاقهم مر العذاب فانكمشوا وخافوا، وفى أيامهما أيضاً كان المجمع الرابع من مجامع المسيـحيين بمدينة خلدونية وسببـه أن دسقورس بطرك الإسكندرية قال إن المسيح جـوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومـين وطبيعة مـن طبيعتـين ومشيـئة من مشيـئتين وكان رأى مـرقيانوس الملك أنه جسـد وأهل مملكته أنه جوهران وطبيـعتان ومشيـئتان وأقنوم واحد فلما رأى سائـر الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه فـوافقوه على رأيه ماخـلا دسقورس وستـة أساقفة فـإنهم لم يوافقوه وكـتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفـقوا عليه فبعث دسقورس يطلب منـهم الكتاب ليكتب فيه فلما وصـل إليه كتـابهم كتب فـيه أمانتـه هو وحرمـهم وحرم كل من يخـرج عنها فغضب مرقيانـوس وهم بقتله فاشير عليه بإحضاره ومناظرته فأمر بـه فحضر وحضر ستمائة وأربعة وثـلاثون أسقفا فأشارت الأساقفة والبطاركـة على دسقورس بالإذعان

إلى رأى الملك واستمراره على رياسته فقال إن الملك لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فإنهم يعرفون الكتب وخير له أن لايميل مع الهوى ولايتبع غير الحق فقالت بولخارية زوجة الملك وكانت جالسة بازائه يادسقورس قد كان فى زمان أبى إنسان قوى الرأس مثلك فحرم ونفى من كرسيه (تعنى به يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية) فقال لها نعم وقد علمت ما جرى لأمك وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه إلى أن مضت إلى جسد يوحنا فم الذهب واستغفرت فعوفيت ، فحنقت بولخارية من قوله ولكمته فانقلع له ضرسان وتناولته أيدى الرجال فنتفوا أكثر لحيته وأمر به مرقيانوس الملك فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه وأقيم عوضه برطاوس وهو من القائلين بمقالة الملك.

ومن ذلك اليوم افترق المسيحيون وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك ومتأصلين على رأى دسقورس ، وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائتين لدقلطيانوس، وكتب مرقيانوس إلى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل وكان بين المجمع الثالث وبين هذا المجمع إحدى وعشرين سنة على ما قاله بعض الكتاب، وأما دسقورس فإنه أخذ ضرسيه وشعر لحيته وأرسلهما إلى الإسكندرية وكتب يقول للأحزاب بعد كلام هذه هى يا أخوتى نتيجة تعبى على الأمانة فتبعه أهل الاسكندرية ومصر وتوجه إلى محل نفيه فعبر من بيت المقدس وفلسطين وعرفهم مقالته فتبعوه وقالوا بقوله وقدم عدة أساقفة على أمانته ومات وهو منفى فى الرابع من توت فكانت مدته أربع عشرة سنة وبقى كرسيه بغير بطرك بقية أيام مرقيانوس وقيل بل تولاه برطاوس ، ولما اختلف دسقورس فى مقالته ولم يقل بمقالة مرقيانوس الملك دعا أصحاب مرقيانوس أصحاب دسقورس باسم اليعاقبة أو اليعقوبية وأطلقوا عليهم جميعاً هذا الاسم واختلف فى تسميتهم بذلك فقيل أن دسقورس كان يسمى قبل بطركيته باسم يعقوب وأنه كان يكتب وهو منفى إلى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفى يعقوب ، وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب وكان يرسله وهو منفى إلى أصحابه فنسبوا إليه، وقيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية وكان على رأى دسقورس فكان ساويرس يبعث يعقوب إلى سائر المسيحيين ويثبتهم على أمانة دسقورس فنسبوا إليه، وقيل بل كان يعقوب هذا كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع فسمى يعقوب البراذعي من أجل ذلك وأنه كان يطوف البلاد ويرد الناس إلى مقالة دسقورس فنسب من اتبع رأيه إليه وسموا

يعقوبية ، ويقال ليعقوب أيضا يعقوب السروجي والله أعلم بالحقيقة ، وفي أيام مرقيانوس الملك كان سمعان الحبيس صاحب العامود وهو أول راهب سكن صومعه وكان مقامه بمغارة في جبل أنطاكية، ولما مات مرقيانوس وثب أهل الاسكندرية على برطاوس البطريرك وقتلوه في الكنيسة وحملوا جثته إلى الملعب الذى بناه بطليموس وأحرقوه بالنار لأنه ملكي الاعتقاد فكانت مدة بطركيته ست سنين وأقاموا عوضه ثيموثاوس الثاني وهو سادس عشريهم وكان متأصلا أى من القائلين بمقالة دسقورس بطرك الاسكندرية ووقع من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله.

وقد خلف مرقيانوس الملك بعد موته ليون الأكبر المعروف بالأقدم.

(في الملك ليون قيصر الأكبر)
(ويسمى أيضاً : الأقدم)

ثم قام بالأمر ليون الأكبر بويع له بالملك سنة إحدى وستين وأربعمائة للميلاد أي سنة خمس وستين ومائة قبل الهجرة وقد نشأ ليون المذكور ببلاد روم إيلي وكان الذى ساعده على ارتقاء هذا المنصب البطرك الأمير أسبار الغوطي الذى كان في خدمة الروم وكان معدوداً من أماجدهم وأبطال قوادهم وهو رئيس الأساقفة وكان مسموع الكلمة نافذ الإشارة مهيباً فعمل على مبايعة ليون المذكور واستمال إليه الناس والأمراء فبايعوه بعد عناء كثير.

ولما استقر بليون المنصب أعاد الصلح من أمراء الغوطية المشرقية إكراماً لبطركهم الأمير أسبار الذى أعانه على ارتقاء سرير الملك واستوثق على دوام الصلح معهم بأخذ طيودوريق بن طيودومير أحد ملوكهم زهنا في القسطنطينية وأدخلهم تحت الطاعة وكان عمر طيودوريق إذ ذاك ثمان سنوات ولم يفك أسره إلا في زمن الملك زينون ثم سار لقتال طائفة الوندال الذين هم أصول الأندلسيين واشتدت الحرب بينهم وكانت سجالاً فبينما هم على هذا الحال من الطعن والنزال واشتداد القتال إذ علم ليون بخيانة الأمير أسبار البطرك وعمله على تذليله وتنكيل قومه فسار إليه من فوره وقتله وقتل جميع عائلته ولم يراع له حرمة ولا معروفاً فكان لما فعله أسوأ وقع في قلوب الرعية ثم لم يلبث بعد ذلك أن مات في سنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة إحدى وخمسين ومائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع عشرة سنة وخلفه ليون الثاني الملقب بالسلوقي.

(فى الملك ليون الثانى)
(الملقب : بالسلوقى)

ثم قام بالأمر ليون الثانى الملقب بالسلوقى بويع له بالملك سنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة إحدى وخمسين ومائة قبل الهجرة، قال أهل التاريخ وهو سبط ليون الأكبر ابن زينون السلوقى نسبة إلى سلوقية ببلاد أناطولى كان أمير العسكر المرابط فى إحدى ولايات أناطولى وقد أشركه جده لأمه معه فى الملك مدة حياته ثم خلف جده وكان عمره إذ ذاك أربع سنين فكفله أبوه زينون وكان يحكم بالنيابة عنه ولم تطل أيام ليون المذكور حيث مات فى السنة التى ولى فيها فى حياة أبيه فانتقلت المملكة إلى أبيه بالوراثة من ابنه ضد المعتاد فى الممالك فقد، يسمو بطيب الفرع طيب العنصر، فكانت مدة ليون الثانى المذكور عشرة أشهر لاغير.

وبعض المؤرخين يسقط ليون الثانى هذا من عداد القياصرة فيجعل مدة التولية لأبيه زينون قيصر أصيلة.

(فى الملك زينون والملك باسيلقوس)

ثم قام بالأمر زينون بويع له بالملك فى نحوسنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى فى آواخر سنة إحدى وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقد كان زينون هذا أمير العسكر المرابط فى إقليم يسوريا من أعمال أناطولى وكان صهراً لليون الأكبر فلما مات ليون المذكور وانتقل الملك بالوراثة إلى ليون الثانى ولده الذى هو سبط ليون الأكبر ولى المملكة بالكفالة عن ابنه فلما مات ابنه فى حياته بعد عشرة أشهر كما تقدم وتولى هو الملك واستقر به المنصب قامت فتنة عظيمة فى المملكة وتطاير شررها فى جميع العمالات وكان الذى قد أثارها على زينون زوجة ليون الأكبر فقام رؤساء الأحزاب على زينون واتهموه بضعف العزيمة وفساد الرأى وعدم قدرته على حماية الوطن وتدابير الدولة وطردوه وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة سبع وأربعين ومائة قبل الهجرة فهرب من القسطنطينية ورجع إلى أناطولى ولبث بها سنتين فقلد أرباب الفتنة بعد هروبه باسيلقوس الخارجى المنصب فكان ما عمله زينون المذكور فى بحر ولايته الأولى التى حسبها له أهل التاريخ مدة أولى أنه أيد الدين المسيحى وعضده ونصره وأثبت وحدته بمرسومه المسمى (جمع الكاثوليكية واتحادهم) وعند أهل التاريخ أنه لم ينشأ عن هذا المرسوم سوى الاختلاف فى الدين

وكثرة الفتن وتوالى المحن بما لم يسبق له مثيل ، وبعد لبث زينون عدة سنين بأناطولى هب إلى استرجاع الملك واستنجد بالغوطية فأنجدوه وأمدّوه بالمال والرجال فسار إلى القسطنطينية وقاتل رؤساء الأحزاب فقامت الحرب بين الفريقين وانتصر زينون بعساكر الغوطية عدة نصرات ومازال حتى دخل المدينة وأعمل فيها السيف فقتل خلقاً كثيراً جداً وجلس على سرير الملك ثانية وذلك سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائة قبل الهجرة ، ولم يستقر به المنصب حتى طغى واستعمل الظلم والجور وتجبر وزاد الحدود فى الطغيان ونسى ما صنعه معه الغوطية من الجميل فجرد عليهم وحاربهم واشتد فى قتالهم ورجع فقهر جميع أصحاب الفتنة من أمرائه وبدد شملهم تبديداً فلما تمت له الأمور على ما أراد أنهمك على اللذات وانغمس فى الشهوات فابغضته الرعية وحقدت عليه وعملت على هلاكه، فبينما هو يوما مضطجع على فراشه سكران لا يعى إذ دخل عليه بعض قومه فحملوه ودفنوه حياً وذلك سنة خمس وخمسمائة للميلاد أى سنة إحدى وثلاثين ومائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه عشرين سنة منها سنتان لباسيلقوس وحده ، وقد أعز زينون فى أيامه المتأصلين أصحاب مقالة دسقورس ورفع شأنهم لأنه كان على مذهب دسقورس وكان يحمل إلى دير يوقنا كل سنة ما يحتاج إليه من القمح والزيت وغير ذلك فهرب ساويرس بطريرك الاسكندرية الملكى فى أيامه إلى وادى هبيب ورجع ثيموثاوس بطريرك المتأصلين من نفسه إلى كرسيه بالاسكندرية فأقام سنتين ومات فكانت مدة بطريركيته كلها اثنتين وعشرين سنة على المشهور فأقيم بعده بطرس الثالث وهو سابع عشريهم وأصله من الاسكندرية وكان ورعاً تقياً كابد من الشدائد أكبرها ونفى ثم عاد ثانية فأقام ثمان سنين ثم مات فى رابع هاتور وفى رواية سبع سنين وسبعة أشهر وستة أيام، فأقيم بعده اثناسيوس الثانى وهو ثامن عشريهم فأقام ست سنين وفى رواية سبع سنين ومات فى العشرين من توت ولم يحدث فى أيامه من الحوادث شىء يذكر، فأقيم بعده يوحنا وكان متأصلاً وهو تاسع عشريهم وأصله من الاسكندرية وكان تقياً جداً وحدث من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى حينه ، ولما مات زينون الملك خلفه أنسطاش الأول.

(فى الملك أنسطاش الأول)

ثم قام بالأمر أنسطاش الأول بويع له بالملك سنة خمس وخمسمائة للميلاد أى سنة إحدى وثلاثين ومائة قبل الهجرة وقد كان نشأ بمدينة ايليريا من مدن سواحل إيطاليا وهو من عائلة خاملة ثم دخل فى خدمة العسكرية وتقلب فيها إلى أن صار

من جملة ضباط القصر الملوكي المنوطين بمناظرة عدم رفع الأصوات والغوغاء وتسكين العامة حول القصر وإلزامهم الصمت فلذلك كان يلقب بالمسكت ومازال إلى أن تزوّج بالقيصرة أريانة أم القيصر زينون فسعت فى إظهاره وإعلاء شأنه وعملت على تقليده المنصب الملوكي واستمالت إلى ذلك أرباب المجلس فنادوا بملكه وبايعوه فى السنة المذكورة فكان فى مبدأ أمره محترما لدينه وعدله ميالا للعمارية ولما استقر به المنصب سلك مسالك الجور وتغيرت طباعه وانعكست أحواله فظلم الرعية وضيق عليها واستعمل الحرص فى أموره فكرهته الرعية ومقتته وحقدت عليه وتمنت الخلاص منه .

وقد كان قبل ولايته حاقدا على بطريرك أنطاكية وكان يريد الايقاع به فصد عن عزمه بالولاية فلما تمكن من المنصب وسار سيرته الرديئة من الظلم والعسف أجهد نفسه فى الإيقاع بالكاثوليكية وانتصر للارثوذوكسية فعزل مقدونيوس بطريرك الكاثوليكية وضيق على هذه الطائفة وبالغ فى التنكيل بها فخرج فى هذه الأثناء خارجي اسمه ويطاليانوس متعللا بأخذ الثأر للكثلكة وهو فى الحقيقة إنما يطلب الملك فجمع الجموع الكثيرة وأوقع الفتن وأثار المحن وحضر بقومه وعساكره تحت أسوار القسطنطينية وأقام على هذه الحال مدة من الزمان حتى كادت تفشل عصابة أنسطاش ثم أحس بقرب خروج الرعية عليه وشق عصا طاعته فجعل يستميلها بالرفق وحسن المعاملة وأزال عنها بعض المكوس والمغارم وأنواعاً أخر من المظالم كبيع المناصب والرتب فغضوا عنه ولكنهم مع ذلك حاقدون عليه ومازالت أيامه فى اضطراب حتى مات سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربع ومائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبعاً وعشرين سنة كلها أكدار وأحزان.

وفى أيامه مات يوحنا بطريرك الاسكندرية فخلا الكرسى بعده سنة لتفاقم الخلاف وكانت مدته تسع أو ثمان سنين وكان موته فى رابع بشنس فخلفه يوحنا الثانى المعروف بالحبيس وهو المتمم للثلاثين وأصله من الاسكندرية ولم يعلم من حوادثه شيء يذكر ومات فى سابع عشرى بشنس فكانت مدته إحدى عشرة سنة وكان تقياً ورعاً محباً للجميع فخلفه ديسقوروس وهو حادى ثلاثيهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى حينه.

ولما مات أنسطاش خلفه فى الملك يوسطنيوس الأكبر ويقال له أيضا جوسطنيوس الأول.

(فـى الملك يوسـطنيوس الأكـبر)
(ويسمى أيضاً : جـوسـطنيوس الأول)

ثم قام بالأمر يوسطنيوس الأكبر بويع بالملك خدعة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة للميلاد أى سنة أربع ومائة قبل الهجرة وهو رأس الدولة المشرقية المسماة باسم الدولة (الجوسطيانوسية) وقد كان مولده فى بلاد روم ايلى وكان فى أول أمره راعيا للماشية ثم انتظم فى سلك العسكرية وارتقى المناصب العالية فى خدمة ليون قيصر الأكبر ثم ارتقى سرير الملك بالتحيل والخداع والرشاوى والبراطيل فلما استقر به المنصب سلك فى الرعية سـبيل العدل والرفق وأسكن الفتنة الدينية الـتى مات عنها أنسطاش الملك وعمل على اسـتـتباب الأمن وتوطيد دعـائم الراحة وأشرك معه فـى الملك ابن أخيه المدعو يوسطـنيانوس وسار سـيراً حسناً للـغاية فأحـبته الرعـية ومالت إلـيه القلوب ووقعت فى أيامـه فتنة عظيمة جـداً بين فرقتين من المسـيحيين إحدهمـا تسمى الملة الخضراء والثـانية الملة الزرقاء وهما من الفـرق الزائغة التى لا خلاق لها وكـانتا على طرفى نقيض فيما لايستلزمه الدين المسيحى ولا التدين به فإشتدت يومئذ تلك الفتنة وعلا لهبها وكادت تعم البلاد ويتفاقم أمرها فعمل على تسكينها وقطع دابر الأحزاب وقتل ويطاليانوس الذى كان رأس هذه الفتن فـعاد الأمن وسكنت الخواطر وأطمأنت القلوب وبطلت تلك البدعة أو كادت.

وكانت طوائف اللاظ إلى هذا الحين يدفعون الخراج لكسرى فارس وكان لقيصر الروم حق الرعـاية عليهم فـكانت الروم تطلب ذلك فجـعلت تسـعى وتعمل حـتى أدخلتهم فى حكم القسطـنطينية فكان ذلك سبباً لانتـقاض الصلح بين فارس والروم وأعقب ذلك وفاة يوسطنيوس الملك وتولى ابن أخيـه يوسطنيانوس بعده فهم الفرس عند ذلك بقتال الروم وركبـوا عليهم فشبت الحرب بين الفريقين على مـا سيذكر فى محله وكان موت يوسطنيوس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة خمس وتسعين قبل الهـجرة فكانت مدة حكمه تسع سنين فاستقـبل ابن أخيه يوسطنيانوس بالملك ولم تنل ديار مصر فى أيامـه شيئاً من المزايا المادية ولا الأدبية غـاية الأمر أنها كانت حاصلة على بعض الراحة والطمأنينة بعـد إزالة ما كان قائماً بها من الفتن من الأحـزاب، وفى أيامه مات ديسقوروس بطرك الإسكنـدرية بعد أن أقام سنتين وقيل سنتين وخمسة أشهر وكان مـوته فى سابع عشر بابه وفى أيامه كتب إيليا بطرك بيت المقدس إلى يوسطنيـانوس الملك بأن يرجع عن مقالة ديسـقوروس إلى مقـالة الملكية

وبعث إليه جماعة من الرهبان بهدية سنية فقبل هديته وأجاز الرهبان بجوائز جليلة وجهز له مالاً جزيلاً لعمارة الكنائس والديارات والصدقات وأوشك أن يقول بمقالة الملكية ويترك مقالة ديسقوروس فلما شاع الخبر بذلك جاءه ساويرس الذى كان بطركا للملكية واجتمع به وأعلمه أن الحق هو اعتقاد القائلين بمقالة ديسقورس لا الملكيين فرسم بأن يكتب إلى جميع مملكته بقبول قول ديسقوروس وترك المجمع الخلقدونى فبعث إليه بطرك أنطاكية بأن هذا الذى فعلته غير واجب وأن المجمع الخلقدونى هو الحق فكبر هذا الأمر على الملك ونفاه وأقام بدله.

فأمر إيليا بطرك بيت المقدس بجمع الرهبان ورؤساء الديارات فاجتمع له منهم عشرة آلاف وحرموا الملك ومن يقول بقوله فأمر الملك بنفى إيليا إلى مدينة (آيلة) فاجتمع عندئذ بطاركة الملكية وأساقفتهم وحرموا الملك ومن يقول بقوله فلم يبال وظل على ما هو عليه من الشدة، وبموت ديسقوروس قام بعده تيموتاوس وهو ثانى ثلاثيهم وكان من المتأصلين ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى حينه.

(فى الملك يوسطنيانوس ـ قيصر الأول)

استبد يوسطنيانوس الأول بالحكم بعد موت يوسطنيوس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة خمس وتسعين قبل الهجرة وكان مولده فى مدينة طرسيس ولم يستقر به المنصب منفرداً حتى قامت الفتنة بين الأحزاب وعظمت وظهر أصحاب الملة الخضراء والملة الزرقاء ثانية وقاموا يناظرون ويجادلون فى الدين فانعقدت المجامع واشتدت المناظرة ومازالوا على هذا الحال حتى نال أصحاب هذين اللونين بعض الامتيازات ومنحوا من الملك شيئاً من الحقوق ولم تكد فتنتهم تزول حتى ظهر بعض المشاكل السياسية وتجرد الملك للغزو والقتال فأرسل قائد جيوشه بليسيرس والطواشى نريس للغزو فغزوا قوطية إيطاليا ووندالية إفريقية وانتصر عليهما نصرة عظيمة وسار هو لقتال فارس وظفر بهم فاشتهرت سطوته وعلت كلمته ثم وجه عنايته إلى ترتيب الأحكام السياسية وتهذيب القوانين الملكية فرتبها أحسن ترتيب واشتغل بإصلاح الأمور الدينية وتنقيح العقائد المسيحية وكان متعصباً فى دينه صاحب حمية وغيرة عظيمة، قال بعض الكتاب: كانت حميته أقوى من معارفه، وتزوج بزوجة بديعة الجمال اسمها تيودوره فكان لها على قلبه كمال السلطة والولاء لا يكاد يخالف لها أمراً لاستيلائها على فؤاده فكانت سبباً فى تدنيس عهد ولايته وأعمالها كالنقطة السوداء فى تاريخه.

وقد أغار كسرى قباذ ملك فارس علـى عساكر الرومانيين وهم يبنون حصناً فى طريق مدينة دارا على مـقربة منها وقصـد الفتك بالرومانيين وتخـريب ذلك الحصن فسـار إليه بليسيـرس قائد جيوش المشـرق ونائبه لرده وتخليص الحصن منه فـوقعت الحرب بين الفـريقين فانتـصر أمير الروم عـلى فارس نصرة عظيمـة اشتهـر بها بين الأقران وما تمت هزيمة الفـرس حتى وجهوا عساكرهم صوب أرمينـية وكانت يومئذ منقسمة بين الروم والفرس ولما كانت أرمينية قريبة من الديار الشامية خاف الروم على الشـام من أهل فارس فـحوّل بيليـسيـرس عسـاكره صـوب أنطاكيـة لقتـالهم هناك وحاصروا المدينة فلم ينتصر بيليسيـرس فى هذه الوقعة ولم يظهر على خصمه ولكنه خلص الديار الشاميـة ومع ذلك لم تنكف فارس عن محاصرة أنطاكيـة وهى يومئذ تحت الديار الشامية فلما رأى القيصر اشتداد الحال وتضييق فارس الحصار بعث قائده سبطاس بدلاً من بيليسـيرس فسار إلى أنطاكية فلم يستطع أن يـرفع الحصار عنها فى أيام قوباز بن فيروز مع ما كان عليه قوباز المذكور من المذلة والاحتقار بين قومه لعدم استقامتـه دينا ودنيا ويقى قوباز محاصراً لأنطاكية أياماً كـثيرة إلى أن قتله العرب فى مدينة الرى فخلفه ابنه كسرى أنوشران العادل فى نحو حدود سنة تسعين قبل الهجرة قال بعض أهل التاريخ: فتغيـرت بتوليته أحوال ديوان فارس بالمدائن ، وذلك أنه لما جلس على سرير الملك وكان صغيراً قال لأصحابه: أعلموا أنى عاهدت الله على أنه إن آل الملك إلى أعيد آل المنذر إلى الحـيرة وأقتل طائفة المزدكية الذيـن أفسدوا أحوال الناس وهم أصحاب مزدك الذى خـرج على عهد أبيه قوباز فتبعـه أبوه وكان خليفة المزدكية قائمـاً إلى جانب السرير فقال هل تقتل الناس جميـعاً هذا فساد فى الأرض والله قد ولاك لتصلح لا لتـفسد فذكر أنوشروان للخـليفة المذكور معايبـه وأمر بقتله فقتل بين يديه وأخرج وأحرقت جثته وأمر بقتل شـيعته فقتل منهم خلق كثير وأثبت ملة المجوسيـة القديمة وكتب بذلك إلى عـماله وقوى جنده بالأسلحة وعـمر البلاد وقسم أموال الزنادقة على الفقراء وردّ الأمـوال إلى أصحابها وأرجع المنذر إلى الحيرة وطرد الحرث بين حـجر جدّ امرئ القـيس عنها ، قـال بعض أهل التاريخ: وكـان الحرث كنديا فـترتب على ذلك قتل حـجر المذكور وزوال دولة الكنديين ومـا جرى لامرئ القيس بعد قتل أبيه كان فى عهد يوسطنيانوس قيصر الأول المذكور ، وسنذكر قصة امـرئ القيس على سبيل الاستطـراد ومحصلها أن أباه حجـراً كان قد طرده لما هوى ابنة عمه فاطمة الملقبة بعنيزة وكـان له معها يوم بدارة جلجل فنظم معلقته التى مطلعها، قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى يقال

له ربيعة فقال له اقتل امرأ القيس وأتنى بعينه فأخذه ربيعة وانصرف ثم ذبح جؤذراً وأتى بعينه إلى أبيه فندم حجر على ذلك فقال ربيعة أبيت اللعن إنى لم أقتله قال فأتنى به فانطلق فإذا هو فى رأس جبل وهو يقول:

فلا تتركنى ياربيع لهذه ∴ وكنت ترانى قبلها بك واثقا

فرده إلى أبيه ثم قال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى ∴ وهلى يعمن من كان فى العصر الخالى

وهل يعمن إلا سعيد مخلد ∴ قليل الهموم ما يبيت بأوحال

وفيها يقول :

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة ∴ كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ∴ وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وكان أبوه قد نهاه عن قول الشعر والتشبيب بالنساء فلما بلغه أنه لم ينقد لكلامه طرده وبقى مطروداً حتى قتل بنو أسد أباه فبلغه ذلك وهو بجبل دمون فى أرض اليمن فشق ثيابه وحزن عليه وحلف أن لايشرب خمراً ولا يغسل رأسه حتى يأخذ بثأره ثم أنه استنجد ببكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه ثم هرب بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم فوضع السلاح فى كنانة وهم بنو عمهم حيث لجأ اليهم بنو أسد ونادى امرؤ القيس يالثارات الملك فقالت له عجوز لسنا لك بثأر فاطلب ثأرك فاستمر على وضع السلاح فى كنانة ففاتوه وقيل أنه أدركهم وقد تقطعت خيله وكثرت القتلى والجرحى وحجز الليل بينهم وهرب بنو أسد فأبى بنو بكر وتغلب أن يتبعوهم وقالوا قد أصبت ثأرك فقال ما أصبت من كاهل ولا أسد أحداً وكاهل من كنانة قال بعض الكتاب وهذا معنى قوله فى قصيدة بائية :

ألا يا لهف هند إثر قوم ∴ همو كانوا الشفاء فلم يصابوا

يعنى يحق لهند أخته أن تتلهف على عدم إدراك بنى أسد وأخذ الثأر منهم وقوله من قصيدة أخرى :

والله لا يذهب شيخى باطلا ∴ حتى أبيد مالكا وكاهلا

ومع تخاذل بكر وتغلب عنه فقد طلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرىء القيس خوفاً من المنذر فلما رأى ضعف أمره وطلب القوم له ذهب يستنصر بقبائل العرب قبيلة قبيلة فلم ينصروه وقصد السموأل بن عاديا اليهودى فأكرمه وأقام

عنده مدة ثم سار إلى يوسطنيانوس قيصر الروم وأودع دروعه عند السموأل وأنشد في مسيرة قصيدته المشهورة التي منها:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ∴ وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما ∴ نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس في عوده من عند قيصر في بلاد الروم عند جبل يقال له عسيب بقرب مدينة أنقرة بالروم وأنشد عند ما أيقن بالموت بجانب قبر أخبر بدفن امرأة غريبة فيه:

أجارتنا أن الخطوب تنوب ∴ وأني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا ∴ وكل غريب للغريب نسيب

قال بعض أهل التاريخ: أن يوسطنيانوس عجل عليه بحلة مسمومة بالزئبق وهو بعيد وأبعد منه قولهم إن السبب في ذلك اكتشاف يوسطنيانوس عشقه لابنته ونظمه قصيدته التي مطلعها [ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي] وقد سبق أنه قالها بعد اجتماعه بأبيه قال بعض الكتاب: ولعل من قال أنه أنشدها عند قيصر بنى ذلك على قوله فيها ولو أن ما أسعى البيتين السالفين ولا دلالة فيهما على ذلك لاحتمال أنه بعد زوال ملك أبيه عن الحيرة كان يتطلب الملك ويسعى في الحصول عليه اهـ.

من بعض المؤلفات.

ولنعد إلى ما كنا فيه ، فلما تولى كسرى أنوشروان الملك بعد أبيه خابره يوسطانيوس الملك في أمر الصلح ورفع الحصار عن أنطاكية فأجابه كسرى لذلك حيث كان يومئذ في شاغل بأمور ملكه الداخلية وعقد مع القيصر شروط المحبة الدائمة والسلم المستمر قالوا والحقيقة أنه لم يكن إلا مجرد مهادنة ومتاركة وقد هاب الملوك أنوشروان وهادوه بالهدايا السنية وكان مما ورد عليه رسول ملك الروم يوسطانيوس بهدايا وتحف فنظر إلى إيوانه وحسن بنيانه فرأى اعوجاجاً في ميزانه فسأل عن سبب ذلك فقيل أن عجوزاً لها منزل في جانب الاعوجاج وان الملك رغبها في الثمن فأبت ولم يكرهها وبقى الاعوجاج من ذلك على ما ترى قيل فقال الرومي هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء ، قال أهل التاريخ: ولأربع وعشرين خلت من ملك أنوشروان المذكور ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو صاحب الشريعة الإسلامية فكانت ولادته في عهد يوسطانيوس الملك وكذلك ولد صاحب الشريعة في السنة الثانية والأربعين من ملك أنوشروان كسرى فارس المذكور وفي عهد يوسطانيوس الثاني قيصر الروم.

ولما تقررت قاعدة الصلح بين أنوشروان فارس ويوسطانيوس القيصر تجهز يوسطانيوس لقتال الوندال فى إفريقية وهم قبائل الأندلسية وسار لذلك فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة تسع وثمانين قبل الهجرة فلبثت الحرب سنة ويوسطانيوس لا ينفك عنهم حيث صمم على استرجاع جميع البلاد التى كانوا استولوا عليها وكانت فى هذا الحين قد استحالت شجاعة الوندال إلى الجبن والفتور حيث داخلهم الميل إلى الزينة الشرقية والتخلق بالترف والارتخاء وقد فقدوا النخوة والشهامة وركب بيليسيرس القائد السفن مع عساكره وسار إلى قرطاجة فانتصر عليهم واستولى على المدينة وأخذ ملك الوندال أسيراً ثم طلبه ديوان القسطنطينية فسار إليها ودخل بموكب النصر الحافل فكان ملك الوندال فى زفاف هذا الموكب تحفة من تحف الموكب يقاد بين الأسرى الوندالية فى وسط الغنائم عرضة للمتفرجين ثم سار بعد ذلك الأمير بيليسيرس القائد المذكور إلى جزيرة سردانيا لينزعها من قبضة الوندال فظهر عليهم هناك أيضاً واستولى على الجزيرة وصيرها من ملحقات قرطاجة فلم يقبل المتأصلون من أهل الجزيرة الدخول فى زمرة الرومانيين ولم يرضوا أن يكونوا رعية الروم وأبوا أن يدخلوا فى دين المسيحية وأصروا على العصيان وبقوا على جاهليتهم مدة من الزمان إلى أيام موريقوس الملك الذى تولى فى سنة ست وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربعين قبل الهجرة.

وتهيأ يوسطانيوس الملك بعد فراغ عساكره من حرب الوندال وظهورهم عليهم لقتال الغوطية فرسم إلى الأمير بيليسيرس بفتح إيطاليا وأخذها من أيدى الغوطية وذلك سنة ثمان وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ثمان وثمانين قبل الهجرة فسار الأمير بيليسيرس وبذل الجهد وشدد فى القتال فلم يتم الفتح على يديه فبعث يوسطانيوس الأمير نرسيس ففتح الله عليه وظفر بالغوطية وقهرهم وكانت شوكة الغوطية قبل هذا الحين قوية جداً فى إيطاليا وكان يخشى منهما كثيراً ولكن ما لبثت أن تقهقرت وانحطت وأخذت فى التناقص فلم تقو على محاربة الرومانيين فى هذه الحرب الأخيرة، وكان مركز قوة الغوطية فى هذا الحين مملكة أسبانيا وكان لهم فيها ملوك أصحاب تدبير وحزم فتولى عليهم بأسبانيا بعد ذلك ملك اسمه اطانا جلدوس كان قليل الحزم وملك آخر فى إيطاليا اسمه آجيلا فكان خصماً عنيداً لملك أسبانيا فتجهز كذلك آجيلا المذكور فى سنة ست وستين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبعين قبل الهجرة لقتال جلدوس فاستعان جلدوس بعساكر الروم على آجيلا ففرح يوسطانيوس بذلك وسير البطرك لبريوس إلى إيطاليا فهزم آجيلا شر هزيمة وعاد

منصوراً فسير به يوسطانيوس إلى أسبانيا فسار إليها وقاتل الغوطية فانتصر عليهم وأخذ منهم مدينة بلنيسة وقرطبة وسائر مدن إقليم الأندلس الشرقية وأضيفت إلى القسطنطينية وبقى قسم عظيم من الأندلس تابعاً لدولة القسطنطينية إلى سنة عشرين وستمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين قبل الهجرة، ونقض كسرى أنوشروان صلحه مع الروم بإغراء الأرمن والغوطية فقامت الحرب بينهم سنة ثمان وستين وخمسمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين قبل الهجرة وزحفت عساكر فارس على الديار الشامية وهاجمتها فردهم الأمير بيليسيرس قائد جنود الروم وطردهم عن البلاد ، قال بعض أهل التاريخ: فانتهزت قبائل اللاظ هذه الفرصة وألقت بنفسها فى أيدى كسرى أنوشروان هى ومن حولها من بلاد البحر الأسود وخرجت من تبعة الروم فتقوت بهم عزيمة كسرى وأنشأ مراكب الحرب بالبحر الأسود وعقد النية على تسخيرهم فى تسييرها فلما أحسوا منه بذلك ندموا على دخلوهم فى قبضة يده وصمموا على العود إلى طاعة الروم فنجحوا وتم لهم الأمر وتألبوا جميعاً على طرد الفرس من بلادهم ففازوا وذلك سنة تسع وستين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبع وستين قبل الهجرة ، واستمرت الحرب بين فارس والروم وطال أمدها وقتل فيها ما لايحصى عدداً من الأبطال ثم انتهت فى سنة ست وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ستين قبل الهجرة بعقد الصلح بين الطرفين واستقرت قاعدته بينهما على رجوع المملكتين إلى حدودهما القديمة وإرجاع كل شيء إلى أصله.

واتفق فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين قبل الهجرة أن اتحد البلغار بالصقالبة من أهل الجنوب واجتازوا نهر طونة فى الشتاء وهو متجمد مثلج وأغاروا على ولاية روم إيلى التابعة لدولة الروم وكان قائد هذه الجموع يومئذ الأمير زابرخان وكان فى ذلك العهد قد غضب يوسطانيوس الملك على قائد جيوشه الأمير بيليسيرس وصرفه من خدمته فلازم العزلة والانكماش فلما كثر فساد تلك الجموع وتوالت إغاراتهم على البلاد وعاثوا فيها حتى أهلكوا الحرث والنسل ضاقت صدور أهل البلاد واستولى عليهم الخوف والوجل واستغاثوا ولا مغيث وعلم الأمير بيليسيرس بما حل بالمملكة وأنها فى خطب شديد فقام واستمال لنفسه جند الحرس الملوكى وكثيراً من الأهالى ممن حملهم على حمل السلاح وسار بهم لقتال تلك الجموع فظفر بهم وطردهم صوب نهر طونة ففرح به الأهالى فرحاً عظيماً وأحبوه حباً ما عليه من مزيد وفاز بالفخر والشهرة بعد الخمول ولكنه لم يلبث أن أتهمه أعداؤه بأنه يعمل على إثارة الفتن ضد القيصر وأنه يحرض أهالى البلاد فقبض

عليه يوسطانيوس واعتقله وصادره وسلب أمواله فـمات محزوناً مقهوراً وترك له فى قلوب أهل البلاد أثراً لا يمحى.

ثم مات يوسطانيوس حتف أنـفه سنة تسع وسبعين وخمسـمائة للميلاد أى سنة سبع وخـمسين قبل الهـجرة وكان موته بعـد موت الأمير بيليـسيرس بأشهـر قلائل فكانت مدة ملكـه ثمانية وثلاثين سنة قـيل وفى أيامه أناط بعض العـارفين من أهل العلوم بتقنين القـوانين وتنظيم اللوائح واستنبـاط القضايا المتنوعـة والأحكام المتأصلة والمتفرقة واستخراجها من الكتب الرومانية وتنـقيحها وتهذيبها فأجازت تلك القوانين لمن يتولى ملك الروم التصرف المطلق بحيث لا يكون مقيداً يفعل فى سياسته ما يشاء ويختار ، وحدث فى أيامه طاعون هلك فيه كـثير من الخلق ووقعت الزلازل الهائلة فكان منها زلزلة سنة خمس وسـتين التى هدمت أكثر المدن العظيمة ودمـرتها تدميراً وقد حازت دولة القسطنطينية فى أيامه شـهرة كبيرة جداً ، وكان حبه لمصـر عظيماً ويحب نجاحهـا وتقدمها ولذلك تعاهد مع نجـاشى الحبشة بقصـد جلب التجارة إلى مدينة الإسكندرية غير أن نائبه عليـها كـان عاتياً ظالماً قد كلـف أهل الإسكندرية ما لا يطيقونه وأثقلـهم بالمغارم وشدد عليهم فى أمورهم فكان يـنفى من لا يقوم بوفاء تلك المغارم الثقيلة ويبعده وقد كان أقام عليـهم بطركاً اسمه طيودوسيس فقام جميع أهل الحرف والصنائع والأعيان ولم يقـبلوه وتهددوا الوالى بالخروج إن هو أصر على ذلك فأمـر قائد جنوده المدعو نرسيس فـأحرق مدينة الإسكندرية وأقام طيـودوسيس عليهم بطركاً جبراً ولكنهم عزلوه وطردوه بعد موت يوسطانيوس الملك.

ومات فى أيامه ثيموثاوس بطرك الاسكندرية ونفى فكانت مدته سبع عشرة سنة منها ثلاث سنين فى النفى وقاسى شدائد عظيمة جداً فخلفه أيولياديوس وكان ملكيا فجد واجـتهد فى رجوع المسيحـيين بأجمعهم إلى رأى الملكيـة وبذل جهده فى ذلك وألزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة فوافقوه ووافقه رهبان ديارات بومقاد بوادى هبـيب هذا ويعقـوب البراذعى يدور فى كل مـوضع ويثبت أصـحابه على الأمـانة المستقـينة والقول بمقـالة دسقورس ، وأمر الملك جـميع الأساقفة بعـمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأول وبعـمل الغطاس فى ست تخلو من كانون الثانى، وكان كثيـر منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد وهو سـادس كانون الثانى قـلـت: وعلى هذا الرأى طائفة الأرمن إلى يومنا هذا.

وفى هذه الأيام أيضـاً ظهر يوحنا النحـوى بالاسكندرية وزعم أن الأب والابن والروح القدس ثلاثة آلهة وثلاث طبائع وجوهر واحـد وظهر يوليان وزعم أن جسد

المسيح نزل من السماء وأنه لطيف روحانى لا يقبل الألم إلا عند مقاومة الخطيئة والمسيح لم يقترف خطيئة فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يمت وإنما ذلك كله خيال فأمر يوسطانيوس الملك ثيموثاوس البطرك يومئذ أن يرجع إلى مذهب الملكية فلم يفعل فأمر بقتله ثم شفع فيه فنفى كما تقدم القول ومازال إيوليايديوس يدبر شؤن البطريكية حتى مات فأقيم بعده بولس وكان ملكيا فأقام سنتين فلم يرضه المتأصلون وقيل أنهم قتلوه وصيروا عوضاً عنه ديلوس بطريركا وكان ملكيا أيضاً فأقام خمس سنين ومات فبلغ يوسطانيوس أن المتأصلين غلبوا على الإسكندرية ومصر وأنهم لايقبلون بطاركة فبعث إلى الإسكندرية أثولنياديوس أحد قوّاد جنوده وضم إليه عسكراً كثيراً فلما قدمها ودخل الكنيسة نزع ثياب الجند ولبس ثياب البطاركة وقدس فهم الناس برجمه فانصرف وجمع عسكره وأظهر أنه قد أتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس وضرب الناقوس فى الاسكندرية يوم الأحد فاجتمع الناس إلى الصلاة حتى لم يبق أحد فصعد المنبر وقال :

يا أهل الاسكندرية إن لم تتركوا مقالة اليعقوبية وإلا أخاف أن يرسل الملك من يقتلكم ويبيح أموالكم ونساءكم فهموا برجمه وهو على المنبر فأشار إلى العسكر فوضعوا السيف فيهم فقتل من الناس يومئذ مائة ألف نفس وفرّ منهم خلق إلى الديارات بوادى هبيب وأخذ الملكية كنائس المتأصلين ومن يومئذ صار كرسى المتأصلين فى دير يومقاد بوادى هبيب ، وفى هذه الأيام أيضا ثار السامريون على أرض فلسطين وهدموا كنائس النصارى وأحرقوا ما فيها وقتلوا جماعة من النصارى فبعث يوسطانيوس جيشاً فقتلوا من السامريين خلقاً كثيراً ووضع من خراج فلسطين جملة وجدد بناء الكنائس وأنشأ مارستانا ببيت المقدس للمرضى ووسع فى بناء كنيسة بيت لحم وبنى ديراً بطور سيناء وعمل عليه حصناً حوله عدة قلاع ، قلت: وهو باق إلى يومنا هذا وكذلك رتب فيها حرساً لحفظ الرهبان.

وفى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع المسيحيين ، قال بعض أهل التاريخ وسببه أن أريحانس أسقف مدينة نبج قال بتناسخ الأرواح وقال كل من أسقف أنقره وأسقف المصيصة وأسقف الرها أن جسد المسيح خيال لا حقيقى فحملوا إلى الاسكندرية وجمع بينهم وبين بطريركها أوطس وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان فأمر يوسطانيوس أن يجمع لهم مجمعاً ورسم باحضار البطاركة والأساقفة فاجتمع مائة وأربعون أسقفا وحرموا هؤلاء الأساقفة ومن يقول بقولهم فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وهذا المجمع مائة وثلاث وستون سنة وأقام القائد أثولنياديوس بطريركا

مدة سبع عشرة سنة على المشهور ومات فقام بعده يوحنا وكان منانيا فأقام ثلاث سنين فتقوى المتأصلون بعد ذلك وأقاموا عليه بطريركا اسمه تاودوسيوس وهو ثالث ثلاثيهم فلم يقف الملكية عند حدهم بل أقاموا أيضاً بطريركا ثانيا اسمه أثيوس وشكوا المتأصلين فكتب الملك إلى متولى الاسكندرية أن يعرض على بطريرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلدقدونى فإن لم يقبلها أخرجه وأقام بدله أثيوس فعرض عليه ذلك فلم يقبل فأخرجه وأبعده وأقام بعده يوليس التنيسى فلم يقبله أهل الاسكندرية ومات فقفلت كنائس المتأصلين وأصابهم من الملكية ما لايوصف من الأذى والشدة مما لا محل لايراده هنا ، ولما مات يوسطانيوس الملك خلفه على سرير الملك يوسطينوس الثانى.

(فى الملك يوسطينوس ـ قيصر الثانى)

ثم قام بالأمر يوسطينوس الثانى بويع بالملك فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين قبل الهجرة وكان حسن السيرة حميد الخصال مستقيماً عادلاً منصفاً أنسى باستقامة أحواله إعوجاج أسلافه ففرح به الناس وأخلصوا له فى المحبة وحسبوه منة من الله سبحانه على عباده بعد تلك الشدائد والخطوب ولكن لم يلبث أن تغيرت أحواله وتبدلت أطواره فانعكف على اللذات وأسرف فى الشهوات وجار وظلم وترك تدبير الدولة لزوجته صوفية فترتب على ذلك فساد حال الأمة واضمحلال أحوال الدولة وذلك أنه لما كان ركن الدولة الرومية والمدبر لأمورها والقائم بإعلاء كلمتها إنما هو الأمير نرسيس الطواشى وكان هذا الأمير ارتقى المراتب العلية فى أيام يوسطنيانوس قيصر وكان حازماً مدبراً لأمور الدولة ساعياً فى الصلح والحرب ميالاً لرفعة شأنها وإعلاء كلمتها فلما تولى الملك يوسطينوس وسلم زمام الدولة لزوجته صوفية غارت منه وحقدت عليه وسعت به عند الملك ومازالت حتى غضب عليه وخلعه من منصبه فتقوى بخلعه أعداء المملكة وصاروا يراقبون الفرص للايقاع بها ، وقدمت فى هذه الأثناء رسل من طرف خان التتار الهبارة على القسطنطينية يرغبون فى معاهدة يوسطينوس فأظهر التعاظم والأبهة ولم يرض بمعاهدتهم وعقد مع خان التركمان معاهدة وتحالف معه على مناصرته على كسرى فارس وكانت هذه المعاهدة توذن أيضاً بفتح باب التجارة والمعاملة فى وسط بلاد المشرق مع الدولة الرومية وكانت المنافسات بين الروم وفارس مازالت قائمة على بعض الأمور فانتشبت الحرب بين يوسطينوس وأنوشروان كسرى فارس لتنازعهما

على بلاد أرمينية الفارسية فأغـار أهل فارس على أراضى الروم وعاثوا وقتلوا ونهبوا وأسروا ثم انقطع الحرب بموت كسرى وقيصـر إلى حين فلما مات كسرى أنوشروان تولى الملك بعده ابنه هرمز الذى سيأتى الكلام على ما وقع منه فى محله إن شاء الله تعالى غيـر أنا نقول هنا حرصاً على الفائدة أنه يوم ملـك هرمز المذكور نطق بالحكم فى مقالة مطلعها، الحكم عماد الملك، والعقل عماد الدين، والرفق ملاك الأمور، والفطنة ملاك الفكرة، أيها الناس إن الله خصنا بالملك وعمكم بالعبودية وكرم مملكتنا فأعتقكم بها من عبوديتنا وأعـزنا وأعزكم بعزنا وقلدنا الحكومة فيكم وقلدكم الانقياد لأمـرنا ، إلى أن قال ولا تسموا النسك رياء ولا الرياء مراقـبة ولا الشر شجاعة ولا الظلم عزمـا ولا الرحمة نقمـة ولا الصنع عفافا ولا الأخـذ بالفضل ذلا ولا العناية غفلة ولا الغـدر ضرورة ولا الورع اجتهـادا ولا الخيانة غنمـاً ولا القصد تقتـيراً ولا البخل اقتصـادا ولا الزهد مروءة ولا التوانى تؤدة ولا الحياء مهانة ولا السـفة صرامة ولاالعجب كمالاً ولا ما لا يكون كائناً ولا المعاتبة مفاسدة أيها الناس اجتنبوا المرذول من هذه الأمور المتشابهات وثابروا على ما تحظون به عندنا إلى آخر ما قاله من الحكم البليغة والنصائح المؤثرة فى النفوس التى لم يسبقه إليها قائل.

أمـا يوسطينوس، فقال أهل التاريخ: أنه سار فى الرعيـة سيرة رديئة جداً فجار وظلم وسامها الخسف وألحت عليه زوجته صوفية فتبنى طبيروس قسطنطين أمير جند الحرس الملوكى ثم مرض وأصابه الخبـال فى عقله ولبث على هذه الحال إلى أن مات حتف أنفـه فى سنة اثنتين وتسعـين وخمسمـائة أى سنة أربع وأربعين قبل الهـجرة فكانت مدة ملكه ثلاث عشرة سنة فخلفه فى الملك طبيروس قسطنطين متبناه.

(فى الملك طبيروس قسطنطين)

(قيصر)

ثم قام بالأمر طبيروس قسطنطين قيـصر بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه يوسطينوس سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين قبل الهجرة وكان يوسطينوس قدعـهد إليه بالملك من بعده بإغراء مـن صوفية زوجته كـما تقدم القول وكـان الحامل لها على ذلك حبـها له وتعلقها به ورغـبتها فى التـزوّج به بعد موت يوسطينوس زوجها فلما استقر بطبيروس المنصب أعرض عن التزوّج بها وتمادى على إعراضه فطاولته واستمالتـه وتحببت إليه فلم يقبل فلما أيست أثارت عليه الفتن والشرور وعـملت على تذليله وحرضت العسـاكر على خلعه فلم تظفر بمرامـها ولم

تنجح فى مسعاها ومع ذلك فإنه لم يعاملها إلا بالرفق واللين ولم يسلك معها إلا سبل الحلم والصفح وكان حازماً كريما متمسكاً بالدين المسيحى أشد تمسك وكان يحب الديار المصرية كثيراً فلما علم أن أهلها شديدو التمسك بمذهب ديسقورس بذل الجهد فى تثبيت أركان هذا المذهب فيها وهمّ بأن يجعله معتقد جميع نصارى مصر وأيد كنيستهم وعضدها وجعلها راسخة القدم كما هى إلى يومنا هذا.

وقد قلنا فيما سبق أن الملك يوسطينوس كان قد ناوى فارس على الحرب وأن الحرب تأخرت بموته وبموت أنوشروان فلما تولى طيبيروس الملك جرّد جنوده على فارس وسار لقتال هرمز بن أنوشروان فقامت الحرب بينهما وكانت سجالاً ، قال بعض أهل التاريخ: وكان هرمز المذكور عادلا عاقلا كأبيه ينتصف للمظلوم من الظالم وقد بالغ فى ذلك جدا حتى أبغضه خواصه ومن مآثره أنه اصطنع صندوقا ليلقى المتظلم قصته فيه وكان يختم الصندوق بخاتمه لئلا تصل إليه أيدى بطانته وأمر باتخاذ سلسلة من الطريق نافذة إلى مكانه وجعل بها أجراسا فكان المتظلم يجىء فيحرك السلسة فيعلم به ويتقدّم باحضاره وإزالة مظلمته وكان مهيبا محسنا للسياسة جوادا أمضى من ملكه عشر سنين ولم يتحرك أحد من ولاته ولا خرج خارج من رعيته حيث كان أبوه قد مهد له الملك وسخر له الرعية ورتب له أمور الدولة ولم يخرج عليه إلأطيروس ملك الروم وآخرون من ملوك الخوارج، وكان خروج طيبروس فى ثمانين ألف فارس فانتصر على هرمز نصرات متعددة وجند فارس، لم تزل مثابرة على الحرب والروم تسعى فى عقد الصلح فلم تتمكن من ذلك وما زالت الحرب قائمة على ساقها إلى زمن موريقوس قيصر كما سيأتى ذكر ذلك فى محله ، وطرد طيبيروس قيصر التتار الهبارة الايغورية عن بلاده أيضاً وأبعدهم إلى بلاد المجار والإفلاق والبغدان وكانت أيامه مسعودة وغزواته موفقة فكانت الرعية تود لو تدوم عليها أيامه ويمتد سلطانه عسى أن يعيد للبلاد روونقها القديم وبهجتها الأولى إلا أن المنية اخترمته فى أقرب وقت فمات حتف أنفه سنة ست وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربعين قبل الهجرة فكانت مدة ملكه أربع سنوات. وقد عهد قبل موته بالملك لزوج ابنته الأمير موريقوس القائد الشهير فخلفه على سرير الملك.

(فى الملك موريقوس وهو موريقس)
(ويقال له أيضاً)
(مورثيوس طيبروس)

ثم قام بالأمر موريقوس زوج ابنة طيبيروس بعهد منه فى سنة ست وتسعين

وخمسمائة للميلاد أي سنة أربعين قبل الهجرة، وكان قائدا لفريق من الجيوش الرومية فاشتهر بالبسالة والإقدام وكان موفقا في حروبه فانتصر على فارس عدة نصرات فأحبه طيبروس الملك حبا شديدا وزوجه ابنته وعهد إليه بالملك من بعده.

فلما استقر به المنصب دبر فأحسن التدبير ورتب الأمور وقد حاز غاية الفخر والشهرة لأنه أعاد إلى كرسي سلطنة فارس أبرويز خسرو بن هرمز بعد أن كان قد فرّمنها عقب فتنة عظيمة لا بأس بإيراد خبرها هنا لأن لها علاقة بتاريخ بعض القياصرة المتأخرين، وبيان ذلك أنه لما خرج على هرمز ملك الروم وملك الخزر والترك وكانوا كلهم أعداء له ويخشى منهم على مملكة فارس أحضر إليه قائدا من قواده صائب الرأي مسموع الكلمة اسمه بهرام جوبين، ومعنى جوبين اليابس الصلب، وكان بهرام جوبين المذكور شجاعاً مبارزا طويلاً أعجف كأنه العود اليابس فأعده لقتال أعدائه فسار لقتال قبائل التركمان فاشتدّ عليهم وهزمهم ونهب وسلب وأسر وأجلى الجم الغفير منهم عن البلاد واستولى على مدن كثيرة وأرسل بذلك إلى هرمز كسرى فخاف عند ذلك هرمز على ملكه من بهرام جوبين المذكور وحقد عليه فقامت بينهما فتنة واشتدت حتى أدت إلى القتال فانحاز أكثر العساكر إلى جانب بهرام وصاروا له عونا على هرمز وكان أبرويز بن هرمز مطرودا من أبيه مقيماً بأذربيجان فبلغه ما كان عليه أبوه من حالة الضعف وخشى من استيلاء بهرام جوبين على الملك فقصد أبرويز أباه وأمسكه وسمل عينيه ولبس التاج وجلس على سرير الملك فكان من ابتداء ملك هرمز إلى استقرار ابنه أبرويز في الملك نحو ثلاث عشرة سنة ونصف سنة قال أصحاب التاريخ: وصار ملك فارس إلى أبرويز في السنة التاسعة عشرة من مولد صاحب الشريعة الإسلامية وطال ملكه إلى أن خلفه ابنه شيرويه في السنة السادسة من الهجرة كما سيأتي ذكر ذلك في محله، وكان قد بعث إليه صاحب الشريعة الإسلامية كتابه مع دحية الكلبي يدعوه إلى الإسلام فمزقه أبرويز شذرمذر فدعا عليه صاحب الشريعة بأن يمزق الله ملكه كما مزق هو الكتاب فأرسل أبرويز إلى عامله بازان ملك اليمن أن يقتل صاحب الشريعة فعين بازان إلى المدينة قاصدا لينظر في انفاذ هذا الأمر بطريق الحيلة فلما جاء القاصد إلى صاحب الشريعة أخبره صاحب الشريعة أن كسرى أبرويز قتله أولاده اليوم فعاد القصاد إلى بازان خاسرا خائبا وحدثه بالخبر فلما صح قيل: إن بازان أسلم وحسن إسلامه وخالف بهرام أبرويز كسرى المذكور وخرج عليه مظهرا أنه يريد الانتقام منه نظير ما فعله بأبيه هرمز فجرت بينهما حروب هائلة كانت نهايتها تغلب بهرام على مملكة

فارس وأخذه تاج الملك فخشى أبرويز من بهرام أن يقيم والده الأعمى ملكا بالاسم ويتصرف هو في الملك ويستفحل أمره فاتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمز فخنقه ولحق بموريقس ملك الروم مستنجدا به على بهرام جوبين فلامه موريقس على ما فعله بأبيه أوّلا وثانياً ومع أن أبرويز كان من أشد أعداء موريقس فقد أخذ يناصره ولم يرده خائبا وأرسل معه جيشا جرارا مقدمه الأمير قومنديولس فانتشب القتال بينه وبين بهرام جوبين ولبثت الحرب ثلاث سنين متتابعة حصل فيها ثلاث وقائع هائلة غير الحروب الصغيرة وتم الأمر بانتصار خسرو بن أبرويز على بهرام فهرب بهرام إلى خراسان عند ملكها شاريه شاه وكان جد أبرويز لأمه فدس لبهرام من يقتله بالسم فهلك بهرام بخراسان وعاد ملك فارس إلى أبرويز ففرق في عساكر الروم أموالاً جليلة ثم أعادهم إلى موريقس بعد أن أقاموا أربع سنين.

وكان موريقس قد اشترط على كسرى أن يعيد إليه ما كان قد استلبه بهرام من البلاد الرومية وعاهده على ذلك سنة خمس عشرة وستمائة للميلاد أي سنة إحدى وثلاثين قبل الهجرة وبذل موريقس الجهد في إخفاق تتار الهيارة وتمزيق شملهم فبعث إليهم قائد جيوشه فظفر بهم على سواحل نهر طونة في خمس وقائع غير أنه أسر فيها من عساكر الروم اثنى عشر ألف نفس وطلب خان الهيارة من موريقس الفداء وجعل على كل رأس منهم دينارا وكان موريقس شديد البخل فلم يرض بذلك فطلب نصف دينار فأبى أن يعطيه شيئاً قال بعض أصحاب التاريخ: فغضب خان التتار من فعال موريقس فأمر بالأسرى فذبحوا عن آخرهم فقام الروم وصار يطلب الوالد ولده فلم يجده والولد أباه والزوجة زوجها والأخ أخاه فعلموا أن ما أصابهم من قبل التتار وأن السبب في ذلك موريقس فقاموا عليه وكان الأمير فوقاس القرماني أحد قواد العساكر الرومية خارجا عن القسطنطينية في هذا الحين فلما علم بخبر الفتنة وتحقق كراهة الرعية للملك وقيامها عليه سعى في استمالة الجنود الخارجة عن طاعة الملك. فمالوا إليه وبايعوه بالملك فزحف بهم على القسطنطينية وناوش من فيها ثم تملكها بعد حروب خفيفة جدا فلما دخلها قبض على موريقس الملك وأولاده وضرب أعناقهم جهارا وجلس على سرير الملك، وكان أولاد موريقس الذين قتلوا معه يومئذ ستة كلهم ذكور.

وفي أيام موريقس مات تودوسيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتين وثلاثين سنة وقيل إحدى وثلاثين قضى منها ثمانيا وعشرين سنة منفيا مبعدا عن الاسكندرية في صعيد مصر وفي رواية أن مدّة نفيه كانت أربع سنين لا غير وكان

موته في ثامن عشري بؤنة وفي أيامه جدد المتأصلون كنيستين في سنة ثمان وأربعين ومائتين لدقلطيانوس وخلف تودوسيوس المذكور بطرس الرابع وهو رابع ثلاثيهم، وكان متأصلاً فأقاموه في خفية بدير الزجاج بالاسكندرية قدمه ثلاثة أساقفة، وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله، وظهر في أيام موريقس الملك أيضاً راهب اسمه مارون زعم أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وأقنوما واحدا فتبعه أهل حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من الروم ودانوا بقوله فعرفوا بين المسيحيين إلى يومنا هذا بالمارونية أو الموارنة فلما مات مارون هذا بنوا على اسمه دير مارون بحماة وهو قائم إلى يومنا هذا.

(في الملك فوقاس)
(قيصر)
(ويقال له أيضاً)
(فوقا)

ثم قام بالأمر فوقاس قيصر جلس على سرير الملك في اليوم الذي قتل فيه موريقس وجميع أولاده سنة ست وعشرين وستمائة للميلاد أي سنة عشرين قبل الهجرة وكان فوقاس هذا عتلا زنيما منهمكا على اللذات والشهوات كثير الحرص والطمع قليل الحساب جبانا، وكان يكره المصريين ويميل إلى نكايتهم فرسم بان يحظر عليهم التقليد بالمناصب الملكية والرتب والوظائف وكافة الخدامات الميرية فقامت لذلك فتنة في مدينة الإسكندرية.

قال بعض الكتاب وكان معظم القائمين من يهود هذه المدينة فقام عليهم فوقاس وقهرهم وألزمهم الدخول في الديانة النصرانية فدخلوها صاغرين وسكنت بذلك الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل.

وكان أبرويز خسرو بن هرمز ملك فارس قد رسخت قدمه في ملك البلاد بعد انتصاره بجيوش الروم على عدوه فطغى وبغى واحتقر الأكابر وظلم الأصاغر وأهان الرعية وسامها الخسف، وكان قد عقد مع موريقس صلحا كاذبا ولكنه لما علم بقتل فوقاس لصاحبه موريقس أظهر الأسف والحزن عليه وأنه يريد الأخذ بثاره من فوقاس فجرد على فوقاس عسكرا جرارا واسترد من بلاد فارس التي كانت بيد الروم إقليم أرقة والجزيرة وأرمينة والشام وقطنة من أعمال أناضلي فنال الفرس من الروم

وغلبوهم أشد الغلبة على بلادهم فصار أبرويز أعدى عدو لفوقاس ومع ضعف فوقاس عن مقاومته وعدم قدرته سير جيشا عظيماً لقتاله، وكانت جنود هذه الحملة جميعها تكره فوقاس وتتمنى انخذاله فساروا للقتال على كره فانتصر عليهم أبرويز وبدد شملهم فهربوا وتشتتوا وتقدم أبرويز بجنوده حتى صار على مقربة من قسطنطينية وكان بها رجل من ذوي الوجاهة والاعتبار اسمه فوثيوس وكان له زوجة بديعة في الجمال عفيفة قد تعلق بها فوقاس الملك وفضحها لانهماكه على الفسق وانغماسه في القبائح فلما حاصر أبرويز المدينة وضيق عليها وشدد على فوقاس قام فوثيوس المذكور مع بعض الروم وراسلوا الأمير هرقل وإلى بلاد إفريقية سرابان يقدم إلى القسطنطينية ويخلصها من يدي العدو المحدق بها من كان جانب ويخلع فوقاس ويتولى الملك بدله وشددوا في طلبه وحذروه من عاقبة التأخير كيلا تسقط البلاد في أيدي الأعداء فلما وصل الكتاب لهرقل جهز عمارة سفن قرطاجة وسيرها مع ابنه من أفريقية فرسا في بوغازها وجاء الخبر إلى فوثيوس بمقدم هرقل فاندفع فوثيوس ومن معه من الروم إلى إضرام نار الفتنة في جوف البلاد ضد فوقاس وما زالوا حتى اشتدت وعمت سائر الأنحاء وقامت الرعية تطلب خلع فوقاس وتنصيب هرقل مكانه.

ووصل هرقل وجعل يحتال على فتح البوغاز ودخول المدينة بينما كان فوثيوس يحاول مع أصحابه حصر فوقاس في قصره فما تم لهرقل الدخول من بوغاز المدينة حتى تم لفوثيوس القبض على فوقاس فأتى به إلى هرقل في سفينة وأوقفه بين يديه فنظر فوقاس إلى هرقل شزرا وأغلظ في القول وكانت العامة على الشاطيء تطلب قتل فوقاس فعلت أصواتهم عند ذلك وصاحوا يقتل يقتل الساعة فأمر هرقل أن يسلم لهم فضربوا عنقه في الحال وعنق جميع إخوته وأصحابه كما فعل هو بموريقس سلفه وبايعوا هرقل على ظهر سفينته بالملك وذلك سنة اثنتي عشرة قبل الهجرة أي سنة أربع وعشرين وستمائة للميلاد فكانت مدّة ملك فوقاس ثمان سنين.

وفي أيام فوقاس المذكور سير كسرى ملك فارس جيوشه إلى الشام ومصر فخربوا الكنائس ببيت المقدس وفلسطين وكافة بلاد الشام وقتلوا المسيحيين بأجمعهم وأتوا إلى مصر فأعانهم يهود مصر على قتال المسيحيين بها وتخريب كنائسهم فقتلوا ونهبوا وعاثوا وفعلوا ما لا خير فيه وأقبلوا نحو القدس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد القدس بأسرها فنالوا يومئذ من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم وخربوا لهم كنيستين ببيت المقدس وحرقوا أماكنهم وأخذوا

قطعة من عود الصليب وأسروا بطرك بيت المقدس وكثيراًمن أصحابه ثم سار كسرى بنفسه من العراق لغزو القسطنطينية كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم فحاصرها وضيق عليها أربع عشرة سنة ولم ينل منها.

ومات في أيام فوقاس بطرس بطرك الاسكندرية فكانت مدته سنتين اثنتين لم يدخل فيهما الاسكندرية لتغلب الملكية وضعف المتأصلين فأقام الملكية يوحنا المعروف بالرحيم بطريركا عليهم وانخذل المتأصلون فلم يقدروا على إقامة بطريرك منهم فدبر يوحنا هذا أرض مصر كلها عشر سنين ومات بقبرس وهو فار من وجه الفرس بعد دخولهم بلاد مصر فخلا كرسي الاسكندرية سبع سنين لخلو أرض مصر والشام من الروم بأسباب الحروب وتوارى من بقي بها من المسيحيين خوفاً من الفرس فحدث بسبب ذلك شدة عظيمة جدا.

(في الملك هرقل)
(قيصر)

ثم قام بالأمر بعد فوقاس الملك هرقل بايعه الأهالي وأعيان المدينة والعسكرعلى ظهر سفينة ببوغاز القسطنطينية في اليوم الذي قتل فيه فوقاس الملك سنة اثنتي عشرة قبل الهجرة أي سنة أربع وعشرين وستمائة للميلاد.

قال بعض أهل التاريخ: فكان مشؤم الطالع وقع في أيامه من العجائب والحروب ما يذهل العقول ويحير الألباب وقد ذكرنا فيما سبق أن أبرويز بن هرمز ملك فارس كان قد حضر على مقربة من القسطنطينية لقتال فوقاس والانتقام منه جزاء ما فعله بصاحبه موريقس فلما علم بموت فوقاس وتولية هرقل تقوت عزيمته ولم ينكف عن إثارة الحرب وتقدم إلى قتال هرقل فخابره هرقل في عقد صلح فلم يقبل وتطاولت عساكره إلى الإغارة على الشام حيث كانت بلاد الموصل إذ ذاك في قبضة ملكهم ثم أغاروا كذلك على ديار مصر وهاجموا الشام وأحرقوا أنطاكية ودمشق ومدينة بيت المقدس حتى وصلوا إلى طريق الحجاز وكان في عزمه أن يمجس جميع المسيحيين في هذه الجهات أي يجعلهم عبادا للنار ويمحو آثارهم ويقطع شأفتهم ثم أرسل قائدا من قواده بجيش جرار إلى ديار مصر وبلاد المغرب فنال من ذلك ما نال وانتصر عليهم نصرات عظيمة ثم صالح مصر على أن تدفع له مالا معلوما كما كانت تدفع إلى الروم وأعاد الكرة على بلاد الأناضول فاستولى على بلاد بروسه الواقعة في بوغاز قسطنطينية سنة ثمان وعشرين وستمائة للميلاد أي قبل

الهجرة بثمان سنوات واستعان أبرويز على تدويخ الروم بقبائل التتار الهيارة الذين هم الأوارة وتعاهد معهم على أن يشنوا الغارة على إقليم روم ايلي فأغاروا عليه حتى وصلوا إلى أسوار القسطنطينية وذلك قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين فتمت الهزيمة على الروم في بلادهم بآسيا وأوربا وحوصروا براً وبحراً فأيس هرقل من النصرة وإرجاع البلاد وعقد النية على المهاجرة إلى تونس ببلاد المغرب إذ كانت يومئذ من أملاك الروم وأن ينقل سريره إليها فصده عن هذه النية بطرك القسطنطينية وما زال به حتى كف عنها.

ولما منع بطرك القسطنطينية هرقل عن التخلي عن المملكة وعن الذهاب إلى المغرب جمع البطريرك المذكور أموال الكنيسة وأمتعتها الثمينة وأمدّ بها هرقل على حفظ ما بقي من دولة الروم من الزوال وكان هرقل قد استيقظ من غفلته فقوّى جيشه وجأشه ونقل ميدان الحرب خلف جبل طورس وقاتل الفرس فانتصر عليهم في الموضع الذي انتصر فيه الاسكندر على دارا فكانت هذه أول غزوة انتصر فيها الروم على الفرس بعد التغلب في السنة الثانية من الهجرة ثم سير جنده بحرا حتى أرسى على طرابزان وتعاهد مع الخزر وأغار على خسرو أبرويز حتى كاد يتغلب على حدود مملكته وبدد شمل التتار المعاهدين لفارس وهزمهم على مقربة من القسطنطينية وكان قد تقوى بأربعين ألفا من الخزر فغزا فارس وأعاد جميع المدن والولايات التي كانت ملوكهم قد أخذوها وسار جنوده بعد ذلك إلى المدائن بعد هزيمة الفرس عند الموصل، قال بعض الكتاب: وكان بعض المنجمين قد أنذر أبرويز بأن بعض ولده يغتاله فتشاءم أبرويز من جميع أولاده فحبسهم وكان في سجونه ستة وثلاثون ألفا موثقين بالحديد فأمر لعتوّه بقتلهم جميعاً فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا جميع المسجونين مع أولاده ولم يقتلوا أحدا منهم وجمعوهم إلى شيرويه أحد أولاده فجرى بين شيروية وبين أبيه مراسلات وتقريع وقد قال شيرويه لأبيه في ختام المراسلة لا تعجب إن أنا قتلتك فإني إنما أفعل كما فعلت أنت وأرسل شيرويه بعض أولاد الأساورة الذين قتلهم أبرويز وأمرهم بقتله فقتلوه في السنة السادسة من الهجرة وكان قد خلف أبرويز ثمانية عشر ولدا غير شيرويه المذكور فقتلهم شيرويه كلهم وجلس على سرير الملك فلما استقر به المنصب عقد الصلح مع الروم على الشروط التي اقترحها هرقل كما شاء بلا خلاف فانحسم النزاع بين الفريقين وبطلت الحرب في هذا العهد.

ولم تكن أم شيرويه بنت موريقس قيصر الروم كما زعم كثيرون من مؤرخي

الفرس وغيرهم حيث قالوا: إن اسمها مارية وأنه زوجها لخسرو أبرويز حين استنجد به على أعدائه فان هذا بعيد، ولم تطل مدة شيرويه ولم يتـمتع بالملك إلا قليلاً من الأشهر فإنه لما سكنت الفتنة وانقطعت الحـروب واستقرّ به المنصب الملوكي وكان قد علق بحب شيرين زوجة أبيه فراودها عن نفسهـا فامتنعت فضيق عليها ورماها بالزنا وأراد قتلها إن لم تفعل فقالت أفـعل على ثلاث خصال قال: وما هي قالت: تسلم لي قتلة زوجي فأقتلهم وتصعد المنبر فتبرئني مما قذفتني به وتفتح لي ناوس أبيك فإن له عندي وديعة عاهدني إن تزوجت بعده أن أردّها إليه فدفع لها قتلة زوجها فقتلتهم وبرأها مما قاله لهـا وفتح ناوس أبيه وبعث مـعها الخدم فـجاءت إلى أبرويز فعانقـته ومصت فصا مسمـوما كان معها فماتت من وقتهـا وأبطأت على الخدم فصاحوا فلم تردّ عليهم فدخلوا فوجدوها معانقة لأبرويز ميتة رحمها الله.

وكان شـيرويه المذكور سـيىء المزاج كثيـر الأمراض وكانت إخـوته على خلاف ذلك قد كملوا في الخَلْقِ والخُلُق والأدب قيل فندم على ما فرط منه من قتلهم وجزع عليهم جزعا شـديداً واتفق أنه دخل لينظر ما في خزينة أبيه فرأى فيـها برنية مكتوباً عليها (نافع مجـرب لتقوية الباه) وكان شيـرويه المذكور مغرما بالنساء مـولعا بحبهن فتناولها، وكان الذي فيها سما وضـعه أبوه أبرويز فلما ذاق منها مات لساعته فكانت مدة حكمه ثمانية أشهر لا غير ومات وعمره اثنتان وعشرون سنة فخلفه ابنه اردشير، قلت وعلى ذكرما فعله شيرويه المذكور بأبيه أبرويز وما جرى له بعد قتله لأبيه نذكر هنا حادثة ما جـرى لمحمد المنتصر العـباسي بعد قتله لأبيـه المتوكل وهي أنه لما قتل محمد المنتصر المذكور أباه المتوكل ليتولى الملك بعده تحدث الناس بأنه لا يطول عمره بعده وشبهوه بشيرويه بن أبرويز حين قتل أباه ولم يتمتع بالملك بعده فقيل أنه بعد أن جلس المنتصـر على سرير الخـلافة بعد أبيـه فرش له بساط لم ير مـثله وعليه كـتابة عجيبة بالفـارسية فنظر إليها المنتصر نظر الاسـتحسان فاستحضر مـن يعرف الفارسية وأمره بقراءتـها فأحجم عن ترجمـتها فقـال له المنتصر قل وما عليك مـن بأس فقال مكتوب على هذا البساط أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه غضـبان فلم تتم له مدة شيرويه حتى مات اهـ. فإن صح ذلك كان من غريب الاتفاق.

هذا ولما اطمـأن الروم من إغارات الفـرس وارتاح هرقل الملك من الغناء تفـرغ لتحـقيق العقائد الدينيـة التي كانت في أيامه مـحلا للنزاع وأخذ يجمع الجـموع من العلماء ويعقد المحافل وغير ذلك وظهر المتـأصلون بديار مصر بعد الانكماش فأقاموا

لهم بطريركا منهم بعد خلو كرسي الاسكندرية مدة وهو داميانوس خامس ثلاثيهم وكان راهبا بدير أبي مقار فلم يدخل الاسكندرية لقيام الملكيين وأخذهم جميع كنائسها فما زال يعمل مع قومه حتى دخلها واسترد ما استولت عليه الملكية من كنائس المتأصلين ورمّ منها ما تشعث في أيام الفرس وجعل من ذلك العهد إقامته بالاسكندرية وأرسل إليه انياسيوس بطريرك انطاكية هدية صحبة جماعة من الأساقفة ثم قدم عليه زائرا فتلقاه وسرّ جدا بقدومه وصارت أرض مصر في أيامه جميعها للمتأصلين لخلوها من الروم.

وثار اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور وراسلوا الباقين منهم وتواعدوا على الإيقاع بالمسيحيين وقتلهم فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود زهاء عشرين ألفا وهدموا كنائس النصارى خارج صور فتقوّى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود شر هزيمة وقتل منهم خلق كثير، وكان هرقل الملك قد خرج من قسطنطينية ليمهد الشام ومصر ويجدد ما خربه الفرس بعد تلك الحروب الهائلة فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم ثم دخل بيت المقدس وقد تلقاه المسيحيون بالصلبان والبخور والشموع المشعلة فوجد المدينة وكنائسها وقيامتها خرابا فساءه ذلك وتوجع له فأعلمه المسيحيون بماكان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالمسيحيين وتخريبهم الكنائس وأنهم كانوا أشد نكاية عليهم من الفرس وقاموا قياماً كبيرا في قتلهم عن آخرهم وحثوا هرقل على الوقيعة بهم وحسنوا له ذلك فاحتج بما كان من تأمينه لهم وحلفه فأفتاه القسوس بأن لا حرج عليه في ذلك فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بماكان منهم وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا المسيحيين كافة بصوم جمعة في كل سنة عنه على ممر الأزمان والدهور . فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء جدا حتى أبادهم جميعاً ولم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فرّ واختفى فكتب البطاركة والأساقفة إلى الآفاق بإلزام المسيحيين بصوم أسبوع في السنة فالتزموا بصومه إلى يومنا الذي نحن فيه وعرف عندهم بجمعة هرقل وتقدم هرقل بعد ذلك بعمارة الكنائس والديارات وأنفق عليها مالا جزيلاً حتى أعاد الكثير منها إلى ما كان عليه من الرونق والبهجة ثم مات حتف أنفه سنة تسع عشرة للهجرة أي سنة أربعين وستمائة للميلاد فكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة وهو آخر من ملك مصر من ملوك القسطنطينية وكان في أيامه فتح جيوش المسلمين لديار مصر كما سيأتي بيانه في محله إن شاء الله.

(خاتمة)

(في ملاحظات تتعلق بديار مصر في أيام هذه الدولة) (التي هي دولة الروم المسيحية) (وفيما كان سببا لسهولة فتحها على يدي عمرو بن العاص وخذله الروم)

اعلم أنه وإن كانت ديار مصر لم تنل فى أيام دولة الروم تمام حظها من الراحة والعمار والتمدن وذلك لتوالى المصائب وعدم استقرار الأمور على حال من الأحوال غير أنها قد نالت مزية أخرى وفائدة كبرى ألا وهى إنسلاخها من دين الجاهلية وتدينها بالدين المسيحى فعم جميع مدنها وقراها واشتهر من هذا العهد أهلها باسم القبط فكانت الديانة الرسمية فيها الديانة المسيحية وكانت ابتداء ذلك من اليوم الذى أصدر فيه الملك طيودوسيس الأول مراسيمه بوجوب اعتناق ذلك الدين وجعله الدين الرسمى كما تقدم الكلام فبقيت بها الحكومة مسيحية إلى السنة الثامنة عشرة من الهجرة أى سنة تسع وثلاثين وستمائة للميلاد عبارة عن مائتين وتسع وخمسين سنة وكانت مصر إلى هذا الحين معدودة من الأيالات التابعة لدولة الروم بمدينة القسطنطينية وكانت فى جميع هذه المدة محافظة على لغتها القديمة لا تتكلم إلا بها ولكنها أهملت طريقة الكتابة بالقلم البربائى واعتاضت عنه بالكتابة اليونانية على الطريقة المستعملة بمدينة الإسكندرية فكانت لغتها قبطية قديمة وطريقة كتابتها يونانية ولازالت على هذا الحال إلى يومنا هذا وقد تأخرت جداً إلى أن صار لايستعمل منها إلا العبارات الدينية عند المتأصلين من الآمة القبطية، قال بعض الكتاب: واعترى بعض ألفاظها تغيير يسير بحكم التلقى وبقى الباقى منها على ما كان عليه.

فلما انتشرت الديانة المسيحية واتسع نطاقها وعمتها الراحة واستتبت الطمأنينة حينا عادت فصارت علة للحروب والمنافسات وسبباً فى اشتداد الخطوب والمجادلات وتفاقم المحن الداخلية وميداناً للخلاف بين أساقفة القسطنطينية وأساقفة الإسكندرية إلى حدّ افترقت معه الفرق وخرجت بسبب الخوارج واعتزلت معه المعتزلة وصرفت

الأموال الطائلة من شيعة الأحزاب وأصحاب الحل والعقد، وكان لفريق الأساقفة فى هذا الحين غاية النفوذ والاعتبار فى الدولة فكان ملوك الروم يعضدونهم على أغراضهم ويقومون بتنفيذ سائر رغائبهم ويبالغون فى تعظيمهم وإجلالهم ويخضعون لهم الخضوع التام بصفة كونهم أمناء الدين وكانوا يجنحون إلى صاحب الشوكة والاعتبار منهم ويميلون إلى حزبه ويساعدونه على تأييده ونصره فنجم عن ذلك ضعف نفوذ الحكام وتعطيل سير الأحكام وعجزهم عن العمل إلا بمشورة أولئك القوم حتى أنهم كانوا إذا استقلوا برأيهم فى شيء وعملوا بما تقتضيه مصلحة البلاد والشعب مثلاً كان ذلك الطامة الكبرى على أولئك الحكام فيعزلون أو يقتلون أو يبعدون إلى أقصى البلاد ولم يزل الحال على هذا الوصف حتى قامت الغيرة الدينية والحمية المذهبية بين الفرق على اختلافها وانتصر لكل مذهب من تلك المذاهب ملك من الملوك فى أيام سلطانه وحقد على باقى المذاهب وخالفها وعمل على تذليلها أو محو آثارها فكانت الفتنة لا تكف إلا أياماً ثم تهب بأشد مما كانت عليه حتى افتتنت العائلات وحقد الأب على ولده والزوجة على زوجها والأخ على أخيه والابنة على أمها، هذا ما كان فى القسطنطينية وقد امتد عرقه إلى ديار مصر وسرى فى أهلها وأمناء الدين بها فاختلفت فيها أيضاً المذاهب وتشعبت المشارب وتفرقت الفرق وتحزبت الأحزاب وكان كل حزب منها له كمال النفوذ والسلطة على الحاكم السياسى فقامت من وراء ذلك الفتن وعمت الخطوب والإحن وأريقت الدماء هدراً فى الشوارع والأزقة لاسيما بمدينة الإسكندرية وليس ذلك بين أمناء الدين والمتجادلين من المسيحيين فقط بل بين اليهود والمسيحيين أيضاً لما بين الفريقين من البغضاء والشحناء الكامنة فى الصدور وتربص كل فريق منهم الفرص للإيقاع بالآخر، قال بعض الكتاب: وبلغت سلطة أمناء الدين ونفوذهم يومئذ إلى حد أن جماعة الأساقفة أو واحد منهم افتات على نائب مصر من قبل الروم وجمع جموعاً كثيرةً جدًا من رهبان دير البرّية فصاروا جيشاً ضخماً وسار بهم لقتال يهود الإسكندرية فهمّ النائب بمنع ذلك فلم يقدر إذ قام على أصحابه أولئك الرهبان وضربوا وجرحوا منهم خلقاً كثيراً وقبضوا على خدامه ففر هارباً ومن كان معه إلى مصر واستصرخ أهلها واستنصرهم فقاموا لنصرته وقبضوا على رئيس الفتنة فحوكم وحكم عليه بالجلد ومازالوا يجلدونه حتى قضوا عليه.

وقد عظم الهول فى ديار مصر واشتد عليها الكرب فى القرن الذى قبل الهجرة اشتداداً عظيماً رغماً عن كل ما بذله بعض ملوك الروم من العناية بمنع الشقاق

والخصام وتوحيد رابطة الدين فى جميع البلاد المشرقية حتى إنهم كانوا كلما شددوا فى ذلك زادت الشحناء وقويت حميتهم المذهبية وتزايد عنادهم وتفرقت كلمتهم لاسيما وقد كانوا لا يعترفون لملوك الروم بحق التعرض للأمور الدينية بوجه ما، قال بعض الكتاب: وقد بلغ التعصب إلى حد أن فرقة المتأصلين بكنيسة الإسكندرية تفرقت إلى عشر مذاهب مختلفة كان يسميها الملكيون قسوس الهراطقة كما كان المتأصلون يسمون أيضا الملكيين هراطقة ومعناها خوارج وكان القسيسون العشرة المذكورون فى كنيسة الإسكندرية فى أيام الملك زينون قيصر فلما علم بأمرهم وما هم عليه من الخلاف غضب وزاد المال المقرر على مصر فبلغ خمسمائة رطل ذهب فلما ملك انسطاش قيصر بعد زينون نظم دفتر العوائد تنظيماً حتى أكثر الإيراد كثرة بالغة واشتدّت وطأة هذه العوائد على أهل البلاد فأصبحوا فى قلق دائم وكمد ملازم ثم نهضوا إلى شق عصا الطاعة فاشتدت نار الفتنة وحدث من الحوادث ذات الشأن ما لا يكاد يسمع بنظيره فى غابر الزمان فعمت بذلك الفوضوية وتوالى قيام الأهالى فى الأزقة والحارات وكثر الخوف بقطع الطرقات وتتابع الحريق والتخريب ونتج من ذلك كله ما ترتب على حصول الفتن الداخلية من البلايا والرزايا والخراب ودرس معالم العمران والمدنية وما هذا إلا لاختلاف المذاهب وتفرق الشيع وتحزب الأحزاب وتعصب ولاة الأمور لفريق دون الآخر وقد اجتمعت كلمة أصحاب التاريخ على أنه لم يدب عرق هذا الفساد فى ديار مصر إلا بعد أن فتحها ملوك القسطنطينية حيث كثر فيها الخلل وعمت القلاقل وفشا فيها الانهماك على الكبائر من الأعيان والأكابر والعربدة من الجنود والأصاغر ولم يكن لديها باعث آخر لإثارة نار هذه الفتن غير ما أوجبه الدين فكان هذا من أسباب فتوح الإسلام للبلاد ودخولها فى دور آخر غريب لم يكن لعامتها فى حساب وفى خلال هذه الخطوب المهمة والكروب المدلهمة وطئ العرب أرض الشام وطرقوها وقصد المغاربة ديار مصر وكادوا يحتلونها فقام عليهم عامل الروم ودهمهم بالعساكر المصرية وأبعدهم فكانوا يعاودون الكرة عليها حيناً بعد حين ولا ينفكون عنها طمعاً فيما باتت فيه من الضعف وتفريق الكلمة.

ولما اشتدت المنازعات الدينية وعلا لهيبها بين فريقى المتأصلين والملكية وطالت أيام الفتنة وضاق خناق أهل البلاد وأعيتهم الحيل من الأخذ والرد نهضوا إلى الاستنجاد بالعرب على التخلص من الروم كما استنجد شاور وزير العاضد العلوى على الترك بالروم فحببوا إلى المقوقس عظيمهم أن يراسل صاحب الشريعة الإسلامية ويخاطبه فى الأمر ففعل وبقى السر مكتوماً لا يعلم به أحد حتى استخلف عمر بن

الخطاب فكان من قدوم العرب إلى مصر ونزولهم على بلادها ومعاونة القبط لهم على قتال الروم وتمهيدهم السبل والعقبات أمام جيوش المسلمين وإمدادهم بالمال والميرة وجميع الاحتياجات الجندية ما سيذكر فى محله.

وكان آخر ملوك القسطنطينية على ديار مصر قبل الفتح الإسلامى الملك هرقل وكان نائبه عليها المقوقس عظيم القبط فكان عدد ملوك القسطنطينية خمسة عشر ملكاً أولهم طيودوسيس وآخرهم هرقل المذكور وكانت مدة ملكهم مائتين وتسعا وخمسين سنة كما رواه أكثر أهل التاريخ.

□□□

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

مبتدئاً بفذلكة من تاريخ العرب فى الجاهلية إلى ظهور صاحب الشريعة الإسلامية. ثم تاريخهم فى الإسلام إلى مجيء السلطان سليم بجيوشه وأخذه البلاد عنوة ولبسه شعار الخلافة فى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية

والله سبحانه المستعان.